تاريخ الحروب الصليبية

الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس

الجزء الثالث

نقله إلى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني

تاريخ الحروب الصليبية

تاريخ الحروب الصليبية

ستيفن رنسيمان

تاريخ الحروب الصليبية

٣

الحرب الاولى وقيام مملكة بيت المقدس

نقله الى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني

استاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبـعة الثالثة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مقدمة

هذا هو المجلد الثالث والأخير من تاريخ الحروب الصليبية الذي ألفه ستيفن رنسيمان ونقلته الى اللغة العربية ، فصدرت ترجمة المجلد الاول سنة ١٩٦٧، والمجلد الثاني سنة ١٩٦٨ . ويتناول هذا المجلد دراسة الحركة الصليبية منذ وقعة حطين سنة ١١٨٧ الى ان تداعت في القرن الخامس عشر الميلادي. والواقع ان معركة حطين تعتبر نقطة تحوّل في تاريخ الحروب الصليبية ، فالمعروف ان الفرنج استطاعوا في المائة سنة الاولى من هذه الحركة ، ان يقيموا لهم إمارات في الشرق الأدنى ، وحرصوا على ان يجعلوا لها من نظم الحكم والقضاء والجيش والمالية والإدارة، ما اعتقدوا انها تهيء لهم الاستقرار. فما عقدوه من معاهدات مع المدن الايطالية ، وما اجروه من علاقات مع البابوية والدول الاوربية ، لم يقصد منها سوى توطيد سلطانهم في الشرق الادنى. على ان كل هذه الاجراءات حملت في طياتها بذور التداعي والانهيار، إذ ان ما حققه الفرنج من أهداف بإقامة إمارات لهم في الشرق الادنى ، لم يرجع فحسب الى قوتهم وتوالى الامداد والهجرات ، بل يعود أيضاً الى ما أصاب العالم الاسلامي في مستهل الحروب الصليبية من شقاق ونزاع. فما حدث من العداء بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، وما جرى من انقسام الشام بين امرات متنازعة، وما كان من تفكك وتداعي السلطنة السلجوقية ، كل ذلك هيأ للصليبيين الفرصة لتحقيق مآربهم في الشرق الادنى . على ان المسلمين لم يلبثوا ان ادركوا الخطر الصليبي ، إذ انه منذ مطلع القرن الثاني عشر

الميلادي ، ظهرت نتائج عزمهم ومقاومتهم ، بما حدث من إلحاق الهزيمة ببوهمند امير انطاكية وأسره، وتدمير الحملة الصليبية التي قدمت سنة ١١٠١ ، وتبع ذلك انبعاث حركة الجهاد الديني التي دعا اليها الخليفة العباسي في بغداد، وتوالى على تنفيذها أتابكة الموصل وحلب، أمثال مودود، وابلغازي، وعماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، فتحقق لهم توحيد الجبهة الاسلامية ، فزالت الخلافة الفاطمية ، وخضع للأسرة الزنكية البلاد الممتدة من اقليم الجزيرة ، الى مصر ، واشتد التضييق على الفرنج . وإذ استقر صلاح الدين وأسرته في حكم مصر ، حرص على المحافظة على التقاليد الزنكية ، فلم يشأ مهاجمة الصليبيين إلا بعد ان أعاد الوحدة الى دولة نور الدين ، التي كادت تتفكك بعد وفاته ، فأفاد من جهود الزعماء المسلمين السابقين ، ومن الولاء للخلافة العباسية ، ومن إدراكه لما دبّ من عوامل الضعف عند الفرنج، ومن توطيد علاقاته بالقوى المسيحية المناوءة للفرنج في الشرق الادنى ، كالدولة البيزنطية والمدن الايطالية ، كل ذلك هيأ له سبيل النصر في معركة حطين ، التي قررت مصير الفرنج في هذه المنطقة .

وما جرى بعد حطين من الحروب الصليبية ، يقع في مرحلتين ، تنتهي المرحلة الأولى سنة ١٢٩١ ، بسقوط عكا التي كانت عاصمة مملكة بيت المقدس الثانية ، بينما امتدت المرحلة الثانية ، التي تعالج الحملات الصليبية المتأخرة ، الى القرن الخامس عشر .

أفرد رنسيمان للمرحلة الأولى معظم الكتاب ، ولم يخص الحملات المتأخرة إلا بفصل واحد في خاتمة الكتاب ، فشملت المرحلة الاولى ، الحملة الصليبية الثالثة ، وما اطلق عليه رنسيمان الحملات المنحرفة التي تمثلت في الحملات الرابعة والخامسة والسادسة ، وما كان للمغول والمماليك من اهمية في مصير الشرق الفرنجي ، الذي اختفى بسقوط عكا سنة ١٢٩١ ، وحرص المؤلف على ان يجعل للحضارة نصيباً في كتابه القيّم، فاستعرض ما كان للتجارة والفنون والحياة العقلية من أهمية عند الفرنج بالشرق الأدنى .

وما اقامه الفرنج من امارات ، وما نعموا به من الرخاء ، وما توافر لهم من اسباب الدعة ، وما جرى من النشاط التجاري ، كل ذلك تعرّض للانهيار في معركة حطين ، فلم يبق لهم الا انطاكية وطرابلس وصور ، وذلك بفضل اسطول صقلية ، وانصراف صلاح الدين الى الاستيلاء على معـــاقل الفرنج الداخلية ، مما دعا المؤرخين الى ان يلقوا على صلاح الدين مسؤولية الابقاء على صور. التي اضحت معقل اللاجئين ، وما اتسمت به الحملة الصليبية الثالثة من الصفة العلمانية ، وضخامة حجمها ، اذ لم يتوجه بعدهـا الى الشرق حملة في هذه الكثرة العددية ، فضلاً عن اتحاد اوروبا واشتراكها فيها ، كل ذلك لم يؤد الا الى نتائج ضئيلة ، وما حققته من اهداف لم يتجاوز الاستيلاء على المدن الساحلية من عكا حتى يافا ، وانتزاع جزيرة قبرص من سيدها المسيحي (البيزنطي) ، والمحافظة على انطاكية وطرابلس وبعض الحصون التي حازها الداوية والاسبتارية . وما نشب من مشاكل بين الامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس وبين فردريك بربروسه انطوت على جراثيم الحملة الصليبية الرابعة ، وما حدث بين رتشرد وصلاح الدين من مفاوضات ، حوت ايضاً بذور الحملة الصليبية السادسة ، وترتب على اجتماع الامم في حملة عامـــة ، ان ازدادت المنافسات القومية ، وبرزت الاختلافات الوطنية . على أنـه من جهة اخرى حدث في هذه الحملة من العلاقات الودية ما لم يحدث اثناء حملة صليبية اخرى . غير ان اقوى ما أسفرت عنه الحملة الصليبية الثالثة ، هو ما حدث من ان الحركة الصليبية أفلتت من يـــد البابوية ، وأضحت داخلة في نطاق الدولة الدنيوية، إذ تتولى الحكومة تنظيمها على اساس ما وضعته من نظام للضرائب، وتقوم الدولة بتوجيهها وفقاً لما اتخذته من طريق المفـاوضات ، ويعتبر ذلك من أهم التغييرات ، فلم تستطع عبقرية البابا انوسنت الثالث ان تنقض ما تم ابرامه ، بل حدث عكس ذلك . فمـا وقع ظلّ جارياً ، وسوف تتخـــذ الدولة اسم الحرب الصليبية لتخفي ما لها من اغراض ومطامع دنيوية، وتعمل تحت هذا الغطاء على تحقيقها .

على ان مملكة بيت المقدس في عكا لم يبق عليها لمدة قرن آخر من الزمان، سوى ما تعرضت له الدولة الايوبية من الانهيار ، وتهديد المغول والخوارزمية لأطراف الدولة ، وتوالى قدوم الامداد من الغرب برغم ضآلتها .

لما مات صلاح الدين سنة ١١٩٣ ، تمزّقت الوحدة التي أقامها بفضل قوة شخصيته وسلطانه ، فاستقلت كل الأقـاليم باستثناء الكرك ، فأصاب سوريا من الانقسام والتفكك ما اتصفت به زمن السلاجقـة . ومـــا حدث من الاضطرابات التي اثارتهـا المنازعات والخصومات في البيت الايوبي ، وأطماع بعض أفراده ، وحرص اميريّ حلب ودمشق على المحافظة على استقلالهما ، وشدّة حذرهما من اطماع اميريّ مصر والجزيرة ، كل ذلك جعل هذه المرحلة التي امتــدت الى نهـــاية زمن الأيوبيين في مصر والشام ، تطفح بالفوضى والاضطراب .

والواقع انه لم يبقَ على سلطان الأيوبيين في هذه المرحلة ، إلا ما اتصفت به هــذه الاسرة اصلاً من الترابط ، الذي زاده قوة وصلابة مــا حدث من مصاهرات بين أفراد الاسرة ، وما كان للادارة المدنية ، وما اتسمت به من الروح الدينية ، من تأثير قوي بفضل تمسكها بتقاليد نور الدين وصلاح الدين. ومن عوامل الاستقرار ايضاً ما كان يحدث في كل جيل من الأجيال من ظهور زعيم قوي في الاسرة الأيوبية ، يفرض سلطانه على سائر الأمراء ، برغم مـا كان يتعرض له في بعض الاحوال من مقاومة عنيفة .

ففي الجيل الاول كان العادل شقيق صلاح الدين هو المسؤول عن المحافظة على كيان الأيوبيين ، إذ كان اعظم مستشاري صلاح الدين وأقوى افراد الاسرة وأكثرهم كفاية وأشدّهم دراية بأحوال الامارات الداخلية ، نظراً لأنه تولى في أزمنة مختلفة حكم حلب ومصر والكرك والجزيرة ، واستطاع العادل آخر الامر ان يفيد من المنازعات التي نشبت بين أبناء صلاح الدين والأمراء الأيوبيين ، ويفرض نفسه سلطاناً اعترف بـه سائر الأمراء الأيوبيين ، وأن يعيد الوحدة للدولة الأيوبية، فعهد بإدارة أقاليمها الى أبنائه . وتصدّر الجيل

الثاني الكامل بن العادل ، وفي الجيل الاخير للدولة كان الصالح ايوب حريصاً على وحدة الدولة وسلامة أراضيها .

الواقع انه لم يكن ثمة من الاسباب والدواعي مــــا يدعو الى الصدام بين المسلمين والفرنج في الشرق الأدنى في الفترة التي تلت وفـاة صلاح الدين ، واغتيـال كنراد مونتفيرات ، إذ انصرف الأمراء الأيوبيون الى منازعاتهم الداخلية ، وأفـاد الملوك الذين تعاقبوا على ولاية حكومة بيت المقـدس بعكا من هـذه المنازعات ، ونزوع الأمراء المسلمين الى الهدوء والسكينة في توطيد سلطانهم . ففي زمن السلطان العـادل ، انعقدت الهدنات بين المسلمين والفرنج في السنوات : ١١٩٨ – ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ – ١٢١٠ ، ١٢١١ – ١٢١٧ ، كما حرص البنادقة والبيازنة على الحصول على امتيازات تجارية من الأمراء الأيوبيين في مصر والشام . ومــــا تكرّر من صدور أوامر البـابا انوسنت الثالث بمنع التجارة مع المسلمين ، يدلّ على ان هذه التجارة لم تتوقف بتاتاً .

وبينما ساد السلام على هـذا النحو في الأراضي المقدسة ، صرف الصليبيين الى جهات اخرى ، ما حدث من تغيير في الحركة الصليبية ، إذ ان البواعث الاقتصادية والسياسية والشخصية لم تلبث ان تحكمت فيما يعرف بالحمــــلات المنحرفة ، فيعتبر تاريخ الحملة الصليبية الرابعة تاريخاً لتسلط النزعة العلمانية ، ومحاولة البابوية التخلص من تلك السيطرة ، ومواصلة ما اشتهرت به من قبل من توجيه الحملات الصليبية ، وما حاق بهذه المحاولة من الفشل الذريـع .

كان يمثل الحافز الدنيوي هـنري السادس اكبر وأعظم رجال السياسة في زمنه ، بـل يعتبر في نواحي عديدة اعظم امبراطور منذ شارلمان . ومع ان هنري كان حريصاً على مواصلة الحملة الصليبية التي توقفت بسبب وفاة والده ، فإنــــه باعتباره خليفة فردريك بربروسة ووريث الملوك النرمنديين في صقلية الذين دأبو المرة بعد المرة على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية ، كان يود تسوية حسابه مع اباطرة القسطنطينية ، وبذا اقترن مشروع الحمـلة الصليبية بمهاجمـــة القسطنطينية . فأرسل هنري السادس الى الامبراطور البيزنطي ،

اسحاق انجيلوس يطلب منه التعويض عن الخسائر التي لحقت أباه فردريك أثناء اجتيازه الاراضي البيزنطية ، والتنازل عما كان لبيزنطة من ممتلكات في ايطاليا ثم استولى عليها النرمان ، واعداد اسطول للمعاونة في حرب صليبية. ولكن حدث ان جرت الإطاحة بإسحاق من العرش ، وتمت مصاهرة بين البيت الملكي في المانيا والبيت الامبراطوري في بيزنطة ، بزواج فيليب السوابي من اميرة بيزنطية ، وبذا اضحى لهنري ما يبرر تدخله في شؤون بيزنطة . ومع ان هنري مات سنة ١١٩٧ ، فإنه كان للألمان بعض النفوذ في الاراضي المقدسة ، وتألفت طائفة الفرسان التيوتون ، وحاز الألمان بعض المدن والقلاع.

وتهيأت الفرصة لأنوسنت الثالث لأن يحقق ما كان يصبو اليه من اغراض ، بأن يحرص على سمو سلطة البابوية ، واعتبار ملوك بيت المقدس أتباعاً له ، والتحكم في توجيه الحرب المقدسة ، ومع انه جرى الاتفاق على ان تكون مصر هي هدف الحملة ، نظراً لما لها من أهمية استراتيجية وتجارية فضلاً عن الحرص على المحافظة على الهدنة في الشام ، فإن الاغراض السياسية لم تلبث ان تغلبت ، ووجهت الحملة لمهاجمة القسطنطينية ، ومن هذه الاسباب السياسية كراهية الغرب لبيزنطة نظراً لاصرارها على حيازة كل ما يستولي عليه الصليبيون من ممتلكات في الشرق الادنى ، باعتبارها من الاقاليم التي فقدتها ، يضاف الى ذلك مسؤولية بيزنطة عن فشل الحملات الصليبية السابقة ، أما السبب الثاني فيتعلق بالبندقية وما تحمله من ضغينة لبيزنطة ، وإلحاحها في زيادة ما حصلت عليه من امتيازات تجارية ، وإنكارها لما اقدم الامبراطور الكسيوس الثالث من انتقاص هذه الامتيازات ، ولما حدث من تدمير حي البنادقة بالقسطنطينية . ولعل من أهم الاسباب التي أدت الى تحول الحملة الى القسطنطينية ، هو ما بيّته النرمان لبيزنطة من ثأر قديم ، ازداد حدة بعد استيلاء النرمان على الثغور اليونانية في جنوب ايطاليا. وإذ تعتبر اسرة الهوهنشتاوفن وريثة للملوك النرمان ، أعدّ هنري السادس حملته الصليبية لمهاجمة القسطنطينية ، هذه السياسة كانت الفرصة الوحيدة

لتحول الحملة وانحرافها ولا سيما بعد ان اشتبك فيليب دوق سوابيا في نضال مع البابوية . ولم تلبث البابوية ان أقرت الأمر الواقع بعد ان راودها الأمل في خضوع المنشقين ، وفي اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، وفي مساعدة بيزنطة للحركة الصليبية ، على ان البندقية كانت اكثر ما افاد من سقوط القسطنطينية بما حازته من نصيب كبير في المدينة والممتلكات البيزنطية . أما الامبراطورية اللاتينية التي قامت سنة ١٢٠٤ فاستنزفت نشاط المغامرين الاقوياء الذين قدموا من الغرب لمساعدتها ، بينما هلكت الارض المقدسة جوعاً ، كما توفر الغذاء لأرض أقل قداسة وأكثر شراهة للرجال ، فلن يجد البابا في الامبراطورية اللاتينية في الشرق أساساً للحرب الصليبية ، ولذا اضطر سنة ١٢٠٨ الى ان يفكر من جديد في اعداد حملة تسير مباشرة من الغرب الى الشرق .

الواقع ان ما اشتهرت به الحروب الصليبية من حماس وصيت اختفى بما جرى من تحوُّل الحملة الصليبية الرابعة ، برغم ما اقترنت به حملات لويس التاسع فيما بعد من روح دينية . وقد ادرك البابا انوسنت الثالث هذه الحقيقة ، برغم اصراره على توجيه حملة جديدة الى مصر ، فلم يكن سلوك رجال الدين فوق الشبهات ، ولم تكن اخلاقهم لتؤدي الى احسن النتائج ، نظراً لما ساد بينهم من الأحقاد ، والتماس السبيل للوصول الى المناصب التي تهيىء لهم حياة ناعمة . يضاف الى ذلك ضعف الروح الدينية ، فان من الذين وعدوا بالاشتراك في الحروب الصليبية ، من نقض عهده ، ومنهم من اتخذ الصليب في نوبة حماس طارئة ، ومنهم من لم يقصد بذلك سوى الشهرة او الحصول على امتيازات ، كأن يؤجل تسديد ما عليه من ديون ، او يتخلص من ارباحها ، او يعفى من الضرائب المحلية ، او الالتزامات الاقطاعية ، او يظفر بحق جباية الاموال مقابل رهن اقطاعاتهم . ولم يكن الاغنياء راغبين في أن يشتركوا بأشخاصهم في الحرب الصليبية ، بل انهم لم يفكروا في ان يعدّوا من يحل مكانهم . كما ان ما للمدن الايطالية من مصالح ونزعة تجارية كانت اقوى من عاطفتها الدينية .

ولقيت الروح الحربية في الغرب منفذاً جديداً فيا أضحى سائداً وقتذاك من منازلات الفروسية ، وما ساد من عداوات وحروب اهلية هيأت للفارس المغامر الطموح مجالاً سهلاً ليارس فيه القتال ويشبع رغبته .

والواقع ان ايام الحروب الصليبية قد ولّت ، إذ كانت الحملات التالية تعتبر فشلاً ذريعاً برغم ما اصابته من بعض النجاح .

لم يؤد سقوط عكا بأيدي المسلمين الى اثارة دول اوربا للقيام بأي مجهود حربي جديد ، إذ ان فرنسا التي تعتبر الموطن الطبيعي للحروب الصليبية ، بلغ من شدة انصرافها الى الحروب مع انجلترا ، ثم النضال مع البابوية ، انها لم تستطع توجيه جهودها نحو الشرق . لم تكن البابوية وحدها مسئولة عن انهيار الحروب الصليبية لاتخاذها الحرب الصليبية لتحقيق مصالحها الخاصة ومناوءة خصومها . إذ أن امراء اوروبا يعتبرون ايضاً مسؤولين عما أصاب الحركة الصليبية من الفشل، لأنهم اتخذوها وسيلة للحصول على اغراض دنيوية، وبذا اسهموا في اخماد الحماس الديني ، الذي اشتهرت به الحرب المقدسة .

وحملت المصالح التجارية المدن الايطالية الى اشتداد التنافس بينها ، ووقوع المنازعات المريرة في الشرق التي أدّت الى وقوع معارك حربية وبحرية ، والتسابق لعقد معاهدات تجارية مع الأمراء المسلمين في مصر والشام .

يضاف الى ذلك ما وقع من نزاع بين الطوائف الدينية العسكرية ، وما درجت عليه من اتخاذ سياسة تتصف بالأنانية لتحقيق مآربها .

أشار رنسيان في خلاصته الى ما أصاب الحركة الصليبية من ضعف الادراك وتضاؤل الشرف ، واشتداد التعصب ، فلم تعد الحرب المقدسة اكثر من اجراء طويل من التعصب باسم الله .

الواقع ان الحركة الصليبية التي امتدت منذ اواخر القرن الحادي عشر الى أواسط القرن الخامس عشر ، اشتد تأثيرها في اوروبا والعالم العربي فضلاً عن الشرق الأقصى ، وما دأب عليه رنسيان من تتبع ما حدث من تطورات

في هذه الأرجاء الشاسعة في هذه الفترة الطويلة ، من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي تتصل من قريب او بعيد بالحركة الصليبية ، وحرصه على أن يعرضها في اسلوب شيّق رائع ، هيأ لدارس تاريخ هذه المرحلة الفرصة لأن يدرك ما للعلاقات بين الشرق والغرب من اهمية ، وأثار من القضايا والمسائل ما يدعو المؤرخين في الشرق والغرب الى التعاون في استجلاء ما جرى إغفاله ، ولا سيا ما يتعلق بالنظم المختلفة ، والأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

حرص رنسيمان على ان يضيف الى الكتاب ملحقين ، احدهما عن المصادر الاساسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة ، والآخر عن الحياه العقلية في الشرق . على انني استكمالاً لجهد المؤلف ، افدت مما اورده عن أنساب الأسرات الحاكمة فجعلت منها ملحقاً ثالثاً ، بينما شمل الملحق الرابع أسماء ملوك وأمراء الاسرات الحاكمه والأباطرة البيزنطيين والبابوات ، وأمراء الفرنج ، والأمراء المسلمين والمغول والأرمن ، ومقدمي الطوائف الدينية العسكرية .

وإذ أورد المؤلف في مواضع عديدة اسماء المدن والمواقع كما جاءت في الكتب المقدسة والمصادر الأساسية ، حاولت ان اثبت ما يقابلها من الأسماء العربية ، وحرصت على أن اجعل في الحواشي من النصوص الواردة في المصادر العربية ما يشرح بالدقة ما جاء في المتن من عبارات .

وأود قبل ان اختتم هذه المقدمة ان ازجي الشكر الى دار الثقافة ببيروت لما بذلته من جهد كبير في اصدار هذه الترجمة لكتاب تاريخ الحروب الصليبية ، ولا بد من التنويه بما بذله القائمون على مطبعة دار النجوى من عناية مشكورة .

والله ولي التوفيق

بيروت : ١٩٦٩ — السيد الباز العريني

١٣٨٩

تصدير

المقصود من هذا المجلد، ان يعالج تاريخ الشرق الفرنجي والحروب الصليبية منذ إحياء مملكة الفرنج زمن الحرب الصليبية الثالثة حتى انهيارها بعد ان مضى على إحيائها قرن من الزمان، فضلاً عن خاتمة عن الظواهر الاخيرة للروح الصليبية . والواقع ان الكتاب يعرض قصة تشابكت فيها أغراضها العديدة، فما أصاب الشرق الفرنجي من انهيار اقترن بمآسٍ بالغة التعقيد برغم قلتها ، واعترضته من حين الى آخر حروب صليبية ضخمة انتهت جميعها، بعد الحرب الصليبية الثالثة ، بالانحراف عن وجهتها الاصلية ، او بما حلّ بها من كارثة . ففي اوربا ، ومع انه أضحى من الامور المعروفة ان كل امير قوي لم يبذل للحركة الصليبية مساعدة صادقة، بل ان ما اشتهر به القديس لويس من تقوى متأججة لم يوقف انهيار الحركة الصليبية ، كان العداء المتزايد بين العالمين المسيحيين في الشرق والغرب قد بلغ الذروة في أعظم مأساة وقعت في العصور الوسطى ، وهي تدمير المدينة البيزنطية باسم المسيح . اما العالم الاسلامي فان ما جرى فيه من باعث متصل للجهاد أدّى الى ان يحلّ مكان الايوبيين المعروفين بالرحمة والتهذيب ، المماليك الذين يفوقونهم في الكفاية ، ويقصرون عنهم في الشفقة، والذين كان لزاماً على سلاطينهم ان يستأصلوا شأفة الفرنج من سوريا. يضاف الى ذلك ما حدث آخر الامر من الانبثاق المطلق للمغول الذين تراءى

اول الامر انهم لم يقدموا إلا لتخليص العالم المسيحي في الشرق، غير ان نفوذهم لم ينجم عنه آخر الامر سوى التدمير والتخريب، نظراً لما اتصف به حلفاؤهم من الملوك والأمراء من قصور في التصرف والإدراك . فأضحت القصة بأكملها خليطاً من الإيمان الحماقة ، ومن الشجاعة والنهم ، والأمل والخداع .

ضمنت هذا المجلد فصولاً موجزة عن التجارة والفنون في الشرق الفرنجي . والواضح ان هذه المعالجة اقتضتها الضرورة، إذ لا يصح انتزاع تاريخ التجارة والفنون من التاريخ العام لتجارة ومدنية العصور الوسطى . ولذا حاولت ان ألتزم منه بالحدود التي لها صلة وثيقة بدراسة الشرق الفرنجي .

فالمعروف ان تاريخ الحروب الصليبية موضوع ضخم ، ليست له حدود معينة ، وما جريت عليه من معالجة لهذا الموضوع ، ليست سوى ما اخترته لنفسي من خطة. فإذا أدرك القراء خطأ ما بذلته من تأكيد لمظاهره المختلفة، فلا أدافع عن ذلك إلا بأن للمؤلف ان يختار لنفسه الطريقة التي يضع بها كتابه. يضاف الى ذلك ما يتهيأ للنقاد من ان يجأروا بالشكوى من ان المؤلف لم يصنف الكتاب الذي كانوا يأملون ان يكتبوه لو تناولوا موضوع الكتاب. على انني آمل ألا اكون اغفلت كل ما يعتبر جوهرياً لفهمه وإدراكه .

وما أدين به من افضال كبيرة لعلماء كثيرين ، الأموات منهم والأحياء ، تظهر جلية، فيما اعتقد، في حواشي الكتاب. فما وضعه السير جورج هيل من مؤلف ضخم عن تاريخ جزيرة قبرص، وما ألفه الاستاذ عطيه من تاريخ مسهب عن الحروب الصليبية المتأخرة، يعتبران جوهريين لدراسة هذه الفترة، وينبغي على الدارسين ان يبذلوا دائماً الشكر والعرفان للاستاذ كلود كاهن ، لما حوته مؤلفاته من معلومات بالغة القيمة والثقة . على انني ينبغي ان اذكر بالأسى والحزن وفاة الاستاذ جروسيه ، فيما اشتهر به من بصيرة نافذة ، وما اتصفت

به كتابته من الحيوية ، أسهمت الى حد كبير في استجلاء ما ساد من سياسات في الشرق الفرنجي ، وأصول السياسة الاسيوية . واستندت الى حد كبير الى دراسة المؤرخين الامريكيين ، أمثـال المرحوم لامونت ، و ب. ا. ثروب .

وينبغي ايضاً ان اشكر اصدقائي في الشرق الأدنى ، الذين بذلوا لي كل مساعدة اثناء رحلاتي بـه ، وأخص بالشكر شركة بترول العراق ، وكذا الاوصياء على مطبعة جامعة كمبردج لما اولوني به من عطف .

ستيفن رنسيان

لندن : ١٩٥٤ .

الكتاب الاول

الحرب الصليبية الثالثة

الفصل الاول

يقظة ضمير الغرب

ما أسرع ما ينتقل النبأ السيء . فما كاد القتال ينتهي في معركة حطين ، وتتحقق خسارة الفرنج لها ، حتى هرعت الرسل صوب الغرب لينهوا خبرها الى أمراء اوربا ، ولم يلبث رسل آخرون أن اقتفوا أثرهم ، ينبئون بسقوط بيت المقدس ، وذعر العالم المسيحي في الغرب لما علمه عن الكارثتين . فما من أحد في الغرب ، باستثناء المجلس البابوي فيما يبدو ، كان يفطن الى إلحاح الخطر ، على الرغم من الاستغاثات التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السنوات الأخيرة . إذ أن الفرسان والحجاج الذين ارتحلوا نحو الشرق صادفوا في إمارات الفرنج من الحيـــاة ما تفوق في الأبهة والمرح ، ما لم تعرفه حياتهم في أوطانهم بالغرب . سمعوا الحكايات عن البسالة العسكرية ، وشهدوا ما أصاب التجارة من ازدهار ، ولم يدركوا ما يتعرض له كل هذا الرخاء من خطر . على أنه حدث فجأة أن سمعوا أن كل ذلك قـــد زال ، إذ تحطم الجيش المسيحي ، وأضحى صليب الصلبوت ، الذي يعتبر أقدس المخلفات الدينية ، في أيدي المسلمين ، بل إن

بيت المقدس ذاتها أخذها المسلمون ، وفي خلال بضعة شهور انهار كل البناء الذى أقامه الفرنج في الشرق ، فإذا كان لشيء أن ينجو من هذه الخرائب ، فلا بدّ من إرسال نجدة ، والتعجيل بإنفاذها .

على أن اللاجئين الذين بقوا على قيد الحياة بعد الكارثة ، احتشدوا سوياً خلف أسوار صور ، وأبقى على شجاعتهم ما اشتهر به كنراد مونتفيرات من نشاط لا يكلّ ولا يرحم . والواقع أنه لم ينقذ مدينة صور من التسليم إلا ما واتاها من حظ طيب بقدومه اليها ؛ وكل من أفلت من قبضة صلاح الدين من السادة ، أخذوا ينحازون اليه بها الواحد بعد الآخر ، وقبلوا عن طيب خاطر قيادته وزعامته . على أنهم جميعاً أدركوا أنه ما لم تصلهم مساعدة من الغرب ، تضاءلت الفرص للابقاء على صور في أيديهم ، وضاعت كل فرصة لاسترداد البلاد التي فقدوها . وفي فترة الهدوء التي أعقبت اول هجوم شنّه صلاح الدين على صور ، عند مضيّه للاستيلاء على شمال الشام ، أنفذ السادة الذين حلّوا بصور أشد رفاقهم ورعاً ، وهو جوسياس رئيس اساقفة صور ليخطر البابا وملوك الغرب بأشخاصهم ان الحاجة ماسة الى مساعدتهم . وحوالي ذلك الوقت كتب من بقي على قيد الحياة من الفرسان الرهبان الى اخوانهم في الغرب هذه القصة المثيرة (١) .

---

(١) انظر ، عن رحلة جوسياس Ernoul, pp. 247 - 248 .
اما تقرير تيرنيس ، من الداوية ، الى اخوانه في الغرب ، فانه اورده :
Benedict of Petersborough, II, pp. 13 - 14 .
وأثبت تقرير الاسبتارية Ansbert, Expeditio Friderici. pp. 2 - 4 .
وكتب تيرنيس ايضاً الى هنري الثاني ملك انجلترا ، انظر :
Benedict of Petersborough. II. pp. 40 - 41 .

سفارة جوسياس ، رئيس اساقفة صور ، الى الغرب سنة ١١٨٧ :

أبحر رئيس الأساقفة من صور في اواخر صيف سنة ١١٨٧ ، وبلـغ بلاط وليم الثاني ملك صقلية بعد رحلة سريعة ، فألفى الملك شديد الأسى لما بلغه من شائعات عن الكارثة . فلما علم وليم الثاني بتفاصيلها كاملة ، ارتدى ثوباً من الخيش ، والتمس مكاناً اعتزل فيه لمدة اربعة ايام . ثم كتب الى رفاقه الملوك يحثهم على أن يشتركوا في حرب صليبية ، بينما تجهّز لأن يوجّه ، في اسرع ما يتهيأ له الوقت ، حملة الى الشرق ، إذ كان فعلاً قد اشتبك مع بيزنطة في قتال ، ذلك أن عساكره حاولوا سنة ١١٨٥ أن يستولوا على سالونيك ، غير أنه حاقت بهم هزيمة ساحقة ، ولكن اسطوله ما زال يتحرك في مياه جزيرة قبرص ، يبذل لمغتصبها اسحاق كومنينوس المساعدة في تمرده على الامبراطور اسحاق انجيلوس . فعجّل وليم الثـاني بعقد الصلح مع الامبراطور البيزنطي ، وتقرر استدعاء امير البحر الصقلي ، مرجريتوس البرنديزي للعودة الى البلاد ، لتجهيز سفنه ، التي أبحرت الى طرابلس تقل ثلثمائة فارس . وفي تلك الاثناء اتخذ جوسياس رئيس اساقفة صور طريقه الى روما ترافقه بعثة من صقلية [١] .

وأدرك القوم في روما ما تنطوي عليه أنباء جوسياس من خطورة ، لأن الجنويين سبق ان ارسلوا فعلاً تقريراً الى المجلس البابوي [٢] . ولكن البابا الهرم ، اربان الثالث كان وقتذاك مريضاً ، وكانت الصدمة شديدة

---

(١) انظر : Ernoul, loc. cit.

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 11 - 13.

عليه ، فمات كمداً في ٢٠ اكتوبر سنة ١١٨٧ (١) . على أن جريجوري الثامن الذي خلفه في البابوية بادر على الفور الى ارسال كتاب دوري الى جميع المؤمنين بالغرب ، أورد فيه القصة الخطيرة عن ضياع الارض المقدسة وصليب الصلبوت . وحرص على ان يذكّر الذين يقرأون كتابه ، بأن ما حدث منذ اربعين سنة كان نذيراً بذلك . أضحت الحاجة ماسّة الى بذل جهود ضخمة . فليكفر كل انسان عن خطاياه ، وليدخر لنفسه كنزاً في السماء بأن يتخذ الصليب ، ووعد جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب ، فينبغي ان ينعموا بالحياة الأبدية في السماء ، بينما تصير امتعتهم الدنيا في حماية المقر المقدس . واختتم كتابه بالدعوة الى الصيام كل يوم جمعة ، لمدة خمس سنوات ، والامتناع عن تناول اللحم يومي الاربعاء والسبت . وسوف يصوم ايضاً يوم الاثنين اهل بيته وأسرات الكرادلة . وتقرر ايضاً ان يتوجّه من روما مبعوثون آخرون ، ليفرضوا على جميع امراء العالم المسيحي الهدنة لمدة سبع سنوات . وترددت الرواية أن جميع الكرادلة اقسموا انهم سوف يكونون من اوائل الذين يتخذون الصليب ، وسوف يقودون الجيوش المسيحية الى فلسطين باعتبارهم مبشرين متسولين (٢).

ولم يعش البابا جريجوري الثامن ليشهد نتيجة جهوده ، إذ مات في

---

(١) انظر : Annales Romani in Watterich, Pontificum. Romanorum Vitae, II. pp. 682 - 683.

(٢) انظر : Benedict of Petersbôrough, II. pp. 15 - 19.

الذي اثبت نصوص رسائل البابا . ومع ذلك فان الشاعر البروفنسالي جيرو اعتبر ان البابا لم يكن بالغ النشاط . انظر :

Throop, Criticism of the Crusades, pp. 29 - 30.

بيزا في ١٧ ديسمبر سنة ١١٨٧ ، ولم يمض على بابويتـه سوى شهرين ، بعد أن ترك الأمر الى أسقف براينيست الذي تمّ اختياره بعد يومين بابا باسم كليمنت الثالث . وإذ بادر البـابا كليمنت الثالث الى الاتصال بكبار ملوك الغرب ، كان الامبراطور فردريك بربروسه وجوسياس رئيس اساقفة صور يجتازان جبال الألب للاجتماع بملكي فرنسا وانجلترا [١] .

على أن أنباء بعثة بطريرك انطاكية قـد تقدمته وسبقته ، ذلك ان ايمري الكهل ، بطريرك انطاكية كتب في سبتمبر سنة ١١٨٧ الى هنري الثاني ملك انجلترا يخطره بما يعانيه الشرق من محن ، وأرسل هذا الكتاب مع أسقف بانياس [٢] ، وكان رتشرد كونت بواتو أكبر من بقي على قيد الحياة من أبناء هنري الثاني ، قد اتخذ الصليب [٣] قبل قدوم جوسياس ، رئيس أساقفة صور ، الى فرنسا ، بينما ظلّ هنري الثاني نفسه سنوات عديدة يشن حرباً سجالاً على فيليب اغسطس ملك فرنسا . وفي يناير سنة ١١٨٧ التقى جوسياس بالملكين في جيزورز على الحـد الذي يفصل بين نرمنديا والبلاد الفرنسية ، حيث اجتمع الملكان للمناقشة في عقـد هدنة بينهما . واستطاع جوسياس بفصاحته ان يحملهما على عقد الصلح ، لـم يعـدا بالتوجه ، ببالغ السرعة ، الى حرب صليبية . وعجل فيليب كونت فلاندر

---

(١) انظر : Annales Romani in Watterich, op. cit. II. pp. 36 - 38 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 36 - 38 .

(٣) انظر : Ambroise, l'Estoire de la Guerre Sainte, col. 3.
Itinerarium Regis Ricardi, p. 32 .
Rigord, pp. 83 - 84 .
الواقع ان المؤتمر الذي انعقد في جيزورز لم يحقق نجاحاً سياسياً .

باحتذاء مثلها ، ولعل السر في ذلـك يرجع الى ما شعر به من الخجل لحملته الفاشلة التي قام بها منذ عشر سنوات . وأقسم عدد كبير من كبار النبلاء بالمملكتين (فرنسا وانجلترا) على ان يصحبوا الملكين . وتقرر ان يسير الجيشان معاً ، فاتخذ العساكر الفرنسيون الصليب الاحمر على أرديتهم ، بينما اتخـذ العساكر الانجليز الصليب الابيض واختار الفلمنكيون الصليب الاخضر . وللانفاق على الحملة فرض الملكان ضرائب خاصة [1] ، إذ اجتمع في نهاية يناير سنة ١١٨٨ ، بجلس الملك هنري في لى مانز ، وقرر أن تؤدى الضريبة المعروفة بعُشْر صلاح الدين ، التي تقدر بعشرة في المائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة ، ويقتضي جبايتهـا من الرعايا العلمانيين للملك هنري الثاني ، في كل من انجلترا وفرنسا . ثم اجتاز هنري الثـاني البحر الى انجلترا ليعدّ تدابير اخرى للحرب الصليبية التي دعا لهـا في حماس بلدوين رئيس اساقفة كنتربري . واستأنف جوسياس رئيس اساقفة صور رحلة العودة الى بلاده وقد أفعم بالأمل [2] .

ولم يلبث الملك هنري الثاني ان كتب عقب انفضاض مؤتمر جيزورز ، الى بطريرك انطاكية يرد على رسالته ، يقول ان المساعدة سوف تصل اليه عاجلاً [3] ، والواقع انه ليس لتفاؤله ما يبرره ، إذ أن ضريبة ُعشر

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 30 .
Anbroise, cole 3 - 4 .
Itinerarium, pp. 32 - 33 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 30 - 32 .

(٣) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 38 - 39 .

صلاح الدين صارت تؤدى على نحو يدعو للارتياح ، على الرغم من محاولة جيلبرت هوكستون ، من فرسان الداوية ، بأن يحتجز لنفسه قدراً من المال الذي جباه ، بينما لم يستطع وليم الأسد ملك الاسكتلنديين ، والذي يعتبر تابعاً لهنري ، أن يحمل باروناته الأشحاء على ان يسهموا بشيء من مالهم . وتقررت الخطط لإدارة البلاد اثناء تغيب هنري وولي عهده في الشرق [1]. غير ان الحرب اندلعت في فرنسا من جديد ، قبل زمن طويل من اجتماع العساكر . ذلك ان بعض اتباع رتشرد تمردوا عليه في بواتو ، ثم حدث في يونيه سنة ١١٨٨ أن انغمس رتشرد في نضال مع كونت تولوز . وإذ غضب ملك فرنسا للاعتداء على تابعه (كونت تولوز) لم يسعه إلا أن يرد على ذلك بالإغارة على بيري . فغزا بدوره بلاد فيليب أغسطس ، وظلت الحرب مستعرة طوال الصيف والخريف . وفي يناير سنة ١١٨٩ انحاز رتشرد ، الذي لم يتأصل فيه ولاء البنوّة ، الى جانب فيليب في مهاجمة هنري . وارتاع معظم المسيحيين الاتقياء لهذا القتال المستطير ، فرفض كونت فلاندر وكونت بلوا من أتباع فيليب أغسطس ، أن يحملا السلاح إلا بعد قيام الحملة الصليبية [2] . وفي خريف سنة ١١٨٨ أرسل البابا الى الملكين ، أسقف ألبانو ، ثم أنفذ اليهما عقب وفاة الأسقف في الربيع التالي ، الكاردينال يوحنا أناجني يطلب منهما عقد الصلح ، ولكن مساعيه ذهبت سُدى . كما أن بلدوين رئيس أساقفة كنتربري لم يكن

---

(١) انظر : Ibid, pp. 44, 47 - 48 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II.pp.34 - 36, 39 - 40, 44 - 49.
Rigord, pp. 90 - 93 .

أكثر منه حظاً في النجاح ، بينما حالف الحظ فيليب ورتشرد في توغلهما في أوائل الصيف في داخل أملاك هنري الفرنسية . ففي ٣ يوليو سنة ١١٨٩ استولى فيليب على حصن تور الضخم ، وفي اليوم التالي وافق هنري الذي اشتدت به العلة ، على شروط صلح مهين ، ثم قضى نحبه بعد يومين في شينون في ٦ يوليو ، قبل التصديق على شروط الصلح [١] .

رتشرد يعتلي عرش انجلترا سنة ١١٨٩ :

تحسن الموقف بعد وفاة الملك الكهل هنري . وما يدعو للارتياب ما اذا كان جاداً في عزمه على الخروج الى الحرب الصليبية ، غير ان ولي عهده رتشرد توافر عنده القصد والنية للوفاء بنذره ، ومع انه ورث عن ابيه النضال مع الملك فيليب اغسطس ، فإنـــه كان مستعداً لعقد كل تسوية تجعـله حراً في المضي الى الشرق ولا سيا اذا اشترك فيليب اغسطس في الحرب الصليبية . وما كان يشعر بــه فيليب من الخوف من رتشرد ليقلّ كثيراً عما كان يخشاه من هنري ، وأدرك فيليب انه ليس من حسن السياسة ارجاء توجيه الحملة لمـــا هو اطول زمناً من ذلك . تقرر التعجيل بعقد معاهدة ، وعبر رتشرد البحر الى انجلترا حيث جرى تتويجه وتقلد زمام الحكم [٢] .

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II.pp.50 - 51, 59 - 61, 66 - 71.
Rigord, pp. 94 - 97 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 74 - 75 .
Roger of Wendover , I. pp. 162 - 163 .

تمّ تتويجه في وستمنستر في ٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ ، وأعقب ذلك اضطهاد عنيف لليهود في لندن ويورك . حقد السكان على ما حبا الملك الراحل به اليهود من افضال ، والواقع ان الحماس الصليبي كان دائماً يهيء العذر لقتل اعداء الله . وأنزل رتشرد العقاب بالثائرين ، وأجاز ليهودي تحول الى المسيحية ليتجنب الموت ، بأن يعود الى دينه . وارتاع المؤرخون لما علموه عن تعليق بلدوين رئيس اساقفة كنتربري على هذا الحادث بأنه لو لم يكن من رجال الله لآثر ان يكون من حزب الشيطان . مكث الملك رتشرد بانجلترا طوال الخريف ، ليعيد تنظيم ادارة البلاد . فتقرّر شغل الاسقفيات الشاغرة ، وبعد اتخاذ تدابير اولية جديدة ، اضحى وليم لونشان ، اسقف ايلي ، رئيساً لديوان الوثائق وحاكماً على جنوب انجلترا ، بينما صار هيو اسقف ديرام حاكماً على شمال انجلترا ، فضلاً عن تعيينه كندسطبلاً لقلعة وندسور . أما الملكة الوالدة اليانور فصارت لها سلطات نائب الملك ، غير انها لم تكن تنوي البقاء في انجلترا . وتقرر منح يوحنا شقيق الملك ضياعاً شاسعة ، على سبيل الاقطاع ، في الجنوب الغربي لانجلترا ، ومـا اقتضته الحكمة من فرض الحظر عليه بألا يدخل انجلترا لمدة ثلاث سنوات ، قضى التهور والاندفاع بسحب هذا القرار . وتقرر بيع الضياع الملكية للحصول على المال . وما تحصل من الاموال ، فضلاً عن المنح وعشر صلاح الدين ، أمدّ الملك بثروة ضخمة . فأرسل وليم ملك اسكتلنده عشرة آلاف جنيه مقابل التحلل من الولاء للتاج البريطاني ، واسترداد مدينتي برويك وروكسبره اللتين فقدهما زمن هنري الثاني [1] .

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 80 - 88, 97 - 101 .
Roger of Wendover, I. pp. 164 - 167 .
Ambroise, cols, 6 - 7 .

وفي نوفمبر سنة ١١٨٩ قدم من فرنسا روثرود كونت بيرش ، فأشار الى ان الملك فيليب أتمّ استعداداته للحرب الصليبية ، وأنه يودّ ان يجتمع بالملك رتشرد في فيزيلاي في اول ابريل سنة ١١٩٠ ليتناقشا في امر اشتراكهما معاً في الرحيل[1] . وحدث في نهـــاية سنة ١١٨٨ ان وصل الى البلاط الفرنسي من عملائه بالقسطنطينية رسالة تشير الى نبوءة اذاعها دانيال الزاهد المقدّس ، بأن الفرنج سوف يستعيدون الارض المقدّسة في السنة التي يحل فيها عيد البشارة في يوم احد القيامة . وسوف يحدث اقتران العيدين في سنة ١١٩٠ . وأضافت هذه الرسالة ان صلاح الدين يواجه متاعب بسبب ما شجر من منازعات بين افراد اسرته وحلفائه ، على الرغم من ان الامبراطور البيزنطي كان يبذل المساعدة لصلاح الدين ، دون اكتراث بدينه ، وأشارت هذه الرسالة الى ما تردّد من شائعة بـأن صلاح الدين تعرّض لهزيمة ساحقة قرب انطاكية[2] . على ان مـا وصل الى فرنسا في السنة التالية من أنباء لم تكن تدعو الى التفاؤل ، بل اضحى معروفاً ان الفرنج لم يتخذوا خطة الهجوم إلا بفضل مساعدة الصقليين[3] . يضاف الى ذلك ان امبراطور الغرب فردريك بربروسه كان في طريقه فعلاً الى الشرق[4] ، وحان الوقت لملكي فرنسا وانجلترا ان يسيرا بجملتهما .

وافق الملك رتشرد ، بعد ان حصل على مشورة مجلسه ، على ان يحضر

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 92 - 93 .

(٢) انظر : Ibid, II. pp. 51 - 53 .

(٣) انظر : Ibid, II. p. 93 .

(٤) انظر ما يلي ص ٣٢ .

الاجتماع في فيزيلاي . فعاد الى نورمنديا ، يوم عيد الميلاد ، وتجهّز للخروج الى فلسطين في اواخر فصل الربيع . على انـه حدث في اللحظة الاخيرة ما حتم ارجاء كل شيء ، نظراً للموت المفاجيء الذي بغت ايزابيللا هينولت ملكة فرنسا ، في اوائل شهر مارس [1] . فـلم يجتمع الملكان في فيزيلاي إلا في ٤ يوليه ، بفرسانهم ورجالتهم ، وقد استعدوا للمضي في حملتهم المقدّسة [2] .

اقلاع الاسطول الانجليزي سنة ١١٨٩ :

انقضت ثلاث سنوات منذ ان حلت الكارثة بمملكة بيت المقدس في حطين ، وكان من الخير للفرنج ان الصليبيين لم يتوانوا عن القدوم ، إذ أن مبادرة وليم الثاني ملك صقلية الى بذل المساعدة أبقت على صور وطرابلس للعالم المسيحي . على ان وليم الثاني مات في ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩ وكان لزاماً على خليفته تانكرد ان يواجه المتاعب في وطنه [3] . على أنه حدث فعلاً في سبتمبر سنة ١١٨٩ ان وصل تجـاه ساحل الشام اسطول ضخم

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 108 .
Itinerarium, p. 146 .
Rigord, pp. 96 - 98 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 111 .
Itinerarium, pp. 147 - 149 .
Ambroise, cols. 8 - 9 .
Rigord, pp. 98 - 99 .

(٣) انظر : Chalandon , Domination Normande en Italie, II. pp. 416 - 418 .
اشارت التواريخ الانجليزية النرمندية والفرنسية الى ان وفاة وليم الثاني تعتبر كارثة .

مؤلف من سفن دانمركية وفلنكية ، يبلغ عددها عند المؤرخين المتفائلين نحو خمسمائة سفينة . وحوالي ذلك الوقت قـدم جيمس سيد أفيسنيز ، وأشجع فرسان الفلاندر [١] . بل ان الانجليز انفسهم لم ينتظروا بأجمعهم ملكهم حتى يتحركوا معاً . إذ أن اسطولاً انجليزياً صغيراً يسيّره بحارة من لندن غادر نهر التيمس في اغسطس سنة ١١٨٩ ، وبلغ البرتغال في الشهر التالي . وفي البرتغال وافقوا مثلما وافق مواطنوهم قبل اربعين سنة ، على ان يدخلوا مؤقتاً في خدمة ملك البرتغال ، وبفضل مساعدتهم استطاع سانكو ملك البرتغال ان ينتزع من المسلمين حصن شلب الواقع الى الشرق من رأس القديس فنسان ، وفي يوم عيد القديس ميخائيل (٢٩ سبتمبر) ، اجتاز البحارة اللندنيون بوغاز جبل طارق [٢] . على ان جيش الامبراطور فردريك بربروسه كان اقوى جيش خرج فعلاً الى الارض المقدّسة .

الامبراطور فردريك بربروسه يغادر المانيا سنة ١١٨٩ :

اشتد تأثر فردريك لما سمعه عن الكوارث التي وقعت بفلسطين . إذ انه ظل منذ عاد مع عمه كنراد من الحرب الصليبية الثانية المنكودة منذ البداية ، يتطلع الى العودة لقتال المسلمين . اضحى فردريك رجلاً متقدماً

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 94 .
Itineratum, p. 65 .
Ambroise, cols. 77 - 78 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 116 - 122.
Ralph of Diceto, II. pp. 65 - 66 .
Narratio Itineris Navolis ad Terram Sanctam, passim .

في السن ، في السبعينات من عمره ، وظلّ يحكم المانيا خمسة وثلاثين عاماً. على ان تقدمه في العمر لم يضعف من فروسيته ولم يقلل من جاذبيته ، ولكن ما صادفه من تجارب كثيرة مريرة علمته الفطنة والتعقل . لم يربطه بفلسطين إلا صلات شخصية قليلة ، إذ لم يكن بفلسطين إلا عدد قليل من النزلاء الذين ينتمون الى اصل الماني ، وما وقع بينه وبين البابوية من نزاع طويل الأمد جعل حكومة الفرنج تخجل من إلتماس مساعدته . غير ان بيت مونتفيرات كان دائماً من انصاره ومؤيديه . ولعلّ الذي أثاره هو ما بلغه من الانباء عن استبسال كنراد مونتفيرات في الدفاع عن صور . وما حدث منذ زمن قريب من زواج ابنه وولي عهده هنري من الاميرة الصقلية ، كونستانس ، جعله وثيق الصلة بنرمان الجنوب . وترتب على وفاة البابا اربان الثالث في خريف سنة ١١٨٧ ، ان اضحى بوسع فردريك بربروسه ان يعقد الصلح مع روما . وحرص البابا جريجوري الثامن على ان يرحب بحليف بالغ القيمة لإنقاذ العالم المسيحي ، كما ان البابا كليمنت الثالث يكن له المودة والصداقة (١) .

---

(١) انظر عن ترجمة فردريك اما حملته فأوردها بالتفصيل : Prutz, Kaiser Friedrick .

Ansbert, Espeditio Friderici .
Historia Peregrinorum .
Epistola de Morte Friderici Imperatoris .

وكل هذه المصادر منشورة في :

Chroust, Quellen zur Geschichte des Kreuzzugss Kaiser Friedrichs I .

تلقى فردريك الصليب من يد الكاردينال البانو ، في ماينز ، في ٢٧ مارس سنة ١١٨٨ ، الذي يوافق الأحد الرابع في الصيام الكبير ، كما يستدل من النشيد الذي يسبق قداس بيت المقدس (Laetare Hierusalem) [١] . على ان فردريك بربروسه لم يستعد للتوجه الى الشرق إلا بعد ان مضى على اتخاذه الصليب ما يزيد على عام . فعهد بالوصاية على بلاده الى ابنه ، الذي صار مستقبلاً الامبراطور هنري السادس . اما منافسه القوي في المانيا ، وهو هنري الاسد ، دوق سكسونيا ، فقد امره فردريك إما ان يتنازل عن حقوقه في شطر من بلاده ، وإما أن يرافقه على نفقته الخاصة في الحرب الصليبية ، او يقبل النفي لمدة ثلاث سنوات . فاختار هنري الاسد العرض الاخير ، بأن لجأ الى بلاط صهره هنري الثاني ملك انجلترا [٢] . وبفضل رضى البابا وعطفه ساد الهدوء الكنيسة الالمانية بعد سلسلة طويلة من المنازعات . ودعّم الطرف الغربي لألمانيا ، إنشاء حكومة أطراف جديدة [٣] . وبينما كان فردريك منصرفاً الى جمع جيشه ؛ كتب الى السادة الذين سوف يجتاز بلادهم ، أمثال ملك المجر ، والامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس ، والسلطان السلجوقي ، قلج ارسلان ، كما أنفذ الى صلاح الدين سفيراً اسمه هنري ديتز يحمل رسالة زاخرة بالمباهاة والتيه ، يطلب فيها ان يعيد صلاح الدين للمسيحيين كل فلسطين ، ويتحداه للنزال في ساحة صوعن ،

---

(١) انظر : Hefele - Leclerc, Histoire des Conciles,V.2,pp. 1143-1144.

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 55 - 56 .

(٣) انظر : Hefele - Leclerc, op. cit. p. 1144.

في نوفمبر سنة ١١٨٩ (١) ، وردّ ملك المجر وسلطان السلاجقة على فردريك بعدانه بالمساعدة . والمعروف انــه في اثناء سنة ١١٨٨ ، قدمت سفارة بيزنطية الى نورمبرج لإعــداد التدابير اللازمة للصليبيين لاجتيــاز بلاد الامبراطور اسحاق انجيلوس (٢) . أما رد صلاح الدين فإنه اتسم بالتعالي برغم ما ينطوي عليه من الدماثة . إذ عرض صلاح الدين أن يطلق سراح أسرى الفرنج ، وأن يعيد الأديرة اللاتينية بفلسطين الى أربابها ، ولا شيء سوى ذلك ، وإلا تحتم نشوب الحرب .

وسار فردريك من راتيزبون في أوائل مايو سنة ١١٨٩ ، وصحبه ثاني أبنائه ، فردريك دوق سوابيا ، وعدد كبير من كبار أتباعه : أما جيشه الذي يعتبر اضخم جيش مستقل خرج الى حرب صليبية ، فاشتهر بجودة سلاحه ، وحسن نظامه (٣) . فاستقبله بيلا ملك المجر بالترحيب والمودة ، وهيأ له كل وسيلة لتيسير اجتيازه بلاد المجر . وفي ٢٣ يونيه عبر فردريك

---

(١) صوعن (Soan) : هي المعروفة الآن بصان الحجر في شرقي دلتـا النيل ، وهي التي التقى بها فرعون مع موسى عليه السلام . انظر :

John D. Davis, Dictionary of tbe Bible.

Ansbert, Expeditio Friderici, p. 16.

على ان صورة اخرى ليست اصلية من كتاب الامبراطور فردريك الى صلاح الدين، وردت في:

Benedict of Petersborough, II. pp. 62 - 63.

(٢) انظر : Ansbert, Expeditio Friderici, p. 15.

Hefel - Leclerc, loc. cit.

(٣) قدر ارنولد لوبيك أنه بناء على الاحصاء الذي جرى عند اجتياز الجيش لنهر الساف، أن الجيش كان يبلغ خمسين الف فارس ومائة الف من الرجالة (انظر : Arnold of Lubeck, pp. 130 - 131) بينما جعل المؤرخون الالمان عدد كل الجيش مائة الف رجل .

نهر الدانوب عند بلغراد ، ونفذ الى داخل الأراضي البيزنطية [١] . وهنا بدأت المتاعب والمنازعات فلم يكن الامبراطور انجيلوس بالرجل الذي يستطيع معالجة موقف يقتضي اللباقة والكياسة ، والصبر ، والشجاعة . وبرغم ما اشتهر به من المهارة والبراعة ، فإنه لم يكن من رجال البلاط المعروفين بقوة الإرادة ، فلم يصل الى العرش إلا بمحض الصدفة ، وكان دائماً يدرك أن له بممتلكاته عدداً كبيراً من المنافسين الأقوياء . وبرغم ما يساوره من شكوك في موظفيه ، لم يكن حازماً في ضبطهم . كما أن القوات المسلحة للامبراطورية وماليتها لم تنهض من الشدة التي فرضها عليها المجد الكاذب الذي اشتهر بـه عصر الامبراطور يوحنا كومنينوس . وما حاوله الامبراطور اندرونيقوس من إصلاح للنظام الإداري لم يعش بعـد سقوطه . فازدادت الادارة فساداً عما كانت عليه ، وما تقرر فرضه من ضرائب مرتفعة وجائرة أثار الاضطراب في البلقـان . وشبّت الفتنة في قبرص زمن اسحاق كومنينوس ، وأضاع الأرمن قليقية وأخـــذ الترك يتطاولون على الأقاليم الامبراطورية في جوف بلاد الأناضول وفي جنوبيها الغربي . وقـام النرمان بهجوم كبير على ابيروس ومقدونيا ، وما حلّ بالنرمان من هزيمة تعتبر الانتصار العسكري الوحيد الذي جرى زمن الامبراطور انجيلوس . وفيما عدا ذلك ، ركن الى استخدام الدبلوماسية ، فعقد تحالفاً وثيقاً مع صلاح الدين ، جزع له الفرنج في الشرق . ولم يكن الباعث له على هذا التحالف ، أن يلحق الضرر بمصالحهم ، بل كان يقصد انتقاص قوة السلاجقة ، غير أن ما حققه من عمل باهر ، بعودة الأماكن

---

(١) انظر : Ansbert, Expeditio Friderici, p. 26.

المقدسة الى رعاية الأرثوذكس يعتبر وحده صدمة للغرب . ولكي يزيد من قوة قبضته على البلقان عقد صداقة مع بيلا ملك المجريين ، بأن تزوج من مرجريت ابنته الصغرى ، في سنة ١١٨٥ . غير ان ما جباه من ضرائب استثنائية ، بسبب الزواج ، كان الشرارة التي ألهبت الصربيين والبلغاريين ودفعتهم الى الثورة الصريحة . ولم يستطع قادة الامبراطور اسحاق انجيلوس ان يسحقوا الثوار ، على الرغم مما ظفروا به اول الامر من انتصارات . ولما ظهر فردريك في بلغراد ، صادف دولة صربية مستقلة قامت فعلاً في التلال الواقعة الى الشمال الغربي من شبه جزيرة البلقان . وعلى الرغم من ان القوات البيزنطية ما زالت تحتفظ بالحصون الواقعة على امتداد الطريق الرئيسي الى القسطنطينية فما زال المغيرون البلغاريون يسيطرون على القرى (١) .

فردريك في شبه جزيرة البلقان سنة ١١٨٩ :

ولم يكد الالمان يعبرون نهر الدانوب ، حتى صادفهم الاضطراب ، إذ أن قطّاع الطرق من الصربيين والبلغاريين هاجموا العساكر الضالّين ، وجزع سكان الريف وأظهروا العداء للألمان . فبادر الألمان الى اتهام البيزنطيين بإثارة هذه العداوة ، ورفضوا ان يدركوا انه لم يكن للأمبراطور اسحاق انجيلوس حول ولا قوة لمنع هذا العداء . على ان

---

(١) عن اسحاق انجيلوس ، انظر :

Cognasso : « Un Imperatore Bizantino della Decadenza, Isacco II, Angelo », in Bessarione, vol. XXXI, pp. 29 ff, 246 ff.

انظر ايضاً : Bohmer, Acta Imperii Selecta, p. 152.

حيث ورد به الكتاب الموجه من فردريك الاول الى هنري .

الامبراطور فردريك كان حكيماً في التماس صداقة الزعماء المتمردين ، فحينما اجتاز مدينة نيش في يوليه سنة ١١٨٩ قدم لتحيته ستيفن نيمانيا امير الصرب مع اخيه ميراسمير ، كما ان الاخوين الافلاخيين ايفان أسن وبطرس ، قائدي الثورة البلغارية ، أنفذا الى فردريك الرسائل يعدان فيها ببذل المساعدة له . ومن الطبيعي ان تثير انباء هذه المفاوضات اهتماماً خاصاً في بلاط القسطنطينية . إذ أن الامبراطور اسحاق انجيلوس ارتاب فعلاً في نوايا فردريك . فالسفيران اللذان سبق ان انفذهما الى البلاط الالماني ، وهما يوحنا دوكاس وقنسطنطين كانتا كوزينوس ، ارسلهما من جديد لتقديم التحية للامبراطور فردريك عند دخوله الاراضي البيزنطية ، غير انهما أفادا من سفارتهما ؛ بأن اثارا فردريك على اسحاق ، الذي لم يلبث ان وقف على مؤامراتهما ، على ان تصرفهما ازعج صديقهما القديم ، المؤرخ نكيتاس خونياتس . وبينما خفّت حدّة ما كان يضمره فردريك من سوء الظن في بيزنطة ، الذي يرجع تاريخه الى تجربته اثناء الحرب الصليبية الثانية ، بفضل ما أعده رفاقه البيزنطيون من خطط ، تخلى عن اسحاق ما اشتهر به من ادراك سليم . فما اشتهر بـه الجيش الألماني من التزام النظام حتى وقتذاك ، وما أعدته السلطات البيزنطية من تدابير كافية لتموين الجيش ، حال دون وقوع احداث سيئة ، غير انه لمـا احتل فردريك مدينة فيليبوبوليس ، وأنفذ منها الرسل الى القسطنطينية لتنظيم امر انتقال عساكره الى آسيا ، ألقى بهم اسحاق في السجن ، وقصد ان يجعلهم رهائن حتى يهدىء فريدريك دوق سوابيا سلوكه . والواقع ان اسحاق اساء الحكم على فردريك ، الذي بادر الى ارسال ابنـه فيليب دوق سوابيا للاستيلاء على مدينة ديديموتيكوم في تراقيـا ، واتخاذها رهينة رداً على تصرف اسحاق ، وكتب الى ابنه هنري بألمانيا يطلب اليه إعداد اسطول

ليستخدمه في قتـال بيزنطة ، والحصول على رضى البـابا وموافقته على الدعوة الى حرب صليبية على اليونانيين . قال فردريك انه ما لم يستول الفرنج على البوغازين (الدردنيل والبوسفور) ، فلن تظفر الحركة الصليبية بالنجاح . وإذ واجه اسحاق توقع انحياز اسطول غربي الى الجيش الالماني ، والمبادرة الى مهاجمة القسطنطينية ، لم يسعه آخر الأمر إلا أن يتنـازل فيطلق سراح القصاد الالمان ، بعد ان راوغ بضعة شهور . وانعقد الصلح في أدرنة ، وأعاد اسحاق الرهائن الى فردريك ووعد بتموين السفن اذا اجتاز فردريك الدردنيل لا البوسفور ، وببذل المؤن للجيش أثناء اجتياز الأناضول . وإذ لم يكن لفردريك رغبة إلا في المضي الى فلسطين ، كظم غيظه ، وقبل الشروط .

التزم الجيش الالماني البطء الشديد في سيره عند اجتياز البلقان ، وبلغ الحذر بفردريك ما منعه من محاولة اجتياز الأناضول زمن الشتاء ، فأمضى شهور الشتاء في أدرنة ، بينما ارتعد سكان القسطنطينية خوفاً من ان فردريك يرفض ما بذله اسحاق من أعذار ، فيزحف على مدينتهم . ثم حدث آخر الامر في مارس سنة ١١٩٠ ان تحركت الحملة بأسرها الى غاليبولي الواقعة على الدردنيل ، الذي اجتازته الى آسيا بفضل مساعدة السفن البيزنطية ، وبذا هدأ روع اسحاق واطمأن رعاياه [١] .

(١) انظر : Nicetas Choniates, pp. 527 - 537.
Ansbert, Expeditio Friderici, pp. 27 - 66.
Gesta Friderici in Expeditione Sacra, pp 80 - 84.
Otto of St. Blaise, pp. 66 - 67.
Itinerarium, pp. 47 - 49.
Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1147 - 1149.
Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 445 - 447.

ولما غادر فردريك الشاطىء الآسيوي للدردنيل ، إلتزم على وجه التقريب الطريق الذي سبق ان سلكه الاسكندر الكبير قبل خمسة عشر قرناً ، فعبر نهر غرانيقوس ، واجتاز نهر انجيلو كوميتس الذي فاضت مياهه ، حتى بلغ الطريق البيزنطي الرئيسي المرصوف حالياً ، الممتد من مليتوبوليس الى باليكسر الحالية ، فسلك هذا الطريق من قلاموس الى فيلادلفيا ، حيث اظهر له سكانها اول الأمر المودة ، غـير انهم حاولوا بعدئذ ان يسلبوا مؤخرة الجيش ، فحلّ بهم العقاب . وبلغ فردريك لأوديقا في ٢٧ ابريل سنة ١١٩٠ ، بعد مضي ثلاثين يوماً على اجتياز الدردنيل . ومن لأوديقا نفذ الى الداخل بعد ان اتخذ الطريق الذي سبق ان سلكه الامبراطور مانويل في سيره المفجع الى ميريوكيفالوم ، وفي ٣ مايو سنة ١١٩٠ اجتاز فردريك بعد مناوشة مع الترك ، موضع ساحة المعركة التي ما زالت عظام الضحايا ظاهرة للعيان . اضحى فردريك في بلاد يسيطر عليها السلطان السلجوقي . والواضح ان قلج ارسلان ، السلطان السلجوقي ، لم يكن ينوي ، برغم مـا بذله من وعود ، ان يسمح للصليبيين باجتياز بلاده في هدوء . وحينما راعه ضخامة الجيش الالماني ، لم يفعل اكثر من ان يطوّف بأطراف الجيش الالماني ، فيختطف الشاردين ، ويعترض طريق الذين يلتمسون المؤونة . والواقع ان هذه الخطط كانت بالغـة الأثر ، إذ اخذ الجوع والظمأ فضلاً عن سهام الترك يسبب الكوارث . وبلغ فردريك قونية في ١٧ مايو سنة ١١٩٠ ، بعد ان سار حول طرف جبل سلطان داغ ، واتخذ الطريق القديم الذي يسير من فيلوميليوم صوب الشرق . على ان السلطان السلجوقي مع بلاطه انسحب امامه . واستطاع فردريك في اليوم التالي أن يشق له طريقاً الى داخل المدينة (قونية) بعد ان نشبت معركة حادة بينه وبين قطب الدين ابن السلطان السلجوقي . غير ان فردريك لم يمكث طويلاً في داخل اسوار

المدينة ، ولكنه أجاز لجيشه ان يخلد الى الراحة فترة من الزمن في حدائق ميرام الواقعة بالارباض الجنوبية للمدينة ، ثم تحرك بعد ستة ايام الى قرمان ، التي بلغها في ٣٠ مايو ، ومنها قاد الجيش عبر دروب جبال طوروس ، دون ان يصادف مقاومة ، نحو الساحل الجنوبي ، الى سلوقية . وكان ميناء سلوقية وقتذاك بأيدي الارمن ، فعجل جاثليقهم بانفاذ رسالة الى صلاح الدين . والواقع ان الطريق كان يجتاز اقليماً وعراً ، شح فيه الطعام ، واشتدت به حرارة الصيف [١] .

وفاة الامبراطور فردريك بربروسة سنة ١١٩٠ :

هبط الجيش الالماني الضخم الى سهل سلوقية في ١٠ يونيو سنة ١١٩٠ ، وتجهز لعبور نهر كاليكادنوس (Calycadnus) ، كيما يدخل المدينة ، وسبق الجيش في المسير الامبراطور في حرسه ، فنزلوا الى حافة ماء النهر ، وما حدث عندئذ ليس معروفاً على وجه التأكيد ، فإما ان يكون الامبراطور قد وثب عن حصانه الى الماء البارد ليستعيد نشاطه ، ولكن تيار النهر فاق في القوة

---

(١) انظر :

Nicetas Choniates, pp. 538 - 544.
Ansbert, Expeditio Friderici, pp. 67 - 90.
Gesta Friderici, pp. 84 - 97.
Epistola de Morte Friderici, pp. 172 - 177.
Itinerarium, pp. 49 - 53.

والطريق الذي سلكه فردريك ناقشه :

Ramsay : Historical Geography of Asia Minor, pp. 129 - 130.

وأورد ابن شداد ما قام به جاثليق الارمن من انذار صلاح الدين ، انظر :

Beha ed - Din, pp. 185 - 189 (P. P. T. S.).

ما كان يعتقده ، وإما ان جسمه الهرم لم يستطع ان يقاوم الصدمة المفاجئة ، او زلّت قدما فرسه ، فقذف به الى المـاء ، فغرق بسبب ثقل اسلحته . فلمـا بلغ الجيش النهر ، خلّص جيفته ، وجعلها على شاطىء النهر [1] .

لم تكن وفاة الامبراطور العظيم ضربة عنيفة لأتباعه فحسب ، بل أيضاً لجميع عـالم الفرنج . إذ أن انباء قدومه على رأس جيش ضخم زاد في رفع الروح المعنوية عنـد الفرسان الذين يقاتلون على السـاحل السوري ، وكان جيشه وحده كافياً فيما يبدو لردّ المسلمين ، فاذا اجتمع هذا الجيش بقوات ملكي فرنسا وانجلترا ، اللذين بادرا فيما هـو معروف بالمسير الى الشرق ، فمن المحقق ان يسترد للعـالم المسيحي الارض المقدسة . وخشي صلاح الدين اجتماع هـذه الجيوش فلا يستطيع ان يناهضها . فحينما سمع بمسير فردريك الى القسطنطينية ، أنفـذ كاتبه ومؤرخ حياته فيما بعـد ، بهـاء الدين (ابن شداد) الى بغداد لينذر الخليفة الناصر لدين الله بأنـه لا بدّ للمؤمنين ان يجتمعوا لمواجهة الخطر ، ودعا كل اتباعه للحاق به . والتقط الاخبار عن كل مرحلة في سير الجيش الالماني ، غير أنه اخطأ في

---

(١) انظر :
Nicetas Choniates, p. 545.
Ansbert, Expeditio Friderici, pp. 90 - 92.
Epistola de Morte Friderici, pp. 177 - 178.
Gesta Friderici, pp. 97 - 98.
Otto of St. Blaise, p. 51.
Itinerarium, pp. 54 - 55.
Ibn al - Athir, II, p. 5.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 183 - 184.

اعتقاده بأن قلج ارسلان كان يساعد الغزاة في الخفاء . ولما علم المسلمون بوفاة فردريك ، تراءى لهم ان الله صنع معجزة من اجل الدين ، فما حشده صلاح الدين من جيش لوقف تقدم الألمان في شمال سوريا ، يصح الاطمئنان الى تخفيض عدده ، وإلى ارسال كتائب للحاق بقواته المرابطة على ساحل فلسطين[1] .

كان الخطر شديداً على المسلمين ، وصدق صلاح الدين حين ادرك ان في وفاة الامبراطور خلاصه ونجاته . على ان جيش الامبراطور ما زال يثير الخوف ، على الرغم من ان عدداً من الجنود الالمان لقوا حتفهم ، وأن جانباً من العتاد قد تبدد اثناء السير الشاق عبر الاناضول . على أن الالمان ، برغم تعلقهم الشديد بعبادة القائد ، تنهار عادة روحهم المعنوية اذا اختفى قائدهم ، فلم يلبث عساكر فردريك ان فقدوا اعصابهم . وتولى القيادة فردريك دوق سوابيا ، غير انه ، برغم ما اشتهر به من الفروسية ، كان يفتقر الى ما اتصف به والده من شخصية ، فقرر بعض الأمراء ان يعودوا بأتباعهم الى اوربا ، واستقل أمراء آخرون سفينة من سيلوقية او طرسوس، الى صور . اما دوق سوابيا فانه مضى بجيشه الذي تضاءل عدد عساكره ،

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 250 - 251.
Estoire d'Eracles, II, p. 140.
Itinerarium, pp. 56 - 57.
Ambroise, col. 87.
Ibn al - Athir, loc. cit.
Abu Shama, pp. 34 - 35.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 189 - 191.
Bar Hebraeus, pp 332 - 334.

ليجتاز سهل قليقية بحرارة صيفه ورطوبته ، وقـد حمل معه جثة والده التي حفظها في الخل . وقـام ليو امير ارمينية (قليقية) بعد شيء من التردد بزيارة المعسكر الالماني . على ان القـادة الالمان لم يتخذوا التدابير الكافية لإطعام عساكرهم . وإذ افتقد الجند مـــا كان لأمبراطورهم من سيطرة ، أخلوا بالنظام . فاستبد الجوع بعدد كبير منهم ، وتفشى المرض في كثير منهم ، غير انهم جميعاً اعلنوا التمرد . وكان لزاماً على الدوق أن يتأخر في قليقية بعد ان حلّ به المرض الشديد ، فمضى جيشه في طريقه من دونه ، فتعرّض لهجوم ألحق به خسائر فادحة اثناء اجتياز الدروب السورية . فلم يصل الى انطاكية في ٢١ يونيه سوى جمـــاعة بائسة من الرعاع . ولما استرد فردريك عافيته لحق بهم بعد ايام[١] .

الالمان في انطاكية :

استقبل بوهمند امير انطاكية الألمان بالحفاوة والترحيب وكان ذلك دماراً لهم . وإذ اضحوا دون قائد ، فقدوا حماسهم ، ولم يودوا التخلي عن الحياة الرغدة في انطاكية ، بعد ان عانوا الشدائد في رحلتهم . على ان انغماسهم في المباذل لم يفد صحتهم ، وحرص فردريك دوق سوابيا على ان يمضي في رحيله بعد ان ارتاح لما بذله بوهمند امير انطاكية له من يمين الولاء ، وبعد ان تشجع بالزيارة التي أداها له من صور ابن عمـه كنراد

---

(١) انظر :

Sicard of Cremona, p. 610.
Otto of St. Blaise, p. 52.
Abu Shama, pp. 458 - 459.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 207 - 209.

مونتفيرات . غير انه لما غادر انطاكية في نهاية شهر اغسطس ، كان جيشه قد ازداد عدده نقصاناً ، كما ان جهده لم يلقَ التقدير عند عدد كبير من الفرنج ، الذين لم يقدم إلا من اجل مساعدتهم . وإذ علم خصوم كنراد بأن فريدريك ابن عمه وصديقه ، اشاعوا ان صلاح الدين نقد كنراد ستين الف دينار (بيزنت) ليحمله على مغادرة انطاكية ، حيث قد يكون بها اكثر نفعاً لمصلحة المسيحيين . وجرى الرد على ذلك بأن جثة الامبراطور العجوز قد تحللت ، فلم يكن للخل تأثير قوي فيتقرر التعجيل بمواراة بقاياها المتعفنة في الكاتدرائية بأنطاكية . غير انه بعض العظام جرى انتزاعها من الجثة ، وتقرّر حملها مع الجيش في رحيله ، يحدوه الأمل الكاذب في ان شطراً على الاقل من فردريك بربروسة سوف ينتظر يوم القيامة في بيت المقدس [١] .

ومـا اصاب حملة الامبراطور الصليبية من فشل ذريع جعل الحاجة أشد ضرورة من كل زمن مضى ، الى ان يصل الى الشرق ملكا فرنسا وانجلترا ، ليسهما في النزاع المرير الحامي الناشب على الساحل الشمالي لفلسطين .

(١) انظر :
Abu Shama, pp. 458 - 460.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 212 - 214.
Ernoul, p. 259.

الفصل الثاني

عـــكا

ارتكب صلاح الدين في غمرة الانتصار غلطة شنيعة ، حينما أحبطت همته ، وثبطت عزمه استحكامات مدينة صور . فلو أنه بادر بالزحف على صور عقب استيلائه على عكا ، في يوليو سنة ١١٨٧ لأضحت في يده ، غير أنه اعتقد ان إذعان صور واستسلامها سبق ان تمّ تدبيره ، فتمهل بضعة ايام . فلما وصل صلاح الدين الى صور كان بها فعلاً كنراد مونتفيرات ، ورفض ان يفكر في التسليم . ولم يتوافر لصلاح الدين وقتذاك من العتاد ما يجعله يفرض حصاراً منتظماً على مدينة صور ، فانصرف الى فتوح أكثر سهولة ويسراً . ولم يقم صلاح الدين بالهجوم الثاني على صور إلا بعد ان سقطت في يـده مدينة بيت المقدس ، في اكتوبر سنة ١١٨٧ ، فاستخدم في هجومه جيشاً كثيفاً ، وكل ما لديه من ادوات الحصار . غير ان الأسوار الواقعة عبر البرزخ الضيق قد عززها وقتئذ كنراد مونتفيرات الذي خصص كل ما جلبه معه من القسطنطينية من أموال للانفاق على عمـارة اسباب الدفاع . على ان صلاح الدين رفع الحصار للمرة الثانيـة ، وأمر بتسريح

معظم عساكره ، بعد ان ثبت عجز الأدوات التي استخدمها في الحصار ، وحاق باسطوله الدمار في معركة دارت عنـــد مدخل المرفأ . وقدمت المساعدة من وراء البحار ، قبل ان ينهض صلاح الدين مرة اخرى لاستكمال فتح الساحل [1] .

وما أرسله وليم الثاني ملك صقلية من قوات في اواخر خريف سنة ١١٨٨ ، لم تكن وفيرة العدد ، غير انها تألفت من اسطول قوي التسليح ، يقوده امير البحر مرجريتوس ، ويقل مائتين من خيرة الفرسان تدريباً وإعداداً . وترتب على قدوم هـذه الأمداد ان رفع صلاح الدين الحصار عن حصن الأكراد في يوليو سنة ١١٨٨ ، وامتنع عن مهاجمة طرابلس [2] . وكان صلاح الدين وقتذاك يسرّه ان يدخل في مفاوضات من أجل الصلح . ووصل الى صور في الوقت المناسب فارس ، قادم من اسبانيا ، ليسهم في الدفاع عنها . ولم يكن اسمه معروفاً ، إنما أطلق عليه الناس اسم الفارس الاخضر ، لأنه اتخـــذ ترساً اخضر اللون . وما اشتهر به من البسالة والاقدام ، أثار اهتمام صلاح الدين ، الذي اجتمع به في صيف سنة ١١٨٨ قرب طرابلس ، وكان يأمل في ان يقنعه بتدبير امر الهدنة ، وأن يدخل

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٦٢ — ٧٦٣ .

(٢) انظر :

Itinerarium, pp. 27 - 28.

Benedict of Petersborough, *II*, p. 54.

Estoire d'Eracles, *II*, pp. 114, 119 - 120.

Abu Shama, pp. 362 - 363.

Ibn al - Athir, pp. 718, 720 - 721.

أشار تاريخ هرقل والمؤرخون المسلمون الى ان مرجريتوس اجتمع بصلاح الدين في اللاذقية .

في خدمة المسلمين . غير ان الفارس الاخضر اجاب ان الفرنج لن يفكروا فيما لا يقل عن استعادة بلادهم ، ولا سيما ان النجدة في طريقها اليهم من الغرب . فليتخل صلاح الدين عن فلسطين ، وعندئذ سوف يلقى الفرنج أخلص حلفاء له [١] .

اطلاق سراح الملك جاي لوزجنان سنة ١١٨٨ :

على الرغم من أنـــه لم ينعقد الصلح ، فإن صلاح الدين أظهر نواياه الودية ، بأن أطلق سراح جماعة من الأسرى البارزين . ودرج صلاح الدين على ان يغري الأسرى من سادة الفرنج بأنهم سوف ينالون حريتهم متى أمروا باستسلام قلاعهم له . وكان ذلك من الوسائل السهلة الرخيصة في الاستحواذ على الحصون ، بل ان فروسيته تجاوزت هذا الحد ، فحينما فشلت ستيفاني سيدة اقطاع ما وراء الاردن في اقناع حامياتها بالكرك والشوبك بالإذعان ، حتى يتيسر إطلاق سراح ابنها همفري سيد تبنين ، ردّه صلاح الدين اليها ، قبل ان يستولي على الحصنين عنوة . وجعل ثمن اطلاق سراح الملك جاي لوزجنان الاستيلاء على عسقلان . وإذ خجل سكانها لاثرة الملك جاي ، رفضوا إقرار تصرفه . ولمـــا سقطت عسقلان في يد صلاح الدين كتبت الملكة سبيللا اليه المرة بعد الاخرى ، تتوسل اليه أن يعيد اليها زوجها ، فاستجاب صلاح الدين الى طلبها في يوليو سنة ١١٨٨ . وبعد ان أقسم الملك جاي لوزجنان بأنه سوف يبحر عائداً الى بلاده ، وأنه لن يشهر السلاح على المسلمين مرة اخرى ، تقرر إرساله مع عشرة من كبار

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 251 - 252.

أتباعه ، منهم الكندسطبل أماريك ، الى طرابلس حيث لحق بالملكة . وتقرر في نفس الوقت الإفراج عن ماركيز مونتفيرات الشيخ ، فلحق بابنه في طرابلس [1] .

على ان سخاء صلاح الدين أثار قلق مواطنيه ، فلم يكتف بالسماح للفرنج في كل مدينة أذعنت له ، بأن يرتحلوا ويلحقوا برفاقهم في صور او طرابلس بل انه اسهم في تعزيز حاميتي هذين الحصنين المسيحيين الأخيرين ، بما لجأ اليه من إطلاق سراح عدد كبير من السادة الذين كانوا في اسره . غير ان صلاح الدين ادرك مـــا كان يفعله ، إذ ان المنازعات الحزبية التي أثارت الانقسام في السنوات الاخيرة لمملكة بيت المقدس ، لم تتم تسويتها إلا قبل بضعة اسابيع من معركة حطين ، بفضل لباقة وكياسة باليان ابلين ، ثم اندلعت من جديد عشية المعركة . وأسهمت كارثـــة حطين في اشتداد أوارها . وألقى انصار لوزجنان وكورتيناي اللوم على عاتق ريموند كونت طرابلس ، واعتبروه مسئولاً عن هذه الكارثة (حطين) ، بينما وجه اصدقاء ريموند ، من بيت ابلين ، وبيت جارنييه ومعظم النبلاء المحليين ، اللوم لأسباب معقولة الى الملك جاي وما اشتهر به من الضعف والى ما كان

---

(١) عن مسألة تحديد المكان والزمان اللذين جرى فيهما اطلاق سراح جاي لوزجنان ، انظر المجلد الثاني ص ٧٤٦ ، حاشية ٤ ومـــا ورد فيها من مراجع . وأشار ارنول (ص ٢٥٣) ، وتاريخ هرقل (ص ١٢١) ، وابن شداد (في متون جمعية حجاج فلسطين ، ص ١٤٣) ، الى يمين جاي بأنه لن يحمل السلاح لقتال المسلمين . وورد في (Itinerarium, p. 25) ان الملك جاي وعد بـــأن يغادر المملكة، بينما قـــال (Ambroise, col. 70) ان جاي سوف يسير بحراً الى بلاده . وقال الملك فيما بعـــد انه اوفى بوعده ، بأن توجه من انطرطوس الى جزيرة ارواد . انظر : (Estoire d'Eracles, *II*, p. 131).

للداوية ورينالد شاتيون من سلطان عليه . ومع ان ريموند ورينالد اضحيا في عداد الموتى ، فإن مرارة المنازعات ظلت مستمرة . وإذ ازدحم اللاجئون وراء اسوار صور ، لم يتبقَّ للنبلاء الذين تجرّدوا من الاقطاعات إلا ان يكيل كل منهم التهم للآخر . ذلك ان باليان وأصدقاءه الذين لم يتعرضوا للأسر ، رضوا بكنراد مونتفيرات قائداً لهم ، بعد ان رأوا انه وحده هو الذي انقذ صور . اما انصار جاي لوزيجنان الذين خرجوا من الحبس بعد ان فاتت اسوأ ما صادفوه من الازمات ، فإنهم اعتبروا كنراد دخيلاً ، ومنافساً قوياً للملك جاي لوزيجنان . وما حدث من إطلاق سراح جاي زاد النزاع حدة ، ولم يؤد الى ازدياد قوة الفرنج[١] .

التنافس بين جاي لوزجنان وكنراد مونتفيرات سنة ١١٨٨ :

لجأت الملكة سبيللا الى طرابلس ، كيما تفر فيما يبدو من الجو الطافح بالعداء لزوجها . ولما مات ريموند في خريف سنة ١١٨٧ ، انتقلت طرابلس الى بوهمند امير انطاكية ، وهو ابن صغير ، لإبن عم ريموند . ولعلّ السر في ان بوهمند لم يعترض على التفاف انصار لوزيجنان حول الملكة سبيللا بطرابلس ، يرجع الى ما اشتهر به بوهمند من التراخي او الكسل ، او الى امتنانه ، فيما يبدو لتعزيز الحامية في طرابلس . ولم يكد يطلق سراح جاي حتى لحق بها في طرابلس . ولم يلبث ان عثر على احد رجال الدين ،

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 707 - 711.
اشتد ابن الاثير في نقد سياسة صلاح الدين .

فأجاز له التحلل من اليمين التي بذلها لصلاح الدين ، إذ جرى اخذها منه تحت الضغط والشدة ، ولأنها قد بذلت لغير مسيحي . ولذا تعتبر في نظر الكنيسة يميناً باطلة . فغضب صلاح الدين حينما سمع بذلك ، غير انــه لم يدهش كثيراً ، وبعد ان قام جاي بزيارة انطاكية حيث لم يبذل له بوهمند إلا وعــداً غامضاً بالمساعدة ، ارتحل مع انصاره من طرابلس الى صور ، وقد عزم على ان يتولى حكومة مــا تبقى من مملكته السابقة . غير ان كنراد اغلق في وجهه الابواب . إذ ان من رأى حزب كنراد ان جاي فقد مملكته في حطين وفي اثناء اسره ، لأنه تركها دون حكومة ، وكادت تضيع بأجمعها لولا تدخل كنراد . وردّ كنراد على طلب جاي بأن يستقبله على انه ملك ، انه تولى صور نيابة عن الملوك الصليبيين القادمين لإنقاذ الارض المقدّسة ، وينبغي على الامبراطور فردريك ، وملكي فرنسا وانجلترا ان يقرروا ايهما ينبغي ان يعهد اليه امر الحكومة ، كانت ذلــك دعوى عادلة ، تلائم كنراد . وإذا صحّ لرتشرد ملك انجلترا ، باعتباره السيد الأعلى لبيت لوزيجنان في جبين ، ان ينتصر لدعوى جـــاي ، فإن الامبراطور فردريك وفيليب ملك فرنسا كانا من ابناء عمومة كنراد وأصدقائه . عاد جاي مع انصاره حزينا الى طرابلس[1] . وتحسنت احوال الفرنج بما حدث وقتذاك من انصراف صلاح الدين ، بعد ان تفرق شطر من عساكره ، الى إخضاع القلاع الواقعــة بشمال سوريا ، وبأنه ارسل في يناير سنة ١١٨٩

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 256 - 257.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 123 - 124.
Ambroise, cols. 71 - 73.
Itinerarium, pp. 59 - 60.

كتائب اخرى الى اوطانها . ثم سار صلاح الدين في مارس سنة ١١٨٩ عائداً الى حاضرة ملكه دمشق ، بعد ان أمضى الشهور الاولى من هذه السنة في بيت المقدس وعكا كيما يعيد تنظيم ادارة فلسطين[١] .

على ان جاي قدم للمرة الثانية مع سبيللا الى صور في ابريل سنة ١١٨٩ ، وطلب ايضاً ان يتولى حكومة المدينة . وإذ صادف في كنراد ما سبق ان لمسه فيه من العناد ، عسكر امام اسوارها . وحوالي ذلك الوقت وصلت من الغرب أمداد بالغة القيمة . والمعروف ان البيازنة والجنوبيين اشتبكوا ، عند سقوط بيت المقدس ، في يدي صلاح الدين ، في احدى الحروب التي درجوا عليها . غير ان من الانتصارات التي احرزها البابا جريجوري الثامن ، اثناء الفترة القصيرة التي تولى فيها البابوية ، ما دار من مفاوضات لعقد هدنة بينهم ، وبذل البيازنة الوعد بارسال اسطول للاشتراك في الحرب الصليبية . وخرج البيازنة فعلاً قبل نهاية السنة (١١٨٩) ، غير انهم امضوا الشتاء في مسينا ، ووصل اسطولهم المؤلف من اثنين وخمسين سفينة بقيادة يبالدو رئيس اساقفة بيزا ، تجاه صور في ٦ ابريل سنة ١١٨٩ ، غير ان يبالدو لم يلبث فيما يبدو ان تشاجر مع كنراد ، فلما ظهر جاي ، انحاز اليه البيازنة . وظفر جاي ايضاً بمساعدة العساكر الصقلية . ووقع في اوائل الصيف اشتباك خفيف بين الفرنج والمسلمين ، غير ان صلاح الدين لا زال يؤثر لجيوشه الراحة ، كما ان

---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 380 - 381.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 140 - 141.

المسيحيين توقعوا قدوم امداد اخرى من الغرب . وحدث فجأة في نهـاية اغسطس سنة ١١٨٩ ان رفـع جاي معسكره ، وشرع في المسير بأتباعه صوب الجنوب ، ملتزماً الطريق الساحلي ، كـيما يهاجم عكا ، بينما اقلعت سفن البيازنة والصقليين ، لمصاحبته اثناء السير .

والواقع ان هذه كانت حركة تهور يائسة ، وقراراً لرجل شجاع ، غير انه شديد الحماقـة . وإذ لم تتحقق رغبته في ان يحكم في صور ، اضحى جاي في حاجة ماسة الى مدينة ، يستطيـع منها ان يعيد بناء مملكته . واشتدت العلة بكنراد وقتذاك ، فتراءى لجاي ان فرصة طيبة سنحت له كيما يظهر على انه الزعيم القوي للفرنج . غير ان الخطر كان جسيماً . إذ ان مقدار الحامية الاسلامية بعكا يزيد على ضعف كل جيش جاي . كما ان قوات صلاح الدين النظامية ، كانت ظاهرة للعيان عند قدومها من البحر . ولم يكن بوسع احد ان يتكهن بأن مغامرة جاي سوف تنجح ، غير ان للتاريخ مفاجآته . فإذا كان النشاط الفائق لكنراد حفظ للعالم المسيحي ما تبقى من فلسطين ، فإن حماقة جاي الرائعة هي التي حولت المدّ ، واستهلّت فترة استعادة الارض المقدّسة (١) .

لما بلغ صلاح الدين نبأ حملة جاي لوزجنان ، كان ينزل بالتلال الواقعة

---

(١) انظر :

Ernoul , p . 257 .
Estoire d'Eracles, II, pp. 124 - 125.
Ambroise, cols. 73 - 74 .
Itinerarium, pp. 60 - 62.
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 143 - 144.

خلف صيدا ، يحاصر قلعة شقيف ارنون . وهذه القلعة التي تقع على صخرة مرتفعة تطل على نهر الليطاني كانت بحوزة رينـــالد سيد صيدا ، الذي استطاع بفضل دهائه ان يحافظ عليها حــتى وقتذاك ، إذ توجه الى مقر صلاح الدين فحاز اعجاب السلطان وحاشيته ، بما ابداه من التقدير العميق للآداب العربية ، وميله الى الاسلام ، وألمع الى انه يود الإقامة بدمشق بعد اعتناق الاسلام ، بعد امهالة فترة وجيزة . غــير ان الشهور انقضت دون ان يحدث من الأمور سوى تدعيم استحكامات قلعة شقيف ارنون . ثم حدث آخر الأمر ، في اوائل شهر اغسطس ، ان صرح صلاح الدين ان الوقت حان للتأكد من نوايا رينالد بإذعان حصن شقيف ارنون . وتقرر نقل رينالد تحت الحراسة الى باب القلعة ، حيث اصدر امره باللغة العربية الى قائد الحامية بتسليم القلعة ، غير انــــه طلب اليه باللغة الفرنسية ان يقاوم ويمتنع عن التسليم . وأدرك العرب الحيلة ، غير انهم لم يكونوا من القوّة ما يجعلهم يستولون عنوة على القلعة ، وبينما توجه صلاح الدين بقواته لمنازلة القلعة ، تقرر إلقاء رينالد في الحبس بدمشق (١) . اعتقد صلاح الدين اول الأمر ان جاي لم يقصد بمسيره سوى ان يصرف الجيش الاسلامي عن قلعة شقيف ارنون ، غير ان جواسيسه لم يلبثوا ان انهوا اليه ان عكا هي هدف جاي لوزجنان . وعندئذ اراد صلاح الدين ان يهاجم الفرنج عند تسلقهم درج صور او ارتقائهم رأس الناقورة ، غير ان مجلسه لم يوافق ، إذ أشار رجاله انه لخير من ذلــك ان يتركوهم حتى يبلغوا عكا ، ثم

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 140 - 143, 150 - 151 .

يدركونهم بعد حصرهم بين حامية عكا والجيش الرئيسي للسلطان . وإذ تعرّض صلاح الدين وقتذاك لوعكة ، لم يسعه إلا النزول على رأيهم [1] .

وصول جاي لوزجنان الى عكا سنة ١١٨٩ :

وصل جاي لوزجنان الى ظاهر عكا في ٢٨ اغسطس ، فأقام معسكره على تـل تيرون ، المعروف حالياً باسم تل الفخار ، الذي يقع على مسافة ميل الى الشرق من المدينة ، قرب نهر بيلوس ، الذي امد رجاله بالماء . ولما فشل جاي في اول محاولة قام بها ، بعد مضي ثلاثة ايام على وصوله، في الاستيلاء على المدينة (عكا) عنوة ، اقام منتظراً قدوم الامداد [2] . وكانت عكا تقع على شبه جزيرة صغيرة تمتد جنوباً الى داخل خليج حيفا ، يحميها البحر من الجنوب والغرب ، وسور متين يقع على ساحل البحر . ويمتد حاجز للأمواج متقطع صوب الجنوب الغربي الى صخرة يعلوها برج اشتهر باسم برج الذباب . ومن وراء الحاجز تقع الميناء التي تحتمي من كل شيء ما عدا الرياح التي تهب من جهة البحر . أما شمال المدينة وشرقيها فكان يحميها سوران ضخمان يلتقيان في زاوية قائمة عند حصن صغير اشتهر باسم البرج الملعون ، في الطرف الشمالي الشرقي . وعند كل طرف للسورين ، قرب الشاطىء ، يقع على البر بابان ، وللمدينة باب ضخم من جهة

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 154, 175.
Ibn al - Athir, II, p. 6.
Ambroise, cols. 74 - 75.

(٢) انظر : Ernoul, pp. 358 - 359.
Estoir d'Eracles, II, pp. 125 - 126.

البحر ، ويفتح على الميناء ، بينما يطل باب آخر على مرمى السفن الذي يتعرّض للرياح الغربية السائدة . وكانت عكا ، زمن ملوك الفرنج تعتبر اغنى مدينة بالمملكة ، والمقر الأثير عندهم . ودرج صلاح الدين على التردّد عليها وتفقدها في الشهور الأخيرة ، واهتم بإصلاح ما انزله بهـــا عساكره من ضرر حينما استولى عليها (سنة ١١٨٧) . فأضحت حصناً منيعاً ، ترابـط به حامية قوية ، وتتوافر به المؤن ، وغدا من القدرة ما يحمله على المقاومة زمناً طويلاً [١] .

اخذت الامداد تصل من الغرب منذ اوائل شهر سبتمبر سنة ١١٨٩ ، فكان اول ما قدم منها ، اسطول ضخم للدانيين والفريزيان ، يقل عسكراً ينقصهم التدريب ، غير ان بحارته اشتهروا بالمهارة ، وكان لا غنى عن سفنهم عند إلقاء الحصار على المدينة من جهة البحر ، ولا سيما بعد ان أدت وفـاة وليم الثاني ملك صقلية الى انسحاب الاسطول الصقلي [٢] . وبعد بضعة ايام ، قدمت سفن من ايطاليا تقل وحدة من العساكر الفلمكية

---

(١) انظر وصف عكا في :

Enlart : Les Monuments des Croisés, vol, II, pp. 2 - 9.

Itinerarium, pp. 75 - 76.

Estoire d'Eracles, II, pp. 127 - 128.

(٢) انظر :

اشار أمبرواز الى البحارة القادمين من لامارش وكرنوال .

Ambroise, col. 77.

Itmerarium, pp. 64 - 65.

Riant : Expeditions des Scandinaves, pp. 277 - 283.

والفرنسية ، بقيادة الفارس النابه جيمس افيسنيز [1] ، وكونتات بار وبريين ودريه ، وفيليب اسقف بوفيه . ووصل قبل نهاية الشهر جماعة من الالمان بقيادة لويس سيد ثورنجيا الذي آثر ان يسير بحراً بأتباعه ، على ان يصحب الامبراطور فردريك بربروسه . وقدم معه كونت جيلدر وجماعة من الايطاليين بقيادة جيرار ، رئيس اساقفة رافنا ، وأسقف فيرونا .

صلاح الدين يتحرك الى عكا سنة ١١٨٩ :

انزعج صلاح الدين لوصول الامداد ، فشرع في حشد اتباعه مرة اخرى ، وقـدم من شقيف ارنون في شطر من الجيش ، بعد ان ترك فصائل قليلة لتستكمل اخضاع القلعة . على ان هجومه على معسكر جاي لوزجنان في ١٥ سبتمبر باء بالفشل ، بينما استطاع تقي الدين عمر ، ابن اخيه ، ان يخترق خطوط الفرنج وأن يوطد الاتصال بالباب الذي يقع بشمال المدينة ، وأقام صلاح الدين معسكره على مسافة صغيرة الى الشرق من المعسكر المسيحي ، ولم يلبث الفرنج ان احسوا ان بوسعهم ان يشنوا هجومـاً على المدينة . واستطاع لويس سيد ثورنجيا ، عند اجتيازه صور ، ان يقنع كنراد مونتفيرات باللحاق بجيش الفرنج ، طالما لم يلتزم بالخضوع لقيادة جاي لوزجنان . وفي ٤ اكتوبر سنة ١١٨٩ قام الفرنج بهجوم كبير على خطوط صلاح الدين ،

---

(١) انظر : Ambroise, loc. cit.
Benedict of Petersborough, II, pp. 94 - 95.
Itinerarium, pp. 67 - 68, 73 - 74.
اشار الى اسقف بوفيه وأتباعه ، والى الايطاليين ، والألمان الثورنجيين .

بعد ان حصنوا معسكرهم وتركوا قيادته لجفري شقيق جاي . كانت معركة حامية الوطيس ، إذ لجـأ تقي الدين ، الذي قاد ميمنة الجيش الاسلامي ، الى استدراج الداوية الذين كانوا يواجهونه ، غير ان صلاح الدين نفسه خدعته هـذه المناورة فأضعف قلب الجيش كيما ينجد تقي الدين . وترتب على ذلـك ان عساكر الميمنة والقلب لاذوا بالفرار ، وتكبدوا خسائر فادحة ، وأطلق بعض عساكره العنان لخيولهم حتى بلغوا طبرية . بـل ان كونت بريين توغل في سيره حتى خيمة صلاح الدين . غير ان ميسرة الجيش الاسلامي ظلت سليمة متماسكة ، ولما اخترق المسيحيون صفوف هذه الميسرة لمطاردة الفارين ، حمل صلاح الدين عليهم ، وردهم الى معسكرهم ، وقـد اضطرب نظامهم ، وفي نفس الوقت تعرّض معسكرهم لهجوم من قبل الحامية الاسلامية بعكا . وصمد جفري لوزجنان بالمعسكر ، ولم يلبث الجانب الاكبر من الجيش المسيحي ان استقر وراء استحكاماته ، التي لم يخاطر صلاح الدين بشن الهجوم عليها . ولقى عدد كبير من فرسان الفرنج ، ومن بينهم اندرو بريين ، مصارعهم على ساحـة المعركة . واشتد ذعر العساكر الالمانية ، وحلت بهـم خسائر فادحة ، وازدادت خسائر الداوية . إذ ان مقدم الداوية ، جيرار ريدفورت الذي كان مستشار السوء للملك جاي في الايام السابقة على معركة حطين ، وقع في الأسر ، ودفع ثمن حماقاته بوفاتـه . ولم يفلت كنراد نفسه من الاسر إلا بفضل مروءة منافسه ، الملك جاي [١] .

---

(١) انظر : Ambroise, cols, 78 - 81.
Itinerarium, pp. 68 - 72.

كان النصر حليف المسلمين ، غير انه لم يكن نصراً كاملاً ، لأن المسيحيين لم يطردوا من مواضعهم ، كما انه قدمت لهم اثناء الخريف مساعدة اضافية من الغرب ، إذ وصل في نوفمبر اسطول اللندنيين ، الذين شجعهم ما احرزوه من نجاح في البرتغال [١] . ويشير المؤرخون الى ان اعداداً كبيرة اخرى من الصليبيين جاءت من نبلاء فرنسا والفلاندر وايطاليا ، بل من المجر والدانمرقة [٢] ورفض عدد كبير من فرسان الغرب ان ينتظروا ملوكهم الذين نزعوا الى التمهل والإبطاء . وبفضل هذه القوة المحتشدة ، استطاع الفرنج ان يتموا حصار عكا من جهة البر . على ان صلاح الدين كان يتلقى ايضاً امداداً . ومـــا تردد من نبأ رحلة الامبراطور فردريك الذي بعث الشجاعة عند المسيحيين ، حمل صلاح الدين على استدعاء اتباعه من جميع انحاء آسيا .

= Ralph of Diceto, II, p. 70.
Estoire d'Eracles, II, p. 129.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 162 - 169.

اورد ابن شداد وصفاً حياً لما حدث ، غير ان روايته لم تطابق ما ورد في Itinerarium ، اذ لم يشر ابن شداد الى ما قامت به حامية عكا من هجوم . غير أنه وصف مـــا سبق وقوعه من اشتباكات . انظر :

Beha ed - Din, pp. 154 - 162.
Abu Shama, pp. 415 - 422.

(١) جعل سبتمبر تاريخ وصول الاسطول الانجليزي .Itinerarium , p. 65 على انه اذا كانت التواريخ التي اثبتها بيترزبره ورالف ديكتو صحيحة . انظر ما سبق ص٣٠ حاشية ٢ ، فيعتبر شهر نوفمبر اسبق ميعاد يصح أن تصل فيه السفن الى سوريا .

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 73 - 74.
Ambroise, col, 84.

لم يرد ذكر لتاريخ وصول كل من هذه الفئات .

بل انه كتب الى المسلمين في مراكش واسبانيا يخطرهم انه اذا كان العالم المسيحي بالغرب يرسل بفرسانه للقتال من اجل الارض المقدّسة ، فلا بد للعالم الاسلامي ان يفعل ذلك . فردوا عليه يبدون عطفهم ، غير انهم لم يبذلوا مساعدة ايجابية [1] . ومع ذلك فإن جيش صلاح الدين اضحى من الضخامة ما يكفي لفرض الحصار على المسيحيين ، إذ ألقى الحصار على المسيحيين الذين حصروا عكا من جهة البر . وفي ٣١ اكتوبر سنة ١١٨٩ استطاعت خمسون سفينة اسلامية ان تشق طريقاً لها بين اسطول الفرنج وأن تجلب الى عكا المؤن والذخائر ، برغم التضحية ببعض السفن ، وفي ٢٦ ديسمبر سنة ١١٨٩ نجح اسطول مصري ضخم في إعادة الاتصال بالميناء [2] .

هدوء الموقف سنة ١١٩٠ :

ظلّ الجيشان الاسلامي والمسيحي ، يواجه أحدهما الآخر طوال فصل الشتاء ، دون ان يجسر كل منهما ان يشتبك في قتال خطير . وقعت بعض المناوشات والمبارزات ، غير انه في الوقت ذاته أخذت روابط الاخوّة تزداد نمواً ، إذ صار الفرسان من كلا الجانبين يعرف كل منهما الآخر ويجلّه ويحترمه ، فيتوقف القتال ريثما يتبادل القادة عبارات التحية والمودة ، وقد يدعى جنود العدو ليشهدوا الحفلات والملاهي في كلا المعسكرين . وحدث ان خرج الصبيان في المعسكر الاسلامي لمنازلة الصبيان المسيحيين على

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 171, 175 - 178.
Abu Shama, pp. 497 - 506.

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 77 - 79.
Ambroise , cols . 84 - 85 .
Abu Shama, pp. 430 - 431.

سبيل الفكاهة والمرح . واشتهر صلاح الدين بما كان يبديه من العطف والرفق بالمسيحيين الأسرى ، وبما كان يوجهه من رسائل دمثة وهدايا الى الأمراء المسيحيين . ودهش المتشددون في الدين من أتباعه لما أصاب الجهاد الديني الذي سبق ان توسل للخليفة ان يجهر به ، كما ان الفرسان القادمين حديثاً من الغرب لم يلقوا ما ييسر لهم إدراك الموقف وفهمه . فالمرارة انجابت في الظاهر عن الحرب ، غير ان كلا الجانبين ما زالا يصرّان على تحقيق النصر [١] .

وعلى الرغم من هذه العلاقات الدمثة ، فإن الحياة في المعسكر المسيحي كانت في ذلك الشتاء بالغة القسوة ، إذ تضاءلت المؤن ولا سيا بعد ان فقد الفرنج السيطرة على البحر . وكلما أخذ الطقس يزداد دفئاً ، أضحت المياه مشكلة ، وتداعت التدابير الصحية . فتفشى المرض بين العساكر ، ولإصلاح ما تعرّض له رجالها من متاعب ، أجرى جاي وكنراد اتفاقاً ، يقضي بأن يكون لكنراد صور فضلاً عن بيروت وصيدا بعد استردادهما ، على ان يعترف بجاي ملكاً ، ولما استقرّ الصلح بينهما على هذا النحو ، غادر كنراد المعسكر في مارس سنة ١١٩٠ ، ثم عاد من صور في نهاية الشهر بسفن تحمل مؤناً وأسلحة . على ان اسطول صلاح الدين أقلع من ميناء عكا ليعترض طريقها ، ودارت معركة حامية ارتدّت بعدها السفن الاسلامية على أعقابها برغم استخدامها النيران الاغريقية ، فاستطاع كنراد ان يُنزل الى البر ما جلبه من سلع . وبفضل المساعدة الناجمة عن مؤن ومواد التي جلبها كنراد ، شيّد الفرنج أبراجاً خشبية للحصار ، حاولوا في ٥

---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 412 - 433.
Ibn al - Athir, II, pp. 6, 9.

مايو سنة ١١٩٠ ان يجربوها في مهاجمة المدينة ، غير انهـا احترقت [١] . ولم تلبث الجاعة والمرض ان ظهرا من جديد في المعسكر المسيحي ، ولم يلقوا العزاء إلا في أنهم علموا ان كان بعكا ايضاً مجاعة ، على الرغم من ان السفن الاسلامية جاهدت من حين الى آخر في شق طريقها الى الميناء ، تجلب مؤنـاً جديدة الى عكا [٢] : وانحـاز الى جيش صلاح الدين طوال فصل الربيع امداد اسلامية . وفي ١٩ مايو الموافق سبت النور ، اخذ يوجّه هجومه الى المعسكر ولم يرتدّ عنه إلا بعد قتال استمر ثمانية ايام [٣]. ودارت المعركة الشاملة التالية يوم عيد القديس يعقوب ، ٢٥ يوليه سنة ١١٩٠ ، حين قـام عساكر الفرنج يقودهم السرجندارية ، وعلى كره من قادتهم ، بهجوم جرىء على معسكر تقي الدين على ميمنة صـلاح الدين ، فحلّت بهم هزيمة ساحقة ، وهلك عدد كبير منهم ، وحينا هرع لنجدتهم فارس انجليزي كبير ، اسمه رالف التا ريبا ، رئيس شمامسة كولشستر ، لقي مصرعه [٤] .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 79 - 85.
Ambroise, cols. 85 - 92.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 178 - 180.
Ibn al - Athir, II, pp. 18 - 21.

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 85 - 86, 88.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 181 - 182.

(٣) انظر : Itinerarium, pp. 87 - 88.

(٤) انظر : Itinerarium, pp. 89 - 91.
Ambroise, cols, 93 - 94 .

أخطأ امبرواز في جعل عيد القديس يوحنا بدلاً من عيد القديس يعقوب هو التاريخ الذي وقعت فيه المعركة . انظر :

Estoire d'Eracles, II, p. 151.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 193 - 196.

وفي اثناء الصيف قدم الى المعسكر جماعة اخرى من نبلاء الصليبين وجرى الترحيب بهم ، على الرغم من ان قدوم كل عسكري جديد ، لا بد من توفير المؤونة له . ومن هؤلاء القادمين كبار النبلاء الفرنسيين والبرجنديين الذين سبقوا في قدومهم ملكهم ، امثال تيبالد كونت بلوا ، وشقيقه ستيفن كونت سانكيرا ، الذي سبق ترشيحه على كره منه للزواج من الملكة سبيللا ، ومنهم أيضاً رالف كونت كليرمونت ، ويوحنا كونت فونتيني ، وألن كونت سانت فاليري ، فضلاً عن رئيس اساقفة بيزانسون ، وأسقفي بلوا وتول ، وجماعة من اعلام رجال الكنيسة . وتولى قيادتهم هنري تروي كونت شامبانيا ، وكان شاباً عريق الاصل ، لأن امه ، وهي ابنة اليانور كونتيسة اكيتانيا ، بمقتضى زيجتها الفرنسية ، تعتبر اختاً غير شقيقة لكل من ملكي انجلترا وفرنسا ، وكان كلا خاليه يفخران به . اضحى له على الفور مكانة خاصة ، باعتباره ممثلاً للملكين وطليعة لهما . فتولى فعلاً قيادة عمليات الحصار ، التي تولى ادارتها حتى وقتذاك جيمس افيسنيز وسيد ثورنجيا [1] . وإذ انتاب سيد ثورنجيا المرض ، الذي يصح ان يكون حمى الملاريا ، اتخذ من قدوم هنري شامبانيا ذريعة للعودة الى اوربا [2] . ووصل الى

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 92 - 94.
Ambroise, col, 94.
Beha ed - Din, P.P.T.S. p. 197.

كان هنري ابناً لهنري الاول كونت شامبانيا ، وكان ثيالد كونت بلوا وستيفن كونت سانكيير الاخوين الصغيرين لوالده . اما عمته أليكس ، فكانت الزوجة الثانية للملك لويس السابع ، وهي أم الملك فيليب ، وبذا يعتبر فيليب ابن خال هنري الشقيق ، وخالاً غير شقيق له ايضاً .

(٢) مات سيد ثورنجيا في طريق عودته الى بلاده . اتهمه رالف ديكيتو بأنه كان على علاقة بالعدو ، وأنه قبل منه مالاً . انظر :

Ralph of Diceto, II, pp. 82 - 83.

عـكا في اوائل اكتوبر سنة ١١٩٠ فردريك دوق سوابيـا بمن تبقى من جيش بربروسه [1] . وهبط الى صور بعـد ايام قليلة وحدة انجليزية ، ثم توجهت الى عكا ، وكان على رأسها بلدوين رئيس اساقفة كنتربري [2] .

القتال سجال بين المسلمين والمسيحيين سنة ١١٩٠ :

ظل القتـــال سجالاً طوال الصيف ، وصار كل فريق ينتظر قدوم الامداد التي تكفل له القيام بالهجوم . على ان سقوط قلعة الشقيف هيـأ لجيش صلاح الدين الرجال ، ولكن صلاح الدين سبق أن ارسل عساكر الى الشمال لتعترض طريق فردريك بربروسه ، ولم يعودوا حـتى حلول الشتاء . وفي تلك الاثناء وقعت مناوشات تخللهـا التآخي بين العساكر من كلا الجانبين . وأورد المؤرخون المسيحيون في ارتياح من الملاحظات ما يشير الى وقوع احداث عديدة ، انهزم فيها المسلمون ، ولقي فيها المسيحيون الجزاء الأوفى ، بفضل عون الله ومساعدته ، غير ان كل محاولة قاموا بها لارتقاء اسوار عكا ، باءت بالفشل . وشن فردريك دوق سوابيـا عقب وصوله هجوماً عنيفـاً ، ثم اعقب ذلك محاولة رئيس اساقفة بيزانسون تجربة ما جرى تشييده حديثاً من كباش لهدم الاسوار ، غير انـه تبدد

---

(١) جعل ابو شامة تاريخ قدومه ٤ اكتوبر ١١٩٠ . انظر :

Abu Shama, p. 474.

Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 209 , 213.

Itinerarium, pp. 94 - 95.

(٢) انظر : Itinerarium, p. 93.

كلا الهجومين (١) . وفي نوفمبر قام الصليبيون بإخراج صلاح الدين من موضعه ، تل كيسان ، الذي يقع على مسافة خمسة اميال من المدينة (عكا) ، غير انه استقر في تل الخروبة الذي لا يبعد إلا قليلاً عن تل كيسان ، ويعتبر اكثر مناعة منه . وهيأ هذا الاجراء للمسيحيين ان يشقوا طريقهم الى حيفا ، في حملة من اجل المؤن ، غير انها لم تفد إلا قليلاً في تخفيف وطأة الجوع في المعسكر . على ان الجوع والمرض لم تخل منهما المدينة (عكا) والمعسكران المسيحي والاسلامي . ولم يكن بوسع اي الجانبين ان يقوم بجهد كبير (٢) .

زواج كنراد من ايزابيلا سنة ١١٩٠ :

ومن ضحايا المرض في ذلك الشتاء ، الملكة سيبللا ، وسبقها الى الموت قبل بضعة ايام من وفاتها ، ابنتاها اللتان انجبتهما للملك

---

(١) انظر : Beha ed - Din. P.P.T.S. pp. 214 - 218.
Abu Shama, pp. 480 - 481.
اورد احداثاً ظهرت فيها المعجزات .
Itinerarium, pp. 97 - 109.
pp. 109 - 111.
pp. 111 - 113.
وهنا يشير الى برج الذباب . وفي هذا الموضع ايضاً يذكر هجوم رئيس اساقفة بيزانسون .
Ambroise, cols, 98 - 104.

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 115 - 119.
Ambroise, cols. 105 - 108.
Abu Shama, pp. 513 - 514.

جـاي [1] . فأضحت الاميرة ايزابيلا وريثة للملكة ، وصار تاج جاي محفوفاً بالخطر . إذ لم يفز جاي بالتاج إلا على انـه زوج الملكة . فهل ظلت هذه الحقوق له بعد وفاتها ؟ تراءى للبارونات القدامى بالمملكة ، بزعامة باليان ابلين ، أنه تهيأت لهم الفرصة للتخلص من حكم جـــاي الضعيف ، التعس الطالع . فرشحوا للعرش كنراد مونتفيرات ، فاذا تزوج من ايزابيلا ، فاقت دعاويه في العرش ما لدى جاي . غير ان هذا الحل اعترضته عقبات ، إذ ترددت الشائعات بأن لكنراد زوجـــة تعيش بالقسطنطينية ، والراجح أن كان له زوجـة اخرى بايطاليا ، ولم يحفل باجراء الطلاق او فسخ الزواج منها . غير ان ايطاليـا والقسطنطينية كانتا بعيدتين ، فلو اقام بها سيدتان هجرهما زوجها ، فمن اليسير نسيانهما وإغفالهما . اما المشكلة التي تعتبر بالغة الالحاح ، فتمثلت في انه لايزابيلا زوجاً ، هو همفري سيد تبنين ، الذي لم يكن فحسب على قيد الحياة ، بل كان نازلاً ايضاً في المعسكر . والمعروف ان همفري كان شاباً وسيماً شهماً مثقفاً ، غير ان جماله الفائق اضفى عليه من التخنث مـا لم يجعله

---

(١) ورد اسماهما ، أليس وماريا ، في : Estoire d'Eracles, II. p. 151.

أشار ارنول الى انه كان لها اربعة اطفال : Ernoul, p. 267.

جعل امبرواز وفاتها في نهاية اغسطس سنة ١١٩٠ : Ambroise, col. 104.

بينما ورد في مخطوطة من تاريخ ارنول انها ماتت في ١٥ يوليه سنة ١١٩٠ . وفي وثيقة محررة في عكا في سبتمبر سنة ١١٩٠ ، ورد ذكرها على انها ما زالت على قيد الحياة . وفي رسالة مؤرخة في اكتوبر سنة ١١٩٠ ، جرت الاشارة الى انها في عداد الموتى . ويقول روريخت انها ماتت في اول اكتوبر سنة ١١٩٠ ، انظر :

Röhricht, Registra, Addimentum, p. 67.
Epistolae Cantuarenses, pp. 228 - 229.

موضع احترام العساكر النازلين معه ، الذين اشتهروا بالصلابة ، كما ان البارونات لم ينسوا مطلقاً تخليه عن قضيتهم سنة ١١٨٦ ، حينما اتخذ جاي التاج ، متحدياً بذلك الشروط الواردة في وصية الملك بلدوين الرابع . ولذا قرروا انه لا بدّ من طلاق ايزابيللا منه . ولم يلقوا صعوبة في إقناع همفري بالموافقة على ذلك ، إذ لم يكن صالحاً للحياة الزوجية ، وكان شديد الخوف من تحمّل المسؤولية السياسية ، ولكن ليس من السهل ان تستجيب لهم ايزابيللا . إذ كان همفري يوليها دائماً العطف ، ولم ترغب في ان تستبدل به محارباً عبوساً في ربيع العمر ، كنراد مونتفيرات ، ولم تكن تتطلع الى العرش . على ان البارونات تركوا الأمر لأمها الملكة ماريا كومنينا ، زوجة باليان ، فاستخدمت كل ما للأم من سلطة في حمل الأميرة العاصية ، على التخلي عن همفري . ثم اعلنت الملكة ماريا كومنينا امام الاساقفة المجتمعين ان ابنتها ارغمها على الزواج عمها الملك بلدوين الرابع ، ولم تكن تتجاوز الثامنة من عمرها حين جرت خطبتها ، ونظراً لحداثتها البالغة ، ولما هو معروف عن همفري من التخنث ، فلا بدّ من إلغاء الزواج ، وإذ اشتد المرض بالبطريرك هرقل فلم يشهد الاجتماع ، عيّن رئيس اساقفة كنتربري ليمثله فيه . غير ان رئيس اساقفة كنتربري رفض إلغاء الزواج ، لما يعلمه من ان سيده الملك رتشرد شديد التعلق بإسرة لوزجنان . فأشار الى زيجة كنراد السابقة ، وإلى ان زواج كنراد من ايزابيللا يعتبر من قبيل الزنا الصريح . غير ان رئيس اساقفة بيزا ومندوب البابا انحاز الى جانب كنراد ، بعد ان حصل على وعد من كنراد ، حسبما جرى القول ، بالحصول على امتيازات تجارية لأبناء وطنه . أما اسقف بوفيه ، وهو ابن عم الملك فيليب فاستخدم مساندة المندوب البابوي للوصول الى اتفاق عام بتطليق ايزابيللا ، فتولى بنفسه اجراء زواجها من كنراد مونتفيرات في ٢٤ نوفمبر سنة ١١٩٠ .

وغضب مؤيدو لوزجنان لعقد زواج ألغى حق جاي في العرش ، ولقي هؤلاء المؤيدون كل عطف من اتباع رتشرد القادمين من انجلترا ونورمنديا وجين . على ان بلدوين رئيس اساقفة كنتربري والمتحدّث الاول باسمهم مات فجأة في ١٩ نوفمبر سنة ١١٩٠ ، بعد ان امر بأن يقطع من الكنيسة كل من ارتبط بهذا الأمر ، وبذل المؤرخون كل ما في وسعهم لتشويه ما اصابه من شهرة . بل ان جاي نفسه ذهب الى ما هو ابعد من ذلك ، فدعا كنراد الى المبارزة . وإذ ادرك كنراد ان الحق الشرعي اضحى في جانبه ، رفض ان يقبل مناقشة المسألة مرة اخرى . وقد يصح للوزجنانيين ان يعتبروا ذلك من قبيل الجبن ، غير ان كل الذين يحرصون في قرارة القلب على مستقبل المملكة ، ادركوا انه اذا كان للاسرة الملكية ان تظل باقية ، فلا بدّ لايزابيلا ان تتزوّج مرة اخرى ، وأن تنجب طفلاً . ويعتبر كنراد مخلص صور ، الشخص الذي وقع عليه الاختيار ليكون زوجاً لها .

ولجأ كنراد وايزابيلا الى صور بعد ان تمّ زفافهما ، فأنجبت ايزابيلا في السنة التالية ابنة ، اسمها ماريا تيمنا باسم جدتها البيزنطية ، ماريا كومنينا . وكان كنراد مصيباً حينما لم يشأ ان يتخذ لقب الملك حتى يتم تتويجه مع زوجته ، غير انه لم يرض بالعودة من صور الى المعسكر المسيحي ، لأن جاي رفض التخلي عن شيء من حقوقه [1] .

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 267 - 268.
Estoire d'Eracles, II, pp. 151 - 154.
(اورد اوفى رواية مجردة من العاطفة والتحيز) .
Ambroise, cols 110 - 112.
Itinerarium, pp. 119 - 124.

المجاعة في معسكر الفرنج سنة ١١٩١ :

استمرت متاعب الصليبيين وشدائدهم طوال شهور الشتاء . بينما قدمت امداد صلاح الدين من الشمال ، فازداد تضييق الحصار على معسكر الفرنج . ولم تعد المؤونة تصل بطريق البر ، ولم يهبط منها في اثناء شهور الشتاء على الساحل الاجرد إلا مقادير ضئيلة ، بينما استطاعت السفن الاسلامية في بعض الاحوال ان تشق طريقها الى مرفأ عكا الأمين . ومن السادة الذين هلكوا بسبب المرض الناشب في المعسكر ، تيبالد كونت بلوا ، وشقيقه ستيفن كونت سانكير[١] . ومات فردريك دوق سوابيا في ٢٠ ينـاير

= وفي هذين المصدرين عداء مرير لكنراد وباليان وماريا كومنينا ، اذ يشير المصدر الاخير الى ان ايزابيلا رضيت بالزواج عن طيب خاطر ، على حين ان تاريخ هرقل يوضح انهـا لم تقبل الزواج الا لكونه واجباً سياسياً عليها . وقبل همفري لأنه على حـد قول ارنول تلقى رشوة ، اذ اعادت له ايزابيلا اقطاع تبنين الذي كان في حيازة جده ، ثم اضافه الملك بلدوين الرابع الى املاك التـاج . ومن المحقق ان زوجة كنراد الايطالية ماتت قبل ان يتزوج الاميرة البيزنطية ثيودورا الجلينا (انظر Nicetas Choniates, p. 497) . ويبـدو من رواية نكيتاس ان زوجة كنراد البيزنطية ماتت ايضاً . (انظر Nicetas Choniates, pp. 516 - 517) . اما جاي سنليس الساقي الذي تحدى همفري للخروج الى مبارزته اذا عارض في طلاق ايزابيلا فانه وقع في اسر المسلمين عشية زفاف ايزابيلا وكنراد .

(١) ورد خبر وفاة ثيبالد وأخيه ستيفن في :

Haymar Monachus, De Expugnatme Acconis p. 38.

وانظر : Itinerarium, pp. 124 - 134.

عن شدائد الصليبيين ومحنهم ، كما اورد قصيدة في هجاء كنراد .

ووجه امبرواز ايضاً اللوم الى كنراد (Ambroise, cols, pp. 112 - 115.)

وورد في ابن شداد اشارة الى وفاة الكونت ثيبالد (باليات) .

انظر : Beha ed - Din , P.P.T.S. p. 236 .

سنة ١١٩١ ، وأضحى الجند الالمان محرومين من قائدهم ، على الرغم من ان ابن عمه ، ليوبولد دوق النمسا ، الذي قدم من البندقية في زمن مبكر من فصل الربيع ، حاول ان يجعلهم تحت لوائه [١] . وبلغ المرض بهنري كونت شامبانيا من الشدة ، اسابيع عديدة ، حتى اضحت حياته امراً ميؤوساً منه [٢] . على ان عدداً كبيراً من العساكر ، ولا سيما الانجليز منهم ، وجهوا اللوم الى كنراد ، لما حلّ بهم من البؤس ، لأنه اضاع الوقت سدى في صور ورفض القدوم لنجدتهم . غير انه كيفما كان الباعث على ذلك ، فمن العسير ان ندرك ماذا كان باستطاعته ان يفعل شيئاً سوى ذلك ، إذ ان المعسكر اكتظّ بالناس ، فلا حاجة لهم به [٣] . وحدث من حين الى آخر ان جرت محاولات لارتقاء اسوار عكا ، ولا سيا يوم ٣١ ديسمبر سنة ١١٩٩ حين انصرف انتباه حامية المدينة (عكا) الى غرق سفينة اسلامية عند مدخل الميناء ، وكانت تحمل مؤناً لمساعدتهم . فشلت المحاولة التي بذلها المسيحيون لارتقاء الاسوار ، ولم يستطع الصليبيون ايضاً ان يفيدوا من انهيار جانب من سور المدينة من جهة البر ، بعد ستة ايام من هذا التاريخ .

وهرب عدد كبير من العساكر الفرنج وانحازوا الى المسلمين . وبفضل

---

(١) اشار ابن شداد الى وفاة فردريك دوق سوابيا ، انظر ابن شداد في الحاشية السابقة . امـا قدوم ليوبولد دوق النمسا مع جماعة من عساكر بلاد الراين ، واقتلاعهم من البندقية ، فورد ذكره في : Ansbert, Expedito Friderici, pp. 96 - 97 .
اذ اشار الى ان ليوبولد امضى الشتاء في زارا . وكان ابناً لأخ غير شقيق للامبراطور فردريك بربروسا ، وهو هنري دوق النمسا من زوجته ثيودورا كومنينا .

(٢) انظر : Beha ed - Din, loc. cit.

(٣) انظر : Itinerarium, loc. cit.

ما بذلوه من مساعدة ، وبفضل تفوّق نظام الجاسوسية عند صلاح الدين ، استطاع ان يرسل قوّة اقتحمت الخطوط الصليبية في ١٣ فبراير سنة ١١٩١ ، يصحبها قائد جديد وحامية جديدة لتخفف وطأة الحصار عن المدافعين عن المدينة ، الذين ارهقهم التعب . غير ان صلاح الدين تردّد في ان يوجه هجوماً حاسماً على المعسكر المسيحي ، إذ ان عدداً كبيراً من العساكر حلّ بهم الإرهاق والتعب ، ولما وصلت الامداد ، صرف بعض القوات لتلتمس الراحة . وما حلّ بالمسيحيين من بؤس ، كان يعمل لصالحه [١] .

لم يكن صلاح الدين مرة اخرى حكيماً في شدة تحمّله وصبره . فلما اقترب الصيامُ الكبير ، تراءى كأن الفرنج لن يبقوا طويلاً على قيد الحياة ، ففي معسكرهم ، لا يشترى بالدرهم الفضي عندهم سوى ثلاث عشرة من حبات الفول ، او بيضة واحدة ، أما غرارة القمح فأضحى ثمنها مائة قطعة من الذهب . وجرى ذبح عدد كبير من الجياد الاصيلة ، حتى يتزوّد اربابها بالطعام . وتناول سائر العساكر الحشائش ، وأخذوا يلوكون العظام العارية من اللحم . وحاول كبار رجال الكنيسة ان ينظموا نوعاً من المساعدة غير انه عطلهم جشع التجار البيازنة الذين سيطروا على معظم المؤن الغذائية . على انه حدث في مارس سنة ١١٩١ ، حين اشتد اليأس من الحصول على شيء من المؤن ، ان رست تجاه الساحل سفينة امتلأت قمحاً ،

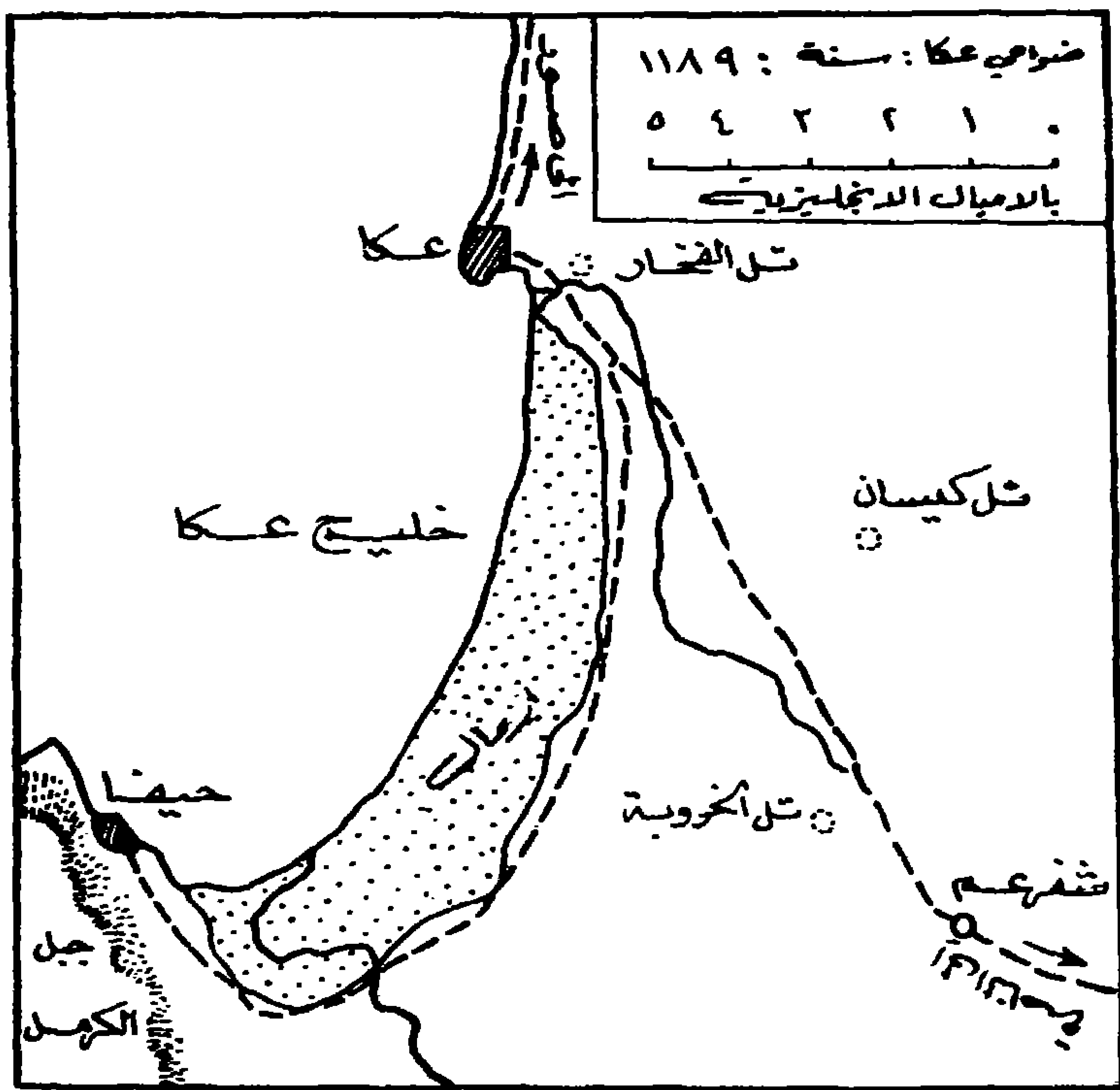
---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 517 - 518, 520.
Ibn al - Athir, II, pp. 32 - 33.

استطاعت ان تنزل الى البر حمولتها ، ولما تحسن الطقس تلتها سفن اخرى ولقيت هذه السفن حفاوة كبيرة ، لأنها لم تجلب فحسب مواداً غذائية ، بل حملت ايضاً انباء بـأن ملكي انجلترا وفرنسا اضحيا آخر الأمر في المياه الشرقية [1] .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 136 - 137.
Ambroise, cols. 119 - 120.



١ عكا وضواحيها

الفصل الثالث

رتشرد قلب الاسد

هبط الملك فيليب اغسطس الى المعسكر المسيحي امـام عكا في ٢٠ ابريل سنة ١١٩١ ، يوم السبت التالي لعيد القيامة ، بينما قدم الملك رتشرد بعد سبعة اسابيع ، يوم السبت التالي لعيد العنصرة . وقد مضى ما يقرب من اربع سنوات على معركة حطين ، وعلى استماتة الصليبيين في الاستنجاد بالغرب . على ان العساكر الذي ارهقهم القتال بفلسطين ، بلغ بهم السرور للترحيب بالملكين انهم غفروا ونسوا ما حدث من الارجاء الطويل الامد . ولكن المؤرخ الحديث يرى انه جرى شيء من الطيش والخفة فيما حدث من التمهل والشجار في رحلة رتشرد الى ساحة القتال حيث كانت الحاجة اليه شديدة الالحاح .

من اليسير ان ندرك السر في انـه لم يكن للملك فيليب ان يتعجل المسير ، إذ أنه لم يكن مثالياً ، ولم يتوجّه للحرب الصليبية إلا لضرورة سياسية ، لأنه لو امتنع عن الاشتراك في الحملة المقدسة فلن يفقد فحسب

عطف الكنيسة وحسن نيتها نحوه ، بل يضيع ايضاً اخلاص معظم رعاياه . غير ان مملكته لم تكن بنجوة من الخطر ، وحق له ان يرتاب في اطماع الأنجويين . ولم يكن بوسعه ان يغادر فرنسا إلا بعد ان علم ان منافسه ملك انجلترا اتخذ ايضاً طريقه . واقتضت الفطانة انـه ينبغي ان يسيرا سوياً . كما انه ينبغي ألا يوجه اللوم لأي الملكين لما سببته وفـاة ملكة فرنسا من الارجاء النهائي . وكان لرتشرد ايضاً اعذار خاصـة . إذ ان وفاة والده اجبرته على ان يعيد تنظيم مملكته . يضاف الى ذلك انه عزم ، مثلما فعل فيليب ، على ان يسير بطريق البحر . والمعروف أن السير في البحر في شهور الشتاء لم يكن امراً عملياً . غير انه متى اقدم هذا المحارب الصليبي الشديد الشغف على اجراء ذلك ، فان العجلة مهما قلّ قدرها تدل على افتقاره للغرض والمسئولية .

الملكان رتشرد وفيليب :

لم تخل اخلاق رتشرد من عيوب خطيرة ، فمن النـاحية البدنية كان ضخم الجثـة ، طويل القامة ، طويل الذراعين والساقين ، قوي البنية ، اصهب الشعر ، جميل الخلقة والتقاطيع . ولم يرث من أمه فحسب مـا اشتهر به بيت بواتو من طلاقة الوجه والنظرات المشرقة ، بل اخذ عنه ايضاً ، سهولة الطبع ، والشجاعة ، وتذوّق الشعر ، والعشق والهيام . وتبعه اصدقاؤه وحشمه لتعلقهم بـه وخوفهم منه . واستمد من والديه المزاج الحاد والارادة العاطفية ، غير انه لم يرث ما اشتهر به والده من الدهاء السياسي والكفاية الادارية ، ولم يحز ما اشتهرت به أمه ، الملكة اليانور ، من الحكم السديد . نشأ رتشرد وترعرع في اسرة خيّم على جوّهـا المنازعات والخيانات الاسرية ، وإذ لقي الحظوة عند أمه ، كره اباه ،

ولم يثق في اخوته ، على الرغم من انــه تعلق بأخته الصغرى جوانا . تعلم ان يكون عنيفاً ، غير انه لم يكن محارباً صادق الولاء . كان شحيحاً برغم اقتداره على البذل والسخاء ، وهوى المظهر الفاضح . امــا نشاطه فلا حدّ له . غير انه ينسى سائر المسئوليات اذا وجــه كل اهتمامه الى عمل عاجل . كان رتشرد يميل الى النظام ، على انه ضجر ذرعاً بالادارة . لم يشدّ انتباهه إلا فن الحرب . وباعتباره جندياً ، توافرت له مواهب صادقة ، مثل تقدير الخطط الحربية ، وفن المناورات في القتال ، والقدرة على قيادة الرجال . لم يتجاوز رتشرد وقتذاك الثالثة والثلاثين من عمره ، فكان في عنفوان حياته ، بالغ الطموح ، سبقته شهرته الى الشرق [1] .

أما فيليب اغسطس فكان بالغ الاختلاف . إذ صغر عمره عن رتشرد ثماني سنوات ، غير انه كان فعلاً ملكاً منذ اكثر من عشر سنوات . وما عاناه من تجربـــة مريرة أكسبته الحكمة . لم يضارع رتشرد في تركيب جسمه . كان قوي البنية ، ذا شعر كثيف أشعث ، فقدَ بصر احدى عينيه . لم يكن شجاعاً . وبرغم سرعة غضبه وميله الى المتعة ، ففي وسعه ان يخفي عواطفه ، لم يَهو المظاهر العاطفية او المادية . غلب على بلاطه الخشونة والتقشف ، فلم يحفل بالفنون ، ولم يحظ بقسط كبير من التعليم ، على الرغم من انه عرف قدر رجــال العلم ، والتمس صداقتهم من قبيل السياسة ، وحافظ على ذلك بلباقته وطلاوة حديثه . وباعتباره من رجال السياسة ،

---

(١) ورد وصف لشخصية رتشرد في : Itinerarium, p. 144.
وعن اخلاقه انظر المناقشة التي اوردهـــا ستبز في المقدمة التي كتبها للمصدر السابق (Itinerarium) ، وما ورد عنه في مواضع متفرقة في :
Norgate, Richard the Lion - Heart.

اشتهر فيليب بالصبر وشدة الملاحظة والدهاء والتجرد من الاخلاص ومن التزام العهود . غير انـه اشتهر بالاحساس الشديد بواجباته ومسئولياته . وبرغم الاهتمام الشديد بنفسه وباصدقائه . كان فيليب سخياً على الفقراء ، ويحميهم من كل من يظلمهم . ومع انه لم يكن رجلاً جذاباً او مقبولاً ، فانه كان ملكاً صالحاً . احتل مكانة خاصة بين الفرنج في الشرق ، اذ كان السيد الاعلى للأسرات التي انحدر منها معظمهم ، كما ان معظم الصليبيين الذين زاروا الشرق كانوا اتباعـاً له بطريق مباشر او غير مباشر . غير انهم زادوا في تقديرهم لرتشرد لشجاعته ، وبسالته ، وجاذبيته . وتراءى رتشرد عند المسلمين على انه أنبل من فيليب وأكثر ثراء منه ، وأعظم منه قدراً [١] .

ارتحل الملكان من فيزيلاي في ٤ يوليه سنة ١١٩٠ ، وأرسل رتشرد قبل خروجه ، الاسطول الانجليزي ليطوف حول ساحل اسبانيا ، ثم يلتقي به في مرسيليا ، غير انه كاد يحتفظ معه بكل قواته البرية التي حشدها من املاكه ، وكان جيش فيليب اقل عدداً ، نظراً لأن عدداً كبيراً من اتباعه سبقوه في التوجه فعلاً الى الشرق . وسار الجيش الفرنسي ، وفي أثره الجيش الانجليزي من فيزيلاي الى ليون . وحدث في ليون ، وبعد ان عبر الفرنسيون ، ان انهار الجسر المقام على نهر الرون تحت ثقل الحشود الانجليزية ، فزهقت ارواح كثيرة ، وتأجل السير فترة من الزمن حتى تم

---

(١) وردت قصيدة مدح في فيليب ، في :
Continuation of William the Breton, p. 323.
وفي صفحات رحلة ريتشرد (Itinerarium) تصادف أسوأ تفسير لأخـلاق فيليب .
انظر عنه ايضاً : Cartellieri, Philippe, II, August.

تدبير نقل العساكر . ولم يلبث الملكان ان افترقا ، بعد مغادرة ليون ، فتوجه فيليب صوب الجنوب الشرقي ، مجتازاً سفوح التلال الالبية ، فبلغ الساحل عند نيس ، ثم سار على امتداد الساحل حتى جنوه ، حيث كانت السفن في انتظاره . اما رتشرد فتوجه الى مرسيليا ، حيث لحق بـه اسطوله في ٢٢ اغسطس سنة ١١٩٠ . ولم يقع للاسطول الانجليزي من الاحداث ، سوى تمهله في شهر يونيه لفترة وجيزة في البرتغال ، حيث بذل البحارة المساعدة للملك سانكو لرد غزاة قام بها سلطان المغرب . وأبحر من مرسيليا الى فلسطين مباشرة ، جماعة من اتباع رتشرد بقيادة بلدوين رئيس اساقفة كنتربري ، غير ان الجيش الرئيسي استقل عـدة حمالات الى مسينا في صقلية ، حيث كان من المفروض الالتقاء مرة اخرى بالجيش الفرنسي[1] .

تانكرد ملك صقلية ، سنة ١١٩٠ :

حينما أعد ملكا فرنسا وأنجلترا خطتهما اول الأمر للقيام بحملة صليبية مشتركة ، قررا بناء على اقتراح وليم الثاني ملك صقلية ، ان تحتشد قواتهما في هذه الجزيرة . غير ان الملك وليم الثاني قد مات في نوفمبر سنة ١١٨٩ .

---

(١) انظر عن رحلة الملك رتشرد في فرنسا :

Itinerarium, pp. 149 - 151.
Ambroise, cols. 11 - 14.
Benedict of Petersborough, II, pp. 111 - 115.
Rigord, pp. 98 - 99.
William the Breton, pp. 95 - 99.

والمعروف انه تزوّج من شقيقة رتشرد ، جوانا الانجليزية ، غير ان هذا الزواج كان عقيماً ، فلم تنجب جوانا ذرية ، وبذا اضحت كونستانس عمة وليم الثاني ، وزوجة هنري هوهنشتاوفن اكبر ابناء فردريك بربروسه ، ووريثة له . والواقع ان عدداً كبيراً من اهل صقلية كانوا يكرهون فكرة ان يتولى امرهم حاكم الماني . على ان مؤامرة صغيرة ، ساندها البابا كليمنت الثالث الذي انزعج لما سوف يحدث من سيطرة اسرة هوهنشتاوفن على جنوب ايطاليا ، ادت الى ان يلي العرش مكان كونستانس وهنري ، تانكرد كونت ليتشي وهو ابن عم غير شرعي للملك الراحل . كان تانكرد رجلاً ضئيل الجسم ، قبيح الخلقة ، لا يثير شيئاً من الاهتمام ، ألفى نفسه على الفور منغمساً في المشاكل . إذ اعلن المسلمون في صقلية الثورة عليه ، وتعرّضت بلاده في بر ايطاليا للغزو من قبل الالمان . وكان لزاماً على تانكرد ان يستدعي رجاله وسفنه من فلسطين ، وبفضلهم انزل الهزيمة بأعدائه . ومع انه كان مستعداً لأن يستقبل الملكين اللذين خرجا في حملة صليبية ، بما يليق بهما من التشريف ، وأن يمدهما بالمؤن ، غير انه لم يكن في وضع يجيز له ان يصحبهما في حملة صليبية (١) .

غادر الملك فيليب ميناء جنوه في نهاية اغسطس سنة ١١٩٠ ثم وصل الى مسينا في ١٤ سبتمبر بعد رحلة هينة إزاء الشاطىء الايطالي ، وإذ كره الأبهة والمظاهر ، اتخذ طريقه الى داخل المدينة ، بعد ان حرص على ألا

---

(١) عن تانكرد ووضعه انظر :

Chalandon, Domination Normande en Italie, II, pp. 419 - 424.

يشعر به او يلحظه احد ، غير انه بناء على اوامر تانكرد ، جرى الاحتفال باستقباله ، وتقرر ان يحل بالقصر الملكي في مسينا . أما رتشرد فإنه عزم على ان يسير براً من مرسيليا ، إذ انه فيما يبدو سئم رحلات البحر ، ولا شك ان ذلك يرجع الى ما يتعرّض له من دوار البحر . وتولى اسطوله نقل جيشه الى مسينا ، وألقى مراسيه تجـاه الميناء ، في انتظار قدومه ، بينما اتخـذ رتشرد في حاشيته الصغيرة الطريق الممتد على الساحل مخترقاً جنوا وبيزا وأوستيا الى سالرنو . وانتظر في سالرنو حـــتى سمع بوصول اسطوله الى مسينا ، وعندئذ ارسل فيما يبدو معظم رجاله بطريق البحر الى مسينا ، لينتظروا قدومــه . بينما واصل رتشرد السفر وحده ، ممتطياً جواده ، ولم يصحبه إلا تابع واحد . وحينما سار قرب مدينة ميلينو الصغيرة ، في اقليم كلابريا ، حاول ان يسرق صقراً من بيت احد الفلاحين ، فكاد يتعرّض للموت على ايدي اهــل القرية . ولذا تكدّر مزاجه حينما وصل الى مضيق مسينا بعد يوم او يومين . التقى به رجاله على الساحل الايطالي فحملوه في احتفال كبير وأبهة عظيمة الى مسينا ، حيث هبط اليها في ٣ سبتمبر سنة ١١٩٠ . وما اقترن به دخوله الى مسينا من الأبهة الفائقة ، يعتبر نقيضاً حاداً لما اتصف به وصول فيليب من التواضع .

وحينما اجتاز رتشرد ايطاليا ، وقف على امور كثيرة كدّرت خاطره نحو تانكرد ، منها ان اخته الملكة الأرملة جوانا جرى منعها من الخروج من دارها ، وتقرّر تجريدها مما خصها من زوجها من ملك . والمعروف انه كان لها نفوذ في المملكة ، وأن تانكرد لم يثق فيها مطلقاً . يضاف الى ذلك ان وليم الثاني ملك صقلية قد خلّف لصهره هنري الثاني ملك انجلترا هبة كبيرة ، شملت صحناً مصنوعاً من الذهب ، وأثاثاً من الذهب ، وخيمة

منسوجة من الحرير ، وسفينتين مسلحتين ، وعدداً كبيراً من الغرائر التي امتلأت بالمؤن . وإذ مات هنري الثاني ، رأى تانكرد ان يحتفظ بها لنفسه . على ان رتشرد ارسل من سالرنو الى تانكرد يطلب اليه الافراج عن اخته ، وأن يتخلى عن إرثها ، وعن الهبة . فانزعج تانكرد لهذه المطالب التي تلاها ما بلغه من نبأ عن سلوك رتشرد في كلابريا ، ولذا رأى ان ينزل رتشرد في احد القصور الملكية ، خارج اسوار مسينا . غير انـه لتهدئته ارسل تانكرد جوانا في صحبة حرس ملكي لتلحق بأخيها رتشرد ، وبدأ المفاوضات فيما يؤدي من المال بدلاً من معاش جوانا والهبة التي اختص بهـا هنري الثاني . أما الملك فيليب الذي زاره رتشرد بعد يومين من وصوله ، فإنه عرض مساعيه الودّية للتوسط بين الجانبين . ولمـا توجّهت الملكة جوانا لتبثه احترامها ، اظهر من الود في استقبالها مـا دعا كل انسان ان يتوقع قريبـــاً سماع خبر زواجها . غير ان رتشرد لم يكن معتدل المزاج ، فأول ما اجراه انـه ارسل وحدة من عساكره اجتازت مضيق مسينا واحتلت مدينة باجنارا الواقعة على ساحل كلابريا ، وأنزل اخته بها . ثم هاجم جزيرة صغيرة تجاه مسينا مباشرة ، وكان بها دير لليونانيين ، فأمر باستخدام العنف والأساليب الوحشية في طرد الرهبان من الدير ، كيما يحل مكانهم عساكره . وما لقيه هؤلاء الرهبان من معاملة قاسية روّعت سكان مسينا الذين كانوا في غالبيتهم يونانيين ؛ بينما اشتد سخط المواطنين الذين يزيدون عنهم غنى وجاهاً ، لما كان للعساكر الانجليزية من سلوك نحو زوجاتهم وبناتهم .

رتشرد يستولي على مسينا سنة ١١٩٠ :

ما وقع في ٣ اكتوبر سنة ١١٩٠ من شجار في ضاحية للمدينة بين

جماعة من العساكر الانجليزية ، وطائفة من السكان ، أدى الى وقوع شغب . وانتشرت في المدينة شائعة ان رتشرد نوى ان يفتح كل جزيرة صقلية ، فتقرر اغلاق ابواب المدينة في وجوه رجاله . وباءت بالفشل المحاولة التي قامت بها سفنه لاقتحام الميناء . فبادر الملك فيليب بدعوة رئيس اساقفة مسينا ، ومرجريتوس امـــير البحر الصقلي وجماعة من الاعيان الصقليين بالمدينة ، بالقدوم الى قصره ، وتوجه بهم في اليوم التالي لتهدئة رتشرد في مقره خارج اسوار المدينة . وتراءى كأن تدبيراً جرى إعداده ، إذ سمع رتشرد بعض المواطنين الذين اجتمعوا على تل خارج النوافذ يقرنون اسمه بالشتائم . فاستشاط غضباً وغادر الاجتماع ، وأمر عساكره بأن يقوموا بالهجوم مرة اخرى . وفي هذه المرة دهمت المفاجأة اهل المدينة ، فلم تنقض بضع ساعات ، حتى استولى الانجليز على مسينا ، ونهبوا كل احيائها باستثناء الشوارع القريبة من القصر الذي حلّ به الملك فيليب . ولم يكن لدى مرجريتوس امير البحر وسائر الاعيان إلا قليل من الوقت ليفلتوا بزوجاتهم ، فاستولى رتشرد على دورهم ، واحترق الاسطول الصقلي الراسي بالميناء . ورفرف لواء اسرة البلانتاجنيت ، بعد الظهر ، على المدينة .

على ان شراسة رتشرد لم تنته عند هذا الحد ، فعلى الرغم من انـه وافق على ان يرتفع لواء فيليب الى جانب لوائه ، فإنه اجبر سكان المدينة على ان يقدموا له من الرهائن ما يكفل له السلوك الطيب من قبل ملكهم ، وأعلن انه مستعد لأن يستولي على كل الاقليم . وفي تلك الاثناء شيّد قلعة ضخمة من الخشب ، خارج المدينة ، اطلق عليها من قبيل الزراية والاحتقار اسم Mategrifon (أي لجام اليونانيين) .

اشتدّ قلق فيليب لهذا المثال من طبع منافسه ، رتشرد . فأرسل ابن

عمه ، دوق برجنديا ليلتمس الملك تانكرد في كاتانيا ، ويحذره من نوايا رتشرد ، ويعرض عليه المساعدة اذا ازدادت الاحوال سوءاً . اضحى تانكرد في مركز حرج ، إذ علم ان هنري السادس هوهنشتاوفن يوشك ان يغير على بلاده ، وأدرك ان أتباعه ليسوا موضع ثقة . غير ان بعد تقدير سريع للموقف ، قرر ان يؤثر رتشرد على فيليب في ان يكون حليفاً له . وليس من الراجح ان يقدم فيليب عندئذ على مهاجمته ، غير ان ملوك فرنسا كانت تربطهم بالهوهنشتاوفن علاقات ودية ، ولم تكن صداقة فيليب المقبلة مؤكدة ، على حين ان رتشرد يعتبر اشدّ من يهدّد تانكرد في الوقت الراهن من اخطار ، على انه كان معروفاً بكراهيته للهوهنشتاوفن ، اعداء بني عمومته الولفيين . رفض تانكرد ما عرضه الفرنسيون من مساعدة ، ودخل في مفاوضات مع الانجليز ، فعرض على رتشرد ان يؤدي له عشرين ألف اوقية من الذهب بدلاً من الهبة المستحقة لهنري الثاني ، وأن يبذل هذا المبلغ ايضاً الى جوانا ، عوضاً عن معاشها .

على ان غضب رتشرد يتلاشى عادة عند رؤية بريق الذهب . إذ قبل رتشرد العرض باسمه وبالنيابة عن اخته ، ثم وافق بعد ذلك على ان يخطب لولي عهده الشاب ، ارثر دوق بريتاني ، إحدى بنات تانكرد . ولما كشف تانكرد ايضاً عن الاقتراحات التي عرضها عليه الملك فيليب ، قبل رتشرد عن طيب خاطر ان ترد الشروط التي سبق الاتفاق عليها في معاهدة ، وتقرّر ان يطلب من البابا ان يكون لها ضامناً ، فعاد السلام . وبناء على نصيحة رئيس اساقفة روان ، ردّ رتشرد على كره منه الى مرجريتوس ، امير البحر الصقلي وسائر اعيان مسينا ، كل ما صادره من أمتعتهم .

المفاوضات في صقلية حول الحملة الصليبية سنة ١١٩٠ :

وعلى الرغم من الهزيمة التي استطاع رتشرد بذكائه ودهائه أن يلحقها بالملك فيليب، فإن فيليب لم يظهر اعتراضه علناً . ففي ٤ اكتوبر سنة ١١٩١، حينما تمّ إعـداد المعاهدة ، اجتمع فيليب برتشرد مرة اخرى ، وتناقشا في الخطة المقبلة لسير الحملة . فتقرّر وضع قواعد عن ضبط اثمـان المؤن ، والتزام الرجال بخدمة سادتهم وتخصيص نصف اموال الفارس لسد حاجات المحاربين الصليبيين ، وتحريم لعب القمار ، إلا على الفرسان ورجال الدين ، فإذا اسرفوا وجب انزال العقوبة بهم . ولا بدّ من احترام الديون التي انعقدت من اجل الحج . وأقرّ رجال الدين اللوائح ، ووعدوا بقطع المخالفين لها من الكنيسة .

كان من اليسير على الملكين ، فيليب ورتشرد ، أن يوافقا على هذه الامور ، غير أنه لا زال من الامور السياسية ما لم يجر تسويتها نهائياً . وتمّ الاتفاق بعد مناقشات على ان يقتسم الملكان بالتساوي الفتوح المقبلة . على أنه ظهرت مشكلة بالغة الدقة تخص أليس أخت الملك فيليب . إذ ان هذه الاميرة المنكودة الحظ سبق إرسالها وهي طفلة منذ سنوات الى البلاط الانجليزي كيما تتزوج رتشرد او احد أبناء هنري الثاني ، فاستبقاها هنري الثاني بالبلاط على الرغم من امتناع رتشرد عن الموافقة على الاقتران بها . ولم تلبث الشائعات البغيضة ان ترددت بأن هنري كان على علاقة سيئة بالاميرة نفسها . ولما لم تكن ميول رتشرد تتجه الى الزواج ، رفض تنفيذ ما سبق ان وضعه ابوه من تدبير ، على الرغم من إلحاح فيليب في الطلب . كما ان والدة رتشرد ، الملكة اليانور التي تحررت من كل قيد بعـد وفـاة هنري الثاني ، لم تشأ ان ترى ابنها المحبوب مرتبطاً بأميرة من أسرة تكرهها وتبغضها ، فضلاً عن انها فيما تعتقد ليست إلا عشيقة لزوجها . وإذ رسخ

في قلبها مصالح أسرتها في جيين ، عزمت على ان تزوج رتشرد من أميرة من نافار ، وقبل رتشرد من وقع عليه اختيارها . ولذا لما عرض فيليب من جديد موضوع زواج أليس ، رفض رتشرد النظر فيه ، وجعل سبب الرفض ما كان لأليس من سمعة سيئة . على ان فيليب لم يحفل بسعادة أسرته ، فلم يتدخل مطلقاً لمساعدة أخته البائسة اجنيس ، أرملة الكسيوس الثـاني امبراطور بيزنطة . ولكن الاهانة كانت من الشدة ما لم يستطع تحملها . وما كان من علاقات بين فيليب ورتشرد ازدادت فتوراً ، وتجهز فيليب لمغادرة مسينا على الفور الى الشرق . غير ان عاصفة عاتية هبّت بعـد يوم من إقلاعه ، فردّته الى صقلية . وإذ حدث ذلك في منتصف اكتوبر ، رأى فيليب انه من الحكمة ان يمضي الشتاء في مسينا ، وكان ذلك ، فيما يبدو ما نواه أيضاً رتشرد . فلم يتم إبرام المعاهدة مع تانكرد إلا في ١١ نوفمبر . وفي الوقت نفسه أرسل رتشرد الى امه يطلب منها ان تصحب خطيبته برنجاريا نافار للحاق به في صقلية .

وانقضى الشتاء في صقلية في هدوء شامل ، فأقام رتشرد يوم عيد الميلاد مأدبة فاخرة في قلعته ماتيجريفون ، دعا اليها ملك فرنسا وأعيان صقلية . ثم حدث بعد بضعة ايام ، ان تمّ لقـاء شيّق بين رتشرد ، ويواقيم رئيس دير كورازو ومؤسس طائفة الرهبان الفيوريين . فشرح له القديس المبجل معنى الرؤيا (رؤية القديس يوحنا) إذ أشار الى ان الرؤوس السبعة للوحش ليست سوى هيرود ، ونيرون ، وقنسطنطيوس ، ومحمد ، وميلسموت (الذي يقصد به فيما يبدو عبد المؤمن ، مؤسس مذهب الموحدين) ، وصلاح الدين ، ثم أخيراً المسيخ الدجّال ، الذي صرح يواقيم انه جرت فعلاً ولادته في روما منذ خمس عشرة سنة ، وسوف يجلس على الكرسي

البابوي . فبادر رتشرد الى الرد ، بأن المسيخ الدجال ليس في هذه الحالة ، فيما يبدو ، سوى البابا كليمنت الثالث نفسه ، الذي يكنّ له كراهية شخصية ، غير ان هـذه الاجابة لم تلقَ قبولاً حسناً ، ولم يوافقه القديس يواقيم على ان المسيخ الدجال سوف يولد في قبيلة دان في بابل او انطاكية ، وأنه سوف يحكم في بيت المقدس . غير ان ما ارتاح له رتشرد ، أنه علِم من يواقيم أنه (رتشرد) سوف يحرز الانتصار في فلسطين ، وأن صلاح الدين سيلقى مصرعه . وفي فبراير نظّم رتشرد مباريات للمطاعنة على الخيول ، حدث أثناءها شجار بينه وبين فارس فرنسي ، اسمه وليم بارز ، فبادر فيليب بالتوفيق بينهما ، والواقع ان رتشرد كان مستقيماً في سلوكه مع فيليب ، بل انه لم تمض إلا بضعة أيام حتى منحه عدة سفن ، وصلت منذ زمن قريب من انجلترا . وحوالي ذلـك الوقت سمع رتشرد ان الملكة اليانور وبرنجاريا وصلتا الى نابولي ، فأنفـذ اليهما من يستقبلهما ويرافقهما الى برنديزي ، نظراً لأن رفاقهما كانوا من كثرة العدد ، أن موارد مسينا لا تكفي لمؤونتهم ، ولا سيما أنه وصل الى مسينا وقتذاك كونت فلاندر في عدد كبير من الأتباع .

ولما اقترب فصل الربيع ، تأهب الملكان لاستئناف رحلتهما . فتوجه رتشرد الى كاتانيا ليقوم بزيارة تانكرد ، ليشهد الله على ما بينهما من صداقة دائمة . فجزع فيليب لهذا التحالف ، فلحق بهما في تاؤرمينا . أضحى فيليب مستعداً ليرأب كل ما وقع من اختلاف مع رتشرد ، وأعلن صراحة ان لرتشرد الحرية في ان يتزوج من يقع الاختيـار عليها . فأقلع فيليب مع رجاله من مسينا في ٣٠ مارس ، في جو حافل بالنية الطيبة . ولم يكد فيليب يغادر الميناء ، حتى وصل اليها الملكة اليانور والاميرة برنجاريا . لم

تمكث اليانور مع ابنها سوى ثلاثـة ايام ، ثم ارتحلت الى انجلترا ، عن طريق روما ، كيما تنجز لابنها بعض الامور في المحكمة البابوية ، بينما ظلت برنجاريا مع الملكة جوانا لتأخذ عنها آداب السلوك في المجتمع (١) .

غادر رتشرة مسينا آخر الامر ، في ١٠ اكتوبر ، بعـــد ان دمّر استحكامات برج ماتيجريفون ، وأعرب تانكرد ، لسبب معقول ، عن أسفه لرحيل رتشرد ، ففي نفس اليوم الذى أبحر فيه مات في روما البـــابا كليمنت الثالث ، ثم جرت بعـد اربعة ايام رسامة كاردينال سانتا ماريا في كوزميدين بابا باسم سلستين الثالث . وكان هنري هوهنشتاوفن وقتذاك في روما ، وكان اول ما قام به البابا الجديد من أعمال أنه تولى ، تحت ما تعرّض له من ضغط ، تتويج هنري وكونستانس الصقلية امبراطوراً وامبراطورة .

---

(١) ما قام به رتشرد من اعمال في صقلية ورد بالتفصيل في :

Itinerarium, pp. 154 - 177.

Ambroise, cols. 14 - 32.

وهذان المصدران يكتبان عادة لصالح رتشرد .

Benedict of Petersborough, II, pp. 126 - 160.

(اورد اوفى رواية عن رتشرد ، ويفضل المصدرين السابقين في الاهتمام بالناحية الموضوعية).

Rigord, pp. 106 - 109.

(اشار ريجور الى حرص فيليب على المضي بالحملة الصليبية، والى ان رتشرد هو الذي اثار المتاعب).

Chalandon, op. cit. II. pp. 435 - 442.

وما اورده بنيدكت بيتربره عن اللقاء بين رتشرد وبواقيم الفيوري، اعتمد فيه على ما استمده من احد الحاضرين من اخبار . انظر :

Benedict of Petersborough, II, pp. 151 - 155.

لم يصادف الاسطول الفرنسي عقبات أثناء رحلته الى صور ، حيث لقي فيليب استقبالاً حافلا من ابن عمه كنراد مونتفيرات . ثم وصل مع كنراد الى عكا في ٢٠ أبريل . وتقرّر على الفور تشديد الحصار على حصن عكا الاسلامي . واجتذبت اعمال الحصار ما اتصف به مزاج فيليب من الصبر والبراعة ، فأعاد تنظيم ما لدى المحاصِرين من آلات ، وشيّد لهم الأبراج . على أنه تأجلت المحاولة لمهاجمـة الأسوار حتى يصل رتشرد ورجاله (١) .

وصول الاسطول الانجليزي الى جزيرة قبرص سنة ١١٩١ :

لم تخل رحلة رتشرد من متاعب ، فلم تلبث الرياح العاتية ان بعثرت سفن الاسطول . إذ لجأ الملك نفسه للاحتماء بميناء في جزيرة كريت لمدة يوم ، ومن هذا المرفأ توجه في غمرة العواصف الى جزيرة رودس ، حيث مكث عشرة ايام ، ابتداء من ٢٢ ابريل الى اول مايو ، ليستردّ عافيته من دوّار البحر . وفي تلك الأثناء ضاعت احدى سفنه ، نتيجة هبوب عاصفة ، بينما انساقت الى قبرص ثلاث سفن اخرى ، تقلُّ إحداها جوانا وبرنجاريا . فتحطمت سفينتان منها على شاطىء قبرص الجنوبي ، أما الملكة جوانا فاستطاعت ان تبلغ مرمى للسفن تجاه ليماسول .

ظلت جزيرة قبرص خمس سنوات تخضع لحكم اسحاق دوكاس كومنينوس الذي اتخذ لنفسه لقب امبراطور ، والذي سبق ان قاد ثورة موفقة على

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, pp. 155 - 156.
Rigord, p. 168.
Abu Shama, II, p. 6.

بيزنطة حين تولى العرش اسحاق انجيلوس ، وحافظ على استقلاله بما عقده من محالفات عاجلة ، تارة مع الصقليين ، وتارة مع الارمن بفليقيه ، وتارة مع صلاح الدين . واشتهر إسحاق بالشراسة والقسوة ، يكره اللاتين ، ولم يكن محبوباً في الجزيرة نظراً لتجاوزه الحد في فرض الضرائب . ولا زال عدد كبير من رعاياه يعتبرونه متمرّداً ومغامراً . على ان ظهور اساطيل ضخمة للفرنج في مياه جزيرة قبرص اثار قلقه ، كما انـــه لم يكن حكيماً حين واجه المشكلة . إذ انه ألقي القبض على رجال رتشرد الذين شقوا طريقهم الى الساحل بعد غرق مراكبهم ، وصادر كل ما جرى انقاذه من حمولة السفن . ثم انفذ رسولاً الى سفينة الملكة جوانا ، يدعوها مع برنجاريا للنزول الى البر . وإذ تعلمت من التجربة مـا لها من قيمة باعتبارها رهينة بالغة الشأن ، اجابت انها ليس بوسعها ان تغادر السفينة إلا بإذن اخيها . وكان اسحاق فظاً غليظاً حين رفض طلب جوانا الإذن لها بأن ترسل في طلب المـاء العذب من الشاطىء . الواقع ان اسحاق قدم الى ليماسول وشيّد استحكامات على امتداد الشاطىء لمنع الهبوط الى البر .

وفي ٨ مايو ، سنة ١١٩١ ، أي بعد ان مضى اسبوع على وصول جوانا الى ليماسول ، لاح للنظر رتشرد باسطوله الاسامي . والواضح ان الاسطول عانى رحلة خطيرة من رودس . وكادت سفينة رتشرد نفسه تتحطم في خليج اضاليا . كما ان دوار البحر افسد مزاج رتشرد ، ولما سمع بما تعرّضت له اخته وخطيبته من معاملة سيئة ، اقسم بأنه سوف ينتقم لهما . وشرع رتشرد على الفور في انزال رجاله قرب ليماسول ، ثم زحف على المدينة ، فلم يبد اسحاق شيئاً من المقاومة ، بل تقهقر الى قرية كيلاني الواقعة على منحدرات ترودوس . ولم يلق رتشرد الترحيب فحسب من التجار اللاتين

النازلين بليماسول ، بل ان ما يكنه اليونانيون من كراهية لإسحاق حملهم على ان يظهروا الود نحو الغزاة ، فلم يسع اسحاق إلا ان يعلن استعداده للمفاوضة . وإذ حصل على امان من رتشرد ، هبط الى كولوسي ، ثم توجّه الى معسكر رتشرد ، حيث وافق على ان يؤدي تعويضاً عن السلع التي سرقها ، وأن يسمح للعساكر الانجليزية ان يشتروا المؤن معفاة من المكوس الديوانية (الجمركية) ، وأن يرسل قوة رمزية مؤلفة من مائة رجل لتشترك في الحرب الصليبية ، غير انه رفض ان يغادر الجزيرة . وعرض ان يبعث الى رتشرد ابنته لتيخذها رهينة عنده .

اقتنع اسحاق بعد زيارته لمعسكر رتشرد ان رتشرد لم يكن كما تصور رجلا مخيفاً مثيراً للرعب ، ولذا لم يكد يعود الى كولوسي حتى نقض الاتفاق ، وأمر رتشرد بأن يغادر بلاده . والواقع انه ارتكب غلطة فاحشة . إذ ان رتشرد سبق ان ارسل سفينة الى عكا تعلن انه وشيك الوصول الى جزيرة قبرص ، وفي يوم ١١ مايو ، أي في نفس اليوم الذي توجّه فيه اسحاق لزيارة رتشرد ، ثم عاد الى كولوسي ، رست في ليماسول سفن تقل كبار الصليبيين المعارضين لكنراد ، ومن هؤلاء كان الملك جاي وأخوه جفري كونت لوزجنان ، الذي يعتبر من اشهر اتباع رتشرد في فرنسا ، ومنهم ايضاً بوهمند امير انطاكية وابنه ريموند والأمير ليو الروبيني الارمني ، الذي خلف اخاه روبين على العرش منذ زمن قريب ، كما كان من بينهم همفري سيد تبنين ، زوج ايزابيلا التي طلقته ، يضاف الى هؤلاء عدد كبير من اعلام الداوية . وإذ اتخذ فيليب جانب كنراد ، قدم هؤلاء الصليبيون ليظفروا لحزبهم بتأييد رتشرد . وما حدث من ازدياد قوة رتشرد ، جعله يعزم على المضي لفتح الجزيرة بأجمعها . ولا شك ان هؤلاء القادمين اوقفوه

على ما للجزيرة من أهمية حربية في الدفاع عن الساحل السوري ، وما سوف ينجم من الخطر ، لو اجرى اسحاق تحالفاً وثيقاً مع صلاح الدين وكانت هذه فرصة بلغت من القيمة ما لا ينبغي ان تفلت .

رتشرد يفتح جزيرة قبرص سنة ١١٩١ :

في ١٢ مايو ، تزوج رتشرد من برنجاريا في احتفال كبير بكنيسة القديس جورج في ليماسول ، وقام اسقف ايفرو بتتويج ملكة انجلترا . ووصل في اليوم التالي ما تبقى من سفن الاسطول الانجليزي . ولما أدرك اسحاق ما يحيق به من خطر ، لم يسعه إلا المسير الى فاماجستا ، غير ان الانجليز اقتفوا أثره اليها ، فسلك جانب من الجيش طريق البر ، بينما توجهت بقية الجيش بطريق البحر . ولم يحاول الامبراطور اسحاق الدفاع عن فاماجستا ، بل لجأ الى نيقوسيا . وبينما كان رتشرد يخلد الى الراحة في فاماجستا ، قدمت اليه الرسل قِبل الملك فيليب ، والسادة الصليبيين بفلسطين ، فألحت عليه بالتعجيل بالرحيل الى فلسطين ، غير انه أجاب في غضب بأنه لن يتحرك حتى يستولي على جزيرة قبرص ، التي أكد أهميتها لهم جميعاً . وجرى الاعتقاد ان باجان كونت يافا ، أحد رسل فيليب الى رتشرد ، توجه الى اسحاق لينذره بما ينويه رتشرد ، فأرسل زوجته ، وهي اميرة ارمنية وابنته الى كرينيا ، ثم هبط الى فاماجستا . والتقت به عساكر رتشرد عند قرية تريميثوس ، وأنزلت به الهزيمة بعد مناوشة حادّة ، استخدم فيها ، فيما يقال سهاماً مسمومة . فهرب اسحاق من ساحة المعركة الى القنطرة ، بينما دخل رتشرد نيقوسيا دون ان يصادف مقاومة ، ولم يحفل سكان قبرص بمصير اسحاق ، بل انهم استعدوا لبذل المساعدة للغزاة .

وخرّ رتشرد مريضاً في نيقوسيا ، وكان اسحاق يأمل في ان تصمد قلاعه الاربعة الكبيرة الواقعة بشمال الجزيرة ، في القنطرة وبوفافنتو ، وسانت هيلاريون ، وكرينيا ، حتى يسأ مرتشرد القتال ، ويقلع من الجزيرة . غير ان الملك جاي الذي تولى قيادة جيش رتشرد زحف على كرينيا واستولى عليها ، ووقعت الامبراطورة وطفلها في أسره ، ثم شرع في فرض الحصار على سانت هيلاريون وبوفافنتو . وإذ فقد اسحاق أسرته ، وتعرّض للاستخفاف والعداوة من قبل رعاياه ، لم يلبث ان فقد أعصابه وأعلن استسلامه بدون قيد ولا شرط ، فمثُل أمام رتشرد ، مكبلاً بسلاسل من الفضة . ولم ينقض شهر مايو حتى أضحت كل الجزيرة في يدى رتشرد .

وحاز رتشرد غنائم وفيرة ، إذ ان اسحاق كدّس ثروة ضخمة ، بما لجأ اليه من ابتزاز الاموال ، كما ان عدداً كبيراً من أعيان الجزيرة حرصوا على التماس النية الطيبة لسيدهم الجديد (رتشرد) ، بما بذلوه من منح وفيرة ، فلم يلبث رتشرد ان أعلن ان المال هو هدفه الاصلي . وتقرر ان تجبي الحكومة من كل يوناني خمسين في المائة من دخله ، غير ان رتشرد أقرّ مقابل ذلك الإبقاء على ما كان قائماً بالجزيرة منذ زمن مانويل كومنينوس من القوانين والنظم . واستقرّت الحاميات اللاتينية في جميع القلاع بالجزيرة ، وتقرر تعيين انجليزيين ، هما رتشرد كامفيل وروبرت ترنهام حاكمين على الجزيرة ، وعهد اليهما رتشرد بادارتها حتى يتقرر مصيرها النهائي . ولم يلبث اليونانيون ان أدركوا ان ما أظهروه من الفرح والسرور بسقوط اسحاق لم يستند الى أساس سليم . فلم يعد لهم نصيب في حكومتهم ، وصدرت

اليهم الاوامر بحلق لحاهم ، للدلالة على خضوعهم وولائهم الجديد [1] .

---

(١) ورد بالتفصيل وصف فتح رتشرد لجزيرة قبرص في :

Itinerarium, pp. 177 - 204.

Ambroise, cols, 35 - 57.

Benedict of Petersborough, II, pp. 162 - 168.

William of Newbury, II, pp. 59 ff.

Richard of Devizes, pp. 423 - 426.

كل هذه المصادر تعرض وجهة النظر الانجليزية . اما رسائل رتشرد الموجزة ، فوردت في :

Epistola Cantuarienses, p. 347.

Ernoul, pp. 207 - 223.

Estoire d'Eracles, II, pp. 159 - 170.

مع ما يقابلها من الروايات الواردة في :

Mas Latine, Dacuments, II, pp. 1 ff, III, pp. 591 ff.

ويعرض ارنول وتاريخ هرقل وجهة نظر الفرنج في الشرق الادنى ، التي كانت في صالح رتشرد . اما ديجور ووليم بريتوني فبررا موقف رتشرد، نظراً لأن القبارصة رفضوا بذل المساعدة للصليبيين . انظر :

Rigord, pp. 109 - 110.

William the Breton, pp. 104 - 105.

وأما المؤرخ اليوناني ، نيو فيتوس ، المعروف بعدائه لاسحاق وكراهيته لفتح قبرص على يد رتشرد ، فان روايته وردت كاملة في المقدمة التي كتبها ستبز عند نشر رحلة رتشرد .

Itinerarium, CLXXXV - CLXXXIX (De Calamitatibus Cypri) .

على ان اشارات موجزة عن فتح قبرص اوردها

Choniates (p. 547) .

Abu Shama, II, p. 8.

Beha ed - Din, P.P.T.S, p. 242.

Ibn al - Athir, II, pp. 42 - 43.

يشير ابن الاثير الى ان رتشرد استولى على قبرص بالخيانة والغدر. ويذكر ابو شامة وابن شداد ان بعض المسيحيين المرتدين من اللاذقية اغاروا على جزيرة قبرص قبل بضعة شهور من قدوم رتشرد . انظر :

Hill, History of Cyprus, I, pp. 314 - 321.

اعتبر رتشرد فتح قبرص بالغ القيمة ، لما جلبه له من ثروة لم يتوقعها . ومما حققته حملة رتشرد الصليبية من اعمال ، يعتبر فتح قبرص اكثرها دواماً وبعداً للنظر . إذ ان تملك الفرنج لجزيرة قبرص اطال عمر بلادهم على ساحل سوريا ، كما ان مؤسساتهم في الجزيرة ظلت قائمة مائتي سنة بعد زوال مـا كان لهم من مؤسسات في سوريا . غير أنـه كان نذير شر لليونانيين . فإذا استطاع الصليبيون ان يضيفوا الى املاكهم اقليماً ارثوذكسياً ، مثل قبرص ، أليس ذلك مغرياً للمبادرة الى شن حرب مقدسة طويلة الأمد على بيزنطة ؟

رتشرد يصل الى المعسكر الصليبي سنة ١١٩١ :

اقلع الاسطول الانجليزي من فاماجستا في ٥ يونيه سنة ١١٩١ قاصداً الساحل السوري ، وكان على ظهر الاسطول الامبراطور اسحاق اسيراً ، في حراسة الملك جاي ، أمـا ابنته الصغيرة فلحقت ببلاط الملكة جوانا لتتعلم أسلوب الحياة في الغرب . وكانت قلعة المرقب اول ما وقع عليه نظر رتشرد على ساحل سوريا ، وإذ اضحت اليابسة بالغة القرب ، اتجه جنوباً ، مجتازاً انطرطوس وجبيل وبيروت ، ثم هبط الى البر قرب صور في مساء يوم ٦ يونيه سنة ١١٩١ . إذ ان حامية المدينة بناء على اوامر فيليب وكنراد ، رفضت السماح له بالدخول الى المدينة (صور) ، فواصل سفره بحراً الى عـكا ، وشهد اثناء سيره منظراً اثار فرحه ، إذ ان سفن اسطوله كانت تُغرق سفينة اسلامية كبيرة ، ووصل رتشرد الى المعسكر

الصليبي في عكا ، يوم ٨ يونيه سنة ١١٩١ [١].

ومـا حدث من وصول رتشرد في خمس وعشرين سفينة بعث الثقة والأمل في نفوس الجند الذين يحاصرون عكا ، وقـد اشتد بهم التعب والإرهاق ، فاشتعلت الصواريخ للاحتفال بقدومه ، وضربت النقارات في داخل المعسكر . والمعروف ان ملك فرنسا شيّد ادوات حصار كثيرة بالغة النفع ، ومنها المقلاع الضخم الذي يقذف الحجارة ، والذي اطلق عليه جنوده ، الجـار السيء ، كما اعدّ سلماً لتسلق الأسوار ، اشتهر باسم الهر . وكان لكل من دوق برجنديا والطائفتين الاسبتارية والداوية ، مقلاع خاص ، كما ان مقلاعاً تكفـل بإنشائه ما تحصّل من الإعانات العامة ، وكان معروفاً باسم « مقلاع الله » [٢] . كل هذه المقاليـع قذفت الاسوار بالحجارة ، وأحرزت شيئاً من النجاح ، غير ان الحاجة كانت ماسة الى قائد يحث المحاصرين على ان يبذلوا قصارى جهدهم . لم يكن ملك فرنسا لائقاً للقيادة نظراً لشدّة حرصه وحذره ، ولم يصلح سائر الامراء المحليين او الصليبيين للقيام بهذا

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 204 - 211.
Ambroise, cols, 57 - 82.
Benedict of Betersborough, II, pp. 168 - 169.
Ernoul, p. 273.
Estoire d'Eracles, pp. 169 - 170.
يشير ارنول وتاريخ هرقل الى ما بذله فيليب من ترحيب كبير برتشرد . بينما يروي ابو شامة وابن شداد ما حدث من الاستيلاء على بعض ما نقله رتشرد معه من اشياء . انظر :
Abu Shama, II, pp. 42 - 43.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 242 - 243, 248.

(٢) انظر : Itinerarium, p. 218.
Haymar Monachus, pp. 44 - 46.

الدور لما حلّ بهم من الإرهاق ، او لافتقار الثقة فيهم ، أما رتشرد فإنه وهب الحملة قوة جديدة . فلم يكد يهبط الى الارض ، حتى انفذ الى معسكر صلاح الدين رسولاً ، وجعل بصحبته ترجماناً صادقاً ، كان اسيراً مغربياً يثق فيه ، يدعو الى الالتقاء بصلاح الدين . وكان رتشرد حريصاً على ان يجتمع بهذا الزعيم الاسلامي المشهور ، وكان يأمل التوصل الى تسوية سلمية لو تحدّث الى عدوّه المعروف بالفروسية . غير ان صلاح الدين أجاب في حذر أنه ليس من الحكمة ان يلتقي ملكان متعاديان ، حتى تنعقد بينهما هدنة . ومع ذلك فانه أعلن استعداده لأن يسمح لأخيه سيف الدين العادل ان يجتمع برتشرد ، فتقرر وقف القتال لمدة ثلاثة ايام ، وتمّ الاتفاق على ان يجري الاجتماع في السهل الواقع بين المعسكرين الاسلامي والمسيحي ، غير انه حدث ان خرّ ملكا انجلترا وفرنسا مريضين فجأة ، كان هذا المرض معروفاً عند الفرنج باسم Arnaldia ، وهو حمى تؤدي الى تساقط شعر المريض وأظافره . لم يكن المرض شديد الوطأة على فيليب ، بينما اشتدت العلة برتشرد بضعة ايام . ومع ذلك فانه أدار العمليات الحربية من فراش المرض ، فصار يصدر التعليمات بتحديد المواضع التي تنصب فيها ما جلبه معه من المقاليع الضخمة ، وأمر بتشييد برج كبير من الخشب مثل برج ماتيجريفون الذي أنشأه في مسينا . ولم يكد يتماثل للشفاء حتى أصرّ على تفقّد خطوط عساكره (١) .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 213 - 225.
Ambroise, col. 123.
Benedict of Petersborough, II, p. 170.
اشار امبرواز الى مرض ارنالديا باسم آخر هو ليوناردي ، ولعله نوع من الاسقربوط ، او مرض في الفم ، انظر :
La Monte and Hubert's translation of Ambroise, p. 196, n. 2.

تلقى صلاح الدين ايضاً أمداداً جديدة في نهاية شهر يونيه سنة ١١٩١ ، فقدم اليه جيش سنجار في ٢٥ يونيه ، ثم تلاه وصول جيش آخر من مصر ، وعساكر امير الموصل . أما أميرا شيزر وحماه فقدما بعساكرهما في أوائل شهر يوليه . على ان صلاح الدين لم يستطع طرد الصليبيين من معسكرهم برغم ازدياد قوته . أفاد الصليبيون من ركود القتال في الشتاء ، بعد ان أحال المطر الارض وحلاً ، فأحاطوا أنفسهم باستحكامات من الطين ، وأسوار تحميها الخنادق التي أضحى من السهل الدفاع عنها . وظل ترتيب المعركة طوال شهر يونيه وأوائل شهر يوليه على ما كان عليه ، إذ واصلت مقاليع الفرنج قصف أسوار عكا بالحجارة ، حتى اذا أحدثت ثغرة صغيرة واندفع الفرنج لينفذوا منها ، أبلغت حامية عكا عن طريق الاشارات ، صلاح الدين ، فيبادر الى شن هجوم على المعسكر الصليبي ، وبذا يبتعد المعتدون عن الأسوار ، ووقعت بعض المعارك البحرية من حين الى آخر . إذ ان قدوم الأسطولين الانجليزي والفرنسي أدى الى انتزاعهما السيطرة على البحر من أيدي المسلمين . وقلّ أن استطاعت السفن الأسلامية وقتذاك ان تنفذ الى الميناء بما تحمله من المؤن . فأخذت الأقوات والذخائر الحربية تنفذ في المدينة المحاصرة (عكا) ، وتردد الحديث داخل المدينة حول استسلامها[(١)] .

المنازعات في المعسكر الصليبي سنة ١١٩١ :

ظلت الامراض والمشاجرات سائدة في داخل المعسكر المسيحي . إذ

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 224 - 227.

مات البطريرك هرقل ، وجرت مؤامرات حول انتخاب البطريرك الجديد [1] .
كما ان النزاع على تاج بيت المقدس ظل مستمراً . إذ تبنى رتشرد قضية الملك جاي لوزجنان ، بينما بادر فيليب الى مساندة كنراد مونتفيرات . وانحاز البيازنة الى حزب رتشرد ، فلما وصل الاسطول الجنوي الى عكا ، عرض خدماته على فيليب . ولما رتّب فيليب شن هجوم عنيف على المدينة ، حوالي نهاية يونيه سنة ١١٩١ ، رفض رتشرد السماح لرجاله بالتعاون في هذا الهجوم ، ولعل السر في ذلك أن رتشرد لم يستكمل استرداد عافيته حتى يستطيع ان يشترك بنفسه في القتال ، وخشي تبعاً لذلك ان يفقد ما يجلبه النصر من غنائم . على أن هجوم فيليب لم يصادف نجاحاً ، نظراً لتغيب أتباعه وأصدقائه ، بينما لقي الفرنج عناء في ردّ هجوم صلاح الدين [2] .
وتعقّدت العلاقات بين رتشرد وفيليب بما حدث في اول يونيه من وفاة فيليب كونت فلاندر ، المحارب الصليبي الذي اشتهر بعناده عند قدومه سنة ١١٧٧ ، ولم يكن له ورَثة مباشرون ، ومع ان للملك فرنسا بعض الحق في الارث ، فإن ملك انجلترا لم يشأ ان يقع في يدي منافسه اقليم فلاندر لما اشتهر به من الغنى ، فضلاً عن موقعه الاستراتيجي . ولما طلب فيليب اقتسام جزيرة قبرص وفقاً للشروط التي تمّ الاتفاق عليها في مسينا ،

---

(١) انظر : Mas Latrie's preface to Haymar Monachus p. XXXVI.

(٢) انظر : Ambroise, col. 123.
Rigord, pp. 108 - 109.
Haymar Monachus, p. 35.

ردّ رتشرد بأن طلب ان يقتسم معه فلاندر . ولم يواصل كل من الجانبين دعواه ، غير ان كلا منهما وخزه الألم وبرحه [1] الحزن .

وبعد ان فشل تقي الدين ابن اخي صلاح الدين في محاولة شق طريقه الى داخل عكا ، استطاع الفرنسيون في ٣ يوليه سنة ١١٩١ ان يحدثوا في السور ثغرة كبيرة ، غير انهم اجبروا على الارتداد . وحدث بعد ثمانية ايام ان اغتنم الانجليز والبيازنة الفرصة التي انصرف فيها سائر المحاربين الصليبيين الى تناول طعام العشاء ، فجربوا حظهم في اقتحام الاسوار ، وأحرزوا اول الأمر قدراً من النجاح كالذي حازه الفرنسيون ، غير ان محاولتهم باءت آخر الأمر بالفشل الذريع . وحدث وقتئذ ان حامية عكا اتخذت فعلاً قراراً بالتخلي عن القتال . فأنفذت رسلاً الى معسكر الصليبيين في ٤ يوليه سنة ١١٩١ ، غير ان رتشرد رفض ما عرضوه من مقترحات ، على الرغم من انه جرى في ذلك اليوم ان قام رسل رتشرد بزيارة صلاح الدين ، وطلبوا منه ان يسمح لهم بابتياع فاكهة وثلجاً ، ولوحوا بأنهم مستعدون لأن يتناقشوا في امور الصلح . وصدم صلاح الدين ما سمعه ان رجاله داخل عكا فقدوا الأمل ، فوعد ان يبذل لهم على الفور المساعدة العاجلة ، غير انه لم يستطع ان يثير جيشه لأن يشن على المعسكر المسيحي الهجوم الكبير الذي دبّر القيام به يوم ٥ يوليه . وحدث في ٧ يوليه ان حمل اليه احد العوامين آخر استغاثة من المدينة . فلن تستطيع الحامية بعكا ان تمضي في صمودها ما لم تصل اليها المساعدة . وما دار في

---

(١) انظر : Rigord, p. 113.
Benedict of Peterborough, II, p. 171.

١١ يوليه من معركة يعتبر آخر ما بذله المحاصَرون من جهد . ففي اليوم التالي عرضوا التسليم . وتقرر قبول شروطهم . إذ ينبغي ان تستسلم عكا بكل ما تشتمل عليه ، وبسفنها ومستودعاتها الحربية ، وينبغي ان يؤدي للفرنج مائتا قطعة من الذهب فضلاً عن اربعمائة اخرى تبذل لكنراد وحده ، وتقرر اطلاق سراح الف وخمسمائة اسير مسيحي ، مع مائة اسير من ذوي الرتب ، بعد ذكر اسمائهم ، وينبغي ردّ صليب الصلبوت للفرنج فإذا تمّ كل ذلك ، جرى الابقاء على حياة المدافعين .

وغادر احد العوامين ميناء عكا ليخطر صلاح الدين بما تمّ الاتفاق عليه ، باعتباره مسؤولاً عن تنفيذ نصوص الاتفاق . فجزع صلاح الدين . وبينما كان يجلس امام خيمته يعد إجابة لمنع الحامية من الخضوع لهذه الشروط ، شهد ألوية الفرنج ترفرف على ابراج مدينة عكا . لقد فات الوقت ، إذ عقد قادته المعاهدة باسمه ، ولما اتصف به من الشرف ، لم يسعه إلا الالتزام بها . ثم امر بنقل معسكره الى شفرعم على الطريق الى صفورية ، بعيداً عن المدينة ، بعد ان ادرك انه ليس بوسعه ان يبذل لها العون ، ووطّن نفسه على ان يستقبل السفراء من قبل الفرنج المظفرين [١] .

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 227 - 233.
Ambroise, cols. 133 - 139.
Benedict of Peterborough, II, pp. 174 - 179.
Rigord, pp. 115 - 116.
Ernoul, p. 274.
Estoire d'Eracles, II, pp. 173 - 174.
Abu Shama, II, pp. 19 - 29.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 258 - 269.
Ibn al - Athir, II, pp. 44 - 46.

الصليبيون يدخلون عكا سنة ١١٩١ :

لم يكد يتمّ قبول شروط التسليم ، حتى خرج المسلمون من عكا ، وتحرك الفرنج كيما يشهدوا ما وقع في حوزتهم من مدينة جديرة بما هو خير من ذلك ، إذ دهشوا لشجاعتها وصلابتها ، فلما غادرها آخر مسلم بها ، تحرّك الى داخلها الفرنج ، وعلى رأسهم كنراد ، وقد رفع حامل العلم لواء كنراد ولواءي الملكين . واتخذ رتشرد له مقراً في القصر الملكي السابق ، قرب السور الشمالي للمدينة ، بينما استقرّ فيليب في دار الداوية السابقة ، الواقعة على البحر قرب طرف شبه الجزيرة . على ان ما وقع من مشاجرات غير لائقة أفسدت تقسيم الأحياء بالمدينة . فطالب دوق استريا ، باعتباره قائداً للجيش الالماني ان يكون له من المكانة ما لملكي فرنسا وانجلترا ، فرفع لواءه الى جانب لواء رتشرد ، فنزعته العساكر الانجليزية وألقوا به في الخندق أسفل المدينة . وكانت هذه إهانة لم يغفرها مطلقاً ليوبولد دوق أستريا ، فلما عاد الى بلاده بعد ايام ، امتلأ قلبه حقداً وكراهية لرتشرد . وطلب التجار والنبلاء الفرنج ان يعود الى حوزتهم ما كان لهم من قبل من أملاك في عكا . وكادوا جميعاً ان يكونوا من أنصار كنراد ، ولذا استغاثوا بالملك فيليب حينما حاول المحاربون الصليبيون الطارئون ان يحلوا مكانهم ، فأصرّ الملك فيليب على احترام مطالبهم [١] .

---

(١) انظر :
Itinerarium, p. 243.
Ernoul, pp. 274 - 275.
Estoire d'Eracles, II, pp. 175 - 176.
Chronica Regia Coloniensis, p. 154.

وأول ما جرى من اعمال ، هو تنظيف كنائس عكا وإعادة تدشينها ، فلما تم ذلك ، بإرشاد المندوب البابوي ، أديلارد أسقف فيرونا ، اجتمع الامراء سوياً لوضع تسوية نهائية لمشكلة الملكية . وتم الاتفاق بعد المناقشة ، على ان يبقى جاي لوزجنان ملكاً طوال حياته ، ثم ينتقل التــاج الى كنراد وإيزابيللا وسلالتها . وفي نفس الوقت يصير كنراد سيداً لصور وبيروت وصيدا ، وأن يقتسم مع جاي موارد المملكة . وإذ كفل الملك فيليب المستقبل لكنراد ، تحدث عن العودة الى بلاده . إذ ان الملك فيليب عانى منــذ قدومه الى الارض المقدسة مرضاً كاد يكون مستمراً . أدى واجبه المسيحي بأن ساعد في استرداد عكا ، وسوف يخلف وراءه دوق برجنديا والشطر الاكبر من الجيش الفرنسي . وذهب هباء إلحاح رتشرد في الحصول على تصريح مشترك بأن الملكين سوف يمكثان في الشرق ثلاث سنوات . وكل ما استطاع فيليب ان يعد به هو انه لن يهاجم ممتلكات رتشرد في فرنسا حتى يعود رتشرد الى بلاده ، وهـــذا الوعد لم يلتزم فيليب بالوفاء به كاملاً . ثم غادر فيليب عكا في ٣١ يوليه قاصداً صور ، وفي صحبته كنراد الذي قال انه لم يصحب الملك فيليب إلا ليرافقه في زيارة بلاده بصور ، غير أنه في الواقع لم يشأ ان يخدم في جيش يخضع

= ويشير انزبرت الى ان سبب الشجار بين رتشرد وليوبولد دوق استريا ، يرجع الى ان ليوبولد نفر من هجوم رتشرد على اسحاق كومنينوس في قبرص ، نظراً لأن اسحاق كان ابن عم شقيق لوالدة ليوبولد . انظر :

Ansbert, Expeditio Friderici, p. 102.

لسيطرة رتشرد . ثم أقلع الملك فيليب بعــــد ثلاثة ايام من صور الى برنديزي [1] .

على ان الانجليز اعتبروا رحيل فيليب فراراً يتسم بالجبن والخيـانة . غير ان صحته كانت فيما يبدو سيئة فعلاً ، كما انه حدثت في بلاده مشكلة يعتبر هو مسئولاً شخصياً عن التماس حل لها ، ولم تكن هذه المشكلة سوى مـا خلّفه كونت فلاندر من إرث . يضاف الى ذلك انه ارتاب في ان رتشرد يتآمر عليه ، وأن حياته باتت في خطر . وذاعت رواية غريبة ، بأنه بينما كان فيليب في فراشه يعاني مرضاً شديداً ، قدم لزيارته رتشرد ، فأخطره كذباً ان ابنه الوحيد ، لويس ، قضى نحبه ، وذلك اما على سبيل المزاح الثقيل ، وإمـا على سبيل الأمل في ان الصدمة سوف تكون من الشدة ما لا يستطيع تحمّلها . على انه كان بالجيش المسيحي عدداً كبيراً يعطف على فيليب في متاعبه . وعلى الرغم من ان رتشرد حظي بتعلّق رجاله بـــه ، وبإعجاب المسلمين ، فان ملك فرنسا يعتبر عند بارونات

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 238 - 239.
Ambroise, cols. 142 - 143.
Benedict of Peterborough, II, pp. 183 - 185. 192 - 199, 227 - 231.
Estoire d'Eracles, II, pp. 179 - 181.
(يشير هذا المصدر الى ان فيليب كان فعلاً مريضاً) .
Ernoul, pp. 277 - 278.
Rigord, pp. 116 - 117.
William the Breton, pp. 106 - 109.

الشرق الفرنجي الملك الذي يكنون له الاحترام ، ويشعرون بإدراك حاجاته (١) .

وإذ ارتحل فيليب ، تولى رتشرد القيادة العامة للجيش ، وأضحى له مباشرة المفاوضات مع صلاح الدين . والمعروف ان السلطان صلاح الدين وافق على الالتزام بالمعاهدة التي سبق ان عقدها قادته في عكا . وبينما نهض الصليبيون لإعادة بناء أسوار عكا وتدعيمها ، شرع صلاح الدين في جمع الاسرى والأموال المطلوبة منه . ثم قدم لزيارة معسكره في ٢ اغسطس سنة ١١٩١ قادة مسيحيون من قِبَل رتشرد ، يحملون موافقة رتشرد على اقتراح صلاح الدين الذي يقضي بأن يؤدى المال المطلوب ، وأن يعيد الأسرى في اقساط ثلاثة ، كل قسط شهر (٢) ، على ان يطلق رتشرد سراح الأسرى المسلمين بعد دفع القسط الاول . وشاهد الزائرون صليب الصلبوت الذي احتفظ به صلاح الدين ، فعظموه وبجدوه . وفي ١١ اغسطس سنة ١١٩١ جرى ارسال القسط الاول من الرجال والأموال الى المعسكر المسيحي ، وعاد رسل رتشرد ليخطروه ان المقادير تمّت تأديتها على

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.

(يشير الى مؤامرات رتشرد) .

Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 240, 242.

يشير ابن شداد الى ان سلطة ملك فرنسا اعترف بها جميع الناس ، وأن ملك انجلترا يقل عنه مكانة ، على الرغم من تفوقه عليه في الثروة والبسالة والصيت .

(٢) في ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، نشر الشيال — القاهرة ١٩٦٤ ، ذكروا ان الملوك قد اجابوا السلطان ، رحمة الله عليه ، الى ان يكون ما وقع عليه القرار يدفع في نجوم (نجوم) ثلاثة ، كل نجم شهر .

الوجه الصحيح ، ما عدا الاسرى المعينين من جانبهم ، فانهم لم يكونوا فرغوا من تسليمهم ، ولهذا السبب لن يسلموا عساكر صلاح الدين ، الذين وقعوا اسرى في ايديهم في عكا . فطلب اليهم صلاح الدين إما ان يقبلوا القسط مع رهائن عن السادة الذين لم يسلّموا بعد ، فيرسلون اليه رجاله ، وإما ان يقبلوا القسط ، ويجعلوا رهائن عنده حتى يضمن اطلاق سراح رجاله . ورفض الرسل كلا الاقتراحين ، إنما طلبوا القسط ولم يعرضوا سوى بذل الوعد حول تسليم الاسرى المسلمين . وإذ لم يثق صلاح الدين في وعدهم ، رفض ان يعطيهم شيئاً ما لم يطلق سراح عساكره .

رتشرد يجري مذبحة في الاسرى المسلمين سنة ١١٩١ :

اضحى رتشرد حريصاً على ان يغادر عكا ، وأن يزحف على بيت المقدس ، وصار الاسرى المسلمون مصدر حيرة له ، فانشرح صدره لما تهيأ له من العذر للتخلص منهم . فأعلن في برود شديد ، يوم ٢٠ اغسطس ، اي بعد ان مضى ما يزيد على اسبوع على عودة الرسل اليه ، ان صلاح الدين نقض عهده ، وأمر بالاجهاز على سبعمائة وألفي اسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا . فاشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة ، وقد حمدوا الله ، حسبما يروي لنا في جذل وسرور ، المدافعون عن رتشرد ، لما هيأ لهم من فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا امام المدينة (عكا) . ولقيت زوجات الاسرى وأطفالهم مصرعهم الى جوارهم . ولم يبقوا على حياة احد ، سوى بعض الاعيان ، وبعض رجال اشداء للافادة منهم في اعمال السخرة . وشهد المسلمون المرابطون في اقرب المعاقل الى عكا ما قد حدث ، فاندفعوا لانقاذ ذويهم ، وعلى الرغم من انهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام ، فانهم لم يستطيعوا الوصول اليهم . ولما انتهت المذبحة ،

غادر الانجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة المتعفنة ، وأضحى بوسع المسلمين ان يقدموا للتعرف على اصدقائهم الذين استشهدوا (١) .

وفي يوم الخميس ، ٢٢ اغسطس سنة ١١٩١ ، قاد رتشرد الجيش الصليبي وغادر عكا ، وقد تغيب كنراد وعدد كبير من البارونات المحليين . وكان الفرنسيون بقيادة دوق برجنديا في مؤخرة الجيش ، قد خرجوا من عكا ساخطين ، فما من احد من العساكر يود ان يغادر المدينة التي ظلوا يعيشون فيها حتى الشهر الاخير في راحة ونعيم بما توافر فيها من الخبز ، وتكاثر فيها من النساء الساقطات لإشباع شهواتهم ، وما من احد منهم ارتاح لما سمعه من انه لم يسمح بأن يصحبهم من العاملات في المعسكر سوى الغسالات . غير ان قوة شخصية رتشرد قهرتهم . أما صلاح الدين فما زال معسكراً في شفرعم ، التي تحكمت في الطريقين الرئيسين الممتدين من الساحل ، فيتجه احدهما الى طبرية ودمشق ، بينما يجتاز الطريق الثاني الناصرة الى بيت المقدس .

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 240 - 243.
Ambroise, cols, 144 - 148.

وكلا المصدرين يبرران موقف رتشرد ، ويتهمان صلاح الدين بأنه يهدد المسيحيين، وأشارا الى ان كنراد حاول ان يوكل اليه امر الاسرى . وحمد امبرواز الله لوقوع المذبحة . ووردت رواية بالغة الاقناع في :
Ernoul, pp. 276 - 277.
Estoire d'Eracles, II, pp. 178 - 179.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 270 - 274.

ووفقاً لرواية ابي شامة ، طلب صلاح الدين الى الداوية الذين يثق فيهم برغم كراهيته لهم ، ان يضمنوا شروط المعاهدة ، غير انهم رفضوا لأن رتشرد سوف ينقضها . ولم يعد صليب الصلبوت الى الصليبيين . انظر :
Abu Shama, II, pp. 30 - 33.

غير ان رتشرد سار الى الجنوب ، والتزم الطريق الممتد على الساحل ، حيث يلقي جناحه الحماية من قبل البحر والاسطول . وعندئذ اقتفى السلطان اثره بأن اتخذ طريقاً موازياً لطريق رتشرد ، ثم عسكر على تل القيمون على منحدرات جبل الكرمل . ومن هذا الموضع ركب صلاح الدين ليتفقد الاقليم الذي يقع جنوب الكرمل قرب البحر ، ليتخذ موضعاً يصلح للمعركة .

سار المسيحيون فاجتازوا حيفا التي سبق لصلاح الدين ان دمر استحكاماتها قبيل سقوط عكا في ايدي الصليبيين ، وطافوا حول تلال الكرمل . على انهم التزموا البطء في سيرهم حتى يظل الاسطول على اتصال بهم . كما ان رتشرد حرص على ان ينال العساكر قدراً من الراحة من حين الى آخر ، إذ كانت الرياح تهب من الغرب ، ولقيت السفن عناء في اجتياز الموضع . وانقض الفرسان المسلمون من حين الى آخر ، من جبال الكرمل على الجيش المسيحي الزاحف ، فقطعوا الطريق على العساكر الذين تاهوا عن جيشهم ، فحملوهم الى صلاح الدين ، الذي استجوبهم ثم امر بقتلهم انتقاماً لمذبحة عكا . ولم يبق على حياة احد سوى الغسالات . وفي تلك الاثناء قاد رتشرد جيشه ، فاجتاز حافة الكرمل وأقام معسكره الى الداخل من قيسارية [1] .

ولما اقترب المسيحيون من قيسارية ، في ٣٠ اغسطس ، اضحى الالتحام

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 248 - 256.
Ambroise, cols. 152 - 160.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 275 - 281
Abu Shama, II, pp. 33 - 36.

بـين الجيشين وشيك الوقوع ، ومنذئذ كان القتال الحاد ينشب بينهما كل يوم . غير ان رتشرد كان شديد العزم والإصرار في قيادة جيشه ، وكان في أتمّ اللياقة والكفاية ، وقد درج على ان يقاتل في المقدّمة ، غير انـه كان يركب بين تارة وأخرى يتفقد كل الجيش ويشجّع الرجال على التقدم . واشتدت الحرارة ، وتعرّض للهلاك من ضربة الشمس عدد كبير من عساكر الغرب ، بأسلحتهم الثقيلة ، ولما يألفوا تحمّل الشمس ، وتعرّض كثير منهم للاغماء ، فلاقوا حتفهم حيث اضجعوا . وكاد يهلك دوق برجنديا والعساكر الفرنسيون أثناء تثاقلهم في المسير في مؤخرة الجيش ، خلف عربات المؤن ، غير انهم استطاعوا ان يخلصوا انفسهم . ومضى الجيش بأجمعه في طريقه مترجّلاً ، يلهج من حـين الى آخر بالدعاء : فلتُعنـّا ايها القبر المقدّس (Sanctum Sepulchrum adjuva) .

معركة ارسوف سنة ١١٩١ :

وبعد بضعة ايام ، اختار صلاح الدين الموضع الذي نشبت فيه المعركة ، وكان يقع شمالي ارسوف ، حيث كان السهل من الاتساع ما يكفي لاستخدام الفرسان ، غير ان هذا الموضع تخفيه الغابات التي امتدت حتى أضحت على مسافة ميلين من البحر . ثم طلب رتشرد في ٥ سبتمبر اجراء المفاوضات ، فالتقى بالعادل شقيق السلطان تحت عَلَم الهدنة . ومع ان رتشرد سئم القتـال ، فانه لم يطلب ما يقل عن التنازل له عن كل فلسطين ، فبادر العادل على الفور الى قطع المفاوضات .

تبين لرتشرد ، في صبيحة يوم السبت ٧ سبتمبر ان المسلمين أصروا على ان تنشب المعركة ، فرتب عساكره إستعداداً للقتال . فجعل قطار الأمتعة

ينتشر على امتداد الساحل ، ويتولى حراسته هنري كونت شامبانيا وجماعة من الرجالة . واتخذ الرماة مواضعهم في الصف الامامي ، ومن خلفهم كان موضع الفرسان . أما الداوية فكانوا في الميمنة على الطرف الجنوبي للجيش ، وتلاهم البريطانيون والأنجويون ، ثم عساكر جيين بقيادة جاي لوزجنان وأخيه جفري . واتخـــذ الملك مكانه في قلب الجيش ، في عساكره من الانجليز والنرمان ، وتلاه الفلمنكيون والبارونات الوطنيون بقيادة جيمس افيسنيز ، ثم الفرنسيون بقيادة هيو دوق برجنديا ، وفي أقصى اليسار استقر الاسبتارية . فلما اكتمل إعداد كل شيء ، ركب رتشرد ودوق برجنديا يتفقدان خط القتال ، ويبثان العساكر التشجيع .

بدأ المسلمون هجومهم في الضحى ، وأخـذ العساكر السود بأسلحتهم الخفيفة والبدو الرجالة تنقضُّ على المسيحيين في موجات متلاحقة ، يرمونهم بالسهام ، فأنزلوا الخلل والاضطراب في الصف الاول للرجالة ، غير أنه لم يكن لهم أدنى تأثير في الفرسان بأسلحتهم الثقيلة . ثم انفرجت صفوفهم فجأة ، ونفذ منها الفرسان الترك يحملون ، فيطعنون بسيوفهم ، ويضربون بحرابهم ، وركزوا أشد هجماتهم على الاسبتارية والفلمنكيين ومن يليهم من البارونات الوطنيين ، أملاً في رد الجناح الأيسر للمسيحيين . على ان الفرسان صمدوا للهجوم ، ونجح الرماة في إعـادة تنظيم صفهم بعد كل موجة من هجمات المسلمين . وعلى الرغم من توسلات العساكر ، لم يسمح رتشرد لشطر من الجيش بالقيـام بالهجوم إلا بعد ان يكتمل استعداد الجيش بأسره ، وتظهر دلائل الضعف على هجمات الترك ، وبعد ان يزداد الجيش الاسلامي اقتراباً منهم . وأرسل مقدم الاسبتارية الى رتشرد مرات عديدة يلتمس منه إعطاء الاشارة بالقتال ، وقـال ان فرسانه سوف لا يذعنون له إلا

اذا قاموا بالهجوم . وإذ لا زال رتشرد يوصي بالصبر ، خرج فارسان ، أحدهما مارشال الاسبتارية والآخر بلدوين كاريو ، فتوليا مقاليد الامور ، وركبا لملاقـاة المسلمين ، فلحق بهما رفقاؤهم يركضون على ظهور الخيل . ولم يكد سائر الفرسان يشهدون المنظر ، حتى حثوا أفراسهم للاسراع اليهم . وقـــع شيء من الاضطراب أول الامر ، لأن الرماة لم يكونوا مستعدين ، وقد اعترضوا الطريق . ثم ركب رتشرد ، ودخل غمار المعركة كيما يعيد الى الجيش شيئاً من النظام ، ويتولى قيادة الهجوم . وإذ كان كاتب صلاح الدين على تل قريب ، شهق لما شهده من روعة المنظر حين كان خيالة المسيحيين يهدرون في اتجاههم نحوه ، فلم يكن بوسع العساكر المسلمين ان يقاوموهم ولم تلبث صفوف المسلمين ان تداعت ، فلاذوا بالفرار . على ان صلاح الدين جمع شملهم في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره ، وللقيـام ايضاً بهجوم آخر على العدو . ولكن المحاولة باءت بالفشل . ولم يحل المساء حتى أضحى للجيش المسيحي السيطرة على ساحة القتـــال ، واستأنف سيره صوب الجنوب[1] .

انتصار رتشرد سنة ١١٩١ :

على الرغم من ان معركة ارسوف لم تكن حاسمة ، فانها كانت انتصاراً معنوياً كبيراً للمسيحيين ، إذ ان خسائرهم كانت من الضآلة ما يدعو الى

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 256 - 278.
Ambroise, cols. 160 - 178.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 281 - 295.
Abu Shama, *II*, pp. 36 - 40.

اثارة الدهشة ، مع انه كان من بين الضحايا الفارس الكبير جيمس أفيسنيز الذي احاط بـه خمس عشرة جثة للسلمين . ولم تكن خسائر المسلمين فادحة ايضاً ، ولم يسقط في المعركة امير نابه ، وفي اليوم التـالي حشد صلاح الدين كل رجاله ، وتجهّز لمحاولة لقاء آخر مع العدو ، ولكن رتشرد رفض ذلك ، ولم يكن لدى صلاح الدين من القوة ما يكفي لحمله على القتال . وترجع قيمة هذا الانتصار الى الثقة التي منحها للمسيحيين ، إذ كانت هذه اول معركة مكشوفة منذ حطين ، ودلت على ان صلاح الدين يصح ان يتعرض للهزيمة . وإذ جرى هذا الانتصار عقب الاستيلاء على عكا ، فانه يدل فيما يبدو على ان المدّ قد تحول ، وأن بيت المقدس يصح استردادها مرة اخرى . وبلغت شهرة رتشرد ذروتها . ومع ان الهجوم الظافر وقع فعلاً ، مخالفـاً لأوامر رتشرد ، فانه لم يحدث إلا قبل استعداد رتشرد بدقائق معدودة . ومـا سبق الهجوم من حثه الجند على التزام الصبر ، وتوجيهه للهجوم عند وقوعه ، دلّ على سمو قيادته ، وبشر ذلك بمستقبل باهر للحملة الصليبية .

أما صلاح الدين فإنه تعرّض لمهانة شخصية ، ومذلة عند الناس . فلم يكن جيشه بعكا قوي التأثير ، وتعرّض للهزيمة في معركة مكشوفة في ارسوف . وكلما تقدم صلاح الدين في العمر ، فقد شيئاً من نشاطه وسيطرته على الرجال ، شأنه في ذلك شأن سلفه نور الدين . كما ان صحته قد ساءت ، إذ كانت نوبات حمى الملاريا تعاوده من حين الى آخر . لم يعـد له ما كان له في سنوات شبابه من القدرة ما يفرض بها قراراته على الامراء المتنازعين الذين يعتبرون اتباعاً له . ومـا زال عدد كبير منهم يعتبرونه حديث النعمة مغتصباً ، حتى اذا تراءى لهم ان نجمه اخذ يهوي ، بادروا الى التمرّد

والعصيان . كما انه لم يطق ان يفوقه رتشرد في فن القيادة . وقبل كل شيء ، ينبغي ألا يفرط في بيت المقدس ، التي يعتبر استيلاؤه عليها اكبر ما حققه من انتصار مجيد . قاد جيشه ، بعد ان احسن تنظيمه ، الى الرملة على الطريق الى بيت المقدس ، وقد ترقب حركة جديدة من رتشرد .

مضى الجيش الصليبي في سيره الى يافا ، وشرع في إعادة بناء استحكاماتها ، وكان رتشرد لا يزال حتى وقتذاك يستند الى الاسطول الذي يسير إزاء جناح الجيش ، فيما يحتاجه من المؤن . ولم يكن رتشرد مستعداً لأن يسير داخل البلاد الى بيت المقدس ما لم يكن له قاعدة قوية على الساحل . يضاف الى ذلك ان حلّ بجيشه التعب والإرهاق بعد سيره الطويل على امتداد الساحل ، فاحتاج الجيش الى قدر من الراحة . على ان ما التزمه رتشرد من الحذر والتمهُّل حيَّر كثيراً من المؤرخين ، فلو انه أسرع بالمسير الى مهاجمة بيت المقدس ، لأدرك ما عليه حاميتها من ضعف ، وما أصاب أسوارها من التداعي . واذا كان جيش صلاح الدين تعرَّض للهزيمة ، فانه لم يتحطم ، وما زال قوياً ومصدر خوف ورعب . فاذا غامر رتشرد بالمسير الى بيت المقدس ، أضحى بوسع جيش صلاح الدين ان يقطع طريق الاتصال بين رتشرد وبين البحر ؛ فكان من الحكمة والتعقل ان يتأكد رتشرد من مناعة يافا قبل ان يشرع في مغامرته الخطيرة . ومع ذلك فان التمهل والإرجاء أضحيا بالغيْ الطول ، فتهيّأت لصلاح الدين الفرصة لتدعيم وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة .

وإذ خشي صلاح الدين ان يتحرك رتشرد الى عسقلان ، وان يقيم بها قاعدة ، تقطع طريق الاتصال بين صلاح الدين ومصر ، التي تعتبر المصدر الرئيسي لقوته الضاربة ، قاد شطراً من جيشه من الرملة الى عسقلان ،

فدمّر المدينة عن آخرها برغم رخائها[1] وثروتها. وفي تلك الأثناء نَعِم الجيش المسيحي بأسباب الراحة في يافا، إذ كانت الحياة بهـا مشرقة لطيفة، بما توافر من الفاكهة والخضروات بالبساتين المحيطة بالمدينة، وبمـا جلبته السفن من المؤن الوفيرة، وبمن جاءت به يافا من النساء الجميـلات المرحات ليكنّ مصدر تسلية للرجال.

عسكر المسلمون على مسافة من عسقلان، ولم تقع إلا بضعة اشتباكات بـين الفرسان في سهل لدّ، على اطراف المعسكر. وانغمس الجيش المسيحي في الحياة الوادعة الناعمة، والتمس عدد كبير من العساكر طريقهم راجعين الى عكا. ولما ارسل رتشرد اليهم جاي لوزجنان ليحثهم على العودة الى المعسكر، لم يحفـلوا به، واقتضى الامر ان يتوجه رتشرد الى عكا، فجمعهم وأرجعهم الى معسكرهم[2]. وكان لرتشرد متاعبه الخـاصة، إذ لم يكن سعيداً لما حدث من الامور في عكا، وفي الجهـات التي تقع الى الشمال منها، حيث مـا زال حزب كنراد قوياً، كما وقع اضطراب في جزيرة قبرص بعـد وفاة رتشرد كامفيل، ولقي تيرنهام صعوبة في قمع الثورة، وخشي رتشرد ما قد يفعله الملك فيليب عند عودته الى فرنسا؛

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 280 - 281.
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 295 - 300.
Abu Shama, II, pp. 41 - 44.
Ibn al - Athir, II, pp. 50 - 51.
يشير ابن الاثير وأبو شامة الى ان صلاح الدين نزل كارهاً على رأي اصحابه فيما يتعلق بعسقلان.

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 283 - 286.
Ambroise, cols, pp. 187 - 189.

على ان رتشرد عـــثر على حلّ لقلقه ، بأن باع جزيرة قبرص للداوية ، وحرص رتشرد ايضاً على ان يشرع في المفاوضات مع صلاح الدين . وأبدى صلاح الدين الاستعداد للاستماع الى ما عرضه رتشرد من مقترحات ، وعهد الى اخيه العادل بأن ينوب عنه في ذلك[1] .

رتشرد يجري مفاوضات مع العادل سنة ١١٩١ :

ما كاد رتشرد يعود الى يافا حتى ارسل الى لد الـتي اتخذها العادل مقراً لقيادته ، همفري سيد تبنين ، الذي يعتبر خير مَن يجيد اللغة العربية في الجيش المسيحي ، والذي يخصه بالمحبـــة العميقة ، للتشاور في الامور التمهيدية للتوصل الى عقد هدنة ، غير انه لم يتقرر شيء . ويُعتبر العادل دبلوماسياً ماهراً ، وقد كبح جماح تطلـّع صلاح الدين الى عقـد تسوية . وتهيّأت لدبلوماسيته فرصة رائعة ، حينما قدم اليه ، في اكتوبر سنة ١١٩١ ، رُسل من صور ، يسألونه ما اذا كان قد استقبل سفارة من كنراد . على ان رتشرد لم يكن له اول الامر من الطلبات مـا هو أقل من الحصول على بيت المقـــدس ، والاقليم الواقع غربي نهر الاردن ، واستعادة صليب الصلبوت . فأرسل صلاح الدين ردّه بأن المدينة المقدسة تعتبر ايضاً مقدسة عند المسلمين ، وانه لن يعيد صليب الصلبوت إلا مقابل الحصول على بعض الامتيازات . وعُرض رتشرد ، في ٢٠ اكتوبر ، اي بعـــد بضعة ايام ،

---

(١) انظر :
Benedict of Peterborough, II, pp. 172 - 173.
Ernoul, p. 273.
Estoire d'Eracles, II, pp. 170, 189 - 190.

مقترحات جديدة . إذ انه أبدى اعجابه بالعـادل ، شأنه في ذلك شأن سائر الصليبيين الذين أطلقوا على العادل لقب (سيف الدين Saphadin) ، واقترح ان يكون للعادل كل ما في حوزة صلاح الدين في الوقت الراهن من فلسطين ، على ان يتزوج العـادل اخت الملك ، جوانا ملكة صقلية ، التي سوف يخصها رتشرد بكل مـا فتحه من المدن الساحلية بمـا فيها عسقلان ، وينبغي للعروسين ان يقيما في بيت المقدس ، التي لا بد ان يتيسر للمسيحيين التردد عليها ، ولا بد من إعادة صليب الصلبوت ، وينبغي اطلاق سراح الأسرى من الجـانبين ، وان تردّ الى الداوية والاسبتارية ممتلكاتهم بفلسطين . ولما عاد كاتب صلاح الدين اليه بهذا العرض ، اعتبره صلاح الدين نوعاً من المزاح ، وأبدى سروره للموافقة عليه . غير ان رتشرد ربما كان جادّاً فيما عرض . امـا الملكة جوانا التي لحقت مع برنجاريا برتشرد في يافا ، فانها ارتاعت حينما سمعت بهذا العرض ، إذ قالت بأنه ليس ثمة مـا يدعوها لأن تتزوج من رجل مسلم . ولذا طلب رتشرد من العادل ما اذا كان يفكر في ان يصير مسيحياً ، غير ان العـادل ، في كياسة وأدب ، رفض هذا الشرف ، ودعا الملك رتشرد الى وليمة فاخرة أقامهـا في لد في ٨ نوفمبر سنة ١١٩١ . وكان الاحتفال شائقاً ، وافترق العادل ورتشرد بعد ان تأكدت بينهما أواصر المحبة ، وتبادلا الهدايا . غير انه حدث في الوقت ذاته ان كان صلاح الدين يأنس في معسكره القريب بالاجتماع مع رسول كنراد ، وهو رينالد سيد صيدا المعروف بعذوبة الحديث ، والذي غفر له صلاح الدين مكره ودهاءه للاحتفاظ بقلعة شقيف ارنون .

وفي صبيحة اليوم التالي استقبل صلاح الدين همفري سيد تبنين ، رسول رتشرد اليه ، وقـد حمل عرضاً يقضي بالاعتراف بالعادل سلطاناً على كل

فلسطين طالما صار للمسيحيين نصيب في بيت المقدس ولم ينقطع الأمل في تدبير زواج جوانا من العادل ، على الرغم من اعتراف رتشرد بأن الرأي العام عند المسيحيين صدمته هذه الفكرة . وفكر رتشرد في ان جوانا قد تغير رأيها اذا اجاز البابا هذا الزواج . فإذا لم تقبل جوانا ، تزوّج العادل من اليانور كونتيسة بريتاني ، وإبنة اخت رتشرد ، التي يصح ان تتزوج دون تدخل البابا ، نظراً لأنها كانت تحت وصاية الملك . فإذا تمّ كل ذلك فسوف يعود الملك الى اوروبا . أما عرض كنراد فكان اقــل اثارة وحساسية ، ففي مقابـل حصوله على صيدا وبيروت ، ينشق على سائر الصليبيين ، بل انه اقترح ان تعود عكا الى المسلمين . غير انه لمـا جرى سؤاله ما اذا كنراد مستعداً لأن يشهر السلاح في وجـه رتشرد ، راوغ سفيره ، رينالد سيد صيدا .

عقد صلاح الدين مجلساً ليقرر أي جانبي الفرنج يمضي معه في المحادثات . فأعلن العادل وبعض الامراء الميل الى المضي في المحادثات مع فريق رتشرد لا حباً في الملك ، بل لأنــه سوف يبادر الى مغادرة فلسطين ، على حين ان كنراد الذي شعروا جميعاً بهيبته والتخوف منه ، كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين . فتقرر قبول مقترحات رتشرد من حيث المبدأ ، غير ان حاشية همفري ساءهم ذات يوم ما شهدوه من خروج رينالد سيد صيدا للصيد في صحبة العادل ، وما كان له من ألفة ظاهرة معه . والواقع ان العادل حرص على ان يطول امـد المفاوضات حتى حلول الشتاء (١) .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 295 - 297.

Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 302 - 335.

اورد ابن شداد رواية مسهبة عن المفاوضات .

Abn Shama, II, pp. 45 - 50.

وما وقع في تلك الاثناء بين الجيشين الاسلامي والمسيحي من قتال ، لم يَعدُ ان يكون متقطعاً وطارئاً . إذ حدث ذات يوم في اواخر نوفمبر ، ان خرج رتشرد يتصيد بالصقر فوقع في كمين للمسلمين ، وكاد ان يصير بأيديهم لولا ان صاح الفارس الباسل ، وليم بريه بأنه الملك ، وحلّ مكانه في الأسر . ووقع فرسان آخرون في الاسر في ذلك اليوم ، غير انه باستثناء هذا الاشتباك الصغير ، لم تحدث حروب بالغة الأهمية [1] .

رتشرد في بيت نوبة سنة ١١٩٢ :

لما اخذت الأمطار تهطل في شهر نوفمبر ، صرف صلاح الدين نصف جيشه ، ولجأ بمن تبقى معه من العساكر الى منازل الشتاء في بيت المقدس ، كانت الامداد في الطريق اليه من مصر . غير ان رتشرد لم يأبه لرداءة الطقس . ففي منتصف الشهر ، قاد جيشه الذي تكاثر عدده بمن قدم من عكا من قوات جديدة ، وخرج من يافا ومضى في طريقه حتى بلغ الرملة ، التي هجرها المسلمون ودمروا استحكاماتها . فأقام بها ستة اسابيع ، مترقباً سنوح الفرصة ليواصل السير الى بيت المقدس ، فتكررت هجمات المسلمين على معاقله الامامية . وكاد رتشرد نفسه يقع في الاسر حينما خرج لتفقد الجهات القريبة من قلعة تل الصافية . وحدث في اشتباك آخر ان وقع في الاسر ايرل ليستر ، غير انه لم يلبث ان اطلق سراحه . وبلغ الطقس من السوء في الايام الاخيرة من السنة (١١٩١) ان سحب صلاح الدين من كان يطلقهم من المغيرين . وأمضى رتشرد يوم عيد الميلاد في اللطرون على

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 286 - 288.

حافة تلال يهودا ، وفي ٢٨ ديسمبر ارتقى بجيشه التلال دون ان يصادف مقاومة من العدو . وهطلت الامطار غزيرة ، فأضحت الطريق كثيرة الوحل والطين ، وحطمت الريح العاتية اعمدة الخيام ، قبل ان تنصب خيمة واحدة . ثم بلغ الجيش في ٣ يناير سنة ١١٩٢ حصن بيت نوبة الذي لم يبعد عن المدينة المقدسة سوى اثني عشر ميلاً . وملك الحماس العساكر الانجليزية والفرنسية ، ومهما ازدادت متاعب المعسكر الذي قام على مرتفع كثير الوحل تهب عليه الرياح العاصفة ، وبرغم ما دمرته الأمطار من مستودعات الخبز ولحم الخنزير ، الغذاء الرئيسي للجند ، وما هلك من جياد كثيرة بسبب البرد وتقاصر العلف ، وشدة ما عانوه من التعب والبرد ، فإن كل ذلك كان مقبولاً ومحتملاً ، لو انهم سوف يبلغون عاجلاً هدفهم . غير ان الفرسان الذين خبروا الاقليم ، امثال الاسبتارية والداوية والبارونات الوطنيين ، اتخذوا وجهة نظر بالغة الحكمة ، وشديدة الأسى . إذ اخطروا الملك رتشرد انه حتى اذا استطاع ان يجتاز التلال الموحلة في وسط هذه العواصف وبلغ بيت المقدس ، واستطاع ان يرهق جيش صلاح الدين بها ، فإن للمسلمين جيشاً آخر قدم من مصر وعسكراً على التلال خارج المدينة ، وبذا يصح ان يقع بين الجيشين . ثم اضافوا ولو استولى رتشرد على بيت المقدس ، فماذا يجري بعدئذ ؟ الواضح ان الصليبيين الوافدين سوف يعودون الى اوطانهم بأوربا بعد ان يؤدوا الحج ، وأن العساكر المحلية ليست من كثرة العدد ما يكفي للصمود لقوات المسلمين المتحدة . اقتنع رتشرد بوجهة نظرهم ، ثم امر بالارتداد ، بعد ان تردد لمدة خمسة ايام [1] .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 303 - 308.
Ambroise, cols. 203 - 208.

استبد الغضب بالجيش المسيحي وتهاوت روحه المعنوية ، أثناء اجتيازه الاراضي الموحلة في طريق العودة الى الرملة ، وتحمّل العساكر الانجليز في جَلَد وصبر مـــا حدث من خيبة الأمل ، على حين ان الفرنسيين ومـا اشتهروا به من مزاج متقلب ، اخذوا ينسحبون من الجيش ، فلجأ عـدد كبير منهم ، وفيهم دوق برجنديا ، الى يافا ، ولاذت جمـــاعة منهم ايضاً بعكا . وأدرك رتشرد انه لا بد من إثارة بعض النشاط كيما يستعيد الرجال روحهم المعنوية ، فعقد مجلساً في ٢٠ يناير سنة ١١٩٢ ، وبنـاء على تأييد المجلس ومساندته ، أصدر الأوامر الى الجيش بالتحرك من الرمـــلة الى عسقلان عن طريق يبنه . فأقام بعسقلان يصلح الحصن الضخم الذي سبق لصلاح الدين ان دمّره منـــذ بضعة شهور . وأدرك رتشرد مثلما أدرك صلاح الدين ما لهذا الحصن من أهميـــة استراتيجية ، وأقنع الفرنسيين بأن يلحقوا به في عسقلان [1] .

وفيما عدا ما قام به رتشرد من زيارة الى عكا ، أمضى الشهور الاربعة التالية في عسقلان ، التي جعل منها أمنع قلعة على كل الساحل الفلسطيني . إذ دأب رجاله على العمل ، برغم مـا صادفهم من المتاعب الكثيرة ، فلم يكن لعسقلان ميناء ، وما كان يرد بحراً من المؤن لم يهبط عادة الى البر ، كما ان المنـــاخ في ذلك الشتاء كان بالغ السوء . ولكن صلاح الدين لم يناوئهم او يزعجهم . واعتقد بعض أتباع رتشرد ان فروسية صلاح الدين

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 309 - 312.
Ambroise, cols. 208 - 211.
Abu Shama, II, p. 51.

منعته من مهاجمتهم في وقت أضحى من اليسير فيه إلحاق الأذى والضرر بهم ، مما أثار غضب وسخط بعض أمرائه . والواقع ان صلاح الدين أراد ان يوفر الراحة لجيشه ، وأن ينتظر قدوم الأمداد عليه من الجزيرة والموصل . على ان ما حدث من تذمُّر بعض الأمراء لم يكن راجعاً الى تقاعده عن القتال . فاذا كانوا في هذه الصورة من المزاج ، فلن يغامر صلاح الدين بأن ينشب معركة مع الفرنج[1] .

يضاف الى ذلك ان ما ورد من أنباء من عكا اوقفت صلاح الدين على وقوع شقاق بين الفرنج . ففي فبراير سنة ١١٩٢ ، طلب رتشرد من كنراد ان يسهم فيما يجري في عسقلان من اعمال ، غير ان كنراد رفض في فظاظة القدوم الى عسقلان ، وحدث بعد بضعة ايام ان تسلل من الجيش هيو دوق برجنديا وكثير من الجند الفرنسيين ، وتوجهوا الى عكا . والمعروف ان الملك فيليب لم يترك مع الدوق إلا قدراً قليلاً من المال للانفاق على العساكر الفرنسية ، ولذا فإن ما كان يؤدي لهم حتى وقتذاك من الرواتب جاء من القروض التي بذلها لهم رتشرد . على ان اموال رتشرد الطائلة اخذت في النفاد . ولم يعد بوسعه ان يمضي في الانفاق عليهم . وجرى في عكا ان ما كان من تنافس دائم بين البيازنة والجنويين ، بعد ان اضحى لهم من الرجال والسفن ما جعل عكا مقراً لهم ، انـدلع في حرب صريحة . إذ ان البيازنة الذين زعموا انهم يتصرفون باسم الملك

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 313 - 317.
Ambroise, cols. 212 - 214.

جاي استولوا على المدينة (عكا) بعد ان تحدوا هيو دوق برجنديا الذي وصلها منذ وقت يسير ، وظلت المدينة بأيديهم لمدة ثلاثة ايام رغم أنف هيو وكنراد والجنويين ، وأرسلوا الى رتشرد يطلبون اليه القدوم لمساعدتهم. ووصل رتشرد الى عكا في فبراير سنة ١١٩٢ وحاول إعادة السلام ، فاجتمع بكنراد في قرية ايبرت على الطريق المؤدي الى صور ، ولكن اللقـاء لم يسفر عن نتيجة مقبولة . فما زال كنراد مصرّاً على ان يرفض اللحاق بالجيش في عسقلان ، حتى بعد ان هدده رتشرد انه ما لم يلحق بالجيش فسوف تصادر كل املاكه . والواقع انه لم يكن لهذا التهديد ان ينفذ . فلما عاد رتشرد الى عسقلان ، بعد ان راب الصدع بهدنة قلقة ، ازداد اقتناعاً ، عن كل زمن مضى ، بأنه لا بدّ من عقد الصلح مع صلاح الدين [١] .

مفاوضات جديدة سنة ١١٩٢ :

ما زال رتشرد على اتصال بالعـادل ، إذ ان مبعوثاً انجليزياً ، ستيفن تيرنهام ، قام بزيارة بيت المقدس للاجتماع بصلاح الدين وبأخيه العـادل ، فراعه عند وصوله أن شهد بباب المدينة رينالد سيد صيدا وباليان ابلين . والواقع ان مفاوضات صلاح الدين مع كنراد لم تنقطع ، على ان قدوم باليـــان يؤذن بفشل مفاوضات الانجليز ، نظراً لأنه كان فارساً يحظى بتقدير كبير عند صلاح الدين . ومع ذلك فان العادل ركب في ٢٠ مارس سنة ١١٩٢ الى معسكر رتشرد يحمل عرضاً محدداً ، وهو ان يحتفظ

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 319 - 324.
Ambroise, cols. 218 - 221.

المسيحيون بما سبق ان فتحوه ، وأن يكون لهم الحق في ان يؤدوا الحج الى بيت المقـدس ، حيث صار بوسع اللاتين ان يحملوا بها قسساً منهم ، وأن يعود اليهم صليب الصلبوت ، ويحق لهم ان يضيفوا اليهم بيروت بعد تخريب استحكاماتها . ولقيت السفارة استقبالاً حافلاً من الملك . ومن مظاهر التشريف التي اختص بها العادل ، مـا حدث من شد ابن للعادل بحزام الفروسية ، ولا شك انه تقرر في الاحتفال استبعاد بعض الطقوس المسيحية المألوفة . فلما رجع العادل الى اخيه صلاح الدين في أوائل ابريل سنة ١١٩٢ ، تراءى انه تمّ اخيراً التوصل الى تسوية[١] .

وتأكدت الحاجة الى الاتفاق بعـد مضي بضعة ايام ، حين قدم من انجلترا رئيس دير هيرفورد ، لينهي الى رتشرد ان الامور قد ساءت في انجلترا ، إذ ان يوحنـا شقيق الملك ، ازداد إمعاناً في اغتصاب السلطة ، وتوسل كبير الوزراء ، ولیم اسقف إيلي ، الى رتشرد ان يبادر بالعودة الى الوطن . وأمضى رتشرد عيد القيامة (٥ ابريل سنة ١١٩٢) في المعسكر ، وقد استبدّ بـــه الغضب لأن من تبقّى معه من العساكر الفرنسيين لم يلبثوا ان تخلوا عنه ، بعد ان استدعاهم الى الشمال ، هيو دوق برجنديا .

أضحت الحاجة اكثر إلحاحاً ممـا كانت عليه في اي زمن مضى ، الى قمع منازعات الصليبيين ومشاجراتهم ، فدعا الملك الى عقد مجلس يشهده كل الفرسان والبارونات بفلسطين . ثم أخطرهم الملك انـه لا بد له ان

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 328 - 329.
Itinerarium, p. 337.

يبادر الى مغادرة البلاد ، ولا بد من اتخـــاذ قرار في موضوع تاج بيت المقدس ، وعرض عليهم ان يختاروا أياً من الاثنين : الملك جاي والماركيز كنراد . واستبدّت به الدهشة حين لم يتحدث احد لصالح جـاي ، بينما أراد جميع الحاضرين ان يكون كنراد ملكاً .

وكان رتشرد من التعقل وسموّ الهمة ما يكفي لالتزامه بقرار المجلس ، فوافق على ان يعترف بكنراد ملكاً . فتوجهت بعثة برئاسة ابن اخته ، هنري كونت شامبانيا ، الى صور ، تحمل البشارة الى الماركيز كنراد .

ولـما وصل هنري كونت شامبانيـا الى صور حوالي ٢٠ ابريل سنة ١١٩٢ ، جرى احتفال باهر ، وعمّ الفرح والسرور ، وتقرر ان يتم التتويج في عكا في خلال بضعة ايام ، ثم اضحى معروفاً ان كنراد رضى آخر الامر بأن يلحق بالجيش في عسقلان . وغادر هنري كونت شامبانيا على الفور صور الى عكا ، لإعداد المدينة للاحتفال بالتتويج [١] .

مصرع كنراد سنة ١١٩٢ :

ولما سمع كنراد بخبر اختياره ملكاً ، ركع على ركبتيه ودعا الله اذا لم يكن جديراً بالملكية ، فينبغي ألا يمنحها . ولم تنقض إلا بضعة ايام ، حتى حدث يوم الثلاثاء ٢٨ ابريل سنة ١١٩٢ ، ان زوجته الاميرة ازابيللا التي طال مكوثها بالحمام ، حملته على ان ينتظر ليتناول عشاءه ، فقرر ان

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 329 - 338.
Ambroise, cols. 225 - 231.

يخرج من داره ، وأن يتناول العشاء مع صديقه القديم اسقف بوفيه ، ولما تبين له ان الاسقف فرغ من تناول طعامه ، عاد الى داره جذلان فرحاً ، على الرغم من اضطراره الى الانتظار حتى يتم إعـداد الطعام له . وبينما كان يجتاز زاوية حادة ، التقى بـه رجلان ، وإذ ناوله احدهمـا رسالة ليقرأها ، عاجله الآخر بطعنة في جسمه ، فجرى نقله الى قصره ، وهو يلفظ انفاسه الاخيرة .

ولقي احـد القاتلين مصرعه في الحـال ، بينما تمّ اعتقـال الآخر ، فاعترف قبل اعدامه انه هو ورفيقه من الحشيشية ، كلفهما بهـذا العمل سنان شيخ الجبال . والمعروف ان الحشيشية حافظوا على الحياد السلمي ، اثناء الحرب الصليبية ، التي هيأت لهم الفرصة لتقوية قلاعهم ولتكديس الثروة الطائلة . وسبق لكنراد ان أساء الى سنان ، بما حدث من السطو على سفينة تجارية تحمل شحنة ثمينـة ابتاعها الحشيشية . وعلى الرغم من احتجاجات سنان الشديدة ، لم يرجع كنراد السلع او بحـارة السفينة ، الذين تعرّضوا جميعاً للغرق فعلاً . والراجح ان سناناً خشي ايضاً ان تقوم للصليبيين دولة قوية على ساحل لبنان ، تصير فعلاً مصدر خطر على بلاده . وجرت الرواية ان القاتلين مكثا في صور بعض الوقت يرتقبـان الفرصة الملائمـة لهما ، بل انهما قبلا التنصير ، وكان كنراد وباليان ابلين شبينين لهما . غير ان الرأي العام التمس اسباباً ابعد عمقاً وأكثر اهمية ، إذ قـال بعض الناس ان صلاح الدين بذل الرشوة لسنان كيما يغتال كلاً من رتشرد وكنراد ، غير ان سناناً خشي ان موت رتشرد سوف يترك صلاح الدين حراً ، فيزحف على الحشيشية ، ولذا لم يسع سنان إلا ان يقدم على اغتيال كنراد . على ان نظرية اخرى تعتبر اكثر ذيوعاً ، تشير

لى ان رتشرد نفسه هو الذي دبّر اغتيـال كنراد ، ولا يصدق ان صلاح الدين تغاضى عن هذه الجريمة ، كما ان رتشرد لم يلجأ الى استخدام هذا السلاح ، برغم كراهيته لكنراد . غير ان اعداء رتشرد ، وعلى رأسهم اسقف بوفيه رفضوا ان يعتقدوا في براءته [1] .

يعتبر مصرع كنراد ضربة موجهة الى المملكة التي انبعثت من جديد. فمع ما اتصف به كنراد من القسوة والطموح وانعدام الضمير ، فإن بارونات الفرنج المحليين يولونه الثقة ، ويعجبون به ، مما قد يجعل منه ملكاً قوياً ماكراً . ومع ذلك فإن اختفاءه كان له ما يعوضه . ذلـك ان ازابيللا وارثـة المملكة اضحت حرة في ان تتزوج ، وأن تنقل بذلك التاج الى مرشح آخر لا يتعرض لما تعرّض له كنراد من المنازعات الشديدة . فلما سمع هنري كونت شامبانيا بمصرع كنراد ، بادر بالمسير من عكا الى صور ، حيث اغلقت الاميرة الارملة على نفسها ابواب القلعة ، ورفضت ان تسلم مفاتيح مدينتها إلا لمن يمثل ملكي فرنسا وانجلترا . ولم يكد هنري كونت شامبانيا يصل الى صور ، حتى هتف به سكان المدينة على انه الرجل الذي ينبغي ان يتزوج اميرتهم ، وأن يرث العرش .

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 337 - 342.
Ambroise, cols. 233 - 238.
Ernoul, pp. 288 - 289.
Estoire d'Eracles, II, pp. 192 - 194.
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 332 - 333.
Abu Shama, II, pp. 52 - 54.

كان هنري شاباً ، عالي الهمة ، محبوباً من الناس ، فضلاً ان انه ابن اخت ملكي فرنسا وانجلترا ، فاستجابت ايزابيلا لهتاف الجماهير ، فوهبت هنري نفسها ومفاتيحها . ولم ينقض يومان على اغتيال كنراد ، حتى تمّ اعلان خطبتها . واعتقد بعض الناس انه كان من اللائق ان ترجأ الخطبة لفترة تزيد طولاً ، وما يدعو للريبة ما اذا كانت الزيجة التي وقعت خلال سنة تعتبر من الناحية الكنسية شرعية .

الواقع ان هنري نفسه لم يحفل كثيراً بهذا الامر . كانت ايزابيلا سيدة بالغة الجمال ، في مقتبل العمر ، لم تتجاوز الحادية والعشرين ، غير انه سبق لها ان تزوجت فعلاً مرتين ، وأضحى لها ابنة طفلة ، سوف تكون ولية عهدها . وأصرّ هنري ، فيما يبــدو ، على ان يقرّ رتشرد الخطبة . وحملت الرسل رتشرد على ان يقـدم الى عكا ، حيث التقى بابن اخته ، هنري كونت شامبانيا . وترددت الشائعات بأن هنري أخطره بما يساوره من شكوك ، وبرغبته الشديدة في العودة الى وطنه ، الى بلاده الجميلة في فرنسا ، وهذا الحل اعتبره رتشرد ، فيما يبدو ، من احسن الحلول ، ونصح هنري بأن يقبل انتخابه للعرش ، ووعده بأنه سوف يعود يوماً مــا ، فيبذل لمملكته عوناً جديداً . ورفض رتشرد ان يسدي النصيحة حول الزواج ، غــير انه ليس بوسع هنري ان يصير ملكاً إلا على انه زوج لإيزابيلا . وفي ٥ مايو سنة ١١٩٢ ، ولم يمضِ على ترمّلها إلا اسبوع واحد ، دخلت ايزابيلا الى عكا وسار الى جانبها هنري . ونهض كل سكان المدينة لتحيتها ، وجرى الاحتفال بالقران بكل مظاهر الأبهــة والسرور ، ثم

اتخذت الاميرة وقرينها مقراً لها في قلعة عكا[1] .

كان ذلك زواجاً سعيداً ، فلم يلبث هنري ان وقع في حب عميق لزوجته ، ولم يعد يطيق بُعدها عن نظره ، امـا ازابيلا فاكتشفت ان سحره لا يقاوَم ، بعـد عبوس البيدمنتي الكهل (كنراد) الذي تزوجته قسراً .

تخلص رتشرد فعلاً من الملك جاي ، إذ ادرك آخر الأمر انه ما من احد في فلسطين كان يميل الى الملك السابق (جاي) الذي لا حول له ولا قوة . غير انه لا بد لرتشرد ان يتدبر مستقبل جزيرة قبرص . إذ لم يكن لرتشرد رغبة في ان يبقى بها احداً من الموظفين ، بعد عودته الى اوربا ، ولم يسلك الداوية الذين باع لهم حكومة الجزيرة ، سبيل الحكمة والتعقل في معاملة السكان الوطنيين من اليونانيين ، فأحبوا ان يعيـدوا الجزيرة الى رتشرد . وعندئذ اجاز لجاي ان يشتري حكومة الجزيرة من الداوية ، بعد ان طلب لنفسه مبلغـاً اضافياً ، لم يؤده جاي له كاملاً .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 342 - 343.
Ambroise, col. 238 - 239.

اشار هذان المصدران الى ان سكان المدينة اصروا على انتخاب هنري ، وإذ لقي الانتخـاب التأييد من الفرنسيين ، لم يشأ رتشرد ان يلتزم به . اما ارنول وتاريخ هرقل فانهما ألمعا الى ان رتشرد اصر على الانتخاب. ويذكر ابو شامة ان ازابيلا كانت معتكفة في قصرها حينما تزوجت من هنري . والراجح انها انجبت ابنتها ماريا قبل وفاة كنراد . انظر :
Ernoul, pp. 290 - 291.
Estoire d'Eracles, II, pp. 195 - 196.
Abu Shama, loc. cit.

وفي اوائل مايو سنة ١١٩٢ هبط جاي الى جزيرة قبرص ، بعـــد ان صارت له السلطة الكاملة في ادارتها كيفما شاء [١] .

رتشرد يستولي على الداروم سنة ١١٩٢ :

ولما تمت تسوية كل ذلك ، دعا رتشرد هنري ليلحق به في عسقلان . وترددت شائعة ان ابن اخ لصلاح الدين بأقاليم الجزيرة خرج على طاعة السلطان وتمرد عليه . ولذا قرر رتشرد ان يقوم بهجوم مفاجىء على الداروم التي تقع على الساحل على مسافة عشرين ميلاً من عسقلان ، إذ انه لم يتم التصديق بعد على معاهدته مع المسلمين . غير ان هنري ومن معه من الجيش الفرنسي اضاعوا الوقت في اللهو والعبث في عكا . على ان رتشرد لم ينتظرهم ، ومضى في زحفه بحراً وبراً على الداروم . وفي يوم ٢٣ مايو سنة ١١٩٢ ، وبعد قتال مرير استمر خمسة ايام اقتحم المدينة السفلى ، واستسلمت حامية القلعة . على ان رتشرد لم يتعلم شيئاً من مروءة صلاح الدين ، إذ لقيت جماعة من رجال الحامية مصرعها بحدّ السيف ، بينما جرى تعليق آخرين على شرفات الحصن ، وفرض على غيرهم الأسر المؤبد [٢] .

---

(١) عن بيع جزيرة قبرص ، انظر :
Hill : History of Cyprus, II, pp. 36 - 38, 67 - 69.

(٢) انظر :
Itinerarium, pp. 352 - 356.
Ambroise, cols, 245 - 251.
Beha ed - Din, P.P.T.S. p. 337.
Abu Shama, II, p. 54.

ومـــا حدث من سهولة الاستيلاء على آخر حصن لصلاح الدين على الساحل الفلسطيني ، زاد في رفع الروح المعنوية عند الصليبيين ، حتى انهم أعدوا خطتهم للمرة الثـــانية للزحف على بيت المقدس . فوصل هنري والعساكر الفرنسيون الى الداروم بعد يوم من استيلاء رتشرد عليها ، في الوقت المناسب ليمضوا عيد العنصرة بها مع الملك . وعاد الجيش بعدئذ على الفور الى عسقلان ، وألحّ الفرنسيون والانجليز سواء في شن هجوم مباشر على المدينة المقدسة . على ان رتشرد سمع وقتذاك انباء من انجلترا زادت في قلقه ، وساوره الشك فيما اذا كانت الحملة سوف يتحقق نجاحها من الناحية العسكرية ، فلزم رتشرد الفراش ، وقد استبدت به الحيرة ، ولم ينهض إلا بعـد ان وجّه قسيسه من بواتو خطاباً مثيراً . وعندئذ اقسم انـــه سوف يبقى في فلسطين حتى عيد القيامة المقبل [١] .

سار الجيش المسيحي مرة اخرى من عسقلان في ٧ يونيه سنة ١١٩٢ ، واجتاز الرملة اثناء طريقه الذي يخترق تل الصافية ، فوصل الى اللطرون في ٩ يونيه ، ثم بلغ بيت نوبة في ١١ يونيه . وتوقف رتشرد بهذا الموضع ، حيث بقي الجيش لمدة شهر . أما صلاح الدين فإنه انتظر في بيت المقدس ، حيث قدمت وقتئذ اليه الامداد من الجزيرة والموصل . والواقع انه ما لم يتوافر للمسيحيين المؤن ودواب النقل ، فمن الحماقة ان يمضوا في سيرهم الى التلال المحيطة بالمدينة المقدسة . فلجأ الجانبان الى المناوشات ، التي لم

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 356 - 365.
Ambroise, cols. 252 - 259.

تسفر عن فوز حاسم . فحدث ذات مرة انه بينما كان رتشرد يسير راكباً فرسه في التلال الواقعة بأعلى عمواس ، شهد فجأة عن بعد منظر اسوار بيت المقدس وأبراجها . فأسرع الى اخفاء وجهه بترسه حتى لا يشهد المدينة التي لم يأذن الله له ان يخلصها . غير انه حدث ما يعوّضه عن ذلك ، إذ ان اسقف لد السرياني قدم ذات يوم الى المعسكر يحمل قطعة من صليب الصلبوت ، كان قد استخلصها . ثم جرى فيما بعد ان رئيس دير مار الياس اليوناني ، وهو رجل وقور ذو لحية بيضاء طويلة ، اخطر الملك رتشرد عن البقعة التي دفن فيها قطعة اخرى من صليب الصلبوت ، لينقذها من المسلمين . فجرى التنقيب عنها ، وبذلها للملك رتشرد .

لقي الجيش العزاء في هاتين القطعتين من صليب الصلبوت عن خيبته في استخلاص الشطر الاكبر من الأثر المقدس الذي أعاده وقتئذ صلاح الدين فيما يبدو الى كنيسة القيامة في بيت المقدس .

وبينما تردّد قادة الجيش ، في ٢٠ يونيه سنة ١١٩٢ ، في ما اذا كانوا يتخلون عن محاولة المضي الى بيت المقدس ، ويتوجهون الى مصر عوضاً عنها ، وردت الأنباء بأن قافلة ضخمة للمسلمين قادمة من الجنوب ، وتتخذ طريقها نحو المدينة المقدسة . وانقضّ رتشرد ، بعد ثلاثة ايام ، على القافلة عند آبار الخويلفة ، الواقعة في اقليم جدب على مسافة عشرين ميلاً الى الجنوب الغربي من حبرون . لم يكن المسلمون مستعدين للهجوم ، ولم تستمر المعركة إلا أمداً قصيراً استولى رتشرد في إثرها على كل القافلة بما حوته من سلع قيّمة ، وكميات ضخمة من المؤن ، وبضعة آلاف من الجياد والإبل . وعاد الجيش المسيحي منتصراً الى معسكره في بيت نوبة .

ارتاع صلاح الدين لهذه الأنباء ، إذ صار من المحقق ان رتشرد سوف يزحف على بيت المقـدس . فعجل صلاح الدين بإرسال الرجال لطمّ كل الآبار الواقعة بين بيت نوبة والمدينة المقدسة ، ولقطع كل اشجار الفاكهة . وعقد صلاح الدين ، في اول يونيه سنة ١١٩٢ ، مجلساً بالغ الأهميـة في بيت المقدس ، لمناقشة ما اذا كان ينبغي ان ينسحب صوب الشرق . كان صلاح الدين نفسه يودّ البقـاء في بيت المقدس ، وأيّد الأمراء المجتمعون قراره ، بعد ان أعلنوا ولاءهم له . غير انه وقع شجار بين العساكر التركية والكردية ، ولم يطمئن صلاح الدين الى مـدى استعدادهم للصمود لهجوم عنيف .

رتشرد يرتدّ الى يافا ، سنة ١١٩٢ :

ولم تلبث متاعب صلاح الدين ان تبدّدت ، إذ جرى ايضاً في المعسكر المسيحي مناقشات حادة ، فقد حرص العساكر الفرنسيون على ان يبادروا على الفور بالهجوم ، بعد ان توافرت المؤن ودواب النقل . غير ان كشافة رتشرد حذروه بما كان من قصور الماء ، ثم لا زالت المشكلة قائمة ، وهي كيف يتسنى المحافظة على بيت المقدس بعـد عودة الصليبيين الغربيين الى أوطانهم . وعلى الرغم مما أظهره الفرنسيون من السخرية ، وما وجّهوه من شتائم ، أمر رتشرد الجيش ، مرة اخرى ، بالتراجع من بيت نوبة . وفي ٤ يوليه سنة ١١٩٢ ، بلغت صلاح الدين الأنبـاء بأن المسيحيين أزالوا معسكرهم ، وأخذوا يتحركون نحو الساحل ، فركب صلاح الدين وخرج من بيت المقدس على رأس جمـاعة من رجاله الى احد التلال المجاورة ،

ليرقبوا الموكب الذي مضى بعيداً[1] .

ولم يكد رتشرد يعود الى يافا ، حتى سعى من جديد الى عقد هدنة ، تهيء له الحرية في العودة الى وطنه . وجّه هنرى الى صلاح الدين رسالة طافحة بالإدّعاء والغرور ، صرح فيها انه أضحى ولي عهـد مملكة بيت المقدس ، ولا بد ان تؤول اليه بأكملها ، أمـا رُسل رتشرد الذين قدموا بعـــد ثلاثة ايام الى بيت المقدس ، فكانوا أميل الى المسالمة والمصالحة . وأوصى رتشرد بأن يجعل صلاح الدين ابن اخته (هنري كونت شامبانيا) في كنفه وتحت رعايته ، وألحّ على ضرورة التوصل الى اتفـاق ودّي . وبناء على موافقة مجلسه ، وافق صلاح الدين على ان يعامل هنري على انه أحد أبنائه ، وان يسمح لقسس من اللاتين بالبقـاء في الأماكن المقدسة ، وان يتنازل للمسيحيين عن الساحل الفلسطيني ، بشرط تدمير استحكامات عسقلان . غير ان رتشرد رفض النظر في تدمير عسقلان ، حتى بعـد ان عرض عليه صلاح الدين ان يستبدل بها لد .

وبينما كان الجدال لا زال يتنـاقله الرسل بين رتشرد وصلاح الدين ، تحرك رتشرد الى عكا ، وقد أعدّ خطته للإقلاع ، اذا لم يتم حتى وقتذاك توقيع المعـاهدة . وقضت خطته بأن يزحف فجأة على بيروت ، ويستولي

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 365 - 398.
Ambroise, cols, 260 - 287.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 337 - 352.
Abu Shama, II, pp. 56 - 62.

عليها ، ثم يبحر منها الى اوربا (١) .

على ان تعيُّب رتشرد هيّأ لصلاح الدين الفرصة . ففي وقت مبكر من يوم ٢٧ يوليه سنة ١١٩٢ ، خرج صلاح الدين بجيشه من بيت المقدس ، ووصل الى يافا في مساء نفس اليوم ، وشرع على الفور في مهاجمة المدينة . واستطاع النقابون ان يحدثوا ثغرة في الأسوار ، بعد ان تعرضت للقصف بالحجارة لمدة ثلاثة ايام ، فتدفق الجيش الاسلامي الى داخل المدينـــة . واستبسل المدافعون عنها في القتال ، ولكن ذلك لم يجدِ نفعاً ، واضطرت الحامية الى الاستسلام ، بعـد الاتفاق على الإبقاء على حياتهم . وتولى أمر المفاوضات بالنيابة عن المسيحيين ، البطريرك الجديد الذي تصادف انه كان بالمدينة . غير انه انفلت زمام عساكر صلاح الدين ، فاندفع الأكراد والترك يجوبون الشوارع ينهبون ويقتلون مَن يصادفهم من سكان المدينـــة الذين حاولوا الدفاع عن دورهم . فنصح صلاح الدين رجال الحامية ان يلزموا القلعة ريثما يعيد الأمن الى نصابه .

رتشرد يحرز آخر انتصار له سنة ١١٩٢ :

ما كاد صلاح الدين يقترب من اسوار يافا ، حتى توجهت رسالة عاجلة الى رتشرد تحمل اليه نبـأ الهجوم على يافا . فبادر رتشرد الى النهوض

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 398 - 399.
Ambroise, cols. 287 - 288.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 353 - 360.
Abu Shama, II, pp. 63 - 66.

لنجدتها ، بأن اتخذ اليها طريق البحر ، يسانده البيازنة والجنويون ، بينما ارسل اليها جيشه بطريق البر . غير ان الرياح المعكسية حجزته تجـــاه رأس جبل الكرمل ، أما جيشه الذي كره ان يبلغ يافا قبل قدوم رتشرد اليها ، فانه تمهل في سيره على الطريق الى قيسارية . وإذ نجح صلاح الدين في ٣١ يوليه سنة ١١٩٢ في ان يعيد من الهدوء الى عساكره ما يكفي لأن يجلي من القلعة عن طريق المدينة تسعة وأربعين فارساً من رجال الحامية ، بزوجاتهم وأمتعتهم ، كان اسطول رتشرد المؤلف من خمسين سفينة يبحر على مرمى النظر . فبادر رجـال الحامية على الفور الى استئناف المعركة ، واستماتوا في الحملة على المسلمين الذين انفرط عقد نظامهم ، فكادوا يخرجونهم من المدينة (يافا) . ولما لم يعلم رتشرد ما حدث ، تردد في ان يهبط الى البر الى ان سَبَح اليه احد القسس فأخطره بأن القلعة لم تسقط . فرسا بسفنه الى الشاطىء في سفح القلعة . ثم خاض مع رجاله الماء الى الشاطىء . ولما استبد اليأس برجال الحامية ، انفذوا فعلاً رسلاً الى صلاح الدين للتفاوض معه ، وكانوا فعـلاً يتحدثون الى صلاح الدين في خيمته حينما بدأ رتشرد هجومه . وإذ تفرّق عدد كبير من المسلمين في شوارع المدينة (يافا) ، أخذوا على حين غرة . وما اتسم به هجوم رتشرد من العنف والشدة ، بأن تقدّم رجاله واشترك في قتال مرير ، ومـا اقترن ذلك بهجوم آخر من قِبل رجـال الحامية ، كل ذلك حمل المسلمين على الفرار . وقدم الى خيمة صلاح الدين كاتبه وأسرّ اليه بما حدث من الهزيمة . ولما حاول صلاح الدين ان يستبقي زائريه من رسل الحامية بحديثه المرح ، كشف الحقيقة ما جرى من تدفق الفارّين من المسلمين ، فلم يسع السلطان إلا أن يأمر جيشه بالارتداد ، واستطاع صلاح الدين ان يبقي في معسكره في حفنة من الفرسان ، بينما هرب معظم الجيش الى يازور التي تقع على مسافة

خمسة اميال في داخل البلاد ، ولم تنتظم صفوفه بعد . واستعاد رتشرد يافا ، بقوة لم تتجاوز ثمانين فارساً ، وأربعمائة من الرماة ، ونحو ألفين من البحارة الايطاليين ، ولم يكن في جيشه سوى ثلاث افراس[1] .

وفي صبيحة اليوم التالي ارسل صلاح الدين حاجبه أبا بكر العادلي ليستأنف محادثات الصلح مع رتشرد . فألفى رتشرد يلهو ويمزح مع بعض الأمراء المسلمين الذين وقعوا في أسره ؛ وكل ذلك يدور حول سرعة استيلاء صلاح الدين على يافا وسرعة استعادة رتشرد لها . وأشار الى انه لم يكن معه سلاح ، ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي لأن يغيّر حذاءه[2] . غير انه بادر على الفور بأن وافق أبا بكر على انه لا بد من وقف القتال . واقترح صلاح الدين في رسالته ، ان يتركز الاتفاق على ان ينتهي حد الفرنج عند قيسارية ، بعد ان حلّ الدمار بيافا . وعرض رتشرد ردّاً على هذا الاقتراح بأن يحوز يافا وعسقلان على سبيل الاقطاع من صلاح الدين ، دون ان يشرح كيف تجري التبعية عند غياب الملك في

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 400 - 411.
Ambroise, cols. 289 - 302.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 361 - 371.
Abu Shama, II, pp. 66 - 71.

(٢) يشير ابن شداد ، نشر الشيال ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، الى ان رتشرد صادق جماعة من الامراء ، كانوا يجتمعون به في اوقات متعددة ، فلما حضر هذا النفر عنده قال: « هذا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك اكبر ولا اعظم منه، وكيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله ما ليستلأمة حربي، ولا تأهبت لأمر، وليس في رجلي الا زربول البحر، فكيف تأخر؟ » ثم قال : « انه لعظيم ، والله ما ظننت انه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف اخذها في يومين » .

اوربا ، فأجاب صلاح الدين بأن عرض التنازل عن يافا ، غير انه اصر على الاحتفاظ بعسقلان ، وللمرة الثانية أضحت حجرة عثرة في سبيل تحقيق السلام ، فتوقفت المفاوضات [1] .

على ان جيش الفرنج الذي سبق ان استدعاه رتشرد لإنقاذ يافا تجاوز قيسارية في سيره . وإذ ادرك صلاح الدين انه ليس لرتشرد في يافا إلا قوة صغيرة ، وطد العزم على ان يشن هجوماً على معسكر رتشرد الواقع خارج اسوار يافا ، قبل قدوم الجيش الجديد . وفي فجر الاربعاء ، ٥ اغسطس سنة ١١٩٢ ، بينا كان احد الجنويين يتجول خارج المعسكر ، سمع صهيل الخيل ، ووقع اقدام العساكر ، وأبصر ما يلمع بعيداً من الاسلحة تحت اشعة الشمس المشرقة ، فأيقظ العساكر ، فلما ظهر المسلمون ، كان رتشرد قد أتمّ استعداده . ولم يكن لدى عساكره من الوقت ما يكفي لاتخاذ اسلحتهم . فأمسك كل منهم بما وقعت يده عليه . ولم يصلح للمعركة إلا اربعة وخمسون فارساً ، وخمسة عشر حصاناً ، ونحو الفين من الرجالة . وأقام رتشرد حاجزاً منخفضاً من اعمدة الخيام ، أعدّه لإثارة الفوضى والاضطراب بين خيول العدو ، وخلف هذا الحاجز رتب رتشرد رجاله ازواجاً ، جعلوا تروسهم كأنها حاجز امامهم ، وغرسوا رماحهم الطويلة في الارض ، في إحدى الزوايا ، فتوقع بالخيول القادمة نحوهم . وبين كل اثنين من الرجال ، رابط احد الرماة ، وحمل الفرسان المسلمون في سبع

---

(١) هذه المفاوضات التمهيدية لم يذكرها إلا المؤرخون المسلمون امثال :
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 371 - 374.
Abu Shama, II, pp. 71 - 73.

موجات ، تألفت كل موجة من الف فارس . غير انهم لم يستطيعوا ان يخترقوا السور الفولاذي . استمرت هذه الهجمات الى ما بعد الظهر . ولما تبين لرتشرد ان الإرهاق والتعب حلّ فيما يبدو بخيول المسلمين ، نقل رماته الى الصف الامامي ، وأطلق كل سهامه على الجيش الاسلامي الزاحف عليهم . فأوقفت ارسال السهام تقدم العدو . ثم رجع الرماة الى مواقفهم وراء الرّماحة الذين حملوا حملة صادقة ، وعلى رأسهم رتشرد على متن جواده . واشتد اعجاب صلاح الدين بهذا المنظر ، فلما هوى حصان رتشرد من تحته ، دفعته المروءة الى ان يبعث من قبله سائساً يقود جوادين ، في غمار المعركة ، هدية للملك الباسل . وتسلل بعض المسلمين الى المدينة (يافا) فهاجموها ، فهرب البحارة الذين تولوا حراستها ، وتوجهوا نحو سفنهم ، حتى ركب اليهم رتشرد وأعادهم الى مواقفهم . وفي المساء توقف صلاح الدين عن القتال ، وعاد الى بيت المقدس ، فعزّز استحكامات المدينة حتى لا يطارده رتشرد [1] .

المعاهدة بين صلاح الدين ورتشرد سنة ١١٩٢ :

كان ذلك انتصاراً رائعاً ، أحرزه رتشرد بفضل ما أعدّه من خطط حربية ، فضلاً عن بسالته الشخصية . غير أنه لم يتبعه انتصار آخر ، ففي

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 413 - 424.
Ambroise, cols. 304 - 311.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 374 - 376.
Abu Shama, II, p. 74.

يقلل المؤرخون المسلمون من اهمية المعركة .

خلال يوم او يومين عاد صلاح الدين الى الرملة ، بجيش جديد حشده من الجموع التي قدمت من مصر وشمال الشام . أما رتشرد الذي أنهكه مــا بذله من جهود ، فانه لزم خيمته ، وقــد اشتدّ به المرض نتيجة لإصابته بالحمى . وتطلع رتشرد الى تحقيق الصلح ، فأعاد صلاح الدين ما سبق ان تقدم به من عرض ، وأصرّ على تسلّم عسقلان . وكان من العسير على رتشرد ان يتحمل ذلك ، فكتب الى صديقه القديم العادل الذي لزم ايضاً فراشه قرب بيت المقدس ، يرجوه التوسط عنــد صلاح الدين ليتخلى له عن عسقلان . غير ان صلاح الدين لم يتزحزح عن موقفه ، وأرسل الى الملك المحموم الخوخ والكمثرى ، فضلاً عن الثلج من جبل حرمون (الثلج) لتبريد أشربته . غير ان رتشرد لم يقبل التنازل عن عسقلان . والواقع ان رتشرد لم يكن في وضع يسمح له بالمساومة ، فــا حلّ به من علة ، وما ارتكبه اخوه من اعمال سيئة في انجلترا ، تتطلب عودة عاجلة الى انجلترا ، يضاف الى ذلك ما حلّ بسائر الصليبيين من الإرهاق ، وما أظهره كل من ابن اخته هنري والطوائف الدينية الحربية من انهم لم يثقوا في سياسته . فماذا يفيدون من عسقلان ، لو ارتحل رتشرد مع جيشه ؟ دأب رتشرد ايضاً على التصريح عن عزمه على مغادرة فلسطين . وفي يوم الجمعــة ٢٨ اغسطس سنة ١١٩٢ ، حمل اليه رسول العــادل العرض النهائي من قِبل صلاح الدين . وفي ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ ، أي بعد خمسة ايام وقّع رتشرد معاهدة الصلح لمدة خمس سنوات ، وأثبت رُسُل صلاح الدين أسماءهم الى جانب اسمه على المعاهدة . ثم أمسك رسل صلاح الدين بيد رتشرد ، ثم حلفوا بالنيابة عن سيدهم . ورفض رتشرد ، باعتباره ملكاً بأن يحلف ، فأقسم بالنيابة عنه هنري كونت شامبانيا ، وباليان إبلين ، ومقدما الاسبتارية

والداوية . وفي اليوم التالي مهر صلاح الدين المعاهدة بتوقيعه بحضور رسل رتشرد ، وبذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة .

جعلت المعاهدة للمسيحيين المدن الساحلية حتى يافا جنوباً . وأضحى للحجاج الحرية في زيارة الأماكن المقدسة . وللمسلمين والمسيحيين الحق في ان يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر . أما عسقلان فكان لا بدّ من تدميرها [1] .

ولم يكد يفرغ صلاح الدين من إعداد ما يلزم من التدابير ، لحراسة الحجاج وإيوائهم ، حتى تجهزت جماعات من الجيش الصليبي بعد ان تجردت من السلاح ، وحصلت من الملك رتشرد على جواز ، للتوجه الى بيت المقدس ، لزيارة مشاهدها والتبرّك بها . غير ان رتشرد نفسه لم يشأ ان يمضي اليها ، ورفض ان يمنح احداً من العساكر الفرنسيين تصريحاً بالمسير اليها ، غير ان عدداً كبيراً من عساكره ، واصلوا الرحلة الى بيت المقدس ، وقاد احدى هذه الجماعات هيوبرت والتر اسقف سالسبوري ، الذي لقي بها مظاهر التشريف ، وحظي بمقابلة صلاح الدين . وتطرّق الحديث بينهما الى موضوعات كثيرة ولا سيما اخلاق رتشرد . فأعلن الاسقف ان رتشرد حاز كل الصفات الفاضلة ، غير ان صلاح الدين اعتقد ان رتشرد يفتقر الى الحكمة والاعتدال . ولما بذل صلاح الدين للأسقف هدية عند وداعه ،

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 42 -4 430.
Ambroise, cols. 314 - 317.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 378 - 387.
Abu Shama, II, pp. 75 - 79.

طلب رجل الكنيسة من صلاح الدين السماح لاثنين من القسس اللاتين ، واثنين من الشمامسة اللاتين ان يؤدوا الخدمة الدينية في كنيسة القيامة ، وكذا في كنيستي بيت لحم والناصرة . فاستجاب له صلاح الدين ، ولم تمض إلا بضعة شهور حتى قدم القسس ، وجرى الإذن لهم بمباشرة واجباتهم دون ان يتعرّضوا للأذى (١) .

وبلغت القسطنطينية الشائعات بأن رتشرد يلحّ في ان تتخذ الأماكن المقدسة صبغة لاتينية . وبينما كان صلاح الدين لا يزال في بيت المقدس ، قدمت اليها سفارة من قِبل الامبراطور اسحاق انجيلوس ، تطلب ان يعود للمسيحيين الأرثوذكس السيطرة التامة على الكنيسة الأرثوذكسية التي كانوا يملكونها زمن الفاطميين . غير ان صلاح الدين رفض الطلب . إذ انه لم يقبل ان يكون لمذهب من المذاهب السيادة على هـذه المواضع ، بل سوف يكون ، كالعثمانيين الذين جاءوا بعده ، الفيصل والحكم بينها جميعاً . كما انه بادر الى رفض الطلب الذي تقدمت به ملكة الكرج لشراء صليب الصلبوت مقابل عشرين الف دينار (٢) .

وفاة رتشرد ، سنة ١١٩٩ م

ارتحل رتشرد الى عكا ، بعد توقيع المعاهدة ، ورتب بعكا اموره ، بأن

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 431 - 438.
Ambroise, cols. 317 - 327.

(٢) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 334 - 335.
ورفض صلاح الدين ايضاً الطلب الذي تقدم به الامبراطور من اجل بذل المساعدة لاسترداد جزيرة قبرص .

سدّد ما عليه من ديون ، وحاول ان يحصل على ما بذله من قروض . ثم اقلعت من عكا في ٢٩ سبتمبر سنة ١١٩٢ ، الملكة برنجاريا والملكة جوانا ، كيما تصلا الى فرنسا سالمتين قبل هبوب العواصف الشتوية . وفي ٩ اكتوبر سنة ١١٩٢ ، أي بعد عشرة ايام ، غادر رتشرد البلاد التي ظل ستة عشر شهراً يحارب فيها ببسالة نادرة ، غير ان الحظ لم يكن مواتياً له . إذ اجبره المناخ السيء على ان ينزل بجزيرة كورفو ، من املاك الامبراطور اسحاق انجيلوس . وإذ خشي رتشرد ان يقع اسيراً ، بادر الى الرحيل منها ، بعد ان تنكر في هيئة فارس من الداوية ، وبرفقته اربعة خدام ، في سفينة احد القراصنة كانت تقصد رأس البحر الادرياتي . ولكن هذا القارب تحطم قرب اكويليا . وواصل رتشرد ورفاقه السير براً ، فاجتازوا كارينثيا وأستريا ، وقد وطد العزم على ان يسرع في السير الى بلاد صهره هنري دوق سكسونيا . غير ان رتشرد ليس بالرجل الذي يؤمن بالتخفي ، فجرى التعرّف عليه في ١١ ديسمبر سنة ١١٩٢ بينما كان يستريح في حانة قرب فيينا . وتقرّر على الفور عرضه على ليوبولد دوق استريا ، وهو الرجل الذي قذف رتشرد في عكا بعلمه الى الارض . فاتهمه ليوبولد باغتيال كنراد مونتفيرات ، وألقى به في السجن . ثم تقرر تسليمه بعد ثلاثة شهور الى الامبراطور هنري السادس زعيم ليوبولد وسيده . وما كان لرتشرد من صداقة طويلة الأمد مع هنري الاسد ، وتحالفه الحديث مع تانكرد ملك صقلية ، جعله بغيضاً عند الامبراطور ، الذي احتجزه في الامر لمدة سنة ، ولم يطلق سراحه إلا في شهر مارس سنة ١١٩٤ ، على ان يؤدي فدية ثقيلة ، وأن يحلف له يمين التبعية .

وفي أثنـــاء الشهور المضنية التي قضاها رتشرد في الأمر ، تعرضت

بلاده لمؤامرات أخيه يوحنا ، وللهجمات المباشرة من قِبل الملك فيليب . فلما عاد اليها ، كان لديه من الاعمال والمشاغل الكثيرة ما يصرفه عن التفكير نهائياً في القيام برحلة اخرى الى الشرق . إذ ظلّ خمس سنوات يحارب في بسالة في فرنسا للدفاع عن إرثه إزاء الملك الكابيتي الماكر ، فيليب اغسطس ، حتى أنهى عمره سهم طائش انطلق من قلعة عاصية في ليموزين ، وذلك في ٢٦ مارس سنة ١١٩٩ . كان رتشرد ابناً شقياً ، وزوجاً تعساً ، وملكاً شريراً ، غير انه كان جندياً رائعاً وفارساً شهماً [١] .

---

(١) وردت الاشارة الى عودة الجيش الى الوطن ، في :

Itinerarium, pp. 439 - 440.

Ambroise, cols. 427 - 429.

اما رحلة رتشرد نفسه، وما تعرض له من محن، ومنها الرسالة المزورة التي بعث بها شيخ الجبال الى ليوبولد دوق استريا يعلن فيها براءة رتشرد من اغتيال كنراد ، فكل ذلك ورد في ايجاز في :

Itinerarium, pp. 441 - 446.

وكذا في سائر التواريخ . انظر ايضاً :

Norgate, Richard Lion - Heart, pp. 264 - 276.

الفصل الرابع

مملكة بيت المقدس الثانية

بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها ، فلن يتوجه ثانية صوب الشرق الى الحرب المقدسة ، هذا الحشد الرائع من الامراء . ومع ان اوروبا الغربية بأسرها اتحدت في ذلك الجهد الكبير ، فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً . وما حدث من انقاذ صور على يد كنراد ، ومن نجدة طرابلس من قبل الاسطول الصقلي ، إنما جرى قبل وصول الصليبيين . وكل ما اسهم بـــه الصليبيون في الحرب الثالثة لإعادة بناء مملكة الفرنجة ، لم يتعد الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا ، فضلاً عن جزيرة قبرص التي سلبوها سيدها المسيحي . على ان امراً واحداً قد تحقق ، هو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح . إذ انهكت الحرب الطويلة المسلمين . وسوف لا يحاولون ، لفترة قصيرة على الأقل ، ان يردوا الصليبيين على اعقابهم الى البحر . والواقع ان المملكة قامت من جديد ، وأضحت من الاستقرار ما يكفي لأن تبقى مائة سنة اخرى . كانت مملكة بالغة الضآلة ، ومع ان ملوكها

يعتبرون ملوك بيت المقدس ، فإن بيت المقدس لم تكن في قبضة ايديهم. وكل ما تملكوه لم يتجاوز من الارض ما لم يزد عرضه على عشرة اميال ، ويمتد نحو تسعين ميلاً على الساحل من يافا الى صور . وفي اقصى الشمال استطاع بوهمند امير انطاكية بفضل سياسة الحياد الرشيدة ، ان يحتفظ لنفسه بعاصمته (انطاكية) وما يقع حولها من الاراضي حتى ميناء السويدية ، بينما حافظ ابنه على طرابلس ذاتها ، وحاز الاسبتارية حصن الاكراد ، ونال الداوية حصن انطرطوس ، بعد الاعتراف بالانتماء له . ومع انه لم يسلم من حطام الشرق الفرنجي إلا جزء صغير ، فإن ما جرى انقاذه اضحى بنجوة من الخطر .

وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣ :

ومـع ان صلاح الدين لم يتجاوز وقتذاك الرابعة والخمسين من عمره ، فإنه اضحى منهوك القوى ، مريضاً ، بعد معاناته كل هذه الحروب . مكث في بيت المقدس حتى سمع بإقلاع رتشرد من عكا . فانصرف وقتذاك الى تنظيم الإدارة المدنية لإقليم فلسطين . وكان يأمـل وقتئذ في ان تتهيأ له الفرصة لزيارة مصر ، ولتحقيق طموحه الديني بأن يسعى الى مكة للحج. غير ان الواجب اقتضى قدومه الى دمشق ، التي بلغها في ٤ نوفمبر سنة ١١٩٣ بعد ان ظلّ ثلاثـة اسابيـع يطوف بالبلاد التي استولى عليها ، وبعد ان التقى ببوهمند في بيروت ، فأبرم معه صلحاً نهائياً . وكان ينتظره بدمشق عمل متراكم ، ظلّ يتكدس أثناء السنوات الأربع التي امضاها مع الجيش. وإذ اشتد برد الشتاء ، وتوافر بعاصمته (دمشق) من العمل ما لا بدّ من انجازه ، ارجأ رحلته الى مصر ، وأجل ما نواه من الحج . فإذا توافر له شيء من الوقت ، امضاه في الاستماع الى مناظرات علماء الفلسفة ، وخرج

في بعض الاحوال الى الصيد . على انه لم تكد شهور الشتاء تنقضي حتى ادرك كل من سبق له به معرفة ان صحته اخذت في الانهيار . كان صلاح الدين يشكو من الإرهاق الشديد ، ومن فقد الذاكرة . واضحى من النادر ان يستقبل الزائرين . وفي يوم الجمعة ، ١٩ فبراير سنة ١١٩٣ تحامل على نفسه فركب للقاء الحجاج القادمين من مكة . وفي مساء ذلك اليوم ، اخذ يشكو من الحمى والوجع ، وتحمل صلاح الدين المرض صابراً مطمئناً ، بعد ان ادرك ان نهايته قد اقتربت . وفي اول مارس ، تغيب ذهنه ، فأسرع ابنه الأفضل يطلب ولاء الامراء ، ولم يبق جالساً عند فراش صلاح الدين إلا قاضي دمشق وجماعة من الخدام المخلصين . وفي يوم الاربعاء ، ٣ مارس وبينما كان القاضي يتلو القرآن ، حتى اذا انتهى الى قوله تعالى : « لا إله إلا هو ، عليه توكلت » . فتح صلاح الدين عينيه وتبسّم وتهلّل وجهه ومضى الى ربه [١] .

---

(١) اورد ابن شداد وصفاً حياً للأيام الاخيرة لصلاح الدين، اذ كان اثناءها ملازماً له . انظر:
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 392 - 402.

وانظر ايضاً ما ورد من روايات في :

Abu Shama, II, pp. 93 - 97.
Ibn al - Athir, II, pp. 72 - 75.
Ernoul, p. 304.
Estoire d'Eracles, II, p. 217.

أخطأ ارنول وتاريخ هرقل في اثبات تاريخ الوفاة ، فجعلاه سنة ١١٩٧ ، بينما كان في سنة ١١٩٦ في :
Gestes des Chiprois, p. 15.

اما روجر اسقف هوفدن فأورد التاريخ الصحيح ، ١١٩٣ .
Roger of Hoveden, III, p. 213.

يعتبر صلاح الدين من بين كبار رجال فترة الحروب الصليبية اكثرهم جاذبية . ولم يتجرّد من الاخطاء ، ففي سبيل الوصول الى السلطة ، اظهر من المكر والقسوة ، ما لا يتلاءم مع مـا حصل عليه من شهرة وصيت فيما بعد . لم يتردّد في سفك الدماء لصالح سياسته ، فأجهز بيده على رينالد شاتيون الذي كان يبغضه ، غير انه لم يحمله على القسوة إلا مصلحة قومه ودينه . كان شديد التقوى . وبرغم ما احسّ به من الرحمة والعطف نحو أصدقائه المسيحيين ، فإنه اعتقد ان ارواحهم مصيرها جهنم . ومع ذلك احترم اساليبهم ، واعتبرهم رفاقاً . واختلف عن ملوك الصليبيين في انه لم ينقض عهده متى بذل العهد لأحدهم ، مهما اختلف عنه في الدين . وبرغم حماسه الديني الشديد ، كان دمثاً سخيّاً ، وباعتباره غازياً وقاضياً اشتهر بالرحمة ، وباعتباره سيداً كان متسامحاً شديد التعقل والرزانة . ومع ان بعض امرائه نفروا منه لأنه كردي محدث النعمة ، ومع ان الدعاة في غرب اوروبا نعتوه بأنـه المسيخ الدجال ، فما من احد من رعاياه لم يكن له الاحترام ويشتد تعلقاً به ، كما ان اعجاب اعدائه به لم يشذ عنه إلا عدد ضئيل . كان ضئيل الجسم ، وفي حالة هدوئـه وسكونه ، كست وجهه مسحة من العبوس ، غير انه لا يلبث ان يفتر ثغره عن ابتسامة عذبة . واشتهر دائماً بالميل الى البساطة ، يكره الخشونة والتظاهر . احب الهواء الطلق ، وهوى الصيد ، على انه كان محباً للاطلاع ، ويجد متعة في المناقشات العقلية ، على الرغم من تخوف المفكرين الاحرار وارتياعهم منه . اشتهر صلاح الدين بالتواضع والهدوء ، برغم ما بلغه من سلطان وما حازه من انتصارات . وحدث بعد مضي سنوات عديدة ، ان نمي الى سمع كاتب فرنجي ، اسمه فنسانت اسقف بوفيه اسطورة تشير الى انـــه حينما كان صلاح الدين يعاني سكرات الموت ، استدعى حامل اللواء وأمره بأن يطوف

في انحاء دمشق ، وقد جعل بأعلى الرمح خرقة من كفنه وينادي بأن ملك المشرق لم يحمل معه الى القبر إلا هذه الخرقة (١) .

وما قام به صلاح الدين من اعمال تعتبر من المنجزات بالغة الأهمية ، إذ انه أتمّ جهود نور الدين بتوحيد الجبهة الاسلامية ، وطرد الدخلاء الغربيين من المدينة المقدسة الى شريط ضيق على الساحل الفلسطيني ، غير انه لم يستطع طردهم نهائياً ، إذ ان الملك رتشرد وقوات الحملة الصليبية الثالثة كانوا من الضخامة ما لم يكن بوسعه ان يتغلب عليهم . ولو أعقبه حاكم آخر من طرازه ، لتيسّر إنجاز ما تبقى من العمل ، الذي كان ضئيلاً . غير ان مأساة المسلمين في العصور الوسطى ، تتمثل في الافتقار الى النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة الزعيم . كانت الخلافة هي النظام الوحيد الذي كان له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متوليها . ولم يكن الخليفة وقتذاك قوياً من الناحية السياسية ، ولم يكن صلاح الدين من الخلفاء ، بل كان كردياً ؛ لم ينحدر من اسرة كبيرة ، ولم يفرض على العالم الاسلامي ان يطيعه إلا بقوة شخصيته ، وافتقر ابناؤه الى هذه الشخصية .

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 4 - 45.
اشاد ابن شداد بأخلاق صلاح الدين وأورد أمثلة ونوادر للتدليل على صدق روايته . ولم ترد قصة الخرقة الا عند :
Vincent of Beauvais (Douai edition) p. 1204.
والواقع ان التواريخ المسيحية لم تذكر صلاح الدين الا بالاحترام والاجلال . عن القصص الاسطورية المرتبطة بصلاح الدين انظر :
Lane Poole, Saladin, pp. 370 - 401.

وكان لصلاح الدين عند وفاته سبعة عشر ولداً وابنة واحدة صغيرة . ولم يكن أكبر الابناء ، الأفضل ، إلا شاباً متغطرساً في الثانية والعشرين من عمره ، أعده والده لأن يلي من بعده دمشق وزعامة البيت الأيوبي . وبينما كان صلاح الدين يحتضر ، استدعى الأفضل الأمراء ليحلفوا له يمين الولاء ، وليعدوا بأن يطلقوا زوجاتهم ، وليحرموا أبنــــاءهم من الميراث ، اذا نقضوا العهد . وجزع كثير من الأمراء للعبــارة الاخيرة ، كما ان أمراء آخرين لم يقبلوا ان يحلفوا ما لم يحلف الافضل ايضاً بأن يبقيهم في اقطاعاتهم [1] . غير انه لما مــات والده ، وجرت مواراته في الجامع الأموي الكبير بدمشق ، أضحت سلطة الافضل في دمشق معترفاً بهــا . اما اخوه الثــاني ، العزيز عثمان ، فكان فعلاً اميراً على مصر ، ولم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره ، فأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً . وحكم حلب أخ ثالث ، وهو الظاهر غازي ، ولم يبــدِ الرضى بالاعتراف بسلطة اخيه ، على انه سيد أعلى . ووُلّي حوران أخ صغير آخر ، وهو خضر ، غــير انه لم يعترف بسيادة الافضل . ولم يبقَ على قيد الحيــاة من اخوة صلاح الدين بعد وفاته سوى اثنين ، هما : طغتكين ، الذي سبق ان خلف تورانشاه في الامارة على اليمن ، ثم العادل ، الذي كان من الطموح ما جعل صلاح الدين يرتاب

---

(١) اورد ابن شداد نسخة اليمين المحلوف بها وفصولها . الفصل الاول : « انني من وقتي هذا قد اصفيت نيتي ، وأخلصت طويتي للملك الناصر (صلاح الدين) مدة حياته ، وانني لا ازال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، ممتثلا امره ، واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك الافضل عليّ . ووالله انني في طاعته ، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، وأمتثل امره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما اقول وكيل» . ثم فصل التخريج . انظر ابن شداد: النوادر السلطانية ، نشر الدكتور الشيال ، ص ٢٤ .

فيه . وما كان للفرنج من البلاد الواقعة وراء نهر الاردن ، أضحت اقطاعاً له ، فضلاً عن بلاد الجزيرة حول الرها . وحاز أبنـاء اخوة صلاح الدين وأبناء اعمامه اقطاعات صغيرة في أنحاء ممتلكات السلطان . اما الاميران الزنكيان : عز الدين وعماد الدين ، فحـازا الموصل وسنجار على انهما من أتباع صلاح الدين ، ولا زال الأمراء الأراتقة مستقرين في ماردين وكيفا . ومن المقطعين الآخرين ، ومعظمهم كانوا من خيرة القادة الذين استخدمهم صلاح الدين ، كان أشهرهم بكتمر امير خلاط [١] .

المنازعات بين الأيوبيين سنة ١١٩٩ :

وبوفاة صلاح الدين أخذت الجبهة الاسلامية تتداعى . فبنما ساد التحاسد بين أبنائه ، ظهرت مؤامرة في الشمال الشرقي من الامبراطورية ، استهدفت إعـادة حكم الزنكيين متمثلاً في شخص عز الدين امير الموصل ، يسانده بكتمر والأمراء الأراتقة . ولم ينقذ الأيوبيين إلا ما اتخـذه العـادل من التدابير ، وما حدث من الوفاة المفاجئة لكلا الاميرين عز الدين وبكتمر ، وجرى الظن انه كان لعملاء العادل يد في وفاتهما . ووعى هذا الدرس نور الدين ارسلان بن عز الدين ووارث ملكه ، وأقسنقر بن بكتمر وخليفته على أخلاط ، اللذان لم يسعهما في الوقت الراهن إلا إظهار الاحترام للعادل . وفي أقصى الجنوب ، وقع شجار بين الأفضل والعزيز ؛ ذلك ان

---

(١) انظر :
Abu Shama, II, pp. 101 - 109.
Ibn al - Athir, II, pp. 75 - 7.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, p. 305.

الأفضل دفعته حماقته الى ان يعزل معظم وزراء والده ، وأن يجعل كل ثقته في ضياء الدين بن الأثير ، شقيق المؤرخ ابن الأثير ، بينما صار يمضي ايامه ولياليه في المباذل والفجور وسماع الموسيقى ومعاقرة الخمر . فهرب الوزراء المعزولون الى القاهرة ، الى العزيز الذي ابتهج للقائهم والترحيب بهم . وبناء على نصيحتهم ، أغار العزيز على الشام في مايو سنة ١١٩٤ ، فبلغ أسوار دمشق . وإذ ارتاع الأفضل ، استنجد بعمه العادل ، الذي قدم في عسكره من الجزيرة واجتمع بالعزيز في معسكره . فتقرر وضع ترتيب جديد لحكومة الأسره الأيوبية . كان لزاماً على الأفضل ان يتنازل عن اقليم يهوذا (شمال فلسطين) الى العزيز ، وأن يتخلى عن اللاذقية وجبلة الى اخيه الظاهر غازي امير حلب ، على ان يعترف كلاهما (العزيز والظاهر) بسيادته . ولم يحظ العادل من الصفقة بشيء سوى ما حازه من مكانة بأن اصبح الفيصل والحكم بين أفراد الأسرة . ولم يستمر السلام طويلاً ، ففي أقل من سنة زحف العزيز على دمشق ، وقدم العادل مرة اخري لنجدة الأفضل . غير ان حلفاء العزيز من الأمراء اخذوا يتخلون عنه ، فطرده الافضل من يهوذا الى داخل مصر ، وقرر ان يزحف على القاهرة . على ان الافضل تجاوز بذلك ما أراده العادل ، فهدّد الافضل بأنه ما لم يعد الى دمشق ، فسوف يساند العزيز . وللمرة الثانية جرت الاستجابة لرغباته .

ولم يلبث ان اضحى جلياً ان الافضل لم يكن صالحاً لأن يحكم . إذ ان حكومة دمشق صارت كلها في يدي الوزير الضياء بن الأثير ، الذي أثار سخط أتبـاع سيده . وقرر العادل ان المصالح الأيوبية ليس بوسعها ان تتحمل بأن يكون رأس الأسرة (الافضل) بالغ الضعف والعجز . فغيّر العـادل سياسته ، وتحالف مع العزيز الذي بفضله انتزع دمشق في

يوليه ، سنة ١١٩٦ ، وأضاف اليه كل املاك الافضل ، ولجأ الافضل الى مدينة صلخد الصغيرة بحوران ، فانعزل بها عن الناس ، وتخلى عن حياة اللهو والفجور ، والتزم التقوى والورع ، وأضحى العزيز السلطان المطلق للأسرة كلها .

ولم يستمر هذا الاجزاء سوى سنتين ، اذ ان العزيز الذي لم يكن له على عمه إلا سلطة اسمية ، هوى من على ظهر فرسه أثناء مطاردة ابن آوى قرب أهرام الجيزة ، فمات متأثراً بجراحه في ٢٩ نوفمبر سنة ١١٩٨ ، ولم يتجاوز عمر ابنه ، المنصور ، وقتذاك اثنتي عشرة سنة . وإذ خاف وزراء أبيه أطماع العادل ، استدعوا الافضل من صلخد ليتولى الوصاية على مصر . وقدم الافضل الى القاهرة في يناير سنة ١١٩٩ ، وتولى زمام الحكم بها . أما العادل فكان وقتذاك بالشمال ، يلقي الحصار على ماردين التي أوشك اميرها الارتقي بُلُك ارسلان ان يحطم ما للأيوبيين من سلطان عليه . وما وقع فيه العادل من حيرة مؤقتة ، حملت ابن اخيه ، الظاهر غازي امير حلب ، على ان يعدّ حلفاً لمناوءته . والواقع ان الظاهر غازي ظلّ يزعجه طوال حكمه في حلب ما أثاره أتباعه له من الاضطراب والفتنة ، وارتاب في ان عمه العادل يشجعهم على ذلك . وبينما ارسل الافضل جيشاً من مصر لمهاجمة دمشق ، كان الظاهر غازي يتجهز للهبوط عليها من الشمال . وانحاز اليهما أمراء أيوبيون آخرون مثل شيركوه صاحب حمص . فعجّل العادل بالقدوم من ماردين بعد ان عهد الى ابنه الكامل بالمضي في الحصار ، فبلغ دمشق في ٨ يونيه سنة ١١٩٩ . ولم تمض ستة ايام على وصول العادل ، حتى قدم الجيش المصري واستطاع بعد اول هجوم شنه على دمشق ، ان ينفذ الى داخل المدينة ، غير انه لم يلبث ان طُرد منها . أما الظاهر

غازي فانه وصل بجيشه بعد اسبوع . وظل الأخوان ، الافضل والظاهر يحاصران عمهما العادل في العاصمة (دمشق) لمدة ستة أشهر ، غير ان العادل بفضل ما اشتهر به من البراعة والحذق في الدبلوماسية ، استطاع رويداً رويداً ان يكسب الى جانبه أتبـــاع ولدي اخيه ، ومن بينهم شيركوه امير حمص . فلما حدث آخر الامر ، في يناير سنة ١٢٠٠ ، ان ظهر ابنه الكامل بجيشه ، الذي أحرز انتصارات باهرة في الجزيرة ، تفرّق الاخوان ، الافضل والظاهر ، وانسحبا من دمشق ، بعد ان وقع بينهما الشجار . وطارد العادل الافضل الى مصر ، فأنزل الهزيمة بعساكره عند بلبيس . على ان الافضل انصاع الى عمه بعد ان انتابته نوبة جديدة من الورع والتقوى ، فعاد الى عزلته في صلخد . وتولى العادل الوصاية على حكومة مصر . غير ان الظاهر غازي لم تحل به الهزيمة ، ولذا قام بزحف مفاجىء على دمشق في الربيع التالي ، بينما كان العادل لا يزال في مصر ، فأقنع الافضل الظاهر بالانحياز اليه ، مرة اخرى . عجّل العادل بالعودة الى عاصمته (دمشق) في الوقت المناسب ، ولكنه تعرّض للحصار من قبل ولدي اخيه (الظاهر والافضل) . على انه لم يلبث ان استطاع ان يثير الشجار بينهما ، وأن يكسب الى جانبه الافضل ، بأن وعده بأن يمنحه مدينتي سميساط وميافارقين الواقعتين بشمال الدولة الأيوبية ، مقابل التخلي عن صلخد . وأخذ أتباع الظاهر يتخلون عنه الواحد بعـــد الآخر ، فابتهج لعقد الصلح مع عمه العادل ، واعترف له بالسيادة المطلقة . ولم تنقض سنة ١٢٠١ حتى أضحى العادل سيداً على امبراطورية صلاح الدين ، واتخـــذ لقب السلطان . أما المنصور صاحب مصر فلم يحز إلا مدينة الرها . ولم يتيسر للأفضل السيطرة على ميافارقين ، التي انتقلت مع ما يجاورها من البلاد الى المظفر ، رابع أبناء العادل ، وتولى الكامل أكبر أبنـــاء العادل

حكومة مصر ، على ان يكون تابعاً له ؛ وناب عنه المعظم عيسى ثاني أبنائه ، في حكومة دمشق ، بينما تولى الأشرف ، ابنه الثالث ، حكم معظم بلاد الجزيرة ، ابتداء من حرّان . وكلما كبر الأبنـــاء الصغار ، حازوا اقطاعات ، وبذا عادت الوحدة الاسلامية تحت زعامة امير ، لا يضارع صلاح الدين في احترام الناس له ، ولكنه يفوقه في المكر والنشاط [١] .

حكومة هنري كونت شامبانيا سنة ١١٩٤ :

وما حدث من منازعات في الاسرة الأيوبية ، منع المسلمين من مهاجمة مملكة الفرنج التي انبعثت من جديد . واستطاع هنري كونت شامبانيا ، في تؤدة ، ان يعيد اليها قدراً من الأمن . ولم يكن ذلك جهداً هيناً ، كما ان وضع هنري لم يكن مستقراً ، فلأسباب لا داعي لشرحها ، لم يُتوّج هنري ملكاً ، ولعـله كان ينتظر على أمل ان يحلّ اليوم الذي يسترجع فيه بيت المقدس ، او لعله أدرك ان الرأي العام ليس راغباً في الاعتراف به ملكاً ، او لعله لم يلقَ من الكنيسة ما ينشده من التعاون [٢] . ومـا

---

(١) عن تاريخ الايوبيين في هذه السنوات الطافحة بالفوضى والاضطراب ، انظر :

Abu Shama, II, pp. 110 - 149.

Ibn al - Athir, II, pp. 78 - 89.

Cahen : La Syne du Nord, p. 381, n. 3.

(٢) انظر المناقشة الطريفة عن هذا الموضوع الواردة في مقال براور :

Prawer : « L'Etablissement des coutumes du Marché â Saint - Jean d'Acre ».
Revue Historique de Droit Français et Etranger, 1951.

يشير براور الى ان ما تم من زواج هنري من ايزابيلا ، ولم يمض على وفـاة زوجها (كنراد) إلا بضعة ايام ، لا يعتبر مشروعاً ، إذ لا تقره تقاليد البلاد ، ولذا احس هنري بالخجل باتخاذ اللقب الملكي .

جرى من اغفاله اتخاذ لقب الملك ، قيّد سلطته ، ولا سيا على الكنيسة . فلما مات البطريرك هرقل ، ظهرت الصعوبة في العثور على مَن يخلفه ، وحدث آخر الامر ان تمّ تعيين احد رجال الدين المغمورين ، واسمه رادولف ، بطريركاً . ولما توفي رادولف سنة ١١٩٤ ، اجتمع كبار رجال كنيسة القيامة الذين كانوا وقتذاك بعكا ، واختاروا رئيس أساقفة قيسارية ، بطريركاً باسم ايمار الملقب بالراهب ، ثم ارسلوا الى روما للتصديق على الانتخاب . وإذ استاء هنري لهذا الاختيار ، واحتجّ في عنف على انه لم تجرِ استشارته ، أمر بإلقاء القبض على رجال كنيسة القيامة . وتعرض هذا الإجراء للنقد الشديد ، حتى من أصدقائه ، لأنه لم يكن الملك المتوّج ، فليس له الحق في التدخل . على ان كبير وزرائه ، جوسياس ، رئيس أساقفة صور ، أقنعه بالتنازل عن دعاويه ، وتهدئة الكنيسة بأن يطلق سراح رجال الدين ، والاعتذار اليهم ، وبذل اقطاع ثقيل قرب عكا لابن اخت البطريرك الجديد ، على انه تلقى في الوقت ذاته لوماً شديداً من البابا [1] . ومع ان السلام قد عاد ، فان البطريرك لم يشأ ان يظهر امتنانه الى هنري بأن يتوّجه ملكاً .

على ان هنري كان أسعد حظاً مع أتباعه العلمانيين ، إذ لقي التأييد من زعيمهم ، باليان ابلين ، ومن الطوائف الدينية العسكرية . غير ان جاي لوزجنان لا زال يتطلع من قبرص الى مملكته السابقة ، وشجّعه البيازنة

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 203 - 205. (Manuscript D).

الذين سبق ان وعدهم بامتيازات وافرة ، والذين غضبوا لما أبداه هنري من العطف على الجنويين . ففي مـــايو سنة ١١٩٣ ، اكتشف هنري ان البيازنة في صور دبّروا الاستيلاء على المدينة ، وتسليمها الى جاي . فبادر بإلقاء القبض على مدبّري المؤامرة ، وأمر بتخفيض عدد جاليـة البيازنة الى ثلاثين شخصاً . وانتقم البيازنة لأنفسهم بأن أغاروا على القرى الساحلية الواقعـة بين صور وعكا . ولا زال كندسطبل المملكة هو شقيق جاي ، امالريك لوزجنان ، الذي كان مسؤولاً عن قدوم جاي الى فلسطين قبل سنوات عديدة ، والذي حـــاول ان يقيم علاقات طيبة مع البارونات المحليين . اما زوجة امالريك فكانت إيشيفا ابلين ، ابنة أخ باليان ، وهو بلدوين سيد الرملة ، الذي يُعتبر ألدّ أعـــداء جاي لوزجنان . لم يكن امالريك لوزجنان فيما مضى زوجاً مخلصاً ، غـير انه لم يلبث ان تصالح مع زوجته . ولما تدخّل امالريك لصالح البيازنة ، أمر هنري بإلقاء القبض عليه بسبب هذا التدخل . ولم يلبث مقدما الاسبتارية والداوية ان أقنعا هنري بإطلاق سراحه ، غير ان امالريك اعتقد انه من الحكـة ان يلجأ الى يافا ، التي نصّب الملك رتشرد حاكماً عليها جفري ، شقيق امالريك . لم يتخلّ امالريك عن وظيفة كندسطبل المملكة ، غـير ان هنري اعتبر انه فقد حقه فيها سنة ١١٩٤ ، فعيّن خلفاً له يوحنا ابلين ابن باليان ، وهو اخ غير شقيق لإيزابيلا . وتقرر عقد الصلح حوالي ذلك الوقت مع البيازنة ، فعاد اليهم حيّهم بعكا ، واعترفوا منذئذ بحكومة هنري[1] .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 202 - 203.

ولما مات جاي لوزجنان في قبرص ، في مـايو سنة ١١٩٤ ، تيسّر اجراء الوفاق العام . إذ ان اختفاءه كفل الامن والطمأنينة لهنري ، وحرم البيـازنة وسائر المنشقين من مرشح منافس يتطلع الى العرش . وأوصى جاي بمُلكه في قبرص الى اخيـه الاكبر ، جفري . غير ان جفري قد عاد الى فرنسا ، ولم يتردد الفرنج في قبرص في استدعاء امالريك من يافا ، ليحل مكانه . وطلب هنري اول الامر ، باعتباره ممثلاً لملوك بيت المقدس ، أنه ينبغي استشارته في ولاية الحكم ، غير انه لم يستطع تحقيق دعواه ، ولم يلبث هنري وأمالريك ان ادركا انه لا بد لهما من العمل معاً . فقدم الى عكا كندسطبل قبرص ، وهو بلدوين ، الذي سبق ان كان سيداً لبيسان ، وحثّ هنري على ان يعترف اولاً بأمالريك ، وأن يعد بزيارته في قبرص . واتسم لقاؤهما بالمودة والصداقة ، ورتبا سويـاً اقامة تحالف وثيق بينهما ، عززاه بمـا حدث من خطبة ابناء امالريك الثلاث ، جاي ويوحنا وهيو ، لبنات ازابيللا الثلاثة ، ماريا مونتفيرات ، وأليس وفيليبا شامبانيا . وبذا راودهما الأمل في ان تتحد ممتلكاتهما في الجيل التـالي ، غير ان اثنين من الأمراء القبارصة ماتا في سن مبكرة ، ولم يتحقق من الزيجات إلا تلك التي جرت بين هيو وأليس ، والتي حملت ثمرة الأسرة في الوقت المناسب . على ان الحاجة كانت ماسة الى مثل هذا الترتيب ، لأنه اذا لم يكن الغرض من تملك الفرنج لجزيرة قبرص سوى ان يفيد منه الفرنج بفلسطين ويمدّهم بقاعدة بالغة الامن ، فلا بد للاقليمين ان يتعاونا . اضحت قبرص موطن اغراء متصل ، لا فحسب للمهاجرين القـادمين من الغرب كيما يحلوا بهـذه الجزيرة البهيجة ، لا في البقية الباقية من مملكة بيت المقدس ، حيث لم يعد بها شيء من الاقطاعات ، بل ايضاً لبارونات فلسطين بعد ان تجردوا من اقطاعاتهم ، ليجتازوا اليهـا البحر الضيق .

فـاذا كان سادة قبرص يودون اجتياز البحر للقتال من اجل الصليب ، كلما اقترب الخطر ، فسوف تكون قبرص بالغة الاهمية للشرق الفرنجي . ولو وقعت خصومات ، فسوف تصبح قبرص قوة طاردة خطيرة[١] .

مملكة قبرص سنة ١١٩٧ :

على الرغم من العلاقات الودية بين اماريك وهنري ، لم يكن اماريك مستعداً لأن ينقاد لهنري او يخضع له . لقد سعى اماريك فعلاً للحصول على اللقب الملكي ، كيا يحدد في وضوح لرعاياه والنزلاء والدول الاجنبية طبيعة سلطته . غير انـه احسّ بالحاجة الى قوة عُليا تقرّ سلطانه . ولا بد ان التاريخ الغابر لملوك بيت المقدس حمله على ألا يطلبَ الى البابا ان يبذل له التاج . ومن المحقق ان الامبراطور الشرقي (البيزنطي) سوف لا يمنحه التاج . ولذا ارسل الى امبراطور الغرب هنري السادس يلتمس منه التاج، برغم ما تبين مستقبلاً مجافاة هذا الطلب للسداد والحكمة . كان الامبراطور هنري السـادس وقتذاك يضع خطته لحرب صليبية ، فان يكن له في الشرق ملك تابع ، فسوف يكون بالغ الاهميـة له . ففي اكتوبر سنة ١١٩٥ قام رينيه اسقف جبيل وسفير اماريك ، ببذل الولاء بالنيابة عن سيده للأمبراطور هـنري السادس ، في جيلنهاوزن ، قرب مدينـة فرانكفورت . فبعث الامبراطور الى اماريك صولجان الملك ، وتمّ التتويج

---

(١) انظر : Hill : History of Cyprus, II, p. 44.
Estoire d'Eracles, II, pp. 207 - 208, 212 - 213 (Manuscript D).
يشير هذا المصدر الى الوفاق بين هنري وأماريك .

في سبتمبر سنة ١١٩٧ ، حين قدم كنراد أسقف هيلدسهايم ، وكبير وزراء الامبراطور ، الى نيقوسيا ، للاشتراك في احتفال التتويج ، فبذل له امالريك يمين الولاء والتبعية [١] .

تقرر ان تلتزم حكومة قبرص بالسير على التقاليد الاقطاعية التي كانت سائدة في مملكة بيت المقدس ، فيكون بهـا محكمة عليا على نسق المحكمة العليا بمملكة بيت المقدس ، وأن يسري بالجزيرة استخدام قوانين بيت المقدس ، وما اضافه اليها ملوك قبرص من قوانين . ولتنظيم الكنيسة ، لجأ امالريك الى البابا ، فعين رئيس شمامسة اللاذقية ، وألن رئيس شمامسة لد ، ومتولي المحفوظات والوثائق بجزيرة قبرص ، كيا يقيموا بها من الكراسي الدينية ما يعتقدون انها خير المراكز . فأنشأوا في نيقوسيا رئاسة اسقفية تولاهـا ألن ، كما اقاموا اسقفيات في بافوس ، وفاماجستا ، وليماسول . ولم تتقرر المبادرة الى طرد الاساقفة اليونانيين ، غير ان ما كان لهم من ضريبة العشور وقدراً كبيراً من ممتلكاتهم اضحت في ايـدي المقطعين الكنسيين اللاتين الجدد [٢] .

ومع ان هنري كونت شامبانيا لم يستطع ان يظفر بالسيطرة على

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 209 - 212.
Ernoul, pp. 302 - 303.
Arnold of Lubeck, p. 204.
Annales Marbacenses, p. 167.

(٢) أنظر : Mas Latrie, Documents, III, pp. 599 - 605.
Machieras, pp. 28 - 29.

جزيرة قبرص ، فإن البارونات بمملكته الجديدة اضحوا موالين له . والواقع ان خصومه كانوا سعداء بالتجائهم الى قبرص ، بعد ان تخلوا عن اراضيهم بفلسطين الى اصدقائهم . فعـاد السادة السابقون لحيفا وقيسارية وأرسوف الى بارونياتهم السابقة ، والمعروف ان صلاح الدين جعل قبل وفاتـــه ، لباليان ابلين اقطاعاً ثميناً في القيمون اوتل القيمون على منحدرات جبال الكرمل [١] . ومـــا كان لهنري من صداقة مع اسرة ابلين ، وفيها زوج والدة امرأته ، واخوتها غير الاشقاء ، تعتبر عظيمة القيمة في الاعتراف التام بسلطته . على ان إمارة انطاكية سببت مشكلة كبيرة .

فالمعروف ان بوهمند الثالث امـير انطاكية ، وكونت طرابلس ايضاً باسم ابنه الصغير ، قـام بدور مريب اثناء حروب صلاح الدين والحرب الصليبية الثالثة ، إذ لم يبذل محاولة صادقة لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على قلاعه في وادي نهر الاورنت ، سنة ١١٨٨ ، ولم يسترد اللاذقية وجبلة التي سقطتا في ايدي المسلمين ، بما ارتكبه من خيانة موظف مسلم عنده ، اسمه القاضي منصور بن ثبيل [٢] . وفرح بوهمند بما قبله من صلاح الدين من هدنة اجازت له الاحتفاظ بأنطاكية وميناءها السويدية . أما طرابلس

---

(١) انظر Ernoul, p. 293.

(٢) في الاصل نبيل ، وما هنا من ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ، ص ١٩٠ اذ اورد ابن الاثير «ان صلاح الدين لما اقام تحت حصن الاكراد، اتاه قاضي جبلة ، وهو منصور بن ثبيل يستدعيه اليه ليسلمها اليه . وكان هذا القاضي عند بيمند صاحب انطاكية وجبلة ، مسموع الكلمة ، له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية ، وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها ، وعلى مـــا يتعلق بالبيمند.فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان، وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية».

فلم ينقذها لإبنه سوى تدخل الاسطول الصقلي . فلما وصل الى انطاكية فردريك دوق سوابيا وفلول جيش فردريك بربروسه ، تقدم بوهمند باقتراح طريف ، يقضي بأن ينوب هؤلاء الالمان عنه في قتال المسلمين في الشمال ، فلما زحفوا جنوباً لم يقم بوهمند بدور ايجابي في الحرب الصليبية الثالثة ، سوى انه قام بزيارة ودية للملك رتشرد في جزيرة قبرص ، وفي تلك الاثناء غيّر وضعه فيما يتعلق بسياسة الاحزاب في فلسطين . فما كاد ابن عمه ، ريموند الثالث كونت طرابلس ، يلقي حتفه ، وحاز ارث طرابلس لإبنه ، حتى بذل التأييد لجاي لوزجنان وأصدقائه ، والراجح انـه لم يفعل ذلك إلا لخوفه بأن كنراد مونتفيرات لا بدّ ان اعدّ خططاً للسيطرة على طرابلس . فـلم يشأ بوهمند الثالث ان يكون على طرفه الجنوبي ملك قوي يميل للاعتداء ، نظراً لأنـه كان منصرفاً الى النزاع مع جاره في الشمال ، ليو الثاني الروبيني امير ارمينيا ، وشقيق روبين الثالث وولي عهده .

ليو الثاني امير ارمينيا سنة ١١٨٦ :

لما تولى ليو العرش ، سنة ١١٨٦ ، سعى الى التحالف مع بوهمند الثالث امير انطاكية ، فاعترف بسيادته . واشترك الاميران في ردّ غارة قام بها التركمان سنة ١١٨٧ ، ولم يلبث ليو ان تزوج ابنـة اخت الاميرة سبيللا زوجة بوهمند . وحوالي ذلك الوقت أقرض بوهمند مبلغاً كبيراً من المال . غير ان الصداقة انتهت عند هذا الحد ، لأن بوهمند لم يتعجل تسديد المبلغ الذي اقترضه ، فلما أغار صلاح الدين على بلاد انطاكية ، حرص ليو على التزام الحيـاد . ودمّر صلاح الدين ، سنة ١١٩١ ، حصن بغراس الضخم ، بعـــد ان انتزعه من أيدي الداوية ، غير انه لم يكد رجاله يغادرون

المكان ، حتى قدم اليه ليو ، فاحتلّ الموضع وأعاد بنـاء الحصن . وطلب بوهمند الى ليو ان يردّ الحصن الى الداوية ، فلما رفض ليو طلبه ، تقـدم بوهمند بالشكوى الى صلاح الدين . غير ان صلاح الدين لم يتدخل ، نظراً لشدة انهماكه في العمل في جهـة اخرى ، فظلّ حصن بغراس في حوزة ليو . غير انه غضب لاستنجاد بوهمند بصلاح الدين ، على ان ثائرته هدأت بفضل تدخّل سبيللا زوجة بوهمند ، لما كانت تأمله في الإفادة من مساعدة ليو في ان تظفر بإرث انطاكية لابنها وليم على حساب أبنـاء زوجها . ففي اكتوبر سنة ١١٩٣ وجّه ليو الدعوة الى بوهمند للقدوم الى بغراس ، لمناقشة المشكلة بأكملها ، فوصل بوهمنـــد الى بغراس ، وبصحبته سبيللا وابنها ، وقبل بوهمند مـا عرضه ليو من استضافته داخل اسوار القلعة . على انه لم يكد بوهمند يدخل الى القلعة ، حتى وقع مع كل حاشيته في أسر مضيفه (ليو) ، وجرى إخطاره بأنه لن يطلق سراحه ما لم يتنازل الى ليو عن السيادة على انطاكية . ولم يسَع بوهمند إلا ان يقبل في أسى شروط ليو . ولعله لم يفعل ذلك إلا بتحريض سبيللا التي كانت تأمل في ان ليو ، باعتباره سيد انطاكية ، سوف يجعـــل لابنها ولاية الحكم في انطاكية . على انه تقرر إرسال مارشال بوهمند ، وهو بارثولوميو تيريل ، وصهر ليو هيثوم ساسون مع عساكر ارمنية الى انطاكية ، لإعداد المدينة للعهد الجديد .

ولما وصل الوفد الى انطاكية ، أبدى البارونات بهـا ، الذين لم يحبوا بوهمند ، والذين تجري الدماء الارمنية في عروق عدد كبير منهم ، استعدادهم لقبول ليو سيداً أعلى ، وسمحوا لبارثولوميو ان يدخل بالعساكر الارمنية الى انطاكية ، وبأن يستقروا في قصر اميرها . غير ان الوطنيين البورجوازيين

من اليونانيين واللاتين سواء ، ارتاعوا لما حدث ، اذ اعتقدوا ان ليو نوى ان يحكم بنفسه المدينـــة ، وان الأرمن سوف يسيطرون عليهم . فحينما لم يولِ احد العساكر الارمن الاحترام في حديثه عن القديس هيلاري ، وهو الشهيد الفرنسي الذي دشنت باسمه كنيسة القصر ، شرع احد الكيلارية ، المسؤولين عن مؤن القصر وحاجاته ، وكان حاضراً ، في قذفه بالحجارة . فنشبت على الفور ثورة بالقصر وانتشرت في أنحاء المدينة . فجرى طرد الارمن من المدينة ، فأدركوا ان من الحكمة ان يرجعوا مع هيثوم ساسون الى بغراس . وعنـــدئذ اجتمع اهل المدينة ، وعلى رأسهم البطريرك ، في كاتدرائيـــة القديس بطرس بأنطاكية ، وشرعوا في ان يؤلفوا قوموناً (حكومة) يتولى ادارة المدينـــة . وكيما يجملوا وضعهم مشروعاً ، بادر أعضاء القومون المنتخَبون الى ان يقسموا يمين الولاء لريموند اكبر ابنـــاء بوهمند ، حتى يعود بوهمند من الأسر . وقَبِـل ريموند انتماءهم اليه ، واعترف بمطالبهم . وفي تلك الأثناء أنفذ الرسل الى اخيه بوهمند كونت طرابلس ، والى هنري كونت شامبانيا ، يتوسل اليهما القـــدوم الى انطاكية للحفاظ عليها من الارمن .

دلّت الحلقة (القصة) على انه بينما كان البارونات مستعدين لأن يتجاوزوا ما فعله أبناء عمومتهم في بيت المقدس ، بأنهم يعتبرون أنفسهم من مسيحيي الشرق ، فان مقاومة هذا الاندماج ، جاءت من الجالية التجارية . غير ان الاحوال هنا اختلفت عنها في مملكة بيت المقدس قبل بضع سنوات . إذ ان الفرنج واليونانيين في انطاكية اعتبروا الارمن جبليين همجاً متوحشين . أمـــا الكنيسة اللاتينية في انطاكية الممثلة في شخص البطريرك ، فانها أظهرت العطف على القومون ، غير انه يعتبر موطن شك

ما اذا كانت الكنيسة اللاتينية قد قامت بدور كبير في مستهل حكومة القومون . اذ ان البطريرك رادولف الثاني كان شيخاً كبير السن ضعيفاً ، لم يلِ البطريركية إلا منذ وقت قريب ، بعد وفاة ايمري اسقف ليموج المعروف بشجاعته وبسالته . والراجح ان أكبر المحرضين ليسوا إلا التجار الايطاليين الذين خافوا على تجارتهم في ظل سيطرة الارمن . على ان فكرة القومون ، أكثر ما تطرأ وقتذاك على خاطر الايطالي لا الفرنسي . غير انه أياً كان مشجع القومون ، لم يلبث اليونانيون بانطاكية ان قاموا بدور كبير فيه [1] .

هنري كونت شامبانيا والحشيشية سنة ١١٩٤ :

هرع بوهمند كونت طرابلس الى انطاكية ، تلبية لاستغاثات اخيه ، فأدرك ليو ان فرصته قد ضاعت . ولم يسعه إلا ان يلجأ بأمرائه الى عاصمته ، سيس . وفي أوائل الربيع التالي ، قرر هنري كونت شامبانيا ان يتدخل . ومن حسن الطالع ان المسلمين لم يكونوا ، بعد وفاة صلاح الدين في أحوال تسمح لهم بالقيام بأعمال عدوانية . على ان هذا الوضع الخطير لن يستمر زمناً طويلاً . فحينما تحرّك هنري صوب الشمال ، التقى بسفارة من قِبل الحشيشية . ذلك ان سناناً شيخ الجبال مات منذ زمن قريب ، وحرص خليفته على إحياء الصداقة التي كانت قائمة بين الحشيشية والفرنج . فبعث بأعذاره عن مصرع كنراد مونتفيرات ، على ان هذه الجريمة لم يتعذر على هنري ان يغتفرها ، ودعا هنري لزيارة قلعته بالكهف . وفي

---

(١) انظر : Cahen : La Syrie du Nord, pp. 582 - 585.

هــذه القلعة الواقعة بالقمة الجرداء لجبال النصيرية ، هيأ الحشيشية لهنري المتعة الفائقة . فظلوا يعرضون عليه ، حتى توسل اليهم هنري ان يوقفوا العرض ، كيف كان الحشيشية يقدمون عن طيب خاطر على قتل انفسهم متى تلقوا من شيخهم الأوامر بذلك . وغادر هنري الكهف مثقلاً بالهدايا النفيسة ، ومزوّداً بوعد ودي من الحشيشية بأن يغتالوا كل من يذكر لهم اسمه من خصومه [1] .

وسار هنري من الكهف على الساحل الى انطاكية حيث توقف قليلاً ، قبل ان يواصل رحلته الى ارمينية . وإذ كره ليو أن يواجه حربــاً صريحة ، التقى بهنري امـام سيس وأبدى استعداده للتفاوض من اجل تسوية . وتم الاتفاق على انه ينبغي اطلاق سراح بوهمند ، دون ان يؤدي فدية ، والاعتراف بأن تعتبر بغراس وما حولها من البلاد ، املاكاً ارمنية ، وينبغي ألا يكون كل من الاميرين سيداً على الآخر . ولتوثيق المعاهدة ، ولتوحيد الامارتين نهائياً كما كان يرتجى ، كان لزاماً على ريموند ولي عهد بوهمند أن يتزوج أليس ابنة روبين الثالث ، وابنــة اخ ليو ، ووريثة ملكه . والمعروف ان أليس تزوجت فعــلاً من هيثوم ساسون ، غير انه تيسر التغلب على هذه المشكلة ، إذ ان هيثوم لقى حتفه فجأة في الوقت المناسب . وكفلت التسوية السلام للشمال ، ودلّ هنري باعتبار انه هو الذي

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 323 - 324.
Estoire d'Eracles, pp. 216 , 231 (Manuscript D) .

وضع هذه التسوية ، على انه جدير بأن يخلف الملوك الاوائل لبيت المقدس ، فلما عاد الى الجنوب ، ازدادت مكانته سمواً ورفعة [1] .

تتويج ليو الثاني سنة ١١٩٨ :

على أن مطامع ليو لم تنته عند هـذا الحد . فحينما علم ان امالريك صاحب قبرص يسعى للحصول على التاج الملكي ، جرى على منواله . غير ان رأي رجال القانون في ذلك العصر ، اعتبر انه لا يصح ان يبـــذل التاج إلا الأمبراطور ، او البـــابا وفقاً لرأي الفرنج . وإذ عزلت الفتوح السلجوقية بيزنطة عن قليقية والشام ، لم تعد بيزنطة من القوة ما يكفي لأن يقدر ألقابهـا الفرنج الذين احب ليو ان يترك اثراً عنـدهم . ولذا ارسل الى هنري السادس ، امبراطور الغرب ، الذي تجنب الصدق في ردّه . إذ كان يأمل في ان يبادر بالقدوم الى الشرق ، وعندئذ ينظر في المشكلة الارمنية . كما ان ليو اتصل بالبابا سلستين الثالث . والمعروف ان ليو كان فعلاً على اتصال بروما زمن البـــابا سلستين الثالث ، بأن ألمع الى خضوع كنيسته للبابوية ، لأنه علم انه لن يكون مطلقاً سيداً مقبولاً عند الفرنج ، نظراً لأنه يعتبر رئيس دولة متهرطقة . غير ان رجال الدين الارمن الذين اشتدت غيرتهم على استقلالهم ومذهبهم ، قاوموا في عنف هذا التقـارب بين ليو والبابا . ولكن ليو لم يكف عن المثابرة ، حتى اقتنع رجال الدين كارهين بأن السيادة البابوية سوف تكون اسمية ، ولن تغيّر شيئاً ، بينما

---

(١) انظر : Cahen, op. cit, pp. 585 - 586.

جرى اخطار مندوبي البابا سلستين الثالث ، أن الاساقفة رحبوا بالاجماع بهذا التغيير . وتذرع البابا بالصبر والدبلوماسية ، ولذا لم يثر مندوبوه شيئاً من الاسئلة . وفي تلك الاثناء وعد الامبراطور هنري مثلما وعد اماريك ، ببذل التاج الملكي لليو ، مقابل الاعتراف له بحقوق السيادة على ارمينية . وسوف يجري التتويج فعلاً عند قدوم هنري الى الشرق . على ان هنري السادس لم يقم مطلقاً بزيارة الشرق ، غير انه حدث في يناير سنة ١١٩٨ ، عقب وفاة هنري السادس ، ان قدم الى سيس ، كنراد اسقف هيلدسهايم متولي ديوان الوثائق عنده ، بصحبة المندوب البابوي كنراد رئيس اساقفة ماينز ، فشهد ما جرى من احتفال ضخم بتتويج ليو . امـــا امبراطور الشرق (بيزنطة) ، الكسيوس انجيلوس الذي كان يأمل في المحافظة على مـــا تبقى له من نفوذ في قليقية ، فانه ارسل منذ بضعة شهور تاجاً الى ليو ، فقبله ممتناً شاكراً . وتولى جاثليق الارمن ، جريجوري ابيراد وضع التاج على مفرق ليو ، بينما منحه كنراد صولجان الملك . وشهد مراسيم الاحتفال رئيس اساقفة الارثوذكس بطرسوس ، والبطريرك اليعقوبي ، ورسل من قبل الخليفة العباسي ، فضلاً عن عدد كبير من نبلاء انطاكية . وأضحى بوسع ليو ان يزعم ان كل رعاياه وجيرانه اعترفوا به ملكاً[١] .

كان يوماً حافـلاً عند الارمن ، الذين رأوا فيه احياء لمملكة الارمن القديمة ، وتمّ فيه ادماج إمارة روبين في عالم الشرق الفرنجي . على ان ما يدعو للارتياب مـــا اذا كانت سياسة ليو تخدم مصالح الارمن قاطبة ،

---

(١) انظر : Cahen, op. cit, pp. 587 - 590.

لأنها فصلت الارمن بأرمينيا الكبرى ، موطن عنصرهم وجنسهم عن اخوانهم بالجنوب . وأدرك الارمن بقليقية ، بعد نشوة المجد قصيرة الأمد ، ان الصبغة الغربية لم تعد عليهم آخر الأمر إلا بربح ضئيل .

والواقع ان قدوم رئيس الاساقفة كنراد الى الشرق يرجع الى عزم الامبراطور هنري السادس على إثارة حرب صليبية جديدة . على ان ما اسهم به الالمان في الحرب الصليبية من جهد كان ضئيل الاهمية ، نظراً للوفاة المفاجئة لوالده الامبراطور فردريك بربروسه . كان هنري السادس طموحاً في ان يجعل من امبراطوريته حقيقة دولية ، ولذا كان اول عمل يقوم به ، بعد ان استقر له الأمر في اوروبا ، هو انه ينبغي ان يستعيد ما للالمان من مكانة في الارض المقدسة . فبينما تولى بنفسه وضع الخطط لحملة كبيرة تخضع لسلطانه كل البحر المتوسط ، رتب امر المبادرة بإرسال حملة المانية عاجلة ، تبحر رأساً الى سوريا . فخرج من باري كنراد رئيس اساقفة ماينز ، وأدولف كونت هولشتين على رأس حشد كبير من العساكر ، جنّد معظمهم من بلاد الراين ودوقيات الهوهنشتاوفن . فوصلت الكتائب الاولى الى عكا في اغسطس ، غير ان قائديها توقفا في قبرص لتتويج املريك ، وسبقهما هنري دوق برابانت في فصيلة من رفاقه [1] .

لم يستقبل هنري كونت شامبانيا بارتياح القوات الالمانية . إذ تعلم من

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II. pp. 214 - 216 (Manuscript D).
تقرر في ديات جيلنهاوزن اتخاذ التدابير اللازمة للحرب الصليبية التي عزم هنري على شنها، انظر : Annales Marbacenses, p. 167.

خبرته ما تنطوي عليه إثارة حرب لا داعي لها من حماقة . وكان كبار مستشاريه من الايبليين امثال زوج والدة امرأته ، وأبنائـــه من زوجة اخرى ، فضلاً عن سادة طبرية ، ابناء زوجة ريموند كونت طرابلس . ولما اشتهر به الابيليون من الولاء لتقاليد امرتهم ، اسدوا النصح لهنري بـأن يتفاهم مع المسلمين ، وأن ينتهج دبلوماسية دقيقة ، بأن يوقع بين ابناء صلاح الدين وإخوته ، الواحد ضد الآخر . وظفرت هذه السياسة بالنجاح وتحقق السلام الذي يعتبر جوهرياً لاسترجاع المملكة المسيحية ، برغم ما أثاره من قلق ، اسامة امير بيروت الذي اشتهر بالقرصنة ، ولم يكن بوسع العادل في دمشق او العزيز بالقاهرة ضبطه وكبح جماحه [1]. ولا زال بأيدي المسلمين بيروت وصيدا ، تفصلان بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس ، على ان هذه الفجوة اخذت في اوائل سنة ١١٩٧ تضيق بفضل استيلاء المسيحيين على جبيل . ذلك ان صاحبة جبيل ، ستيفاني ميللي كانت ابنة اخت رينالد سيد صيدا ، فحصلت منه على هـدايا لاجتذاب المسلمين ، فتآمرت مع الأمير الكردي الذي يحكم جبيل ، فهيأ لها ان تستعيد جبيل دون قتال ، وأن تسلمها الى ابنها ، جاي الاول امبرياكو [2] .

قدم الالمان ووطدوا العزم على القتـال ، فلم تتوقف طلائعهم في عكا لاستشارة حكومتها ، بل مضوا مباشرة الى الجليل بالبـلاد الاسلامية .

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, II. p. 85.
Ernoul, p. 315 - 316.

(٢) Estoire d'Eracles, II. pp. 217- 218.
Ernoul, p. 305.

وأثارت الغارة المسلمين ، فاستدعى العادل ، الذي تقع الجليل في أملاكه ، أقاربه وطلب اليهم ان ينسوا ما بينهم من منازعات وأن يلحقوا به . على انه لم يكد الالمان يجتازون الحد الاسلامي ، حتى ذاع نبأ اقتراب العادل منهم . وبالغت الشائعة في ضخامة جيش العادل ، فلم ينتظر الالمان اللقاء به ، بل ولّوا الأدبار مذعورين الى عكا ، وتخلى الفرسان في عجلتهم عن الرجالة . وتراءى ان العادل سوف يزحف على عكا ، دون ان يصادف مقاومة . غير ان هنري ، بناء على نصيحة هيو سيد طبرية قذف بفرسانه وبكل من استطاع ان يحشده من العساكر الايطالية لإمداد الرجالة الألمان الذين فاقوا سادتهم في البسالة والشجاعة ، فأضحوا مستعدين للصمود لمواجهة المسلمين . لم يكن العادل مستعداً لأن يخوض معركة حاسمة ، ولكنه لم يشأ ان يبدّد جهد جيشه . فانحرف العادل صوب الجنوب وزحف على يافا . كانت يافا منيعة الاستحكامات ، غير انه لم تكن بها إلا حامية قليلة العدد ، ولم يكن بوسع هنري ان يعززها . والمعروف ان أملريك لوزجنان كان يحكم يافا ، قبل ان يتوجه الى قبرص . فعرض هنري عليه ان يأخذها من جديد ، اذا تولى الدفاع عنها . فلئن يكون بيافا القبارصة خير عند هنري من ان تنتقل إما الى المسلمين وإما الى الألمان الذين لم يقدروا المسئولية . وما كاد النبأ يبلغ أملريك لوزجنان ، حتى ارسل احـــد باروناته ، وهو رينالد بارليه ليتولى حكومة يافا ، وليتجهز للحصار المقبل . غير ان رينالد كان رجلاً يميل الى اللهو والعبث ، ولم تلبث ان وردت الأنباء الى عكا بأنه يمضي ايامه في المباذل والفجور ، وليس في نيته ان يقيم على مقاومة العادل . وعندئذ حشد هنري كل من استطاع ان يستغني

عنه من العساكر في عكا ، وطلب الى جالية البيازنة بها أن تبذل له أمداداً [1] .

مصرع هنري كونت شامبانيا سنة ١١٩٧ :

في ١٠ سبتمبر سنة ١١٩٧ احتشدت عساكر هنري في فناء قصره بعكا . فاستعرضهم من النافذة بالطابق العلوي . وفي تلك اللحظة دخل الى الحجرة رسل من قبل البيازنة ، فالتفت هنري لتحيتهم ، وإذ نسي أين كان يقف ، تراجع بظهره خطوات الى النافذة المفتوحة . وكان يقف بجانبه تابعه القزم ، سكارليت ، فأمسك بملابسه . غير ان هنري كان ثقيل الوزن ، على حين ان سكارليت كان بالغ الخفة ، فهوى الرجلان الى الرصيف اسفل القصر ، ولقيا مصرعهما [2] .

املريك يتزوج من ايرابيللا سنة ١١٩٨ :

وما حدث فجأة من اختفاء هنري كونت شامبانيا ، أدّى الى ان تقع المملكة بأكملها في اضطراب وذعر . اذ كان هنري رجلاً محبوباً ،

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II. pp. 216 - 219 (Manuscript D).
Ernoul, pp. 305 - 307.
Abu Shama, II. pp. 116 , 152.
Ibn al - Athir, II. pp. 84 - 86.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II. p. 220.
Ernoul, p. 306.
Amadi, pp. 90 - 91.
Ibn al - Athir, II. p. 86.

ومع انه لم يتوافر عنــده مواهب طبيعية نادرة ، فانه بفضل كياسته ، ومثابرته ، وارتكانه الى مستشارين صادقين ، دلّ على انــه حاكم قدير ، مستعد لأن يفيد من خبرته . قــام هنري بدور كبير في تحقيق استمرار بقاء المملكة . على ان البارونات لم يطيقوا إضاعة الوقت في الأسى والحزن ، فلا بد من المبادرة الى اختيار حاكم جديد ، كيما يمضي في قتال المسلمين ، ويعالج امر الحمـــلة الالمانية الصليبية ، ويحلّ كل مشاكل الحكومة . وإذ برح الوجد والحزن بالاميرة ايزابيلا ، لوفاة زوجها هنري ، لم تستطع ان تباشر سلطتها . غير انهـا تعتبر دعامة الحكم ، باعتبارها وارثة المملكة . لم يبقَ على قيـــد الحياة من اطفالها من هنري ، سوى ابنتين صغيرتين ، أليس وفيليبا . امـا ابنتها من كنراد ، ماريا مونتفيرات التي اتخذت عن والدها لقب الماركيزة ، فلم تتجاوز الخامسة من عمرها . ومن الجلي انه لا بد لإيزابيلا ان تتزوج مرة اخرى . وعلى الرغم من اعتراف البـارونات بها وريثة للمملكة ، فانهم رأوا ان من واجبهم ان يختاروا لهـــا زوجاً آخر . على انهم لسوء الحظ لم يتفقوا على اختيـــار زوج يلائمها ، فاقترح هيو سيد طبرية وأصدقاؤه بأن يتزوجها أخوه ، رالف . والمعروف ان اسرته ، بيت فولكنبرج سانت اومر ، تعتبر من أشهر البيوت بمملكة بيت المقدس . غير انهـــا لم تكن اسرة ثرية ، اذ استولى المسلمون على بلادها بالجليل ، ولم يكن رالف إلا من الأبناء الصغار في هذه الاسرة . وازداد احساس الناس بأن رالف في اشد الحاجة الى المال والجاه ، ولا سيما ان الطوائف الدينية العسكرية لم ترضَ به . وبينما اشتد الجدل والنقاش حول اختيار زوج لإيزابيلا ، وردت الأنباء بأن يافا سقطت في يد العـادل ، دون قتال . فنهض دوق برابانت لنجدتها ، غير انه لم يلبث ان عاد الى عكا ، وتولى زمام حكومتها . وحدث في ٢٠ سبتمبر ، اي بعد بضعة ايام ،

ان قدم من قبرص ، كنراد رئيس أساقفةماينز وسائر القـادة الالمان . وتوافر لكنراد سلطة ضخمة ، باعتباره من كبار رجـال الكنيسة في الامبراطورية الغربية ، ولكونه موطن ثقـة الامبراطور ، فضلاً عن انه صديق البابا الجديد انوسنت الثالث . فلمـا اقترح بأنه لا بد من بذل العرش لأملريك ملك قبرص ، لم يلقَ معـارضة إلا من البطريرك أيمار الراهب ، الذي لن يسانده اكليروسه . ويبـدو ان وقوع الاختيار على امليك كان موفقاً ، اذ ان زوجة امليك الاولى ، ايشيفا ابلين ، مـاتت منـذ زمن قريب ، فأضحى حراً في ان يتزوج ايزابيللا . ومع ان كثيراً من البارونات السوريين لم ينسوا انه ينتمي الى بيت لوزجنـان ، فانه سبق ان أعلن عن تخليه عن كل سياسة حزبية ، وأثبت انه يفوق في الكفاءة والقدرة ، أخاه الأصغر جاي . وفرح البـابا انوسنت الثالث لانتخاب امليك ، اذ رأى ان الحكمـة تقتضي بأن يتحد الشرق اللاتيني تحت زعامة سيد واحد . غير ان باعث كنراد متولي دار الوثائق ، كان اكثر حصافة وبراعة . فالمعروف ان امليك يدين بتاج قبرص للامبراطور هنري السادس ، فأضحى تابعاً له ، أفلا تخضع مملكة بيت المقدس ، بعد ان اصبح امليك ملكاً عليها لسيادة الامبراطور ؟ تردَّد امليك قليلاً اول الامر ، فلم يقـدم الى عكا إلا في يناير سنة ١١٩٨ . وفي غداة وصوله ، تزوج من الاميرة ايزابيللا ، ولم تمضِ إلا بضعة ايام حتى قـام البطريرك بتتويجها ملكاً وملكة على بيت المقدس [١] .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 221 - 223.
Ernoul, pp. 309 - 310.
Roger of Hoveden, IV, p. 29.

على ان اتحـاد التاجين (تاج بيت المقدس وتاج قبرص) ، لم يبلغ من الاكتمال ما كان يأمله البابا او أنصار الامبراطور . اذ اعلن امالريك منذ البـداية ، ان المملكتين سوف تجري ادارتها منفصلتين ، وانه لن تُنفق اموال قبرص من أجل الدفاع عن بيت المقدس ، ولم يكن امالريك سوى حلقة تربط بينهما . فالملكية في قبرص وراثية ، ويعتبر ابنه هيو ولي عهد بها . اما حق وراثة الحكم في مملكة بيت المقدس فأقرّه الاتجاه العام ، غير ان المحكمة العليا احتفظت بحقها في انتخاب الملك . ففي بيت المقدس كان امالريك يدين لزوجته بوضعه ، فاذا مات ، فلهـا ان تتزوج مرة اخرى ، وعندئذ يجري قبول الزوج الجديد ملكاً ، اما ولية عهدها فكانت ابنتها ماريا مونتفيرات ، بل انهـا اذا أنجبت ولداً لأماليك ، فليس من الراجح ان يكون للابن الناجم من زيجة رابعة ، السابقة على الابن النـاجم من الزيجة الثانية . على ان الواقع انه لم يكن لهما (ايزابيلا وامالريك) إلا ابنتان ، سيبللا وميليسند[1] .

ومع ان أماليك لم يعتبر نفسه سوى وصي على العرش ، فإنه دلّ على

= أخطأ روجر هوفدن حين جعل العروس، مليسند، ويشير الى ان العروسين تزوجا في بيروت، حيث توجها كنراد اسقف ماين . وليس ذلك فيما يبدو سوى دعاية المانية ، اذ كتب البابا انوسنت الثالث الى البطريرك ايمار يلومه لأنه رفض اول الامر الموافقة على الزواج نظراً للقرابة الوثيقة بينهما، ثم تولى عقد زواجها وتتويجها (انظر رسالة انوسنت في M.P.L. vol. CCXIV, col.477.)، وأضحى تتويج ملك بيت المقدس ، يجري منذئذ في كاتدرائية صور .

(١) انظر : La Monto, Feudel Monarchy, p. 43.
Hill, op. cit vol, II, p. 50 n. 4.

اشار هيل الى الملكية الوراثية في قبرص .

أنه حاكم نشيط قدير . أقنع المحكمة العليا بأن تشركه في مراجعة الدستور ، حتى يتيسر تعيين الحقوق الملكية صريحة . وحرص بصفة خاصة على ان تجري استشارة رالف سيد طبرية منافسه على العرش الذي كان يقدره ، ولكنه لم يكن يهواه ، حسبما تشير الروايات . إذ اشتهر رالف بدرايته بالقانون ، فكان من الطبيعي أنه لا بد ان يطلب اليه ان يقوم على نشر كتاب الى الملك Livre au Roi وهو الاسم الجديد الذي أطلق على القوانين . غير ان أماريك خشي ان ما اشتهر به رالف من العلم يصح استخدامه ضده . ففي مارس سنة ١١٩٨ ، حينما كان الملك وحاشيته يجتازون على ظهور خيولهم الحدائق الواقعة حول مدينة صور ، ركض نحو الملك أربعة فرسان من الالمان ، وانقضّوا عليه ، غير انه نجا دون ان يتعرض لأذى خطير . ورفض المعتدون ان يبوحوا بمن يعملون بالنيابة عنهم ، غير ان أماريك أعلن ان رالف هو الجاني ، فأصدر الحكم بنفيه . على ان رالف ، وفقاً لما له من حقوق ، طلب ألا يحاكمه إلا نظراؤه . واستطاع يوحنا ابلين ، وهو اخ غير شقيق للملكة ، ان يقنع الملكة بأنه لا بد من عرض القضية على المحكمة العليا ، التي رأت ان الملك أخطأ في نفي رالف دون محاكمة ، ولم تتم تسوية المسألة إلا حين أعلن رالف نفسه ، بأنه نظراً لأنه فقد رضى الملك ، فإنه سوف يتوجه باختياره الى المنفى ، فلجأ الى طرابلس ، ولعلّ ذلك يرجع الى التدخل الحصيف من قِبل يوحنا ابلين . وأثبتت القصة للبارونات انه ما من أحد يعارض الملك ، إلا حلّ به العقاب ، كما انها أظهرت للملك انه ينبغي ان يلتزم بالدستور [١] .

---

(١) انظر :

Estoire d'Eracles, II, pp. 228 - 230.

John of Ibelin, pp. 327 - 328, 430.

Philip of Novara, pp. 522 - 523, 570.

أما سياسته الخارجية فاتسمت بالقوة والمرونة . حدث في اكتوبر سنة ١١٩٧ ، قبل ان يعتلي أملريك العرش ، ان بذل أملريك المساعدة لهنري دوق برابانت كما يفيد من احتشاد المسلمين في يافا ، بأن ارسل بغتة حملة مؤلفة من الألمان والبرابنتيين ، بقيادة هنري كيما تسترد صيدا وبيروت . والمعروف ان صيدا دمرها المسلمون ، لاعتقادهم انــه ليس بوسعهم الدفاع عنها ، فلما بلغها المسيحيون ، لقوا المدينة كومة من الخرائب . وإذ أدرك أسامة امير بيروت الذي يرعى القراصنة ان العادل لن يرسل اليه شيئاً من المساعدة ، قرر ان يقوم بتدمير مدينة (بيروت) ، غير انه لم يبدأ إلا بعد فوات الوقت . فلما قدم اليها هنري بعساكره ، كشفوا ما حلّ بالأسوار من الدمار ، فتيسر لهم ان ينفذوا منها ، غير ان معظم المدينة ما زال صلباً متماسكاً ، فلم يلبث ان تمّ إصلاحها ، وتقرر بذل بيروت اقطاعاً ليوحنا ابلين ، وهو أخ غير شقيق للملكة . وإذ عادت جبيل فعلاً الى ايدي سادتها من المسيحيين ، اضحت المملكة مرة اخرى على مسافة قصيرة من كونتية طرابلس . غير ان الساحل حول صيدا لم يخل نهائياً من العدو ، الذي لا زال بحوزته نصف الضواحي [1] .

الحملة الصليبية الالمانية سنة ١١٩٧ :

وإذ تشجع الصليبيون الالمان ، بقيادة رئيس الاساقفة بما ظفروا به

---

(١) انظر :
Ernoul, pp. 311 - 317.
Estoire d'Eracles, II, pp. 224 - 227.
Arnold of Lübeck, p. 205.
Ibn al - Athir, II, p. 86.

من توفيق في بيروت ، جعلوا خطتهم التالية الزحف على بيت المقدس .
أما البارونات السوريون الذين راودهم الأمل في ان يجددوا الهدنة مع العادل على اساس منحه يافا ، واحتفاظهم ببيروت ، فقد خاب سعيهم في ان يثنوا الالمان عن عزمهم . ففي نوفمبر سنة ١١٩٧ دخل الالمان الجليل وألقوا الحصار على حصن تبنين الضخم . وكان الهجوم الاول من الشدة والعنف ، ما جعل الحامية الاسلامية بالحصن تبادر الى ان تعرض تخليها عن القلعة بمن في سجونها من الاسرى المسيحيين الذين يبلغ عددهم خمسمائة اسير ، اذا ابقى المهاجمون على حياة رجال الحامية وعلى امتعتهم الشخصية . غير ان رئيس الاساقفة كنراد اصر على التسليم بدون قيد ولا شرط ، وإذ حرص بارونات الفرنج على الاحتفاظ بصداقة العادل ، وخافوا ما تثيره مذبحة في رجال الحامية من الدعوة الى الجهاد ، ارسلوا الى السلطان العادل ينذرونه ان الالمان لن يبقوا على حياة احد من رجال الحامية . فاستمات المسلمون في الدفاع عن الحصن ، وألح العادل على ابن اخيه العزيز بأن ينفذ من مصر جيشاً لمواجهة المغيرين . أما الالمان فأخذوا يشعرون بالتعب والإرهاق ، وخفت حدة جهودهم . وفي تلك الاثناء ، وردت الى عكا الانباء بوفاة الامبراطور هنري السادس في سبتمبر سنة ١١٩٧ . وعندئذ حرص كثير من القادة على العودة الى بلادهم . ولما توالى ورود الانباء عن اندلاع الحرب الداخلية في المانيا ، قرر كنراد ورفاقه التخلي عن الحصار. وفي ٢ فبراير سنة ١١٩٨ قدم الجيش المصري من الجنوب ، وإذ استعد الجيش الالماني بأسره لأن ينشب معركة مع الجيش المصري ، ترددت شائعة فجأة ان متولي دار الوثائق الامبراطورية وكبار السادة الاقطاعيين ولوا الأدبار ، وساد الذعر بين العساكر ، فلم يتوقف الجيش الالماني بأسره اثناء فراره حتى ادرك النجاة في صور . ولم تنقض إلا بضعة ايام حتى

شرع الجيش الالماني في ان يستقل السفن راجعاً الى اوروبا . والواقع ان هذه الحملة بأسرها لقيت الفشل الذريع ، ولم تحقق شيئاً يعيد لالمانيا هيبتها. ومع ذلك فانها سهمت في إعادة بيروت الى الفرنج ، وخلفت من بعدها هيئة ثابتة ، تتمثل في طائفة الفرسان التيوتون [١] .

ومع ان الطائفتين الدينيتين العسكريتين السابقتين تعتبران من الناحية الرسمية ذات صفة دولية ، فإنهما لم تحويا في صفوفهما إلا عدداً قليلاً من الالمان . ثم حدث زمن الحملة الصليبية الثالثة ، ان اقام بعض تجار برين ولوبيك نزلاً في عكا يأوي اليه الالمان ، على نفس الاسس التي قامت عليها اسبتار القديس يوحنا ، وتقرر تدشينه باسم العذراء ، وتولى رعاية الحجاج الالمان. وما حدث سنة ١١٩٧ من قدوم الحملة الصليبية الالمانية أدى حتماً الى ازدياد اهمية هذا النزل . فلما عزم جماعة من الفرسان الصليبين على ألا يعودوا على الفور الى المانيا ، اتخذت طائفة الفرسان التيوتون نموذج اسبتار القديس يوحنا الذي نشأ قبل قرن من الزمان . فضمت اليها هؤلاء الفرسان ، وفي سنة ١١٩٨ تلقت من الملك ومن البابا الاعتراف بهـا على انها طائفة

---

(١) انظر :

Ernoul, p. 316.
Estoire d'Eracles, II, pd. 221 - 222.
Arnold of Lübeck, pp. 208 - 210.
Chronica Regia Coloniensis, p. 161.
Abu Shama, II, p. 117.
Ibn al - Athir, II, pp. 87 - 88.

وعن يوحنا ابلين واقطاعه ، انظر :

Lignages d'Outremer, in R. H. C. Lois, *II*, p. 458.

عسكرية . والراجح ان كنراد ، متولي الوثائق الامبراطورية ، أدرك ما يكون لقيام طائفة المانية خالصة من قيمة وأهمية في تحقيق اغراض استعمارية ، فصار كنراد يعتبر الى حد كبير مسؤولاً عن بدايتها . ولم تلبث هذه الطائفة ان ظفرت بأحباس مؤلفة من الضياع الخصيبة في المانيا ، وشرعت في حيازة بعض القلاع في سوريا . وأول ما حازته بها ، كان البرج المقام على باب القديس نقولا في عكا ، الذي بذله لها امالريك ، بشرط ان يرده الفرسان التيوتون الى الملك متى امر بذلك . ولم يلبث هؤلاء الفرسان التيوتون ان اشتروا بعدئذ قلعة مونتفورت الواقعة على التلال التي تتحكم في درج صور ، فأطلقوا عليها اسم شتاركنبرج . ولم تختلف طائفة فرسان التيوتون عن طائفتي الداوية والاسبتارية في تقديم العساكر اللازمين للدفاع عن الشرق الفرنجي ، غير انها لم تيسّر إدارة المملكة وحكومتها[1] .

ولم يكد الصليبيون الالمان يغادرون البلاد ، حتى شرع أماريك في اجراء المفاوضات مع العادل . عجّل العزيز بالعودة الى مصر ، ولم يود العادل ان يقاتل الفرنج ، لحرصه على ان يستأثر بكل التراث الايوبي . وفي اول يوليه سنة ١١٩٨ ، انعقدت المعاهدة التي جعلت للعادل تملك يافا ، وهيأت للفرنج ان يحوزوا جبيل وبيروت ، على ان يقتسم الفريقان مدينة صيدا . وتقرر ان يكون اجل المعاهدة خمس سنوات وثمانية شهور . وثبتت اهمية هذه التسوية للعادل عند وفاة العزيز في نوفمبر سنة ١١٩٨ ،

---

(١) انظر : Röhricht : Geschichte des Konigreichs Jerusalem, pp. 677 - 678.

إذ اضحى العـادل حراً في التدخل في امور مصر ، فأضاف اليـه بلاد السلطان الراحل . وما حدث من ازدياد قوة العـادل ، ادى الى اشتداد عزم املريك على المحافظة على الصلح معه ، وزاد في هذا العزم ما تجدد في انطاكية من الاضطراب [١] .

ولاية حكم انطاكية سنة ١١٩٧ :

سبق ان شهد بوهمند الثالث حصار بيروت ، وفي اثناء عودته رتب امر مهاجمة جبلة واللاذقية . غير انه كان لزاماً عليه ان يسرع بالعودة الى بلاده (انطاكية) . ومـــا حدث من اجراء موفق ، اتحدت بمقتضاه قليقية وانطاكية في شخص ابنه ريموند وزوجته الارمنية ، لم يلبث ان تحطم حين مات فجأة ريموند في اوائل سنة ١١٩٧ . لم ينجب إلا طفلاً ، اسمه ريموند – روبين ، الذي كان وريثـاً لانطاكية بحق ولاية الحكم . على ان بوهمند اقترب وقتئذ من الستين من عمره ، وليس من المحتمل ان يمتد به الاجل حتى يبلغ حفيده سن الرشد ، واشتد الخوف من ان يتحكم في حداثة سن الامير والوصاية عليه ، احـــد أقارب الصبي من الارمن . فأرسل بوهمند الارملة أليس مع طفلها الى ارمينيا ، ولعـله اراد بذلك

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 316 - 317.

Estoire d'Eracles, *II*, p. 228.

Roger of Hoveden, IV, p. 28.

أشار روجر الى ان أمد المعاهدة ، ست سنوات ، وستة شهور ، وستة ايام .

Abu Shama, Arabic text (ed. Beirut), *I*, pp. 220 - 221.

Ibn al - Athir, *II*, p. 89.

ان يدبر بأن يتولى الحكم من بعده احد ابناء سيبللا ، او لعله اعتقد ان انتقال أليس مع ابنها الى ارمينيا يزيد في امنها وسلامتها . حدث ذلك عند تتويج ليو ، وإذ حرص كنراد رئيس اساقفة ماينز على ان يستخلص عرش انطاكية لأحد اتباع سيده ، فيتم بذلك ما قام به من عمل في عكا ، عجّل بالذهاب من سيس الى انطاكية ، حيث أجبر بوهمند الثالث على ان يستدعي باروناتـه ، وأن يحملهم على ان يقسموا على تأييد ولاية ريموند روبين [1] للحكم .

لو أن ريموند توجه الى طرابلس لكان خيراً له . إذ أن بوهمند ، كونت طرابلس والابن الثاني لبوهمند الثالث كان شاباً شديد الطموح ، لم يحفل كثيراً بالمثل والمبادىء ، بالغ الدراية بالقانون ، وفي وسعه ان يسوق من الحُجَج مـا يبرر به أسوأ ما ارتكبه من اعمال . لم يكن صديقـاً للكنيسة ، سبق ان قام فعلاً بمساندة البيازنة ، من اجل الحصول على المال يقيناً ، في نزاعهم مع اسقف طرابلس على بعض البلاد ، فلما تعيّن الاسقف

---

(١) انظر :
Arnold of Lübeck, p. 207.
Chronica Regia Coloniensis, p. 161.
Roger of Hoveden, IV, p. 28.
كل هؤلاء المؤرخين اشاروا الى ان بوهمند احتل المدينتين : جبلة واللاذقية ، بصفة مؤقتـة . اما ابن العديم فيصرح بأنه لم يهاجمها فعلاً . وأخطأ روريخت في ترجمة جبلة (Dschebele) الواردة في تاريخ هرقل ، فجعلها جبيل (Gibelet) . انظر :
Kemal ad - Din, (Trans. Blochet), pp. 213 - 215.
Röhricht, op. cit. p. 675, n. 2.
Eracles, *II*, p. 228.

بطرس انجوليم بطريركا لأنطاكية ، عجّل بتعيين خليفة له في اسقفية طرابلس ، ولم يحفل بالقانون الكنسي ، فَتَبِلَ البابا عذره ، بأنه ليس بوسع الكنيسة ان تتحمل خطورة التأخير ، مع ما لبوهمند كونت طرابلس من قوة وسلطان . على ان بوهمند عزم على ان يظفر بولاية الحكم في انطاكية ، فبادر برفض الاعتراف بسلامة اليمين التي سبق بذلها لريموند روبين . احتاج بوهمند الى حلفاء ، فانحاز اليه عن طيب خاطر الداوية الذين غضبوا على ليو لاحتفاظه ببغراس . اما الاسبتارية فانه على الرغم من انهم لم يكونوا شديدي الحرص على ان يشتركوا مع الداوية في عمل من الاعمال ، لم يلبث بوهمند ان تغلب عليهم ، بما بذله لهم من المنح . وبذل الرشوة للبيازنة والجنويين بأن منحهم امتيازات تجارية . وما هو اهم من كل ذلك ، ان قومون انطاكية نفسها انزعج من الارمن ، وأظهر عداءه لكل اجراء يتخذه البارونات . وحدث في نهاية سنة ١١٩٨ ان ظهر فجأة في انطاكية ، بوهمند كونت طرابلس ، فطرد والده ، ودعا القومون الى ان يحلف له يمين الولاء .

على انه كان لليو حليف بالغ الخطورة ، وهو البابا انوسنت الثالث . فمها أحسّت به البابوية من الشكوك حول اخلاص الكنيسة الارمنية في خضوعها لكنيسة روما ، فان انوسنت لم يرضَ ان يستبعد أتباعه الجدد . اذ تدفق على روما من ليو وجاثليق الارمن رسائل وطلبات تفيض بالودّ والاحترام ، فلا ينبغي اغفالها . على ان بوهمند الصغير سمح لوالده بالعودة الى انطاكية ، بينما رجع الى طرابلس ، ولعل ذلك يرجع الى معارضة

الكنيسة ، ولكنه استطاع بوسيلة او اخرى ان يحقق الوفاق بينه وبين والده الامير الشيخ ، الذي تحوّل الى جانبه . وفي تلك الأثناء نقل الداوية الى روما كل ما لهم من نفوذ وتأثير . غير ان ليو اغفل كل تلميح من الكنيسة بأن يرد بغراس الى الداوية ، نظراً لما لبغراس من استراتيجية جوهرية له ، طالما يسيطر على انطاكية . فدعا الامير الشيخ بوهمند والبطريرك بطرس لمناقشة الموضوع بأجمعه ، غير ان ما اشتهر به ليو من العناد والتشدد ، حمل البطريرك ذاته على ان يتخذ جانب بوهمند كونت طرابلس . وانحازت كنيسة انطاكية الى القومون والطوائف الدينية العسكرية في مقاومة ولاية الارمن لحكم انطاكية . فلما مات بوهمند الثالث في ابريل سنة ١٢٠١ ، لم يلقَ بوهمند كونت طرابلس صعوبة في ان يستقر في انطاكية . غير ان كثيراً من النبلاء الذين حرصوا على الالتزام بأيمانهم ، وتخوّفوا من نزعات بوهمند الى الاستبداد ، هربوا الى بلاط ليو في سيس [١] .

الحرب الاهلية في الشمال سنة ١٢٠١ :

ظلّ المسيحيون بشمال سوريا في السنوات الخامسة والعشرين التالية ، في اضطراب وحيرة نتيجة حرب الوراثة في انطاكية . وقد تغيّر الموقف بأسره في الشرق قبل زمن طويل من تسوية المشكلة . ومن حسن الحظ انه لم يكن أمراء السلاجقة بآسيا الصغرى او الأيوبيون في وضع يجعلهم

---

(١) انظر : Cahen : op. cit. pp. 590 - 595.

ينشبون حرباً للفتح والتوسع بتلك الجهات . اذ انه اعقب وفاة السلطان السلجوقي قلج ارسلان الثاني ، اندلاع حرب طويلة الأمد بين اولاده . ولم ينجح ابنه ركن الدين سليان امير توقات ، في اعادة توحيد بلاد الاسرة إلا بعد ان مضى على وفـاة والده نحو عشر سنوات . وأغار السلاجقة على قليقية سنة ١١٩٣ ، ثم في سنة ١٢٠١ ، فبدّدوا جهود ليو في اللحظة الحرجة التي كان فيها بوهمند الثالث يعاني سكرات الموت . ومـا توافر لركن الدين من الوقت بعد الفراغ من الحروب مع اخوته ، ومع أمراء الدانشمند الذين تداعت قوتهم ، أنفقه في مهاجمة بلاد الكرج ، الذين تعتبر ملكتهم ثامـــار اشد خطورة وتهديداً للاسلام من كل امير لاتيني (١) . اما الظاهر غازي بن صلاح الدين ، امير حلب ، فانه بلغ من حنقه وغضبه على طموح عمه العادل ، انه لم يستطع ان يغامر بشنّ حرب خارجية .

أضحى لأهل انطاكية من الحرية مـا يجعلهم يمضون في منازعاتهم ، دون ان يتعرضوا للتدخل من قِبل المسلمين . وازداد قلق الملك امالريك وهو يرقب من عكا مـا نشب في الشمال من حرب اهلية . والواقع ان عواطفه كانت مع ليو وريموند روبين الصغير ، لا مع بوهمنـــد المعروف بالعنف والقسوة ، غير انه لم يحاول مطلقاً ان يتدخل فعلاً ، اذ ان اهتمامه الأساسي كان موجهاً الى منع نشوب القتال مع العادل . وتردّدت الشائعات بأن حملة صليبية ضخمة تتجمع في اوربا ، فينبغي المحافظة على السلام ،

---

(١) انظر : Ibn Bibi, ed. Houtsma, IV, pp. 5 - 22.
Ibn al - Athir, *II*, pp. 69 - 72.
Georgian Chronicle (ed. Brosset), *I*, pp. 292 - 297.

أحق تصل الحملة . اما العادل فلم يكن بوسعه ان يركن الى صدق مساندة بناء اخوته وأبناء اعمامه ، ما لم يكن اعتداء المسيحيين من الخطورة ما يؤدي الى إثارة حركة الجهاد .

على ان المحافظة على السلام ليست دائماً هينة سهلة . ففي نهاية سنة ١٢٠٢ رسا في ميناء عكا اسطول فلمنكي . أبحر هـذا الاسطول بقيادة قسطلان بروج ، يوحنا نِسْله ، ثم اجتاز بوغاز جبل طارق ، في طريقه الى عكا . ولم تمض إلا بضعة ايام حتى قـدم الى عكا سفن من مرسيليا تحمل جماعة من الفرسان ، بقيادة والتر اسقف أوتون ، وكونت فوريز . ثم تلاهم جماعة اخرى من الفرسان الفرنسيين ، من بينهم ستيفن كونت بيرش ، وروبرت كونت مونتفورت ، ورينالد الثاني كونت دامبيير ، قدموا على سفن من البندقية . على ان هذه الجماعات الثلاث لم يزد عددها على بضعة مئات من الرجال ، ولا تعتبر إلا نسبة ضئيلة بالقياس الى الجيش الضخم الذي كان يقلع وقتذاك من دالماشيا ، غير انـه لم تمض إلا فترة قصيرة حتى بادر رينالد مونتميرايل الذي ترك هذا الجيش في زارا ، الى اذاعة النبأ بأن الحملة لن تصل الى سوريا إلا بعد مضي بعض الوقت . على ان الفرسان الفرنسيين وطدوا العزم ، شأن كل العساكر المستجدين ، على ان يمضوا على الفور للقتال من اجل الصليب ، ولذا ارتاعوا حينما امرهم الملك أملريك بالانتظار والتزام الصبر . فوجه رينالد دامبيير الى الملك الشتيمة علناً ، ونعته بالجبن ، وباعتباره قائداً مستقلاً حثّ الفرسان على ان يدخلوا في خدمة بوهمند كونت طرابلس ، فارتحلوا للحاق بـه في انطاكية ، واجتازوا في اطمئنان كونتية طرابلس . غير انه ما زالت جبلة واللاذقية في ايدي المسلمين . كان امير جبلة رجلاً يؤثر العافية والسلامة ، ارتبط

مع جيرانه المسيحيين بعلاقات طيبة ، فاستضاف هؤلاء المسافرين ، غير انه حذّرهم بأنهم لن يجتازوا في أمن وسلام بلاد اللاذقية ما لم يحصلوا على أمان من سيده الظاهر غازي امير حلب . وعرض ان يتولى الكتابة الى السلطان (الظاهر) ، الذي سوف يلبي الطلب ، لأنه كان حريصاً على ان يشتد أوار الحرب الأهلية في انطاكية ، غير ان رينالد دامبيير وأصدقاءه لم يودوا الانتظار ، وأصرّوا على ان يجتازوا اللاذقية ، غير ان اميرها ، لاعتقاده بأنه يؤدي واجبه الاسلامي ، اوقعهم في كمين ، فأسر كثيراً منهم ، وأجهز على من لم يقع في الأسر[1] .

على ان أملريك أجاز الغارات التي يشنها المسيحيون من حين الى آخر على المسلمين . فحينما استقرّ احد الامراء قرب صيدا ، وأخذ يغير على السواحل المسيحية ، ولم يحرص العادل على ردعه ، انتقم أملريك لما حدث بأن ارسل السفن لتعترض قافلة بحرية مصرية تقصد اللاذقية ، وتحمل متاجر ثمينة ، فاستولت عليها ، ثم قاد غارة على الجليل . ومع ان العادل مضى في سيره حتى بلغ جبل الطور للقائه ، غير انه رفض ان تنشب

---

(١) انظر : Ernoul, p. 341.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 247 - 249.
Villehardouin, ed. Faral, pp. 102 - 104.
Kemal ad - Din, (Trans. Blochet), p. 39.

على ان يوحنا نسله والقلة القليلة التي نجت من اللاذقية ، توجهوا للقتال الى جانب ليو ، ضد انطاكية .

وعن الحرب الصليبية الرابعة ، انظر ما يلي ، ص ١٩٥ وما يليها . اشتد فيلهاردوين في توجيه النقد الى الصليبيين الذين أصروا على المسير الى الارض المقدسة .

بينهما معركة . بل انــه لم يرد في عنف حينما أبحر اسطول مسيحي الى دلتا النيل ، ونفذ الى النهر عنــد رشيد وهبط الى مدينة فوه فنهبها . وحوالي ذلك الوقت قام الاسبتارية من حصن الأكراد والمرقب بغارات على حماة ، إمارة المنصور بن تقي الدين ، ابن اخي العادل ، ولم تحقق هذه الغارات شيئاً من النجاح (١) .

وفاة الملك امليك سنة ١٢٠٥ :

انعقدت معاهدة الصلح في سبتمبر سنة ١٢٠٤ بين امليك والعادل ، لمدة ست سنوات . ولعلّ امليك هو الذي سعى اليها ، غير ان العادل كان من جانبه حريصاً على ان ينهي القتال . وقد يكون في تفوّق المسيحيين في القوة البحرية ما يثير قلق العادل ، غير انه من المحقق ان العادل ادرك ان امبراطوريته سوف تحقق الربح باستئناف التجارة مع الساحل السوري ، ولذا لم يكن العادل مستعداً فحسب للتخلي عن بيروت وصيدا لأمليك ، بل انه تنازل له ايضاً عن يافا والرملة ، ويسر الاجراءات للحجاج الذين يقصدون بيت المقدس والناصرة . هــــذه الشروط اعتبرها امليك بالغة

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 335 - 360.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 258 - 263.
Abu Shama, *II*, p. 158.
Ibn al - Athir, *II*, p. 96.

الصلاحية له[1]. غير انه لم يستطع ان ينعم طويلاً بمكانته الرفيعة العالية. ففي اول ابريل سنة ١٢٠٥ مات امليك بعكا بعد مرض قصير اصابه عقب إسرافه في تناول وجبة سمك، ولم يتجاوز الخمسين سنة إلا بسنوات قليلة[2].

لم يكن امليك الثاني ملكاً عظيماً، غير انه تعلّم من الخبرة، مثلما تعلّم سلفه هنري كونت شامبانيا، حكمة سياسية كانت بالغة القيمة لمملكته الفقيرة، المحفوفة بالخطر، وما اشتهر به من عقلية قانونية مرتبة لم تخلق فحسب دستوراً لجزيرة قبرص، بل اسهمت الى حد كبير في المحافظة على مملكته على البر. ومع ان امليك كان رجلاً يلقي من الناس الاحترام، غير انه لم يكن محبوباً. وكان في شبابه مستهتراً لا يقدّر المسئولية ينزع الى الشجار، ويكره دائماً المعارضة. على انه يرجع اليه الفضل في انه، مع انه كان يؤثر صراحة ان يظل ملكاً على جزيرة قبرص وحدها، قبل كل ما ألقاه عليه تاج بيت المقدس من تبعات، واضطلع بها حسبما

---

(١) انظر : Ernoul, p. 360.
Estoire d'Eracles, *II*, p. 263.
Ibn al - Athir, loc. cit.

(٢) انظر : Ernoul, p. 407.
Estoire d'Eracles, II, p. 305.
انظر ايضاً ما ورد عن روبرت الراهب في ملحق، في :
Bouquet, R. H. F. vol. XVIII, p. 342.
وهـذا الملحق مستمد من رسالة رئيس اساقفة قيسارية، التي تحدد التاريخ الدقيق لوفاة امليك. اما طفله من ايزابيلا فانه مات في ٢ فبراير.

يقتضيه واجبه . وعند وفاة امالريك انفصلت المملكتان ، فانتقلت قبرص الى ابنه هيو الاول من ايشيفا ابلين ، وكان طفلاً في السادسة من عمره . أما برجنديا الأخت الكبرى لهيو ، فإنها تزوّجت منذ زمن قريب من والتر مونتبليار الذي عهدت اليه المحكمة العليا بالجزيرة بالوصاية على العرش [١] . وفي مملكة بيت المقدس انتقلت السلطة ، دون نزاع ، الى الملكة ايزابيللا ، التي لم يبلغ بهـا الوجد على موت زوجها الأخير ما يمنعها من تقلد زمام الحكومة . غير ان ايزابيللا لم تعش طويلاً بعد وفاة زوجها ، على ان تاريخ وفاتها اكتنفه الغموض شأن معظم حياتها . على انها انفردت من دون سيدات البيت الملكي في بيت المقدس ، بأنها شخصية غامضة ، لم يصلنا شيء عن حياتها . على الرغم من ان زواجها وحياتها تعتبران بالغة الاهمية . فلو كان لها مطامع سياسية لأضحت قوة في البلاد ، غير انها صارت تنتقل من زوج الى زوج دون اعتبار لرغباتها الشخصية . والمعروف لنا انها كانت جميلة ، غير انه يجب ان نقرر انها كانت حقيرة ضعيفة [٢] .

خلفت ايزابيللا من بعدها خمس بنات ، ماريا مونتفيرات ، وإليس ، وفيليبا شامبانيا ، وسبيللا ، وميليسيند لوزجنان . تولت ماريا وهي في الثالثة عشرة من عمرها عرش بيت المقدس ، وتقرر تعيين يوحنا إبلين ، سيد بيروت وصياً عليها . وليس معروفاً ما اذا كانت الملكة ايزابيللا رشحته للوصاية قبيل وفاتها ، او اختاره البارونات . غير انه كان المرشح

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 305.
(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 305.

الظاهر للوصاية ، فباعتباره أكبر اخ غير شقيق لإيزابيللا ، يعتبر اقرب الذكور للملكة الطفلة . كما انه حـاز أثقل اقطاع في المملكة الصغيرة ، ويعتبر الزعيم الذي يقبله جميع البارونات ، جمع بينما اتصف به والده باليان من الشهامة والحكمة ، وبين ما ورثه عن امه ماريا كومنينا اليونانية من حدة الذكاء ، وظلّ ثلاث سنوات يحكم البلاد بكياسته وهدوئه . لم تزعجه حروب من قِبل المسلمين ، ولم توقعه في حيرة وحرج حملة صليبية . والواقع ان ما من احـد من فرسان الغرب يحفل بالقدوم عن طيب خاطر الى فلسطين ، وهذا ما ردّده أملريك في أسف ، حينما عقد معاهدته مع العادل . اذ ان الحرب الصليبية عثرت في جهة اخرى على ارض صيد أكثر غزارة وأوفر غنى [1] .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 305.
Ernoul, p. 407.

الكتاب الثاني

الحملات الصليبية المنحرفة

الفصل الاول

الحملة الصليبية الرابعة

في نوفمبر سنة ١١٩٩ وجّه تيبالد كونت شامبانيا الدعوة الى أصدقائه وجيرانه للاشتراك في مبارزة تجري بقلعته في ايكثرى على نهر الإين . ولما انتهت المبارزات ، دار بين السادة من المحادثات ما أفضت الى الحاجة الى الدعوة الى حملة صليبية جديدة . أولى كونت شامبانيا هـذا الأمر اهتماماً شديداً ، إذ كان تيبالد ابن اخ غير شقيق لرتشرد قلب الأسد ، وابن اخت غير شقيقة لفيليب اغسطس ، وشقيقاً لهنري كونت شامبانيا الذي تولى الحكم في فلسطين . وبنـاء على اقتراح تيبالد ، تقرّر استدعاء فولك اسقف نيللي ، وهو من دعـاة الحروب الصليبية ، ليتحدث الى الضيوف . وبفضل ما اشتهر به فولك نيللي من الفصاحة ، استطاع ان يثير حماس الحاضرين ، الذين وعدوا بالاشتراك في الحرب الصليبية ، وتقرر إيفاد رسول لينهي الى البابا ، بالقرار الصالح السليم [١] .

---

(١) انظر : Villehardouin I, pp. 2 - 6.

مضى على انوسنت الثالث في كرسي البابوية وقتذاك ما يزيد على سنة . كان انوسنت شديد الطموح لتوطيد ما للمقر الرسولي من سمو السلطة ، غير انه في الوقت ذاته كان فطناً ، بعيد النظر ، صافي الذهن ، كان من رجال القانون يود ان يلتمس سنداً قانونياً لدعاويه ، وكان من رجال السياسة ، مستعداً لأن يستخدم لتحقيق دعاويه ما هو أقرب الى متناول يده من الوسائل . أقلقه الموقف في الشرق ، ولذا كان اول ما قام به من اعمال انه أعرب علناً عن رغبته في الدعوة الى حرب صليبية جديدة . فكتب في سنة ١١٩٩ الى ايمار بطريرك بيت المقدس ، يطلب منه تقريراً مسهباً عن مملكة الفرنج (١) ، إذ ان ملوك بيت المقدس يعتبرون أتباعاً له ، كما ان رغبته في بذل المساعدة لهم زاد من أهميتها ما اتبعه الامبراطور هنري السادس من سياسة ايجابية . فما لجأ اليه هنري السادس من بذل التاج للمطالبين بحكم قبرص وأرمينية ، يعتبر تحدياً صريحاً لسلطة البابا في تلك الأرجاء . ودلّت التجربة على ان الملوك والأباطرة ليسوا مقبولين في كل الحملات الصليبية . فالحملة الصليبية الاولى هي الوحيدة من دون الحملات الصليبية التي اكتمل نجاحها ، ولم يشترك فيها ملك متوّج . وإذ كانت حملة بارونات ، كادوا ان يكونوا متجانسين في العنصر ، تجنبوا ما كان من منافسات بين الملوك ، ومنازعات بين العناصر كالتي ألحقت الضرر البليغ بالحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . فاذا حدث شيء من هذه الاحقاد ، فسوف تكون من الضآلة ما يسهل على ممثل قدير للبابا ان يضبطها . ولذا لقيت الأنباء الواردة من شامبانيا ترحيباً حاراً من البابا

---

(١) انظر : Röhricht, Regesta, pp. 202 - 203.

انوسنت الثالث . فما استهله تيبالد من حركة لن تؤدي فحسب الى بذل مساعدة قوية للشرق ، بل يصح الافادة منها في توطيد وحدة العـالم المسيحي تحت زعامة روما[1] .

الواقع انـه تهيأت احسن فرصة للبابوية . إذ لم يكن في الغرب مثلما جرى في الحملة الصليبية الاولى ، امبراطور يتيح له مركزه ان يتدخل . فما حدث من وفـاة الامبراطور هنري السادس ، في سبتمبر سنة ١١٩٧ ، أراح الكنيسة ممـا تتعرّض له من تهديد حقيقي خطير . إذ كان لهنري من القوة والشأن ما يزيد على كل سيد او امير منذ زمن شارلمان ، نظراً لأنه ابن الامبراطور فردريك بربروسه ، وزوج وارثـة ملك صقلية ، التي استقر ارثها في يديـه سنة ١١٩٤ . وكان هنري السادس شديد الادراك لأهمية منصب الامبراطور ، وكاد ينجح في توطيده على اساس الوراثـة . وما حدث من بذله التاج في الشرق ، وطلبه من رتشرد قلب الاسد الاسير ان يحلف له يمين الولاء ، كل ذلك دلّ على انه اعتبر نفسه « ملك الملوك » . لم يخف هنري السادس كراهيته لبيزنطة ، الامبراطورية القديمة التي ادخرت من التقاليد ما يزت بـه امبراطوريته ، كما انه لم يكتم هدفه في مواصلة سياسة النرمان التي تقضي بإقامـة امبراطورية في البحر المتوسط ، والتي انطوت في حد ذاتهـا على تدمير بيزنطة . ولذا تعتبر الحملة الصليبية جانباً لا مندوحة عنه لهـذه السياسة . فظلّ هنري السادس طوال سنة ١١٩٧

---

(١) عن انوسنت ، انظر :

Fliche : La Chrétienté Romaine, (vol. X of Fliche and Martin, Histoire de l'Eglise), pp. 44 - 60.

يولي خططه كل اهتمام . ولم تكن الحملة الالمانية التي هبطت الى عكا في تلك السنة ، إلا طليعة لجيش اكثر ضخامة سوف يتولى قيادته . ولما اشتهر به البابا سلستين الثالث من الجبن والتردّد ، استبدت به الحيرة ، غير انه لم يحاول ان يثني الامبراطور عن عزمه ، على الرغم من انه نصحه بألا يشنّ هجوماً مباشراً على القسطنطينية ، نظراً لأنــــه كان يتفاوض مع امبراطورها من اجل توحيد الكنيسة ، ولو لم يمت هنري السادس فجأة في مسينا ، ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، بينما كان بعد اسطولاً ضخماً لغزو الشرق ، لأضحى جائزاً ان ينجح في جعل نفسه سيداً على العالم المسيحي [1] .

انوسنت الثالث والحملة الصليبية سنة ١١٩٩ :

على ان البابا سلستين الثالث مات بعد شهور قليلة مضت على وفــاة الامبراطور هنري السادس . فلم يصادف انوسنت الثالث حين وليّ كرسي البابوية ، نداً من العلمانيين . وعهدت اليه الامبراطورة الارملة كونستانس برعاية ملكة صقلية وإبنها الصغير ، فردريك . ولما لم يكن الأمير الصغير المولود بصقلية معروفاً في المانيا ، فــإن عمه فيليب دوق سوابيا ، شقيق هنري السادس ، استحوذ على أملاك الأسرة ، وادعى لنفسه الامبراطورية ،

---

(١) انظر : Foreville and de Pina, Du Premier Concile du Lateran à l'avènement d'Innocent III, (vol. IX of Fliche and Martin, Histoire de l'Eglise), pp. 216 - 225.

واكتشف ان خصوم اسرة هوهنشتاوفن لم يكن خضوعهم إلا طارئاً ، إذ ان بيت الولفيين اختاروا أوتو دوق برنسويك مرشحاً منافساً لفيليب على الامبراطورية . والمعروف ان رتشرد ملك انجلترا لقي مصرعه في مارس سنة ١١٩٩ ، وتنازع ملكه اخوه يوحنا ، وابن اخيه ، ارثر ، واشترك فعلاً في هذا التخاصم ، فيليب اغسطس ملك فرنسا . وإذ انغمس ملكا فرنسا وانجلترا في المنازعات ، وأثارت الحرب الأهلية الاضطراب في المانيا ، واستعادت البابوية سلطتها في جنوب ايطاليا ، أضحى بوسع انوسنت الثالث ان يمضي قدماً في دعوته للحرب الصليبية . واتخذ انوسنت خطوة تمهيدية لذلك ، بأن استهلّ المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث ، عن توحيد الكنيستين [١] .

ويعتبر فولك نيللي الرحالة الذي طالما سعى لإثارة حرب صليبية ، اكبر مبشر للبابا في فرنسا . واشتهر فولك بأنه لا يخشى الأمراء ، ومن الدليل على ذلك انه طلب الى الملك رتشرد ان ينبذ كبرياءه ، ونهمه ، وشهوته [٢] . وبناء على طلب البابا انوسنت الثالث طاف فولك بالبلاد ، يحثّ اهل الريف على ان يتبعوا سادتهم الى الحرب المقدسة . وما بذله مارتن رئيس دير بايريس من مواعظ في المانيا كانت بالغة الاثارة ؛ على

(١) انظر : Fliche, op. cit. pp. 46, 50.
Gesta Innocentii III, M. P. L. vol. CCXIV, cols. 119 - 123.

(٢) انظر : Villehardouin, loc. cit.
Roger of Hoveden, IV, pp. 76 - 77.
عرض رتشرد ان يتخلى عن كبريائه للداوية ، وعن نهمه للسسترشيان ، وعن شهوته للاساقفة .

الرغم من ان النبلاء بلغ بهم الانغماس في الحرب الاهلية ما منعهم ان يولوه اهتماماً كبيراً [1] . ولم يثر فولك ومارتن من الحماس الديني ما اثاره دعاة الحملة الصليبية الاولى . على ان التجنيد فاق في النظام ما حدث في الحملة الصليبية الاولى ، فأضحى قاصراً على اتباع البارونات الذين وعدوا بالاشتراك في الحرب الصليبية ، ولكن عدداً كبيراً من البارونات لم تحركهم التقوى مثلما اثارتهم الرغبة في حيازة اراضي جديدة بالغة البعد عن نشاطه المنظم . وقبل جميع البارونات تيبالد كونت شامبانيا قائداً للحركة الصليبية ، ومن الذين صحبوه ، بلدوين التاسع هينولت كونت فلاندر ، وأخوه هنري ، ولويس كونت بلوا ، وجفري الثالث سيد لي بيرش ، وسيمون الرابع سيد مونتفورت واخوتهم الجيّراند سيد بوف ، ورينالد سيد دامبيير ، وجفري سيد فيلهاردوين ، وعدد كبير من صغار السادة من شمال فرنسا والأراضي المنخفضة . وأعلن اسقف أوتون انحيازه للحملة مع جماعة من فرسان اوفرن . وفي بلاد الراين اعلن الاشتراك في الحملة اسقف هالبرشتات وكونت كاستنيلنبرج مع عدد كبير من جيرانهما [2] . ولم يلبث ان احتذى بهم سائر اعيان شمال ايطاليا يتزعمهم بونيفاس ماركيز مونتفيرات الذي اثار اشتراكه في الحملة في البابا انوسنت اول

---

(١) انظر : Gunther, Historia Constantinopolitana in Riant, Exuviae, I, pp. 60 - 65.

(٢) انظر : Villehardouin, pp. 6 - 14.
Robert of Clari (ed. Lauer), pp. 2 - 3.
اورد كلاي قوائم بأسماء المحاربين الفرنسيين ، بينما اشار فيلهاردوين الى اسماء المحاربين الالمان.
انظر : Villehardouin, p. 74.

مخاوف له عن كل الحملة ؛ ن امراء مونتفيرات كانوا اصدقاء اوفياء لأسرة هوهنشتاوفن (١) وحلفاء لهم .

بونيفاس يتولى قيادة الحملة الصليبية سنة ١٢٠١ :

لم يتيسر تنظيم الحملة في وقت وجيز ، فكان اول ما واجهه من المشاكل ، هو توفير السفن اللازمة لنقل رجال الحملة الى الشرق ، إذ أن الطريق البري الذي يجتاز البلقان والأناضول لم يعد صالحاً من الناحية العملية ، بعد تداعي بيزنطة . وما من احد من المحاربين الصليبيين كان له اسطول ، سوى كونت فلاندر . والمعروف ان الاسطول الفلنكي أبحر مستقلاً الى فلسطين ، بقيادة يوحنا نسله (٢) . اما المشكلة الثانية فانها ارتبطت بموضوع الاستراتيجية العامة . إذ أن رتشرد قلب الاسد سبق ان اعلن رأيه عند مغادرة فلسطين ، بأن مصر تعتبر النقطة الضعيفة في الامبراطورية الاسلامية ، وتبعاً لذلك لا بد جعل مصر هدفاً للصليبيين . وانقضت سنة ١٢٠٠ في مفاوضات مختلفة ، حاول البابا انوسنت ان يسيطر عليها . ولما مات تيبالد كونت شامبانيا فجأة في مارس سنة ١٢٠١ ، اختارت الحملة الصليبية بونيفاس مونتفيرات ليحل مكانه في قيادتها . وكان هذا الاختيار

---

(١) انظر : Villehardouin, I, p. 44.

يشير فيلهاردوين الى ان بونيفاس لم يتخذ الصليب الا بعد ان تقرر تعيينه قائداً أعلى للحملة .

Gesta Innocentii III, loc. cit. col. 132.

اوردت الجستا مخافات البابا . اذ ان والدة بونيفاس كانت اختاً غير شقيقة لجدة هنري السادس ، كما ان اباه كان اخاً غير شقيق لجدة فيليب ملك فرنسا .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٨٦ .

طبيعياً ، لما كان لبيت مونتفيرات من صلات معروفة بالشرق ، إذ أن وليم والد بونيفاس مات بالشرق ، وهو بارون فلسطيني . ومن هؤلاء الاخوة ، تزوج وليم من سبيللا ملكة بيت المقدس ، وأنجب منها الملك الطفل بلدوين الخامس ، اما راينيه مونتفيرات فتزوج من ابنة الامبراطور مانويل ، وقد لقي مصرعه في القسطنطينية . والمعروف ان احد هؤلاء الأخوة ، وهو كنراد مونتفيرات هو الذي انقذ صور ، وأضحى ملك الارض المقدسة ، ووالد وريثتها الحالية . على ان تعيين بونيفاس مونتفيرات لقيادة الصليبيين ، ابعد الحملة عن الوقوع تحت تأثير انوسنت . قدم بونيفاس الى فرنسا في اغسطس سنة ١٢٠١ ، والتقى في سواسون بكبار زملائه ، الذين اقروا تعيينه قائداً للحملة . ومن فرنسا ، توجّه الى المانيا ليقضي شهور الشتاء مع صديقه القديم فيليب دوق سوابيا[١] .

أبدى فيليب دوق سوابيا اهتماماً بأمور الشرق ، على ان أكثر ما اهتم به امور بيزنطة لا الشام . إذ شارك أسرته فيما تحس به من كراهية للأباطرة البيزنطيين . وتوقع ان يصير عاجلاً امبراطوراً للغرب ، وأعرب عن رغبته في ان يحقق كل البرنامج الذي وضعه اخوه هنري السادس . يضاف الى ذلك ما كان له من صلة شخصية ببيزنطة . فحينما فتح هنري السادس صقلية ، كان من بين أسراه ، ايرين انجلينا ، ابنة الامبراطور اسحاق انجيلوس ، والأرملة الشابة لروجر ولي عهد صقلية الذي جرّده

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 40 - 46.
Robert of Clary, pp. 4 - 6.
Gesta Innocentii III, loc. cit.
ألمت الجستا الى تدخل فيليب ملك فرنسا لصالح بونيفاس .

من مُلكه ، فزوجها هنري السادس لأخيه فيليب دوق سوابيا ، وقد كان زواجاً متكافئاً ، فانغمس فيليب من ثنايا هـذا الحب فيما وقع في أسرة انجيلوس من منازعات[1] .

ولم تمض إلا بضع سنوات على زواج فيليب ، حتى أضاع صهره اسحاق عرشه . ولم يكن للسلطة اهمية في إصلاح كفاية اسحاق ، فاشتهر موظفوه بالفساد ، ولم يتيسر ضبطهم ، بل ان اسحاق نفسه تجاوز في الإسراف ما لم تستطع امبراطوريته الفقيرة ان تتحمله ، بعد ان انتزعت منه المملكة البلغارية الأفلاخية القوية نصف شبه جزيرة البلقان . بينما ظلّ الترك ، حتى وفاة السلطان قلج ارسلان الثاني سنة ۱۱۹۲ يدأبون على التوسع في بلاد الاناضول ، وبذا عزلوا بيزنطة عن الساحل الجنوبي ، وعن بلاد الشام ، وأكثر من ذلك ما جرى بيعه للايطاليين من امتيازات تجارية ، مقابل الحصول على الاموال على الفور . وما اقترن به زفاف الامبراطور الى الأميرة مرجريت الهنجارية من الإسراف والأبهة التي تجاوزت الحدود أثار رعاياه الذين ثقلت عليهم أعبـاء الضرائب . فأخذت اسرته تتخلى عنه ، فأعدّ اخوه الكسيوس سنة ۱۱۹٥ مؤامرة ناجحة بالقصر ، إذ جرى سمل عيني الامبراطور اسحاق وإلقاؤه بالسجن مع ابنه الكسيوس الصغير . على ان الامبراطور الجديد ، الكسيوس الثالث لم يزد كثيراً في الكفاية على اخيه . إذ أظهر قدراً من النشاط الدبلوماسي ، بأن التمس صداقة البابوية بمـا عرضه من محادثات عن توحيد الكنيستين ، وهي صداقة قـد تحفظه من هجوم يشنه هنري السادس ، كما ان مؤامراته أسهمت في منع الأمراء

---

(١) انظر : Chronica Regia Coloniensis, p. 157.

السلاجقة من الاتحاد . أما الامور الداخلية فتركها لزوجته يوفروسين ، التي لم تختلف عن صهرها المخلوع في الإسراف ، فضلاً عن فساد الرجال الذين يقومون على خدمتها [١] .

وحدث في نهاية سنة ١٢٠١ ان هرب الكسيوس الصغير ابن اسحاق ، من السجن في القسطنطينية ، واتخذ طريقه الى بلاط اخته في المانيا ، فأحسن فيليب دوق سوابيا استقباله ، ثم قدمه الى بونيفاس مونتفيرات . فتشاور الرجال الثلاثة معاً ، فأعرب الكسيوس عن رغبته في ان يظفر بعرش والده . وأبدى فيليب الاستعداد لمساعدته ، حتى تصير الامبراطورية الشرقية من توابع الامبراطورية الغربية . وإذ صار تحت تصرف بونيفاس جيش صليبي ، أفلم يكن من مصلحة الحملة الصليبية ان تتوقف في طريقها كيما تتوّج بالقسطنطينية حاكماً صديقاً [٢] ؟

---

(١) انظر : Vasiliev, Histary of the Byzantine Empire, pp. 447 - 487.

(٢) انظر : Nicetas Choniates, p. 712.

عن الجدل حول ما اذا كان انحراف الحملة الصليبية الرابعة جرى التفكير فيه من قبل. انظر: Vasiliev, op. cit. pp. 455 - 458.

والحقيقة ، فيما يبدو ، هي انه بينما كان لفيليب دوق سوابيا ، وبونيفاس مونتفيرت والبنادقة، اسباب مختلفة تدعو الى مهاجمة القسطنطينية ، فان ما حدث من قدوم الكسيوس ، جعل انحراف الحملة عن غرضها امراً ميسوراً من الناحية العملية . ولم يكن عند البابا نية من هذا القبيل ، كما ان المحارب الصليبي المتوسط ، وهو محارب فرنسي،كان صادق النية في المضي الى الارض المقدسة، غير انه خضع لما تمليه عليه الاحوال والظروف .

عن اتجاه بونيفاس ، انظر :

Gregoire : « The Question of the Fourth Crusade », Byzantion, vol. XV.

وعن فيليب دوق سوابيا ، انظر :

Winkelmann : Philippe von Sehwaben, I, pp. 296, 525.

المفاوضات مع البنادقة سنة ١٢٠٢ :

كان الصليبيون في تلك الأثنـاء يلتمسون وسيلة لنقلهم بحراً ، ففي اوائل سنة ١٢٠١ ، وبينما كان هنري كونت شامبانيا لا زال حيّاً ، ابتدأ الصليبيون مفاوضاتهم مع البندقية ، فأرسلوا جفري فيلهاردوين الى البندقية ، لإعداد نصوص المعاهدة . وفي ابريل سنة ١٢٠١ انعقدت المعاهدة بين جفري والبنادقة . ففي مقابل خمس وثمانين الف قطعة فضية كلونية يؤديها الصليبيون ، وافقت البندقية في ٢٨ يونيه سنة ١٢٠٢ ، على ان تمدّ الحملة الصليبية من الوسائل والمؤن ، ما يكفي لمدة سنة ، ٤٥٠٠ فارس بأفراسهم ، و ٩٠٠٠ غلام (أتباع الفرسان) ، و ٢٠ الف راجل ، يضاف الى ذلك ، تبذل جمهورية البندقية خمسين سفينة لمرافقة الحمـــلة ، بشرط ان تحصل البندقية على نصف مـــا تفتحه الحملة من البـــلاد . وما كاد الاتفاق يتمّ ، حتى تقرّرت دعوة الصليبيين للاجتماع في البندقية ، استعداداً للاقلاع لمهاجمة مصر [1] .

ولم تثر هذه المعاهدة شيئاً من المخاوف إلا عند قليل من الصليبيين . فأبحر اسقف اوتون مع جماعته من مرسيليا قاصداً سوريا ، على حين ان جماعات اخرى بزعامة رينالد كونت دامبيير أعدّوا خططهم للابحار الى عكا ، بعد ان اشتدّ ضجرهم من التأخير في البندقية . كما انه حدث شيء

---

(١) انظر : Villehardouin, II, pp. 18 - 34.
وافق البابا على عقد المعاهدة ، غير انه لم يكن شديد الحماس لها ، نظراً لارتيابه في البنادقة .
انظر : Gesta Innocentii, loc. cit. col. 131.

من التذمر والسخط بين صغار المحاربين الصليبيين، عند اتخاذ قرار بمهاجمة مصر. إذ انهم انخرطوا في الجيش لإنقاذ الارض المقدسة، ولم يفهموا السر في المسير الى جهة اخرى. وهذا السخط شجعه في هدوء البنادقة الذين لم يكن في نيتهم بذل المساعدة كيما تهاجم مصر، وكان العادل شديد الادراك لما تعود به التجارة مع اوربا من مزايا على ممتلكاته، وتلى استيلاؤه على مصر، ما بذله من امتيازات تجارية بالغة القيمة للمدن الايطالية. ففي اللحظة التي كانت فيها حكومة البندقية تساوم الصليبيين حول نقل قواتهم، كان سفراؤها بالقاهرة يعدّون اتفاقاً تجارياً مع نائب السلطان العادل، الذي عقد معاهدة معهم في ربيع سنة ١٢٠٢، بعد ان أكد الدوج لمبعوثين شخصيين أوفدهما العادل الى البندقية، بأنه لن يساند كل حملة توجه الى مصر (١).

ليس من المحقق ما اذا كان الصليبيون ادركوا براعة دبلوماسية البنادقة، على انه إذ ارتاب احدهم في انهم تعرّضوا للخداع، فليس ثمة ما يصح اجراؤه، إذ أن معاهدة الصليبيين مع البنادقة جعلتهم في

---

(١) انكر هوبف المعاهدة المؤرخة في ١٣ مايو سنة ١٢٠٢، دون ان يورد المصادر. انظر:
Hopf, Geschichte Griechenlands, I, p. 118.
اما ارنول فانه رجح حدوث مفاوضات بين البندقية والسلطان وقتذاك. ولا داعي للافتراض بأنه اختلق هذه القصة، ولعله استمدها من البنادقة في سوريا. انظر:
Ernoul, pp. 345 - 346.
ويشير فيلهاردوين الى العيوب الناجمة عن الحملة. انظر:
Villehardouin, I, pp. 52 - 54.

قبضتهم ، فلم يكن بوسعهم ان يؤدوا للبنادقة ما سبق ان وعدوهم به من المـال ، وقدره خمسة وثمانون الف مارك . ولم يحل شهر يونيه سنة ١٢٠٢ حتى احتشد الجيش الصليبي ، غير ان جمهورية البندقية لن تقدّم السفن ما لم يتمّ الدفع على الفور . وإذ أقام الصليبيون معسكرهم على جزيرة صغيرة اسمها سان نيقولو دي ليدو ، وأزعجهم التجار البنـادقة الذين تقاطروا عليهم ملحّين في ان يسددوا مـا عليهم من ديون ، ويهددونهم بقطع المؤن عنهم ، مـا لم يؤدوا المال المطلوب ، لم يسعهم إلا أن يعلنوا استعدادهم في سبتمبر سنة ١٢٠٤ لقبول كل ما تعرضه عليهم البندقية من شروط . وكان بونيفاس مستعداً فعلاً للتعاون مع البنادقة ، بعد ان لحق بالصليبيين في الصيف اثر زيارة للبابا في روما لم تكن موفقة . والمعروف ان الحرب ظلت سجـالاً بين جمهورية البندقية وملك المجر ، في عشرات السنوات الماضية ، من اجل السيطرة على دالماشيا ، وقد انتقلت منذ زمن قريب ، مدينتها الرئيسية ، زارا الى حوزة المجريين . فجرى اخطـار الصليبيين بأنهم اذا اشتركوا في حملـة تمهيدية لاستعادة زارا ، فسوف تستأنف الحملة سيرها ، وتؤجل تسوية الديون . ولم يكد البابا يسمع بهذا العرض ، حتى ارسل على الفور الى الصليبيين يمنعهم من قبوله . غير انـه مهما احس الصليبيون بما ارتبط بهذا العرض من الناحية الخلقية ، لم يسعهم أن يقبلوه [١] .

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 58 - 66.
Robert of Clary, pp. 9 - 11.

زارا تتعرض للنهب سنة ١٢٠٢ :

الواقع انــه تمّ الاتفاق من وراء الستار بــين بونيفاس مونتفيرات ، الذي لم يكن عنــده إلا حظ ضئيل من الوازع المسيحي ، وبين دوج البندقية انريكو داندولو . ومع أن انريكو كان رجلاً طاعناً في السن ، فان التقدم في العمر لم يطفىء فيــه جذوة النشاط والطموح ، إذ توجّه قبل ثلاثين سنة في سفارة الى القسطنطينية ، حيث انغمس في شجــار عنيف وقع بها ، أدى الى ان يفقد بصره . ومــا تلى ذلك من كراهيته لبيزنطة ، لم تلبث ان ازدادت مرارة عقب توليــه منصب دوج سنة ١١٩٣ ، نظراً لما صادفه من صعوبة في الحصول من الامبراطور الكسيوس الثالث على موافقة بتجديد ما سبق للأمبراطور اسحاق بذله للبندقية من امتيازات تجارية . ولذا كان داندولو مستعداً لأن يناقش مع بونيفاس الخطط التي ترمي الى توجيه حملة لمهاجمة القسطنطينية . غير انه لا بد في الوقت الراهن من المحافظة على ما للحملة الصليبية من مظهر خادع . ولم تكد تتم الموافقة على شن هجوم على زارا ، حتى جرى قداس ديني في كاتدرائية القديس مرقص بالبندقية ، حيث اتخذ الدوج وكبار مستشاريه الصليب في وسط مظاهرة (١) .

---

(١) انظر :

Villehardouin, I, pp. 66 - 70.
Robert of Clary, pp. 10 - 12.
Diehl, Une République Patricienne, Venise, pp. 47 - 48.
Vasiliev, op. cit. pp. 452 - 453.

أقلع الاسطول من البندقية في ٨ نوفمبر سنة ١٢٠٢ ، فبلغ زارا بعد يومين ، ولم تلبث المدينة ، بعد ان تعرّضت لهجوم عنيف ، ان استسلمت في ١٥ نوفمبر ، فاستباحها العساكر . ثم نشب القتال ، بعد ثلاثة ايام ، بين البنادقة والصليبيين أثناء اقتسام الغنيمة ، غير ان السلام لم يلبث ان التأم ، وعندئذ قرر الدوج وبونيفاس ان الوقت أضحى من التأخير في تلك السنة ، ما يتعذر معه المخاطرة بالمسير الى الشرق ، فاستقرّت الحملة في زارا طوال فصل الشتاء ، بينما عمد قادتها الى إعداد عملياتهم الحربية المقبلة [1] .

ولما بلغت روما أنباء نهب زارا ، ارتاع البابا انوسنت الثالث ، إذ انه لم يقرّ مطلقاً استخدام حملة صليبية لمهاجمة أملاك احد أبنـــاء الكنيسة المخلصين ، بعد تحدّي اوامره . فأصدر قراراً بقطع الحملة كلها من الكنيسة . ولما أدرك أن الصليبيين لم يكونوا سوى ضحية لما حدث من التشهير ، عفا عنهم ، غير أنه أبقى على قرار حرمان البنادقة [2] . لم ينزعج داندولو لما حدث ، إذ ظل على اتصال عن طريق بونيفاس ، بزميله في قرار الكنيسة بالحرمان ، فيليب دوق سوابيا . وفي اوائل سنة ١٢٠٣ قـدم الى زارا رسول من المانيا من قِبل فيليب الى بونيفاس يحمل اليه عرضاً محدداً من صهره الكسيوس ، بأنـه اذا توجهت الحملة الصليبية الى القسطنطينية ،

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 76 - 90.
Robert of Clary, pp. 12 - 14.

(٢) انظر : Innocent III, letters *V*, 161, 162, *VI*, 99 - 102, (M. P. L. vol. CCXIV, cols. 1178, 1182, vol. CCXV, cols. 103 - 110).
Villehardouin, I, pp. 104 - 108.

وجعلت الكسيوس على عرش الامبراطورية بها ، فعندئذ يتكفل الكسيوس بأن يؤدي للصليبيين ما زالوا يدينون به من أموال للبنادقـة ، وسوف يمدهم بمـا يلزم لفتح مصر من المال والمؤونة ، وسوف يضيف اليهم فرقة من الجيش البيزنطي مؤلفة من عشرة آلاف رجل ، وسوف يتولى الانفاق على خمسمائة فارس ، يقيمون بالارض المقدسة ، وسوف يكفل خضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما . ورفع بونيفاس الامر الى داندولو الذي أعرب عن فرحه وارتياحه ، إذ ليس لذلك معنى سوى ان البندقية سوف تحصل على أموالها ، وفي الوقت ذاته سوف تذل اليونانيين ، وتمـدّ امتيازاتها التجارية وتوطدها في أنحاء الامبراطورية البيزنطية . أما الاعتداء على مصر فمن اليسير درؤه فيما بعد[١] .

ولمـا جرى عرض الاقتراح على الصليبيين ، لم يخالفـه إلا عدد قليل منهم ، مثل رينالد مونتميرايل الذي أدرك أنهم لم يتخذوا الصليب إلا ليقاتلوا المسلمين ، ولم يرَ ما يدعو الى تأجيل آخر للحملة ، فتخلى هؤلاء المعارضون عن الحملة ، وأبحروا الى سوريا . وبقيت فئة اخرى مع الجيش ، أعلنت احتجاجها ، بينما أسكت فئة ثالثة ما بذله البنادقة لهم في الوقت المناسب من الرشاوى . على ان سائر الصليبيين جرى تلقينهم الاعتقاد بأن بيزنطة ظلت باستمرار خائنة للعـالم المسيحي طوال الحروب المقدسة .

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 90 - 100.

أشار فيلهاردوين في موضع سابق الى مـا دار من مفاوضات بين الكسيوس والصليبيين في البندقية . انظر : Villehardouin, I, pp. 70 - 74.

فأضحى يعتبر من الأعمـال الحكيمة الجديرة بالشرف ، إلزامها منذ الآن بالتعـاون مع الصليبيين . أما الرجال الأتقياء بالجيش فانهم اغتبطوا لأن يسهموا في سياسة تؤدي الى إعادة اليونانيين المنشقين الى حظيرة الكاثوليكية . بينما فكر رجال الدنيا بالجيش في كنوز القسطنطينية وأقاليمها الـتي اشتهرت بالرخاء ، وتطلعوا الى الامل في استباحتها ونهبها . كما ان بعض البارونات ، ومنهم بونيفاس نفسه ، ازداد تطلعهم الى ما هو أبعـد من ذلك ، ولعلهم قدروا ان ما يقع على شواطىء بحر ايجه من الضياع تفوق في استهوائها لهم كل ما يصح ان يصادفوه منها في بلاد الشام التي حلت بها الاضرار . فما كان الغرب يكنه منذ زمن طويل من كراهية للعـالم المسيحي في الشرق ، هيأ لداندولو وبونيفاس الفرصة لأن يحملا الرأي العام على مساندتها[1] .

لم يتضاءل قلق البابا على الحملة الصليبية حينما سمع بما اتخذته من قرار . فمـا جرى من خطة بين البنادقة وأصدقاء فيليب دوق سوابيا ، ليس من الراجح ان تفيد الكنيسة . يضاف الى ذلك انه سبق للبابا ان اجتمع بالكسيوس الصغير ، فتبين له انه ليس إلا شاباً تافهاً . غير ان الوقت قد فات ، فلم يعد بوسعه ان يتقدم باحتجاج قوي . فـاذا كان المقصود فعلاً

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 100 - 104.
Robert of Clary, pp. 14 - 15.
Hugh of Saint Paul, letter in Chronica Regia Coloniensis, p. 205.
ورد في هذه الرسالة ان كل الصليبيين على وجه التقريب كانوا يودون المضي الى فلسطين ، غير انهم اضطروا كارهين الى قبول فكرة داندولو وبونيفاس .

من تحول الحملة الى القسطنطينية ، الحصول من بيزنطة على مساعدة قوية لقتال المسلمين ، وتحقيق اتحاد الكنيستين في الوقت ذاته ، جاز بذلك تبرير هـــذا التحول . فاكتفى البابا بأن اصدر امراً ، بأنه ينبغي ألا يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين ، إلا اذا كانوا فعلاً يعوقون الحرب المقدسة . كان خيراً له في المــدى البعيد ان يعلن رفضه صراحة وبصفة قاطعة ، ولو لم يكن له قيمة . اما اليونانيون الذين كانوا دائماً يرتابون في نوايا البابا ، ويجهلون تعقيدات السياسات الغربية ، فانه تراءى لهم ان ما اصدره البابا من قرار حرمان هزيل يعتبر دليلاً على انه كان من وراء كل المؤامرة [1] .

---

(١) انظر : Gesta Innocentii III, loc. cit. cols. 130 - 132.

انظر ايضاً رسالة البابا انوسنت الثالث الى الامبراطور الكسيوس ، الواردة في :

(M. P. L. vol. CCXIV, cols. 1123 - 1125.)

ورسالته الى ايبرارد رئيس اساقفة سالزبرج ، الواردة في :

Registrum de Negotio Romani Imperii LXX, (M. P. L. vol. CCXVI, cols. 1075 - 1077).

اذ تحدث فيها عن الحاجة الى التفكير في هذه الامور . والراجح ان فيليب دوق سوابيا كان يعلم بمشروع مهاجمة زارا ، اذ انه ارسل الكاردينال بطرس اسقف كابوا برفقة الزعماء الصليبيين كيما يحصلوا من البابا على تأييد لألكسيوس ، في وقت لا تتهيأ فيه الاجابة اذا مضت الحملة مباشرة الى الشرق . انظر : Bréhier, Les Croisades, p. 155.

The Novogorod Chronicle, (ed. Lasonov, p. 241).

Chronica Regia Coloniensis, p. 200.

ورد في تاريخ نوفجورود ان البـــابا ساند الخطة التي تقضي بمهاجمة القسطنطينية ، بينما اشار المصدر الآخر (Chronica) الى ان البابا رفع قرار الحرمان عن الصليبيين الذي سبق ان اصدره بسبب مهاجمتهم زارا ، وذلك حينما قرروا المضي الى القسطنطينية .

الحملة الصليبية تقلع الى القسطنطينية سنة ١٢٠٣ :

وصل الكسيوس الى زارا قادماً من المانيا ، وبعد بضعة ايام اقلعت الحملة ، بعد ان توقفت فترة من الزمن في دورازو ، حيث تم الاعتراف بالكسيوس امبراطوراً ، ثم وصلت الى كورفو ، حيث ابرم الكسيوس معاهدة مع حلفائه . وفي ٢٥ مايو تقرر استئناف الرحلة ، فطاف الاسطول حول شبه جزيرة البيلوبونيز ، ثم اتجه صوب الشمال الى جزيرة اندروس ، فامتلأت صهاريجه من مياه الينابيع الوفيرة بالجزيرة ، ثم اتخذ الاسطول طريقه من جزيرة اندروس الى الدردنيل ، فألفاه مجرداً من اسباب الدفاع . وإذ تصادف نضوج محصول تراقيا ، رسا الصليبيون في ابيدوس كيا يجنوا ما شاءوا من المحصول ، وفي ٢٤ يونيه اضحوا امام عاصمة الامبراطورية (القسطنطينية) [1] .

لم يتخذ الامبراطور الكسيوس الثالث تدابير لمنع وصولهم . إذ أن الجيش الامبراطوري لم ينهض من الكوارث التي حلّت به في السنوات الاخيرة من عهد مانويل . وكاد الجيش الامبراطوري ان يكون جميعه من المأجورين . والواضح ان وحدات الفرنج لا يصح الركون اليها في هذه

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 110 - 128.
Robert of Clary, pp. 30 - 40.
Anonymous of Halberstadt, in Riant, Exuviae I, pp. 14 - 15.
Devastatio Constantinopolitana, (ed. Hopf, pp. 88 - 89.
Nicetas Choniates, p. 717.

اللحظة ، اما الوحدات الصقلبية والبجناكية فان الثقة فيها تتوقف على ما يؤدى اليها على الفور من المال الجاهز. والمعروف ان حرس الورنك الذي اضحى وقتذاك يتألف اساساً من الانجليز والدانمرقيين ، ما زال على ولائه التقليدي لشخص الامبراطور . غير ان الكسيوس الثالث لم يكن الرجل الذي يوحي بما للحرس من تقليد الولاء لشخص الامبراطور . إذ كان مغتصباً لم يظفر بالعرش عن جدارة بأن كان جندياً او من رجال السياسة ، بل ارتقى العرش بما حدث بالبلاط من مؤامرة حقيرة ، ودلّ على انه ليس كفئاً لممارسة الحكم. لم يكن مطمئناً الى جيشه ، ولا واثقاً في الشعور العام لرعاياه ، وتراءى له انه من الخير ألا يفعل شيئاً. سبق ان تعرضت القسطنطينية لعواصف عنيفة في القرون التسعة السالفة من تاريخها ، ولا شك ان بوسعها ان تجتاز عاصفة اخرى .

وإذ لم ينجح الصليبيون فيما شنوه من هجوم على خلقيدونية وخريصبولي (سكودري) على الشاطىء الآسيوي للبوسفور ، هبطوا في غَلطَه ، عبر القرن الذهبي ؛ فاحتلوا البلد ، واستطاعوا ان يحطموا السلسلة التي تعترض مدخل القرن الذهبي ، وأن يرسوا سفنهم بالميناء. واستطاع الكسيوس الصغير أن يحمل الصليبيين على الاعتقاد بأن كل بيزنطة سوف تنهض للترحيب به . واستبدت الدهشة بالصليبيين حين اكتشفوا ان كل ابواب المدينة أغلقت دونهم ، وأن العساكر البيزنطية رابطوا على الاسوار. وحبطت المحاولات الاولى التي جرت من سفن الصليبيين لمهاجمة الاسوار على امتداد القرن الذهبي . على ان داندولو والبنادقة نجحوا بعد قتال عنيف في ١٧ يوليه في ان يحدثوا ثغرة بالأسوار . وكان الكسيوس الثالث يفكر فعلاً في الفرار ، على الرغم من انه دهش مثلما دهش الصليبيون حين اكتشف ما جرى من الدفاع عن مدينته . ذلك انه طالع في الانجيل كيف ان داود

هرب امـــام ابشالوم ، وبذا تهيأت له الحياة كيما يستعيد عرشه [1] .
واصطحب الكسيوس الثالث ابنته الاثيرة عنده ، وحمل حقيبة امتلأت بالأحجار الكريمة ، وتسلل من الاسوار البرية ، ثم لجأ الى موزينوبوليس في تراقيا . فلما لم يعد بالعاصمة امبراطور ، بادر موظفو الحكومة باتخـــاذ قرار دلّ على الدهاء ، بأن اطلقوا سراح الامبراطور السابق الضرير ، اسحاق ، ونصبوه على العرش ، وأعلنوا لداندولو والصليبيين انه لا حاجة للمضي في القتال ، بعد ان عاد الى العرش والد الكسيوس الصغير المطالب بالحكم . على ان الكسيوس الصغير ظل حتى وقتذاك ينكر وجود ابيه ، فلم يعد بوسعه الآن ان يتجاهله . وحثّ حلفـــاءه على وقف الهجوم ، فأنفذوا بـدلاً من ذلك سفارة الى داخل المدينـة ، اعلنت انهم سوف يعترفون بأسحاق امبراطوراً ، اذا تقرر جعل ابنـه الكسيوس الصغير قسيماً له في الحكم ، وإذ احترم الاثنان المعاهدة التي سبق ان عقدهـا الكسيوس الصغير . وفي اول اغسطس ، وإذ جرت مراسيم الصلاة بكنيسة القديسة صوفية ، بحضور كبار البارونات الصليبيين ، تم تتويج الكسيوس الرابع قسيماً لأبيه الامبراطور [2] .

---

(١) انظر : العهد القديم – سفر الملوك الثاني ١٥ : ١ – ١٢ .

(٢) انظر : Nicetas Choniates, pp. 718 - 726.

اورد خونياتس رواية مسهبة عن وجهة النظر اليونانية .

Villehardouin, I, pp. 154 - 184.

اورد فيلهاردوين أوفى رواية تمثل وجهة نظر الصليبيين .

Robert of Clary, pp. 41 - 51.

Anonymous of Halberstadt, pp. 15 - 16.

Devastatio Constantinopolitana, pp. 89 - 90.

Chronica Regia Coloniensis, pp. 203 - 208.

اثبت رسالة هيو سانت بول .

الكسيوس الصغير اضحى امبراطوراً سنة ١٢٠٣ :

لم يلبث الكسيوس الرابع ان اكتشف انه ليس للأمبراطور ما للمطالب بالحكم ، ان يتخلى عن المسئولية . فما بذله الكسيوس الرابع من محاولة لإرغام رجال الدين بالمدينة على ان يقبلوا سيادة روما ، وأن يدخلوا في طقوسهم الشعائر اللاتينية صادقت مقاومة عنيفة . ولم يتيسر له ايضاً ان يجبي ما سبق ان وعد الصليبيين به من اموال . واستهل حكمه باندفاعه في اغداق الهدايا الوافرة على قادة الصليبيين ، فأثار بذلك نهمهم ، غير انه حين تحتم عليه أن يسلّم البنادقة المال الذي حان الموعد الذي ينبغي على الصليبيين فيه ان يؤدوه ، لم يكن بالخزانة من الاموال ما يكفي لتسديده . وعندئذ اعلن الكسيوس فرض ضرائب جديدة ، يضاف الى ذلك انه اثار غضب الكنيسة بأن صادر كميات ضخمة من الاواني الكنسية وأمر بسبكها وبذلها للبنادقة . وأخذ جو المدينة طوال خريف وشتاء سنة ١٢٠٣ يزداد حدة وتوتراً . وضاق سكان المدينة ذرعاً بمنظر فرسان الفرنج المتغطرسين ، يجوسون بخيولهم شوارع مدينتهم . وتوقفت الحركة التجارية ، ودأبت جماعات من عساكر الغرب السكارى على نهب القرى بضواحي المدينة ، فلم يعد الناس يأمنون على انفسهم خارج اسوار المدينة (القسطنطينية) . وأتى حريق مروع على حي بأكمله بالمدينة ، حينما عمد بعض الفرنسيين ، بدافع التقوى ، الى اشعال الحريق بمسجد يؤمه التجار المسلمون القادمون الى المدينة . ولم يكن الصليبيون بأقل سخطاً من البيزنطيين ، إذ ادركوا آخر الامر انه ليس بوسع الحكومة البيزنطية ان توفي بما بذله الكسيوس الرابع من وعود . فما سبق ان عرضه من رجال وأموال لم تعُد في متناول ايديهم . ولم يلبث الكسيوس نفسه ان تخلى

عن الجهد الذي لا امل فيه لمحاولة ارضاء ضيوفه (الصليبيين) ، فدعاهم الى حفلة طارئة ، اقامها بالبلاط ، وبفضل مساعدتهم قام بنزهة عسكرية قصيرة ، هاجم اثناءها عمه الكسيوس الثالث في تراقيا ، ثم لم يلبث ان عاد الى القسطنطينية ليحتفل بما أحرزه من انتصار في اشتباك صغير . اما بقية ايامه ولياليه فأمضاها في مباذله الخاصة . وإذ كان ابوه ضريراً لا يستطيع ان يشترك في حكومة البلاد ، عاش في عزلة مع بعض المنجمين المقربين له ، الذين دعت نبوءاتهم ألا يطمئن الى المستقبل ، وكان لا مفر من حدوث شقاق صريح ، وبذل داندولو كل جهده للتعجيل بهذا الشقاق ، بما تقدم به من مطالب غير معقولة [1] .

لم يصلح فيما يبدو للسيطرة على الامور بالقسطنطينية إلا رجلان ، كانا من اصهار الكسيوس الثالث ، الامبراطور السابق ، اولهما ، وهو ثيودور لاسكاريس ، زوج الاميرة أنّه ، وكان جندياً لامعاً ، سبق ان قام بتنظيم اول دفاع ازاء اللاتين ، غير انه لجأ الى العزلة ، بعد فرار صهره (الكسيوس الثالث) ، اما الرجل الثاني فهو الكسيوس مورتسوفلوس ، زوج ايدوسيا ابنة الكسيوس الثالث ايضاً ، فانه اتخذ اتجاهاً مخالفاً ، بأن سعى لينال الحظوة عند الكسيوس الرابع ، فحاز لقب امين الامبراطور . وجعل نفسه زعيم الوطنيين . وهو الذي دبّر ، فيما يبدو ،

---

(١) انظر :
Nicetas Choniates, pp. 736 - 738.
Villehardouin, I, pp. 186 - 206.
Robert of Clary, pp. 57 - 58.
Devastatio Constantinopolitana, pp. 90 - 91.

ما وقع في يناير سنة ١٢٠٤ من فتنة ، كما يثير خوف الكسيوس الرابع من العرش . ولم يكن لهذه الثورة من نتائج مادية ، سوى تحطيم التمثال الضخم للآلهة اثينا ، الذي صنعه فيدياس ، والذي انتصب في السوق ، مواجهاً الغرب . وقـام جماعة من الرعاع السكارى بتدمير التمثال ، لأن اثينا كانت فيما يبدو تدعو الغزاة (١) .

وقوع ثورة في القصر سنة ١٢٠٤ :

قدم وفـد من الصليبيين في فبراير سنة ١٢٠٤ الى قصر بلاشرنا ، وطلب من الكسيوس الرابع المبادرة الى الوفـاء بوعوده ، فلم يسعه إلا الاعتراف بعجزه ، وكاد الجمهور الغاضب ان يمزق اعضاء الوفد ارباً ، عند خروجهم من قاعة الاستقبال بالقصر ، فاندفع الرعاع الى كنيسة القديسة صوفيه ، فأعلنوا بهـا عزل الكسيوس الرابـع ، واختاروا مكانه نبيـلا مغموراً ، اسمه نقولا كانابوس ، الذي تصادف حضوره بالكنيسة ، فحاول التخلص من هذا الشرف . وعندئذ أغار مورتسوفلوس على القصر ، وما من احد حاول ان يدافع عن الكسيوس الرابـع ، الذي جرى القـاؤه بالسجن ، حيث لقي مصرعه ، ولم يستحق ان يبكيه احد من النـاس . ولم تمض إلا بضعة ايام حتى توفي والده اسحاق كمداً وحزنـاً ، بعد ان

---

(١) انظر :
Nicetas Cheniates, pp. 738 - 747.
Villehardouin, II, pp. 6 - 23.
Robert of Clary, p. 57.
Devastatio Constantinopolitana, p. 91.

تعرّض لمعاملة بالغة السوء ؛ بينما ألقى في السجن الامبراطور الطيف ، كاناBوس ، فتولى العرش مورتسوفلوس ، واتخذ اسم الكسيوس الخامس[1].

والواقع ان ثورة القصر ليست إلا تحدياً مباشراً للصليبيين ، وقد ظل البنادقة زمناً طويلاً يلحون عليهم ، بأنه ليس ثمة إلا اجراء عملي وحيد ، وهو الذي يقضي بالاستيلاء عنوة على القسطنطينية وتنصيب امبراطور من الغرب . فأضحى لنصيحتهم وقتئذ فيما يبدو ما يبررها . غير أنه ليس من السهل اختيار امبراطور . وظلت المناقشة دائرة في معسكر غلطة طوال شهر مارس . إذ ألحت طائفة من الصليبيين على اختيار فيليب دوق سوابيا ، حتى تتحد الامبراطوريتان . غير ان فيليب يقيم بعيداً ، كما انه كان مقطوعاً من الكنيسة ، فضلاً عن نفور البنادقة من فكرة قيام امبراطورية واحدة قوية . وكان بونيفاس مونتفيرات هو المرشح الظاهر ، غير انه لا بد ايضاً من الادراك ان البنادقة لن يوافقوا عليه ، برغم ما كانوا يبدونه دائماً نحو بونيفاس من مظاهر المحبة ؛ إذ أن بونيفاس غلب عليه من الطموح ما يتعارض مع ميول البنادقة . يضاف الى ذلك ما كان له من صلات مع الجنويين . فتقرر آخر الامر ان تتولى هيئة مؤلفة من ستة من الفرنج ، وستة من البنادقة اختيار الامبراطور ، عقب الاستيلاء على القسطنطينية . فاذا وقع الاختيار على احد الفرنج ليكون امبراطوراً ،

---

(١) انظر :

Nicetas Choniates, pp. 738 - 747.
Villehardouin, II, pp. 6 - 23.
Robert of Clary, pp. 58 - 59.
Devastatio Constantinopolitana, p. 92.

ويعتبر ذلك فيما يبدو احسن اختيار ، فلا بدّ ان يختار احـــد البنادقة بطريركاً . ولا بد للامبراطور ان يحوز القصر الامبراطوري الكبير ، وأن يجعل قصر بلاشيرنا مقرّاً لإقامته ، وأن يكون له ربـع المدينة والامبراطورية . أما البقية ، وهي ثلاث ارباع المدينة والامبراطورية ، فإن نصفها يؤول للبنادقة ، ويكون النصف الآخر من نصيب الفرسان الصليبيين ، يقسم بينهم إقطاعات . وينبغي على كل حائزي الاقطاعات باستثناء الدوج ان يحلفوا يمين الولاء للامبراطور . وبذا تجري كل الامور من اجل « الله ، والبابا ، والامبراطور » . أما الادعاء بأن تمضي الحملة بعدئذ لقتال المسلمين فتقرر صراحة التخلي عنه [١] .

اشتهر الكسيوس الخامس بأنه امبراطور شديد البأس ، ولكنه لم يكن محبوباً . عزل من الوزراء كل من اعتقد انه غير موال له ، ومنهم المؤرخ نكيتاس خونياتس الذي تجلى انتقامه لنفسه فيما كتبه عنه في تاريخه . وجرت بعض المحاولات لإصلاح أسوار المدينة وإعـــداد السكان للدفاع عنها . غير ان الثورات المستمرة أفسدت أخلاق حراس المدينة ، ولم تتهيأ الفرصة لجلب عساكر من الأقاليم ، كما انه كان بداخل المدينة خونة تقاضوا أموالاً من البنادقة . وأول هجوم شنّه الصليبيون في ٦ أبريل ، ارتد على أعقابه ، وتكبّد الصليبيون فيه خسائر فادحة . ثم عاود الصليبيون بعد ستة ايام هجومهم ، فاشتدّ القتال على القرن الذهبي ، حيث فشلت السفن اليونانية في محاولتها منع اسطول البنادقة من إنزال العساكر الى البر أسفل

---

(١) انظر : Villehardouin, II, pp. 34 - 36.
Robert of Clary, p. 68.
Andrea Dandolo, Chronicle, (ed. Pastorello), p. 279.

الأسوار . أما الهجوم الرئيسي فتوجه الى حي بلاشيرنا ، حيث امتدت الأسوار البرية الى القرن الذهبي ، وفي هذا الموضع حدثت ثغرة في السور الخارجي . وظلّ المدافعون صامدين في السور الداخلي ، حتى حدث ، إما بطريق الصدفة وإما بطريق الخيانة ، ان اندلعت النيران في المدينة من ورائهم ، فحصرتهم . فانهار دفاعهم ، وتدفق على المدينة الفرنج والبنادقة . وهرب مورتسوفلوس وزوجته ، بأن التزما الأسوار حتى القرن الذهبي ، قرب بحر مرمرة ، ومن ثم توجها الى تراقيا ، حيث التمس مورتسوفلوس له مأوى عند صهره في موزينوبوليس . ولما شاع أمر فرار مورتسوفلوس اجتمع من تبقى من النبلاء في كنيسة القديسة صوفية ، فعرضوا التاج على ثيودور لاسكاريس ، غير ان الوقت قـــد فات ، لإنقاذ المدينة ، فرفض ثيودور هذا الشرق الأجوف . ثم قدم مع البطريرك الى مفرق الطرق في الميدان ، الواقع بين الكنيسة والقصر الكبير ، وتحدثا في تأثر شديد الى حرس الورنك ، فأخطرا الحرس ، بأنهم لن يصيبوا شيئاً اذا تمّ الاستسلام للسادة الجدد ، غير ان روح الحرس المعنوية تحطمت ، وانهم لن يقاتلوا من جديد . وعندئذ تسلل ثيودور وزوجته والبطريرك مع عدد كبير من النبلاء ، الى ميناء القصر ، فاستقلوا السفينة الى آسيا [1] .

---

(١) انظر :
Nicetas Choniates, pp. 748 - 756.
Villehardouin, II, pp. 32 - 50.
Robert of Clary, pp. 60 - 79.
Gunther, pp. 91 - 94, 100 - 104.
Devastatio Constantinopolitana, p. 92.
Ernoul, pp. 369 - 373.
Novgorod Chronicle, pp. 242 - 245.
انظر ايضاً رسالة بلدوين الواردة في : R. H. F. vol. XVIII, p. 522.

لم يحدث إلا قتال ضئيل في الشوارع ، حين اخذ الغزاة يشقون طريقهم في داخل المدينة . وفي صبيحة اليوم التالي استقر الدوج وكبار الصليبيين في القصر الكبير ، وجرى اخطار عساكرهم بأن لهم ان يستبيحوا المدينة ثلاثة ايام .

نهب القسطنطينية سنة ١٢٠٤ :

ليس لنهب القسطنطينية مثيل في التاريخ ، إذ ظلت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للمدنية المسيحية . فزخرت بما تخلف عن بلاد اليونان القديمة من الاعمال الفنية ، وحفلت بما اجراه صناعها المهرة من الروائع . والواقع ان البنادقة ادركوا قيمة هذه الاشياء ، فاستولوا ، كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، على الكنوز ، ونقلوها الى مدينتهم ، فزينوا بها الميادين والكنائس والقصور . أما الفرنسيون والفلمنكيون فتسلطت عليهم الشهوة للتدمير ، فاندفعوا كالرعاع المسعورة يجوبون الشوارع ، ويغشون الدور ، ينتزعون كل ما يتلألأ ويلمع ، ويدمرون كل ما لم يستطيعوا حمله ، ولم يتريثوا إلا لكي يقتلوا او ينهبوا ، او يقتحموا مستودعات النبيذ لينتشوا منها . ولم يفلت من التخريب ، الأديرة والكنائس والمكتبات . بل حدث في كنيسة القديسة صوفية ذاتها ، ان جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية ، ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة ، وداسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والايقونات . وبينما كانوا يتناولون الشراب في اواني المذبح مبتهجين ، تربعت عاهرة على كرسي البطريرك ، وأخذت تردد اغنية فرنسية بذيئة . وتعرّضت الراهبات للاغتصاب في اديرتهن . ولم تجر التفرقة بين القصور والاكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمير . وأخذ الجرحى من النساء والاطفال يلفظون انفاسهم في الشوارع . وظلت مناظر النهب وسفك

الدماء المريعة مستمرة ثلاثـــة ايام ، حتى اضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم . وهتف المؤرخ نكيتاس في صدق ، ان المسلمين لأكثر منهم رحمة (١) .

أدرك اللاتين آخر الامر ان هذا التدمير لم يكن في صالح احد من الناس . ولم يعد الأمن الى نصابه إلا حينما أرهقهم سوء استخدام الحرية . فكل مَن سرق تحفـة ثمينة ، أُرغم على ان يتنازل عنها لنبلاء الفرنج ، وتعرّض تعساء الحظ من السكان للتنكيل والتعـذيب حتى يكشفوا عن

---

(١) انظر : Nicetas Choniates, pp. 757 - 763.

Nicolas Mesarites, in Heisenberg, Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaisertum, I, pp. 41 - 48.

Cotolerius, Ecclesiae Graecae Monumenta, III, pp. 510 - 514.

(اورد رسالة الاكليروس اليونانيين) .

M. P. L. vol. CCXV, cols. 699 - 702 — letter *VIII*, 126.

(رسالة موجهة الى البابا انوسنت اوردت بالتفصيل ما وقع من مظاهر الرعب في القسطنطينية).

Villehardouin, II, pp. 52 - 58.

Robert of Clary, pp. 68 - 69, 80 - 81.

Gunther, pp. 104 - 108.

Ernoul, pp. 374 - 376.

Novgorod Chronicle, pp. 245 - 246.

انظر رسالة بلدوين التي سبق الاشارة اليها . على ان اكثر ما ارتاع له المؤرخون اللاتين ما اقدم عليه الصليبيون من النهب والتخريب ، لا مـا اتصفوا به من القسوة . ويعترف جونثر ان مارتن رئيس دير بايريس نفسه كان حريصاً على ان ينـال نصيبه من الغنيمة . ويعتبر ارنول ان البنادقة كانوا اشد الناس اسرافاً في النهب . ويشير ابو شامة الى ان البنادقة باعوا قدراً كبيراً من الغنيمة للمسلمين . انظر : Abu Shama, II, p. 154.

السلع التي عمدوا الى إخفائها . وعلى الرغم من ان قدراً كبيراً من الغنيمة تعرّض للدمار ، فان كميتها لا زالت بالغة الضخامة . كتب فيلهاردوين : ليس بوسع احد ان يحصي الذهب والفضة ، ولا الصحون والجواهر ، ولا الثياب الحريرية الثقيلة ، او المنسوجات الحريرية ، او الثياب المصنوعة من فراء الفندس ، او الفراء الرمادي الفضي ، او فراء السنجاب . وأضاف : انه منذ خلق الله العالم ، لم ينزع من مدينة واحدة ، وفقاً لمصدره الموثوق به ، من الاشياء مثلما أخذ من القسطنطينية . وتقرر تقسيم كل هذه الغنيمة وفقاً لأحكام المعاهدة ، بأن صار للصليبيين ثلاث أثمانها ، وللبنادقة ثلاث أثمانها ، بينما صار الربع من نصيب الامبراطور المقبل[1] .

تتويج بلدوين كونت فلاندر امبراطوراً سنة ١٢٠٤ :

كان الأمر الثاني هو انه لا بدّ من اختيار امبراطور . فلا زال بونيفاس مونتفيرات يأمل في ان يتم انتخابه . ولتعزيز مركزه ، انقذ الامبراطورة مرجريت ، ارملة اسحاق الهنغارية ، ولم يلبث ان تزوجها ، غير انه لم يكن من الطراز الذي يقبله البنادقة . وبفضل نفوذهم ، جرى بذل العرش لأمير لم يتعرّض لما تعرّض له بونيفاس من الجدل والنقاش ، وهو بلدوين التاسع ، كونت فلاندر وهينولت ، الذي ينتمي الى اسرة عريقة النسب وفيرة الثروة ، غير انه كان اضعف من بونيفاس وأكثر ليناً وانقياداً منه ، على ان لقبه سوف يكون اعظم شأناً من سلطته الفعلية . والواقع انه

---

(١) انظر : Villehardouin, II, pp. 59 - 60. Robert of Clary, pp. 80 - 81.

كان لا بدّ ان يكون سيداً أعلى لكل ما فتح من البلاد ، مع الاستثناء المشئوم للأراضي التي اختص بهـــا دوج البندقية . والمفروض ان تشمل املاكه الشخصية تراقيا حتى كورلو ، وبثينيا وميسيا حتى جبل اوليمبوس ، ومن جزر بحر ايجه امثال ساموتراكي ، وليسبوس ، وخيوس ، وساموس ، وكوس . أما عاصمته فليس مقرراً ان تكون ملكاً له ، لأن البنادقة زعموا لأنفسهم الحق في ثلاث اثمـان القسطنطينية وحازوا شطرها الذي يضم كنيسة القديسة صوفيه ، حيث تمّ تنصيب احد البنادقة ، وهو توماس موروسيني بطريركاً . يضاف الى ذلـك انهم طالبوا بإجزاء الامبراطورية التي سوف تسهم في سيادتهم البحرية ، كالسواحل الغربية لبلاد اليونان ذاتها ، وشبه جزيرة البيلوبونيز بأكملها ، وناكسوس ، وأندروس ، ويوبويا ، وغاليبولي حتى موانىء تراقيا الواقعة على بحر مرمرة ، وأدرنه . وعرضوا على بونيفاس ، تعويضاً له عن ضياع العرش منه ، املاكاً ليست محددة في بلاد الاناضول ، وشرقي بلاد اليونان ووسطها ، وجزيرة كريت . ولمـــا لم يكن لبونيفاس رغبة في المضي الى فتح بلاد في آسيا ، طلب عوضاً عنها مقدونياً وسالونيك . تردد بلدوين اول الأمر ، غير ان الرأي العام أيـد بونيفاس ، ولا سيا حين عرض دعوى الوراثة المستمدة من اخيه رابنييه، الذي سبق ان تزوج ماريا بورفيروجنيت ، وكسب جانب البنادقة بـأن باعهم جزيرة كريت . فأضحى بونيفاس ملكاً على سالونيك من قبـــل الامبراطور . واختص صغار النبلاء بإقطاعات تتناسب مـــع مكانتهم وأهميتهم (١) .

---

(١) عن اقتسام الامبراطورية ، انظر :

Longnon, L'Empire Latin de Constantinople, pp. 49 - 64.

ووردت معاهدة التقسيم في :

Tafel and Thomas, Urkunden I, pp. 464 - 468.

وفي ١٦ مـايو سنة ١٢٠٤ ، جرى الاحتفال بتتويج بلدوين في كنيسة القديسة صوفيه . وحدث في اول اكتوبر ، بعد ان قمع بلدوين مغامرة قام بها بونيفاس من اجل الاستقلال ، ان عقد محكمة بالقسطنطينية ، حيث بذل الإقطاعات لنحو ستمائـة من اتباعه ، مع تأميرهم . وفي تلك الاثناء كان يجري وضع دستور ، استند من ناحية الى نظريات الفقهاء في النظام الإقطاعي ، ومن ناحية اخرى الى ما يعتقد بأنه الاجراء السائد في مملكة بيت المقدس . ويتولى المجلس المؤلف من المقطعين بمساعدة بودشتا القسطنطينية من البنادقة ، بذل النصح للأمبراطور في الأمور السياسية ، ويقوم هذا المجلس بتوجيه العمليات الحربية ، وبوسعه ان يوقف مـا يصدره الامبراطور من اوامر ادارية . ونشأت محكمة عليا تألفت على نسق المجلس ، تتولى تنظيم العلاقات بين الامبراطور وأتباعه . فلم يزد الامبراطور كثيراً على كونه رئيس مجلس الاعيان . فما تضمنته قوانين الروم من دساتير لم تكن صالحة للتطبيق ولا عائلها إلا قلة من الدساتير (١) .

على ان دولة الروم اللاتينية Romania ، وهو الاسم الذي اطلقه اللاتين على امبراطوريتهم ، لم يكن لها من الحقيقة ما يزيد كثيراً على حقيقة سلطة الامبراطور ، إذ لم يتم فتح كل اقاليمها ، بل انه لن يفتح كثير منهـا . فالبنادقة الذين اشتهروا بادراكهم للواقع لم يحوزوا من الاملاك إلا تلك التي يعلمون ان بوسعهم الاحتفاظ بهـا ، امثال جزيرة كريت ، مينائي

(١) انظر : Villehardouin, II, pp. 66 - 68.
Robert of Clary, p. 93.
Assises of Romania, (ed. Recoura), passim.

مودينا وكروتون في شبه جزيرة البيلوبونيز ، فضلاً عن كورفو التي بقيت في ايديهم فترة من الزمن . ونصبوا من اتباعهم الذين ينحدرون من اصل بندقي سادة في جزائر بحر ايجه ، اما في كيفالونيا ويوبويا فانهم قبلوا ولاء الأمراء اللاتين الذين سبقوهم اليها ونصبوا أنفسهم سادة بها . ولم يلبث بونيفاس ان غزا معظم بلاد اليونان الاصلية ، ونصب بها اتباعه ، فأضحى احد البرجنديين ، اوثو لاروش دوقاً لأثينا وطيبه ، بينما صارت البيلوبونيز من نصيب سيدين فرنسيين هما وليم شامبليت وجيوفري فيلهاردوين ابن شقيق المؤرخ المعروف ، فأسس اسرة الأمراء الذين حكموا أخايا[1] .

الامبراطورية اللاتينية ١٢٠٤ - ١٢٦١ :

وبذا كادت كل الاقاليم الاوربية التابعة للأمبراطورية البيزنطية قد انتقلت الى ايدي اللاتين . على ان اللاتين كانوا مخطئين في اعتقادهم بأن استيلاءهم على القسطنطينية سوف يؤدي الى استحواذهم على كل الامبراطورية . ففي اوقات الكوارث تعرب الروح اليونانية عن نفسها في اشد ما تكون شجاعة ونشاطاً . فما حدث من ضياع عاصمة الامبراطورية ادى اول الامر الى الفوضى . على انه حدث في سنتين ان انتظم العالم اليوناني من جديد في ثلاث إمارات على التوالي . ففي اقصى الشرق ، استطاع حفيدان للأمبراطور اندرونيقوس وهما الكسيوس وداود كومنينوس ، بفضل مساعدة عمتهما تامار ملكة بلاد الكرج العظيمة ، ان يحتلا اطرابزون وأن يوطدا سلطانها

---

(١) انظر : Longnon, loc. cit.
Hopf, Geschichte Griechenlands, II, p. 10.

على امتداد شواطىء البحر الاسود وآسيا الصغرى . على ان داود لقي مصرعه سنة ١٢٠٦ ، وهو يقاتل لبسط سلطانها نحو البوسفور ، بينما عاش الكسيوس حتى اتخذ لقب امبراطور، وأنشأ امرة ظلت تحكم قرنين ونصف من الزمان ، ونالت حظاً كبيراً من الثروة ، بفضل التجارة القادمة من فارس والشرق ، والتي اجتازت عاصمتها ، وبفضل ما توافر في التلال الواقعة خلفها من مناجم الفضة ، واشتهرت هذه الاسرة ايضاً بجمال اميراتها . وفي اقصى الغرب استطاع احد سلالة اسرة انجيلوس ، ولم يكن ابناً شرعياً ، ان يجعل من نفسه طاغية (Despot) لإبيروس ، وأقام أسرة قوّضت مملكة مونتفيرات في سالونيك . على ان اهم الإمارات الثلاثة وأشدها خطراً ، كانت الامبراطورية التي اقامها في نيقيه أنـّه ابنة الكسيوس الثالث وزوجها ثيودور لاسكاريس .

إلتف حولها كل من هرب من القسطنطينية من كبار اهل المدينة وأعيانها . وتخلى البطريرك اليوناني يوحنا كاماتيروس الذي سبق ان فرّ الى تراقيا ، عن منصبه ، كيما يتسنى لرجال الدين الذين جرى نفيهم من القسطنطينية ان ينتخبوا للبطريركية قساً كان فعلاً في نيقية ، وهو ميخائيل اوتوريانوس، فتولى ميخائيل عندئذ تتويج ثيودور وأنـّه . وبذا اضحت نيقية في نظر اليونانيين حاضرة الامبراطورية الشرعية . ولم يلبث ثيودور ان بسط سلطانه على معظم ما تبقى لبيزنطة من الاراضي في آسيا . واستطاع اخلافه ان يحكموا من جديد في القسطنطينية بعد نيف وخمسين سنة [1] .

---

(١) انظر : Vasiliev : « Foundation of the Empire of Trebizond », Speculum, vol. XI, pp. 3 - 37.

Ostrogorsky, Geschichte des Byzantinischen Staates, 2nd ed. pp.337-359.

وأغفل اللاتين ايضاً سائر العناصر في شبه جزيرة البلقان . إذ ان امبراطورية الاخوة اصن الافلاخية البلغارية كانت تود عن طيب خاطر ان تتحالف معهم لمناهضة اليونانيين البغضاء . غير ان الامبراطور اللاتيني طالب بالأراضي التي سبق للقيصر كالويان ان احتلها ، وادعى البطريرك اللاتيني لنفسه السلطة على الكنيسة البلغارية الارثوذكسية ، فاضطرت بلغاريا الى قبول تحالف غير طبيعي مع اليونانيين . وفي معركة ادرنه سنة ١٢٠٥ تحطم معظم جيش امبراطورية رومانيا (الروم) ،ووقع الامبراطور بلدوين اسيراً فساقوه الى قلعة بالبلقان حيث قضى بها نحبه . وتراءى لفترة قصيرة كأن قيصر بلغاريا سوف يكون الامبراطور الذي يلي بلدوين على الحكم في القسطنطينية . غير ان الشرق اللاتيني اعدّ هنري شقيق بلدوين ليكون امبراطوراً له . والواقع ان ما اظهره هنري من النشاط والحكمة اثناء حكمه الذي استمر عشر سنوات ، انقذ الامبراطورية من دمار عاجل . فما وقع من منافسات بين الامراء اليونانيين ، وما نشب من منازعات بينهم ، وما جرى من مخاصمات بينهم وبين البلغار ، فضلاً عن ظهور الترك خلف هذه المنازعات كل ذلك أبقى على الامبراطورية اللاتينية حتى سنة ١٢٦١ (١) .

على ان الفاتحين المظفرين لم يتبينوا في غمرة فرحهم ، سنة ١٢٠٤ ما ترتب على حملتهم من نتائج جوفاء ، كما ان معاصريهم بهرهم ايضاً الفتح .

---

(١) انظر : Longnon, op. cit. passim, esp. pp. 77 - 186.
Ostrogorsky, op. cit. pp. 337 - 359.
Zlatarsky, History of the Bulgarian Empire, (in Bulgarian), III, pp. 211 - 247.

إذ حدث اول الأمر ان عمّ الفرح والسرور انحاء العالم اللاتيني . ومع ذلك تساءل الشاعر الكلوني الساخر، َجيّوه دى بروفنس في قصائده لماذا اجاز البابا توجيه حملة صليبية لقتال المسيحيين ، كما ان شاعر التروبادور البروفنسالي جويم فيجويرا اشتد في اتهام روما بما ارتكبته من خيانة في حق اليونانيين . غير انه حينما كتب ، كانت روما تدعو الى توجيه حملة صليبية لقتال مواطنيه (١) . على ان هؤلاء المخالفين كانوا قلة نادرة . فمهما كانت المخافات التي احسّ بها البابا انوسنت الثالث عن تحول الحملة الصليبية الى القسطنطينية، فإنه كان اول الأمر مبتهجاً . ففي رده على رسالة تفيض فرحاً وسروراً تلقاها من الامبراطور بلدوين يتباهى فيها بالنتائج العظيمة القيمة للمعجزة التي صنعها الله ، كتب انوسنت انه يطرب لما صنعه الله ، وأعلن موافقته دون تحفظ (٢) . وذاع في انحاء الغرب اغاني المدح ، وبلغ الحماس اشده ، حينما اخذت المخلفات الدينية القيمة تصل الى فرنسا وبلجيكا. وجرى انشاد الترانيم احتفالاً بسقوط المدينة الضخمة الملحدة ، القسطنطينية Constantinopolitana Civitas diu profana ، التي جرى وقتئذ انتزاع كنوزها،

---

(١) انظر : Guyot de Provins, Oeuves, (ed. Orr.), p. 34.
Guillem Figuera, « Dun Servientes Far », in de Bartholomaeis, Poesie Provenziale Storiche, II, pp. 98 - 99.
Throop, Criticism of the Crusade, pp. 30 - 31.

(٢) انظر رسائل انوسنت :
Innocent III, letters VII, 153, 154, 203, 208. (M. P. L. vol. CCXV, cols. 454 - 461, 512 - 516, 521 - 523).

وتشجع اللاتين في الشرق بما بلغهم من انباء سقوط القسطنطينية [1] . ومن المحقق ان سقوط القسطنطينية في ايدي اقاربهم من اللاتين قد يجعل كل استراتيجية الحروب الصليبية ، بالغة التأثير . وتردّدت الشائعات بأن المسلمين استبد بهم الخوف ، وهنّأ البابا نفسه لما شاع من ان سلطان مصر اظهر جزعه وخوفه [2] .

البابا انوسنت يدين الحملة الصليبية سنة ١٢٠٤ :

على ان إعادة التفكير لم تكن بالغة التشجيع ، إذ ان مخافات البابا اخذت في الظهور مرة اخرى . فما اتسمت به الامبراطورية الشرقية وكنيستها من التماسك في العالم المسيحي الروماني كان يعتبر من الاعمال الرائعة ، ولكن هل تحقق هذا العمل بطريقة أدت الى فائدة ثابتة ؟ تلقى البابا معلومات اضافية ، فارتاع لما وقف عليه مما اقترن به نهب المدينة من مناظر سفك الدماء وارتكاب كل ما يخالف الدين من اعمال ، فاشتد جزعه باعتباره رجلاً مسيحياً ؛ وازداد قلقه ، باعتباره من رجال السياسة . فهذه الوحشية المتبربرة لم تكن خير سياسة لكسب محبة العالم المسيحي الشرقي . وكتب انوسنت ، وقد استبد به الغضب ، الى القسطنطينية ،

---

(١) انظر : Riant, Exuviae, II, pp. 43 - 50.

من المزامير التي اوردها : Sequentia Andegavensis.

(٢) انظر : Innocent III, letters VIII, 125, (M. P. L. vol. CCXV, col. 698).

Ibn al - Athir, II, p. 95.

أشار ابن الاثير الى ان فتح القسطنطينية يسّر للصليبيين الوصول الى سوريا .

مردداً ما ارتكبه الصليبيون من فظائع ، ومنكراً لها . وعلم ايضاً ان الغزاة عمدوا في هدوء الى اقتسام الدولة والكنيسة دون ان يشيروا الى سلطته ، فأغفلوا عن عمد ما له من حقوق ، واستطاع ان يدرك مدى ضعف التنظيمات التي جرى وضعها للأمبراطورية الجديدة ، ومدى تفوق البنادقة في الدهاء على الصليبيين ، ثم زاد من كراهيته ما سمعه من ان ممثله بطرس سان مارسيل اصدر قراراً ، يُحِل فيه كل من سبق ان وعد بالاشتراك في الحرب الصليبية ، من مواصلة السير الى الارض المقدسة . وبدت الحملة الصليبية على انهـــا حملة ليس لها غرض سوى فتح بلاد مسيحية ، وليس مقرراً ان تبذل المساعدة للعساكر المسيحيين الذين يقاتلون المسلمين [1] .

أدرك الفرنج في سوريا فعلاً انهم لا يأملون في ان تقدم اليهم حملة في سنة ١٢٠٤ . إذ انقضى الصيف وما زال الصليبيون مقيمين بالقسطنطينية . وإذ عرف الملك امالريك انه لن تقدم وقتئذ أمداد ، بادر في سبتمبر سنة ١٢٠٤ الى عقد هدنة مع السلطان العادل [2] . غير انه سرعان ما تبين ان ما اقامه اللاتين من امارات في الشمال سوف تنزل ضرراً فعلياً بإماراتهم في سوريا . لقد تباهى الامبراطور بلدوين على البابا انوسنت بأن عدداً كبيراً من بارونات الشرق الفرنجي قدموا ليشهدوا حفلة تتويجه ، وبأنه بذل قصارى جهده ليقنعهم بالبقاء عنده ، ولما تبين انه توافرت اقطاعات

---

(١) انظر : Innocent III, letters, VIII, 126, (M. P. L. vol. CCXV, cols. 699 - 702).

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٩١ .

خصيبة وغنيّة قرب البوسفور ، وفي بـــلاد اليونان عجّل بالقدوم الى القسطنطينية للحاق بهم ، فرسان آخرون ، انتزع المسلمون اراضيهم . ومن هؤلاء الفرسان هيو سيد طبرية ، وهو اكبر أبناء زوجة ريموند كونت طرابلس وزوج مرجريت ابلين ، ابنة ماريا كومنينا . اما فرسان الغرب المغامرون فانهم ادركوا انه لا داعي مطلقاً لأن يمضوا في طريقهم الى مملكة بيت المقدس المكتظة ، في سبيل الحصول على بارونية او وارثة اقطاع ، ففي بلاد اليونان من الاراضي ما يفوق اراضي بيت المقدس جودة وغنى . كما ان الاستيلاء على قبرص اجتذب عدداً كبيراً من نزلاء بر الشام . ولم يقدم من اوربا ، بعـــد الاستيلاء على رومانيا ، للدفاع عن الارض المقدسة سوى المجندين للخدمة في الطوائف الدينية العسكرية [١] .

نتائج الحملة الصليبية الرابعة ، سنة ١٢٠٤ :

لم يرتكب في حق الانسانية من الجرائم ما هو اشد من الحملة الصليبية الرابعة . فلم تؤد هذه الحملة فحسب الى تدمير او تبديد ما حرصت بيزنطة على اختزانه من كنوز الزمن الغابر ، وإلى اصابة المدنية التي لا زالت فتية ويانعة ، بجرح مميت ، بل انها تعتبر ايضاً من افعال الحماقة السياسية العاتية ، فلم تبذل للمسيحيين بفلسطين شيئاً من المساعدة ، بل انها عوضاً عن ذلك سلبتهم انصارهم الاقوياء ، وقلبت رأساً على عقب كل وسائل الدفاع عن العـــالم المسيحي . لو ان اللاتين استطاعوا ان يستولوا على

---

(١) انظر : Villehardouin, II, p. 124.

الامبراطورية البيزنطية حسبما كانت عليه زمن الامبراطور مانويل ، لأضحى بوسعهم عندئذ ان يبذلوا مساعدة قوية للحركة الصليبية ، على الرغم من ان تهافت بيزنطة على مصالح سوريا اللاتينية ، لن يطول امد نجاحه . غير ان بيزنطة فقدت منذ وفاة الامبراطور مانويل جانباً من املاكها بالأناضول ولم يستطع اللاتين ان يستولوا على ما تبقى منها ، على حين ان مهاجمتهم لليونانيين زادت في قوة الترك . إذ اضحى الطريق البري الممتد من اوربا الى سورية بالغ الصعوبة ، نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، نظراً لما يثيره المسافرون عليه من ارتياب اليونانيين في نيقية وعداوة الترك في الاناضول . وما من جماعة مسلحة قادمة من الغرب ، تستطيع محاولة اجتياز الاناضول مرة اخرى . كما ان الطريق البحري لم يعد سهلاً ، إذ اضحت السفن الايطالية تؤثر نقل المسافرين الى الجزائر اليونانية والبوسفور ، على المضي الى عكا او موانىء سورية .

وفي المجال الفسيح لتاريخ العالم ، تعتبر نتائج الحملة الصليبية الرابعة فاجعة في جملتها . إذ ان بيزنطة ظلت منذ قيام امبراطوريتها حارسة لأوربا ازاء غير المسيحيين في الشرق والمتبربرين في الشمال . إذ قاومتهم بجيوشها ، وروّضتهم بمدنيتها . اجتازت بيزنطة فترات عديدة قلقة ، تراءت فيها كأن مصيرها قد حان ، غير انها منذئذ ظلت عائشة . ففي نهاية القرن الثاني عشر واجهت ازمة طويلة الامد ، حين اخذ يكتمل تأثير ما حاق قوتها البشرية واقتصادها من ضرر بسبب الفتوح التركية في الاناضول ، قبل قرن من الزمان ، زادها شدة ما جرى من منافسة قوية بين المدن التجارية الايطالية . على أنه تهيأ لبيزنطة ان تظهر من جديد ما ادخرته من نشاط ، وأن تعيد فتح بلاد البلقان وجانباً كبيراً من الاناضول ، وأن تواصل حضارتها ما لها من تأثير غير مقطوع على البلاد المحيطة بها ، بل ان

الاتراك السلاجقة كادوا يخضعون لسلطانها ، فتمتصهم آخر الامر لتعيد للأمبراطورية نشاطها . وتدل قصة امبراطورية نيقية على ان البيزنطيين لم يفقدوا قوتهم ونشاطهم . غير ان وحدة العالم البيزنطي تحطمت ، بضياع القسطنطينية ، ولم يعد من المستطاع اصلاحها ، حتى بعد ان تمّ استرداد العاصمة (القسطنطينية) . والواقع ان من الاعمال التي انجزها البيزنطيون ، انهم اوقفوا زحف السلاجقة ، غير انه حينما ظهرت قبيلة تركية اخرى بالغة القوة تحت زعامة بيت عثمان القوي ، بلغ الانقسام في العالم المسيحي بالشرق من العمق ، مـا تعذّر عليه ان يصمد في موقفه ، إذ انتقلت زعامته الى جهـة اخرى ، بعيدة عن البحر المتوسط ، موطن الحضارة الاوربية ، الى سهول روسيا الفسيحة في اقصى الشمال الشرقي . فتخلت روما الثانية عن مكانها الى روما الثالثة ، في بلاد المسكوف .

وفي تلك الاثنـاء انغرست بذور الكراهية بين العـالمين المسيحي في الشرق والغرب . فما كان لدى البابا انوسنت من آمال رائعة ، وما ادّعاه الصليبيون من مفاخرات خادعة ، بأنهم أنهوا الانشقاق ، ووحـدوا الكنيستين ، كل ذلك لم يتحقق . بل حدث بدلاً من ذلك ان همجيتهم ووحشيتهم خلفت من الذكرى مـا لا يغتفر لهم . وقـد يدافع الزعماء المسيحيون فيما بعد عن الاتحاد مع روما ، وقد تعلقوا بالأمل في ان الاتحاد سوف يؤدي الى اقامة جبهة متحدة إزاء الترك . غير ان اقوامهم لن يتبعوهم ، فليس بوسعهم ان ينسوا الحملة الصليبية الرابعة . وكان لا مفر فيما يبدو ان تفترق كنيسة روما عن الكنائس الشرقية الكبيرة ، غير ان الحركة الصليبية زادت في مرارة العلاقات بينها ، فمنذئذ ، مهما حاول بعض الامراء تحقيق الوحـدة ، فان الشقاق ظـلّ مكتملاً ومستقراً في أفئدة المسيحيين في الشرق ولا أمل في علاجه .

الفصل الثاني

الحملة الصليبية الخامسة

ما حدث من فشل الحملة الصليبية الرابعة في ارسال مساعدة مادية الى فلسطين ، جرى التعويض عنها . إذ ظلت المملكة الصغيرة (بيت المقدس) ما يزيد على عشر سنوات تنعم بالهدوء والسلام . فالهدنة التي عقدها الملك امليك مع السلطان العادل لا زالت قائمة ، وليس بوسع الفرنج ان يخاطروا بنقضها إلا اذا جاءتهم معونة من الغرب ، على حين ان العادل بلغ من شدة انصرافه الى المحافظة على املاكه ، ما يكفي لمنعه من ان يجهد نفسه في فتح إمارة لا تثير شيئاً من الضرر ، بينما اذا اقدم على مهاجمتها ، فإنـــه يثير بذلك حرباً صليبية . فاستطاع يوحنا ابلين ان يحكم ، باعتباره وصياً على ابنة اخته الملكة ماريا لمدة ثلاث سنوات دون ان يتعرض لشيء من القلق .

بلغت الملكة ماريا ، في سنة ١٢٠٨ ، السابعة عشرة من عمرها ، فحان الوقت للبحث عن زوج لهـــا . فتقرر إرسال سفارة مؤلفة من فلورنت

اسقف عكا ، وايمار سيد قيسارية ، الى فرنسا تطلب الى الملك فيليب ترشيح زوج لها . وكان المأمول ان عرض تاج مملكة بيت المقدس سوف يغري احد الامراء الأقوياء الاغنياء ، على القدوم لنجدة الشرق الفرنجي . غير انه لم يكن من اليسير العثور على عريس للملكة ماريا . ثم حدث آخر الأمر ، في ربيع سنة ١٢١٠ ان اعلن الملك فيليب ان فارساً من شامبانيا اسمه يوحنا برين قبل العرض[١] .

يوحنا برين ملك بيت المقدس ، سنة ١٢١٠ :

كان الاختيار مخيباً للآمال ، إذ لم يكن يوحنا سوى احد الابناء الصغار المفلسين ، بلغ وقتذاك الستين من عمره . تزوّج اخوه الاكبر والترمن كبرى بنات تانكرد ملك صقلية . وجال بخاطره المطالبة بعرش صقلية ، ولكن لم يظفر بشيء . أما يوحنا برين فإنه امضى حياته مغموراً ، لم يكن سوى احد قادة ملك فرنسا . ترددت الشائعات بأنه لم يقع الاختيار عليه حينئذ إلا بسبب علاقة حب آثمه مع بلانش كونتيسة شامبانيا ، الحقت الفضيحة بالبلاط . على انه اذا طرحنا الفقر جانباً ، لم يكن يوحنا تعوزه الجدارة للترشيح زوجاً للملكة . إذ اشتهر باطلاعه الواسع في السياسة الدولية ، كما ان تقدمه في العمر كان كفيلاً بـألا يقدم على مغامرات طائشة .

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 407 - 408.
Estoire d'Eracles, II, pp. 305 - 308.
La Monte: « John d'Ibelin », in Byzantion, vol. XII.

ومنحه كل من الملك فيليب والبابا انوسنت هبة قدرها اربعون الف ليرة من الفضة [١] .

وفي تلك الاثناء ، مضى يوحنا ابلين في الاضطلاع بأعباء الحكومة الى ان يصل يوحنا بريين . على ان الهدنـة مع العادل انقضى اجلها في يوليه سنة ١٢١٠ ، فأرسل السلطان العادل الى عكا يقترح تجديدها . وتولى يوحنا ابلين رئاسة المجلس ، الذي اوصى بقبول مـا عرضه السلطان العادل ، ولقي التأييد من مقدم الاسبتارية ، جيرين مونتايجو ومقدم الفرسان التيوتون هرمان باردت . ولكن مقدم الداوية ، فيليب لي بليسيير ، حرض الاساقفة على ان يصروا على رفض الاقتراح بتجديد الهدنة ، متذرعين في ذلك بسند قانوني ، هو ان الملك المقبل ليس بوسعه ان يلتزم بهدنـة جديدة . لم يقع فعلاً إلا شيء قليل من القتال بين المسلمين والفرنج . ذلك ان العادل ارسل ابنه المعظم على رأس ثلّة من العساكر الى جبل الطور ، وكان مجرّد حضورها كافياً لردع الفرنج [٢] .

هبط يوحنا بريين الى عكا في ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٠ ، وفي اليوم التالي ، قـام البرت بطريرك بيت المقدس بعقد قرانه على الملكة ماريا . وفي ٣ اكتوبر تمّ تتويجها في صور .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, pp. 310 - 316.
Abu Shama, II, p. 158.

ولم يلبث الملك الجديد ان صار محبوباً . أظهر الكياسة في معالجة أتباعه والطوائف الدينية العسكرية ، والتزم الحذر في علاقاته مع المسلمين . فبينما كان رجال البلاط في صور يشهدون حفلة التتويج ، أغار المعظم على ضواحي عكا ، غير انه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة ذاتها . وحدث في أوائل الصيف التالي ان سمح يوحنا بريين لبعض أتباعه بأن يشتركوا مع الداوية في حملة سارت بطريق البحر الى دمياط ، على مصب نهر النيل ، غير انها لم تظفر بشيء . على ان يوحنا بريين قبـل بعد بضعة شهور عرضاً جديداً من قبل العادل ، فأبرم هدنة لمدة خمس سنوات ، على انه لم يبدأ تنفيذها إلا في يوليه سنة ١٢١٢ . وفي نفس الوقت ، أنفذ الملك يوحنا الى روما رسائل تطلب من البابا ان تكون الحملة الصليبية الجديدة مستعدة للقدوم الى فلسطين عند انقضاء اجل الهدنة [١] .

وفي تلك السنة (١٢١٢) ماتت الملكة الصغيرة ، بعـد ان وضعت طفلة اسمها ايزابيلا ، وهو اسم جدتها غير انها اشتهرت عادة باسم يولاندا . أضحى الوضع القانوني ليوحنا بريين موضع شك . فالمعروف انه كان يحكم باعتباره زوجاً للملكة ، ولكن المملكة انتقلت الى يولاندا بعد وفاة امها ، وليس لأبيها يوحنا بريين حق شرعي . وإذ كان والداً ليولاندا تقرّر قبوله وصياً طبيعياً على المملكة ، على الاقل حتى تتزوج يولاندا ، وظلّ يوحنا بريين بحكم البلاد في اطمئنان وهدوء حتى قدوم الحمـلة الصليبية

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit. and p. 317. Abu Shama, loc. cit.

المقبلة . والتمس السلوى في ترمّله بأن تزوج سنة ١٢١٤ من ستيفاني اميرة ارمينية ، ابنة ليو الثاني . وأثبتت ستيفاني انها زوجة شريرة لوالد يولاندا ، وتحدث الناس بأن وفاتها سنة ١٢١٩ ترجع الى ما أصابها من ضرب مبرح على يد يوحنا بريين ، لأنها حاولت ان تدسّ السم للطفلة يولاندا [١] .

على ان الامارات اللاتينية المجاورة تقاصرت عن مملكة عكا فيما واتاها من الحظ . ففي قبرص خلف الملك اماريك في الحكم ابنه هيو الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره . فتولى الوصاية والتر مونتبليار ، وهو فارس فرنسي كان كندسطبلاً لأماريك ، وتزوج من برجنديا شقيقة هيو الكبرى . غير انه لم يكن وصياً ناجحاً ، إذ اقحم جزيرة قبرص في حرب خاسرة مع الترك ، ولما سلّم مقاليد الحكم لصهره « هيو » سنة ١٢١٠ ، تقرر نفيه ، للارتياب في انه ابتزّ اموالاً ضخمة اثنــاء وصايته على العرش . أضحى الملك هيو وقتذاك في الخامسة عشرة من عمره [٢] . تزوج قبل سنتين أليس أميرة بيت المقدس ، وابنة زوجة ابيه ، وفقاً لمــــا عقده

---

(١) انظر : Ernoul, p. 411
Estoire d'Eracles, II, p. 320
La Monte, Fendal Monarchy, p. 55.

وانظر ايضاً ما يلي : الكتاب الثاني ، الفصل الثاني .

درجت تواريخ الشرق الفرنجي على ان تطلق اسم ايزابيلا على الملكة الصغيرة ، على ان التواريخ الغربية اوردت ايضاً اسمها على انها يولاندا . وجرى رنسيان على استعمال اسم يولاندا حتى يقل اختلاط اسمها مع سائر المعروفات باسم ايزابيلا .

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 15 - 16.
Mas Latrie, Documents, II, p. 13.

الوالدان من اتفاق . وتولى المفاوضات لإتمام الزواج ، الملكة ماريا كومنينا ، جدة العروس ، وبذل البائنة (المهر) بلانش نافار كونتيسة شامبانيا ، ارملة عم العروس . إذ انها خشيت انه مـا لم تطمئن الى زواج أليس واختها في الشرق ، فقـد تقدم احداهما وتطالب بكونتية شامبانيا من ابنهـا الطفل . اشتهر الملك هيو بأنه شاب حادّ المزاج ، ظلت علاقاته عاصفة مع جيرانه وأتباعه ، وكنيسته ، والبابوية . غير انه وهب مملكته حكومة راسخة قوية[1] .

ولاية الحكم في انطاكية سنة ١٢٠١ :

كان الوضع في إمارة انطاكية اشدّ عنفاً . إذ أن بوهمند كونت طرابلس نصب نفسه اميراً على انطاكية عقب وفاة والده بوهمند الثالث ، متحدياً بذلك حقوق ابن اخيه ريموند روبين . على ان ليو ملك ارمينيا ، وخال ريموند روبين ظل يلحّ في تأييد قضيته . وعقّد الأمور ما وقع من شجار بين ليو والداوية ، بعد أن رفض ليو ان يعيـد اليهم قلعتهم بغراس . وعندئذ انحاز اليه الاسبتارية في مناوءة بوهمند . على انه كان بوسع بوهمنـد ان يطلب العون من الـترك السلاجقة ، الذين لم تنقطع الحروب بينهم وبـين ليو ، كما ان الظاهر غازي امير حلب كان دائمـاً

---

(١) انظر : Mas Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, I, pp. 175 - 177.
Documents, II, p. 34.
Innocent III, letters, IX, 28, (M. P. L. vol. CCXV, cols. 829 - 830).
Hill, History of Cyprus, II, pp. 73 - 83.

مستعداً لأن يرسل اليه الامداد . أضحى العادل تبعاً لذلك عدواً لبوهمند . والواقع ان ملكي بيت المقدس وقبرص لم يثبتا دائماً في عواطفهما . وازدادت الفوضى بما حدث من المشاكل الدينية . فكان لا بدّ من تسوية مشكلة ولاية الحكم في انطاكية ، للمحافظة على مصالح الحركة الصليبية بأسرها . وأحسّ البابا انوسنت ان من واجبه ان يتدخل في الامر . وحاول مندوباه ، سوفرد كاردينال سانت براكسيدس ، وبطرس كاردينال سانت مارسيل الواحد بعد الآخر ، ثم مجتمعين ، ان يستمعا الى القضية ، وبينما تظاهر ليو بالانصياع لحكم البابا في روما ، رفض ان يصالح الداوية بالتنازل لهم عن بغراس ، وفقاً لما امر به البابا . أما بوهمند فانه من جانبه انكر حق البابا في ان يقف على مسألة تعتبر اقطاعية خالصة . والمعروف أن بطرس بطريرك انطاكية انحاز عقب وفاة بوهمند الثالث الى حزب ليو ، فلم يغفر له هذه الغلطة بوهمند الرابع ، وحكومة (قومون) مدينة انطاكية التي كانت شديدة العداء للأرمن . على أن ليو كتب سنة ١٢٠٣ الى البابا يطلب جعل الكنيسة الارمنية تخضع مباشرة لولاية روما (البابوية) . ثم وقع سنة ١٢٠٥ شجار بين البطريرك وبين المندوب البابوي ، بطرس كاردينال سانت مارسيل حول تعيين رئيس شمامسة انطاكية . وإذ لم يعد للبطريرك اصدقاء ، اضحى بوسع بوهمند الرابع ان ينتقم منه [١] .

---

(١) عن تاريخ انطاكية في هذه الفترة ، انظر :
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 600 - 615.

أما بوهمند (الرابع) ، فكانت له مشاغله الخاصة . فمع انه استحوذ على السلطة في انطاكية ، وظفر بتأييد الإقليم ، فإن سلطانه بالريف كان مقيداً . ففي نهاية سنة ١٢٠٤ ، أثار الاضطراب بكونتية طرابلس ، الفتنة التي قام بها رينوارت ، سيد نيفين ، الذي تزوج بدون إذن بوهمند ، من وارثة اقطاع عكار . وانحاز الى رينوارت كثير من سادة الاقطاعات ، ومنهم رالف سيد طبرية ، الذي لحق اخوه اوتو ببلاط ليو الارمني ، ولقي المتمردون العطف من الملك املريك . وبينما كان بوهمند يسعى لإخماد الثورة ، ألقى ليو الحصار على انطاكية ، ولم ينسحب إلا بعد ان قدم جيش من قبل الظاهر غازي امير حلب ، لمساعدة بوهمند . ولما مات املريك ، منع يوحنا ابلين كل مساعدة عن الثوار ، فأنزل بهم بوهمند الهزيمة في نهاية السنة ، بعد ان فقد احدى عينيه أثناء القتال . وفي تلك الأثناء ، كيما يثبت بوهمند ان انطاكية ، باعتبارها امارة علمانية لم تدخل في اختصاص البابا ، أعلن ان امبراطور القسطنطينية كان دائماً السيد الأعلى لها . ولما قامت ماريا كونتيسة شامبانيا ، وزوجة الامبراطور بلدوين اللاتيني بالقسطنطينية ، بزيارة فلسطين ، ارتحل بوهمند الى عكا ليبذل لها يمين الولاء ، وهي في طريق العودة الى زوجها[١] .

---

(١) انظر : Alberic of Trois Fontaines, Chronicon R. H. F. vol. XVIII, p. 884.

افترض الفرنج ان الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ورثت كل حقوق بيزنطة . ومع ذلك فان ليو ملك ارمينيا بادر الى التفاوض مع امبراطور نيقية ، الذي زعم ايضاً انه وريث البيزنطيين.
انظر : Cahen, loc. cit. esp. p. 606.

رسامة بطريرك يوناني لأنطاكية سنة ١٢٠٦ :

وإذ اشتدت ثائرة بوهمند امير انطاكية ، مع البـابا والبطريرك ، سنة ١٢٠٦ ، قرر عزل البطريرك ، ودعا البطريرك اليوناني سمعان الثاني ، الذي لم يكن له إلا اللقب فحسب ، ليحلّ مكانه . والراجح ان سمعان كان يقيم فعلاً في انطاكية ، ومن المحقق ان حركة بوهمنـد لقيت التأييد من قومون انطاكية ، بل لعل القومون هو الذي أشار بها . ومع انه مضى على حكم الفرنج في انطاكية ما يزيد على قرن من الزمان ، فلا زال العنصر اليوناني كبيراً وموفور الثراء ، ولا بد انه حدث اثنـــاء تلك الفترة ان تصاهرت اسرات تجـار لاتينية مع اليونانيين . وكره اللاتين واليونانيون معاً الارمن ، وما حدث من التقارب بين البابا انوسنت وبين ليو الارمني ، حملهم على مناهضة روما . وإذ ادرك بوهمند من جانبه انه لم يعد بوسع بيزنطة ان تهدده ، كان على استعداد تام لأن يؤازر كنيسة تفرض تقاليدها ان تبذل الاحترام للأمير العلماني . ومن سخرية الأقدار ألا تعود لأنطاكية البطريركية اليونانيـة التي اشتدّ الأباطرة البيزنطيون في القرن الماضي في النضال من أجلها ، إلا بعد تدمير بيزنطة على أيدي اللاتين . فبادر بطرس البطريرك اللاتيني الى تسوية نزاعه مع المندوب البابوي ، الذي أعـاد له سلطة فرض القطع من الكنيسة ، التي كانت موضع نزاع بينهما . وبفضل مـــا تلقاه من روما من موافقة تامة ، قرر البطريرك اللاتيني قطع امير انطاكية والقومون من الكنيسة ، وردّا على ذلك بالالتجاء الى الكنائس اليونانية بالمدينـة . وعندئذ لجأ البطريرك اللاتيني الى تدبير المؤامرات . فحوالي نهاية سنة ١٢٠٧ ، أدخل ليلاً الى المدينة جماعة من الفرسان الموالين له ، وحاولوا الاستيلاء على الجزء الاسفل من المدينة ، غير ان بوهمند حشد

قواته في القلعة ، ولم يلبث ان طردهم الى خارج المدينـة ، وتقرر محاكمة البطريرك اللاتيني بطرس لخيانته ، بعـد ان اتضح اشتراكه في الجريمة ، وجرى إلقاؤه بالسجن . ولم يقـدَّم له في السجن طعـام او ماء وإذ استبدّ به اليأس ، تجرَّع ما في مصباحه من زيت ، فهلك بعـد عذاب أليم [1] .

أخـذ البابا انوسنت يسأم هـذا النضال الذي لا حدّ له ، فعهد الى بطريرك بيت المقدس بمسئولية تسويته . وحدث سنة ١٢٠٨ ان اشتدّ غيظ ليو ، فخرّب ما يحيط بانطاكية من بلاد ، بينما تعرضت طرابلس للغزو من قِبل قوات العادل ، التي قدمت دون مبرر للانتقام لما وقع على بعض التجار المسلمين من اعتداء من قِبل جماعـــة من القبارصة ، كما ان الاسبتارية قاموا بغارة هجومية على طرابلس . ولم ينقذ بوهمند إلا الالتجاء الى السلاجقة لمناهضة ليو ، بينما استنجد البابا بالظاهر غازي امير حلب لإنقـاذ انطاكية من اليونانيين . وأعقب ذلك حدوث ثورة دبلوماسية ، ذلك ان البرت بطريرك بيت المقدس كان صديقاً للداوية حلفاء بوهمند . فأثار غضب ليو بأن أصرّ على انه ينبغي على ليو ان يعيد بَغراس للداوية ، كخطوة اولى لإجراء التسوية . وفي تلك الأثناء وافق بوهمند على قبول بطريرك جديد من اللاتين في انطاكية ، وهو بطرس لوكيديو . وعندئذ

---

(١) انظر : Cahen, loc. cit. esp. pp. 612 - 613.

وتدل رواية كامن على ان العنصر اليوناني في القومون كان قوياً . والراجح ان زيجات عديدة تمت في دوائر التجار من اللاتين واليونانيين .

نسي ليو ما بذله من الطاعة لروما ، وتباهى بأنه عقد محالفة مع الامبراطور اليوناني في نيقية . ورحّب باستقبال سمعان بطريرك انطاكية اليوناني ، في قليقية ، وبذل لليونانيين قدراً كبيراً من اراضي الكنيسة اللاتينية بها . على انه في الوقت ذاته التمس صداقة هيو ملك قبرص ، الذي تزوجت اخته هيلفيس من ريموند روبين ، ومنح ليو لطائفة التيوتون قلاعاً في قليقية وظلّ النضال مستمراً [١] .

وحدث سنة ١٢١٣ ، ان ريموند اكبر ابناء بوهمند ، والذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، لقي مصرعه في كاتدرائية انطرطوس على يد عصابة من الحشيشية . ويبدو ان الاسبتارية هم الذين حرضوا القتلة ، نظراً لأن الحشيشية كانوا وقتذاك يؤدون إتاوة لهم . وفي السنة التالية اغتال الحشيشية البرت بطريرك بيت المقدس ، وكان ايضاً من اعداء الاسبتارية . وسعى بوهمند للانتقام ، وبفضل ما جاءه من مدد من الداوية هاجم الخوابي إحدى قلاع الحشيشية . فاستنجد الحشيشية بالظاهر غازي امير حلب ، الذي التمس بدوره المساعدة من السلطان العادل . فرفع بوهمند الحصار عن الخوابي واعتذر للظاهر غازي . غير ان الظاهر لم يكن مستعداً وقتذاك لمساندته . يضاف الى ذلك ان ما تردد من شائعات عن حملة صليبية جديدة ، أدى الى توحيد العالم الاسلامي . فأخذ الظاهر يسعى الى صداقة عمه العادل [٢] .

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 615 - 619.

(٢) انظر : Cahen, op. cit. pp. 619 - 621.

وأفاد ليو من الموقف ، بأن عقد صلحاً مرة اخرى مع روما . اشتهر رالف ، بطريرك بيت المقدس ، والاسقف السابق في صيدا ، بأنه رجل سهل الانقياد ، وأبدى البابا استعداده لأن يعفو عن ليو ، إذا اسهم بالمساعدة في الحملة الصليبية القادمة . وما حدث من زواج يوحنا برين من ستيفاني ابنة ليو ، أدى الى عقد محالفة بين ارمينية وعكا . وفي سنة ١٢١٦ استطاع ليو بما دبره من مؤامرة ناجحة ، لقيت من غير شك المساعدة من البطريرك بطرس ، ان يُهرِّب الى انطاكية العساكر وأن يحتل المدينة ، دون قتال . كان بوهمند وقتذاك في طرابلس ، فلم تلبث عساكره المرابطة بالقلعة في انطاكية ان اذعنت الى ليو فجرى تنصيب ريموند روبين اميراً على انطاكية ، ولفرط فرحه بما نجم عن الحرب الطويلة من نتيجة باهرة ، ردّ ليو آخر الأمر ، بغراس الى الداوية ، وأعاد الى الكنيسة اللاتينية اراضيها في قليقية ، غير ان انتصاره كلفه ما حدث من استيلاء كيكاوس سلطان السلاجقة في قونية ، على حصون تقع الى غرب قليقية وعبر جبال طوروس (١) .

الواقع أن مسألة انطاكية تمت تسويتها في نفس الوقت الذي جرت فيه الدعوة الى حملة صليبية جديدة . إذ ان البابا انوسنت ظلّ منذ ان زايله الخداع عن الحملة الصليبية الرابعة ، يستعد لبذل مجهود بالغ الأهمية لإنقاذ الشرق . إذ ان اموراً كثيرة أثارت اضطرابه ، وسبّبت له الحيرة ، فكان لزاماً عليه ان يحلّ مشكلة الملحدين العسيرة في جنوب فرنسا ، فالحل العنيف الذي توصل اليه بالحملة الصليبية الالبيجنسية ، برغم انه هو

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 621 - 623.

الذي اثارها ، وجعل للصليبيين من الامتيازات كالتي يحوزونها عند قتال المسلمين ، قد أثار بدوره مشاكل . ففي سنة ١٢١١ دعا انوسنت الثالث الى حرب صليبية في اسبانيا ، رداً على غارة الناصر وزير الموحدين ، على قشتالة . ودلّ على صدق جهوده ، الانتصار الباهر في معركة لاس نافاز دي تولوزا ، في يوليه سنة ١٢١٢ ، حين حلّت الهزيمة الساحقة بالجيش الافريقي ، فبدأت مرحلة جديدة لاسترداد البلاد المسيحية ، غير انه لم يظهر الاستعداد للرحيل الى الارض المقدسة إلا عـدد قليل من الفرسان . فالاستجابة الوحيدة للتوسل لنجدة بيت المقدس جـاءت من طبقة بالغة الاختلاف (١) .

الدعوة الى حملة الاطفال الصليبية سنة ١٢١٢ :

حدث في احـد الايام في شهر مايو سنة ١٢١٢ ، ان ظهر في سان دينيه ، حيث كان فيليب ملك فرنسا يعقد محكمته ، صبي راع ، يناهز عمره اثنتي عشرة سنة ، اسمه ستيفن ، من مدينة كلـُوي الصغيرة ، في اقليم اورليانيه ، حمل معه رسالة الى الملك ، قال إن الذي اعطاها له ، هو المسيح بشخصه ، الذي ظهر له بينما كان يقوم برعي الغنم ، وأمره بأن يمضي فيدعو الى الحرب الصليبية . ولم يتأثر الملك فيليب بالطفل ، فطلب اليـــه ان ينصرف الى داره . غير ان ستيفن الذي ألهب حماسه زائره الغريب ادرك وقتئذ انه القائد الملهم الذي سوف ينجح فيما فشل فيــه

---

(١) عن سياسة انوسنت في لانجدوك واسبانيا ، انظر :
Fliche, La Chrétienté Romaine, pp. 107 - 108, 112 - 137.

شيوخه . والمعروف انـــه في الخمس عشرة سنة السابقة ظل المبشرون يطوفون بالقرى ، يحضّون على الاشتراك في حملة صليبية لقتال المسلمين في الشرق او في اسبانيا ، او لمناهضة الملحدين في لانجدوك . فكان من اليسير ان يتأثر صبي شديد العاطفة بفكرة انه بوسعه ايضاً ان يكون مبشراً ، وأن يبزّ بطرس الناسك ، الذي بلغت بسالته وإقدامه في القرن الماضي من الجلال والعظمة ما اضحى من الاساطير . ولم ينزعج ستيفن باستخفاف الملك به ، فشرع في التبشير عند مدخل دير القديس دينيه ذاته ، وأعلن انه سوف يقود جماعة من الاطفال لإنقاذ العالم المسيحي ، وسوف تجف البحار امامهم ، وسوف يجتازون البحر الاحمر مثلما فعل موسى ، فيصلون سالمين الى الارض المقدسة . وهبه الله قوة خارقة في الفصاحة ، تأثر به كبار السن ، وهرع اليه الاطفال ملبين دعوته . وإذ تحقق أول انتصار له ، اخذ يطوف بأنحاء فرنسا ، يدعو الاطفال ، بل ان عدداً كبيراً من الذين آمنوا بـــه ، مضوا الى ابعد من ذلك ، فصاروا يدعون باسمه . وجرى الاتفاق على انه لا بد ان يجتمعوا بعد حوالي شهر في فندوم ، ومنها يستأنفون سيرهم الى الشرق .

وحوالي نهاية شهر يونيه احتشد الاطفال في فندوم . وتحدث المعاصرون في جزع عن ثلاثين الف طفل ، لم يتجاوز الواحد منهم الثانيـة عشرة من عمره . ومن المحقق ان آلافاً عديدة منهم جرى جمعهم من جميـع أنحاء البلاد ، وكان بعضهم من الفلاحين السذج ، الذين سمح لهم آباؤهم عن طيب خاطر بأن يمضوا في هذه البعثة الكبيرة . على انه كان منهم ايضاً صبيان انحدروا من اسرات شريفة ، تسللوا من دورهم ولحقوا باستيفن وأتبـاعه « الأنبياء الصغار » كما نعتهم المؤرخون . ومن بينهم ايضاً ، فتيات صغيرات ،

وبضعة قسس صغار ، فضلاً عن جماعة قليلة من الحجاج الذين يكبرونهم في العمر ، اجتذبت بعضهم التقوى ، بينما كان الدافع للآخرين ، فيما يبدو ، الرحمة ، ومن المحقق ان جماعات اخرى لم تنضمّ اليهم إلا لتشارك في الهدايا التي سوف تنهمر عليهم جميعاً . وقدمت الجماعات متزاحمة الى المدينة ، يرأس كل منها قائد يحمل العلم الفرنسي الاحمر القديم الذي اتخذه ستيفن شارة لحملته الصليبية . لم تتسع المدينة لهم جميعاً ، فعسكروا في الحقول الواقعة خارجها .

وشرعت الحملة في المسير صوب الجنوب ، بعد ان منحها أصدقاؤها القسس البركات ، وبعد ان تنحّى جانباً آخر الآباء الذين اشتد أساهم ، لفراق أبنائهم . وسار معظم الاطفال راجلين . غير ان ستيفن ، باعتباره قائداً ، أصرّ على ان تكون له عربة ، جرى التفنن في زخرفتها ، تعلوها سقيفة تظلّه من الشمس . وركب الى جانبه الصبيان الذين ينتمون لأسرات نبيلة ، إذ ان كلاً منهم كان من الثراء ما يكفي لأن يتملك فرنسا . ما من احد من الاطفال أنكر على النبي الملهم ان تتوافر له الراحة في سفره ، بل حدث عكس ذلك ، إذ عاملوه على انه قديس ، فعقائص شعره ، وقطع من ثيابه كانت تعتبر من المقدسات الدينية القيّمة التي ينبغي اقتناؤها . واتخذ الاطفال الطريق الذي يجتاز تور وليون ، الى مرسيليا . والواقع ان الرحلة كانت شاقة ، اذ كان الصيف شديد القيظ . واعتمد الاطفال في طعامهم على ما يتصدّق به الناس عليهم ، ولم يُبقِ الجفاف إلا على شيء ضئيل مما تجود به الارض ، وأضحى الماء شحيحاً نادراً ، ومات عدد كبير من الاطفال على جانبي الطريق ، واختفى آخرون محاولين العودة الى أوطانهم ، غير ان حملة الاطفال وصلت آخر الامر مرسيليا .

الاطفال في مرسيليا سنة ١٢١٢ :

وحيا سكان مرسيليا الاطفال في لطف ورفق ، فعثر كثير منهم على بيوت ينزلون بها ، وعسكر آخرون في الشوارع . وفي صبيحة اليوم التالي اندفعت الحملة بأسرها الى الميناء ليشهدوا البحر ، وقد انشق امامهم . ولما لم تحدث المعجزة ، استبد بهم اليأس الشديد . فتحوّل بعض الاطفال لمهاجمة ستيفن ، وعلا صياحهم بأنه قد خدعهم ، وأخذوا يعودون من حيث اتوا . غير ان معظمهم اقاموا على شاطىء البحر ، ينتظرون كل صباح ان الله سوف يرقّ لحالهم . وحدث بعد بضعة ايام ، ان تاجرين من تجار مرسيليا أشارت الروايات الى ان اسم احدهما هيو الصُّلْب ، واسم الآخر وليم الخنزير عرضا على الاطفال ان يجعلا تحت تصرفهم من السفن ما يقلهم الى فلسطين دون ان يؤدوا اجراً ، من اجـل مجد الله . فبادر ستيفن فرحاً مسروراً الى قبول هذا العرض الكريم . استأجر التاجران سبع سفن ، ركب فيها الاطفال ، ثم اقلعت بهم في البحر . ومضت ثماني عشرة سنة دون ان ترد عنهم أنباء .

وفي تلك الاثناء بلغ بـلاد الراين القصص عن دعوة ستيفن للحرب الصليبية . فلا ينبغي لأحد ان يبز اطفال المانيا . ولم تمض بضعة اسابيع على مبادرة ستيفن الى التبشير ، حتى شرع صبي اسمه نقولا من قرية ببلاد الراين في الدعوة لنفس الرسالة امـام ضريح الملوك الثلاثة في كلونيا . وأعلن مثلما فعل ستيفن ان بوسع الاطفال ان يفضلوا الكبار فيما يفعلونه وإن البحر سوف ينفرج ، فيهيء لهم طريقاً يجتازونه . وبينما كان لزاماً على الاطفال الفرنسيين ان يستخدموا القوة لفتـح الارض المقدسة ، كان على الاطفال الالمان ان يحققوا غرضهم بتحويل الكفار الى المسيحية .

واشتهر نقولا بما اشتهر به بطرس (الناسك) من الفصاحة الطبيعية والقدرة على العثور على تلاميذ فصحاء للمضي في دعوته وتبشيره من اقصى بلاد الراين الى اقصاها . ولم تنقض بضعة اسابيع حتى اجتمع في كلونيا جيش من الاطفال ، تجهز للمضي الى ايطاليا والبحر . على ان متوسط العمر للأطفال الالمان يزيد قليلاً على ما هو معروف عند الفرنسيين ، كما ان نسبة الفتيات بينهم تزيد عنها بين الفرنسيين ، وكان بينهم من ابناء الاشراف ما يفوق في العدد ما كان معروفاً عند الفرنسيين ، وانحاز اليهم عدد من ذوي السمعة السيئة من المتشردين والعاهرات .

انقسمت الحملة قسمين ، يبلغ عدد القسم الأول في تقدير المؤرخين عشرين الفاً ، تولى قيادتهم نقولا نفسه . واتخذ طريق الراين الى بازل ، واخترق غرب سويسرا فاجتاز جنيف ، ثم عبر جبال الالب مخترقاً ممر جبل سنيس . كانت رحلة شاقة للأطفال ، وتكبدوا فيها ضحايا جسيمة . فلم يظهر امام اسوار جنوة في نهاية اغسطس إلا اقل من ثلث الجماعة التي غادرت كلونيا، فطلبوا ان يقضوا ليلتهم في داخل اسوار المدينة . ابدت السلطات الجنوية اول الأمر استعدادها الترحيب بالحجاج ، غير انهم بعد مراجعة انفسهم ارتابوا في ان تكون تلك مكيدة المانية ، ولذا فلن يسمحوا لهم بالبقاء إلا ليلة واحدة ، غير ان كل من اراد الاستقرار بصفة دائمة في جنوة ، جاز لهم ان يفعلوا ذلك . وإذ توقع الاطفال ان البحر سوف ينشق امامهم في صبيحة اليوم التالي ، رضوا بذلك . على انه في صبيحة اليوم التالي لم يتأثر البحر بصلواتهم مثلما جرى للأطفال الفرنسيين في مرسيليا . وإذ اكتشفوا الحقيقة ، بادر عدد كبير من الاطفال الى قبول عرض الجنويين فأضحوا مواطنين جنويين ، بعد ان أغفلوا حجّهم . وزعمت اسرات جنوية

عديدة فيما بعد بأنها انحدرت من هـذه الهجرة الاجنبية . غير ان نقولا والجانب الاكبر من الاطفال استمروا في سيرهم ، إذ سوف ينشق لهم البحر في جهـة اخرى . ثم وصلوا الى بيزا بعد بضعة ايام ، وكان بمينائها سفينتان تقصدان فلسطين ، فوافقتا على ان تحملا عدداً كبيراً من الاطفال الذين استقلوهما ، ولعلهم وصلوا بعدئذ فلسطين ، غير انـه لم يعرف شيء عن مصيرهم . ومع ذلك فإن نقولا لا زال ينتظر حدوث معجزة ، فتثاقل مع اصحابه المؤمنين في السير الى روما . فاستقبلهم في روما البابا انوسنت واشتد تأثره بتقواهم ، ولكن اثارت حماقتهم حيرته . ففي حزم مقرون بالعطف طلب اليهم انـه لا بدّ ان يعودوا على الفور الى بلادهم . فإذا ترعرعوا فينبغي عندئذ ان يوفوا بنذورهم ، وأن يسيروا للقتال من اجل الصليب .

مصير الاطفال ، سنة ١٢١٢ :

ليس معروفاً عـن رحلة العودة إلا النذر اليسير . إذ ان لم يكن في وسع عدد كبير من الاطفال ولا سيما الفتيات ، ان يواجهوا مرة اخرى متاعب الطريق ، فتخلفوا في بعض المدن او القرى الايطالية ، ولم يلتمس طريق العودة في الربيع التالي الى بلاد الراين إلا عدد قليل من التائهين ، والراجح ان نقولا لم يكن بينهم . غـير ان الغضب استبد بالآباء الذين فقدوا اطفالهم وأصروا على إلقاء القبض على والد نقولا الذي حمله المجد الكاذب فيما يبدو ، على تشجيع ابنه ، فقبضوا عليه وشنقوه .

ولم تكن الجماعة الاخرى من الحجاج الالمان الاطفال ، بأحسن حظاً من الجماعة الاولى ، إذ ارتحلت الى ايطاليا ، بعد ان اجتازت وسط سويسرا

واخترقت ممر سانت جوثارد ، فوصلت الى البحر عند انكونا بعد ان صادفت متاعب كبيرة . ولما لم ينفرج لهم البحر ، تحركوا في بطء على امتداد الشاطىء الشرقي حتى بلغوا برنديزي . فعثر بعضهم بها على سفن تزمع الاقلاع الى فلسطين ، واستطاعوا ان يستقلوها ، أما الآخرون فعادوا وأخذوا يسيرون في بطء في طريق العودة ، على انه لم يصل منهم آخر الأمر الى اوطانهم إلا عدد ضئيل .

وبرغم ما حاق بهم من ألوان البؤس والشقاء ، فإنهم فيما يبدو كانوا أحسن حظاً من الاطفال الفرنسيين . ففي سنة ١٢٣٠ وصل الى فرنسا قادماً من الشرق قس ، أخذ يروي قصة غريبة ، إذ قال انه احد صغار القسس الذين سبق ان صحبوا ستيفن الى مرسيليا ، وانه استقلَّ معهم السفن التي قدمها التجار . ولم تنقضِ إلا بضعة ايام عليهم في البحر ، حتى تعرّضوا لطقس سيء ، فتحطمت سفينتان على جزيرة سان بيترو ، تجاه الطرف الجنوبي الغربي لجزيرة سردينيا ، فغرق كل المسافرين . اما السفن الخمس التي نجت من العاصفة ، فلم تلبث بعدئذ ان أحاط بها اسطول اسلامي من افريقية ، وأدرك المسافرون انهم لم يأتوا الى تلك الجهات إلا بناء على اتفاق ، كيما يباعوا أسرى . فتمَّ نقلهم جميعاً الى بوجيه ، على شاطىء الجزائر ، حيث تمَّ شراء عدد كبير منهم عند وصولهم ، فأمضوا ما تبقّى من حياتهم في الأسر . على حين ان الآخرين ، ومنهم القسيس الصغير ، جرى حملهم على السفن الى مصر ، حيث ارتفعت بها أثمان الأرقاء من الفرنج . فلما بلغوا الاسكندرية ، اشترى واليها الجانب الاكبر من الحمولة ، فاستخدمهم في فلاحة ضياعه . ووفقاً لرواية القسيس ، لا زال منهم على قيد الحياة نحو سبعمائة . ولم ينقل منهم الى أسواق الرقيق في

بغداد سوى جماعة قليلة العدد ، استشهد منهم ثمانية عشر ، لأنهم رفضوا اعتناق الاسلام . على ان القسس الصغار وفئـة قليلة ممن يعرفون القراءة والكتابة كانوا أحسن حظاً ، نظراً لأن امير مصر وقتذاك ، وهو العادل ابن السلطان الكامل ، كان شديد الشغف باللغات والآداب الغربية . فاشتراهم وأبقاهم عنده ، على انهم مترجمون ومعلمون وكتّاب ، ولم يحاول ان يحملهم على اعتناق الاسلام . فأقـاموا بالقاهرة في أمر مريح هين ، وتبعاً لذلك جرى اطلاق سراح هذا القسيس ، وتقرر السماح له بالعودة الى فرنسا ، فأخبر من سأله من آباء الاطفال ، كل ما عرفه عن رفاقه ، ثم اختفى في عالم الغموض والنسيان . على ان قصة اخرى ترجع الى زمن متأخر ، اعتبرت ان تاجري مرسيليا الشريرين ليسا إلا التاجرين اللذين تمّ شنقهما بعد بضع سنوات ، لمحاولتهما اختطاف الامبراطور فردريك ، لصالح المسلمين . فجعلتهما الرواية آخر الامر يؤديان جزاء ما ارتكبا من جرائم [١] .

لم يكن هؤلاء الاطفال الصغار هم الذين ينقذون بيت المقـدس ، إذ توافرت للبابا انوسنت آراء عظيمة القدر ، بالغة الواقعية . قرر البابا انوسنت

---

(١) عن قصة حملة الاطفال الصليبية ، انظر :

Röhricht : «Die Kinderkreuzzug», in Historische Zeitung, vol. XXXVI.

Alphandéry : « Les Croisades des Enfants », in Revue de l'Histoire des Religions, vol. LXXIII.

Munro : « The Children Crusade », in American Historical Review, vol. XIX.

Winckelmann, Geschichte Kaiser Friedrichs des Zweiten, I, pp.221-222.

وعن اشتراك الالمان في حملة الاطفال ، انظر :

Annales Stadenses, (M. G. H. Scriptores, vol. XVI, p. 355).

ان يعقد مجمعاً كبيراً للكنيسة في رومـــا ، في سنة ١٢١٥ ، لتنظيم كل الامور الدينية بالعالم المسيحي ، وللنظر في ما هو اكثر من ذلك ، وهو إدماج الكنيسة اليونانية في كنيسة روما . وأراد البابا توجيه حملة صليبية على الفور ، فظلّ مندوبه روبرت كورسون ، طوال سنة ١٢١٣ ، يطوف بأرجاء فرنسا ، وقد حمل أوامر البابا ، بأنه نظراً للحاجة الملحّة ، لا ينبغي المبالغة في فحص صلاحية أولئك الذين اتخذوا الصليب . وقــام المندوب البابوي بتنفيذ تعليمات سيده ، في حماس تجـاوز الحد . فلم يلبث النبلاء الفرنسيون ان شرعوا في الكتابة الى ملكهم بان دعاة البابا التمسوا لأتباعهم الأعذار للاشتراك في الحملة الصليبية ، وان جموعاً بالغة الضخامة من الشيوخ والاطفال والبرصى ، والمقعدين ، والنساء ذوات السمعة السيئة ، احتشدوا سويا ليشنوا الحرب المقدسة . وكان لزاماً على البابا ان يضبط روبرت ، وحتى افتتاح المجلس في اللاتران سنة ١٢١٥ ، لم تكن الحملة الصليبية مستعدة للرحيل . وتحدث البابا في الجلسة الاولى عن احوال بيت المقدس ، ونهض بطريرك بيت المقدس ، يلتمس المساعدة . وبادر المجمع الى ان يؤكد من جديد ما يبذل للصليبيين من امتيازات وحقوق ، والى تدبير تمويل الحملة ، التي كان لا بد ان تجتمع في صقلية او أبوليا ، كيما تبحر الى الشرق في اول يونيه سنة ١٢١٧ (١) .

---

(١) انظر : Fliche, op. cit. pp. 156 - 216.
Donovan, Pelagius and the Fifth Crusade.
اورد دونوفان عن الحملة الصليبية الخامسة ، تقريراً بالغ الدقة ، مستنداً الى الوثائق ، برغم ما بدر منه من تحيز ضئيل الى جانب بيلاجيوس .

أثار المجمع النشاط عنـد الكنيسة ، إذ ظلّ المبشرون طوال ربيع سنة ١٢١٦ يجوبون أنحاء العالم المسيحي بالغرب ، حتى امتدّ نشاطهم الى أيرلنده وسكنديناوه ، وأعلن أساتذة جامعة باريس ان كل من وعد بالاشتراك في الحملة الصليبية ، ثم حاول ان يتجنب الوفاء بوعده ، يعتبر مرتكباً لجريمة ، عقوبتها الاعدام . وتردد ما صدر عن الشعب من رؤيات عن الصلبان السابحة في الهواء ، والتي ذاعت بتفاصيلها . كان انوسنت براوده الامل ، بعد ان لحظ انـه كاد يمضي على رؤية الوحش السنوات المحددة بهـا ، وعددها ستمائة وست وستون سنة [1] ، كما انه انقضى فعلاً على مولد محمد ستة قرون ونصف قرن . سبق للبابا انوسنت ان كتب الى السلطان العادل ، يحذره بما سوف يحل من الغضب ، ويحثه على ان يتنازل في هدوء عن بيت المقدس ، ولا زال فيه فسحة من الوقت . غير ان تفاؤله كان سابقاً لأوانه . إذ كتب اليه سراً ، جيرفاس ، رئيس دير بريمونتريه يخطره ان نبلاء فرنسا اخذوا يتجاهلون آراء أساتذة جامعة باريس ، وأنه لا بد من اتخاذ اجراء حاسم ، لحمل دوق برجنديا ودوق اللورين على المحافظة على وعديهما . كما انه بذل له نصيحة صادقة بأنه ينبغي ألا يشترك الفرنسيون والألمان في حملة واحدة ، إذ ان الأمتين لا تعملان

---

(١) ما ورد في نبوءة دانيال بالفصل السابع ، عن الوحوش الاربعة ، انما يقصد بهـا تعاقب اربع امبراطوريات ، الواحدة بعـد الاخرى ، ثم اجتمعت الوحوش الاربعة في هيئة تنين يمثل الدولة التي تحكم العالم ، وقد انتقل مقرها من بابليون الى رومـا . ظلت الكنيسة نحو خمسة قرون لا تعترف برؤيا القديس يوحنا ، ولم ترد هذه الرؤيا في انجيل الكنيسة السريانية . انظر :
Davis : Dictionary of the Bible, Revelation, Beast.

معاً في انسجام ، غير ان الجوع شديدة الفقر أقبلت في حماس على اتخاذ الصليب ، وينبغي ألا يؤدي التأجيل الى تثبيط همتهم [1] .

وفاة البابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٦ :

في مايو سنة ١٢١٦ توجه البـابا انوسنت الى بيروجيا ليحاول تسوية العداء طويل الأمد بين جنوه وبيزا ، كيما تسهما معاً في نقل الصليبيين . على انه مات في بيروجيا بعـد مرض قصير ، وذلك في ١٦ يوليه سنة ١٢١٦ . والواقع انه لم يضارع عصر انوسنت في ازدهاره او انتصاره الظاهري سوى قلة من عهود البابوات في أزمنتهم ، ومع ذلك لم يتحقق مطلقاً أعز ما كان يطمع فيه ، وهو استرداد بيت المقدس ، ولم يمض يومان على وفاته حتى تم انتخاب الكاردينال سافيلي ليكون البـــابا هونوريوس الثالث [2] .

حرص هونوريوس على ان يسير على نهج سلفه العظيم ، انوسنت ، فلم تنقض إلا بضعة ايام على توليه البابوية ، حتى كتب الى الملك يوحنا بريين في عكا،

---

(١) انظر : Luchaire, Innocent III, La Question d'Orient, pp.281-289.
اورد رواية كاملة عن المفاوضات . اما الاحداث المقترنة بالمعجزات فأثبتها :
Oliver of Paderborn, Historia Damiatana, pp. 174 - 175, 285 - 286, 287 - 288.
انظر ايضاً :
Innocent III, letters, XVI, 28, 37, (M. P. L. vol. CCXVI, cols. 817- 822, 831 - 832).

(٢) انظر : Fliche, op. cit. p. 212.

يخطره ان الحملة الصليبية على وشك القدوم اليه [1] . وازداد تلهف يوحنا ، نظراً لأن الهدنة التي عقدها مع العادل ينتهي اجلها في السنة التالية . وكتب هونوريوس ايضاً الى ملوك اوروبا . غير انه لم يستجب له إلا عدد قليل منهم . ففي اقصى الشمال ، وعد انجي الثاني ملك النرويج بالاشتراك في الحملة ، غير انه مات في الربيع التالي ، ولما ارتحلت الحملة السكندناوية ، لم تكن سوى حملة حقيرة [2] ، وقد اتخذ اندرو الثاني ملك المجر الصليب فعلاً ، غير ان انوسنت احله من الوفاء بوعده منذ زمن مبكر ، بسبب نشوب الحرب الأهلية ببلاده ، وما ابداه من حماس للاشتراك في الحملة زمن هونوريوس ، حمله عليه باعث آخر . إذ ان زوجته الملكة كانت ابنة اخت هنري امبراطور اللاتين بالقسطنطينية ، الذي لم ينجب ذرية ، وكانت له آمال في الارث . فلما مات هنري في يونيه سنة ١٢١٦ وقع الاختيار على بطرس كورتيناي والد ملكة المجر ليحل مكانه في عرش الامبراطورية . فأخذ حماس اندرو في الزوال ، غير انه وافق آخر الأمر على ان يكون جيشه جاهزاً عند حلول فصل الصيف [3] . ولقي التبشير للحرب الصليبية استجابة طيبة في بلاد الراين السفلى ، وكان البابا يتطلع الى اسطول ضخم

---

(١) انظر : Regesta Honorii Papae III, (ed. Pressutti), nos. 1, 673, I, 1178 - 1180.

(٢) انظر : Regesta Honorii Papae III, no. 399, 1, p. 71.

(٣) انظر : Innocent III, letters, XV, 224, (M. P. L. vol. CCXVI, col. 757).
Theiner, Vetera Monumenta I, pp. 5 - 6.

يسيره الفريزيان [1] . على انه حدث مرة اخرى معوقات لسير الحملة . ولم تكن الانباء الواردة من فلسطين بالغة التشجيع . إذ ان جيمس فيتري ، الذي تقرر منذ زمن قريب ارساله الى فلسطين ليتولى اسقفية عكا ، وقد حمـــل تعليمات لإثارة نشاط اللاتين المحليين ، رفع الى البابا تقريراً شديد المرارة عن كل ما صادفه ، فالمسيحيون الوطنيون يكرهون اللاتين ويؤثرون حكم المسلمين ، بينما انصاع اللاتين انفسهم الى حياة الخمول والبذخ والاخلاق البذيئة ، وغلبت عليهم الصفة الشرقية . وفسد رجال الدين اللاتين ، ونزعوا الى الجشع والتآمر . ولم يكن جديراً بالمـــدح سوى الطوائف الدينية العسكرية ، على الرغم من ان الـنزلاء الايطاليين ، الذين كانوا من الحكمة والتعقل ما يكفي لأن يمارسوا حياة اقتصادية معتدلة ، لا زالوا يدخرون بقية من النشاط والتجارة . غـير ان الحسد المتبادل بين المدن الايطالية الكبرى ، امثال البندقية وجنوه وبيزا ، جعلهم عاجزين دائماً عن التعاون معاً . والواقع انه ليس للفرنج في الشرق الادنى رغبة في قدوم حمـــلة صليبية حسبما تبين للأسقف جيمس ، فما نعموا به من السلام لمدة عشرين سنة زاد في رخائهم المادي . كما ان المسلمين لم ينزعوا للاعتداء منذ وفاة صلاح الدين ، لما جنوه من ارباح نتيجة لازدياد النشاط التجاري ، فالمتاجر القادمة من داخل البلاد غمرت ارصفة مينائي عكا وصور . كما ان القصر الذي شيده يوحنا ابلين في بيروت يعتبر دليـــلا على الرخاء المتجدد ، واستقرت في مصر جاليات ايطالية احست بالرضى والسعادة في حياتها . وباضطراد ازدياد القوة الشرائية لغرب اوروبا ، اضحى لتجارة البحر

---

(۱) انظر : Regesta Honoii Papae III, no. 885, 1, pp. 149 - 150.

المتوسط مستقبل مشرق . على ان كل ذلك يتوقف على المحافظة على السلام القلق المحفوف بالخطر [١] .

تأجيل سير الصليبيين سنة ١٢١٧ :

على ان البابا هونوريوس الثالث كان يرى عكس ذلك . إذ كان يأمل في ان تقلع حملة كبيرة من صقلية في صيف سنة ١٢١٧ . ولكن لما حلّ الصيف ، لم يكن بها سفن ، على الرغم من ان جماعات مختلفة من الفرسان الفرنسيين وصلت فعلاً الى الموانىء الايطالية . إذ وصل جيش ملك المجريين الى سبالاتو في دالماشيا في أغسطس سنة ١٢١٧ ، ولحق به فيها ليوبولد دوق اوستريا بجيشه [٢] ولم يصل الاسطول الفريزي إلا الى البرتغال في يوليه ، وبقي جانب منه في لشبونة . على أن بقية الاسطول اقلعت الى جائيتا في اكتوبر ، فأضحى الاسطول من التأخير ما يمنعه من مواصلة السير الى فلسطين إلا بعد انتهاء فصل الشتاء [٣] . والمعروف ان البابا هونوريوس الثالث اصدر الاوامر ، في نهاية يوليه ، الى الصليبيين المحتشدين في ايطاليا وصقلية ، بالمضي الى قبرص . غير انه لم تبذل حتى وقتذاك السفن اللازمة

---

(١) انظر : James of Vitry, History of Jerusalem, (trans. Stewart), P. P. T. S. vol. XI, pp. 56 - 91.

(٢) انظر : Thomas Spalatensis, Historia Salonitana, (Scriptores Rerum Hungaricarum, III, p. 573).

(٣) انظر : Gesta Crucigerorum Rhenanorum, pp. 29 - 34.
De Itinere Frisonum, pp. 59 - 68.

وكلا المصدرين واردان في :

Röhricht, Quinti Belli Sacri Scriptores Minores.

لنقلهم . وعثر الدوق ليوبولد آخر الأمر على سفينة في سبالاتو استقلها مع جماعته الصغيرة العدد الى عكا . لم تستغرق رحلته سوى ستة عشر يوماً ، واقتدى به بعد اسبوعين الملك اندرو ، غير ان اهل سبالاتو لم يسمحوا له إلا بسفينتين ، ولذا تخلّف وراءه معظم جيشه [1] . وحوالي ذلك الوقت ، هبط الى عكا هيو ملك قبرص بكل ما استطاع أن يجنده من العساكر [2].

كان المحصول ضعيفاً في سوريا في تلك السنة ، فتعذر تقديم المؤن لجيش عاطل . فلما وصل الملوك ، أوصى يوحنا بريين بسير الحملة على الفور . وفي يوم الجمعة ، ٣ نوفمبر ، ارتحل الصليبيون من عكا ، وسلكوا مرج عامر ، وعلى الرغم من ان عدد الجيش لم يكن كبيراً ، فإنه فاق في العدد كل جيش ظهر في فلسطين منذ الحملة الصليبية الثالثة . ولما سمع العادل بأن المسيحيين يحشدون قواتهم ، قدم الى فلسطين ببعض القوات ، غير انه لم يتوقع ما حدث من هـــذا الغزو المبكر . وإذ تفوّق عليه الصليبيون في العدد ، لم يسعه إلا ان ينسحب حينما تقدمت الحملة الصليبية نحو بيسان ، وأرسل العادل ابنه المعظم للدفاع عن بيت المقدس ، بينما انتظر في عجلون ، وقد استعدّ لمنع كل هجوم على دمشق . على ان لم يكن لمخاوفه ما يبررها ، اذ افتقر الجيش المسيحي الى النظام ، فاعتبر الملك يوحنا بريين نفسه القائـــد الاعلى للجيش ، بينما لم تتطلع العساكر

---

(١) انظر : Regesta Honorii Papae III, no. 672, 1, p. 117.
Thomas Spalatensis, p. 574.
Annales Claustroneoburgenses, (M. G. H. Scriptores, vol. IX, p. 622).

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 322.

الاوسترية المجرية إلا للملك اندرو ، على انه قائدهم ، وكذلك اعتبر القبارصة ملكهم هيو قائداً لهم . بينما لم تطع الطوائف الدينية العسكرية إلا قادتها .
احتل الصليبيون بيسان ونهبوها . ثم اخذ العساكر المسيحيون يسيرون على غير هدى ودون هدف ، فاجتازوا نهر الاردن ، وساروا على الضفة الشرقية لبحر الجليل ، ثم تجاوزوه الى الكنيسة ، راجعين الى عكا بعد اجتياز الجليل . وأول ما اهتم به الصليبيون ، هو الحصول على المخلفات الدينية ، وفرح الملك اندرو حينما حصل على اباريق للماء مما كان يستخدم في حفلات الزواج بكفر كانه (في الجليل) [1] .

لم يكن الملك يوحنا راضياً بما حدث ، فأعدّ من جانبه حملة لتدمير الحصن الذي شيده المسلمون على جبل الطور . ولم ينحاز اليه الملك هيو ، او الملك اندرو ، ولم ينتظر قدوم المساعدة من قِبل الطوائف الدينية العسكرية . وفشل هجومه الاول على الحصن ، في ٣ ديسمبر ، على الرغم من استعداد الحامية فعلاً للتسليم ، فلما قدم الفرسان الرهبان بعد يومين ، جرت محاولة اخرى لمهاجمة الحصن ، غير انها باءت بالفشل ، فارتدّ الجيش

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, pp. 323 - 324.
Oliver, Historia Damiatana, p. 165.
Johannes Thivrocz, Chronica Hungarorum, (Scriptores Rerum Hungaricarum, vol. I, p. 149).

عن كانه ، انظر :
Le Strange, Palestine under the Moslems, pp. 469 - 470.

المسيحي مرة اخرى الى عكا [١] .

عودة الملك اندرو الى بلاده سنة ١٢١٨ :

وفي مستهل العام الجديد ، ١٢١٨ ، دبّرت جماعة صغيرة من العساكر المجريين القيام بغارة في البقاع ، دون أن تحفل بنصيحة الفرنج المحليين ، ودون أن تحصل على موافقة الملك ، وكادت تهلك بأجمعها في عاصفة ثلجية ، عند اجتياز جبال لبنان [٢] . وفي تلك الاثناء توجّه الملك اندرو والملك هيو راكبين الى طرابلس ، حيث احتفل بوهمند الرابع ، امير انطاكية السابق والذي ترمّل حديثاً بعد زوجته الاولى بلايسانس سيدة جبيل ، بزواجه من ميليسند ، وهي اخت غير شقيقة للملك هيو . ومات بطرابلس فجأة الملك هيو في ١٠ يناير سنة ١٢١٨ ، تاركاً وراءه عرش قبرص ليتولاه ابنه الطفل هنري الذي لم يتجاوز عمره ثمانية شهور ، بوصاية ارملته أليس ملكة بيت المقدس [٣] . وعاد الملك اندرو الى عكا ، فأعلن انه يزمع الرحيل الى اوربا . لقد أوفى بوعده ، وأضاف حديثاً

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 324 - 325.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 165 - 167.
James of Vitry, History of Jerusalem, p. 119.
Abu Shama, II, pp. 163 - 164.

(٢) انظر : James of Vitry, op. cit. pp. 164 - 165.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 167 - 168.

(٣) انظر : Ernoul, p. 412.
Estoire d'Eracles, II, pp. 325, 360.
Gesta des Chiprois, p. 98.

رأس القديس ستيفن الى مجموعته من المخلفات الدينية . ولم تجد نفعاً ما بذله بطريرك بيت المقدس من توسلات وتهديدات لحمله على البقاء ، فسار بعسكره صوب الشمال الى ارمينيا بعد ان اجتاز طرابلس وانطاكية ، ومن ارمينيا توجه الى القسطنطينية بعد ان حصل على امان من السلطان السلجوقي . فلم تحقق حملته الصليبية شيئاً (١) .

اما ليوبولد دوق اوستريا ، فانه بقي وراءه ، غير انه كان مفتقراً الى المال ، فكان لزاماً عليه ان يقترض من جاي امبرياكو سيد جبيل خمسين الف بيزنته ، غير انه كان مستعداً لأن يمضي في العمل من اجل الصليب ، فأفاد الملك يوحنا بريين من مساعدته في اعادة عمارة استحكامات قيسارية ، بينما شرع فرسان الداوية والفرسان التيوتون في بناء قلعة ضخمة في عثليت جنوبي جبل الكرمل ، وهي المعروفة بقلعة الحجاج . وفي تلك الاثناء دمر العادل الحصن الذي شيده على جبل الطور ، نظراً لأنه سهل التناول ، وليس ثمة ما يدعو للابقاء عليه (٢) .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 168.
James of Vitry, Epistolae III, (ed. Röhricht), Zeitschrift für Kirchengeschichte, (Z. K. G.), vol. XV, pp. 568 - 570.
Johannes Thivrocz, loc. cit.
يشير يوحنا الى ان الملك اندرو حاز ايضاً رأس القديسة مرجريت ، واليدين اليمنيين القديس توماس والقديس بارثولميو ، وقطعة من عصا هرون .

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 325 - 326.
Oliver, Historia Damiatana, p. 169.
Abu Shama, II, pp. 164 - 166.

وفي ٢٦ ابريل سنة ١٢١٨ ، وصل الى عكا الشطر الاول من الاسطول الفريزي ، ثم قدم اليها بعد اسبوعين الشطر الآخر الذي أمضى الشتاء في لشبونة . وترددت الأنبـــاء بأن الصليبين الفرنسيين الذين احتشدوا في ايطاليا ، لن يلبثوا ان يتوالى قدومهم . فبادر الملك يوحنا برين الى ان يلتمس النصيحة عن خير وسيلة للافادة من القادمين الجدد . لم يغب عن الخاطر مطلقاً ان سبق لرتشرد ملك انجلترا ان نصح بمهاجمـــة مصر . وأشار بجمع اللاتيران ايضاً الى مصر ، على انهـــا الهدف الأساسي للحملة الصليبية . فاذا تيسر طرد المسلمين من وادي النيل ، فانهم لن يفقدوا بذلك فحسب أغنى اقليم لديهم ، بل انهم لن يستطيعوا ايضاً المحافظة على اسطولهم في شرق البحر المتوسط ، ولن يكون بوسعهم الابقاء على بيت المقدس في أيديهم زمناً طويلاً ، ازاء تعرضهم للهجوم المزدوج من عكا ، ومن السويس . وإذ صارت السفن الفريزية تحت تصرف الصليبيين ، تهيأت لهم الوسيلة للقيــام بهجوم كبير على الدلتا . فتقرر دون تردد ان يكون اول هدف للحملة ، هو ميناء دمياط ، المفتاح المؤدي للنيل [١] .

أضحى السلطان العــادل شيخاً متقدماً في العمر ، وكان يأمل في ان يمضي السنوات الاخيرة من حياته في هدوء وسلام . على انه صادف متاعب

---

(١) انظر :
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, pp. 37 - 38.
De Itineri Frisionum, pp. 69 - 70.
Ernoul, pp. 414 - 415.
James of Vitry, loc. cit.
Oliver, Historia Damiatana, p. 175.
Donovan, op. cit. pp. 36 n. 54.

في الشمال ، إذ ان ابن اخيه ، الظاهر غازي امير حلب ، مات سنة ١٢١٦ ، ولم يترك من يخلفـــه في امارة حلب ، سوى طفل اسمه العزيز ، فتولى الوصاية عليه الطواشي طغرل . على ان الافضل شقيق الظاهر ، وأكبر أبناء صلاح الدين ، ظهر من عزلته في سميساط ، يطالب بإرث الغازي ، ويدعو كيكاوس السلطان السلجوقي في قونية الى مساعدته . كان سلاجقة الأناضول وقتذاك في ذروة قوتهم ، بينما اختفت الامبراطورية البيزنطية ، وبلغ من انصراف امبراطور نيقية الى قتال الفرنج ، أنه لم يكن بوسعه ان يزعجهم ، واضمحل الدانشمنديون ، واستقرّ رعاياهم من التركمان وأخلدوا الى النظام ، وأخذ الرخاء يعود الى شبه جزيرة آسيا الصغرى . ثم حدث في أوائل سنة ١٢١٨ ان اجتاح كيكاوس والافضل بلاد حلب ، وزحفا على العاصمة . وإذ أدرك الطواشي طغرل الوصي على حلب ما يتعرّض له العـادل من تهديد الحملة الصليبية استنجد بالأشرف ، ابن عم سيده ، وحاكم العراق ، وهو الابن الثالث للعادل . فأنزل الأشرف هزيمة ساحقة بالجيش السلجوقي قرب البزاعة ، فانسحب الافضل راجعاً الى سميساط ، وكان لزاماً على امير حلب ان يعترف للأشرف بالسيادة عليه . غير ان السلاجقة ظلوا مصدر تهديد ، الى ان مات كيكاوس في السنة التالية ، بينما كان يتجهز للتدخل في النزاع على ولاية حكم الموصل . وبوفاة كيكاوس تهيأ للأشرف ان يوطد سلطانه ، وأن يصبح نداً خطيراً لأخوته في أقصى الجنوب [١] .

ظل العادل حتى آخر لحظة يأمل في ألا تبلغ الحماقـــة بالفرنج ان

---

(١) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 624 - 628.

ينقضوا الصلح . وشاركه في هذه الآمال ، ابنه الملك الكامل ، نائبه في حكم مصر . إذ توثقت العلاقات بين الكامل والبنادقة ، الذين عقد معهم سنة ١٢٠٨ معاهدة تجارية . إذ كان بمصر سنة ١٢١٥ ما لا يقل عن ثلاثة آلاف تاجر اوروبي . على ان ما حدث فجأة في تلك السنة من قدوم قائدين من الغرب الى الاسكندرية في جماعة مسلحة ، ازعج سلطات المدينة ، التي قررت التحفظ بصفة مؤقتة على كل الجالية الاوروبية . ولكن العلاقات الطيبة عادت الى ما كانت عليه . وفي سنة ١٢١٧ لقيت سفارة جديدة للبنادقة ترحيباً ودياً من قبل الكامل نائب العادل في حكم مصر . وما سلكته الحملة الصليبية سنة ١٢١٧ من اساليب ملتوية عقيمة ليست مجدية ، لم يكن لها شيء من الأثر عند المسلمين ، فلم يعتقدوا بأنه يتهدّدهم وقتذاك خطر .

الصليبيون يهبطون في مصر سنة ١٢١٨ :

وفي يوم عيد الصعود ، ٢٤ مايو سنة ١٢١٨ ، استقل الجيش الصليبي بقيادة الملك يوحنا بريين السفن الفريزية في عكا ، ثم اقلع الى عثليت كيما يجلب مؤناً اخرى ، ثم رفعت السفن بعد بضع ساعات مراسيها ، غير ان الرياح ألزمتها بالبقاء ، فلم تغادر المرسى إلا سفن قليلة اقلعت الى مصر ، فوصلت قبالة دمياط ، الواقعة على مصب نهر النيل ، في ٢٧ مايو سنة ١٢١٨ وألقت بمراسيها انتظاراً لقدوم سائر الجنود . لم يجرؤ الجند اول الأمر على ان يحاولوا الهبوط الى البر ، نظراً لأنه لم يكن بينهم قائد كبير يأتمرون بأمره . على انه حدث في ٢٩ مايو ، وقبل ان يظهر في البحر اسطول ، ان حث يوستورجيوس رئيس اساقفة نيقوسيا العساكر على ان يقبلوا سيمون الثاني كونت ساربروك قائداً عليهم ، وأن يبادروا بالهبوط

على الشاطىء الغربي للنهر عند مصبه ، فلم يلق إلا معارضة ضئيلة . وأوشكت عملية الهبوط على الاكتمال حين ظهر في الأفق معظم الاسطول الصليبي ، ولم تلبث السفن ان بلغت حاجز الرمـــال على مصب النهر ، فهبط الى الشاطىء ، الملك يوحنا بريين ، ودوق اوستريا ، ومقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة [١] .

كانت دمياط تقع على مسافة ميلين من مصب نهر النيل ، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة ، ودلت تجربة الفرنج سنة ١١٦٩ على ان لا يتحقق نجاح الهجوم على دمياط ، إلا اذا كان من جهة البحر والبر معاً . وامتدت سلسلة ، مثلما حدث سنة ١١٦٩ ، عبر النهر من الشاطىء الشرقي الى برج مقـام على جزيرة قريبة من الشاطىء الغربي ، على مسافة قصيرة أسفل المدينة . فأوصدت بذلك القناة الوحيدة الصالحة للملاحة ، وقام من وراء السلسلة جسر من السفن . فجعل الصليبيون البرج هدفهم الأسامي .

ولما ادرك المسلمون انه جرى توجيه الحمـلة الصليبية الى مصر ، بادر العادل بتجنيد جيش من سوريا ، بينما سيّر الكامل من القاهرة معظم الجيش المصري صوب الشمال ، فعسكر في العادلية على مسـافـة بضعة اميال من دمياط . غير انه لم يتوافر له من الرجال والسفن ما يكفي لمهاجمة المواضع

---

(١) انظر :
James of Vitry, History of Jerusalem, pp. 118 - 119.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 175 - 177.
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, pp. 33 - 39.
Estoire d'Eracles, II, pp. 326 - 327.

المسيحية ، على الرغم من تعزيز الحامية بالبرج . وفشل اول هجوم قوي للصليبيين على البرج في نهـــاية يونيه سنة ١٢١٨ . وعندئذ اقترح اوليفر بادر بورن ، الذي ارخ للحملة فيا بعد ، اعداد مشروع جديد ، اولاه مع زميل له كل الاهتمام . ولم يكن هذا المشروع سوى إقامة برج على سفينتين أحكم ربطها معاً بالحبال ، وجرت تغطية هذا البرج بالجلد ، وتزّود بالسلالم ، وبذا يتعرّض البرج للهجوم من جهة النهر والبر معاً [١] .

وفي يوم الجمعة ١٧ اغسطس سنة ١٢١٨ ، أدى الجيش المسيحي صلاة الشفاعة ، ثم بدأ الهجوم بعد اسبوع ، بعد ظهر يوم ٢٤ اغسطس . ولم تنقض اربع وعشرون ساعة حتى استطاع الصليبيون بعد قتال عنيف ان يتخذوا مواضعهم على اسوار الحصن ، وأن يتدفقوا الى داخله . وظلت الحامية تقاتل حتى لم يبق على قيد الحيـــاة إلا مائة رجل ، وعندئذ لم يسعها إلا التسلم . ووقع في أيدي الصليبيين ما كان بالحصن من غنيمة ضخمة ، وأقام الغزاة جسراً صغيراً نقلو عليه هذه الغنيمة الى الشاطىء الغربي . ثم قطعوا السلسلة وأزالوا الجسر الذي اعترض القناة الرئيسية ، فأضحى بوسع سفنهم ان تجتاز النهر الى أسوار دمياط [٢] .

---

(١) انظر : Abu Shama, II, p. 165.
Histoire des Patriarches d'Alexandrie, trans Blochet, pp. 240 - 241.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 179 - 182.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 182 - 184.
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, p. 40.
John of Tulbia, De Domine Johanne, in Röhricht, loc. cit. p. 120.
Histoire des Patriarches, p. 243.

البحر المتوسط

بالأميال الإنجليزية

رشيد

الإسكندرية

بحيرة مريوط

العادلية

فارسكور

شرمساح

طلخا

المنصورة

تنيس

بيلوزيوم

الزقازيق

بنها

بلبيس

البحيرة المرة

السويس

القاهرة

الجيزة

٢ - دلتا النيل زمن الحملة الصليبية الخامسة وحملة القديس لويس

كان العادل مريضاً بدمشق ، حينما جاءه بعد ايام قليلة انبـاء سقوط دمياط في ايدي الصليبيين . لقد سمع منذ زمن وجيز ان ابنه المعظم استولى على قيسارية ودمّرها . غير ان صدمة الكارثة التي حلت بدمياط ، كانت اقوى من ان يحتملها . فمات في ٣١ اغسطس ، وقد ناهز الخامسة والسبعين من عمره . افتقر العادل المعروف عند الصليبيين باسم (Saphadin) سيف الدين الى مـا اشتهر به اخوه صلاح الدين من شخصية رائعـة ، ودلت تصرفاته مع ابناء اخيه صلاح الدين على قدر من انعدام الولاء ، والخبث والدهاء . غير انه استطاع ان يحافظ على وحـدة الامبراطورية الايوبية ، وكان حـاكماً كفئاً ، متسامحاً ، محبـاً للسلام . واشتهر عند الصليبيين ، بأنه دائمـاً بالغ العطف ، شديد المحافظة على الشرف ، وظل حائزاً لإعجابهم به ، واحترامهم له . ثم خلفه في حكم سوريا ، ابنه الاصغر المعظم عيسى ، بينما خلفه في مصر ابنه الاكبر ، الكامل محمد [١] .

على ان الكارثة لم تكن عند المسلمين من الخطورة كالتي كان يخشاها العادل . فلو ان الصليبيين واصلوا ضغطهم ، وبادروا الى مهاجمة دمياط ، فالراجح ان تسقط المدينة بأيديهم . غير ان الصليبيين ترددوا بعد الاستيلاء على الحصن ،

---

(١) انظر : Abu Shama, II, p. 170.
Ibn al - Athir, II, pp. 116, 148.
Ibn Khallikan, Biograghical Dictionary, III, p. 235.
ورد في ابن الاثير ان العادل مات عن خمس وستين سنة ، بينما اشار ابن خلكان الى انه كان في الثالثة والسبعين عند وفاته .
وأورد تاريخ هرقل رواية غريبة عما حدث عند وفاته .

وقرروا الانتظار حتى تقدم الأمداد ، فعــاد عدد كبير من الفريزيان الى بلادهم ، ليلقوا عقابهم على تخليهم عن الحملة ، بأن لقوا حتفهم في الفيضان الكبير الذي اجتاح فريزيا عقب يوم واحد من عودتهم . وكان معروفاً وقتئذ ان الحملة التي ظل البابا زمناً طويلاً يعدّها ، غادرت ايطاليا فعلاً . وبرغم ما تعرضت له الحملة من الإرجاء المستمر ، فان البابا هونوريوس الثالث ، استطاع آخر الامر ان يعدّ اسطولاً كلفه عشرين الف مارك ، كيما ينقل العساكر الذين ظلوا منتظرين ما يزيد على سنة في برنديزي . وجعل الكاردينال بيلاجيوس اسقف سانت لوشيا قائداً للحملة (١) .

وحوالي ذلك الوقت ، دارت المفاوضات بين نبيلين فرنسيين ، هيرفيه ، كونت نيفر ، وهيو لوزجنان كونت لامارش ، وبين الجنويين عن سفن تحمل جماعة من الصليبيين الفرنسيين والانجليز الى الشرق . وعلى الرغم من ان كونت نيفر كان معروفاً بعقوقه للكنيسة ، فان البــابا سمح له ان يسهم في نفقات نقل العساكر ، بما يتقاضاه من رجال الكنيسة من فرنسا من ضريبة ، تقدر بجزء على عشرين من دخلهم . ولحق بالكونتين في جنوه رئيس اساقفة بوردو ، وليم الثاني ، وأساقفة باريس ، ولاؤون ، وآنجرز ، وجماعة من صغار السادة ، فضلاً عن ايرلات شستر ، وأرنديل ، ودربي ،

---

(١) انظر :
Oliver, Historia Damiatana, p. 186.
Alberic of Trois Fontaines, p. 788.
Registra Honorii Papae III, nos. 1350, 1433, I, pp. 224 - 237.

وونشستر . وأرسل البابا ، روبرت كاردينال كورسون ، كيا يكون الموجّه الروحي للاسطول ، غير انه لم يكن له سلطات المندوب البابوي [1] .

وصول الكاردينال بيلاجيوس الى دمياط سنة ١٢١٨ :

وصل الكاردينال بيلاجيوس بجملته الى المعسكر المسيحي ، في منتصف سبتمبر سنة ١٢١٨ . والمعروف ان بيلاجيوس كان اسبانياً ، اشتهر بدأبه الشديد على العمل ، وخبرته الادارية ، غير انه افتقر الى الكياسة . سبق استخدامه فعلاً في تسوية مشكلة الكنائس اليونانية في الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، وكل ما أحرزه من نجـــاح ، هو ان ازدادت كراهيتها لروما . كما ان قدومه الى دمياط أثار على الفور مشكلة . ذلك انه سبق ان جرى قبول الملك يوحنا بريين قائـــداً للحملة الصليبية ، ونازعه في قيادته في السنوات السابقة ، ملكا بلاد المجر وجزيرة قبرص . غير ان ملك المجر ارتحل عائداً الى بلاده ، بينما مات ملك قبرص . فرأى بيلاجيوس انه باعتباره مندوباً بابوياً ، ينبغي ان ينفرد بالقيادة . وما كان من تنافس بين سائر الامم المشتركة في الحملة الصليبية أضحى بالغ الظهور ، وما من

---

(١) انظر : Registra Honorii Papae III, nos. 1498, 1543, 1558, I, pp. 248, 256, 260.

وردت القائمة الدقيقة بأسماء هؤلاء الصليبيين في :

Greven : « Frankreich und der fünfe Kreuzzüg », Historiche Jahrbuch, vol. XLII.

Matthew of Westminister, Flores Historiarum, II, p. 167.

اثبت ماثيو وستمنستر اسماء الصليبيين الانجليز .

احد يستطيع حملهم على التزام النظام سوى ممثل البـابا . فأذاع نبأ بأن فردريك الثاني ، الامبراطور الشاب في غرب اوروبا ، سبق ان وعد بأن يقتفي أثره على رأس جيش امبراطوري ، فاذا قدم ، فمن المحقق ان تكون له القيادة العليا للحملة الصليبية . غير ان بيلاجيوس سوف لا يتلقى الاوامر من الملك يوحنا برين ، الذي لم يكن ملكاً بالفعل ، إلا عن طريق زوجته المتوفاة (١) .

وفي اكتوبر سنة ١٢١٨ ، توافر عند الملك الكامل من الامداد ما يكفي لمحاولة شن هجوم على معسكر الصليبيين ، بأسطول صغير سيره اليهم في النهر . غير ان الهجوم ردّه مـا اشتهر به الملك يوحنا من النشاط . ثم اقام المسلمون بعد بضعة ايام جسراً على النيل ، على مسافة قصيرة بأعلى المدينة . ولم تنجح الغارة التي شنها بيلاجيوس على اعمال البناء ، غير ان الكامل لم يتبع بناء الجسر ، بحمل الجيش على استخدامه في اجتياز النهر ، بل لجأ عوضاً عن ذلك الى شن هجوم آخر من النهر . ومع انـه كان يفوق الهجوم الاول في العنف ، إلا انـه جاء متأخراً . إذ وصلت اول كتيبة فرنسية ، وتولت الدفاع عن المعسكر الصليبي . وبلغ الهجوم الثاني حافة المعسكر الصليبي ذاته ، غير انـه رد على اعقابه الى النهر ، حيث غرق عدد كبير من العساكر الاسلامية (٢) .

---

(١) انظر : Donovan, op. cit. pp. 48 - 49.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 190 - 192.
Histoire des Patriarches, p. 394.
Gesta Obsidionis Damiata, (in Röhricht, loc. cit. pp. 79 - 80).
John of Tubia, p. 123.

على انه حدثت فترة هدوء فيما كان جارياً من القتال ، بعد وصول كل الجيش الفرنسي والانجليزي في اواخر اكتوبر . إذ أن وفاة العادل عطلت مـا كان الكامل ينتظره من مساعدة من سوريا ، فأضحى يترقب وقتئذ قدوم الجيش الذي وعد به اخوه المعظم ، وكان للمسيحيين ايضاً مشاكلهم . إذ حفروا قناة تمتد من البحر الى النهر ، بأعلى الجسر الذي اقامه المسلمون ، غير انهم لم يستطيعوا ان يملأوها بالماء . على انـه هبت من جهة الشمال ، ليلة ٢٩ نوفمبر ، عاصفة جعلت ميـاه البحر تطغي على الارض المنخفضة التي اقام عليها المسيحيون معسكرهم ، فانسابت المياه الى كل خيمة ، وغمرت المياه مستودعات المعسكر . وتحطمت سفن عديدة ، بينما اندفعت سفن اخرى الى المعسكر الاسلامي ، وهلك غرقاً افراس كثيرة ، ولـما انحسرت مياه الفيضان ، خلفت وراءها في كل مكان من الاسماك مـا قد احس كل واحـد بطعمها الشهي ، حسبما يقول المؤرخ اوليفر بادربورن . ولمنع تجدد وقوع الفيضان ، امر بيلاجيوس بالمبادرة الى اقـامة حاجز ، وما تبقى من حطام السفن ، وأشرعة السفن الممزقـة ، فضلاً عن جثث الخيول ، كل ذلك جرى استخدامه في زيادة ارتفاع السد . على ان النتيجة الوحيدة الطيبة التي نجمت عن الفيضان ، هي ان القنـــاة التي حفرها الصليبيون امتلأت بالماء ، وأضحى بوسع السفن المسيحية ان تجتازها الى النهر (١) .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 131 - 192.
John of Tulbia, p. 124.
Gesta Obsidionis Damiatae, p. 82.
Liber Duellii Christianii, in Obsidione Damiate Exacti, (in Röhricht, loc. cit.), pp. 148 - 149.
James of Vitry, Epistolae V, (Z. K. G. vol. XV, pp. 582 - 583).
Histoire des Patriarches, pp. 245 - 246.

لم يكد يتم اصلاح المعسكر ، حتى اندلع وباء خطير في الجيش ، وتعرض الضحايا لحمى شديدة ، واسودت بشرتهم . فهلك مـــا لا يقل عن سدس العساكر ، ومنهم الكاردينال روبرت كورسون . ومن بقي على قيد الحياة ، اضحوا ضعافاً ، زايلهم النشاط والروح المعنوية ؛ ثم تــلا ذلك شتاء بالغ القسوة والبرودة . وكان من صالح المسيحيين أن تعرّض المسلمون ايضاً لما تعرضوا له من المرض والبرد [1] .

احتلال العادلية سنة ١٢١٩ :

ادرك بيلاجيوس في اوائل فبراير سنة ١٢١٩ ، أن الجيش لن ينعشه إلا النشاط ، ففي يوم السبت ٢ فـــبراير سنة ١٢١٩ حث الجيش على النهوض لمهاجمة المسلمين . غير ان عاصفة ممطرة هوجاء ردّت الجيش على اعقابه . وفي يوم الثلاثاء التالي ، وصل الى المعسكر المسيحي نبأ بأن السلطان الكامل وجيشه اخذوا يتقهقرون ، فهرع الصليبيون الى العادلية ، فاكتشفوا ان المسلمين غادروا موقعهم . واحتل الصليبيون العادلية ، بعـد ان ردوا هجوماً شنته عليهم حامية دمياط ، وبذا أتموا عزل المدينة (دمياط) [2].

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 192 - 193.
James of Vitry, loc. cit.
John of Tulbia, p. 125.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 83.
Histoire des Patriarches, p. 249.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 194 - 201.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 83 - 84.
Estoire d'Eracles, II, p. 337.
John of Tulbia, loc. cit.

يرجع السبب فيما لجأ اليه الكامل من الفرار المفاجىء ، الى أنه اكتشف مؤامرة بين حاشيته . ذلك ان احد امرائه ، وهو عماد الدين احمد بن المشطوب ، دبّر امر اغتياله ، على أن يحل مكانه اخاه الفائز . ونظراً لأن الكامل لم يعلم ما اذا كان عدد كبير من قادته وأمرائه اشتركوا في المؤامرة ، حمله اليأس على التفكير في الفرار الى اليمن ، حيث تولى الحكم بهذه البلاد ابنه المسعود ، غير انه سمع بأن اخاه المعظم نهض آخر الأمر لنجدته . فتحرك الكامل بجنده صوب الجنوب الشرقي الى اشمون ، حيث التقى الاخوان ، الكامل والمعظم ، في ٧ فبراير سنة ١٢١٩ . والواقع ان حضور المعظم في جيش ضخم أدى الى اخضاع المتآمرين ، فتمّ القاء القبض على ابن المشطوب ، وتسييره الى الحبس في الكرك ، بينما تقرر نفي الامير الفائز الى سنجار ، وأحاط الغموض بموته في اثناء الطريق اليها . وأنقذ الكامل عرشه ، ولكن كلفه ذلك ضياع دمياط [١] .

لم يكن بوسع الكامل ان يطرد المسيحيين من العادلية ، برغم مساعدة المعظم له . إذ ان النهر والخلجان والقنوات جعلت من المستحيل على المسلمين ان يفيدوا من تفوقهم في العدد . وما شنوه من هجمات على المعسكرين المسيحيين ، في غرب النهر ، وفي العادلية لم يكن مصيرها إلا الفشل . وعندئذ اقام السلطان الكامل معسكره في فارسكور التي تقع على مسافة ستة اميال ، جنوبي دمياط ، وتجهز لمهاجمة مؤخرة الصليبيين ، إذا حاولوا

---

(١) انظر :
Ibn al - Athir, II, pp. 116 - 117.
Ibn Khallikan, III, 1, p. 240.
Histoire des Patriarches, pp. 246 - 247.

مهاجمة دمياط . وظل وضع الجيشين حرجاً ، طوال فصل الربيع ، إذ ان كل حركة من جانب احدهما لم تلبث ان يحبطها الجانب الآخر . على ان معارك ضارية دارت يوم احد السعف ، ثم يوم احد العنصرة ، حينما حاول المسلمون عبثاً ان يشقوا طريقهم الى العادلية . اما في دمياط فعلى الرغم من توافر المؤن بها ، فإن الامراض زادت في تناقص عدد رجال حاميتها ، ومع ذلك لم يجرؤ المسيحيون على ان يشنوا هجوماً عليها[1] .

وفي تلك الاثناء قرر الملك المعظم ان يدمّر استحكامات بيت المقدس . وإذ كان لا بدّ من بذل بيت المقدس للمسيحيين لإنهاء الحرب ، فينبغي الا يتم تسليمها لهم إلا في حالة خراب وعجز عن الدفاع . بدأ تخريب الاسوار في ١٩ مايو سنة ١٢١٩ ، فأثار الذعر في المدينة . إذ اعتقد المسلمون من سكان المدينة ان الفرنج قد اقبلوا ، فهرب معظمهم مذعورين الى ما وراء نهر الاردن ، وتعرّضت المساكن المهجورة وقتئذ الى النهب والسلب من قبل الجنود . وأراد بعض المتشددين في الدين تدمير كنيسة القيامة ، غير ان السلطان لم يسمح بذلك . وحدث بعد الفراغ من تدمير استحكامات بيت المقدس ، ان تخربت ايضاً حصون الجليل ، وتبنين ، وصفد ، وبانياس . وفي الوقت ذاته طلب السلطان الكامل والسلطان المعظم المساعدة من جميع

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 202 - 206.
Liber Duellii, pp. 151 - 152.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 87 - 90.

انحاء العالم الاسلامي ، وتوسلا على الاخص بالخليفة في بغداد ، الذي وعد بأن يرسل جيشاً ضخماً لم يقدم مطلقاً [1] .

وأعقب الشتاء القارس ، صيف قائظ ، فانهارت من جديد الروح المعنوية عند الصليبيين . أصرّ بيلاجيوس مرة اخرى على الحركة والنشاط ، فركز الصليبيون جهودهم في قذف أسوار المدينة (دمياط) بالمناجيق ، بعد ان ردّوا هجوماً عنيفاً شنّه المسلمون على معسكرهم في ٢٠ يوليه ، تكبد فيها الجانبان خسائر جسيمة . وبينما لم يثمر اشتباك الصليبيين في القتال ، نظراً لأن ما استخدمه المدافعون عن المدينة من النيران الاغريقية ألحق ضرراً كبيراً بأدواتهم ، ولم يخمد هذه النيران ما صبه عليها الصليبيون من النبيذ والأحماض ، شنّ المسلمون هجوماً آخر كاد يدمر كل الجيش المسيحي ، لولا حلول الظلام . وأما الهجوم الآخر الذي شنه الصليبيون على أسوار المدينة في ٦ اغسطس سنة ١٢١٩ فلم يصادف ايضاً شيئاً من النجاح [2] .

---

(١) انظر : Abu Shama, II, pp. 173 - 174.
Ibn al - Athir, II, p. 119.
Histoire des Patriarches, p. 52.
Estoire d'Eracles, II, p. 339.
Oliver, Historia Damiatana, p. 203.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 208 - 210.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 87, 90 - 97.
John of Tulbia, pp. 127 - 128.

أثارت الهزائم العساكر الصليبية فدفعتهم الى النشاط ، ووجهوا اللوم الى قادتهم لتراخيهم وسوء قيادتهم . وإذ لقي عـــدد كبير من النبلاء المعروفين مصرعهم ، ومن هؤلاء كونتا لامارش ، وبارسيرسين ، ووليم كونت شارتر ، ومقدم الداوية ، عـــاد آخرون الى اوربا ، إذ ان ليوبولد دوق اوستريا ترك جيشه في مايو سنة ١٢١٩ ، وقد كان يعتبر أشد الأمراء نشاطاً ، والمعروف انه ظل يخدم في الشرق لمدة سنتين ، وما من احد يستطيع ان يوجه اليه اللوم ، على عودته الى بلاده. وما أظهره ليوبولد من المروءة والفروسية محت ما لحقه من الشهرة السيئة ، بسبب مشاجراته مع رتشرد قلب الاسد في الحملة الصليبية الثالثة . وحمل معه الى بلاده قطعة من الصليب المقدس . على ان قافلة السفن التي نقلته الى اوربا ، حملت ايضاً غيره ، يعتبر رحيلهم فيما يبدو تخلياً عن القضية الصليبية [١] . وحوالي نهاية اغسطس سنة ١٢١٩ ، وبينما اشتد الجدال بين الملك يوحنا وبيلاجيوس على الخطة الحربية ، إذ دافع الملك يوحنا عن تشديد الحصار على دمياط ، بينما أصرّ بيلاجيوس على شن هجوم على معسكر السلطان ، تولى العساكر زمام الأمور ، فتدفقوا في ٢٩ اغسطس في جموع مضطربة غير منتظمة ، على خطوط المسلمين . وتظاهر المسلمون بالارتداد ، ثم قاموا بهجوم معاكس ، وقد حاول بيلاجيوس

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 188, 207 - 208.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 90.
Liber Duellii, p. 258.
Riant : Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, II, p. 283.
أشار ريانت الى ما حازه ليوبولد من المخلفات المقدسة . اما كونت بار سيرسين فلم يكن سوى ميلو الثالث لى بويزيه .

ان يتولى القيادة ، ولكن برغم ما بثه من مواعظ ونصائح ، استدار الجنود الايطاليون وولوا الأدبار ، ولم يلبث ان ساد الذعر الشديد . ولم ينقذ الباقين ويحفظ المعسكر ، إلا مهارة الملك يوحنا ، والنبلاء الفرنسيين والانجليز [1] .

القديس فرانسيز الأسيمي سنة ١٢١٩ :

هذه المعركة راقبها في وجل شديد زائر معروف ، هو الراهب فرانسيز الاسيسي الذي قدم للمعسكر . لقد جاء الى الشرق وقد اعتقد مثلما اعتقد من جاء قبله وبعده من اشخاص كثيرين ، اخياراً وأشراراً ، بأن بوسع بعثة سلام ان تحل الأمن والسلام . فطلب من بيلاجيوس ان يأذن له بالتوجه الى زيارة السلطان الكامل . فوافق بيلاجيوس بعد تردد ، وبعث بـه في ظل علم الهدنة الى فارسكور . ارتاب فيه اول الأمر الحراس المسلمون ، غير انهم لم يلبثوا ان قرروا ان شخصاً في هذه البساطة ، وهذه الرقة وهذه القذارة لا بدّ ان يكون مجنوناً ، فعاملوه بالاحترام اللائق برجل وثيق الصلة بالله . ثم سيّروه الى السلطان الكامل الذي سحرته شخصيته ، وظل يستمع في هدوء الى رجائه ، على ان الكامل كان من الرفق والتمدن

---

(١) انظر :
Oliver, Historia Damiatana, pp. 213 - 219.
Fragmentum Provinciale de Captione Damiatae, (in Röhricht, loc. cit), pp. 185 - 192.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 101 - 104.
John of Tulbia, pp. 132 - 133.
Histoire d'Eraclee, II, pp. 340 - 341.

انه لم يطلب من القديس فرانسيز ان يقيم دليلاً على ايمانه ، بالالتجاء الى اختبار النار ، ولم يتعرّض للمرارة التي يصح ان تثيرها مناقشة عامة في الدين . ورفض القديس فرانسيز قبول ما بذله الكامل من هدايا كثيرة ، وأرسله الكامل الى المسيحيين في حرس شرف[1] .

الكامل يعرض شروطاً للصلح سنة ١٢١٩ :

الواقع ان الحاجة لم تكن تدعو الى تدخل القديس فرانسيز ، لأن الكامل نفسه كان ينزع الى السلام ، إذ ان النيل لم يرتفع إلا قليلاً في ذلك الصيف ، فأضحت مصر مهدّدة بالمجاعة . واشتدت حاجة الحكومة الى ان تسخر كل مواردها للسعي الى الحصول على المؤونة من البلاد المجاورة . وحرص المعظم على ان يعود بجيشه الى سوريا ، ولم يكن كل من المعظم والكامل راضياً عن جهود اخيهما الأشرف في اقصى الشمال . وفي بغداد اضحى الخليفة الناصر لدين الله في حوزة جلال الدين خوارزمشاه ، الذي دمّر والده محمد خوارزمشاه سلطان السلاجقة في ايران ، وأنشأ امبراطورية امتدت من نهر السند الى نهر دجلة . كان يصح استخدام جلال الدين خوارزمشاه لمناوأة الاشرف ، غير انه نظراً لأطماعه المعروفة ، اضحى من

---

(١) انظر : Acta Sanctorum, October 4, pp. 611 ff.
Van Ortroy : « Saint Francis et son voyage en Orient », in Analecta Bollandiana, vol. XXXI.
Ernoul, p. 431.
ما ورد في ارنول من قصة عن رجال دين لم يذكر اسمهم ، تشير فيما يبدو الى ما قام به القديس فرانسيز من زيارة الى السلطان الكامل .

الخطورة التمادي في تشجيعه . ولذا كان المعظم مستعداً لمساندة الكامل في في السعي الودي للتفاوض مع الفرنج . وحدث في احد ايام شهر سبتمبر سنة ١٢١٩ ان قدم من قبل السلطان اسير من الفرنج ، يعرض على الصليبيين عقد هدنة قصيرة الأمد ، ويقترح بأن المسلمين سوف يكونون مستعدين للتنازل عن بيت المقدس . فتقرر قبول الهدنة ، غير ان المسيحيين رفضوا ان يناقشوا ما عدا ذلك من شروط الصلح (١) .

أمضى الجانبان المسيحي والاسلامي فترة الهدنة في اصلاح استحكاماتها . كما ان عدداً كبيراً من المسيحيين اعتبروها فرصة ملائمة للعودة الى بلادهم . إذ غادر البلاد فريق منهم في مستهل هذا الشهر (سبتمبر) ، وأقلعت في ١٤ سبتمبر اثنتا عشرة سفينة اخرى بحمولتها من العساكر ، على ان الخسارة عوّضها ما حدث بعد اسبوع من وصول السيد الفرنسي سوفاري موليون مع جماعة تقلهم عشر سفن جنوية (٢) . فلما نقض الكامل الهدنة ، بأن هاجم الفرنج في ٢٦ سبتمبر ، نجح العساكر القادمون حديثاً في الدفاع عن المعسكر المسيحي (٣) .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 218.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 105.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, loc. cit.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 104.
John of Tulbia, p. 133.
James of Vitry, loc. cit.

(٣) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 219.
Fragmentum Provinciale, pp. 193 - 194.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 106.
Liber Duellii, p. 160.

على ان الكامل لا زال يأمل في الصلح ، بعد ان أدرك ان دمياط لا تستطيع الصمود ، إذ ان المرض جعل رجال الحامية من الضآلة وقلة العدد ، ما أضحوا معه عاجزين عن شحن الأسوار بالعساكر ، وباءت بالفشل كل محاولات الكامل لأن يدخل الأمداد الى المدينة . أما الخونة من المعسكر المسيحي الذين أفاد الكامل من خدماتهم ، فلم يحرزوا شيئاً من النجاح في كل ما قاموا به من خطط . وفي نهاية اكتوبر سنة ١٢١٩ أرسل الكامل فارسين أسيرين ، ليعرضا على الفرنج شروطاً محددة للصلح ، تقضي بأنه اذا جلا الفرنج عن مصر ، فسوف يعيد اليهم صليب الصلبوت ، وسوف يحصلون على بيت المقدس ، وقلب فلسطين والجليل . وسوف لا يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع الواقعة وراء نهر الاردن ، غير أنهم سوف يؤدون عنها إتاوة [١] .

كان ذلك عرضاً مثيراً للدهشة والقلق ، إذ سوف يعود الى العالم المسيحي بدون قتال ، المدينة المقدسة ، وبيت لحم والناصرة ، وصليب الصلبوت . نصح الملك يوحنا بريين بقبول هذا العرض ، وسانده في ذلك باروناته والبارونات القادمون من انجلترا وفرنسا وألمانيا . ولكن لم يرض

---

(١) انظر :

Oliver, Historia Damiatana, p. 222.
Estoire d'Eracles, II, pp. 341 - 342.
Ernoul, p. 435.
Makrizi, (trans. Blochet), IX, p. 490.
Histoire des Patriarches, p. 253.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 109 - 110.
Ibn al - Athir, II, p. 122.

بهذا العرض ، بيلاجيوس وبطريرك بيت المقدس . إذ اعتقدا أنه من الخطأ التوصل الى اتفـــاق مع الكفار . ووافقتها الطوائف الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية ، إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس والقلاع الواقعة بالجليل ، وكيفما كان الامر ، فمن المستحيل المحافظة على بيت المقدس ما لم تتم السيطرة على اقليم ما وراء الاردن . وعارض الايطاليون ايضاً شروط الكامل للصلح ، فعلى الرغم من حرص المدن الايطالية البحرية على ألا تقطع علاقاتها مع مصر ، فانه قد حدث وقتئذ ، أنهم يودون اتخاذ دمياط مركزاً لتجارتهم . ولم يهتموا بإضافة الاقليم الداخلي الى امـلاك الفرنج . وبلغ النزاع بين الفريقين من المرارة ، ان اعتقد جيمس اسقف عكا ، ان السلطان لم يبذل عرضه إلا كيما يثير المنازعات بين المسيحيين . فتقرر رفض عرض السلطان تحت إلحاح وإصرار بيلاجيوس[1] .

ولم تنقض إلا ايام قليلة حتى جاء نبأ من كشافة بيلاجيوس أن السور الخارجي لدمياط خلا من الحراسة ، فزحف الصليبيون في قوة ، في اليوم التالي ، الثلاثاء ، ٥ نوفمبر سنة ١٢١٩ ، وتسلقوا السور الخارجي ، ثم السور

---

(١) انظر : James of Vitry, Epistola, VI, (Z. K. G. vol. XVI, pp. 74 - 75).

Oliver, Historia Damiatana, p. 223.

Epistola Regia Babilonis, p. 305.

Estoire d'Eracles, II, p. 342.

Röhricht, Studien Zûr Geschichte des fûuften Kreuzzuges, p. 46.

(اورد روريخت رسالة السادة الفرنسيين الى البابا هونوريوس) .

Makrizi, loc. cit.

الداخلي للمدينة ، دون أن يتعرضوا لمقـاومة تذكر . واكتشفوا بداخل المدينة ان المرض نزل بمعظم رجال الحامية ، ولم يتجاوز عدد الاحياء من سكان المدينـة ثلاث آلاف نفس ، بلغ الضعف بعدد كبير منهم ، انهم لم يستطيعوا مواراة جثث الموتى . وتوافر بالمدينة المؤونة والثروة ، غير ان المرض أدى للمسيحيين مـا يصح ان يقوموا به من العمل . فلم يكد يكتمل الاستيلاء على المدينة ، حتى تقرر فرز ثلاثمائة من الرجال البارزين ، واتخاذهم رهائن ، اما الاطفال الصغار فجرى تسليمهم الى رجال الدين كيما يتنصروا ، ويُعدوا لخدمة الكنيسة ، ومن تبقى منهم ، تقرر بيعهم رقيقاً . وتقرر ايضاً توزيع الاموال بين الصليبيين ، وفقاً لمكانة كل منهم ورتبته . ولم تمنع لعنات المندوب البابوي ، العساكر من السرقة وإخفـاء التحف الثمينة [1] .

وكان لزاماً ان يتقرر بعـدئذ مستقبل حكومة دمياط . فبادر الملك يوحنا بريين الى المطالبة بأن تكون دمياط جزءاً من مملكة بيت المقدس ، والحاز ان جانبه الطوائف الدينية العسكرية والنبلاء العلمانيون . وأصرّ بيلاجيوس على ان المدينة المفتوحة (دمياط) ، تعتبر تابعة للعالم المسيحي ، اي الى الكنيسة . على انه لم يرضَ بالاتفاق إلا بعـد ان تعرّض لسخط

---

(١) انظر :

Oliver, Historia Damiatana, pp. 236 - 240.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 111 - 114.
Fragmentum Provinciale, pp. 196 - 200.
Ibn Khallikan, IV, p. 143.
Ibn al - Athir, II, p. 119.
Abu Shama, pp. 176 - 177.

الرأي العـــام ، وهدّد الملك يوحنا برين بالإقلاع عائداً الى عكا . وقضى الاتفاق بأن يحكم الملك يوحنا مدينـة دمياط حتى يلحق بالحملة الصليبية فردريك الثـــاني امبراطور المانيا [1] . وفي تلك الأثناء توجّه جانب من الجيش المسيحي لمهاجمة تنيس ، الواقعة على مسافة بضعة اميال الى الشرق من مصب الفرع التنيسي للنيل . وهجر تنيس حاميتها التي استبدّ بهـــا الجزع والخوف ، وعاد الصليبيون مثقلين بغنيمة اخرى لم تلبث ان أدّت الى مشاحنات جديدة بينهم . إذ اعتقد الايطاليون ، بصفة خاصة ، انهم خُدعوا ، فهبُّوا في ثورة عنيفـة ، حينما لم يستطع بيلاجيوس مساندتهم . وكان لزاماً على الطوائف الدينية العسكرية ان تطردهم من المدينة (دمياط) . ولم يحلّ الشتاء ، حتى صار الجيش المظفر يتأجج سخطاً وكراهية [2] .

بيلاجيوس يأمل في الحصول على حلفاء سنة ١٢٢٠ :

وتنبأ بيلاجيوس في كبريائه لما احرزه من اول انتصار ، بالدمار النهائي للمسلمين . إذ سوف تفتح الحملة الصليبية مصر بأجمعها ، ولا شك ان ملك الكرج ، الأمير المسيحي اللامع ، سوف يبذل المساعدة . يضاف الى ذلك ان برستر يوحنا كان مستعداً وقتئذ حسبما رددت الشائعة ، لأن يوجه

(١) انظر : Gesta Obsidionis Damiate, p. 115.
John of Tulbia, p. 139.
Ernoul, p. 426.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 240 - 241.
John of Tulbia, p. 139.
Liber Duelli, p. 166.

ضربة أخرى من اجل العالم المسيحي . اعتقد بيلاجيوس اول الأمر ان برستر يوحنا لم يكن سوى نجاشي اثيوبيا ، على الرغم من انه لم يرد على رسالة وجهها اليه البابا قبل اربعين سنة [1] . على انه ظهر وقتذاك مرشح جديد يؤدي هـــذا الدور ، وهو امير شرقي اسمه جنكيزخان . ولكن هؤلاء الحلفاء الذين قصدهم بيلاجيوس لم يعملوا ، لسوء الحظ ، سوياً . ففي سنة ١٢٢٠ ، تعرّض جيش جورج ملك الكرج لهزيمة ساحقة على اطراف اذربيجان انزلها به مغول جنكيزخان ، فتحطمت القوة الحربية الضخمة التي انشأتها الملكة ثامار . ولم يبـــد المظفرون (المغول) شيئاً من الاهتمام بمهاجمـة الامبراطورية الايوبية [2] . على ان تعاونا بالغ الاهمية كان متوقعاً من قبل اعظم ملوك غرب اوروبا ، فردريك ملك المانيا وصقلية .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 231 - 235.
تأثر بيلاجيوس ايضاً بنبوءة اسلامية تدعو الى الامل . عن بريستر يوحنا ، انظر ما سبق ، جـ ٢ ، ص ٦٨١ — ٦٨٢ .

(٢) انظر ما يلي ، الكتاب الثالث ، الفصل الثاني . كتب بيلاجيوس الى البابا هونوريوس الثالث عن آماله في مساعدة من قبل الكرج . انظر : (Röhricht, Studien. p. 52) .
وسبق ان طلب البابا انوسنت الثالث من الكرج ان يتعاونوا معه . انظر :
(Oliver, Historia Damiatana, pp. 232 - 233).
ابدى جيمس فيتري اهتماماً بتدخل المغول ، بأن ترجم من العربيـة بمساعدة بعض المختصين ، كتاباً عنوانه :
Excerpta de Historia David regis Indiorum qui Presbyter Johannes a vulgo appellatur, (ed. Röhricht, Z. K. G. vol. XVI, pp. 93 ff).
على ان الحقائق في هذا الكتاب تفتقر الى الدقة .

سبق لفردريك ان وعد في سنة ١٢١٥ بالاشتراك في الحرب الصليبية ، غير ان البابا انوسنت الثالث اجاز له ان يرجىء الحملة الصليبية ، حتى يتم تدبير امور المانيا . وظل فردريك يرجىء الرحيل ، إذ سبق ان وعد البابوية بأن يتنازل عن عرش صقلية الذي وليه وهو صبي ، الى ابنه الصغير هنري . غير انه لم يلبث ان اكتشف انه يستطيع بتأجيل عزمه على المضي الى الحرب الصليبية ، ان يرجىء تقسيم مملكتيه ، وأن يكون بوسعه ان يساوم على ان يقوم البابا بتتويجه امبراطوراً . ومع انه توافرت عنده الرغبة الصادقة في المسير الى الشرق ، فلم يكن الباعث لها سوى الطموح لا التقوى . ورث فردريك عن ابيه هنري السادس اطماعه الشرقية ، غير انه لم يشأ ان يحاول تحقيقها إلا بعد تتويجه امبراطوراً ، فضلاً عن اطمئنانه الى بقاء مملكتيه الاوروبيتين في قبضة يده . ولا بدّ ان تكون نواياه ظاهرة للبابا . غير ان البابا هونوريوس الثالث ، الذي كان من قبل مؤدباً لفردريك ، كان رجلاً ساذجاً ، اعتبر وعود فردريك صادقة ، وظلّ يبعث بالرسائل الى الصليبيين في مصر ، يخطرهم بأن يترقبوا قدوم جيش فردريك هوهنشتاوفن [١] .

وعندئذ توقف نشاط الحملة الصليبية ، وفي اثناء ركودها ازدادت المنازعات حدة بين بيلاجيوس ، والملك يوحنا بريين ، والايطاليين ، والطوائف الدينية العسكرية . ولو ان الصليبيين زحفوا مباشرة على القاهرة

---

(١) انظر : Donovan, op. cit. pp. 75 - 79.
اورد دونوفان خلاصة لما كان من تصرفات فردريك مع البابا ، وأثبت مراجعه .

عقب سقوط دمياط لجاز ان يصيبوا نجاحاً . إذ كان الكامل في وضع بالغ اليأس ، إذ تداعت الروح المعنوية في جيشه ، وكاد رعـاياه يموتون جوعاً . وأصرّ المعظم على ان يعود بقواته الى سوريا ، نظراً لتخوفه من حدوث متاعب في الشمال ، ولاعتقاده ان خير مـــا يؤديه للاسلام من مساعدة ، هو أن يشن هجوماً على عكا ذاتها . ولما كان الكامل يتوقع كل يوم أن يسمع عن زحف المسيحيين ، أقام معسكره في طلخا ، الواقعة على فرع دمياط ، على مسافة بضعة اميـــال ، وجعل على جانبي النهر استحكامات ، وانتظر من العدو الهجوم ، الذي لم يحدث مطلقاً (١) .

الملك يوحنا بريين يغادر دمياط سنة ١٢٢٠ :

مات ليو الثاني ملك ارمينية في اوائل صيف سنة ١٢١٩ ، ولم يخلف وراءه إلا ابنتين ، كبراهما ستيفاني كانت زوجة للملك يوحنا بريين ، اما الصغرى ، وهي ايزابيللا ابنـة سبيللا ملكة قبرص وبيت المقدس ، فلم تتجاوز الرابعة من عمرها . سبق لليو ان وعد بأن يجعل ولاية العرش من بعده لابن اخته ، ريموند - روبين امير انطاكية ، غير انه رشح ، وهو على فراش الموت ، ابنته ايزابيللا لتكون وريثة ملكه . فبادر الملك يوحنا بريين بالنيـابة عن زوجته ستيفاني وابنها الطفل ، الى المطالبة بحقها ، وتلقى في فبراير سنة ١٢٢٠ الاذن من البابا بمغادرة الحملة الصليبية لزيارة ارمينية . على أن علاقاته كانت من السوء مع بيلاجيوس ، ما جعل الأمل

---

(١) انظر : Histoire des Patriarches, p. 254.
Abu'l Fida, p. 91.

ضئيلاً في ان يبقى مع الجيش ، الذي جعل البـــابا صراحة لبيلاجيوس مطلق القيادة عليه . ارتحل يوحنا الى عكا . وبينما كان يتجهز للابحار الى قليقية ماتت زوجته ، وترددت الشائعات انها ماتت بسبب ما لقيته منه من سوء المعاملة . ولما مات ابنها الصغير بعد بضعة اسابيـع ، لم يعد للملك يوحنا دعوى في عرش ارمينية . غير انه لم يرجع الى مصر [1] . ففي مارس سنة ١٢٢٠ اغار المعظم على مملكته ، فهاجم قلعة قيسارية ، التي لم يفرغ من إعادة بنائها إلا منذ زمن قريب ، ثم تحرّك المعظم لحصار عثليت احد معـاقل الداوية . فاندفع الفرسان الداوية عائدين من دمياط ، بينما ابقى الملك يوحنا جيشه قريباً من ساحل البحر . وظل الحصار على عثليت حتى نوفمبر ، حين انسحب المعظم الى دمشق [2] .

وفي تلك الاثناء ظلت الحملة الصليبية بدمياط ساكنة . جرت محاولات لإعادة بناء المدينة . ففي عيد الغسل ، في فبراير ، تمّ تدشين الجامع الكبير بدمياط كاتدرائية للعذراء . ووصل الى دميـاط في مارس سنة ١٢٢٠ جماعة من كبار رجال الكنيسة الايطاليين ، يتصدرهم رئيس اساقفة ميلان وبصحبتهم رسولان من قِبل فردريك الثاني ، فجلبوا معهم قوات ضخمة ، وبادروا على الفور بالاتفاق مع بيلاجيوس على شن الهجوم على المسلمين .

---

(١) انظر : Ernoul, p. 427.
Estoire d'Eracles, II, p. 349.
Oliver : Histoire Damiatana p. 248.

(٢) انظر : Oliver : Histoire Damiatana, pp. 244 - 245, 255 - 256.
Ernoul, pp. 421 - 424.

غير ان الفرسان لم يوافقوا ، إذ قالوا ان الملك يوحنا بريين ، هو القائد الوحيد الذي دان له بالطاعة جميع الاقوام ، وكان وقتذاك غائباً (١) .
ولمــا وصل ماثيو كونت ابوليا ، في يوليه سنة ١٢٢٠ ، في ثماني سفن ارسلها فردريك الثاني ، خاب بيلاجيوس مرة اخرى في حثهم على النشاط والعمل . بل ان جنود بيلاجيوس المرتزقة من الايطاليين تمردت عليه حين اقترح القيام بحملة مستقلة . وكل ما جرى من نشاط ، لم يتعد الغارة التي قام بها فرسان الطوائف الدينية العسكرية على مدينة البرلس ، التي تقع على مسافة عشرين ميلا ، الى الغرب من دمياط . فتعرض البلد للنهب ، غير ان الفرسان وقعوا اثناء عودتهم في كمين ، ووقع في الاسر كثير من الاسبتارية ، منهم مارشال الطائفة (٢) .

استعاد الكامل عندئذ الثقة ، فعلى الرغم من افتقاره الى قوات برية ، فإنه اصلح البحرية ، وسيّر في صيف سنة ١٢٢٠ اسطولاً في فرع رشيد ، ثم اقلع الى قبرص ، حيث عثر على اسطول للصليبيين ، راسياً تجاه ليماسول ، فشنّ عليــه هجوماً مفاجئاً ، أدى الى اغراق كل السفن او اسرها ، كما وقع في ايدي المسلمين آلاف عديدة من الاسرى . جرت الرواية بأن بيلاجيوس تلقى تحذيراً عما يقوم به البحارة المصريون من استعدادات ، غير انــه تجاهل التحذير . فلما فات الوقت ، ارسل اسطولاً للبنادقة ، ليعترض سبيل العدو ، وليهاجم مينائي رشيد ودمياط ، ولكن لم يتحقق

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 248.
Roger of Wendover, II, pp. 260 - 261.
(٢) انظر : Oliver, Historia Da miatana, p. 252.

شيء . إذ ان افتقاره الى المال منعه من ان يعمر عدداً كبيراً من السفن ، ولم يكن بوسع خزانة البابوية ان تمده بأكثر من ذلك (١) .

وفي سبتمبر سنة ١٢٢٠ تزايد عدد العائدين الى اوطانهم من الصليبيين . غير ان البابا هونوريوس الثالث ارسل في نهاية السنة انباء طيبة ، ذلك ان فردريك الثاني قدم الى روما في نوفمبر سنة ١٢٢٠ ، وقام البابا بتتويجه مع زوجته كونستانس امبراطوراً وأمبراطورة . وأكد فردريك الوعد مقابل ذلك ، بأن يتوجه الى الشرق في الربيع التالي . غير انه ازداد ارتياب البابا هونوريوس في وعود فردريك ، بل انه نصح بيلاجيوس بألا يرفض عرضاً يتقدم به السلطان من اجل الصلح إلا بعد رفعه الى روما . على ان الامبراطور الجديد بدا كأنه جادّ في وعده . إذ نشط في تشجيع رعاياه على الوعد بالاشتراك في الحرب الصليبية ، وأرسل قوة حربية كبيرة بقيادة لويس ، دوق بافاريا ، اقلعت من ايطاليا في اوائل الربيع (٢) .

على ان نبأ قرب وصول الدوق ، جعل بيلاجيوس من الزهو والكبرياء ما حمله ، حينما عرض السلطان شروط الصلح في يونيه ، على ان يغفل تعليمات البابا ، فرفضها ، ولم يخطر بها روما إلا منذ زمن وجيز . وكان الكامل قد عرض مرة اخرى ان يتنازل عن بيت المقدس وجميع فلسطين

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 429 - 430.
Oliver, Historia Damiatana, p. 253.

(٢) انظر : Oliver : Historia Damiatana, p. 257.
Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, V, II, pp. 1420 - 1421.

باستثناء اقليم مـا وراء نهر الاردن ، وأن نعقد هدنة لمدة ثلاثين سنة ، وأن يبذل تعويض نقدي عـن تدمير استحكامات بيت المقدس . ووصل لويس دوق بافاريا ، عقب ان رفض بيلاجيوس شروط الصلح (١) .

زحف الصليبيين سنة ١٢٢١ :

سبق لفردريك الثاني ان امر لويس دوق بافاريا ألا يقوم بهجوم كبير إلا بعد ان يصل في اعقابه . غير ان لويس كان حريصاً على ان يهاجم المسلمين ، ولما لم يرد من الانباء بعد خمسة اسابيـع ، ما يشير الى مغادرة فردريك لأوروبا ، نزل لويس على رغبات بيلاجيوس . وحينما تناقش الدوق فيما اذا كان لزاماً على جيش التعزيز ان يزحف الى داخل مصر ، فينبغي عندئذ ان يبادر الى ذلك على الفور ، نظراً لاقتراب زمن فيضان النيل ، ولما أعلن المندوب البابوي (بيلاجيوس) ان موارد الجيش المالية تطلبت المبادرة الى الحركة والنشاط ، اقتنع كبار الصليبيين ، وكل ما اصروا عليه ، هو استدعاء الملك يوحنا بريين ليقوم بنصيبه في الحملة ، فـلم يعترض على ذلك إلا فئة قليلة العدد . كتبت الملكة الوصية على عرش قبرص الى بيلاجيوس ، ان جيشاً اسلامياً ضخماً اعده في سوريا المعظم وأخوه الأشرف ، وأكد هذه الانباء عند الطوائف الدينية العسكرية ، اخوانهم بفلسطين . غـير ان بيلاجيوس

---

(١) انظر :
Oliver, loc, cit.
James of Vitry, op. cit. pp. 106 - 109.
Ernoul, p. 442.

اعتبر هـذه الرسالة حجة جديدة للقيام مباشرة بالزحف . لقد سمع من النبوءات ما يشير الى ان سيادة السلطان لن تلبث ان تزول [1] .

وأمر المندوب البابوي ، في ٤ يوليه سنة ١٢٢١ ، بالصيام بالمعسكر لمدة ثلاثة ايام ، ثم وصل في ٦ يوليه الملك يوحنا بريين مع فرسان مملكته عائدين وقد استبد به التشاؤم ، غير انـه لم يود ان يتهم بالجبن . وفي ١٢ يوليه تحرك الجيش الصليبي نحو فارسكور ، وبها نظم بيلاجيوس الجيش في تعبئة قتال . كان حشداً مثيراً اشار المعاصرون الى ستمائة وثلاثين سفينة مختلفة الاحجام ، وخمسة آلاف فارس ، وأربعة آلاف رام ، وأربعين الف راجل. وسار مع الجيش جمع من الحجاج . وصدرت اليهم الأوامر بـأن يلتزموا السير قرب شاطىء النهر ، ليمدوا العساكر بالمـــاء . وتخلفت في دمياط حامية ضخمة .

تقدم الجيش الاسلامي حتى بلغ شرمساح ليلتقي بهم ، غير انه لما تبين للعساكر الاسلامية وفرة عددهم ، انسحبوا الى ما وراء البحر الصغير الذي

---

(١) انظر :
Oliver, Historia Damiatana, pp. 257 - 258.
Roger of Wendover, II, p. 264.
James of Vitry, Epistola VII, (Z. K. G. XVI, p. 86).
Ernoul, pp. 441 - 443.

عن النبوءات ، انظر :
Oliver, Historia Damiatana, pp. 258 - 259.
James of Vitry, Excerpta (Z. K. G. vol. XVI, pp. 106 - 113).
Annales de Dunstoplia (Annales Monastici, vol. III, p. 62).
Alberic of Trois Fontaines, p. 790.

يجري من فرع دمياط الى بحيرة المنزلة ، وانتظروا فيما سبق اعداده على جانبي النهر من موضعين ، في طلخـــا وفي الموضع الذي قامت عليـه المنصورة فيما بعد . وفي ٢٠ يوليه سنة ١٢٢١ ، احتل الصليبيون شرمساح، والتمس منهم الملك يوحنا البقـاء فيها ، إذ حان وقت فيضانات النيل ، وأخذ الجيش السوري في الاقتراب . على ان بيلاجيوس أصر على مواصلة الزحف ، يسانده سائر العساكر ، الذين سمعوا شائعة بأن السلطان هرب من القاهرة . وتتصل بنهر النيل (فرع دمياط) جنوبي شرمساح مباشرة ، قناة تجري من فرع آخر للنيل . وإذ أمعن الصليبيون في السير لم يتركوا من السفن مـا يتولى حراسة مصب القناة في النهر ، لأنهم اعتقدوا انهـا ليست صالحة للملاحة . وفي يوم السبت ، ٢٤ يوليه سنة ١٢٢١ ، اضحى الجيش الصليبي بأجمعه يرابط على امتـداد البحر الصغير ، قبـالة الجيش الاسلامي . ارتفعت ميـاه النيل وقتئـذ ، وامتلأت القنـاة ، وأضحى من اليسير الدفاع عنها . غير انه حدث قبل ان اضحت ميـاه القنـاة بالغـة العمق ، اجتـازها قرب بحيرة المنزلة قوات اخوي الكامل ، المعظم والأشرف ، واتخذت مواضعها بين الصليبيين ودميـاط . وما كاد يتوافر الماء في القناة الواقعة جنوبي شرمساح ، حتى هبطت اليها سفن الكامل ، فقطعت على الاسطول المسيحي السبيل عند ارتداده . وأدرك بيلاجيوس ، في منتصف اغسطس سنة ١٢٢١ ، ان جيش العدو تفوق في العدد على جيشه ، الذي اكتمل تطويقه ، ولم يعد لديه من المؤن إلا مـا يكفي لمدة عشرين يوماً . وبعد جدال ، اقنع البافاريون القيادة ، بأن الفرصة الوحيدة للافلات ، لا تتهيأ إلا بالمبادرة الى الارتداد . فبدأ التقهقر في ليلة الخميس ، ٢٦ اغسطس سنة ١٢٢١ . ولم يكن الارتداد منظماً ، إذ أن عـدداً كبيراً من العسـاكر لم يرضوا ان يتخـلوا عن مستودعات

النبيذ ، فآثروا أن يشربوها على ان يتركوها خلفهم . فقـــدوا الوعي حينما صدرت اليهم الاوامر بالمسير . واستبدت الحماقة بالفرسان التيوتون فأشعلوا النيران بكل ما لم يستطيعوا حمله من المستودعات ، وبذا أخطروا المسلمين بأنهم يغادرون مواقعهم . ولا زالت مياه النيل تزداد ارتفاعـاً . فأصدر السلطان او احد نوابه الاوامر بفتح القناطر المقامة على الشاطىء الايمن للنيل . فتدفقت المياه على الاراضي المنخفضة المتاخمة للنهر ، والتي كان لزاماً على المسيحيين ان يجتازوها . فأخذوا يناضلون في شقّ طريقهم وسط البرك والخنادق المليئة بالوحل والطين . وقـــد اشتدّ في طلبهم ومطاردتهم فرسان السلطان من الترك ، وحرسه من الرجـالة النوبيين . واستطاع الملك يوحنا وفرسانه ان يقهروا الفرسان الترك ، بينما ردّ فرسان الطوائف الدينية العسكرية ، الرجالة النوبيين على اعقابهم ، غير انه لم يتم ذلك إلا بعد أن هلك الألوف من الرجالة والحجاج . على ان سرعة مياه الفيضان وشدتها دفعت بالسفينة التي استقلها بيلاجيوس ، فتجاوزت الاسطول المصري الذي فرض الحصار لمنع ازتداد السفن المسيحية . على ان قرار بيلاجيوس يعتبر كارثة ، نظراً لما كان يحمله معه من الامداد الطبية اللازمة للجيش ، وقدراً كبيراً من مؤونة الجيش . وأفلتت ايضاً بضع سفن أخرى ، غير انه وقع في أسر المسلمين عدد كبير من السفن المسيحية [١] .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Domiatana, pp. 257 - 273.

أورد اوليفر أوفى تقرير لشاهد عيان .

Roger of Wendover, II, pp. 263 - 264.

بيلاجيوس يسعى للصلح سنة ١٢٢١ :

وإذ فقـد بيلاجيوس الأمل ، أنفذ في يوم السبت ٢٨ اغسطس سنة ١٢٢١ رسولاً الى السلطان يطلب الصلح . فلا زال لديه من الممتلكات ما يستطيع ان يساوم بها . إذ جرت عمارة استحكامات دمياط من جديد ، وتمّ شحنها بالعساكر ، وتوفير الأسلحة بهـا ، ورسا قبالتها اسطول قوي بقيادة هنري كونت مالطة ، ووالتر باليار ، متولي الديوان بصقلية ، أرسله الامبراطور فردريك . غير ان الكامل أدرك أنه أضحى تحت رحمته معظم الجيش الصليبي . اشتهر الكامل بالصلابة ، على أنه كان سخياً كريماً . وبعد نقاش وجدال استمر طوال اجازة آخر الاسبوع ، قبل بيلاجيوس ، يوم الاثنين شروط الكامل ، بأن يتخلى المسيحيون عن دمياط ، وأن يلتزموا بمراعاة الهدنة لمدة ثماني سنوات ، ولا بد ان يصدّق عليها الامبراطور . ويجري تبادل الأسرى من كلا الجانبين . ويعيد السلطان من جانبه صليب الصلبوت . وينبغي ان تسلم الحملة الصليبية قادتها ليكونوا رهائن ، حتى يتم تسليم دمياط . وعيّن الكامل أسماء هؤلاء الرهائن : بيلاجيوس ، والملك يوحنا ، ودوق بافاريا ، ومقدمي الطوائف الدينية العسكرية ، وثمانية عشر

= Ernoul, pp. 439 - 444.
Histoire des Patriaches, pp. 257 - 258.
Abu Shama, II, 180, 182 - 183, 185.
Ibn al - Athir, II, pp. 122 - 124, 158.
Ibn Khallikan, III, p. 241.

آخرين من الكونتات والأساقفة . وأرسل مقابل هؤلاء ، احـد أبنائه ، وأحد اخوته ، وعدداً من صغار الأمراء[1] .

ولما جرى إرسال مقدمي فرسان طائفتي الداوية والتيوتون الى دمياط ، ليعلنا إذعانها وتسليمها ، تمرّدت الحامية اول الامر على القرار ، وهاجم رجالها دور الملك يوحنا والطوائف الدينية العسكرية ، ووصل عندئذ هنري ، كونت مالطة في اربعين سفينة ، فأحسوا بأن لهم القوة ما يكفي لتحدي العدو . غير ان الشتاء قـد أقبل ، وأخذت الأقوات في النفاد ، وكان قادتهم رهائن عند الكامل ، وأخـذ المسلمون يهددون بالزحف على عكا ، فلم يلبث المتمردون ان أذعنوا . وبعد ان أقام الملك الكامل مأدبة حافلة تكريماً للملك يوحنا ، وأمدّ الجيش الصليبي بالمؤن دون مقابل ، تمّ تبادل الرهائن . وفي يوم الاربعاء ، ٨ سبتمبر سنة ١٢٢١ ، استقلّ الجيش الصليبي السفن ، ودخل السلطان مدينة دمياط[2] .

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل ، بعد ان اضحت قريبة من النجاح . فلو انه كان بالجيش المسيحي قائد عاقل يجمعون على احترامه ، فقد يصح ان

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 274 - 276.
Ernoul, pp. 444 - 447.
Histoire des Patriarches, pp. 257 - 258.
Abu Shama, II, pp, 183 - 184.

(٢) انظر : Oliver, Histoire Damiatana, pp. 274 - 276.
Ernoul, pp. 444. - 447.
Histoire des Patriarches, p. 258.

يتم احتلال القاهرة ، وأن يتحطم الحكم الايوبي في مصر . وإذا قامت بمصر حكومة موالية للفرنج الذين لم يأملوا بأن يحكموا بأنفسهم القطر المصري بأجمعه ، فلم يكن مستحيلاً عليهم ان يستعيدوا جميع فلسطين . غير ان الامبراطور الذي لم يكن احد سواه يستطيع ان يقوم بهذا الدور ، لم يقدم ابداً ، برغم كل الوعود التي بذلها . كان بيلاجيوس رجلاً متغطرساً مجرداً من اللباقة والكياسة ، ليس مقبولاً عند الناس ، وكشف عن اخطائه باعتباره قائداً ما قام به آخر الأمر من هجوم فاجع . أما الملك يوحنا فعلى الرغم من مروءته وفروسيته ، لم يكن له من الشخصية والهيبة ما يهيؤه لقيادة جيش مختلط . فكادت كل مرحلة من مراحل الحملة ، تحطمها الاحقاد القومية او الشخصية . لقد كان خيراً للفرنج ان يقبلوا ما عرضه السلطان الكامل مرتين من شروط الصلح ، فيستردون بذلك بيت المقدس ، غير ان الخبراء بالخطط الحربية كانوا فيما يبدو مصيبين في قولهم انه بدون قلاع اقليم ما وراء نهر الاردن ، لن تبقى بيت المقدس في ايدي الفرنج ، على الاقل طالما استمر التحالف قائماً بين المسلمين في سوريا ومصر . وكيفما كان الامر ، لم يتحقق شيء من الفائدة ، بينما ضاعت أشياء كثيرة ، من الرجال ، والموارد ، والسمعة . وكانت أتعس الضحايا ، أقلّهم جناية وذنباً . وطغت موجة جديدة من التعصب عند المسلمين ، لتخوّفهم من قدوم المسيحيين من الغرب . فعلى الرغم مما اشتهر به الكامل من التسامح ، تعرّض المسيحيون بمصر ، من الملكانيين والقبط ، لقيود بالغة الشدة ، زادت في عجزهم وضعفهم . فتقرر عليهم ان يؤدوا ضرائب باهظة ، وجرى إغلاق الكنائس ، وتعرّضت كنائس كثيرة للنهب على أيدي العسكرية الاسلامية الغاضبة . ولم يستطع التجار الايطاليون ان يستردوا وضعهم السابق بالاسكندرية ، لأن مواطنيهم شجعوا الحملة الصليبية . ومع أنهم عادوا الى

متاجرهم ، فلم يكونوا موضع ثقة الناس . وأبحر جند الصليب عائدين الى بلادهم ، لم يكسبوا إلا العار بالغ المرارة . بل انهم لم يحملوا معهم صليب الصلبوت ، فاذا حان الوقت لتسليمه ، لم يعثر له على أثر [1] .

---

(١) عن تفسيرات المعاصرين لفشل الحملة الصليبية الخامسة ، انظر :

Donovan, op. cit. pp. 94 - 97.

Throop, Criticism of the Crusades, pp. 31 - 34.

الفصل الثالث

الامبراطور فردريك الثاني

لما ارتحلت الحملة الصليبية الخامسة عن دمياط وقــد اشتدّ يأسها وقنوطها ، عاد الملك يوحنا بريين رأساً الى عكا ، أما الكاردينال بيلاجيوس فواصل سيره الى أقصى الشمال لتنفيذ تعليمات البـابا هونوريوس الثالث في انطاكية ، وفي المملكة الارمنية بقليقية . والمعروف ان البابا هونوريوس اعترف بدعوى بريين ، عند وفاة الملك ليو ، في ان تتولى زوجته او ابنه عرش ارمينية . فلما توفيا ، نقل البابا تأييد الكنيسة ومساندتها الى ريموند روبين امير انطاكية ، الذي قـدم بشخصه الى دمياط ، في صيف سنة ١٢٢٠ ، ليستشير بيلاجيوس . وحدث قبل بضعة شهور ان استولى من جديد بوهمند كونت طرابلس ، على انطاكية ، برغم حيازة الاسبتارية لقلعتها . وعندئذ أغار ريموند روبين مع امه الارمنية أليس ، على قليقية ، واستقرّ في طرسوس ينتظر المساعدة من الاسبتارية الذي ارتبط معهم بعلاقات ودية ، لأنه جعل قلعة انطاكية في رعايتهم . غير ان نبلاء ارمينية حققوا رغبات ملكهم الراحل (ليو الثاني) فقبلوا ابنته الصغيرة ، ايزابيللا

ملكة عليهم ،بوصاية آدم سيد بغراس . ولم تنقض بضعة شهور على آدم في الحكم ، حتى لقي مصرعه على أيدي الحشيشية ، ولا شك انه جرى ذلك بتحريض الاسبتارية . فخلفه في الوصاية على عرش ارمينية ، قنسطنطين رأس بيت هيثوم . والمعروف ان بيت هيثوم كان في الماضي يمثل في ارمينية الحزب الموالي لبيزنطة .فأضحى أمراء بيت هيثوم يعتبرون عندئذ ابطال الروح القومية إزاء ما غلب على الأسرة الحاكمة من ميول لاتينية . فزحف قنسطنطين على طرسوس في اوائل سنة ١٢٢١ ، واستولى عليها ، ووقع في أسره الامير ريموند روبين وأمه ، ولم يلبث ان مات ريموند روبين بالسجن بعد فترة وجيزة . وبزواله أضحت ايزابيلا مطمئنة على عرش ارمينية ، وصار بوهمند كونت طرابلس اميراً على انطاكية [١] .

حذّر البابا بأن يلتزم بيلاجيوس الحرص في تصرفه ، إذ لا جدوى من مساندة دعاوى طفلتي ريموند روبين اللتين لجأتا الى قبرص مع امهما من بيت لوزجنان . غير ان بوهمند كان ابناً عاقاً للكنيسة . إذ دبّر انتزاع قلعة انطاكية من الاسبتارية ، وحرمهم ايضاً من الوعد الذي قطعه لهم ريموند روبين بأن يجعل لهم جبلة ، اذا استولوا عليها ، بأن منح الداوية هذا الحق .وأوشك وقتذاك أن تقع حرب صريحة بين الطائفتين الاسبتارية والداوية، وحاول بيلاجيوس ان يقنع كلا منهما بقبول نصف المدينة . على ان بوهمند لم يرفض فحسب بأن يسمح مرة اخرى للاسبتارية بدخول انطاكية ،بل

---

(١) انظر : Cahen‘ La Syrie du Nord, pp. 628 - 632.
حيث اورد التفاصيل والمصادر .

استولى ايضاً على ممتلكاتهم بها ، على الرغم من ان بيلاجيوس هدده بالقطع من الكنيسة ، ونفـّذ القرار فعلا . ولكن الداوية أبقوا على مخالطته وعشرته ، وسعى الوصي على عرش ارمينية الى التحالف معه . أما كيقباذ سلطان السلاجقة في قونية فكان وقتذاك اعظم امراء آسيا الصغرى ، بعد ان احتل جبال طوروس الغربية ، واتخذ مقرّه في علايا الواقعة على الساحل ، فأضحى يهدد حـدّ ارمينية بأكمله . وإذ احتاج الارمن ان يكسبوا ودّ انطاكية ، اقترح الوصي على عرش ارمينية على بوهمند بأن يرسل ابنه الرابع فيليب ، ليتزوج من الملكة الارمنية الصغيرة ، ولكنه أصرّ على ان ينتمي العريس الى كنيسة ارمينية الانفصالية . وإذ أحسّ بوهمند بمرارة قطعه من الكنيسة على يد المندوب البابوي (بيلاجيوس) ، لم يمانع في ان ينزلق ابنـه الى الهرطقة ، وما حدث من تحالف بين ارمينية وانطاكية حقـّق غرضه المباشر ، إذ انصرف كيقباذ عنها ، وحوّل اهتمامه الى جيرانه المسلمين في الشرق .

ولاية عرش ارمينية سنة ١٢٢٦ :

كان الارمن يأملون بأن يصير فيليب ، الذي ضاع كل امل له في ان يرث انطاكية ، ارمنياً صالحاً . غير أن ميوله كانت لاتينية خالصة ، فكان يمضي اكثر مـا توفر لديه من الوقت في انطاكية . فاشتدت ثائرة بيت هيثوم وأصدقائهم . فحدث آخر الأمر ، في نهاية سنة ١٢٢٤ ان القوا القبض على فيليب ذات ليلة ، اثناء ارتحاله الى انطاكية ، وحبسوه في سيس ، حيث دسّوا له السم بعد بضعة شهور ، فقضى نحبه . فاستبد الغضب ببوهمند ، ولكن لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً . إذ صدّق البابا على قرار قطعه من الكنيسة ، وأنذر الداوية بألا يشاركوه او يتصلوا به .

اما الاسبتارية فانحازوا علناً الى جانب الارمن الملحدين . فلما فرّت الملكة الصغيرة ، أرملة فيليب ، مكسورة الخاطر الى سيلوقية تلتمس حماية الاستارية ، سلموا كل المدينة الى قنسطنطين الوصي على العرش ، كيما يتجنبوا العار الذي يلحقهم بتسليم الملكة ذاتها . فاستنجد بوهمند بالسلطان كيقباذ ، فأغار السلاجقة على قليقية . وعندئذ ألحّ قنسطنطين على بوهمند بأن يصرف السلاجقة عن قليقية بأن طلب اليه القدوم الى قليقية ، ليتسلم ابنه ويعود به الى انطاكية . ثم اتفق قنسطنطين مع الوصي على حلب ، طغرل ، على أن يزحف على انطاكية . فلما اضحى بوهمند في قليقية ، علم ان ابنه قد مات ، ولا بدّ ان يهرع راجعاً لحماية حاضرته انطاكية من طغرل . وفي تلك الاثناء ، أرغمت الملكة ايزابيللا الصغيرة على أن تتزوج هيثوم ابن قنسطنطين . فظلت سنوات عديدة ترفض الحياة معه ، غير انها رضخت آخر الامر ، وتم تتويجها مع هيثوم في سنة ١٢٢٦ . ادرك قنسطنطين عندئذ برغم كل ما اتصف به من الروح القومية ، انه من الخير التوفيق بين ارمينيا والبابوية . فجرى انفاذ رسائل الولاء ، باسم الملكين الصغيرين ، الى البابا ، والى الامبراطور فردريك[١] .

كان من صالح المسيحيين بالشمال ، ان يستمر القتال بين اهم جارين مسلمين ، السلاجقة ، والأيوبيين في حلب والموصل ، لأن الهدنة التي عقدها الصليبيون مع الكامل لمدة ثماني سنوات لم يدخل فيها الايوبيون بحلب والموصل . وفي اقصى الجنوب ، حرص الملك يوحنا بريين على ان يفيد

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 632 - 635.

والمعروف ان المؤرخين الارمن يعرضون وجهة نظر بيت هيثوم . وأورد ابن الاثير خير تقرير موضوعي . انظر :

Ibn al - Athir, II, pp. 168 - 170.

منها في ان تخلد مملكته الى الراحة من الارهاق التي تعرّضت له ، وفي ان تنتعش بصفة خاصة التجارة مع البلاد الاسلامية الداخلية ، التي تعتبر المصدر الرئيسي لموارد مملكته . على انـه قرر في سنة ١٢٢٢ ان يقوم بزيارة الى الغرب ، إذ اراد ان يستشير البابا حول ما يبذله مستقبلاً من مساعدة لمملكته ، ولا بد ايضاً ان يلتمس زوجاً لابنته الملكة الصغيرة ، التي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها ، بينما كان يوحنا يربين في السبعينات . فلا بد من تأمين وراثة الحكم . وبعد ان عيّن اودو مونبليارد نائباً عنه في حكم المملكة ، ابحر من عكا مع بيلاجيوس الذي فرغ وقتئذ باعتباره مندوباً بابوياً ، من جولة في قبرص ، قام بها مع رالف ميرنيكورث بطريرك بيت المقدس ، ومقدم الاسبتارية . امـا مقدم الفرسان التيوتون ، هرْمان سالتزا فكان وقتذاك في روما . وهبطت الجماعة الى برنديزي في نهـاية اكتوبر سنة ١٢٢٢ [١] .

توجه الملك يوحنا مباشرة الى روما ، حيث طالب بأن كل بلاد تستولي عليها كل حملة صليبية في المستقبل ، لا بدّ من بذلها لمملكة بيت المقدس ، ولعل بيلاجيوس اعترض على هذا الطلب ، غير ان البابا اتفق مع الملك يوحنا ، كما ان الامبراطور فردريك أرسل موافقته . ثم واصل الملك يوحنا رحيله الى فرنسا ، كيما يزور مرة اخرى صديقه القديم ، الملك فيليب

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 280.
Estoire d'Eracles, II, p. 355.
Ernoul, pp. 448 - 449.
Annales de Terre Sainte, p. 437.

اغسطس . وفي تلك الأثناء تقدم هرمان سالترا باقتراح يقضي بأن تتزوج الملكة يولاندا من الامبراطور فردريك نفسه ، بعـــد ان ماتت زوجته الامبراطورة منذ اربعة شهور ، وسوف تكون زيجـة متكافئة رائعة ، وأرضت الفكرة كبرياء يوحنا ، غير انه تردد حتى ظفر بوعد من هرمان سالترا بأنه (يوحنا) سوف يحتفظ بالوصاية على العرش حتى وفاته . تحمس البابا للفكرة ، فاذا صار فردريك زوجاً لملكة بيت المقدس ، فمن المحقق أنه سوف لا يماطل او يرجىء حملته الصليبية . فلمـا وصل الملك يوحنا الى باريس ، كانت المفاوضات توشك على النهاية . لم يكن الملك فيليب راضياً عن الأنباء ، ووجه اللوم الى الملك يوحنا . إذ ان ملك فرنسا هو الذي كان ، حتى وقتذاك ، يطلب اليه ان يلتمس زوجاً لوراثة الملك في الشرق الفرنجي بل ان فيليب هو الذي رشّح يوحنا نفسه . غير أنه نظراً لصحبة الايام الخالية ، رحّب فيليب بلقاء يوحنا . وكان يوحنا حاضراً حينما مات فيليب في نانت ، في ١٤ يوليه سنة ١٢٢٣ . وفي وصيته خلّف فيليب ليوحنا مبلغ اربعمائة الف مَرك (قطعة فضية) لصالح مملكة بيت المقدس ، كما أوصى ايضاً بمثل ذلك لكل من الاسبتارية والداوية . شهد يوحنا تشييع جنـازة الملك فيليب اغسطس ، وتتويج ابنه لويس الثامن ، ثم مضى الى سانتياجو دى كومبوستيللا في اسبانيا ليؤدي الحج . مكث يوحنا بضعة شهور في قشتالة ، حيث تزوج من برنجاريا أخت الملك فرديناند الثالث ، ثم رجع الى ايطاليا أثناء سنة ١٢٢٤ (١) .

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 449 - 450.
Estoire d'Eracles, II, pp. 355 - 356.
Richard of San Germano, M. G. H. vol. XIX, pp. 342 - 343.

زواج فردريك من يولندا سنة ١٢٢٥ :

في اغسطس من السنة التالية (١٢٢٥) ، وصل الى عكا هنري كونت مـــالطة في اربع عشرة سفينة امبراطورية ، لالتماس الملكة الصغيرة التي أضحت وقتذاك في الرابعـة عشرة من عمرهـا ، واصطحابها الى ايطاليا لعقد قرانهـا . وكان على سطح الاسطول ، جيمس رئيس اساقفة كابوا المنتخب ، الذي ما كاد يهبط الى الارض حتى تزوج من يولندا بالنيابة عن الامبراطور فردريك ، في كنيسة الصليب المقدس بعكا . ثم جرى الانتقال بها الى صور ، حيث قام بتتويجها ، نظراً للتسليم بأنها بلغت سن الرشد ، البطريرك رالف بحضور جميع نبلاء الشرق الفرنجي . استمرت الافراح نحو اسبوعين ، ثم أبحرت الملكة من صور ، وبصحبتها رئيس اساقفـة صور ، سيمون موجاستيل ، وابن عمهـا باليان سيد صيدا . مكثت بضعة ايام في قبرص لزيارة خالتها الملكة أليس . ولمـــا حان وقت الرحيل ، ترقرقت الدموع في عيون الملكتين وسائر وصيفاتهن ، اللائي سمعن يولندا تهمس بتحية وداع حزينة لبلاد الشام الحلوة ، التي لن تراها مرة اخرى [١] .

اما الامبراطور فردريك والملك يوحنا برين فكانا ينتظران العروس

---

(١) انظر :
Gesta des Chiprois, pp. 22 - 23.
Estoire d'Eracles, II, pp. 357 - 358.
Raynaldus, anno 1223, no. 7, 1, pp. 465 - 466.
وإذ كان فردريك ويولندا يعتبران ابناء عم، في الدرجة الثالثة ، أقر البابا زواجها . انظر :
Historia Diplomatica Friderici Secundi, (ed. Huillard - Bréholles), = II, p. 375.

في برنديزي . فلقيت من الترحيب ما يليق بالأمبراطورة من فخامة . ثم جرى الاحتفال بعقد قران جديد في ٩ نوفمبر سنة ١٢٢٥ ، في الكاثدرائية في برنديزي [1] .

بلغ فردريك وقتذاك الخامسة والثلاثين من عمره . كان رجلاً وسيماً ، لم يكن طويل القامة ، ولكنه متين البناء ، يميل فعلاً الى السِمْنة . اما شعره الاحمر الذي اشتهر به بيت هوهنشتاوفن فانه انسدل قليلاً خلف عنقه . وكانت تقاطيع وجهه متسقة ، بينما كان فمه ممتلئاً سريع الحساسية ، ويشعّ من تقاطيعه مـــا يعبر عن طيبة القلب ، حتى اذا لحظت عينيه الخضراوين الباردتين ، ألفيت ان نظرتها النافذة تخفي وراءهما ما بهما من قصر النظر . أما نبوغه الفكري فكان بالغ الظهور ، إذ حذق فردريك التحدث بطلاقة بست لغات : الفرنسية ، والألمانية ، والايطالية ، واللاتينية ، واليونانية ، والعربية . كان واسع الاطلاع في الفلسفة ، والعلوم ، والطب ، والتاريخ الطبيعي ، فضلاً عن درايته وعلمه بسائر البلاد . فاذا تحدث ، كان شديد الجاذبية . على انه برغم ألمعيته وعبقريته ، لم يكن مقبولاً . إذ اشتهر بالقسوة ، والأثرة ، والمكر ، لا يعتبر صديقاً يصحّ الوثوق به ، فاذا كان عدواً فلا يرحم ولا يغفر . وما انغمس فيه من المباذل الشهوانية بجميع انواعها ، تعتبر صدمة حتى عند المستويات المنحلة في الشرق الفرنجي . كان يميل الى إثارة معاصريه بما يلجأ اليه من تعليقات فاضحة عن الديانة والاخلاق . على انه لا يصح اتهامه بأنه غير متدين ، غـير ان مسيحيته كانت شبيهة بمسيحية بعض الاباطرة البيزنطيين . اعتبر نفسه خليفة الله

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.

على الارض ، وجعل من نفسه عالماً متبحراً في اصول الدين . لم يسمح لنفسه ان يخضع لما يمليه اسقف من الاساقفة ، ولو كان اسقف روما ذاتها . لم يرَ غضاضة في الاهتمام بديانات اخرى ، ولا سيما الاسلام ، الذي اتصل بـه طوال حياتـه . لم يعتبر اليونانيين انفصاليين ، لأنهم رفضوا سلطة البابا . ومع ذلك ما من احد من الأمراء ضارعه فـيما لجأ اليه من الوحشية في اضطهاد المتهرطقين المسيحيين امثال الكاثاريين واضرابهم . أمـا المسيحي العادي في الغرب فلا يكاد يفهم فردريك . فمع انه في دمائه نصف الماني ونصف نرماني ، غير انه كان صقلياً اصيلاً في نشأته وتربيته . إذ كان ربيب جزيرة ، نصف يونانية ونصف عربية . فلو انه كان اميراً في القسطنطينية او في القاهرة ، لأضحى حاكماً بارزاً ، ولكن لن يظهر فيه عدم الاتزان . وباعتبار ملكاً على المانيا ، وامبراطوراً في الغرب ، يعتبر من الاعاجيب المخيفة . ومع ذلك فإنـه لم يفهم الشرق الفرنجي ، برغم درايته العامة بالشرق [1] .

مصير يوحنا بريين سنة ١٢٢٥ :

ظهرت أهميـة فردريك وتفوّقه غداة زفافه ، إذ انه غادر برنديزي مع الامبراطورة ، دون ان يخطر صهره (الملك يوحنا) ، فلمـا لحق به الملك العجوز ، استقبله فردريك في برود . ثم تلى ذلك وقوع شجار مكشوف ، حينما علم الملك يوحنا من ابنته الباكية ، ان زوجها راود احدى بنـات

---

(١) انظر : Kantarwicz, Fredrick II, pp. 366 - 368.

هذا الكتاب يورد ما يتسم به فردريك الثاني من المثل والعواطف . انظر ما يلي.

عمّها عن نفسها . وعندئذ أعلن فردريك في برود ، انه لم يعد مطلقاً بأن يوحنا سوف يبقى وصياً على عرش مملكة بيت المقدس . فلم يكن بينهما اتفاق مكتوب ، ولذا ليس للملك يوحنا حق شرعي ، بعد ان تزوجت ابنته . فأدرك الملك يوحنا انه أضحى مجرداً من مكانته ، بل ان عساكر فردريك انتزعوا منه المال الذي سبق للملك فيليب اغسطس ان أوصى له بـه لينفقه لمصلحة بيت المقدس [1] .

وفي غمرة اليأس ، هرب الملك يوحنا الى البلاط البابوي . على ان البابا هونوريوس الذي كان شديد الكراهية لأن يظن سوءاً في تلميذه السابق ، لم يعد ينخدع فيه ، بعد ان صدمه مـا حدث فعلاً ، غير انه لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً للملك يوحنا ، سوى ان جعل له حكومة ولاية توسكانيا (من الإمارات البابوية) . على ان حياة المحارب القديم لم تنته عند هـذا الحد . إذ سبق تقديم اقتراح بتوليه عرش انجلترا . ثم حدث سنة ١٢٢٨ ان كانت الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية في حاجة الى وصي على الامير الطفل بلدوين الثاني . فقبل يوحنا الوظيفة عـن طيب

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 451 - 452.
Estoire d'Eracles, II, pp. 358 - 360, 356.
(أشار تاريخ هرقل الى ان يوحنا كان حريصاً على ان يظل وصياً على عرش بيت المقدس حتى سنة ١٢٢٧ ، حين تبلغ يولندا وقتذاك السادسة عشرة من عمرها) .
Richard of San Germano, p. 345.
Historia Diplomatica Friderici Secundi, II, p. 392.
اتخذ فردريك لنفسه فعلاً لقب ملك بيت المقدس ، في ديسمبر سنة ١٢٢٥ (Ibid, II, p. 526).
اما ابنة عم يولندا التي راودها فردريك عن نفسها ، فكانت ابنة والتر برين .

خاطر ، برغم انه ناهز الثمانين من عمره . وتزوج بلدوين من ماريا ابنة يوحنا ، التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها . وأدرك يوحنا في اهتمام وحرص الى ان ما حازه من لقب الامبراطور ، سوف يحمله حتى وفاته سنة ١٢٣٧ [١] .

على ان الملكة الامبراطورة يولندا كانت اسوأ حظاً من ابيها . إذ ان فردريك ارسلها الى حريمه الذي اتخذه في بالرم . فعاشت في عزلة ، تتطلع شوقاً الى حياة الشرق الفرنجي البهجة . وفي ٢٥ ابريل سنة ١٢٢٨ ، انجبت ابنها كنراد ، وبعد ان ادت واجبها ، ماتت بعد ستة ايام . ولما تبلغ سبع عشرة سنة [٢] .

سبق لفردريك ان وعد البابا بأنه سوف يتزوج عروسه في سوريا ، غير انه بناء على طلبه الذي تقدم بـه الى البابا عن طريق الملك يوحنا ومقـدم الفرسان التيوتون ، حصل على رخصة بتأجيل رحيله الى سوريا لمدة سنتين . وفي ٢٥ يوليه سنة ١٢٢٥ التقى في سان جرمانو بمندوبين بابويين فأقسم اليمين بأنه سوف يرحل الى الشرق في اغسطس سنة ١٢٢٧ ، وأنه سوف يبادر الى إرسال الف فارس ، وأنـه سيودع في روما ١٠٠ الف اوقية من الذهب ، تصادر لصالح الكنيسة ، اذا اخلّ بوعده . ولو انـه

---

(١) عن حياة يوحنا في القسطنطينية ، انظر :
Longnon, l'Empire Latin, pp. 169 - 174.

(٢) انظر :
Ernoul, p. 454.
Estoire d'Eracles, II, p. 366.
Richard of San Germano, p. 447.
Historia Diplomatica Friderici Secundi, I, p. 858.

اخذ بما ورد من الشرق الفرنجي من نصيحة ، لتأجل رحيل الامبراطور حتى سنة ١٢٢٩ ، حين ينتهي اجل الهدنة المعقودة مع الكامل [١] .

على ان الفرسان الذين وعد الامبراطور بإرسالهم الى سوريا، توجهوا في القافلة البحرية ، التي تكفلت بإحضار الامبراطورة المقبلة . أما فردريك فإنه افاد من السنتين اللتين رخص له بهما البابا ، في محاولة توطيد حكمه في شمال ايطاليا ، وبــذا ترتبط سوياً املاكه في المانيا وايطاليا . غير ان عداوة العصبة اللومباردية الاكيدة ، احبطت محاولته . وكل ما استطاع ان يظفر به من وفاق مع اللومبارديين ، لم يتحقق إلا بالسعي للكسب ود البابوية بإظهار الحماس مرة اخرى للقيام بحملة صليبية . غير ان مؤدبه السابق ، البابا هونوريوس مات في مارس سنة ١٢٢٧ . أما البابا الجديد ، جريجوري التاسع، فكان من طراز آخر، اذ كان أشد صرامة وقسوة. كان ابن عم انوسنت الثالث ، كان شبيهاً به فيما امتاز به من عقلية قانونية صافية ، وإيمان قوي لا يتزعزع ، بما للبابوية من سلطة إلهية . ولما اتصف به البابا من التقشف والزهد ، كره فردريك على انه رجل ، وأدرك انه لا هدنة بين ما يوده الامبراطور من استبداد سياسي ديني ، وبين مفهومه لسلطته ، واقتضت دواعي السياسة والتقوى انه لا بدّ لفردريك ان يرتحل الى الشرق [٢] .

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 36 - 48. Registra Honorii Papae, III, no, 5566, II, p. 352.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, V, II, pp. 1467 - 1468.

رحيل فردريك الى الشرق سنة ١٢٢٨ :

كان فردريك فيما يبدو مستعداً للرحيل . والمعروف انه رحل فعلاً الى الشرق جماعة من الصليبيين الانجليز والفرنسيين برئاسة اسقفي اكستر وونشستر . وظل الامبراطور طوال صيف سنة ١٢٢٧ يحشد جيشاً كثيفاً في أبوليا . على ان وباء الملاريا عصف بالجيش ، غير ان عدة آلاف من العساكر أبحروا من برنديزي في اغسطس سنة ١٢٢٧ ، بقيادة هنري الرابع دوق ليمبودج . ولحق فردريك بالجيش بعد بضعة ايام ، واستقل السفن في ٨ سبتمبر ، غير انهم ما كادوا يرفعون المراسي ، حتى خرّ مريضاً احد رفاقه ، لويس ، حاكم طرف ثورنجيا ، وإذ رست سفينتهم في اوترانتو ، مات حاكم ثورنجيا ، وانتقل المرض الى فردريك . فغادر فردريك الاسطول ، الذي ارسله الى عكا بقيادة جيرولد لوزان ، بطريرك بيت المقدس ، ثم توجه فردريك للاستشفاء في العيون المعدنية في بوتشولي ، وأنفذ رسولاً الى البابا جريجوري في اناجني ، ليشرح له ما دعا الى تأجيل لا مفر منه [١] . غير ان البابا جريجوري لم يقتنع بالقصة ، واعتقد ان الامبراطور

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, p. 44, V, p. 329.

Annales Marbacenses, p. 175.

Alberic of Trois Fontaines, p. 920.

Richard of San Germano, p. 348.

والمعروف ان لويس حاكم ثورنجيا كان زوجاً لسانت اليزابيت المجرية .

Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1469 - 1470.

Ernoul, pp. 458 - 459.

يشير ارنول الى وصول اول حملة صليبية يلحظ فيها كثرة عدد الانجليز .

عاد الى المماطلة ، فبادر البـــابا الى قطعه من الكنيسة ، وردد الحكم في خشوع في كنيسة القديس بطرس في نوفمبر سنة ١٢٢٧ (١) . على ان فردريك مضى في استعداداته للحملة الصليبية ، بعـد ان وجّه الى أمراء اوربا بياناً متزناً ، ينكر فيه مزاعم البابا . ومع ان البابا حذره بأنه ليس بوسعه من الناحية القانونية ان يتوجه الى الحرب المقـدسة ، لوقوعه تحت حظر الكنيسة ، فإنه حشد جماعة صغيرة ، وأقلع بها من برنديزي في ٢٨ يونيـــه سنة ١٢٢٨ (٢) . على ان التأجيل غيّر وضع فردريك ، إذ ان الامبراطورة يولندا قد ماتت ، فلم يعد فردريك ملكاً على بيت المقدس ، ولم يعد زوجاً للملكة ، بل أضحى قيّماً على ابنه الملك الطفل ، كنراد . ومن حق بارونات المملكة ، اذا أرادوا ، ان يرفضوا وصايته (٣) .

على ان أمراء الشرق الفرنجي لم ينتظروا قدوم الامبراطور فردريك بسرور خالص ، وكان بوهمند امير انطاكية وطرابلس أقل الأمراء قلقاً واضطراباً ، لأنه لم يعترف فيما يبدو بالسيادة العليا إلا للامبراطور اللاتيني بالقسطنطينية ، على حين ان للامبراطور فردريك ان يزعم لنفسه حقوق السيادة على قبرص ، لأن الملك امالريك تلقى التاج من الامبراطور هنري السادس ، ومن

---

(١) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1471 - 1472.

(٢) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 37 - 18.
اورد بيان فردريك .

(٣) انظر : Ibid, I, p. 898.
Richard of San Germano, p. 350.
Estoire d'Eracles, II, pp. 366 - 367.
Hefel - Leclerc, op. cit. p. 1477.

المحقق ايضاً انه كان ملكاً على بيت المقدس ، حتى وفـــاة الامبراطورة يولندا ، التي لم يعلم بها احد في الشرق إلا قبيل وصوله [١] . لقد تدخّل فردريك منـــذ فترة قصيرة في امور بيت المقدس ، إذ انه ارسل سنة ١٢٢٦ ، توماس اكوينو ، كونت اكـيّرا ، كيما يحلّ في الوصاية مكان اودو مونبليارد ، فأظهر توماس من النشاط والحزم في تصرفاته في المحكة العليا ما لم يكن مقبولاً عند البارونات [٢] .

امـا في قبرص فكانت أليس ملكة بيت المقدس ، وصية رسمية على ابنها الملك الطفل هنري الاول . فعهدت بالحكومة الى خالها فيليب ابلين الابن الثـــاني للملكة ماريا كومنينا . ولم تكن العلاقات ودية بين الملكة ونائبها . كانت تشكو دائماً انـه يهمل رغباتها ، ووقع شقاق صريح بينهما سنة ١٢٢٣ ، حين رفض فيليب ابلين ان يجيز سرقة عشور رجال الدين الارثوذكس لمصلحة اللاتين ، حسبما أوصى الكاردينال بيلاجيوس في مجمع انعقد في ليماسول . والمعروف ان الملكة سبق ان اتفقت مع الكاردينال بيلاجيوس ، فلما لم تستطع تحقيق غرضها ، اشتد سخطها ولجأت الى طرابلس ، حيث تزوجت اكبر أبناء الامير بوهمند الباقين على قيد الحياة ، وهو الذي صار فيما بعد بوهمند الخامس [٣] . ولما تحقق سنة ١٢٢٥ عزم الامبراطور فردريك على القـدوم الى الشرق ، بادر فيليب ابلين بتتويج الملك هنري الذي لم

---

(١) انظر : La Monte, Fendal Monarchy, p. 59.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 364.

(٣) انظر : Hill, History of Cyprus, II, pp. 87 - 88.
أورد المؤرخ هيل مراجع عديدة ، وناقش تواريخ ما وقع من أحداث .

يتجاوز الثامنة من عمره ، حتى اذا بلغ هنري الخامسة عشرة من عمره ، لن يمتد على الأقل أجلُ الوصاية ، بحجة انه لم يتوج بعد . ومع ان الملكة أليس أضحت بالمنفى (طرابلس) الذي اختارته لنفسها ، فإنها ما زالت تعتبر نفسها وصية . وما قامت به من محاولة لتعيين زوجها الجديد نائباً عنها لم تلقَ إلا الفشل الذريع ، لأنه ما من احد من البارونات رضي به . وعندئذ عرضت وظيفة النيابة عنها ، على احد البارونات البارزين ، وهو المريك بارليس ، الذي بادر بقبوله ، برغم انه عارض ترشيح بوهمند زوج الملكة أليس لهذا المنصب ، ويرجع قبوله لهذا المنصب الى حد كبير ، الى كراهيته لأسرة ابلين . على ان البارونات ، باستثناء واحد منهم ، أعلنوا ان نائب الملكة لا يجوز تعيينه إلا بموافقة المحكمة العليا ، التي طلبت ان يستمر فيليب في منصبه . ولم يسع بارليس بعد شجاره الصريح مع أنصار ابلين ، إلا ان يلجأ الى طرابلس ، في انتظار قدوم فردريك ، بينما توجه احد أصدقائه ، جافين شينيشي ، للحاق بالامبراطور في ايطاليا [١] . على ان فيليب ابلين مات في سنة ١٢٢٧ ، فدعت المحكمة العليا أخاه الاكبر يوحنا سيد بيروت ، ليكون نائباً للملكة مكانه . والراجح ان الملكة أليس وافقت على تعيينه [٢] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 30 - 33
Estoire d'Eracles, II, pp. 361 - 362.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 37.
Annales de Terre Sainte, p. 438.
Estoire d'Eracles, II, p. 365.
أخطأ هذا المصدر حين جعل وفاة فيليب ابلين في سنة ١٢٢٨ .
لم يرد في مصدر من المصادر ما يشير الى تعيين يوحنا ابلين نائباً للملكة في قبرص ، إنما ثبت انه كان يؤدي وظيفة النائب ، حينما وصل الامبراطور فردريك .

اضحى يوحنا ابلين وقتذاك يعتبر اعظم شخصية في الشرق الفرنجي ، إذ كان ادنى الذكور في الشرق قرابة لكل من ملك قبرص ، والملكة الامبراطورة يولندا . اشتهر بالجاه والثروة ، فكان يملك مدينة بيروت بينا تعتبر زوجته وارثة اقطاع ارسوف . اكسبته خلاله الشخصية احترام الناس . فما حازه من اصل عريق ، وثروة وافرة ، وشخصية متكاملة ، كل ذلك جعله لعشرات السنوات الزعيم الذي اجمع البارونات في الشرق الفرنجي على قبوله . وإذ امتزج فيه الدم الفرنسي الشرقي والدم اليوناني ، فهم الشرق وشعوبه ، فضلاً عن درايته الواسعة بتاريخ مملكة الفرنج وقوانينها (١) . وأدرك الامبراطور فردريك على الفور انه بالغ الخطورة على سياسته . وعرف فردريك ايضاً الشرق وشعوبه ، بفضل تعليمه وتدريبه في صقلية . فلم تكن علاقاته بالمسلمين إلا من النوع الذي كان بوسع بارونات الفرنج في الشرق ان يميلوا الى اتباعها . غير ان مفهوم الملكية عند فردريك ليس معروفاً عندهم ، إذ يعتبر ملك بيت المقدس عرفاً ملكاً مقيّداً بدستور ، ولا يزيد كثيراً على انه رئيس المحكمة العليا والقائد الأعلى . غير ان فردريك جعل من نفسه ملكاً مستبداً على نحو ما الفه الرومان والبيزنطيون ، فكان مصدر القوة والقانون ، وولي الله في ارضه ، فضلاً عما يضفيه عليه الحق الوراثي من مزايا . فلن يسيطر على امبراطور الرومان فئة قليلة من صغار بارونات الفرنج .

الامبراطور فردريك يهبط في قبرص سنة ١٢٢٨ :

كان بارليس وشيعته فعلاً على اتصال بالامبراطور فردريك قبل وصوله

---

(١) انظر : La Monte: « John of Ibelin », in Byzantion, vol. XII.

تجاه ليماسول في ٢١ يوليه سنة ١٢٢٨ . وبناء على نصيحتهم ، بادر الى دعوة يوحنا ابلين بالقدوم مع ابنائه وملك قبرص ، للاجتماع بـه . ومع ان اصدقاء يوحنا حذروه مما اشتهر به فردريك من الغدر ، فإن يوحنا كان شجاعاً وصادقاً مستقيماً . فلم يشأ ان يرفض دعوة جاءته من سيد قبرص. فلما وصل يوحنا مع ابنائه والملك ، استقبله فردريك بكل مظاهر الشرف وصار يدعوه على انه خاله ، وغمره بالهدايا الثمينة . وجرى اخطار يوحنا بأن يطرح جانباً ما يرتديه من ثياب الحداد على اخيه فيليب ، وأن يشهد المأدبة التي اقيمت على شرفه . غير انـه حدث اثناء المأدبة ان تسلل الى القاعـة عساكر فردريك ، ووقف كل منهم خلف احد الضيوف ، شاهرين سيوفهم . ثم طلب فردريك الى يوحنا ان يتنازل عن إقطاع بيروت ، وأن يسلـّم كل ما تحصل من موارد قبرص منذ وفـــاة الملك هيو . فأجاب يوحنا بأن إقطاع بيروت بذلته له اخته الملكة ازابيللا ، وانـه سوف يدافع عن حقه فيه امام المحكمة العليا لمملكة بيت المقدس ، أما موارد قبرص فإنه هو وأخوه فيليب قاما بتسليمها الى الوصية ، الملكة اليس ، باعتبار ان ذلك اجراء مشروع . فانفجر فردريك يقذف بتهديداته ، غير ان يوحنا اصر على موقفه . وأعلن انه لم يشأ ان يقال عنه انـه رفض ان يساعد الامبراطور في حملته الصليبية ، غير انه لن ينتهك قوانين البلاد ، حتى لو تعرّض للقتل في سبيل ذلك .ولم يتجاسر فردريك على ان يخاطر بخصومة صريحة ، إذ لم يكن لديـــه وقتذاك إلا ثلاثة او اربعة آلاف جندي . فطلب ان يبقى معه عشرون نبيلا ، منهم ولدا يوحنا ، ليكونوا رهائن ، وأن يظل معه الملك ، وأن يمضي يوحنا ابلين معه الى فلسطين . وفي مقــابل ذلك اعترف يوحنا ابلين والباروانات القبارصة بالامبراطور فردريك سيداً على قبرص ، وكان ذلك سليماً ، فلم يعتبروه وصياً عليها ،

نظراً لأن اليس كانت الوصية الشرعية ، واعترفوا به وصياً ، لا ملكاً ، على بيت المقدس ، لأنهم علموا وقتذاك ان يولندا قــد ماتت ، وإن ابنها الطفل كنراد اضحى ملكاً على بيت المقدس[١] .

وفي تلك الاثناء استدعى كبار امراء الشرق الفرنجي لموافاته بقبرص . فوصل اليهـــا في اغسطس سنة ١٢٢٨ باليان سيد صيدا في كتيبة من العساكر جاء بها من بر الساحل ، ولم يلبث ان جاء بعده جاي امبرياكو سيد جبيل الذي كان يكره امرة ابلين ، والذي اقترض منه فردريك مبلغاً كبيراً من المال ، مثلما فعل ليوبولد دوق اوستريا منذ بضع سنوات . وبهذه الأمداد ، زحف على نيقوسيا ، وفي اثناء الطريق اليها ، لحق بــه بوهمند الرابـع امير انطاكية . واتخذ يوحنا ابلين حذره ، فلجأ الى القلعة التي أطلق عليها اليونانيون : العمتين التوأمتين ، ديديمي ، بينما اشتهرت عند الفرنج باسم إله الحب Dieu d'Amour ، وهي المعروفة حاليـاً باسم سانت هيلاريون . وكان قد ارسل اليهـا سيدات قصره والأطفال ؛ ومستودعات كبيرة من المؤن . ونص قانون الاقطاع ، على انــه لا يجوز في اثناء زمن الوصاية ، طرد البارونات من القلاع التي عهد بها اليهم الملك . ولم يحاول فردريك وقتذاك ان يتغاضى عن القانون ، إذ كان حريصاً على المضي الى فلسطين . ويبدو ان باليان سيد صيدا ، وابن اخت يوحنا ، قام بدور الوسيط ، فتقرر ألا يبذل الملك الولاء والتبعية للأمبراطور ، بينـا

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 37 - 45.
اورد مؤلف هذا الكتاب ، فيليب نوفارا ، تقريراً جلياً عن الاحداث، والراجح انه شهدها.
Estoire d'Eracles, II, pp. 367 - 368.

يحلف جميع القبارصة يمين الاخلاص للأمبراطور على انه سيد أعلى . ومع انه تمّ الاعتراف بأن أليس وحدها كانت الوصية ، فان فردريك أراد ان يعين نائباً عنه ليحكم البلاد ، وأن يتوجـه يوحنا الى فلسطين للدفاع عن حقوقه في بيروت امـام المحكمة العليا . وسوف يتم اطلاق سراح كل الرهائن . وعلى اساس هـذه الشروط ، وبعد حلف الايمان بالمحافظة على السلم ، ابحر الامبراطور من فاماجستا في ٣ سبتمبر سنة ١٢٢٨ ، وفي صحبته الملك وسادة بيت ابلين ، ومعظم بارونات قبرص . امـا المريك بارليس فتخلف في قبرص ليكون نائباً للأمبراطور بها ، يساعده جافن شنيشي وأصدقاء آخرون [١] .

وسبق لفردريك أن اقترح بأن يبـذل بوهمند الولاء له عن طرابلس وأنطاكية ، غير ان بوهمند بادر بالتظاهر بأنـــه مصاب بانهيار عصبي ، وتسلل سراً الى البيت ، حيث تماثل للشفاء [٢] .

الامبراطور فردريك الثاني في عكا سنة ١٢٢٨ :

ولما وصل الامبراطور ورفاقه الى عكا ، هرع يوحنا ابلين على الفور

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 45 - 48.
Estoire d'Eracles, II, pp. 368 - 369.

ورفقاً للقانون الالماني ، لم يبلغ الملك سن الرشد إلا في الخامسة والعشرين من عمره ، بينما كان سن الرشد خمس عشرة سنة في بيت المقدس وقبرص . والراجح ان فردريك اعتبر الملك هنري حدثاً حتى يبلغ الخامسة والعشرين ، انظر :

Hill, op. cit. II, p. 98, n. 4.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 48.

الى بيروت ، حتى يتأكد ان بوسعها ان تقاوم ما قد تتعرض له من هجوم من قِبل الامبراطور . ثم عاد الى عكا ليدافع عن نفسه أمام المحكمة العليا ، غير ان فردريك لم يعجل باتخاذ اجراء . إذ بلغ فلسطين النبأ بأن البابا قطع فردريك مرة اخرى من الكنيسة ، لأنــه خرج للحرب الصليبية ، قبل ان يحصل على تحلل من قرار الحرمان الذي سبق صدوره ضده . فجرى الارتيــاب فيما اذا كانت الأيمان التي تمّ حلفها له ، لا زالت سليمة وصحيحة . الواقع ان كثيرين من الاتقياء الورعين ، رفضوا التعاون معه ، ومن هؤلاء البطريرك جيرولد . ولم يكن عند الداوية والاسبتارية ما يدعوهم للتعاون مع رجل تقرر قطعه من الكنيسة . فلم يسع فردريك إلا أن يستند الى تأييد الفرسان التيوتون ، إذ كان مقدمهم هرمان سالتزا صديقاً له . لم يكن معه جيش كثيف ، إذ أن عدداً كبيراً من العساكر الذين خرجوا سنة ١٢٢٧ بصحبة دوق ليمبورج ، عادوا فعلاً الى بلادهم ، إما نتيجة لقلقهم ، وإما خوفاً من ان يسيئوا الى الكنيسة . على انه ابحر الى الشرق بعد شهر، جماعة قليلة العدد في صحبة البطريرك ؛ كما ان فردريك ارسل في ربيع سنة ١٢٢٨ خمسمائة فارس تحت قيــادة خادمه الحميم ، المارشال رتشرد فيلانجييري . على انه ليس بوسعه ان يحشد من هــــذه الأمداد وكل جيش الشرق الفرنجي قوة لها من بالغ التأثير ما يجعلها قادرة على ان توجه ضربة حاسمة الى المسلمين . وزاد من قلق فردريك مــا ورد من ايطاليا من نبأ بأن نائبه ، رينالد دوق سبوليتو ، فشل في الهجوم الذي شنه على طرف انكونا ، وأن البابا اخذ يحشد قواته لغزو مملكته بايطاليا . وإذ لم يكن بوسع فردريك أن يقوم بحملة ضخمة في

الشرق ، فلا بد ان تكون حملته الصليبية مجرد حملة دبلوماسية [1] .

المشاحنات في الأسرة الايوبية سنة ١٢٢٨ :

وواتى الامبراطور حظ طيب ، بأن دار في خلد السلطان الكامل هذه الأفكار . فما انعقد من التحالف بين الاخوة الايوبيين الثلاثة ، الكامل في مصر ، والمعظم في الشام ، والأشرف في اقليم الجزيرة ، لم يعش طويلاً بعد انتصارهم على الحملة الصليبية الخامسة . إذ كان المعظم دائماً يحقد على الكامل ، وتحققت الآن مخافاته من ان الكامل والأشرف ، يُعدان لاقتسام بلاده . وإلى الشرق من الأيوبيين بلغت امبراطورية جلال الدين خوارزمشاه ذروة قوتها . إذ ردّ جلال الدين غارة مغولية على بلاده ، فأضحى يحكم البلاد الممتدة من أذربيجان الى نهر السند ، وصار يسيطر على الخليفة العباسي في بغداد . وعلى الرغم من ان استقرار المغول في الجهات الواقعة خلف بلاده ، منعه من المخاطرة بالتوغل في الغرب ، فان جلال الدين يعتبر خطراً كبيراً يهدد الايوبيين . وحينما طلب المعظم من جلال الدين المساعدة ، لإغاظة اخويه ، ثم اعترف سنة ١٢٢٦ بسيادته ، اشتدّ جزع الكامل فعلاً . لجأ الأشرف الى اتخاذ خطة الدفاع ، بعد ان تعرّض للحصار في عاصمته أخلاط . كان المغول وقتئذ منصرفين الى القتال في الصين ، فكل استنجاد بهم ، ولو كان ذلك فكرة صائبة ، سوف لا يؤبه به . ولذا حدث في

---

(١) انظر : Röhricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem, pp. 776 - 777.

يناقش روويخت القوة العددية لجيش فردريك. فلم يتجاوز هذا الجيش احد عشر الف رجل، كما ان عدداً كبيراً من العساكر بادروا بالعودة الى بلادهم .

خريف سنة ١٢٢٦ ان ارسل الكامل الى صقلية اعظم من يثق به من امرائه ، وهو فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، ليطلب المساعدة من الامبراطور فردريك . ومع ان فردريك أعرب عن عطفه ، فانه لم يبذل وعوداً . إذ انه لا زال وقتذاك يفكر في إعداد حملة صليبية قوية . وكيما يبقى باب المفاوضات مفتوحاً ، أرسل الى القاهرة توماس أكيرّا ، الذي كان وقتئذ بفلسطين ، مع اسقف بالرم ، بهدايا ورسائل ودية الى السلطان . فعرض الكامل ، مثلما فعل أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، أنه مستعد لإعادة بيت المقدس الى المسيحيين . على ان بيت المقدس كانت لسوء الحظ تابعة لأخيه المعظم ، فلما توجه اسقف بالرم الى دمشق للتصديق على الاتفاق ، أجاب المعظم في غضب انه ليس من الساعين الى السلام ، وأنه لا زال يستخدم سيفه . وفي تلك الأثناء قام فخر الدين بزيارة اخرى الى صقلية ، حيث أضحى صديقاً حميماً للامبراطور ، الذي نصّبه فارساً . فلقي بذلك رحيل فردريك الى الشرق من التشجيع من قبل البابا مثلما لقيه من السلطان [١] .

غير ان الوضع تغير قبل رحيل فردريك . إذ مات المعظم في ١١ نوفمبر سنة ١٢٢٧ ، وخلّف أملاكه لابنه الناصر داود ، وهو شاب في

---

(١) عن سياسة الكامل ، انظر :

Ibn al - Athir, II, pp. 162 - 168.
Abu'l Feda, pp. 99 - 102.
Al - Aini, pp. 183 - 186.
Makrizi, trans. Blochet, IX, pp. 470 - 511.
Histoire des Patriarches d'Alexandrie, p. 518.

الحادية والعشرين من عمره . ولمـــا اشتهر به الامير الجديد من الضعف ، والافتقار الى الخبرة والتجربة ، بادر الكامل بالتجهز الى إضافة أملاكه الى بلاده . فسار الكامل الى فلسطين ، واستولى على بيت المقدس ونابلس . فاستنجد الناصر داود بعمه الأشرف ، الذي نهض لمساعدته ، بعد ان أعلن أنه لم يقدم إلا ليرى ان الفرنج لم يفيدوا من الوضع ، كيما يضموا اليهم فلسطين . وردّد الكامل علناً هذه الدعوى ، التي تبدو برّاقة مقبولة ، بينما كان فردريك في طريقه الى الشرق . فالتقى الاخوان ، الكامل والاشرف عند تل العجول ، قرب غزة ، واتفقا على ان يقتسما بينهما بلاد ابن اخيهما ، الذي ظلّ يحتج على ان تصرفهما يخالف مصلحة الاسلام . كان الناصر داود يعسكر بجيشه في بيسان ،حيث دبّر الاشرف خطة لأسره . غير ان الشاب سمع بالمؤامرة ، فلاذ بالفرار الى دمشق ، فاقتفت أثره جيوش عميه ، وألقت الحصار على دمشق حوالي نهاية سنة ١٢٢٨ (١) .

هذه الأحوال جعلت الكامل يأسف لقدوم فردريك . إذ كان شديد التطلع لأن يحوز فلسطين بصفة دائمة ، إذ لم يُبد الخوارزمية ما يدل على نهوضهم لمساعدة الناصر داود . على ان ظهور الجيش الصليبي في عكا ليس معناه انه سوف يركز كل قواته على حصار دمشق . فلم يكن فردريك

---

(١) انظر :

Ibn Khallikan, II, p. 429.
Makrizi, IX, pp. 516 - 518.
Abu Shama, II, pp. 187 - 191.
Ibn al - Athir, II, pp. 173 - 174.
Histoire des Patriarches, p. 519.

دائماً موطناً للثقة ، إذ يصح ان يقرر التدخل لصالح الناصر داود . ولما أرسل فردريك الى الكامل توماس أكيرا ، وباليان سيد صيدا ليخطراه بوصوله ، طلب الكامل الى فخر الدين ان يزور مرة اخرى الامبراطور فردريك ، وأن يبدأ المفاوضات معه ، وأن يبذل كل جهده في ان يطوّل أمد المفاوضات ، الى ان تسقط في يده دمشق ، او يعود فردريك الى بلاده . وانقضت عدة شهور في مساومات ، في جو ساد فيه ما كان بينهما من خداع متبادل تارة ، ومن إعجاب متبادل تارة اخرى . فلم يكن كل من الامبراطور والسلطان شديد التعلّق بديانته ، إذ ان كلا منهما كان شديد الاهتمام بأسلوب الآخر في الحياة ، ولم يكن كل منهما مستعداً للسير الى القتال اذا تيسر تجنبه . غير انه كان لزاماً على كل منهما ، من اجل المحافظة على مكانته وهيبته عند قومه ، ان يبذل قصارى جهده في التشدد في المساومة . على ان فردريك تعرض للضغط فترة من الزمن ، ولم يكن جيشه من الكثافة ما يكفي للقيام بحملة كبيرة ، كما ان الكامل كان يرتاع لكل عرض للقوة ، بينما لم تسقط دمشق بعد ، فكان مستعداً لأن يبذل للمسيحيين من الامتيازات ما تكفل له المساعدة في المضي في سياسته الكبرى التي ترمي الى اعادة توحيد الامبراطورية الايوبية والسيطرة عليها . غير انه ينبغي ألا تتجاوز هذه الامتيازات الحدود . فلما طلب فردريك استعادة كل فلسطين ، اخبره فخر الدين بناء على تعليمات الكامل ، أنه ليس بوسع سيده ان يسيء الى راي المسلمين الى هذا الحد الكبير .

حاول الامبراطور في نهاية نوفمبر سنة ١٢٢٨ ان يتعجل الأمور بالالتجاء الى مظاهرة عسكرية ، فأمر بحشد كل العساكر الذين سوف يتبعونه ، وساروا ازاء الساحل الى يافا ، التي تقدم لعمارة استحكاماتها . أما الناصر

الذي لم يضايقه الحصار بعد في دمشق ، فإنه قاد جيشاً الى نابلس ، ليقطع خطوط تموين عمه . غير ان الكامل رفض ان يتعرّض للغش والخداع . فقطع المفاوضات ، وأشار الى ان رجال فردريك نهبوا القرى الاسلامية ، ولم يستأنف المفاوضات من جديد إلا بعد ان دفع فردريك تعويضاً عن الخسائر [1] .

استعادة بيت المقدس ، سنة ١٢٢٩ :

دلّ فردريك آخر الأمر على تفوّقه في المساومة . فلم يحل شهر فبراير حتى كان الناصر داود لا يزال بدمشق لم يمسه شيء من الضرر ، بينما اخذ جلال الدين خوارزمشاه يوجّه اهتمامه من جديد صوب الغرب . أتمّ فردريك عمـارة استحكامات يافا ، ثم ارسل بناء على نصيحة فخر الدين ، توماس اكيرّا وباليان سيد صيدا ، الى الكامل مرة اخرى ، فعادا في ١١ فبراير سنة ١٢٢٩ ، بالشروط النهائية للسلطان ، التي وافـق عليها فردريك ، ثم وقع بعد اسبوع ، في ١٨ فبراير سنة ١٢٢٩ معاهدة الصلح مع ممثلي الكامل فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وصلاح الدين امير اربل . وشهد على المعاهدة مقدم الفرسان التيوتون ، وأسقفا اكستر ونشستر . وبمقتضى هذه المعاهدة ، تحصل مملكة بيت المقدس على مدينة القدس ذاتها وبيت لحم ، مع شريط من الارض يخترق لد وينتهي عند يافـــا على البحر ، فضلاً عن الناصرة

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 369 - 372.
Ernoul, pp. 460 - 463.
Al - Aini, pp. 186 - 188.

وغرب الجليل بما اشتمل عليه من حصن مونتفورت وتبنين ، ومـا تبقى حول صيدا من المناطق الاسلامية . على ان يظل في ايدي المسلمين من بيت المقدس ، منطقة المعبد بما تحتوي عليه من قبة الصخرة والمسجد الاقصى ، وللمسلمين الحق في التردد اليها وحرية العبادة . وأضحى بوسع فردريك ان يعيد بناء اسوار بيت المقدس ، غير ان هذا الحق ، اختص بـه وحده . وقضت المعاهدة بإطلاق سراح الأسرى عنـد كلا الجانبين ، وأن يكون اجلهـا عشر سنوات بالتقويم المسيحي ، أي عشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري . ولكن لم تسر هذه المعاهدة على إمارة بوهمند ، انطاكية وطرابلس [1] .

وبذا اعاد الامبراطور المقطوع من الكنيسة الاماكن المقدسة الى العالم المسيحي دون ان يوجه ضربة واحدة . على ان ما من معاهدة لقيت ما لقيته هذه المعاهدة مباشرة من الرفض من المسلمين والمسيحيين ، إذ جزع العالم الاسلامي ، ففي دمشق ، لقي الناصر داود متعة ، في ان يعلن الحداد

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 90 - 91, 93 - 95, 102.

(انظر رسالة هرمان سالترا الى البـابا ، وبيان فردريك ، ورسالة البطريرك جيرولد ، التي اوردت نصوص الصلح) .

وورد نص حرفي لهذه المعاهدة مع تعليق البطريرك ، في :

Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 86 - 87.

Ernoul, p. 465.

Estoire d'Eracles, II, p. 374.

Al - Aini, pp. 188 - 190.

Makrizi, IX, p. 525.

العام لما تعرّض له الاسلام من خيانة . بل إن أئمة الكامل ، جهروا بأنه أساء الى الاسلام ، وما قام به الكامل من رد قاصر بأنه لم يتنازل إلا عن دور وكنائس خربة ، بينما استخلص للاسلام مشاهدة كاملة ، لم يكن إلا سلوى تافهة . كما ان قوله بأنه لا زالت للمسلمين السيادة العسكرية في الإقليم ، لم يكن فيما يبدو عذراً كافياً (١) . اما المسيحيون فانهم من ناحيتهم ادركوا الوضع العسكري ، فغلاة المسيحيين اعربوا عن حزنهم بأن بيت المقدس لم تسترد بقوة السلاح ، وامتعضوا لاحتفاظ المسلمين بمشاهدهم ، وتذكروا جميعاً ما جرى من مفاوضات في الحملة الصليبية الخامسة ، حين تقرر رفض عرض الكامل بالتنازل عن كل فلسطين ، لأن الخبراء العسكريين اشاروا الى ان بيت المقدس لم تكن لتبقى في ايدي المسيحيين ما لم يُضَف اليها اقليم ما وراء نهر الاردن . فكيف تستطيع بيت المقدس عندئذ ان تبقى ، ولم يربطها بالساحل سوى شريط ضيق من الارض ؟ فلم يحدث من الابتهاج والسرور ما كان الامبراطور فردريك يتوقعه . فما من احد اقترح رفع قرار الحرمان من الكنيسة عن الرجل الذي ادى للعالم المسيحي هذه الخدمة الكبيرة . فأعلن البطريرك جيرولد امتعاضه واستياءه ، وفرض على المدينة المقدسة الحظر والحرمان ، اذا استقبلت الامبراطور . وإذ غضب الفرسان الداوية لبقاء المعبد في ايدي المسلمين ، بادروا بالاحتجاج . وصرحوا بأنهم مع الاسبتارية لن يتعاونوا مع عدو البابا . أما النبلاء المحليون الذين سبق أن اعلنوا نفورهم لتحلل فردريك من قرار القطع والحرمان ، فانهم

---

(١) انظر :

Al - Aini, pp. 190 - 191.
Abu'l Feda, p. 104.
Makrizi, X, pp. 248 - 249.

جزعوا لأن الحد الجديد ليس صالحاً من الناحية العملية . وزاد في كراهيتهم للأمبراطور ، ما اعلنه فردريك بأنه سوف يمضي الى بيت المقدس ، ليتوّج بها ملكاً . فالواقع انه ليس ملكاً عليهم ، إذ أنه لم يكن إلا وصياً على الملك ووالده [1] .

فردريك في بيت المقدس سنة ١٢٢٩ :

جرى الاحتفـــال في ١٧ مارس سنة بدخول فردريك الى بيت المقدس ، ولم يرافقه إلا عساكره من الالمان والايطاليين ، وعدد بالغ القلة من البارونات الحليين . ولم يمثل الطوائف الدينيـــة العسكرية إلا الفرسان التيوتون ، ولم يصحبه من رجـال الدين سوى أساقفة صقلية ، وصديقيه الانجليزيين ، بطرس اسقف ونشستر ، ووليم اسقف اكستر . واستقبل الامبراطور عند الباب قاضي نابلس ، شمس الدين ، الذي سلمه باسم السلطان مفاتيح المدينة . ثم اجتاز الموكب الصغير الشوارع الخالية من الناس ، حتى بلغ دار الاسبتارية القديمة ، حيث اتخذها فردريك مقراً له . فلم يظهر ما يدل على الحماس ، إذ هجر المسلمون المدينـــة ، ولم يترددوا إلا لمزاراتهم ، بينما نأى المسيحيون الوَطنيون بعيداً ، وبرروا خوفهم بـأن عودة اللاتين الى المدينة لن تعود عليهم بالخير . وارتبك رفـاق فردريك لقطعه من الكنيسة . وحدث في البلاط شيء من الحيرة والتردد ، حينما صار معروفاً

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 101, 138 - 139.

(وردت به رسالتا هرمان سالترا والبطريرك جيرولد) .

Matthew of Paris, III, p. 177.

ان رئيس اساقفة قيسارية في طريقه الى بيت المقدس ، يحمل أوامر البطريرك بوضع المدينة تحت الحظر والحرمان . وفي صبيحة اليوم التالي ، الاحد ، ١٨ مارس سنة ١٢٢٩ توجه فردريك ليشهد القداس في كنيسة القيامة . فلم يكن بها احد من القسس ، ولم يلق بها إلا عساكره والفرسان التيوتون ، فتقدم فردريك رابط الجأش قوي الجنان ، فجعل التاج الملكي على مذبح الجلجلة ، ثم تناوله بيديه ، ووضعه على رأسه . وعندئذ القى مقدم الفرسان التيوتون ، بالألمانية اولاً ثم بالفرنسية ، خطبة أشاد فيها بالامبراطور الملك ، ووصف اعماله الباهرة ، وبرر سياسته . ثم تحرك مع رجال البلاط راجعين الى دار الاسبتارية . وعقد فردريك مجلساً لمناقشة امر الدفاع عن بيت المقدس . اما مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية ، اللذان حملتهما حصافتهما على ان يتبعا الامبراطور عن كثب الى بيت المقدس ، فانهما رضيا بأن يشهدا المجلس مع الأسقفين الانجليزيين وهرمان سالتزا . فأصدر فردريك أمراً بالمبادرة الى إصلاح برج داود وباب اصطفان ، وسلّم المقر الملكي الملاصق لبرج داود الى الفرسان التيوتون . إذ لم يتعاون معه إلا الفرسان التيوتون [1] .

أراح فردريك نفسه بأن طرح جانباً ما كان يقوم به من عمل ،

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, loc. cit.
لم يشجع هرمان سالتزا الامبراطور فردريك ، على ان يؤدي الصلاة في كنيسة القيامة . ألقى فردريك خطبته باللغة الايطالية .

Estoire d'Eracles, II, pp. 375, 385.
Ernoul, p. 465.

والتفت الى زيارة المشاهد الاسلامية . وطلب السلطان الكامل في شيء من اللباقة ألا يدعو مؤذن المسجد الاقصى للصلاة ، طالما كان الملك المسيحي في المدينة . غير ان فردريك أعلن احتجاجه ، إذ ينبغي ألا يغيّر المسلمون بسببه عاداتهم وتقاليدهم ، ثم قال انه لم يقدم الى بيت المقدس إلا ليستمع الى المؤذن ينادي للصلاة في جوف الليل . ولما دخل ساحة الحرم الشريف ، شاهد رجلاً من رجال الدين المسيحي يقتفي أثره ، فبادر بنفسه الى ان يطرده في خشونة وقسوة ، وأصدر الاوامر ان كل قسيس مسيحي يجتاز عتبة الحرم الشريف بدون إذن من المسلمين ، كان جزاؤه الموت . وبينما كان يطوف بقبة الصخرة ، شاهد ما نقشه صلاح الدين في الفسيفساء من كتابة حول القبة ، تسجل تطهير البنـاء من الملحدين . فسأل الامبراطور مبتسماً : « مَن يكون هؤلاء الملحدون ؟ » . وإذ لحظ أسياخاً بأعلى النوافذ ، أخطروه بأنها لم تثبّت إلا لتردّ العصافير . فقال : « والآن قد بعث الله لكم الخنازير » ، فاستخدم بذلك اللفظ الدارج الذي يطلقه المسلمون على المسيحيين . والملحوظ انه كان بحاشيته جماعة من المسلمين ، منهم معلمه في الفلسفة ، وهو عربي من صقلية .

ومع ان المسلمين أبدوا اهتماماً بالامبراطور ، غير انه لم يكن عميق الأثر عندهم . إذ ان مظهره خيّب ظنهم ورجاءهم ، إذ قالوا انه بوجهه الاحمر الناعم ، وعينيه قصيرتي النظر (الحولاوين) لا يساوي مائتي درهم في سوق الرقيق . أقلقهم مـــا ردده من ملاحظات عن دينه وعقيدته ، إذ انهم دأبوا على احترام المسيحي الصادق ، بينما أثار مخاوفهم الفرنجي الذي أحط من قدر المسيحية ، روجّه تحيّات ساذجة الى الاسلام . ولعلهم سمعوا ما ذاع عنه في العـــالم من إشارته الى ان موسى والمسيح ومحمد ليسوا إلا

أدعياء . وكيفما كان الامر ، بدا فردريك على انه رجل مجرّد من الدين . على ان فخر الدين العالِم المستنير ، الذي طالما تناقش فردريك معه في الفلسفة في قصره بعكا ، وقع فريسة لسحر فردريك وجاذبيته . وإذ كان تفكير الكامل وثيق الصلة بتفكير الامبراطور ، صار ينظر اليه باعجاب شديد ، ولا سيما حينما أنهى اليه فخر الدين بثقته بأنه لو لم تتعرّض كرامة الامبراطور للخطر لما أصرّ على تنازل الكامل عن بيت المقدس . غير ان الورعين من المسلمين والمسيحيين سواء ، نظروا شذراً الى كل الحادث . فالزراية السافرة بالطبيعة البشرية لا تظفر مطلقاً بقلوب الناس [1] .

وصل الى بيت المقدس ، يوم الاثنين ١٩ مارس سنة ١٢٢٩ ، بطرس رئيس اساقفة قيسارية ليفرض عليها الحظر . وإذ استبدّ بفردريك الغضب لهذه الإهانة ، بادر على الفور الى التخلي عن المضي في أعمال الدفاع عن المدينة ، وعجّل بالمسير الى يافا بعد ان جمع كل رجاله . ومكث بيافا يوماً واحداً ، ثم سار الى ساحل عكا ، حيث وصل في ٢٣ مارس ، فألفى عكا تطفح بالحقد والكراهية . فلم يغفر البارونات للامبراطور زرايته بالدستور ، فعلى الرغم من انه ليس إلا مجرد وصي ، فانه عقد معاهدة دون رضاهم وموافقتهم ، كما انه قام بتتويج نفسه . ووقعت مصادمات بين العساكر المحليين وبين حامية الامبراطور . وكره الجنويون والبنادقة ما أغدقه الامبراطور من امتيازات على البيازنة ، الذين كانت مدينتهم الأصلية بيزا

---

(١) انظر : Al - Aini, pp. 192 - 193.
Makrizi, IX, pp. 525 - 526.

من المدن القليلة في ايطاليا التي حالفت فردريك . كما ان عودة الامبراطور زادت المرارة في الجو[1] .

وفي صبيحة اليوم التالي ، دعا فردريك جميع ممثلي كل مملكته للالتقاء به ، فعرض عليهم تقريراً عن أعماله . ولم تلق كلماته سوى الرفض والغضب من قبل الحاضرين . وعندئذ لجأ الى استخدام القوة ، فأقام نطاقاً من رجال الشرطة حول قصر البطريرك ، وحول مقر الداوية . وجعل الحراس على منافذ المدينة حتى لا يخرج منها او يدخلها إلا من كان يحمل تصريحاً بذلك . وشاع أنه نوى ان يصادر حصن عثليت الكبير الذي يملكه الداوية ، غير انه علم انه مشحون بحامية بالغة القوة. وفكر الامبراطور في اختطاف يوحنا ابلين ومقدم الداوية ، وارسالهما الى ابوليا ، غير ان كلاً منهما اتخذ حراساً للمحافظة على نفسه ، فلم يحاول الأمبراطور الاقدام على هذه المخاطرة . على انه في تلك الاثناء تلقي من ايطاليا انباء خطيرة ، بأن صهره يوحنا برين قاد جيشاً بابوياً ، وأغار على ممتلكاته بايطاليا . فلم يعد بوسعه ان يؤجل رحيله من الشرق لما هو اطول من ذلك الوقت . ولم يكن في استطاعته ان يسحق اعداءه ما لم يكن لديه من القوات ما يزيد على قواته في سوريا . ولذا قبل الوفاق ، فأعلن بانه ازمع الرحيل ، وعين باليان سيد صيدا وجارنييه الألماني نائبين عنه في حكم المملكة . والمعروف ان باليان اشتهر

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, p. 101.
Estoire d'Eracles, II, p. 374.

بآرائه المعتدلة ، وان امه من اسرة ابلين . اما جارنييه فكان نائباً عن الملك يوحنا بريين ، على الرغم من انـــه الماني الأصل . وابقى اودو مونتبليارد كندسطبلاً للمملكة ومتولياً امر الجيش .

نهاية حملة فردريك سنة ١٢٢٩ :

الواقع ان هذه التعيينات دلت على مـا لحق الامبراطور من هزيمة . إذ ادرك انه خسر ، وكيما يتجنب المناظر المهينة ، تجهز للابحار عنـد شروق الشمس في اول مـــايو سنة ١٢٢٩ ، حينما لم يخرج الناس الى الشوارع . غير ان السر لم يلبث ان انكشف . فبينما كان فردريك وحاشيته يجتازون شارع الجزارين الى المينـاء ، تزاحم الناس على ابواب دورهم واخذوا يقذفونهم بامعاء الحيوانات والروث . واذ سمع يوحنـــا ابلين واودو مونتبليارد بالجلبة والفتنة ، ركبا ليعيدا الأمن الى نصابه ، غير انهما حينما وجها الى الامبراطور تحية وداع مهذبة وهو في غليونه ، همس باللعنات حين رد عليهما[١] .

أبحر فردريك من عكا الى ليماسول ، وأقـام بقبرص نحو عشرة ايام ، حيث وافق على ان يكون نوابه بها ، المريك بارليس ، وأصدقاءه الاربعة جـافين شنيشي ، وأملريك سيد بيسان ، وهيو سيد جبيل ، ووليم سيد ريفيه ، فعهـد اليهم بشخص الملك . وفي الوقت نفسه رتب زواج الملك

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, p. 375.
Ernoul, p. 466.
Gestes des Chiprois, p. 50.

الصغير من أليس مونتفيرات ، التي يعتبر ابوهـا من أقوى مسانديه في ايطاليا . وفي ١٠ يونيه سنة ١٢٢٩ هبط فردريك الى برنديزي[١] .

يعتبر الامبراطور فردريك الثاني من دون كبار المحاربين الصليبيين اكثرهم خيبة امل . كان رجلاً بالغ النباهة ، عرف عقلية المسلمين ، فاستطاع ان يقدر ما تتسم به دبلوماسيتهم من التعقيدات ، وأدرك انه لا بد من قيام شيء من التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ، اذا قدر للشرق الفرنجي ان يبقى . غير انه فشل في فهم طبيعة الشرق الفرنجي . فما كان لأسلافه النرمان من تجربة ومنجزات ، فضلاً عن مزاجه الخاص ومفهومه للأمبراطورية ، كل ذلك حمله على أن يسعى لإقامة حكومة مركزية استبدادية . فألفى ذلك عملاً عسير التحقيق خارج املاكه في ايطاليا . فقد يؤديه في قبرص ، لو انه احسن اختيار الأداة التي تحققه . ولكن كان لا بد ان تفشل التجربة في مملكة بيت المقدس المتضائلة ، إذ لم تزد المملكة على انها مجموعة من المدن والقلاع ، انتظمت سوياً في وضع محفوف بالخطر ، دون ان يكون لها حد يسهل الدفاع عنه . فلم يكن من اليسير اقامة حكومة مركزية بها . فالسلطات المحلية برغم ما ساد بينها من منازعات وأحقاد متبادلة مضنية ، كان لا بد ان تضطلع بالحكومة ، وتخضع لزعيم لبق محترم . وليست هذه السلطات المحلية سوى البارونات العلمانيين والطوائف الدينية العسكرية . واستبعد فردريك البارونات بما داسه تحت اقدامه من الحقوق والتقاليد التي اعتزوا بها . أما الطوائف

---

(١) انظر : Geetes des Chiprois, pp. 50 - 51.

الدينية العسكرية فكانت اكثر اهمية ، نظراً لأنها وحدها هي التي كان بوسعها ان تبذل المحاربين للقتال في الشرق والإقامة بــه ، بعد ان آثر الفرسان العلمانيون ان يلتمسوا ارزاقهم في بلاد اليونان الفرنجية . ومع ان مقدمي هذه الطوائف الدينية العسكرية كانوا يحضرون مجلس الملك ، ويطيعونه في ساحة القتال على انه القائد الاعلى ، فانهم لم يدينوا بالولاء إلا للبابا . فلا ينتظر منهم ان يساعدوا ملكاً قطعه البــابا من الكنيسة ، ووصمه بأنــه عدو للعالم المسيحي . أمــا الفرسان التيوتون ، الذين يعتبرون اقل الفئات الدينية العسكرية الثلاثة اهمية ، فانهم وحدهم هم الذين استعدوا لتحدي قرار الحرمان الذي اصدره البابا ، نظراً لمــا يربط مقدمهم بالأمبراطور من أواصر الصداقة . وما يدعو للأهمية ، ان فردريك استطاع ان يحرز من النصر الدبلومامي ما يثير من الدهشة والارتياع ما أثارته استعادة بيت المقدس ذاتها ، برغم ضآلة رصيده ، وما تعرّض له من كراهية [1] .

تحرُّج وضع بيت المقدس سنة ١٢٢٩ :

الواقع ان استعادة بيت المقدس لم تكن بالغة الأهمية للملكة . فنظراً لرحيل فردريك العاجل ، ظلت مدينة مفتوحة . إذ كان من المستحيل حراسة الطريق المؤدي اليهــا من الساحل ، ودأب قطّاع الطرق المسلمون على السطو على الحجاج وسلبهم ، وقتلهم . ولم تمض إلا بضعة أسابيع على

---

(١) عن الآراء المتعارضة فيا أنجزه فردريك بفلسطين من اعمال ، انظر :

Kantarowicz, op. cit. pp. 193 ff.

Grousset : Histoire des Croisades, III, pp. 322 - 323.

رحيل فردريك من البلاد ، حتى دبر أئمة المسلمين الزهاد في حبرون ونابلس شن غارة على بيت المقدس . فهرب المسيحيون على اختلاف نحلهم الى برج داود للاحتماء به ، بينا أرسل رينالد سيد حيفا الى عكا يلتمس النجدة . ولم يجبر المغيرين على الارتداد سوى قدوم نائبي الامبراطور ، باليان سيد صيدا وجارنييه على رأس جيش . وأنكر الامراء المسلمون ان لهم صلة بهذه الغارة . ولم تتم تعزيز الحامية بالمدينة ، وجرى تشييد بعض الاستحكامات الصغيرة ، ولكن لم يستتب الامن كثيراً . رفع البطريرك ما فرضه من حظر على المدينة ، وقدم ليقيم بها شطراً من السنة . غير ان الموقف كان محفوفاً بالخطر ، إذ أضحى بوسع السلطان ان يستولي على المدينة من جديد متى شاء . وفي الجليل حيث تمت عمارة قلعتي مونتفورت وتبنين ، لم يكن مركز المسيحيين بالغ القوة . ولم يكن في صفد وبانياس ضمان للاستقرار ، نظراً لوفرة المسلمين بها[1] .

على ان فردريك لم يخلف في قبرص ومملكة بيت المقدس من تراث أساسي سوى الحرب الأهلية المريرة . ففي قبرص اندلعت الحرب على الفور ، اذ تلقى نواب الامبراطور الخمسة بها من التعليمات ما يقضي بنفي كل اصدقاء اسرة ابلين من الجزيرة . واتفق هؤلاء النواب على ان يؤدوا لفردريك عشرة آلاف مرك (قطعة فضية) ، فلن تسلم اليهم القلاع التي ما زالت مشحونة بعساكر الامبراطور إلا بعد دفع النجم الاول . واستطاعوا ان يجبوا المال المطلوب ، بما فرضوه من ضرائب باهظة ، وبما

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 303 - 305.

صادروه من أملاك الحزب الذي يساند الابليين . وتصادف ان المؤرخ الشاعر فيليب نوفارا ، الذي يعتبر من أشدّ النـــاس تعلقاً بيوحنا سيد بيروت ، كان بالجزيرة ، وبذل له النواب الأمان كيا يقدم الى نيقوسيا للمناقشة في عقـد هدنة بين نواب الامبراطور وحزب اسرة ابلين . غير انه لما وصل فيليب نوفارا الى نيقوسيا ، عدل النواب عن رأيهم ، وألقوا القبض عليه . ولم يفرجوا عنه بكفالة إلا بعد ان وقع منظر يثير الغضب امام الملك الصبي ، الذي لم يستطع ان يتدخل برغم معرفته بفيليب . وأصاب فيليب في فراره الى بيت الاسبتارية ، لأن جماعـــة من الرجال المسلحين اقتحمت داره تلك الليلة . فأرسل فيليب ملتمساً ، في لغة ركيكة ، الى يوحنا ابلين في عكا ، يطلب اليه القدوم لنجدته ، وإنقاذ أملاك كل اصدقائه . فبادر يوحنا الى إعداد حملة على نفقته الخاصة ، وحرص على ان ينزل جنـــده في جاستريا الواقعة شمال فاماجستا . ثم تحرّك في حذر الى نيقوسيا ، حيث التقى بجيش نواب الامبراطور . وعلى الرغم من تفوّق جيشهم في العدد ، فانه لم يكن شديد الحماس . ثم أنشب الابليون المعركة في ١٤ يوليه سنة ١٢٢٩ ، بعد بضعة لقاءات أجروها مع نواب الامبراطور . وحسم المعركة ما قام به من هجوم فرسان يوحنا ابلين بقيادة ابنه باليان ، عزّزه هجوم آخر من قبل الاسبتارية ، قام على تنظيمه فيليب نوفارا . فهرب نواب الامبراطور بعساكرهم الى القلاع الثلاثة : إله الحب (سانت هيلاريون) ، والقنطرة ، وكيرينيا . فاقتفى أثرهم يوحنا ابلين وألقى الحصار على القلاع الثلاثة ، فلم تلبث كرينيا ان سقطت ، أما قلعة سانت هيلاريون ، التي نقل اليها بارليس الملك الصغير وأخواته ، وقلعة القنطرة ، فامتنعتا على يوحنا ابلين ، ولم تستسلما إلا في صيف سنة ١٢٣٠ ، بعد ان كادتا تهلكان جوعاً . وبذل يوحنا ابلين شروطاً سخية للصلح . والمعروف ان من نواب الامبراطور

الخمسة في قبرص ، لقي مصرعه جافن شنيشي في القنطرة ، بينما فرّ وليم ريفيه ، وهو أخ غير شقيق له ، من كرينيا الى قليقية ليلتمس المساعدة فمات بها . أما النواب الثلاثة الآخرون فلم يتعرضوا للعقاب ، فأثار ذلك قلق كثير من أصدقاء يوحنا ابلين . بل ان يوحنا ابلين لم يسمح لفيليب نوفارا ان ينظم قصيدة تنطوي على ذمهم . وتقرر إنفـــاذ رسول باسم الملك الى امراء اوربا وملوكها ، لتبرير ما جرى اتخـــاذه من خطوات لمناهضة الامبراطور . وتولى يوحنا نفسه مقاليد الحكم ، حتى بلغ الملك هنري سن الرشد سنة ١٢٣٢ (١) .

الملكة أليس تطالب بعرش مملكة بيت المقدس ١٢٢٩ :

وفي تلك الاثناء ، اطمأن باليــان سيد صيدا وجارنييه الالماني ، في تسيير حكومة مملكة بيت المقدس . على انه حدث في خريف سنة ١٢٢٩ ان قدمت الى عكا أليس ملكة قبرص لتطالب بتاج بيت المقـــدس . اذ ان وصايتها على قبرص التي ما زالت تتولاها من الناحية الاسمية ، لم تجلب لها سوى العناء والتعب . والمعروف ان أليس طلقت بوهمند الصغير امير انطاكية ، بدعوى ان ما بينهما من القرابـــة الوثيقة يحول دون زواجهما ، اذ كانا من الدرجة الثالثـــة من ابناء العم . وعندئذ اعلنت

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 50 - 76.
ورد فيه تقرير فيليب نوفارا عن الاحداث التي شهدها .
Estoire d'Eracles, II, pp. 375 - 377.
Hill, op. cit. pp. 100 - 107.

أليس ان كنراد بن فردريك ، الذي يعتبر من الناحيـــة القانونية ملك بيت المقدس ، أضاع حقـــه ، لأنه لم يقدم الى مملكته . ولذا ينبغي للمحكمة العليا ان تسلم التاج الى الوريث الشرعي الذي يليه ، والذي لم يكن سوى أليس نفسها . غير ان المحكمة العليا رفضت دعواها . إذ ان كنراد لا زال قاصراً ، ولا يعتبر قدومه الى مملكته امراً جوهرياً . على انه تم الاتفاق على انفـــاذ سفارة الى ايطاليا ، تطلب ضرورة قدوم كنراد الى الشرق في فترة سنة ، كيما يتلقى بشخصه الولاء . فأجاب فردريك بأنـــه سوف يفعل ما يعتقد انه خير الأمور [١] .

عقد فردريك الصلح مع البـــابا ، بمعاهدة سان جرمانو ، في ٢٣ يوليه سنة ١٢٣٠ . اذ انه في الجمـــلة خرج منتصراً من الحروب في ايطاليا ، وأضحى مستعداً لأن يقرّ ما للبـــابا من حقوق في السيطرة على كنيسة صقلية كيما يتحلل من قرار الحرمان من الكنيسة . والواقع ان وفاقه مع البابوية زاد من قوته في الشرق ، إذ جرى إخطار البطريرك جيرولد برفع الحظر عن بيت المقدس ، كما انه تعرّض للوم لأنه فرض الحظر دون الرجوع الى روما . ولم تعد الطوائف الدينية العسكرية تحسّ باضطرارها الى اتخاذها موقف العزلة والابتعاد ، ولم يعد البارونات يعولون على مساندة الكنيسة [٢] . وترقب الامبراطور سنوح الفرصة . وإذ أخطر الامبراطور فردريك البابا بأنه لا بد ان يرسل جيشاً للدفاع عن بيت المقدس ، حشد في خريف

---

(١) انظر : Esoiret d'Eracles, II, p. 380.
La Monte, Feudal Monarchy, p. 64, n. 1.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1489 - 1390.

سنة ١٢٣١ حوالي ستمائة فارس ، ومائة من السرجندارية ، وسبعمائة من الرجالة المسلحين ، وثلاثة آلاف ملّاح ، وبعث بهم تحت قيادة مارشاله رتشرد فيلانجييري من نابولي ، في ثلاثين سفينة . وتقرر منح فيلانجييري لقب المندوب الامبراطوري [١] .

كان يوحنا ابلين في عكا حينما أنذره باقتراب قدوم اسطول ضخم ، عميل له ، قدم من ايطاليا على سفينة تابعة للفرسان التيوتون . فظن يوحنا ابلين انه قد تكون قبرص الهدف الاول للاسطول ، فبادر بجمع كل رجاله من بيروت ، فلم يترك بالقلعة إلا حامية صغيرة ، ثم أبحر بهم الى قبرص . فلما وصل اسطول الامبراطور قبالة ساحل قبرص ، علم فيلانجييري ان يوحنا ابلين والملك هنري ينزلان في كيتي ، وان باليان سيد صيدا يعتصم في ليماسول . فأنفذ فيلانجييري مبعوثاً الى الملك برسالة من الامبراطور فردريك ، يخطره فيها بالمبادرة الى نفي جميع انصار يوحنا ابلين ، ومصادرة أراضيهم . فردّ الملك هنري بأن يوحنا ابلين ليس إلا خاله ، وانه لن يقدم بحال من الاحوال على تجريد أتباعه من أراضيهم . اما باريلس الذي كان حاضراً ، وتحدث في صالح الامبراطور فردريك ، فانه كاد يتعرض لاعتداء العوام لولا ان نهض يوحنا ابلين لإنقاذه .

---

(١) كتب البابا يوحنا الى فردريك يخطره انه ينبغي على فيلانجييري ألا يطلق على نفسه لقب المندوب الامبراطوري ، اذ انه ليس إلا مندوب الامبراطور في بيت المقدس . ولم يقم بتزكية فيلانجييري عند اساقفة سوريا إلا على اساس هذه الشروط . (انظر رسالة البابا جريجوري التاسع المؤرخة في ١٢ اغسطس سنة ١٢٣١ ، والواردة في :
M. G. H. Epistolae Saeculares, XIII, 1, p. 363).

إقامة قومون في عكا سنة ١٢٣١ :

أبحر فيلانجييري مباشرة الى بيروت عقب عودة مبعوثه . ولما لم ترابط بالمدينة (بيروت) حامية قوية ، لم يلبث اسقفها الجبـان ان سلمها له ، فشرع في إلقاء الحصار على قلعتها . على ان فيلانجييري غادر بيروت بعد ان اشتد التضييق عليها ، واحتلّ صيدا وصور ، ثم ظهر في عكا ، فدعا الى عقـد المحكمة العليا بها ، وعرض عليها رسائل الامبراطور فردريك بتعيينه نائباً عنه . فأقرّ الباروناث تنصيبه نائباً عن فردريك ، وعنـدئذ اعلن فيلانجييري مصادرة أراضي الابلين . على ان الباروناث احتجوا جميعاً على هذا القرار ، اذ لا يجوز مصادرة الضياع إلا اذا قررت المحكمة العليا ذلك ، بعـد ان تتهيأ الفرصة للمالك للدفاع عن قضيته . غير ان فيلانجييري أجاب في غطرسة ، انه نائب الامبراطور ، وانه ينفذ تعليمات الامبراطور . فبلغ انتهـاك الدستور من الفظاعة انه كان صدمة للمعتدلين امثال باليـان سيد صيدا ، وأودو مونبليارد ، اللذين ظلا حتى وقتذاك مستعدين لمساندة الامبراطور ، فتحول كل الباروناث الى جانب يوحنا ابلين ، كما ان تجار عكا الذين أولوا يوحنا محبتهم ، ونفروا من وسائل فيلانجييري القهرية ، أضافوا مؤازرتهم له . ومعظم هؤلاء التجار وفئة قليلة من النبلاء كانوا ينتمون الى طائفة دينية اتخذت القديس اندرياس راعياً لهـا . وإذ استخدموا ذلك أساساً ، أقاموا قوموناً لعكا ، يمثل كل البورجوازية المحلية ، يخضع لسلطة اثني عشر قنصلا ، دعوا يوحنا ابلين ليكون اول عميد لهم . غير ان فيلانجييري كان رجلا بالـغ العنف ، اذ كان تحت تصرفه جيش قوي يتألف معظمه من اللومبارديين الذين جلبهم معـه . كما ان الفرسان التيوتون وجاليـة البيازنة يعتبرون أصدقاءه المخلصين ، بينما التزم الاعتزال

البطريرك والاسبتارية والداوية. وما من احد منهم كان يحفل بالامبراطور فردريك، غير انه منـــذ ان تمّ الوفاق بينه وبين البابا، لم يتحققوا أين يكون واجبهم.

ولـما بلغت قبرص انباء الهجوم على بيروت، التمس يوحنا ابلين من الملك هـنري ان ينهض بقوات الجزيرة لنجدتها. ووافق الملك الشاب، وأمر كل جيش المملكة بالإقلاع الى بيروت. وفي تلك الاثناء سمع يوحنا ابلين بانتخابه عميداً لقومون عكا. وبرغم المخاطرة بترك قبرص مجرّدة من الحراسة والدفاع، فإن يوحنا ابلين اعتقد انـــه لا بدّ اولاً من تخليص الساحل الفرنجي، ومن قبيل الحيطة والحذر اجبر بارليس وأصدقاءه على ان يصحبوا الحملة. وكان يوحنا ابلين يأمل في مغادرة قبرص يوم عيد الميلاد سنة ١٢٣١. غير انـه نظراً للمناخ العاصف لم يستطع الجيش الإبحار من فاماجستا إلا في ٢٥ فبراير سنة ١٢٣٢، فأسرعت السفن بالرحيل في وسط عاصفة مطيرة عاتية، وألقت مراسيها تجـــاه ميناء بوبيه دي كونيتابل الصغير، الواقع جنوبي طرابلس مباشرة. فهبط في هـــذا الموضع خلسة بارليس ورفاقـــه الذين يبلغون في مجموعهم ثمانين فارساً، ثم توجهوا الى طرابلس بعد ان خلفوا وراءهم معداتهم. وأرسل فيلانجييري سفينة لتقلهم الى بيروت. وهبط في اثرهم الى الساحل يوحنا ابلين ومعظم رجاله بينما اقلع الاسطول القبرصي صوب الجنوب، غير ان الطقس العاصف ساقه الى قبـاله البترون. فتحطمت بعض السفن، وتعرّض بعضها الآخر للضرر، وضاع مقدار كبير من المواد. ولما اجتاز يوحنا ابلين جبيل، تخلى عنه بعض الرجّالة. ووصل يوحنا ابلين آخر الأمر الى بيروت، وشق طريقه الى قلعتها. ومنها وجـه الى الباروناَت نداء، للنهوض الى نجدته. فقدم

كثيرون منهم ، يتصدرهم ابن اخيه ، يوحنا سيد قيسارية . غير ان باليان سيد صيدا لا زال يأمل في التوصل الى اتفاق . فهرع الى بيروت مع قسيمه السابق في النيابة ، جارنييه ، والبطريرك ، ومقدمي الاسبتارية والداوية ولكن فيلانجييري رفض مناقشة الشروط التي تبقي الابليين في تلك اراضيهم ، والمعروف ان المفاوضين لن يتفقوا على ما هو اقل من ذلك .

ثم تحرّك يوحنا ابلين الى صور ، بعد ان عزز الحامية في بيروت ، فلقي في صور استقبالاً حافلاً ، وظفر بعدد كبير من المجندين ، ولا سيما من الجنويين . وأرسل ايضاً الى طرابلس سفارة برئاسة ابنه باليان ، لتدبير زواج ايزابيللا اخت الملك هنري الصغرى ، من هنري الابن الثاني لبوهمند . ولما لم يكن بوهمند شديد الايمان بقضية الابليين ، لم يول السفارة إلا قدراً ضئيلاً من الاحترام . ومع ذلك اشتدت ثائرة فيلانجييري ، الذي سبق ان اتخذ مقر قيادته في صور ، بعد ان عهد الى اخيه لوثير بالقيادة في بيروت . ولم يلبث ان امر لوثير برفع الحصار ، واللحاق به في صور .

معركة قرية ايمبرت سنة ١٢٣٢ :

وفي نفس الوقت عبر بارليس البحر راجعاً الى قبرص ، بعد أن جاءته الأمداد من العساكر اللومباردية ، وشرع في غزو الجزيرة . فوقعت في يده القلاع ، الواحدة بعد الاخرى ، ما عدا قلعة ديبه دامور (سانت هيلاريون) ، التي لجأ اليها اخوات الملك هنري ، وقلعة بوفافنتو التي تعتبر امنع قلاع الجزيرة ، التي هربت اليها السيدة ايشيفا مونتبليارد ابنة خالة الملك هنري ، وابنة اخ اودو مونتبليارد ، متنكرة في هيئة راهب ، بما حملته من مؤن وافرة ،

فحازت القلعة باسم الملك . والمعروف ان اول زوج لها ، وهو والتر مونتايجو قتله رجال بارليس في معركة نيقوسيا ، ثم تزوجت حديثاً باليان ابلين ، على ان زواجها ظل سراً ، نظراً لأنها من بني العمومة الوثيقة . وسمع باليان حينا كان بطرابلس ، بغزو جزيرة قبرص ، من اثنين من قادة البحر الجنويين اللذين عرضا المساعدة ، غير ان بوهمند فرض القيود على تحرك السفن الجنوية .

وافق الجنويون ، في نهاية ابريل سنة ١٢٣٢ على ان يبذلوا المساعدة للابلين في هجوم يشنونه على فيلانجييري ، مقابل الحصول على امتيازات في جزيرة قبرص . وتحرك الجيش صوب الشمال الى قرية ايبرت ، على مسافة نحو اثني عشر ميلاً من صور . على ان يوحنا ابلين التقى في هذا الموضع ببطريرك انطاكية ، البرت رتزاتو ، الذي تقرر حديثاً تعيينه مندوباً بابوياً في الشرق ، وقد جاء الى الجنوب للتوسط بين المتنازعين . قام منذ زمن قريب بزيارة صور ، وسمع بما عرضه فيلانجييري من شروط جديدة . وأصاب يوحنا ابلين في قوله انه لا بدّ من عرض هذه الشروط على المحكمة العليا ، ثم ركب يوحنا ابلين مع البطريرك راجعين الى عكا ، وقد اتخذ حرساً لمرافقته بلغ من الضخامة انه استنفد معظم رجال الجيش . وحدث في اواخر ليلة ٢ مايو سنة ١٢٣٢ ، ان خرج فيلانجييري بكل قواته من صور ، بعد ان علم برحيل يوحنا ابلين ، ولعله دبر مع البطريرك امر هذا الخروج ، فانقضّ على معسكر ابلين الذي لم تتوافر حراسته ، والذي لم يتوقع الهجوم . فاستبسل في القتال انسلم براي الذي تولى القيادة مع سادة صغار السن من الابلين . غير ان المعسكر سقط في يد فيلانجييري . وأسرع ملك قبرص الصغير شبه عريان ، يلتمس السلامة في عكا . أما الآخرون الذين بقوا على قيد الحياة ، فلجأوا الى قمة احد التلال .

لم يحاول فيلانجييري ان يمضي في انتصاره ، بل تراجع الى صور بكل ما حازه من غنيمة ، بعد ان خلّف كتيبة لحراسة درب درج صور . ولم يكد يوحنا ابلين يسمع بالكارثة ، حتى عجّل بالمسير من عكا ، فأنقذ ولديه ، غير انه حينما حاول ان يلحق بالعدو بما يحمله من غنيمة ثقيلة ، جرى إيقافه في الدرب ، ثم عاد الى عكا . وفي تلك الأثناء اجتاز فيلانجييري البحر الى جزيرة قبرص بأمداد لباراليس . وعندئذ صادر يوحنا ابلين كل السفن الراسية في ميناء عكا ، بينما كان الملك هنري يبذل الاقطاعات في قبرص للفرسان المحليين ، بل وللتجار السوريين اذا انحازوا اليه ، واتفق على ان يبذل الجنويون له المساعدة مقابل الإعفاء من الرسوم ، والحق في ان يكون لهم أحياء ومحاكم خاصة في نيقوسيا وفاماجستا وبافوس . وإذ اخذ المال في النفاد ، بادر يوحنا سيد قيسارية ، ويوحنا ابلين الصغير ابن فيليب ابلين ، الى بيع أملاك في قيسارية وعكا للداوية والاسبتارية ، وأدّيا القرض الذي يبلغ ٣١ الف بيزنته ، الذي سبق جبايته للملك .

وإذ تجهّز يوحنا والملك هنري على هذا النحو ، أبحرا من عكا في ٣٠ مايو سنة ١٢٣٢ ، ثم رسيا في صيدا فاصطحبا باليان ابلين وهو في طريق عودته من سفارته بطرابلس ، ثم اجتازوا البحر الى فاماجستا . وكان يربو عدد عساكر فيلانجييري اللومباردية في مدينة فاماجستا على الفي فارس ، بينما لم يتجاوز رجال الابليين مائتي وثلاثة وثلاثين رجلاً . ومع ذلك خاطر يوحنا ابلين بإنزال معظم عساكره ، بعد حلول الظلام ، على جزيرة صخرية صغيرة تقع جنوبي الميناء مباشرة . ولم تجرِ حراسة هذه الجزيرة ، فما من احد يظن ان تهبط الجياد الى بر هذه الجزيرة . واستطاعت سرية

صغيرة تستقلّ الزوارق ، ان تشق طريقها الى الميناء ، وبلغ صياح رجالها من الشدة ما جعل اللومبارديين يعتقدون ان جيشاً ضخماً سوف ينقضّ عليهم ، فأشعلوا النيران في سفنهم ، وعجلوا بمغادرة المدينة (فاماجستا) . ولما اجتاز جيش الابلين الصخور الى البر ، كانت فاماجستا مدينة مهجورة .

أقام يوحنا ابلين في فاماجستا زمناً بلغ من الطول ما يكفي الملك هنري للوفاء بوعده للجنويين ، بأن وقّع معهم معاهدة ، خصّتهم بحيّ في المدينة . ثم واصل الجيش السير الى نيقوسيا . ولم يكن اللومبارديون مقبولين بجزيرة قبرص ، لما اشتهروا به من سلوك همجي ، فخشوا ان يثور عليهم الفلاحون . ولذا حينما انسحبوا امام الابليين ، أحرقوا كل الأهراء التي اختزن بها منذ وقت قريب المحصول الجديد . وقرروا ألا يحتفظوا بنيقوسيا ، بل تحركوا على امتداد الطريق الذي يجتاز الجبال الى كيرينيا ، حيث اتصلوا بفيلانجييري نفسه ، الذي كان يحاصر قلعة ديبه دامور (سانت هيلاريون) ، وحيث تحمي مؤخرتهم كيرينيا التي كانت بحوزتهم . والمعروف ان حامية قلعة ديبه دامور (سانت هيلاريون) كادت تهلك جوعاً ، وكانت على وشك التسليم . فلو استطاع فيلانجييري ان يوقف أعداءه حتى تصير في قبضة يده القلعة ، وشقيقتا الملك اللتان كانتا تنزلان بها ، لأضحى وضعه من القوة ما يكفي للمساومة مع الملك .

تحرّك الابليون في بطء الى نيقوسيا ، وعانوا نقص المؤن ، غير انهم عثروا في نيقوسيا ذاتها على مستودعات ضخمة لم يلتفت اليها اللومبارديون . وبلغ الارتياب في ذلك عند يوحنا ابلين ، أنه لم يشأ ان يعسكر في داخل المدينة ، بل قاد جيشه على الفور ، في ١٥ يونيه سنة ١٢٣٢ ، نحو

كيرينيا ، وقد عزم على ان يعسكر عند اجريدي ، التي تقع اسفل الممر مباشرة . وسار الجيش في تعبئة الحرب ، لخوفه من ان يتعرض للهجوم في كل لحظه . كان المفروض ان يتولى باليان بن يوحنا ابلين قيادة مقدمة الجيش ، غير انه سبق صدور قرار بقطعه من الكنيسة ، لأنه تزوج من ابنة عمه ايشيفا ، وهي السيدة الجميلة التي شهدت كل الحملة من منظرتها في بوفافنتو ، ولم يود ابوه يوحنا ابلين ان يجعل له قيادة عليا . ولذا تولى قيادة الجماعة الاولى ، اخوه هيو ، مع أنسلم بَراي . أما بلدوين ثالث أبناء يوحنا ، فقاد الجماعة الثانية ، وتولى يوحنا سيد قيسارية قيادة الجماعة الثالثة ، بينما قاد يوحنا ابلين نفسه مؤخرة الجيش ، وبصحبته سائر أبنائه والملك هنري . لم يكن جيشهم كبيراً ، وبلغ من افتقارهم الى الخيول ، انه كان لزاماً على غلمان الفرسان ان يقاتلوا راجلين . وتراءوا حقراء عند اللومبارديين الذين كانوا ينظرون اليهم من قمة الممر ، حيث التقى الطريق القادم من قلعة ديبه دامور (سانت هيلاريون) ، بالطريق الرئيسي . فصدر الامر بشن هجوم على جيش الابليين ، دون إمهال .

معركة اجريدي سنة ١٢٣٢ :

وأول جماعة من الفرسان اللومبارديين هبطت الى اسفل التل كانت بقيادة والتر كونت مانيوبيللا ، وقد ارتفع صياحها ، ومضت في سيرها على امتداد جناح جيش ابلين ، غير انها لم تستطع ان تخترق خطوطه . على ان قوة الاندفاع ساقت هذه الجماعة الى السهل في اسفل التل . ومنع يوحنا ابلين رجاله من مطاردتهم ، ولم يخاطر اللومبارديون بأن يعودوا ليرتقوا المنحدر شديد الهبوط ، بل ركضوا صوب الشرق ، ولم يتوقفوا إلا حينما بلغوا

جاستريا . أما الجماعة الثانية من فرسان اللومبارديين التي قادها بيرارد شقيق والتر ، فانها بادرت بالهجوم على قوات الابلين التي خضعت لقيادة هيو ابلين وأنسلم براي . غير انه قد تعذّر على الأفراس ان ترتقي جانب التل الصخري الوعر ، فتعثرت أفراس كثيرة ، وقذفت براكبيها ، الذين كانت أسلحتهم من الثقل انها منعتهم من النهوض على أقدامهم . والمعروف ان الفرسان الابلين يقاتلون أساساً راجلين ، ولم يلبثوا ان قهروا عدوهم ، برغم تفوقه عليهم في العدد . فلقي بيرارد مصرعه على يد أنسلم براي نفسه . أما فيلانجييري الذي كان ينتظر عند قمة الممر ، فانه عزم على ان يهبط لنجدة بيرارد . غير ان باليان ابلين ظهر فجأة في حفنة من الفرسان ، الذين قدموا من مؤخرة جيش ابلين ، وقد سلكوا درباً بالجبال يقع الى غرب الطريق ، وأغاروا على معسكر فيلانجييري ، وهنا تفوّق اللومبارديون ايضاً في العدد ، وتعرّض باليان لضغط شديد من قبلهم ، ورفض ابوه ان يبعث بعساكر لنجدته ، ولم يلبث فيلانجييري ان اشتدت ثائرته ، بعد ان تبين له انه لم ترجع كتائب الجيش التي يقودها كونت مانيو بيللو ، فقاد رجاله وقد اختل نظامهم ، الى كيرينيا .

وتمّ انقاذ قلعة ديبه دامور (سانت هيلاريون) وتخليصها ، بعد ان ولّى محاصروها الأدبار صوب الجنوب الغربي الى السهل ، حيث بغتهم عند حلول الظلام فيليب نوفارا ، فوقعوا في اسره . ووصل والتر مانيو بيللو الى جاستريا ، غير ان الداوية الذين كانت القلعة بحوزتهم ، رفضوا السماح له بدخولها ، فأسره يوحنا بن فيليب ابلين الذي كان مختبئاً في مجرور مرحاض . وفي تلك الاثناء مضى يوحنا سيد بيروت في سيره ، فحاصر فيلانجييري في كيرينيا.

استمر حصار كيرينيا عشرة شهور ، وافتقر الابليون اول الأمر الى

السفن ، بينما حاز فيلانجييري اسطولاً ، هيأ له الاتصال بصور . ولم يتيسر للإبليين ان يفرضوا الحصار على حصن كيرينيا من البحر ، إلا بعد اغراء الجنويين ببذل المساعدة مرة اخرى . على ان فيلانجييري ، قبل ان يكتمل الحصار ، لاذ بالفرار مع الميريك بارليس ، وأملريك سيد بيسان ، وهيو سيد جبيل ، فتوجهوا اول الأمر الى ارمينيا ، وحاولوا عبثاً الحصول على مساعدة من قبل الملك هيثوم ، ثم ساروا الى صور ، ثم الى ايطاليا آخر الأمر ، لينهوا الى الامبراطور بما حدث . أما اللومبارديون في كيرينيا بقيادة فيليب شينارت فاستماتوا في الدفاع عنها . وأصابت الجراح سادة الابليين الشباب اثناء اشتباكهم في القتال ، بينما تعرّض المحارب الصلب القوي انسلم براي الذي نعته يوحنا سيد بيروت بالأسد الاحمر لضربة من قضيب حديد ، فمات متأثراً بآلامه بعد ستة شهور . ومن اللائذين بقلعة كيرينيا كانت أليس مونتفيرات الاميرة الايطالية ، التي اختارها الامبراطور فردريك عروساً للملك هنري ، على انها تزوجت بطريق الوكالة ، وما هو موضع شك انها شهدت حتى وقتذاك زوجها ، وقد وصلت الى قبرص في حراسة قوات الامبراطور ، بعد ان انحاز الملك هنري الى الابليين . وفي اثناء الحصار خرّت مريضة ثم ماتت ، وتوقف القتال حينما جرى الاحتفال بتسليم جثمانها في كامل زي الملكة ، ونقله الى نيقوسيا ، فشيع جنازتها الى المقابر الملكية زوجها الملك هنري الذي لم يعلم قط انها كانت على قيد الحياة .

موجاستيل نائب الامبراطور فردريك سنة ١٢٣٣ :

استسلمت كيرينيا في ابريل سنة ١٢٣٣ . وتقرر السماح للمدافعين عنها بالالتجاء الى صور بكل امتعتهم الشخصية ، امـا الاسرى الذين كانوا في

حوزة الابلين فتم تبادلهم مع الاسرى الذين وقعوا في قبضة فلانجييري في صور . وعادت قبرص بأكملها منذئذ الى حكم الملك هنري وبنى اخواله الابلين . وكافأ الملك اتباعه المخلصين ، فتقرر تسديد ما سبق ان بذلوه من قروض[1] . ودخلت الجزيرة في فترة هـــدوء ، لم يعكر صفوه إلا محاولات هيئة الكنيسة ، برغم معارضة البارونات العلمانيين ، قمع كل رجل دين يوناني لا يعترف بسيادتهم ، ولا يتفق مع عـاداتهم وتقاليدهم . ومن امعن من الرهبان اليونانيين في العناد والعصيان تعرض للتنكيل والحرق[2] . ومع ان السلام والهدوء عادا الى قبرص ، فما زال بحوزة فيلانجييري ، مدينة صور في بر الشام ، وما زال فردريك من الناحية القانونية ملكاً على بيت المقدس بالنيابة عن ابنه الصغير . ولما علم فردريك بفشل سياسته ، من فيلانجييري نفسه ترجيحاً ، بعث الى عكا برسائل مع اسقف صيدا ،

---

(١) اورد فيليب نوفارا رواية طويلة عن الحرب اللومباردية ، من وجهة نظر الابلين ، وظهر فيها تحيزه . انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 77 - 117.

وأسهب تاريخ هرقل في رواية الاحداث من وجهة نظر مخالفة ايضاً لرأي انصار الامبراطور.

انظر : Estoire d'Eracles, pp. 386 - 402.

انظر ايضاً : Amadi, pp. 147 - 182.

Bustron, pp. 80 - 104.

لم يحفل مؤرخو فردريك باثبات هذا الحدث .

(٢) عن تاريخ كنيسة قبرص في هذه الفترة ، انظر :

Hill, op. cit. III, pp. 1043 - 1053.

اورد ساثاس رواية عن استشهاد ثلاثة عشر راهباً يونانياً على ايدي اللاتين سنة ١٢٣١ .

انظر : Sathas, Mesaioniky Bibliothiky, vol. II, pp. 20 - 39.

الذي كان يزور روما ، بإلغاء تعيين فيلانجييري نائباً عنه ، على ان يحل مكانه فيليب موجاستيل ، من نبلاء سوريا . على انه اذا كان فردريك يأمل من وراء تعيين احد النبلاء المحليين نائباً عنه لتهدئة البارونات ، فان امله قد خاب . لأن موجاستيل لم يكن إلا شاباً مخنثاً ، أسفرت صلته بفيلانجييري عن فضيحة . على ان صور ظلت في حوزة فيلانجييري ، ولما وصل نبأ تعيين موجاستيل الى يوحنا سيد بيروت ، لم يكن قد استولى على كيرينيا . فبادر على الفور الى اجتيــاز البحر ، الى عكا . وكان باليان سيد صيدا ، وأودو مونتبليارد قد استعدا لقبول موجاستيل نائباً ، ورتبا بأن تحلف له الأيمان في كنيسة الصليب المقدس ، غير ان يوحنا سيد قيسارية اعلن عند ابتداء الاحتفال ، ان هذه الاجراءات باطـلة وليست قانونية . فليس بوسع الامبراطور أن يلغي ، بما يمليه عليه هواه ومزاجه ، ما سبق اتخاذه من تدابير امام المحكمة العليا . فاشتد الجدال ، فأنذر يوحنا قومون عكا بما يحيق به من خطر ، ودعا اعضاء القومون الى مساندته . فاندفع الى داخل الكنيسة جمهور غاضب . ولو لم يتدخل يوحنا شخصياً ، لمــا أفلت من الموت على ايدي الساخطين ، باليان سيد صيدا وأودو مونتبليارد ، بينما فر موجاستيل الى صور . وتقررت اعادة انتخاب يوحنا عميداً لقومون عكا ، وأضحى الحاكم الفعلي للمملكة ، باستثناء صور ، التي تولى فيلانجييري حكمها باسم الامبراطور ، وعـدا بيت المقدس ايضاً التي خضعت حكومتها فيما يبدو لممثل من قِبل الامبراطور مباشرة . والراجح ان باليان سيد صيدا ظل نائباً من الناحية الاسمية ، على ان المحكمة العليا قبلت فعلاً زعامة يوحنا ابلين حتى يتم وضع ترتيب جديد . وتقرر إنفاذ مبعوثين ، هما فيليب تروي وهنري الناصري ، الى روما لشرح ما قام به البارونات والقومون من اعمال . غير ان هرمان سالتزا مقـدم الفرسان

التيوتون الذي كان وقتذاك في روما ، ادرك ان البـابا لم يستجب لهما ، فما زال البابا على علاقات ودية مع الامبراطور فردريك ، وكان حريصاً على ان يعيد له السلطة في الشرق . ففي سنة ١٢٣٥ ارسل البابا ، رئيس اساقفة رافنـا الى عكا ، ليكون مندوباً بابوياً . غير ان رئيس الاساقفة لم يوص إلا بضرورة اطاعة سلطة فيلانجييري التي لم تحظ بالقبول . فأرسل البارونات من جانبهم الى رومـــا ، جيوفري لى تور ، المشهور بدرايته الواسعة بالقانون . ومع انـه بدأ الشجار من جديد بين البابا جريجوري والامبراطور فردريك ، فان البـابا عزم على أن يكون تصرفه سليماً . إذ كتب في فبراير سنة ١٢٣٦ الى فردريك والبارونات ، يخطرهم انـه لا بد من قبول فيلانجييري نائبـــاً للأمبراطور ، على ان يساعده اودو مونتبليارد حتى شهر سبتمبر سنة ١٢٣٦ ، حينما يتم تعيين بوهمند امـير انطاكية نائباً . ونظراً لأن فردريك وابنه كنراد يعتبران الحاكمين الشرعيين لمملكة بيت المقدس ، فان تصرف البارونات كان خاطئاً ، غير انه ينبغي العفو عن كل البارونات باستثناء الابليين ، الذين ينبغي مثولهم امام المحكمة العليا ، وينبغي حل قومون عكا[١] .

هـــذه الشروط لم تلقَ القبول من البارونات وقومون عكا ، الذين تجاهلوها ؛ وفي هذه اللحظة الحرجة ، مات يوحنا ابلين اثر حادث تعرّض له اثناء ركوبه . والواقع ان سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) كما نعته معاصروه ، يعتبر أقوى شخصية في الشرق الفرنجي . فمـا من احد يرتاب

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 406 - 407.
Gestss des Chiprois, pp. 112 - 113.

فيما اتصف به من خلال شخصية رفيعـــة . اشتهر بالشجاعة والشرف والاستقامة ، وأسهمت اخلاقه النقية الخالصة في توطيد مركز البارونات[1]. على انه لولاه لما تحقق لفردريك النجاح في إقامة حكومة اوتوقراطية في مملكتي قبرص وبيت المقدس . ومع ان حكومة البارونات تنزع الى ان تكون حكومة طارئة ، فمن العسير كيف يصير الحكم الاوتوقراطي نوعاً من الاصلاح . إذ ان فردريك كان من البعد مـا يجعله عاجزاً عن ضبط الحكومة ، كما انه لم يحسن الحكم على الرجال . على ان أشد الحكومات استبداداً ، متى صارت الى أيدي أمثال رتشرد فيلانجييري ، لن تلبث ان تؤدي الى كارثة . ويعتبر من احسن الحلول ، مـا أوصى به البابا نفسه ، وهو اتحاد الحكومتين في بيت المقدس وجزيرة قبرص[2] . غير ان تمسّك البارونات بالصفة الشرعية التي حملتهم على ان يقاوموا اوتوقراطية فردريك ، سوف تمنعهم من قبول ملك آخر ، سوى السيد الشرعي ، كنراد بن فردريك . على ان الاتحاد مع قبرص لا بد ان ينتظر حتى يقرّه الله . ومع ان اتجاه البارونات كان جماعياً وسليماً ، فانه في الوقت نفسه جعل للفوضى صفة مشروعة .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٢١ ، حاشية رقم ١ .

(٢) اقترح البـابا جريجوري على جيوفري لي تور ان تقبل بيت المقدس سلطة ملك قبرص . انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 407.

الفصل الرابع

الفوضى المشروعة

أضحى الشرق الفرنجي محروماً من قائده الطبيعي بعـــد وفاة سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) ، فما من احد من البارونات سوف ينعم من جديد بما نعمَ به من مكانة رفيعة . على ان يوحنا ابلين قد انجز دوره ، إذ أقـــام تحالفاً بين طبقة البارونات وقومون عكا ، وجعل لهما سياسة مشتركة تستند الى حقوقها الشرعية . ومن أبنائه الاربعة ، بقي اثنان في بر الشام ، وهما باليان الذي خلفه على بيروت ، ويوحنا الذي ورث اقطاع امه في ارسوف ؛ امـا الابنان الآخران فحازا ضياع الاسرة في جزيرة قبرص ، وكلاهما أجريا من الزيجات السياسية مـا أعاد اتحاد طبقة النبلاء بالمملكة . فبـلدوين الذي صار صنجيلاً ، تزوج من اخت امالريك سيد بيسان ، بينما تزوج جاي الذي صار كندسطبلاً من ابنـة ووريثة المريك بارليس كبير العصاة المتمردين . امـا يوحنا ، ابن أخ سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) ، والذي صار فيما بعد كونت يافا ، ومؤلف قوانين مملكة

بيت المقدس ، فيعتبر اشهر رجال القانون بمملكة بيت المقدس . ومع ان ابن عمهم ، باليان سيد صيدا ، ما زال يعمل نائباً للامبراطور بالاشتراك مع اودو مونتيليارد ، فإن سلطته تضاءلت بسبب ما تعرضت له سياسته من الفشل في التوفيق والمصالحة . على ان أقوى البارونات ، كان ابن عم آخر لهم ، وهو فيليب مونتفورت ، ابن هيلفيس ابلين من زوجها الثاني ، جاي مونتفورت ، شقيق سيمون الذي قاد الحملة الصليبية لقتال البيجنسيين . والمعروف ان فيليب تزوج حديثاً من ماريا ، الاميرة الارمنية ، ابنة ريموند روبين ، التي ورثت اقطاع تبنين عن جدة امها ، شقيقة آخر سيد لها . على ان ابن عم آخر ، هو يوحنا سيد قيسارية ابن مرجريت سيدة يبنه ، أكمل فريق الاسرة ، الذي أضحت له السيادة في الشرق الفرنجي . وخلّد شهرة سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) بعـد وفاته ، استعداد أبنائه وأبناء اخوته لأن يعملوا معاً في محبة ووئام ، ووحّد بينهم ايضاً اشتراكهم جميعاً في كراهية فيلانجييري ، الذي ما زال يحكم صور باسم الامبراطور فردريك [1] .

ومع ذلك ، فإن الموقف في الشرق الفرنجي كان محفوفاً بالخطر ، إذ مات في مارس سنة ١٢٣٣ ، بوهمند الرابع امير انطاكية وكونت طرابلس ، بعد ان تمّ آخر الامر الوفاق بينه وبين الكنيسة . أظهر بوهمند مرونة كبيرة أثناء الحروب التي نشبت بين أنصار الامبراطور فردريك الثاني

---

(١) ورد في الملحق الثالث بهذا الكتاب انساب اسرة ابلين وأبنـاء عمومتهم ، نقلاً عن : Lignages d'Outremer .

وبين بارونات الشرق الفرنجي ، على ان ترحيبه اول الامر بالامبراطور فردريك يرجع أساساً الى كراهيته للابلين ، الذين عارضوا في تعيين ابنه بوهمند ، زوج الملكة أليس وصياً على عرش قبرص . ثم غيّر سياسته خوفاً من طموح فردريك . ولما تم طلاق أليس من بوهمند الصغير لما بينهما من قرابة تحرّم زواجها ، وافق بوهمند الرابع عن طيب خاطر على اقتراح يوحنا ابلين ، بأن يتزوج هنري ، اصغر أبنائه سناً من ازابيلا ، كبرى شقيقات هنري ملك قبرص ، ويؤدي هذا الزواج آخر الامر الى ان يتولى امير انطاكية عرش قبرص . غير انه حدث في تلك اللحظة ان انتصر فيلانجييري في معركة قرية ايبرت ، وعندئذ راوغ بوهمند ، إذ أراد ان يتخذ جانب المنتصر . فلم يتم الزواج إلا بعد هزيمة انصار الامبراطور في قبرص[1]. وحوالي ذلك الوقت تم الوفاق بين بوهمند والاسبتارية . فالكراهية المشتركة التي يكنّها الاسبتارية والداوية للامبراطور ، حملتها على التعاون فترة من الزمن ، ولما لم يستطع بوهمند ان يوقع بين الطائفتين ، أظهر خضوعه للكنيسة ، وطلب من جيرولد ، بطريرك بيت المقدس ان ينوب عنه في المفاوضة مع الاسبتارية . وفي مقابل ما يحصل عليه الاسبتارية من ايجارات ضخمة عن الأملاك في مدينتي انطاكية وطرابلس ، وافقوا على التخلي عن دعواهم في الامتيازات التي وعدهم بها ريموند روبين ، والاعتراف بما لبوهمند

---

(١) انظر : Amadi, pp. 123 - 124.
أشار الى طلاق أليس .

Gesta des Chiprois, pp. 86 - 87.
Estoire d'Eracles, *II*, p. 360.

يذكر تاريخ هرقل زواج ازابيلا .

من حقوق إقطاعية . وفي نفس الوقت رفع جيرولد بطريرك بيت المقدس قرار قطعه من الكنيسة ، وأرسل الى روما يطلب إقرار التسوية . غير ان موافقة البابا لم تصل إلا بعد ان مضت بضعة أسابيع على وفاة بوهمند [١] .

بوهمند الخامس امير انطاكية سنة ١٢٣٣ :

على الرغم من أخطاء بوهمند الرابع ، فانه يعتبر حاكماً قوياً ، بل ان أعداءه عجبوا لثقافته واطلاعه باعتباره من رجـــال القانون . أما ابنه بوهمند الخامس فكان رجلاً ضعيفاً ، كان من أبناء الكنيسة الصالحين ، فأجاز للبابا جريجوري التاسع ان يختار له زوجته الثانية ، لوسين سيجني الـتي تنتمي لأسرة البابا [٢] .. واستطاع بوهمند الخامس بعد بضع سنوات ان يفيد من التجربة التي تعرّض لهـا ابوه سنة ١٢٣٣ بأن حصل من روما على ضمان بألا يقطعه من الكنيسة إلا البـابا نفسه [٣] ، غير انه لم يكن سيداً في إمارته . إذ ان انطاكية ذاتهـا خضعت لحكم قومون ، لم يلق عنده من المحبة ما لقيه ابوه ، والراجح ان ذلك يرجع الى ان صداقته مع روما أثارت غضب العنصر اليوناني القوي بالقومون . ولذا آثر بوهمند الخامس ان يتخذ مقرّه في حاضرته الاخرى ، طرابلس . ولم يكن له

---

(١) انظر : Röhricht, Regesta Regni Hierosolymitanae, pp. 269 - 270.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 642 - 643.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, *II*, p. 408.
كانت لوسين حفيدة شقيقة انوسنت الثالث ، فتعتبر بذلك ابنة خالة البابا جريجوري التاسع .

(٣) انظر : Innocent *IV*, Registres, 418, (ed. Berger), *I*, p. 75.

سيادة على الطوائف الدينية العسكرية ، ولم تكن ارمينية الخاضعة لسلطان بيت هيثوم موالية له ، كما ان اللاذقية التي تؤلف جيباً إسلامياً شطرت أملاكه قسمين ، والواقع ان حكمه كان يؤذن بانهيار سريع [1] .

واستبعد فردريك انطاكية وطرابلس من معاهـدة الصلح التي عقدها مع الكامل ، لما سببه له بوهمند الرابع وقتذاك من قلق . ومع ذلك ، فإن بوهمند حافظ على السلام مع جيرانه من المسلمين ، باستثناء مـــا شنه من هجمات من حين الى آخر على الحشيشية الذين كرههم ، لأنهم كانوا حلفاء للاسبتارية . واشتد استياء بوهمند ، لإمعان الطوائف الدينية العسكرية في إغفال الحذر والحرص . إذ سبق للاسبتارية ان اثاروا الكامل ، فأغار على حصن الاكراد ، عند مهاجمته دمشق سنة ١٢٢٨ . على انهم ردوا على ذلك بأن هاجموا بعرين في سنة ١٢٢٩ ، ثم اشتركوا مع الداوية في انطرطوس ، وشنوا هجوماً ، سنة ١٢٣٠ على حماه ، حيث وقعوا في كمين ، وحلت بهم هزيمة ساحقة . وفي السنة التالية قامت الطائفتان بغارة مفاجئة على جبلة ، على انها لم تظل في ايديها سوى بضعة اسابيع . ثم انعقدت آخر الأمر هدنة في ربيع سنة ١٢٣١ لمدة سنتين [2] .

لم يلبث بوهمند الخامس ان ارسل عقب توليه الحكم اخاه هنري ،

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 650 - 652, 664 - 666.
Rey, Histoire des Princes d'Antioche, p. 400.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, *II*, p. 180.
Cahen, op. cit. p. 642, n. n. 6, 7.
(يشير كاهن الى المصادر المخطوطة) .

مع كتيبتين من عكا وقبرص ، لمساندة الاسبتارية والداوية في شن هجوم على بعرين ، لم يدراه إلا ما بذلته حماه من وعد بدفع الجزية الى الاسبتارية. وهـذه الهدنة التي تجددت ظلت مستمرة حتى سنة ١٢٣٧ ، حينما انقض الداوية في بغراس على القبائل التركمانية النازلة الى الشرق من بحيرة انطاكية والتي لم تكن موطن ارتياب او خوف . وللانتقام من الداوية ، تحرّك جيش حلب بكامل قوته ، فحاصر بغراس ، التي لم ينقذها إلا قدوم بوهمند الخامس ، الذي حرص على تجديد الهدنة . غير ان مقدم الداوية في انطاكية ، وليم مونتفيرات كره هذا الإذلال ، وقرر ، على غير ما أعرب عنه بوهمند من رغبات ، ان ينقض الهدنة ولما يمض على عقدها إلا فترة وجيزة . ففي يونيه من تلك السنة ، حرض فرسانه على ان يشتركوا مع سيد جبيل وفئة قليلة من البارونات العلمانيين ، في شن هجوم على قلعة دربساك ، الواقعة الى الشمال من بغراس . وعلى الرغم من ان حامية دربساك اخذت على غرة ، فإنها بذلت مقاومة عنيفة ، بينما عجل الرسل بالتوجه الى حلب ، فبادر واليها الى إرسال جيش قوي . ولما سمع بعض الاسرى المسيحيين في دربساك بقدوم جيش لإنقـاذ القلعة ، انفذوا رسالة الى وليم مونتفيرات مقدم الداوية ، يحثونه على الانسحاب ، غير ان غطرسته حملته على تجاهل الانذار ، فأنقض عليـه الفرسان المسلمون . فحلت الهزيمة الساحقة بجيشه الصغير ، بينما لقي وليم نفسه مصرعه ، ووقـع معظم رفاقه في الأسر . ولمـا سمع الداوية والاسبتارية بنبأ الكارثة ، كتبوا الى الغرب يطلبون النجدة ، بينما لم يمض المسلمون في انتصارهم ، بل وافقوا على تجديد الهدنة بعد ان حصلوا على وعد بأموال طائلة لافتداء الاسرى . فاستبد الخجل

بالاسبتارية والداوية ، وحافظوا على الصلح لمدة عشر سنوات وبموافقة البابا الذي كان لزاماً عليه ان يؤدي معظم الاموال اللازمة للفدية[1] .

الواقع ان السلطان الكامل يعتبر الى حد كبير مسئولاً عن افتقار المسلمين الى روح المهاجمة ، نظراً لما اشتهر به من انه رجل سلام وشرف. كان مستعداً لأن يقاتل ، وأن ينغمس في كل مؤامرة دنيئة ، في سبيل توحيد الممتلكات الايوبية تحت سلطانه ، إذ ان ما نشب من منازعات وانقسامات بين افراد الاسرة ، لم يكن ليفيد احداً ، وكان مستعداً لأن يدرأ ما تتعرض له املاكه من هجمات من قبل السلاجقة او الترك الخوارزمية . غير انه طالما لم يثر المسيحيون شيئاً من الاضطراب ، فإنه سوف يتركهم لهدوئهم . ادرك المسلمون اهمية قرب موانىء الفرنج من حدودهم ، فيما يعود عليهم من مزايا تجارية . فلم يرضوا بأن يخاطروا بقطع طريق التجارة بين الشرق والغرب ، بما يقع من عداوات حمقاء ، وحرص الكامل بصفة خاصة على ان يكفل لرعاياه الرخاء المادي . يضاف الى ذلك ان الكامل كان يضارع صديقه فردريك الثاني ، فيما اشتهر به من ميول فكرية واسعة ، وحب استطلاع شديد ، على انه فاق صديقه الهوهنشتاوفني (فردريك) في اصالة التسامح ، وازدياد العطف والرفق . ومع ان الكامل افتقر الى ما عرف به عمه صلاح الدين من سمو فروسيته وبطولته ، وعازه ما اشتهر

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 403 - 405.
Annales de Terre Sainte, p. 436.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, pp. 85, 95 - 96.
Abu'l Feda, pp. 110 - 112.

به والده العادل من الدهاء الكبير ، فإنه فاقها في حماسه للانسانية . كان ملكاً كفئاً ، وقد ينكر عليه المسلمون المعاصرون له ميله « للرجال الشقر » غير انهم احترموا ما اتصفت به حكومته من العدالة والنظام السليم[1].

الكامل يعيد توحيد الامبراطورية الأيوبية سنة ١٢٢٩ :

نجح الكامل في طموحه لإعادة الوحدة الى العالم الأيوبي . إذ استطاع أخوه الأشرف آخر الامر ، في يونيــه سنة ١٢٢٩ ، ان ينزع دمشق من الناصر داود ابن اخيهما المعظم عيسى . وحصل النــاصر داود عوضاً عن دمشق ، على مملكة في وادي نهر الاردن واقليم مــا وراء نهر الاردن ، وعاصمتها الكرك ، على ان يتولاها تحت سيادة الكامل . واحتفظ الأشرف بدمشق ، غير انه اعترف بسيطرة الكامل ، وتنازل له عن بلاد في اقليم الجزيرة وعلى امتداد نهر الفرات الاوسط . والواقع ان هذه كانت اكثر الأقاليم الأيوبية تعرضاً للهجوم ، فأراد الكامل ان يزداد اشرافه المبــاشر عليها ، ويمثل جلال الدين خوارزشاه الخطر الفعلي الكبير الذي يهدّد هذه الأقاليم ، ومن ورائه الى الشرق ما كان للمغول من قوة غير معلومة ، بينما اشتدّ ضغط السلطان السلجوقي الكبير كيقاذ من الأناضول صوب الشرق . وبينما كان الأشرف في دمشق ، استولى جلال الدين خوارزمشاه سنة ١٢٣٠، على حصن أخلاط الضخم الذي يقع قرب بحيرة وان ، ثم تقدم لمهاجمــة السلاجقة ، فعجل الأشرف بالمسير صوب الشمال وتحالف مع السلطان

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 114.
Ibn Khallikan, *III*, pp. 241 - 242.

كيقباذ . وأنزل الحليفان هزيمة ساحقة بجلال الدين خوارزمشاه قرب ارزنجان . على ان الامبراطورية الخوارزمية أخذت تتفكك بعد ان تعرضت مؤخرتها حوالي ذلك الوقت لهجوم المغول . وفي السنة التالية ، أنزل المسلمون الهزيمة بجلال الدين نفسه . ولقي مصرعه في ١٥ اغسطس سنة ١٢٣١ أثناء فراره من المعركة ، على يد فلاح كردي ، انتقاماً لأخيه الذي قتله جلال الدين منذ زمن طويل [١] .

وترتب على زوال جلال الدين واختفائه ، ان اختلّ من جديد ميزان القوة . إذ لم يعد للسلاجقة منافس في شرق الاناضول ، وأضحى بوسع المغول ان يزحفوا في حرية نحو الغرب . وفي تلك الأثناء لم تنعم الخلافة العباسية في بغداد بالاستقلال إلا لبضعة شهور قلقة تعتبر نادرة . ولم ينقض إلا وقت قصير ، حتى تطلع كيقباذ الى بلاد الكامل الواقعة في الحوض الاوسط لنهر الفرات . ظلّ القتال مستمراً في الفترة من سنة ١٢٣٣ حتى سنة ١٢٣٥، انتقلت أثناءها الرها وسروج وغيرهما من مدن الاقليم من يد أحدهما الى يد الآخر ، حتى استطاع آخر الامر ان يوطّد مركزه من جديد . وما أحرزه الكامل من انتصارات أثار حقد أقاربه . إذ كره الاشرف وضعه الذي يجعله تابعاً للكامل . وحدث في حلب ان مات فجأة ، سنة

---

(١) انظر :

Ibn Khallikan, *III*, pp. 242, 288 - 289.
Ibn al - Athir, *II*, pp· 176 - 178.
Makrizi, X, pp. 250 - 252.
Cahen, op. cit. pp. 644 - 646.

(أشار كاهن في حواشيه الى المصادر المخطوطة) .

١٢٣٦ الملك العزيز بن الظاهر غازي ، فتولت امه ضيفة شقيقة الكامل الوصاية على حفيدها الصغير ، الظاهر الثاني ، على انها كانت تخشى طموح اخيها الكامل . وشاركها مخاوفها عدد من صغار الامراء الايوبيين . وفي أثنـاء الشهور الاولى من سنة ١٢٣٧ جمع الاشرف حلفاءه ، واطمأن الى مساعدة كيقباذ الفعلية ، وحينما أضحت الحرب الاهلية فيما يبدو لا مفرّ منها ، حدث في اوائل الصيف ان مات كيقباذ ، ونزل بالاشرف مرض خطير . وبوفاة الاشرف في اغسطس سنة ١٢٣٧ تبددت المؤامرة ، فتولى حكومة دمشق اخوه الاصغر ، الصالح اسماعيل ، على انه حاول عبثاً إعـــادة الوحدة بين المتآمرين . وبفضل مساعدة الناصر داود صاحب الكرك ، زحف الكامل على دمشق في يناير سنة ١٢٣٨ ، فأضافها الى أملاكه ، وحاز الصالح اسماعيل عوضاً عن دمشق إقطاعاً في بعلبك . غير ان الكامل لم يعش طويلاً بعد انتصاره ، إذ مات بعد شهرين ، في دمشق ، في ٨ مارس سنة ١٢٣٨ ، وهو في الستين من عمره [١] .

الحروب الاهلية بين الايوبيين سنة ١٢٣٩ :

أدت وفاة الكامل الى انبعاث الحرب الاهلية ، إذ أن ابنـه الاكبر الصالح ايوب ، وكانت أمه جارية سودانية ، كان وقتذاك بالشمال ، غير انه

---

(١) انظر :

Ibn Khallikan, *III*, pp. 242 - 244.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, pp. 88 - 99.
Cahen, op. cit. pp. 645 - 646.

بادر بالمسير الى دمشق التي استولى على حكومتها الجواد ، ابن أخ الكامل . واستطاع الصالح ايوب طرد الجواد بمساعدة الخوارزمية الذين يطوفون بالبلاد سعياً وراء الغنيمة . وفي تلك الاثناء استقر العادل الثاني ، اخو الصالح ايوب سلطاناً في مصر . وعزم الصالح ايوب على ان يستخلص لنفسه اخصب اقاليم والده ، مصر ، غير انه حينما نهض لغزو مصر ، وقع في دمشق انقلاب مفاجيء اطاح به ، لمصلحة عمه الصالح اسماعيل ، وفي اثناء فرار الصالح ايوب صوب الجنوب وقع في يدي الناصر داود صاحب الكرك ، الذي لم يلبث ان أيّده ، وأمده بعساكر لغزو مصر . لم تكن المسألة عسيرة ، إذ أن العادل اساء الى وزرائه ، بأن عهد بالحكومة الى عبد اسود صغير تعلّق به . ونجحت المؤامرة في عزله عن العرش في يونيه سنة ١٢٤٠ ، وتقررت دعوة الصالح ايوب ليتولى عرش مصر ، فكافأ الناصر داود بأن جعله حاكماً عسكرياً على فلسطين ، غير ان الصالح اسماعيل ما زال سيداً على دمشق . وفي السنوات العشرة التالية ، مزّق العالم الايوبي ما وقع من التخاصم بين العم (الصالح اسماعيل) وابن اخيه (الصالح ايوب) . ولم يلبث ان وقع شمال الامبراطورية الايوبية في فوضى واضطراب . فالخوارزمية الذين فقدوا قائدهم جلال الدين خوارزمشاه طافوا بشمال الشام ينزلون الخراب اينما ساروا ، متذرعين بأنهم تلقوا الاوامر من الصالح ايوب . اما في الجزيرة فلم يكن للمظفر الايوبي امير ميافارقين إلا سلطة ضئيلة . وحاول توران شاه بن الصالح ايوب ان يحكم املاك جده بالجزيرة ، غير ان مدناً كثيرة وقعت في ايدي كيخسرو الثاني سلطان السلاجقة . واتخذ الناصر يوسف ، الذي خلف اخاه سنة ١٢٣٦ على حكم حلب خطة الدفاع ، بينما انصرف اميرا حماه

وحمص الى درء خطر الخوارزمية [١] .

وفي وسط هذه الاضطرابات العنيفة ، انتهى امد المعاهدة التي انعقدت بين فردريك الثاني والكامل . وللتمهيد لانقضاء اجل المعاهدة ، ارسل البابا جريجوري التاسع في صيف سنة ١٢٣٩ مندوبين من قِبله الى فرنسا وانجلترا للدعوة الى حرب صليبية . ولم يكن كل من ملكي فرنسا وانجلترا مستعداً لأن يستجيب بشخصه لنداء البابا ، غير انهما بذلا للدعاة كل تشجيع وتأييد . ففي اوائل صيف سنة ١٢٣٩ تأهبت جماعة من نخبة نبلاء فرنسا للابحار الى الشرق ، وكان على رأس هذه الجماعة تيبالد كونت شامبانيا وملك نافار ، ابن اخ هنري شامبانيا ، وبذا يعتبر ابن عمة ملوك فرنسا وانجلترا وقبرص . وصحبه هيو الرابع دوق برجنديا ، وبطرس ماوكليرك كونت بريتاني ، فضلاً عن كونتات بار ، ونيفرز ، ومونتفورت ، وجويجني ، وسانكير وكثير من صغار السادة الاقطاعيين . وكان عدد الراجلين يقل عما كان متوقعاً ، اذا قدّرنا ما للقادة من اهمية ، على ان الحملة بأسرها كانت مهيبة [٢] .

---

(١) انظر : Ibn Khallikan, *II*, pp. 445 - 446.
III, pp. 245 - 246.
Makrizi, X, pp. 297 - 330.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, loc. cit.
Cahen, op. cit. pp. 646 - 649.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, *II*, pp. 413 - 414.
Gestes des Chiprois, p. 118.
Potthast, Regesta, *I*, p. 906.
اورد هذا المصدر رسالة البابا جريجوري التاسع .

حملة تيبالد الصليبية سنة ١٢٣٩ :

كان تيبالد يأمل في أن يستقل مع رفاقه السفن في برنديزي ، غير ان ما نشب من الحروب بين الامبراطور والبابا جعل اجتياز ايطاليا امراً شاقاً . وإذ كانت برنديزي من املاك الامبراطور ، لم يكن راضياً عن الحملة الصليبية ، فقد اعتبر نفسه حاكماً على فلسطين بالنيابة عن ابنه الصغير ، كنراد ، فإذا نهضت حملة لمساعدة مملكته فلا بدّ ان يخضع تنظيمها لسلطته . فهو لا يوافق على ان يشترك فيها النبلاء الفرنسيون الذين لا شك ان غريزتهم سوف تحملهم على ان يساندوا عليه بارونات الشرق الفرنجي . يضاف الى ذلك انــه نظراً لإدراكه الاوضاع في العالم الاسلامي ، كان يأمل ان يعقد بالدبلوماسية صفقة رابحة لمملكته . على ان قدوم هؤلاء الفرسان القلقين سوف يدمر هذه المفاوضات . ولم يكن بوسعه ان يرسل من قبله رجالاً لضبطهم ، نظراً لمــا تعرّض له في ايطاليا من متاعب . فاستخلص منهم وعداً بألا يتمّ شيء إلا عند انقضاء اجل الهدنة في اغسطس ثم نفض يده من كل المسألة . ولذا كان لزاماً على الصليبيين ان يبحروا من ايج مورت ومرسيليا [١] .

على ان الحمــلة الصليبية واجهت عواصف عاتية في رحلتها في البحر المتوسط ، ساقت بعض السفن الى قبرص ، وردت سفناً اخرى الى جزيرة

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, loc. cit.
Ms. of Rothelin, p. 528.
Potthast, op. cit. I, p. 910. (رسالة البابا جريجوري التاسع) .

صقلية . ولكن تيبالد وصل الى عـــكا في اول سبتمبر سنة ١٢٣٩ ، ولم تنقض إلا بضعة ايام حتى احتشد في عكا جيش مؤلف من الف فارس . فانعقد على الفور مجلس ليقرر ، كيف تجري الإفادة من هذا الجيش على خير وجه . وشهد هذا المجلس الامراء القادمون ، فضلاً عن كبار البارونات المحليين ، وممثلين عن الطوائف الدينية العسكرية . بينما ناب بطرس سارجينس رئيس اساقفة صور عن بطريرك بيت المقدس . كانت فرصة تهيأت للقيام بحملة دبلوماسية . فما نشب من منازعات بين ذرية الكامل ، هيأت للمسيحيين الفرصة لاتخاذ قوتهم الجديدة ، نقطة للمساومة ، وللحصول على امتيازات سخية من كل من الاحزاب المتناحرة او منها جميعاً . ولكن المعروف ان الصليبيين لم يقدموا إلا من اجل القتال ، ولا يودون ان يحتذوا المثال المشين الذي اتخـــذه فردريك الثاني . وعندئذ اوصى البارونات المحليون بتوجيه الحمـــلة الى مصر . فهذا الاجراء لم يكن فحسب ليلحق الأذى بجيرانهم المسلمين في سوريا ، بل انه سوف تتهيأ له فرصة طيبة للنجاح ، نظراً لما هو معروف من كراهية الناس للسلطان العادل الثاني ، بينما ايد الآخرون اعتبار دمشق عدواً لهم ، ولا بدّ للجيش ان يحصن قلاع الجليل ، ثم يزحف على عاصمة الشام (دمشق) . غير ان تيبالد أراد ان يحقق عدداً كبيراً من الانتصارات ، فقرر ان يهاجم الجيش الصليبي اول الأمر المعقلين المصريين في عسقلان وغزه ، والراجح ان كان ذلك القرار بناء على اقتراح والتر بريين كونت يافـا ، الذي لم ينتم الى حزب اسرة ابلين ، ثم يتوجه الجيش الى مهاجمة دمشق بعد تأمين الطرف الجنوبي ، على ان الرسل هرعت ، عند سماع نبـأ قرار تيبالد ، الى حواضر الامراء الايوبيين ، لتدبير عقد

هدنة مؤقتة بين الامراء المسلمين [١] .

خرجت الحملة من عكا في ٢ نوفمبر سنة ١٢٣٩ قاصدة الحدود المصرية ، وصحب الصليبيين سرايا من فرسان الطوائف الدينية العسكرية ، وعـدد كبير من البارونات المحليين . وفي أثناء سيرهم الى يافا ، أنبأ احد الجواسيس بطرس كونت بريتاني ان قافلة إسلامية وافرة الثروة ، تتحرك إزاء نهر الاردن في طريقها الى دمشق . فبادر بطرس بالركوب على الفور ، مع رالف كونت سواسون ومائتي فارس ، ونصبوا كميناً لهذه القافلة . على ان القافلة كان يحرسها رجال أشداء مسلحون ، ولما نشبت المعركة كاد بطرس ان يلقى مصرعه ، غير ان المسلمين ولّوا الأدبار آخر الامر ، بعد ان تركوا في أيدي المسيحيين قطيعاً كبيراً من الماشية والأغنام ، فساق بطرس غنيمته وعاد منتصراً الى يافا ، التي بلغها وقتذاك زملاؤه ، ولقي انتصاره ترحيباً كبيراً ، نظراً لأن مؤونة الجيش كانت آخذة في النفاد ، غير ان هذا الانتصار أثار عداء الناصر داود صاحب الكرك [٢] .

وتقرّر على الفور إرسال جيش مصري بقيادة الأمير المملوكي ركن الدين من الدلتا الى غزة . والانباء الاولى التي بلغت المسيحيين عن وصوله ، لم تشر الى ان الجيش المصري لم يتجـاوز ألف رجـل ، وعزم هنري كونت بار الذي غاظه ما ظفر به كونت بريتاني من نجاح ، على ان يبادر بمهاجمة

---

(١) انظر : Ms. of Rothelin, pp. 531 - 532.
Estoire d'Eracles, II, pp. 413 - 414.

(٢) انظر : Ms. of Rothelin, pp. 533 - 536.

الجيش المصري حتى يتحقق له الشرف والغنيمة . ولذا أبقى خطته سراً ، فلم يطلع عليها إلا عدد قليل من اصدقائه ، أمثال دوق برجنديا وعدة سادة من شرقي فرنسا . ثم سمح بأن يلحق بهذه الجماعة ، نائبا الامبراطور على المملكة ، باليان سيد صيدا ، وأودو مونتبليار اللذان كرها قيادة تيبالد ، فضلاً عن والتر كونت يافـــا ، ويوحنا سيد ارسوف وهو من الابليين . وعند حلول الظلام يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٢٣٩ ، استعدّ للزحف على غزة كل هــذه الجماعة المؤلفة من خمسمائة فارس ، وما يزيد على الف راجل . غير ان الأنباء تسرّبت ، وبينما كانوا يمتطون أفراسهم ، قدم عليهم الملك تيبالد ومقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة ، وكونت بريتاني ، وتوسلوا اليهم اول الامر ، ثمّ أمروهم بالعودة الى المعسكر . غير ان هنري كونت بار رفض ان ينثني عن عزمه ، بأن تحدى قيادة الملك ، بعد ان اتهمه هو وأصحابه بالجبن . وسار الركب في ليلة مقمرة ، ولم يستطع تيبالد الذي لم يدرك ما للعدو من قوة حقيقية ، ان يمنع الركب من المضي في سيره . وفي صبيحة اليوم التالي ، نقل معسكره الى تحت أسوار عسقلان حتى يكون في متناول اليد اذا اقتضت الحاجة مساعدته .

هزيمة الفرنج في غزة سنة ١٢٣٩ :

وبلغ من ثقة كونت بار في الفوز ، انه حينما اقترب من غزة ، حين لاح الفجر ، امر رجاله بالتوقف في منخفض بين التلال الرملية على ساحل البحر ، كيما ينالوا قسطاً من الراحة . على أن الجيش المصري فاق في الضخامة ما كان يعلمه ، وأحاط بـــه جواسيسه من كل جانب . لم يعتقد الامير ركن الدين ان يكون عدوه على هذه الدرجة من الحماقة ، فأرسل

رماته ، ليزحفوا حول التلال الرملية ، حتى كاد يتم تطويق الفرنج . وكان والتر كونت يافا اول من فطن الى ما كان يحدث ، فأمر بالارتداد العاجل، لأنه ليس بوسع الافراس ان تتحرك في حرية في الرمـال العميقة ، بينما ركب والتر مع دوق برجنـديا ، متجهين الى الشمال ، ثم لم يلبث سائر الفرسان من الشرق الفرنجي ان اقتفوا اثرهما . غير ان هنري كونت بار لم يشأ ان يترك رجالته الذين قادهم ، يقعون في الفخ ، فلم يمكث معه إلا اقرب الاصدقاء وأخلصهم له . ولم تلبث المعركة ان انتهت ، وإذ هوى في التلال الرملية الفرنج بخيولهم ، ورجالتهم المثقلون بالأسلحة ، اضحوا عاجزين ، فلقي مصرعهم مـا يزيد على الف رجل ، منهم كونت هنري نفسه . ووقع في الأسر نحو ستمائة آخرين ، وتم نقلهم الى مصر ، ومن هؤلاء الأسرى كونت مونتفورت ، والشاعر فيليب نانتيل ، الذي امضى ايامـه في الحبس ينظم شعراً في ذم الطوائف الدينية العسكرية ، الذين وجّه اليهم اللوم ، عن عاطفة لا عن منطق ، لما اصاب هـذه الحملة التي لا مبرر لها من الفشل .

ولما وصل الفارّون الى عسقلان ، اغفل تيبالد حذره ، وأراد ان يزحف على الفور على غزة لانقاذ رفاقه ، غير ان فرسان الشرق الفرنجي لم يوافقوه . إذ كان من الحماقة المغامرة بالجيش ، ومن المحقق ان المسلمين سوف يؤثرون قتل من وقع بأيديهم من الأسرى ، على ان يضيعوهم مرة اخرى . فاستبد الغضب بتيبالد ولم يغفر ابداً لمضيفيه (فرسان الشرق الفرنجي) ما حدث . غير انه لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً ، فتحرك الجيش ، بعد ان تضاءل

عدده ، في بطء عائداً الى عكا[1] .

وفي تلك الاثناء ردّ الناصر داود صاحب الكرك على مهاجمة البريتون للقافلة الاسلامية ، بأن زحف على بيت المقدس . لم يكن للمدينة المقدسة من اسباب الدفاع ، سوى ذلك القطاع من السور عند باب اصطفان الذي سبق لفردريك ان شرع في عمارته ، وكذا القلعة التي تضم برج داود ، التي جرى منذ زمن قريب تدعيمها ، والمعروف ان المدينة المقدسة لم تدن بالولاء للحكومة في عكا ، بل لفيلانجييري في صور ، ولم يحفل فيلانجييري بشحنها بحامية كبيرة ، فلم يصادف الناصر داود صعوبة في احتلال بيت المقدس ، غير ان العساكر المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون سبعة وعشرين يوماً ، حتى نفذت مؤنهم ، فأذعنوا في ٧ ديسمبر سنة ١٢٣٩ مقابل الحصول على امان بالرحيل الى الساحل . وانسحب الناصر داود الى الكرك ، بعد

---

(١) انظر : Ms. of Rothelin, pp. 537 - 550.

(اورد رواية صادقة لما حدث) .

Gestes des Chiprois, pp. 118 - 120.

Estoire d'Eracles, II, pp. 414 - 415.

Abu Shama, II, p. 193.

Makrizi, X, p. 324.

(أخطأ المقريزي في تحديد تاريخ المعركة) .

Rothelin, pp. 548 - 549.

(اورد روثلين اقتباسات من أشعار فيليب) .

ان دمّر الاستحكامات ، بما فيها برج داود [1] . تحرك تيبالد بقواته ، بعد المعركة التي وقعت في غزة ، صوب الشمال الى طرابلس . فقدم اليه رسول من قِبل امير حماه ، المظفر الثاني ، الذي سبق ان وقع في نزاع مع سائر اقـاربه من الامراء الايوبيين ، وتعرض لخطر قيام تحالف بين الوصي على حلب وأمير حمص . فعرض على الفرنج ان يتنـازل لهم عن حصن او حصنين ، مقـــابل بذل المساعدة له ، وجعلهم يأملون في ان يتحول الى المسيحية . وقبل تيبالد هذا العرض في غبطة وسرور . غير ان مسير تيبالد الى طرابلس كان كافياً لأن يروع اعداء المظفر ، فأرسل الامير ، المظفر ، في ادب الى تيبالد يخطره بأنه لم يعد في حاجة الى خدماته [2] .

وحدث عنـد توقف الحملة الصليبية في طرابلس ، ان اضحى الصالح ايوب سلطاناً على مصر ، واندلعت الحرب بينه وبين الصالح اسماعيل امير

---

(١) انظر : Ms. Rothelin, pp. 529 - 531.

ومع ان روثلين اورد التاريخ الصحيح لتدمير الاستحكامات، فانه أخطأ حين جعل هذا العمل سابقاً على معركة غزة . امـا المقريزي فجعل ٧ ديسمبر التاريخ الذي استسلمت فيه حاميـة بيت المقدس ، اي بعـد معركة غزة . واتفق ابو الفداء مع المقريزي في تحديد التاريخ ، بينما لم يشر العيني إلا السنة ، وبذا يصح قبول التاريخ الذي اورده المقريزي . انظر :

Makrizi, X, pp. 323 - 324.
Al - Aini, pp. 196 - 197.
Abu'l Feda, pp. 115 - 119.

(٢) انظر :

كان المؤرخ ابو الفدا حفيداً للمظفر الثاني .

Kemal ad - Din, trans. Blochet, pp. 98 - 100 - 104.
Estoire d'Eracles, II, p. 416.
Gestes des Chiprois, pp. 120 - 121.

دمشق . والواضح أنه اضحى بوسع الفرنج ان يجروا مساومة رابحة ، إذ عجّل تيبالد بالعودة الى الجنوب وعسكر بجيشه عند عيون صفورية في الجليل . ولم يكن لينتظر طويلاً ، إذ حدث في اوائل صيف سنة ١٢٤٠ ان اقترح الصالح اسماعيل عقد محالفة هجومية مع الفرنج ، لتخوفه من اشتراك الصالح ايوب والناصر داود في غزو بلاده . فاذا تكفل الفرنج بحراسة الطرف المصري عند الساحل ، وأمدوه بالأسلحة ، فانه سوف يتنازل لهم عن الحصنين الكبيرين ، هونين وصفد ، وما يقع بينهما من التلال . وإذ اضحى للداوية علاقات مالية في دمشق ، أداروا المفاوضات بين الجانبين ، ونالوا مكافأة على ذلك ، بأن تملكوا صفد . على ان رعايا الصالح اسماعيل ارتاعوا لما حدث ، فرفضت حامية هونين ان تسلم وديعتها الى باليان سيد صيدا ابن آخر سيد مسيحي لهونين ، وكان لزاماً على الصالح اسماعيل ان يتوجه بنفسه لحصار القلعة ليرغمها على الاذعان . فغادر المدينة متعضين رجلان من كبار علماء الدين ، أحدهما خطيب المسجد الجامع ، والتمسا لهما ملاذاً بالقاهرة [١] .

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, pp. 417 - 418.
Ms. of Rothelin, pp. 551 - 553.
Gestes des Chiprois, p. 12.
Abu'l Feda, loc. cit.
Makrizi, X, p. 430.
Abu Shama, II, p. 193.

نهاية حملة تيبالد الصليبية سنة ١٢٤٠ :

وما كان من اشتراك الاسبتارية والداوية سوياً في كراهية الامبراطور فردريك أبقى على ما بينهما من تحالف عسير في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة . غير ان حيازة الداوية لحصن صفد كانت أكبر من ان يتحملها الاسبتارية . فبينما توجه تيبالد بجيشه للحاق بقوات الصالح اسماعيل ، بين يافا وعسقلان ، شرع الاسبتارية في إجراء مفاوضات مع الصالح ايوب . واشتد الجدال بين الفريقين ، حينما فرّ نصف رجال الصالح اسماعيل الذين كرهوا العمل مع المسيحيين ، الى المعسكر المصري ، وكان لزاماً على الحليفين تيبالد والصالح ان يرتدا بجيوشهما . وإذ كان اول ما يهدف اليه الصالح ايوب ، هو ان يلحق الهزيمة بالصالح اسماعيل ، فانه ابتهج لأن تهيأت له الفرصة لتحطيم التحالف بين الصالح اسماعيل والفرنج . فعرض على الفرنج ان يطلق سراح الأسرى الذي وقعوا في يده في غزة ، وأن يكون لهم الحق في احتلال عسقلان وتحصينها ، مقابل التزام الحياد . وعندئذ وقّع مقدم الاسبتارية مع ممثلي السلطان الصالح ايوب ، الاتفاق في عسقلان ، والواقع ان ذلك كان انتصاراً دبلوماسياً للصالح ايوب ، الذي استطاع بتضحية بسيطة من جانبه ، ان يدمّر تحالفاً لم ينجزه الصالح اسماعيل إلا بعد ان أذلّ نفسه . أما تيبالد الذي فرح لإطلاق سراح أماريك مونتفورت وغيره من الاصدقاء ، فانه ساند الاسبتارية . غير ان الرأي العام في الشرق الفرنجي ارتاع لما حدث من التخلي المشين عن الاتفاق مع دمشق ، التي ظلت تعتبر حتى زمن صلاح الدين الحليف التقليدي للمسيحيين . وأضحت كراهية الناس لتيبالد

من الشدة ، ما حمله على ان يقرر العودة الى اوربا ، فأبحر من عكا في نهاية سبتمبر سنة ١٢٤٠ بعد ان هرع الى بيت المقدس ليؤدي الحج بصفة عاجلة . وسار في اثره معظم رفاقه ، باستثناء دوق برجنديا الذي أقسم على ان يبقى حتى تكتمل عمارة استحكامات عسقلان ، وكونت نيفرز الذي انحاز الى الداوية والباروناث المحليين ، فأقام بعسكرهم قرب يافا ، بعد ان أقسم على المحافظة على المعاهدة التي انعقدت مع دمشق ، ومقاومة كل غزو من قبل مصر .

لم تخل حملة تيبالد الصليبية من قيمة وأهمية ، إذ عاد الى حوزة المسيحيين حصون هونين ، وصفد وعسقلان . غير ان المسلمين شهدوا مثلاً آخر من خيانة الفرنج [١] .

وحدث في ١١ اكتوبر سنة ١٢٤٠ ، ولما يمض على رحيل تيبالد إلا بضعة ايام ، ان وصل الى عكا حاج بالغ الأهمية والمكانة ، وهو رتشرد ايرل كورنوال ، وشقيق هنري الثالث ملك انجلترا ، وكانت اخته زوجة للأمبراطور فردريك . كان رتشرد وقتذاك في الحادية والثلاثين من عمره ، ويعتبر من اقدر وأكفأ امراء عصره . وصادف حجه الى بيت المقدس القبول عند الامبراطور فردريك الذي جعل له كل السلطات في ان يتخذ من التدابير

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 419 - 420.
Ms. of Rothelin, pp. 553 - 555.
Gestes des Chiprois, pp. 121 - 122.
Makrizi, X, p. 342.

ما يعتقد انها في مصلحة المملكة [1] . ارتاع رتشرد لما شهده عند وصوله من الفوضى ، إذ نشب بين الداوية والاسبتارية نضال صريح ، فساند الداوية كل البارونات المحليين ما عدا والتركونت يافا ، ولذا شرع الاسبتارية في التماس مساعدة فيلانجييري وأنصار الامبراطور فردريك الثاني ، بينما اتخذت طائفة الفرسان التيوتون جانب الاعتزال ، فشحنت قلاعها بسوريا بالعساكر ، غير انهـا وجهت كل اهتمامها الى قليقيه ، حيث عهد اليهم ملك ارمينية بضياع شاسعة . أما فيلانجييري فلا زال بحوزته مدينة صور ، وكان مسئولاً عن ادارة بيت المقدس [2] .

رتشرد كورنوال سنة ١٢٤١ :

هرع رتشرد الى عسقلان عقب وصوله الى عكا . فالتقى بها برسل من

---

(١) عن رتشرد وحملته الصليبية ، انظر :

Powicke, King Henry III and the Lord Edward, I, pp. 197 - 200.

أشار الى ان البـابا حث رتشرد على ان يتخلى عن حملته الصليبية ، وان يستعيض عنها بمال يبذله لحماية الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية . انظر :

Powicke, op. cit. I, p. 197, n. 2.

(٢) انظر : Matthew Paris, Chronica Majora; IV, p. 139.

(اورد ماتيو باريس رسالة رتشرد) . وأقام رتشرد في دار الاسبتارية في عكا . انظر :

Gestes des Chiprois, p. 123.

عن الفرسان التيوتون في قليقية ، انظر :

Strehlke, Tabulae Ordinis Theutonici, pp. 37 - 40, 65 - 66, 126 - 127.

Gestes des Chiprois, loc. cit.

يشير الى بتينبايه وكيل فردريك في ادارة بيت المقدس .

قبل سلطان مصر ، الصالح ايوب ، فطلبوا اليه التصديق على المعاهدة التي عقدها الاسبتارية ، فوافق رتشرد ، غير انه كيما يسترضي بارونات الشرق الفرنجي اصر على ان يقر المصريون ما تنازل عنه الصالح اسماعيل امير دمشق من البلاد ، وأن يضيفوا اليها مـــا تبقى من الجليل ، بما في ذلك شقيف أرنون ، وجبل الطور وطبرية . وإذ انتزع الناصر داود صاحب الكرك مــا كان للصالح اسماعيل من سيطرة على شرق الجليل ، لم يعد بوسع الصالح اسماعيل ان يمتنع عن كل تنازل عن بلاد اخرى . وفي تلك الاثناء عاد الاسرى الفرنج الذين وقعوا في غزه مقابل اطلاق سراح فئة قليلة من الاسرى المسلمين الذين كانوا في حوزة الفرنج . وبــذا استعادت مملكة بيت المقدس كل ما كان لهـــا من اراضي غربي نهر الاردن ، التي امتدت جنوبــاً حتى ارباض غزة ، باستثناء نابلس وأقليم السامرة ، الذي يعتبر فالاً سيئاً . ظلت بيت المقدس مجرّدة من الاستحكامات . غــير ان اودو مونتبليارد ، الذي تعتبر زوجته وريثة لأمراء الجليل ، شرع في إعادة بناء قلعة طبرية ، واكتملت ايضاً اعمال العمارة في عسقلان . وعين رتشرد حاكمــاً على عسقلان والتر بنينبايه الذي كان ممثلاً لفيلانجييري في بيت المقدس . والراجح ان الامبراطور فردريك ارسل بناء على اقتراح رتشرد سفارة لتهنئة الصالح ايوب . وجرى استقبال سفيريه بالقاهرة بكل مظاهر التشريف والابهة ، ومكث السفيران بالقاهرة حتى اوائل فصل الربيع .

وأقام رتشرد في فلسطين حتى شهر مايو سنة ١٢٤١ ، وسلك في اعماله سبيل الحكمة والكياسة ، واستطاع ان يظفر برضي الناس ، باعتباره نائباً مؤقتاً للامبراطور في حكم المملكة . وكان الامبراطور شديد الارتياح له ، وأسف الناس في الشرق الفرنجي لرحيله . وعاد الى اوربا ليمارس حياة

حافلة بالآمال العالية ، التي لم يتحقق منها إلا النذر القليل [1] .

على ان الامن والنظام الذي وطده رتشرد كورنوال لم يستمر طويلاً بعد رحيله . كان البارونات المحليون يأملون في ان يمضوا في إقراره ، فالتمسوا من الامبراطور ان يعين احد رفاقه ، وهو سيمون مونتفورت نائباً عنه . إذ ان سيمون الذي كان زوجاً لأخت رتشرد ، وابن عم لسيد تبنين ترك عند الناس اثراً فائقاً . غير ان فردريك أغفل طلب البارونات المحليين ، وعـاد سيمون ليواصل في انجلترا حياة ضخمة عاصفة [2] . ولم تلبث المنازعات ان نشبت من جديد في الارض المقدسة ، إذ رفض الداوية ان يلتزموا بالمعاهدة التي انعقدت مع الصالح ايوب ، فأغاروا في ربيع سنة ١٢٤٢ على مدينة حبرون الاسلامية . وردّ الناصر داود صاحب الكرك على هـذه الغارة ، بأن أرسل العساكر لقطع الطريق المؤدي الى

---

(١) انظر رسالة رتشرد في :

Matthew of Paris, IV, pp. 139 - 145.
Estoire d'Eracles, II, pp. 421 - 422.
Ms. of Rothelin, pp. 555 - 556.
Gestes des Chiprois, pp. 123 - 124.

ليس واضحاً ما اذا كان تيبالد ابرم فعلاً معاهدة مع مصر ، صدّق عليها رتشرد (كما اشارت Gestes ، ولعل العبارة التي اشارت الى هذا النبأ أقحمت في النص) ، أو ما اذا كان رتشرد أكمل المفاوضات التي بدأها تيبالد . انظر ايضاً :

Histoire des Patriarches d'Alexandrie, pp. 342 - 346.

(٢) انظر : Röhricht, Regesta, p. 286.

كانت رسالة البارونات للامبراطور فردريك مؤرخة في ٧ مايو سنة ١٢٤١ ، وكان امالريك شقيق سيمون احد الأسرى الذين تم اطلاق سراحهم منذ زمن قريب في مصر .

بيت المقدس ، ولجباية الرسوم من الحجاج والتجار الذين يجتازونه . فأثار هذا الاجراء الداوية ، وحملهم على الخروج من يافا والانقضاض على نابلس في ٣٠ اكتوبر سنة ١٢٤٢ ، واستباحتها ، فأحرقوا المسجد الجامع وقتلوا عدداً كبيراً من السكان ، ومن بينهم أعداد غفيرة من المسيحيين الوطنيين . لم يكن الصالح أيوب مستعداً للقتال ، فاكتفى بإرسال جيش قوي ، حاصر يافا فترة من الزمن ، كيما يكون انذاراً لما يجري في المستقبل[١] . ولم تكن بالمملكة سلطة عليا ، إذ تصرفت الطوائف الدينية العسكرية على انها جمهوريات مستقلة ، وتولى حكم عكا قومون لم يكن بوسعه ان يمنع الداوية والاسبتارية من ان يقاتل بعضهم بعضاً في الشوارع . ولزم البارونات اقطاعاتهم ، يحكمونها كيفما شاؤوا .

وتراءى لفيلانجييري في صور ان الفوضى حافلة بالأمل . إذ كان على اتصال شخصي بالاسبتارية في عكا ، كما انه كسب ودّ اثنين من كبار البرجاسية ، وهما يوحنا فالين ووليم كونش . وحدث ذات ليلة ، في ربيع سنة ١٢٤٣ ، ان قدم فيلانجييري من صور ، وتيسّر له الدخول خلسة الى عكا ، واستعدّ لإعداد انقلاب عسكري . غير ان حضوره الى عكا لم يلبث ان صار معروفاً ، فأخطر به فيليب مونتفورت سيد تبنين ، الذي تصادف

---

(١) انظر : Histoire des Patriarches, pp. 350 - 351.
Matthew Paris, IV, p. 197.
Makrizi, X, pp. 342 - 348.
أشار المقريزي في موضعين الى وقوع معركة اخرى في غزة سنة ١٢٤٢ .
انظر ايضاً : Stevenson : The Crusaders in the East, p. 321, n. 1.

حضوره الى عكا . فبادر فيليب على الفور الى تحذير القومون و جاليتي البنادقة والجنويين . فألقى موظفوهم القبض على يوحنا فالين ووليم كونش ، وتولوا حراسة الشوارع . وتقرر إنفاذ رسالة لدعوة باليان ابلين بالقدوم من بيروت ، وأودو مونتبليارد بالحضور من قيسارية . وأدرك فيلانجييري انه قد فاته الحظ ، فتسلل في هدوء راجعاً الى صور ؛ فتجلى تواطؤ الاسبتارية واشتراكهم في المؤامرة . فلما وصل باليان ، فرض الحصار على مراكز قيادتهم في عكا ، وظل الحصار قائماً مدة ستة شهور . وكان مقدم الاسبتارية بطرس فيبى برايد وقتذاك في قلعة المرقب ، يقود حملة غير نظامية لقتال جيرانه من المسلمين ، فلم يستطع ان يعدّ من الرجال من يحاولون نجدة فرسانه في عكا . فلم يسعه آخر الامر إلا ان يصالح باليان ، بعد ان بذل الأعذار ، وأقسم انه لم تكن له يد في المؤامرة [1] .

الاعتراف بالملكة أليس وصية على العرش سنة ١٢٤٣ :

في ١٥ ابريل سنة ١٢٤٣ أضحى كنراد هوهنشتاوفن ابن الامبراطور فردريك والملكة يولندا ، في الخامسة عشرة من عمره ، فبلغ من الناحية

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 124 - 127.
Estoire d'Eracles, II, p. 422.
Annales de Terre Sainte, p. 441.
(أخطأت هذه التواريخ في تحديد زمن هذا الحادث بأن جعلته سنة ١٢٤٣) .
Richard of San Germano, p. 382.
يتحدث رتشرد جرمانو عن التمرد الذي وقع في عكا في اكتوبر سنة ١٢٤١ لمناوأة الامبراطور فردريك .

الرسمية سن الرشد . وأضحى من واجبه ان يقدم الى عكا وان يحوز بنفسه المملكة ، إذ لم يعد لوالده الحق في الوصاية . على ان كنراد لم يظهر من الدلائل ما يشير الى قدومه الى الشرق ، على الرغم من انه بادر بإرسال توماس اكيرا ليكون نائباً عنه . وعندئذ اعتبر البارونات ان من واجبهم القانوني ان يرشحوا الوريث التالي الذي في متناول ايديهم ليكون وصياً على المملكة ، ولم يكن هذا الوريث سوى أليس ملكة قبرص وخالة امه . والمعروف ان أليس تصالحت مع بني عمومتها من الابابين ، بعد طلاقها من بوهمند الخامس، ثم تزوجت بموافقتهم ، سنة ١٢٤٠ من رالف كونت سواسون، وهو شاب لم يتجاوز في العمر نصف سنها ، قـدم الى الشرق في صحبة الملك تيبالد . ودعا باليان ابلين وفيليب مونتفورت الى عقد مجلس في عكا بقصر البطريرك في ٥ يونيه سنة ١٢٤٣ . وشهد الاجتماع جميـع البارونات ، وقام بتمثيل الكنيسة بطرس سارجينس ، رئيس اساقفة صور ، وأساقفة المملكة . وأرسل القومون الى المجلس موظفين من قبله ، وكان يمثل جاليتي الجنويين والبنادقـة رئيساهما . وتولى فيليب نوفارا شرح الوضع القانوني ، وأوصى بأنه لا ينبغي بذل الولاء للملك كنراد ما لم يقدم ليتلقاه بنفسه، وإنـه ينبغي ان يعهد بالوصاية ، حتى يقدم ، الى أليس وزوجها . واقترح اودو مونتبليارد انـــه ينبغي ان يطلب رسمياً الى كنراد القدوم لزيارة مملكته ، وينبغي ألا يتخذ اجراء إلا بعد ان يصل منه الردّ ، غـير ان الابلين لم يروا ما يدعو الى ذلك ، وتغلبت وجهة نظرهم . فحلف المجلس يمين الولاء لأليس ورالف ، بعد ان صان حقوق كنراد[١] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 128 - 130.

هذا القرار نزع من فيلانجييري كل أثر للسلطة ، التي جعلت البارونات يترددون في مهاجمته في صور . ولما تمّ تعيين توماس اكيرا ، بادر الامبراطور فردريك الى استدعائه الى العودة الى ايطاليا ، فعهد الى اخيه لوثير بحكومة مدينته صور . غير ان المجلس (البرلمان) في عكا أصدر أمراً الى لوثير في ٩ يونيه ١٢٤٣ بأن يسلم مدينة صور الى الوصيين . فلما رفض لوثير ، زحف على المدينة (صور) باليان ابلين وفيليب مونتفورت بقوات من البنادقة والجنويين . ومع ان لوثير جعل ايمانه في اسوار المدينة الضخمة التي نجحت في تحدي صلاح الدين نفسه ، فإن سكان المدينة كانوا قد سئموا فيلانجييري ، فأعربوا عن استجابتهم بأن فتحوا باب المدينة الخلفي القريب من البحر ، والمعروف باسم باب الجزارين ، وفي ليلة ١٢ يونيه ، تسلق باليان ورجاله الصخور زاحفين الى الباب الخلفي ، فدخلوا منه الى المدينة ، ثم فتحوا لحلفائهم الأبواب الرئيسية . وإذ احتلوا دور الاسبتارية والفرسان التيوتون ، اضحت المدينة في قبضة ايديهم ، باستثناء القلعة التي تقع الى

= اورد رواية فيليب نوفارا الذي زعم انه هو الذي اعد هذا الامر .
Estoire d'Eracles, II, p. 240.
Amadi, pp. 190 - 191.
Assises, II, p. 399.
Tafel - Thomas, Urkunden, II, pp. 351 - 389.
(اثبت رواية شاهد عيان من البنادقة اسمه مارسيليو جيورجيو) .

يشير فيليب نوفارا الى انه كان للبيازنة ممثلون في المجلس ، وهو امر غير محتمل ، نظراً لصداقتهم مع الامبراطور فردريك ، كما ان هذه الاشارة لم ترد في مصدر آخر . انظر :
La Monte, Feudal Kingdom, pp. 71 - 73.

الجنوب ، والتي لجأ اليها لوثير ، وكانت حصناً منيعاً ، وظلّ انصار الامبراطور يقاتلون عنها اربعة اسابيع ، غير انه حدث لسوء الحظ ان الطقس السيء ارغم السفينة التي كانت تقل فيلانجييري الى ايطاليا ، على ان تعود الى صور ، فهبط رتشرد فيلانجييري في ميناء صور دون ان يتوجس خيفة ، فوقع على الفور في قبضة اعدائه ، الذين حملوه مكبلاً في الاغلال الى باب القلعة ، وهددوا بشنقه ما لم تذعن الحامية . ولم يقبل لوثير الاستسلام إلا بعد ان شهد الحبل يلتف حول رقبة اخيه ، وعندئذ قبل ما عرضه المنتصرون من شروط هينة ، تقضي بالسماح للأخوين بأن يرحلا بحواشيهما وأمتعتهما ، فلجأ لوثير الى طرابلس حيث احسن بوهمند الخامس استقباله ، ولحق به في طرابلس توماس اكيرا . أما رتشرد فيلانجييري فإنه عاد بوازع من ضميره الى سيده الامبراطور فردريك الذي بادر بإلقائه في الحبس . وإذ اختفى فيلانجييري انتقلت الى ايدي الوصيين بصفة رسمية بيت المقدس وعسقلان ، فضلاً عن مدينة صور .

توقع رالف كونت سواسون ، عن ثقة وايمان ان السيطرة على المدينة المفتوحة سوف تكون للوصيين ، غير ان فيليب مونتفورت أراد ان تكون صور من نصيبه ، حتى يتيسر له تسوية حدود إقطاعه ، تبنين ، وسانده في ذلك الابليون . ولما اظهر رالف غضبه حين طلب مدينة صور ، أجاب البارونات في مرح ساخر انهم سوف يحتفظون بالمدينة في ذمتهم حتى يطمئنوا الى من تكون له . فأدرك رالف فجأة انهم لم يقصدوا إلا ان يجعلوا منه سيداً اسمياً . وإذ احسّ بالمهانة والامتعاض ، بادر بمغادرة الارض

المقدسة وعاد الى فرنسا . أما الملكة أليس التي علّمتها حياتها التي تبلغ خمسين سنة الصبر ، فإنها ظلت وصية حتى ماتت في سنة ١٢٤٦ [١] .

عقد معاهدة مع الصالح اسماعيل امير دمشق سنة ١٢٤٣ :

ولم يكن انتصار البارونات سوى انتصار للداوية على سياسة الاسبتارية الخارجية . فتقرر استئناف المفاوضات من جديد مع امير دمشق . إذ وقع منذ زمن قريب شجار بين الصالح ايوب سلطان مصر ، وبين الناصر داود امير الكرك ، وأقلق الصالح ايوب تخلي الفرنج عن مساندته . ولما اقترح الصالح اسماعيل امير دمشق ، بموافقة الناصر داود ، على الفرنج ان يجلو من ساحة المعبد المشايخ المسلمون الذين كفل لهم الامبراطور فردريك الثاني البقاء بها ، بادر الصالح ايوب الى ان يبذل للفرنج هذا العرض . وإذ برع الداوية الذين تولوا امر المفاوضات في الإيقاع بين الأمراء المسلمين ، استطاعوا ان يحصلوا منهم جميعاً على الموافقة بإعادة ساحة المعبد الى العقيدة المسيحية . وكتب مقدم الداوية ارمان بريجورد رسالة مثيرة الى اوربا في نهاية سنة ١٢٤٣ يقص فيها ما جرى التوصل اليه من نتيجة سعيدة ،

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 130 - 136.
Estoire d'Eracles, II, p. 420.
Tafel - Thomas, loc. cit.

لم يحصل البنادقة على ما يستحقونه من جوائز .

Assises, II, p. 401.

ليس للوصي شيء من الحقوق ، من الناحية القانونية ، على حصن من الحصون .

ويعلن ان طائفة الاسبتارية تعكف منذئذ على إعادة تحصين المدينة المقدسة . ويعتبر ذلك آخر انتصار دبلوماسي للفرنج في الشرق الادنى [1] .

وكتب الامبراطور فردريك الى رتشرد كرنوال ، على سبيل السخرية ، معلقاً على استعداد طائفة الداوية للتوصل الى تحالف مع المسلمين ، على حين أنهم أنكروا عليه ذلك [2] .

تشجع الداوية بما أحرزوه من نجاح ، فلما اندلعت الحرب بين الصالح ايوب والصالح اسماعيل ، في ربيع سنة ١٢٤٤ ، حرّضوا البارونات على ان يتدخلوا فعلاً الى جانب الصالح اسماعيل . وسبق ان انحاز الى الصالح اسماعيل ، كل من الناصر داود امير الكرك ، والمنصور ابراهيم ، امير حمص الصغير ، وقدم المنصور ابراهيم بنفسه الى عكا لإبرام المحالفة ، وليعرض على الفرنج بالنيابة عن الحلفاء نصيبهم في مصر ، حينما تحلّ الهزيمة بالصالح ايوب . وجرى استقبال الامير المسلم بكل مظاهر التشريف ، وتكفل الداوية بعظم الضيافة [3] .

على ان إنزال الهزيمة بالصالح ايوب لم يكن امراً بالغ السهولة . إذ انه عثر على حلفاء يفوقون الفرنج قوة وتأثيراً ، ذلك ان الترك الخوارزميين

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 122.
Makrizi, X, pp. 355 - 357.
Al - Aini, p. 197.
Matthew Paris, IV, pp. 289 - 298.

(٢) انظر : Matthew Paris, IV, p. 419.

(٣) انظر : Joinville, (ed. de Wailly), p. 290.

ظلوا منذ وفـاة ملكهم جلال الدين خوارزمشاه يجوبون الجزيرة وشمال الشام ، يشنون الغارات ويمارسون النهب أينما ساروا . وحاول حلف مؤلف من الامراء الايوبيين بالشام ان يضطبهم سنة ١٢٤١ ، فأنزل بهم هزيمة قاسية في معركة دارت بموضع ليس بعيداً من الرها . غير ان الخوارزمية أقاموا مراكز لهم في القرى الواقعة بين الرها وحرّان ، ولا زالوا مستعدين لأن يعرضوا خدماتهم على كل من يبذل لهم الارزاق [١] . وظلّ الصالح ايوب على صلة بهم فترة من الزمن ، فدعاهم اخيراً للاغارة على بلاد دمشق وفلسطين [٢] .

ضياع بيت المقدس نهائياً من أيدي الفرنج سنة ١٢٤٤ :

حدث في يونيه سنة ١٢٤٤ ان انساب الى بلاد دمشق فرسان الخوارزمية الذين يناهز عددهم الفاً من الرجال الأشداء ، يخربون البلاد ويشعلون الحرائق في القرى . وإذ كانت دمشق من القوة ما جعلتهم عاجزين عن مهاجمتها ، مضوا في سيرهم الى الجليل ، بعـد ان تجاوزوا مدينة طبرية التي استولوا

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 119.
Kemal ad - Din, (trans. Blochet), VI, pp. 3 - 6, 13.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 648 - 649.
Grousset, Histoire des Croisades, III, pp. 410 - 411.

(٢) انظر : Makrizi, X, p. 358.
Matthew Paris, IV, p. 301.
اورد ماثيو باريس رسالة فردريك الثاني ، الذي يؤنب فيها بارونات الشرق الفرنجي، لأنهم هم الذين تسببوا في قيام هذا الخلاف .

عليها ، ثم اتجهوا صوب الجنوب نحو بيت المقدس ، بعد ان اجتازوا نابلس . وأدرك الفرنج فجأة ما يحيق بهم من الخطر . فعجل بالمسير الى المدينة ، البطريرك روبرت الذي تم انتخابه منذ زمن قريب ، وبصحبته مقدما الداوية والاسبتارية فعززوا الحامية المرابطة في الاستحكامات التي فرغ وقتئذ الداوية من عمارتها ، غير انهم لم يجرؤوا على البقاء بها . على ان الخوارزمية اقتحموا المدينة في ١١ يوليه سنة ١٢٤٤ ، ووقع القتال في الشوارع ، غير انهم استطاعوا ان يشقوا لهم طريقاً الى دير الارمن المعروف بدير القديس يعقوب ، فأجهزوا على الرهبان والراهبات . ولقي حاكم المدينة الفرنجي مصرعه عند قيامه بهجوم من القلعة ، وهلك معه مقدم الاسبتارية . غير ان الحامية ظلت على مقاومتها . ولما لم تقدم نجدات من الفرنج استغاثت بالناصر امير الكرك ، أقرب الحلفاء المسلمين اليهم . على ان الناصر لم يكن يميل للمسيحيين ، وكره الحاجة الى التحالف معهم . ولذا حدث بعد ان ارسل من العساكر من حمل الخوارزمية على ان يبذلوا للحامية الامان بالمسير الى الساحل اذا سلّموا القلعة ، ان تخلى الناصر داود عما ينتظر الحامية من مصير . وفي ٢٣ اغسطس سنة ١٢٤٤ غادر المدينة حوالي ستة آلاف من المسيحيين ، من الرجال والنساء والاطفال ، وتركوها للخوارزمية . وبينما كان المسيحيون يتحركون على الطريق الى يافا ، تطلعت جماعة منهم الى الوراء ، فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة . وإذ اعتقدوا ان نجدة قد وصلت بوسيلة من الوسائل ، أصرّ عدد كبير منهم على الرجوع الى المدينة ، غير انهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة ، فهلك نحو الفين منهم ، ومن بقي على قيد الحياة ، تعرّض لهجمات قطاع الطرق من العرب ، أثناء سيرهم الى البحر ، فلم يصل الى يافا منهم سوى ثلثمائة رجل .

وبذا خرجت بيت المقدس نهائياً من ايدي الفرنج ، ولم يدخل ابوابها جيش مسيحي إلا بعد حوالي سبعة قرون . ولم يظهر الخوارزمية شيئاً من الرأفة بالمدينة ، فاقتحموا كنيسة القيامة ، ولم يرفض مغادرة المدينة إلا عدد قليل من القسس اللاتين المتقدمين في العمر ، الذين كانوا يحتفلون بإقامة القداس ، فلقوا مصرعهم مع من كان حاضراً من قسس المذاهب الدينية الوطنية ، ثم جرى اخراج عظام ملوك بيت المقدس من القبور وتحطيمها ، واشتعلت النيران بالكنيسة . وتعرضت الدور والدكاكين في جميع انحاء المدينة للنهب ، كما احترقت الكنائس . ولما اضحى جميع المكان قفراً موحشاً ، مضى الخوارزمية في انسيابهم ، فلحقوا بالجيش المصري في غزة [١] .

وبينما كان الخوارزمية ينهبون بيت المقدس ، كان فرسان الشرق الفرنجي يحتشدون خارج عكا ، فانحاز اليهم جيشا حمص ودمشق ، بقيادة المنصور ابراهيم امير حمص ، وقدم الناصر داود على رأس جيش الكرك . ثم شرعت القوات المتحالفة في المسير صوب الجنوب ، في ٤ اكتوبر سنة ١٢٤٤ ، وقد سلكت الطريق الساحلي . ومع أن الناصر داود وجيشه من البدو حرصوا على ان يكونوا في عزلة عن سائر القوات المتحالفة ، فالواقع ان الزمالة الكاملة قامت بين الفرنج والمنصور ابراهيم ورجاله .

---

(١) انظر : Chronicle of Mailros (Melrose), pp. 159 - 160.
Matthew Paris, IV, pp. 308, 338 - 340.
Ms. of Rothelin, pp. 563 - 565.
Makrizi, X, pp. 358 - 359.
Al - Aini, p. 198.

على ان الجيش المسيحي يعتبر اضخم جيش قذف بـه الشرق الفرنجي في ساحة القتال ، منذ يوم حطين الذي قرر مصير الفرنج . إذ تألف الجيش المسيحي من ستمائة فارس علماني بقيـادة فيليب مونتفورت ، سيد تبنين وصور ، ووالتر برين كونت يافا . وبعث الداوية والاسبتارية من رجـال الطائفتين ما يزيد على ثلاثمائة فارس ، بقيادة مقدمي الفئتين ، أرمان بريجورد ووليم شاتونيف . واشترك ايضاً في هذا الجيش المسيحي كتيبة من الفرسان التيوتون ، وأرسل بوهمند امير انطاكية ، من ابناء اعمامه يوحنا ووليم سيدي البترون ، ويوحنا سيد هام ، كندسطبل طرابلس . وصحب الجيش البطريرك روبرت ، ورافقـه رئيس اساقفة صور ورالف اسقف الرملة . واشترك في الجيش من السرجندارية والرجالة مـــا يتناسب مع عدد الجيش . والراجح ان القوات التي قادها المنصور ابراهيم تفوقت في عددها ، ولكنها تقاصرت في تسليحها ، وأمدّهم الناصر داود ، فيما يبدو بفرسان البدو .

معركة الحربية (غزة) سنة ١٢٤٤ :

اتخذ الجيش المصري موضعه امـام غزة ، بقيادة امير مملوكي صغير ، وهو ركن الدين بيبرس ، وتألف هـذا الجيش من خمسة آلاف من نخبـة العساكر المصرية ، فضلاً عن جموع الخوارزمية . ووقع الالتحام بين الجيوش المتعادية في يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٢٤٤ ، عند قرية الحربية ، المعروفة عند مؤرخي الحروب للصليبية باسم La Forbie ، والواقعة في السهل الرملي على مسافة بضعة اميال الى الشمال الشرقي من غزة . فبادر الحلفـاء الى عقد مجلس حرب ، فأوصى المنصور ابراهيم بأنه ينبغي البقاء بمكانهم ، على

ان يحصنوا معسكرهم ازاء كل هجوم من قِبل الخوارزمية ، وقدّر انـه لن يلبث الخوارزمية ان يزدادوا قلقاً ، لأنهم يكرهون مهاجمة كل موضع منيع ، وليس بوسع الجيش المصري أن يستغني عنهم فيما يشنه من هجوم . وقد يواتيهم الحظ الطيب فيبادر الجيش المصري بأكمله الى الانسحاب الى مصر . ووافقه عدد كبير من المسيحيين . أما والتر بريين فانه اشتدّ في الالحاح على القيام بهجوم مباشر ، إذ كانت قواتهم تفوق في العدد الجيش المصري ، وقـد حانت الفرصة للقضاء على تهديد الخوارزمية ، ولإذلال الصالح ايوب . فاتخذ والتر طريقه ، وتحرك الجيش بأكمله للهجوم . وكان الفرنج يؤلفون ميمنة الجيش ، بينما اتخذ الدماشقة ورجال حمص مواقعهم من قلب الجيش ، وكان الناصر داود في الميسرة .

وبينما كانت العساكر المصرية ترد هجوم الفرنج ، حمل الخوارزمية على المسلمين المخـالفين للفرنج ، وصمد في القتال المنصور ابراهيم وعساكره من حمص ، وحافظوا على مراكزهم ، ولكن عساكر دمشق لم تستطع ان تتحمل الصدمة ، فاستدارت وولت الأدبار ، وحذا حذوهم الناصر داود وجيشه . وبينما كان المنصور ابراهيم يشق طريقه للخروج ، تحول الخوارزمية فانقضوا على جنـاح المسيحيين فساقوهم الى القوات المصرية . واستبسل الفرنج في القتال ولكن دون جدوى . ففي ساعات قليلة تحطم كل جيشهم . ومن الذين لقوا مصرعهم مقـدم الداوية ومارشالهم ، ورئيس اساقفة صور ، وأسقف الرملة ، وسيدا البترون . ووقع في الأسر ، كونت يافـا ، ومقدم الاسبتارية ، وكندسطبل طرابلس . ولاذ بالفرار الى عسقلان ، فيليب مونتفورت والبطريرك ، ولحق بهما من بقي على قيـد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية ، منهم ثلاثة وثلاثون من الداوية ، وستة وعشرون

من الاسبتارية ، وثلاثة من الفرسان التيوتون . فأبحروا الى يافـا ، وجرى تقدير عدد القتلى بأنهم لم يقـــلوا عن خمسة آلاف قتيل ، والراجح انهم يزيدون على ذلك . ونقل نحو ثمانمائة اسير الى مصر [١] .

وبادر الجيش المصري المظفر بالزحف على عسقلان التي شحنها الاسبتارية بحامية عسكرية . وأثبتت استحكاماتها أهميتها وقيمتها ، إذ فشلت هجمات المصريين ، فقرروا فرض الحصار عليها . بعـد ان جلبوا السفن من مصر لمراقبة الساحل . وفي تلك الاثناء هرع الخوارزمية الى يافا يحملون كونت يافا الاسير ، وهددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية . غير ان الكونت الاسير صاح برجاله بأن يثبتوا في القتال . وكانت استحكامات يافا من المناعة ما يعجز الخوارزمية عن مهاجمتها ، فانسحبوا بأسيرهم الذي ابقوا على حياته ، على انه مات فيما بعد ، بعد شجار نشب بينه وبين امير مصري ، كان يلاعبه الشطرنج [٢] .

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, pp. 427 - 431.
Ms. of Rothelin, pp. 562 - 566.
Gestes des Chiprois, pp. 145 - 146.
Chronicle of Mailors, pp. 159 - 160.
Joinville, pp. 293 - 295.
Matthew Paris, IV, pp. 301, 307 - 311.
Makrizi, X, p. 360.
Abu Shama, II, p. 193.

(٢) انظر :
Joinville, loc. cit.
Amadi, pp. 201 - 202.

الواقع ان هزيمة غزة سلبت الفرنج كل مـا أحرزته لهم الدبلوماسية من مكاسب طارئة في عشرات السنين الاخيرة . إذ ليس من الراجح ان تصمد بيت المقدس والجليل لهجوم إسلامي خطير . غير ان الخسارة في القوة البشرية جعلت الشرق الفرنجي من العجز ما لم يجعله يدافع إلا عن المناطق الساحلية وبعض القلاع الداخلية المنيعة ، ولم يفق معركة غزة في كثرة الخسائر سوى معركة حطين ، ومع ذلك فقد كان بين حطين وغزة شيء من الاختلاف ، إذ ان صلاح الدين الذي أحرز النصر في حطين كان فعلاً سيداً على مصر والشام ، على حين ان الصالح ايوب سلطان مصر كان لا بدّ له ان يتغلب على خصمه في دمشق ، قبل ان يخاطر بالتخلص من المسيحيين ، وهذا الارجاء هو الذي أنقذ الشرق الفرنجي .

كان الخوارزمية يأملون في ان الصالح سوف يكافأهم على ما بذلوه له من مساعدة بأن ينزلهم في اراضي مصر الخصيبة . غير انه رفض السماح لهم باجتياز الحدود المصرية ، التي أقام بها عسكراً ليلاحظوا ان الخوارزمية لا زالوا بالشام . فاستدار الخوارزمية وأغاروا على فلسطين ، ومضوا في طريقهم حتى بلغوا أرباض عكا ، ثم تحركوا الى داخل البلاد لينحازوا الى المصريين في حصار دمشق . فالمعروف ان الجيش المصري بقيادة الامير معين الدين ، ساراً مجتازاً جوف فلسطين ، فحرم بذلك الناصر داود امير الكرك من كل بلاده الواقعة غربي نهر الاردن ، ثم وصلوا آخر الامر الى دمشق في ابريل سنة ١٢٤٥ ، فاستمر حصارهم لدمشق ستة شهور ، فأمر الصالح اسماعيل امير دمشق بقطع الجسور الـتي تحفظ مياه نهر بردى ، فأضحت الارض الواقعـة خارج أسوار دمشق مستنقعاً يتعذر اختراقه . غير ان الحصار الشديد الذي فرضه المصريون أثار قلق التجـار وأرباب

الحوانيت . وفي اوائــل اكتوبر سنة ١٢٤٥ قبل الصالح اسماعيل شروط الصلح ، فتخلى عن دمشق مقابل الحصول على إمارة باعتباره تابعاً ، تتألف من بعلبك وحوران . ولـما لم يظفر الخوارزمية بالمكافأة من قبل الصالح ايوب ، قرروا التخلي عنه ، ثم عرضوا في اوائل سنة ١٢٤٦ خدماتهم على الصالح اسماعيل ، وبفضل مساعدتهم عاد الصالح اسماعيل قاصداً دمشق فألقى الحصار على المدينة . وكان يأمل في ان ينحاز اليه امراء ايوبيون آخرون لقتال الصالح ايوب ، غير ان كراهيتهم للخوارزمية كانت أشد وأقوى . فأنفذ الوصي على حلب وأمير حمص ، جيشاً لإنقاذ دمشق ، بعد ان بذل لهما الصالح ايوب الاموال . فرفع الحصار الصالح اسماعيل وحلفاؤه من الخوارزمية ، وتوجهوا صوب الشمال فالتقوا في اوائل مايو سنة ١٢٤٦ بالجيش القادم لنجدة دمشق ، عنـــد موضع يقع على الطريق المؤدي من بعلبك الى حمص . فتعرّض الصالح اسماعيل لهزيمة ساحقة ، وحلّ الدمار بمعظم الخوارزمية ، فمن بقي على قيد الحياة منهم التمسوا لهم طريقاً الى الشرق ، وانحازوا الى المغول ، بينما جرى الطواف برأس زعيمهم في موكب ، في شوارع حلب . وابتهج جميع العالم العربي لاختفاء الخوارزمية ، وتأكد تملك الصالح ايوب لدمشق . وتحتم على الصالح اسماعيل ان يعود مرة اخرى الى إقطاعه في بعلبك ، واعترف الأيوبيون بشمال الشام بسيادة الصالح ايوب ، فأضحى بوسعه ان يوجه اهتمامه مرة اخرى الى الفرنج[1] .

(١) انظر :

Ibn Khallikan, III, p. 246.
Makrizi, X, pp. 361 - 365.
Abu Shama, II, p. 432.
Estoire d'Eracles, II, p. 432.

انتزاع عسقلان من الفرنج سنة ١٢٤٧ :

استولى جيش مصري في ١٧ يونيه سنة ١٢٤٧ على طبرية وقلعتها التي أعاد عمارتها حديثاً اودو مونتبليارد ، ولم يلبث ان احتل الجيش المصري بعدئذ جبل الطور وحصن شقيف ارنون . ثم تلى ذلك تحرّك الجيش لمنازلة عسقلان . وما شيّده هيو دوق برجنديا من استحكامات في عسقلان ما زالت في حالة جيدة ، ونزل بهـا حامية عسكرية قوية من الاسبتارية . وتقرر استقدام نجدة اخرى من عكا وقبرص ، فبادر هنري ملك قبرص بإرسال اسطول مؤلف من ثماني شواني تحمل مائة فارس ، بقيادة الصنجيل بلدوين ابلين ، الى عكا ، حيث أعدّ قومون المدينة بمساعدة النزلاء الايطاليين سبع شواني اخرى ، وخمسين سفينة خفيفة . وجلب المصريون اسطولاً مؤلفاً من احدى وعشرين شانية ، كان يحاصر المدينة ، ثم أبحر للقاء المسيحيين . غير ان الاسطول المصري صادف عاصفة هبّت فجأة على البحر المتوسط ، قبل ان يلتحم بالسفن المسيحية ، فقذفت العاصفة بسفن كثيرة الى الشاطىء ، فتحطمت . وما لم يغرق من سفن الاسطول المصري أبحرت راجعة الى مصر . وأضحى بوسع الاسطول المسيحي ان يقلع الى عسقلان دون ان يتعرّض لشيء من الهجوم ، فأمدّ الحامية بالمؤن ، وأنزل الفرسان الى البر . على ان المناخ استمر سيئاً ، ولم تستطع السفن ان تظل راسية قبالة البلد ، دون ان تلقى شيئاً من الحماية ، فعادت الى عكا ، بعد ان تركت عسقلان تواجه مصيرها . وتوقف نشاط الجيش المصري الذي يحاصر البلد (عسقلان) ، بسبب افتقاره الى الاخشاب اللازمة لآلات الحصار ، غير ان حطام السفن المتناثرة على امتداد الشاطىء ، أمدّهم بكل ما احتاجه الجيش من مواد . واستطاع كبش ضخم من أدوات الحصار ان

يشقّ له طريقاً تحت الاسوار يؤدي مباشرة الى داخل القلعة ، تدفق منه الجيش المصري في ١٥ اكتوبر سنة ١٢٤٧ الى داخل القلعة . أما المدافعون عن القلعة فأخذوا على غرة ، فلقي معظمهم مصرعهم على الفور ، ومن تبقى منهم وقعوا في الأسر . ووفقاً لأوامر السلطان الصالح ايوب ، تقرر تدمير الحصن ، فأضحى خراباً موحشاً [١] . ولم يواصل الصالح ايوب انتصاره ، بل قام بزيارة بيت المقدس ، وأمر باعادة عمارة أسوارها ، ثم غادرها الى دمشق حيث أقام بهـــا طوال شتاء سنة ١٢٤٨ ، وربيع سنة ١٢٤٩ ، وقدم عليه كل امراء الشام يبذلون له الولاء [٢] .

ساد الهدوء مملكة الشرق الفرنجي المتضائلة ، برغم خسائرها ، وافتقارها الى حكومة مركزية . إذ ماتت الملكة أليس سنة ١٢٤٦ ، وانتقلت الوصاية الى من يليها في وراثة المملكة ، وهو ابنها هنري ملك جزيرة قبرص ، برغم احتجاج اخت غـير شقيقة لها ، وهي ميليسند اميرة انطاكية . على ان الملك هنري الذي لم يكن له من الصفات ما يتميز بـه سوى بدانته

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 432 - 435.
Gestes des Chiprois, p. 146.
Annales de Terre Sainte, p. 442.
Al - Aini, p. 200.
Makrizi, X, p. 315.

(٢) انظر : Ibn Khallikan, loc. cit.

الشديدة ، لم يكن بالرجل الذي يفرض سلطته [1]. فقام الملك هنري بتعيين باليان ابلين نائباً عنه ، وأقر فيليب مونتفورت في حيازته لمدينة صور . ولما مات باليان في سبتمبر سنة ١٢٤٧ ، خلفه في النيابة عن الملك ، اخوه يوحنا سيد ارسوف ، وفي اقطاع بيروت ابنه يوحنا [2] .

وفي اقصى الشمال بذل بوهمند الخامس امير انطاكية وكونت طرابلس كل ما في وسعه من جهد ، كيما يبقى بعيداً عن امور جيرانه . وبفضل نفوذ زوجته الايطالية ، لوسين سيجني ، اضحى على علاقات ودية مع البابوية ، غير ان الاعداد الغفيرة من اقاربها وأصدقائها بروما الذين دعتهم للقدوم الى الشرق ازعجت بارونات انطاكية وسببت له المتاعب فيما بعد . والراجح انه بناء على طلب البابا ارسل كتيبة من قواته اشتركت في وقعة غزه الفاجعة . غير انه استطاع في الوقت نفسه ان يحافظ على علاقاته الودية مع الامبراطور فردريك الثاني ، فبذل لكل من لوثير فيلانجييري وتوماس اكيرا ملاذاً في طرابلس ، مما ازعج البابا ، غير انه رفض ان يقدم لهما مساعدة ايجابية . أما نزاعه مع مملكة ارمينيا فاستمر

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 146.
اورد موجزاً مغرضاً للحل .
Röhricht, Regesta, pp. 315 - 316.
Innocent IV, Registres, (ed. Berger), no. 4427, II, p. 60.
عهد البابا الى يود شاتوروه بأن يفحص دعوى ميليسند ، ثم سقطت الدعوى فيما بعد . انظر:
Röhricht, Gescichte des Konigreichs Jerusalem, p. 873, n. 3.
(٢) انظر : Annales de Terre Sainte, p. 442.
Amadi, p. 198.

بضع سنوات . وحاول عبثاً ان يقنع البابا بالموافقة على طلاق ايزابيللا الصغيرة وريثة بيت روبين من هيثوم ملك ارمينيا الجديد ، كما يحرم هيثوم من حقه الشرعي في ولاية العرش . غير ان البابوية منعت بصفة خاصة كلا من بوهمند الخامس امير انطاكية وكونت طرابلس ، وهنري ملك قبرص من مهاجمة الأرمن ، حينما كان هيثوم يوجه كل اهتمامه الى رد هجمات كيخسرو سلطان السلاجقة الأعظم ، فلم يكن بوسعه ان يكون معتدياً . على ان ما حدث سنة ١٢٣٧ من زواج ستيفاني اخت هيثوم بهنري ملك قبرص ، مهد الطريق رويداً رويداً الى مصالحة عامة [١] .

بطريركية الروم الكاثوليك في انطاكية سنة ١٢٤٥ :

لم يكن لبوهمند الخامس إلا سلطان ضئيل على الطوائف الدينية العسكرية المستقرة في بلاده ، غير انه اشتد حذر هذه الطوائف . إذ أن البابوية ، بموافقة بوهمند الخامس فيما يبدو ، غيّرت سياستها نحو الكنيسة الارثوذكسية بأنطاكية ، بان حاولت التوفيق بين قومون انطاكية وبين العنصر اليوناني القوي به ، وإذ كان من المستحيل وقتئذ ادماج اليونانيين واللاتين في كنيسة واحدة ، عرض البابا هونوريوس الثالث ان يكون لليونانيين كنيسة مستقلة في الداخل ، يكون لها هيئة اكليروس وشعائر خاصة بها ، طالما اعترف البطريرك اليوناني بالسلطة العليا للبابوية . فرفض رجال الدين اليونانيون هذا العرض ، والراجح ان هذا الرفض يرجع الى ما بذله بوهمند لهم سراً من تشجيع ، لأنه أدرك ان رجال الدين

---

(١) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 650 - 652.

اليونانيين سوف يكونون اكثر طواعيــة له . فهرع البطريرك سمعان الى المجمع المعادي للاتين الذي دعا الى عقده في تيميفايوم ، الامبراطور البيزنطي في نيقيه ، وتقرر فيه قطع البابا من الكنيسة . ولكن لما مات البطريرك سمعان حوالي سنة ١٢٤٠ ، اراد البطريرك داود الذي جاء من بعده ان يدخل في مفاوضات مع البابا ، ولعل ذلك يرجع الى انــه كان للأميرة لوسيين نصيب في تنصيبه بطريركاً . وفي سنة ١٢٤٥ ارسل البابا انوسنت الرابـع الى الشرق الراهب الفرنسسكاني لورنزو اورتا ، وزوّده بتعلـيمات تقضي بأن اليونانيين الذين يعترفون بالسيادة الكنسية للبابا ، سوف يكونون على قدم المساواة مع اللاتين في كل مكان . فليس مطلوباً منهم سوى ان يطيعوا الرؤساء اللاتين ، في كل مكان توافرت بــه سابقة تاريخية سليمة لذلك . وجرت دعوة البطريرك لأن يرسل بعثة الى روما على نفقة البابا لمناقشة مــا هو موضع نزاع من المسائل . وقبل البطريرك داود هــذه الشروط . وحوالي ذلك الوقت ارتحل الى فرنسا البرت البطريرك اللاتيني في انطاكية الذي لم يكن راضياً عن هذه التدابير ، ليشهد مجمعاً في ليون ، غير انه مات بها . ولم يتم تعيين البطريرك الجديد ، وهو اوبيزون فيشي ، ابن اخت البــابا إلا سنة ١٢٤٧ ، فقدم الى انطاكية في السنة التالية ، سنة ١٢٤٨ . وفي نفس الوقت كان داود هو البطريرك الوحيد الذي اقام في انطاكية . غير انه لما مات داود ، الذي لم يعرف تاريخ وفاته ، رفض خلفه ، يوثيميوس ، ما للبابوية من سيادة ، ولذا امر البطريرك اللاتيني اوبيزون بقطعه من الكنيسة ونفيه من المدينة (١) .

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 684 - 685.
Regista Honorii Papae, III, nos. 5570, II, p. 352.

والمعروف ان جانباً كبيراً من الكنيسة اليعقوبية خضع فعلاً لسلطة البابوية في روما ، ففي سنة ١٢٣٧ بينما كان بطريرك اليعاقبة بأنطاكية ، وهو اجناتيوس ، يزور بيت المقدس ، اشترك في قداس لاتيني ، فاتخذ رداء راهب دومنيكاني بعد ان أعلن أرثوذكسيته بالإيمان. وعند عودته الى انطاكية اصطحب معه كثيرين من اكليروسه ، وتقرر اخطار اللاتين رسمياً بأنه يجوز لهم ان يعترفوا امـام القسس اليعاقبة ، ما لم يتيسر العثور على قسس من اللاتين يتلقون الاعتراف . وفي سنة ١٢٤٥ قـام رسول بابوي ، اسمه اندرياس لونججيمو بزيارة اجناتيوس في ماردين ، حيث اتخذ مقره الاصلي ، فدارت بينهما المفاوضات عـن شروط ادمـاج الكنيسة اليعقوبيـة في الكنيسة اللاتينية . وأعرب اجناتيوس عن استعداده لقبول صيغة لفظية عن العقيدة والاستقلال الاداري ، مع الاعتراف بالسيادة المباشرة للبابوية ، غير ان اجناتيوس ، لسوء الحظ ، لم يتحدث إلا باسم حزب واحـد بالكنيسة اليعقوبية . إذ المعروف أنه قام فعلاً عداء بين اليعاقبة بشمال الشام وبين اليعاقبة في الاقاليم الشرقية والجنوبية ، الذين لم يعترفوا بالاتحـاد . وظل اتباع اجناتيوس اوفياء للاتين ، طوال حياته . فلما مـات سنة ١٢٥٢ ، اشتد الجدل حول من يليه في بطريركية اليعاقبة . على ان يوحنا اسقف حلب ، المرشح الذي يميل الى اللاتين انتصر مؤقتاً ، غير انـه ادرك ان

= لم يرد الدليل إلا من مصادر بابوية ، على الرغم من ان المؤرخ ابن العبري يشير الى رحـلة يوثيميوس الى بلاط المغول . انظر :

Bar Hebraeus, (trans. Budge), p. 445.

انظر ايضاً : « Lettres des Chretiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou », in Revue de l'Orient Latin, II, p. 213.

اصدقاءه اللاتين لم يبذلوا له تأييداً كافياً ، على حين ان منافسه ، دنيس ، الذي حلّ مكانه فعلا ، دأب باستمرار على معارضة اللاتين ، ولم يبق على الاتحاد إلا شطر صغير من كنيسة اليعاقبة ، اقتصر على طرابلس [1] .

فضائح كنيسة انطاكية سنة ١٢٥٢ :

وما بذل من جهد لتحقيق الاتحاد ، قام به اساساً الرهبان المبشرون من الدومنيكان والفرنسيسكان الذين بدأوا نشاطهم في الشرق عقب انشاء طائفتيهما مباشرة . إذ لم يلقوا لهم مجالاً كبيراً في مملكة بيت المقدس المحدودة ، غير ان نشاطهم اشتد بصفة خاصة في بطريركية انطاكية ، نظراً لأن البطريرك البرت كان راعيهم الذي تعلقوا به . ثم ازداد نزوعهم لأن يحلوا مكان رجال الدين (الاكليروس) النظاميين في الابروشيات المتناثرة في البطريركية . على ان العلاقات لم تكن طيبة بين البطاركة وطائفة الرهبان الششترپان التي نشأت حديثاً . إذ سبق لبطرس الثاني وهو رئيس دير ششترپان سابق ، ان انزلهم في ديرين ، الاول وهو دير القديس جورج بجوبين قرب انطاكية ، والآخر ، وهو دير بلمونت قرب طرابلس . غير ان ظهرت فضائح كثيرة اثناء بطريركية البرت ، ولم يستتب الأمن والنظام في الاديرة ، ولم تصلح سلطة البطريرك إلا بعد رفع ملتمسات عديدة الى روما [2] .

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 681 - 684.
وما ورد فيه من مراجع .

(٢) انظر : Cahen, op. cit. pp. 668 - 671, 680 - 681.

لم يحفل بوهمند الخامس إلا قليلا بهذه الاجراءات ، إذ قلّ ان زار انطاكية ، بعد ان اتخذ طرابلس مقراً له . وحدث في املاكه مثلما جرى في مملكة بيت المقدس ، ان حرصت عناصر السكان المختلفة على ان تنأى بعيداً عن المنازعات ، ولم يمنع اختفاءها وزوالها إلا ما وقع من مخاصمات بين الايوبيين ، وظهور قوة جديدة بالغة الخطورة اخذت تثير العالم الاسلامي ، ولم تكن هذه القوة سوى امبراطورية المغول .

الكتاب الثالث

المغول والمماليك

الفصل الاول

قدوم المغول

في سنة ١١٦٧ ، أي قبل عشرين سنة من استرداد صلاح الدين بيت المقدس للمسلمين ، وُلد طفل لزعيم مغولي اسمه يسوكاي وزوجته هويلون في مكان بالغ البعد يقع على شاطىء نهر أونون في شمال شرقي آسيا . اطلق على الطفل اسم تيموجين ، غير انه اشتهر في التاريخ باسمه الذي عُرف به فيما بعد ، وهو جنكيزخان (١) .

---

(١) عن حياة جنكيزخان ، انظر :

Howorth, History of the Mongols, I, pp. 27 - 115.

Grousset, L'Empire Mongol, 1ère phase, pp. 35 - 242.

L'Empire des Steppes, pp. 243 - 315.

Martin, Chingis Khan and his Conquest of Northern China.

اما المصادر الاصلية الاساسية فمنها :

Yûan Ch'ao Pi Shih. (يعتبر التاريخ الرسمي للمغول) .

Yûan Shing Wu Ch'in Cheng Lu.

لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل كانت تعيش بأعالي نهر آمور ، واستعرت الحرب الدائمة بينهم وبين جيرانهم النازلين الى الشرق منهم ، وهم التتار . والمعروف ان كابل خان ، جد يسوكاي نظم هذه القبائل في حلف مفكك ، غير ان مملكته تفككت بعد وفاته ، فاستطاع امبراطور كين في الصين الشمالية ان يوطد سيادته على كل المنطقة . ولم يرث يسوكاي إلا شطراً صغيراً من الحلف القـــديم ، غير انه زاد في سلطانه وذيوع شهرته ، ما أنزله من الهزيمة ببعض قبائل التتار وقهرها ، وما حدث من تدخله في امور خان الكرايث ، الذي يعتبر اعظم جيرانه المباشرين مدنية .

والكرايث شعب شبه بدوي ، ينتمي الى أصل تركي ، أقـــام بالاقليم الواقع حول نهر أورخون ، في أقصى اطراف منغوليا الحالية . وفي أوائل القرن الحادي عشر تحوّل ملكهم ومعظم رعاياه الى الديانة المسيحية على

= هذان المصدران جرت كتابتها اصلاً باللغـة المغولية ، ثم ترجما الى اللغة الصينية . على ان المصدر الاول في نصه المغولي ، اعيـد تقويمه وتم نشره في حروف لاتينية ، وقـام بترجمة جانب منه الى اللغة الفرنسية بلليو ، بعنوان :

Pelliot, L'Histoire Secrète du Mongols.

Rashid ad - Din, Jami at - Tawarikh.

والمعروف ان رشيد الدين ألف كتابه باللغة الفارسية ، ونشر كاترمير جانباً منه ، مع ترجمته الى اللغة الفرنسية ، على ان بريزين ترجم الكتاب كاملاً الى اللغة الروسية .

وما ارتبط بجنكيزخان من نصوص مغولية وصينية ، نشرها وترجمها الى اللغة الالمانية :

Haenisch : (« Die Letzten Feldzüge Cingis Hans und Sein Tod », in Asia Major, vol. IX) .

عن تاريخ ولادة جنكيزخان ، انظر :

Grousset, L'Empire Mongol, p. 53, n. 3.

المذهب النسطوري ، وأدّى تحوّل الكرايت الى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك الأويغور ، الذين كان من بينهم عـدد كبير من النساطرة وسبق للأويغور ان أقـاموا حضارة مستقرة في موطنهم في وادي نهر التاريم ومنخفض طورفان ، وابتكروا أبجدية للغة التركية ، استندت الى الحروف السريانية . وفي الازمنة المتقدمة سادت بينهم الديانة المانوية ، على ان المانويين نزعوا تحت تأثير الصينيين الى ان يتحولوا الى البوذية . ومع ان سلطان الأويغور أخذ في التداعي ، فان مدنيتهم امتدت الى الكرايث والنايمان ، نظراً لأن بلاد الأويغور تقع بين هذين الشعبين التركيين (١) .

وحوالي سنة ١١٧٠ مات كورياكوس‌خان الكرايث ، ابن ميرجوزخان ، وصادف ابنه طغرل بعض العقبات في الاستحواذ على ملكه ، إزاء معارضته اخوته وأعمامه . على انـــه ظفر في حروبه على اخوته وأقاربه بمساعدة يسوكاي الذي صار أخاً له بحكم ما تعاهدا عليه وأقسما من يمين . فهيأت هذه الصداقة ليسوكاي مكانة رفيعة بين زعماء المغول ، غير انه مات قبل

---

(١) عن القبائل التركية المغولية ، انظر :

Howorth, op. cit. I, pp. 19 - 26.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 1 - 32.
Martin, op. cit. pp. 48 - 58.
Pelliot, « Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient », in T'oung Pao, vol. XI.

وانظر عن الاويغور :

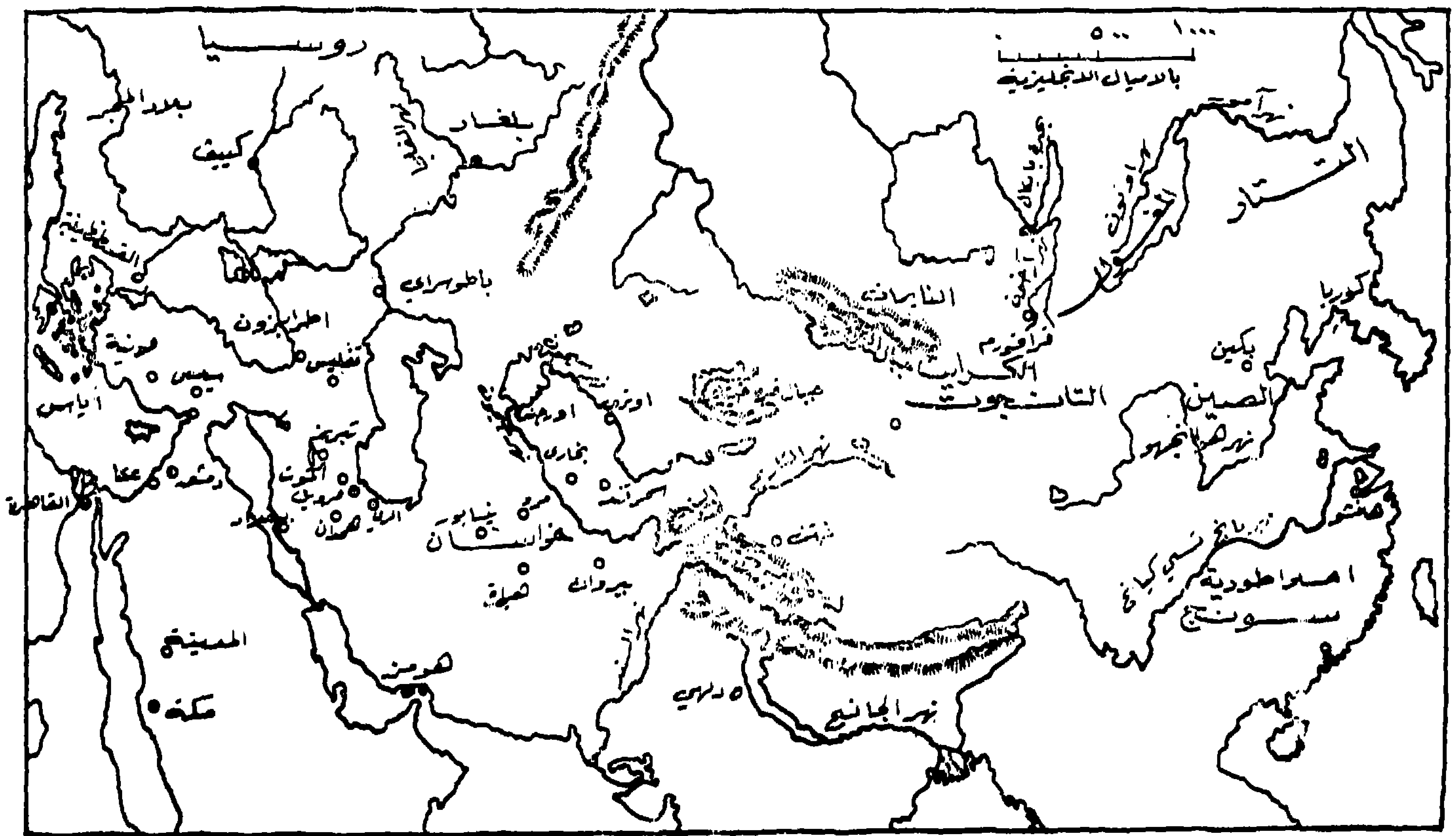
Bretschnieder, Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources, I, pp. 236 - 263.

ان يستقر خاناً أعظم للمغول ، إذ دسّ له السم بعض التتار الرحل الذين كان يشاركهم طعام العشاء ، ولم يتجاوز ابنه الاكبر تيموجين وقتذاك التاسعة من عمره [1] .

على ان ما اشتهرت به هويلون أرملة يسوكاي من النشاط حفظ لابنها الخان الصغير (تيموجين) قدراً من السلطان على قبائل ابيه . والواقع ان طفولة تيموجين كانت عاصفة ، ولكنه دلّ ، وهو لا زال صبياً ، على انه قائد ، فلم تأخذه رحمة ولا رأفة بمنافسيه ، ولو كانوا من أسرته . ففي أثنـــاء الحروب التي ظفر فيها بالسيادة على المغول وقع لفترة من الزمن أسيراً في أيدي قبيلة تايجيوت ، كما ان بؤركة التي تزوجها وهو في السابعة عشرة من عمره ، ظلت بضعة شهور في أسر الترك المركيت النازلين عند بحيرة بايكال ، ولذا حامت الشكوك حول شرعية بنوّة ولدها الاكبر جوجي ، الذي جرت ولادته أثناء أسرها . على ان توالي انتصارات تيموجين يرجع الى حد كبير الى تحالفه مع طغرل خان الكرايث الكبير ، الذي بلغ من محبته له انه اعتبره (تيموجين) والداً له ، وقد ساعده طغرل في حروبه مع المركيت . وحوالي سنة ١١٩٤ تم اختيار تيموجين ملكاً او خاناً على جميع المغول ، واتخذ اسم جنكيزي أي القوي . ولم يلبث ان تلى ذلك ، ان اعترف امبراطور كين بجنكيزخان ، خاناً أعظم على المغول ، وظفر بتحالفه لمناهضة التتار ، الذين كانوا يهددون الصين . وأدّت حرب خاطفة الى خضوع التتار لحكم جنكيزخان . ولما جرى طرد طغرل

---

(١) انظر : Yûan Ch'ao, Mongol text, pp. 10 - 14.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 48 - 54.



٣ - امبراطورية المغول

خان من عرش الكرايث ، سنة ١١٩٧ ، كان جنكيزخان هو الذي أعاده للحكم . ثم انحاز جنكيز خان بقواته سنة ١١٩٩ الى طغرل خان ، فأنزلوا الهزيمة بالنايمان الترك . غير ان جنكيز خان لم يلبث ان اشتدت غيرته من قوة الكرايث ، إذ أضحى طغرل اعظم الامراء في الاستبس الشرقية . كان معروفاً بلقب وانك خان ، او اونك خان ، الذي تسرّب الى سكان غرب آسيا في صيغة يوحنا ، التي كانت أكثر قبولاً ، وأيسر نطقاً عندهم ، وبذا رشحوه للدور الذي قام به بريستر يوحنا . على ان طغرل اشتهر بتعطشه لسفك الدماء ، والميل الى ارتكاب الخيانة ، وهما صفتان ليستا في شيء من الفضائل المسيحية ، كما انه لم يكن بوسعه ان يبذل المساعدة لرفاقه المسيحيين . وقع الشجار بينه وبين جنكيزخان سنة ١٢٠٣ ، ودارت اول معركة بينهما عند خلاخاليت ايليت ولكن لم تؤد الى نتيجة حاسمة . ولم تمض إلا بضعة أسابيع حتى جرى استئصال شأفة جيش الكرايث عند جيجر أوندور ، في جوف بلاد الكرايث ، فلقي طغرل مصرعه أثناء فراره التماساً للنجاة . ومن بقي على قيد الحياة من أفراد أسرته خضع لجنكيزخان ، الذي أضاف لملكه كل بلاد طغرل [1] .

ويعتبر النايمان ثانية الامم التي أخضعها لحكمه جنكيزخان سنة ١٢٠٤ بعد معركة عنيفة دارت في شقيرماوت ، حيث تعرّض مصير سلطان

---

(١) لعل خير رواية محدثة عن ارتقاء جنكيزخان العرش ، ما ورد في :
Martin, op. cit. pp. 60 - 84.

عن طغرل وشهرته بأنه بريستر يوحنا ، انظر :
Yule, Cathay and the Way Thither, III, pp. 15 - 22.

جنكيزخان للخطر . وما نشب في السنتين التاليتين من حروب ، وطّدت سيادة جنكيزخان العليا على كل القبائل النازلة بين حوض نهر التاريم ، ونهر آمور ، وسور الصين الكبير . وفي سنة ١٢٠٦ انعقد على شاطىء نهر اونون مجلس او قوريلتاي مؤلف من جميع القبائل التابعة له ، وأعلن موافقته على ما اتخذه جنكيزخان من اللقب الملكي ، فأعلن انه ينبغي ان تُعرف كل اقوامه في مجموعها باسم المغول .

تنظيم امبراطورية جنكيزخان سنة ١٢٠٦ :

تألفت امبراطورية جنكيزخان أساساً من جمع للعشائر ، فلم يحاول التدخل فيما كان للقبائل من نظام قديم يقوم على العشائر ، التي تخضع لزعماء يتوارثون رياستها . وكل ما فعله هو انه فرض اسرته ، المعروفة باسم ألتن اوروك ؛ أي العشيرة الذهبية ، وأقام حكومة مركزية يسيطر عليها رجال حاشيته وأصدقاؤه المخلصون ، وجعل للعشائر الحرة اعداداً كبيرة من الارقاء الذين اتخذهم من القبائل التي قاومته ، ثم قهرها ، ومنح اقاربه وأصدقاءه الألوف من الارقاء . ففي القوريلتاي الذي انعقد سنة ١٢٠٦ ، بذل لكل من امه هويلون وأخيه تيموجيه أوتشين عشر آلاف اسرة ملكاً له ، وجعل لكل من ابنائه الصغار خمس او ست آلاف اسرة . أما القبائل ، بل المدن التي خضعت دون قتال ، فإنه لم يتدخل في امرها بل تركها وشأنها ، طالما احترمت قوانيه ثقيلة الوطأة ، وأدت لجباة الضرائب ما طلبه من اتاوة باهظة . وكيما يربط اقاليمه معاً ، اصدر مجموعة قوانين وهي المعروفة بالياسة ، والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الاستبس . والياسة التي صدرت مجزءة طوال حكمه ، حددت ما لرؤساء

العشائر من حقوق وامتيازات ، وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات ، وقواعد نظام الضرائب ، فضلاً عن مبادىء القانون الجنائي والمدني والتجاري . ومع ان جنكيزخان يعتبر الطاغية الاكبر فإنه قصد ان يلتزم هو وأخلافه بالقانون (١) .

ولم يكد جنكيزخان ينظم ادارة امبراطوريته ، حتى شرع في مد رقعتها . اضحى لديه جيش ضخم ، اولى اهتماماً كبيراً بتنظيمه . إذ ان كل افراد القبيلة الذين يتراوح عمرهم بين الرابعة عشرة سنة والستين سنة يلتزمون بالخدمة العسكرية وفقاً للعرف المغولي والتركي . وما يجري في شتاء كل سنة من حملات الصيد ، اللازمة لمد الجيش والبلاط باللحوم ، ليست إلا مناورات للإبقاء على تدريب العساكر . ودأب رجال القبيلة بإرادتهم على ان يبذلوا لسادتهم الطاعة العمياء ، وأدرك سادة القبائل من التجربة المريرة انه لا بدّ لهم ان يطيعوا الخان . ولرعاياه ايضاً ، شأن كل القبائل البدوية ، شغف شديد بالتحرّك الى ما وراء الأفق ، فضلاً عن تخوّفهم من نفاد اراضي الكلأ والغابات ، ولذا امدهم الخان بأقاليم جديدة ، ومقادير ضخمة من الغنائم ، وجموعاً من الارقاء . كانوا يؤلفون جيشاً من الفرسان والرماة والرماحة ، امتطوا براذين سريعة العدو ، ودرج الرجال والافراس منذ الولادة على ممارسة الحياة القاسية ، والقيام بأسفار بعيدة عبر الصحاري ،

---

(١) انظر : Yule, op. cit. pp. 85 - 101.

وخص المصدر يوان شار معركة شقيرمارت بثلاثة فصول ، فزاد بذلك على ما جعله لأية معركة من معارك جنكيزخان . انظر :

Yûan Ch'ao, (SS. 194 - 196, pp. 68 - 72, Mongol text) .

ليس لديهم إلا قدر قليل من الزاد والماء . وهذا الارتباط بـين سرعة الحركة ، والنظام ، والاعداد الضخمة ، لم يكن معروفاً من قبل [1] .

وتاخم المغول وقتذاك ثلاث دول كبيرة : امبراطورية كين ، وتقع الى الشرق منهم ، وعاصمتها بكين ، ثم مملكة هسياهزي التانجوتية ، على امتداد الروافد العليـا للنهر الاصفر ، حيث حكمت اسرة من أصل تبيتي سكاناً مستقرين من اخـلاط المغول والترك والصينيين ، والى الجنوب الغربي من المغول تقع مملكة قره خيتاي ، المؤلفـة من بدو بوذيين من منشوريا ، طردهم من موطنهم أباطرة كين في أوائل القرن الثاني عشر ، فشقوا لهم طريقاً صوب الغرب ، وأقاموا امبراطورية على حساب الأويغور النازلين بحوض نهر التاريم ، والترك المسلمين في برقند وختن . وكان ملكهم كورخان يعتبر فعلاً عاملاً بالغ الأهمية في سياسات المسلمين الشرقيين ، وكان من أتباعه ايضاً الأويغور النازلون في طرفان . ونظراً لأن مملكة هسياهزي تعتبر أضعف الممالك الثلاث ، كانت اول ما تعرضت منها لهجوم جنكيزخان ، ولم يسع ملكها إلا ان يقبل سيادته في سنة ١٢١٢ . ثم توالت بعـدئذ غارات جنكيزخان على امبراطورية كين . ومـا نشب من سلسلة المعارك العنيفة ، جعل كل ذلك الجانب من الاقليم الممتـد حتى البحر الاصفر ، وشانتونج ، يدخل في سلطانه . على ان المغول لم يألفوا مهـاجمة المواضع المنيعة التحصين ، ولذا قاومتهم المدن الضخمة المسوّرة . ولم تبدأ جيوش

---

(١) عن الجيش المغولي ، انظر :

Yule, op. cit. III, pp. 11 - 47

جنكيزخان في تعلم فن الحصار في الحرب ، إلا حينما دخل في خدمته مهندس من مملكة كين اسمه ليو بو – لين . ولم تحل سنة ١٢٢٦ حتى خضع امبراطور كين ، فصار من أتباع جنكيزخان . وسبق ان حدث سنة ١٢٢١ ان انضم الى املاك جنكيزخان اقليم منشوريا التابع لأسرة كين ، كما اعترفت كوريا بالسيادة المغولية . فلما مات سنة ١٢٢٣ آخر امبراطور من اسرة كين ، دخل في نطاق الامبراطورية المغولية ما تبقّى من أقاليمه (١) .

في تلك الاثناء أمدّ جنكيزخان سلطانه نحو الجنوب الغربي ، وقد بلغت الامبراطورية الخوارزمية وقتذاك ذروة قوتها زمن محمد خوارزمشاه . بسط محمد خوارزمشاه سلطانه على كل آسيا ، من كردستان والخليج العربي الى بحر آرال وهضبة بامير ونهر السند . وإذ لقي كورخان قره خيتاي في محمد خوارزمشاه جاراً مثيراً للقلق ، حرص على ان يضايقه بتحريض اتباعه في اقليم ما وراء النهر على الخروج على طاعته . وما ترتب على ذلك من حروب ، اصابت قره خيتاي بالضعف الشديد ، فبينما استولى محمد خوارزمشاه على املاكهم الجنوبية وأضافها الى بلاده ، اغتصب عرش كورخان ، كجلك ، وهو امير من النايمان لجأ اليه . وكان كجلك مسيحياً نسطورياً بحكم ولادته ، ثم تحوّل الى البوذية بعد زواجه من اميرة خيتائية ، غير انه اختلف عن كورخان في أنه لم يتسامح مع رعاياه من المسيحيين والمسلمين . وهيأت كراهية الناس له الفرصة لتدخل جنكيزخان ، فلما

---

(١) انظر : Yule, op. cit. III, Chs. V-VII, passim.
حيث عالج بالتفصيل فتح المغول للصين .

انساب جيش مغولي في حوض طرفان ، لقي الترحيب على أنه قوة من المحررين ، فخضع الاويغور عن طيب خـاطر لحكم المغول ، بينما اقتصر مُلْك كجلك على إمارة صغيرة في وادي التاريم[١] .

محمد خوارزمشاه سنة ١٢١٨ :

ترتب على هـذا التوسع ، ان أضحى جنكيزخان على اتصال مباشر ببلاد الخوارزمية . ولم يكن محمـد خوارزمشاه بالرجل الذي يتسامح مع منافس يضارعه في الطموح . وتبادل الملكان ، جنكيزخان ومحمد خوارزمشاه ، السفارات فيما بينهما ، غير ان محمداً أحسّ بالإهانة حينما طلب جنكيزخان ، باعتباره خاناً على الشعوب التركية المغولية ، الى الامير الخوارزمي ان يعتبره سيداً عليه . وحدث سنة ١٢١٨ ان ارتحلت من منغوليا قـافلة كبيرة من التجار المسلمين وبرفقتهم مـــائة من المغول ، تقرر ارسالهم في سفارة خـاصة الى البلاط الخوارزمي . فلمـا بلغت القافلة مدينة اوترار الواقعة على نهر سيحون ، في أملاك محمد خوارزمشاه ، اجهز حاكم اوترار على المسافرين ، وسلب بضاعتهم ، التي جرى حمل نصفها الى محمد خوارزمشاه ، فلم يكن بوسع جنكيزخان ان يتجاهل هذه الإثارة . وإذ ادرك كجلك ان الحرب وشيكة الوقوع ، قرر ان يقوم بمغامرة لإحيـــاء مملكة قره خيتاي . على ان القائد المغولي جيب توجّه في حملة كبيرة لمطاردة كجلك

---

(١) عن محمد خوارزمشاه ، انظر :

Barthold, « Khivaresm », in Encyclopedia of Islam, pp. 220, 224.

عن كجلك ، انظر :

Martin, op. cit. pp. 103 - 104, 109 - 111.

وجيشه في داخل ممتلكاته ، واستطاع آخر الامر ان يصرعه في وادٍ بأعلى هضبة البامير [1] .

هزيمة الخوارزمية سنة ١٢٢١ :

وباختفاء كجلك ، أضحى جنكيزخان مستعداً للنهوض لقتال الخوارزمية. وكان ذلك مشروعاً بالغ الخطورة ، إذ كان بوسع محمد خوارزمشاه ، فيما يروى ان يدفع الى ساحة القتـــال نصف مليون رجل ، على حين ان جنكيزخان سوف يقـاتل على مسافة تبعـد عن بلاده الف ميل . ففي أواخر صيف سنة ١٢١٩ غادر جيش مغولي مؤلف من مائتي الف رجل ، معسكره عنـــد نهر ارتيش . وانحاز الى الخان اثناء سيره نحو الغرب أتباعه من الملوك ، مثل امير الأويغور . وإذ لم يتحقق محمد خوارزمشاه أين يوجّه المغول ضربتهم ، قسّم عساكره بين خط نهر سيحون وممرات فرغانه ، بينما أخذ ينتظر بمعظم جيشه في المدن الهامة بإقليم مـا وراء النهر ، امثال بخارى وسمرقند ، بينما توجّه الجيش المغولي رأساً نحو الحوض الأوسط لنهر سيحون ، فاجتاز النهر عند اوترار . وتولى جانب من الجيش المغولي حصار المدينة ، الذي استغرق زمناً غير قصير ، نظراً لأن المغول لم يزالوا يفتقرون الى الخبرة في اعمال الحصار ، بينما هبط جانب آخر من الجيش مع النهر لمهاجمة الجيش الخوارزمي على ضفتي نهر سيحون ، وسار جانب ثالث من الجيش مصعداً مع النهر ، لقطع الطريق على الجيش الخوارزمي

---

(١) انظر : Barthold, op. cit. pp. 397 - 399.
Martin, op. cit. pp. 230 - 233.

في فرغانة ، وزحف جنكيزخان بقواته الاساسية على بخارى ، فبلغها في فبراير سنة ١٢٢٠ ، فبادر السكان المدنيون على الفور بفتح ابوابها له . على ان الترك المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون بضعة ايام ، ثم لقوا مصرعهم عن آخرهم ، مع الائمـة المسلمين الذين شجعوهم على المضي في القتال . ثم تحرك جنكيزخان من بخارى الى سمرقند ، بينما انسحب محمد خوارزمشاه بعد ان فقد ثقته في عساكره ، الى عاصمته في اورجنده ، قرب خيوه ، على نهر جيحون . وإذ لحق بجنكيزخان ابناؤه في سمرقند ، بعد ان استولوا على اوترار ، بادرت الحامية التركية في سمرقند الى التسليم على الفور ، وكانت تأمل من وراء ذلك ان تنخرط في سلك جيش الغازي (جنكيزخان) ، غير انـه لم يثق في هؤلاء العساكر الذين لا يصبح الركون اليهم ، فأمر بإعدامهم جميعاً . وحاولت فئة قليلة من سكان المدينة (سمرقند) ان تنظم المقاومة ، غير انها باءت بالفشل ، ولقيت ايضاً مصرعها . وتلي ذلـك ان بعث جنكيزخان ابناءه لمنازلة اورجنده . واشتدت صلابة المدافعين عنها . وما وقع من منازعات بين ابناء جنكيزخان ، ارجأ سقوطها بضعة شهور . وفي تلـك الاثناء هرب محمد خوارزمشاه الى خراسان ، فطارده جيش مغولي بقيادة سبوتاي وجيب اللذين يعتبران اصدق قـادة جنكيزخان وأكثرهم ثقة عنده . غـير ان محمد خوارزمشاه افلت من مطارديه ، ولم يلبث ان مات كسير القلب ، وقد تخلى عنه رجاله ، وذلـك في ديسمبر سنة ١٢٢٠ بجزيرة صغيرة داخل بحر قزوين .

على ان قتالاً يفوق ما حدث شدة ، أنشبه جلال الدين بن محمـد خوارزمشاه الذي لحق بالجيش الخوارزمي في فرغانة ، ثم تقهقر الى افغانستان . فأنزل هزيمة ساحقة ، في بيروان الواقعة الى الشمال من جبال

هندوكوش ، بالجيش المغولي الذي جرى إنفاذه لقهره وتدمير قوته . أما جنكيزخان فعبر نهر جيحون ، واجتاز بلخ التي دانت له ، فأبقى عليها ، ومنها توجه الى باميان في جوف جبال هندوكوش . وامتنع الحصن عليه ، وفي أثناء الحصار لقي مصرعه حفيده موتوجين أحب الناس اليه ، فلما سقطت المدينة عنوة ، لم يبق على قيد الحيـاة احد من سكانها . وفي تلك الأثناء كان ابنه تولوي وصهره توقتشار يقاتلان في أقصى الغرب ، فاستوليا على مدينة مرو ، التي لم يبق على قيد الحياة من سكانها الذكور سوى أربعمائة من الصناع المهرة ، ثم سقطت في ايديها نيسابور حيث لقي مصرعه توقتشار ، وتعرضت لنفس المصير الذي تعرضت له مرو ، اذ تصدرت ارملة توقتشار بنفسها عمليـة القتل والذبح . وتقرر إرسال الصناع من المدينتين ، نيسابور ومرو ، الى منغوليا . وواصل جنكيزخان في خريف سنة ١٢٢١ سيره مخترقاً افغانستان لمهاجمة جلال الدين فحصره على ضفتي نهر السند . وتحطم الجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس ، دارت في ٢٤ نوفمبر سنة ١٢٢١ ، ولاذ جلال الدين بالفرار بعد ان اجتـاز نهر السند ، فالتجأ الى ملك دلهي ، أما أطفاله فوقعوا في أيدي جنكيزخان ، الذي أمر بالإجهاز عليهم .

أمضى جنكيزخان في افغانستان نحو سنة . على ان مدينة هراة الضخمة التي سبق ان دانت للمغول دون قتال ، لم تلبث ان أعلنت العصيان بعد انتصار جلال الدين في بيروان ، وظلّ الجيش المغولي يحاصرها شهوراً عديدة ، فلما سقطت في ايدي المغول في يونيه سنة ١٢٢٢ ، دارت مذبحة في كل سكانها الذين يبلغ عددهم مئات الالوف ، واستمر القتال اسبوعاً . أما المدن التي تخربت ، والاراضي التي خلت من النبات ، فتولى ادارتها

رجال من المغول ، يساندهم من العساكر ما يكفي لإخضاع السكان للنظام . ثم عاد جنكيزخان الى اقليم ما وراء النهر ، الذي كان يقلّ خراباً عن الجهات الاخرى ، فنصّب على اقليم ما وراء النهر حاكماً خوارزمياً ، اسمه مسعود يَلواج ، وجعل الى جانبه مستشارين من المغول ليراقبوه ويضبطوه . وأرسل محمود يلواج والد مسعود صوب الشرق ليحكم بكين ، ويعتبر ذلك من قبيل التشريف ، لم يكن الغرض منه سوى ان يزيـــد مسعود ولاء وإخلاصاً له . وعبر جنكيزخان نهر سيحون مرة اخرى في ربيع سنة ١٢٢٣ ، وأخذ يسير في بطء مجتازاً الاستبس الى ان بلغ نهر ارتيش في صيف سنة ١٢٢٤ ، ثم وصل في الربيع التالي الى موطنه على نهر تولا [١] .

على ان فتوح جنكيزخان العجيبة ، لم تجر دون ان يلحظها المسيحيون في سوريا ، اذ كان معروفاً انه هاجم اضخم دولة اسلامية في آسيا الوسطى (دولة خوارزمشاه) ، كما ان النساطرة الذين انتشرت كنائسهم عبر آسيا يستطيعون ان يؤكدوا انه لم يكره المسيحيين . ومع ان الخان (جنكيزخان) كان شامانياً ، فانه كان يميل الى استشارة رجال الدين المسيحيين والمسلمين ولاسيما المسيحيين منهم . إذ ان أبناءه تزوجوا من اميرات مسيحيات من الكرايث ،

---

(١) انظر : Browne, Literary History of Persia, II, pp. 426 - 440.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 31 - 46.
Bretschnieder, op. cit. I, pp. 276 - 294.
Yûan, Ch'ao, pp. 105 - 108.
Rashid ad - Din, (trans. Berezin), II, pp. 42 - 85.

كان لهن نفوذ كبير في بلاطه ، ولعله كان من الخير اتخــاذ جنكيزخان حليفاً للعالم المسيحي [1] .

المغول يبلغون جبال القوقاز سنة ١٢٢٢ :

تعرضت هذه الآمال لشيء من الاضطراب اثناء سنة ١٢٢١ ، إذ أن الجيش الذي أنفـذه جنكيزخان بقيادة سبوتاي وجيب للامساك بمحمـد خوارزمشاه ، اخفق في تحقيق غرضه المباشر ، فأفلت منهما محمد خوارزمشاه ، وعجّل بالعودة الى بحر قزوين . غير ان القائدين المغولين ، سبوتاي وجيب ، واصلا سيرهما نحو الغرب ، ففي صيف سنة ١٢٢٠ قاما بالاستيلاء ونهب مدينة الري ، الواقعة قرب مدينة طهران الحالية ، غير أنهما أبقيا على حياة معظم سكانها . ثم سقطت في ايديهما مدينة قم ، ولم يفلت احد من سكانها من القتل . وحل هـذا المصير بقزوين وزنجان ، امـا همدان فخضعت في الوقت المناسب ، فنجا اهلها من القتل بعد ان أدّوا فدية باهظة . واستطاع امير اذربيجان ان يدرأ الهجوم على تبريز بما بذله من الأموال ، وتجاوزه المغول في فبراير سنة ١٢٢١ ، لمهاجمة بلاد الكرج . وقـاد الملك جورج الرابع ابن الملكة تامار ، فرسان الكرج لمقاومة زحفهم ، غير انه تعرّض

---

(١) انظر : Registra Papae Honorii III, no. 1478, I, p. 565.
وكتاب البابا هونوريوس الثالث المؤرخ في ٢٠ يونيه سنة ١٢٢١ يشير الى القوات القادمة من الشرق لإنقاذ الارض المقدسة .
انظر ما ورد عن ديانة جنكيزخان في :
Martin, op. cit. pp. 310 - 311, 316 - 317.

لهزيمة ساحقة عند خناني ، جنوبي تفليس . وكانت كارثة لم ينهض منها مطلقاً جيش الكرج . غير ان الغزاة الظافرين (المغول) استداروا راجعين صوب الجنوب . إذ خرجت همدان على طاعتهم ، ولا بد من انزال العقوبة بها ، وفي الطريق الى همدان لنهبها وتدميرها ، لم يتوقفوا إلا كيما ينهبوا مراغة في اذربيجان . فأمضوا ما تبقى من السنة في شمال غربي فارس . ثم توجهوا من جديد الى الشمال في اوائل سنة ١٢٢٢ ، وبعد ان استباحوا الاقاليم الشرقية من بلاد الكرج ، وأنزلوا الهزيمة بالقوات التي توجهت لوقف تقدمهم ، مضوا في سيرهم على امتداد شاطىء بحر قزوين ، فاجتازوا دروب قزوين ، واتجهوا نحو بلاد القبجاق الواقعة بين نهري الفلجا والدون . فأسرع القبجاق الى التحالف مع القبائل النازلة شمالي جبال القوقاز ، من اللان واللكز ، غير أنه لما عرض سبوتاي وجيب على هاتين القبيلتين نصيباً من الغنيمة ، لم تتدخلا حينما سحق المغول القوقازيين ، وكان لا مفر للمغول ان يتحولوا لقتالهما عقب الفراغ من القوقازيين . وكان اللان واللكز يأملون في ان يبذلوا الرشوة للروس كيما ينهضوا لمساعدتهم ، غير ان جيشاً روسياً ضخماً بقيادة امراء كييف ، وجاليش ، وشرنيخوف ، وسمولنسك ، تحطم على ضفتي نهر كلكا ، قرب بحر أزوف ، ولكن القائدين المغوليين لم يواصلا انتصارهما ، بل نفذا الى بلاد القرم ، ونهبا المحطة التي اقامها الجنويون في صولدايا ، ثم انطلقا الى الشرق ، ولم يتوقفا إلا ريثما يدمران جيشاً لبلغار كاما ، وينهبان بلادهم . ثم لحقا بجنكيزخان مرة اخرى في أوائل سنة ١٢٢٣ ، عند نهر سيحون .

على ان ضحايا الغرب في هذه الغارة العنيفة كانوا يأملون في أنها ليست إلا ظاهرة طارئة ، وكارثة بغيضة لن تتكرر . أما جنكيزخان فإنه اظهر اغتباطه بقائديه ، سبوتاي وجيب ، إذ أنهما لم يجريا فحسب

استطلاعاً بالغ القيمة ، واكتشاف انه ما من جيش في غرب آسيا يستطيع ان يتصدى لهما ، بل انها ايضاً ، بتجردهما من الرحمة والشفقة ، أثارا في الأمم النازلة بتلك الجهات من الفزع والخوف ، ما يمنع أمة من الأمم من المخاطرة بالمقاومة ، اذا حان الوقت للقيام بغارة جدية [1] .

امتدت أملاك جنكيزخان ، عند وفاته سنة ١٢٢٧ ، من كوريا الى فارس ، ومن المحيط الهندي الى سهول سيبريا المتجمدة . وما من احد سواه اقام مثل هذه الامبراطورية بالغة الاتساع . ومن المستحيل ان نفسر ما حازه جنكيزخان من نجاح ، وفقاً لنظرية ما كان عند المغول من باعث اقتصادي حلهم على التوسع ، وكل ما يصح قوله هو أن المغول لم يكونوا إلا أداة صالحة لقائد يغوى التوسع . إذ يعتبر جنكيزخان صانع مصيره . على انه ظل دائماً رجلاً يكتنفه الغموض والخفاء . فمن ناحية المظهر كان جنكيزخان ، على حد ما يروى ، طويل القامة ، وافر النشاط ، كأن عينيه عينا القط . ومن المحقق انه كان من الناحية البدنية شديد الاحتمال والصبر ، ومن المؤكد ايضاً انه كان له من قوة الشخصية ما أثر في كل شخص اتصل

---

(١) انظر : Bretschnieder, op. cit. *I*, pp. 294 - 299.

وما اورده المؤرخون الروس من روايات عن هذه الحملة ، سادها الخلط والاضطراب . انظر :

Karamzin : History of the Russian Empire, (in Russian), *III*, p. 545.

Vernodsky, Kievan Russia, pp. 236 - 239.

The Novgorod Chronicle, (ed. Nasonov), p. 63.

يشير هذا التاريخ الى ان الله وحده هو الذي يعلم من أين قدم هؤلاء التتار ، والى أين توجهوا وساروا .

به او تعامل معه . أما براعته في التنظيم فكانت فائقة ، إذ عرف كيف يختار الرجال ، وكيف يفيد منهم . اشتهر باحترامه الصادق للعلم ، فكان دائماً مستعداً لأن يبقي على حياة كل عالم يظفر به ، غير انه لسوء الحظ لم تتهيأ الفرصة إلا لفئة ضئيلة من ضحاياه ، ليثبتوا جدارتهم او علمهم . اختار للمغول أبجدية الأويغور ، فوضع اساس ادب المغول . أما أمور الدين فاشتهر فيها بالتسامح ، والاستعداد لبذل المساعدة لكل مذهب ديني لا يتعارض مع سياسته . وحرص جنكيزخان على ان يقيم حكومة عادلة ترعى الأمن والنظام . فتطهرت الطرق من اللصوص ، وأدخل في دولته نظام البريد ، وبفضل تشجيعه ، ازدهرت التجارة ، فأضحى بوسع القوافل التجارية الضخمة ان تجتاز في اطمئنان قارة آسيا من اقصاها الى اقصاها . على انه تجرد من الرحمة والشفقة ، إذ لم يولِ اعتباراً لحياة الانسان ، ولم يحفل بآلام البشر ، إذ هلك في حروبه ملايين الابرياء من سكان المدن ، وشهد ملايين الفلاحين حقولهم وبساتينهم تتعرض للدمار والخراب ، فقامت امبراطوريته على تعاسة الناس وشقائهم [١] .

اوكيتاي يخلف جنكيزخان على الحكم سنة ١٢٢٧ :

هيأت وفاة الفاتح الكبير ، جنكيزخان ، للعالم الخارجي الفرصة للراحة . إذ لم تستقر ولاية الحكم في الامبراطورية إلا بعد ان مضى على وفاته ما

---

(١) اورد مارتن خلاصة طيبة عن اخلاق جنكيزخان وطباعه . انظر :
Martin, op. cit. pp. 1 - 10.

يقرب من سنتين . وبمقتضى عرف المغول كان للابن الاكبر وسلالته الحق في ولاية حكم الامبراطورية ، على حين ان للابن الاصغر الحق في الاحتفاظ بالوطن الاصلي للمغولي ، ومن واجبه ان يدعو المجلس العام (قوريلتاي) للانعقاد للتصديق على ولاية الحكم . غير ان جنكيزخان خالف هذا العرف ورشح للحكم ثالث ابنائـه ، اوكيتاي ، ليكون خليفته في السلطة العليا ، وتغاضى بذلك عن ابنه الأكبر ، جوجي ، الذي كانت شرعية بنوّته موضع نزاع ، فضلاً عـن ان سجل اعماله العسكرية والادارية لم يكن مقبولاً . أما ثاني ابناء جنكيزخان ، وهو جغتاي ، فكان جندياً لامعاً ، غير ان ما اشتهر به من المزاج الحـاد المتقلب ، جعله لا يصلح لأن يكون حاكماً صالحاً . ومع ان اوكيتاي حسبما اعتقد جنكيزخان ، لم يتوافر له من المواهب ما كان لأخويه ، فإن ما اتصف به من الصبر والكياسة ، يكفل له القدرة على معالجة اخوتـــه والاتباع . ومع ان تولوي اصغر ابناء جنكيزخان يعتبر فيما يبدو اقدر الاخوة واكفأهم ، فإنه ينقص من قدره ما درج عليه من الانغماس في المباذل . وباعتبار تولوي الامير المسئول عن عقد المجلس (قوريلتاي) ، كان محط الانظار في تقرير ولاية الحكم ، فأقنع زعماء العشيرة بـأن ينفذوا رغبات جنكيزخان . اضحى اوكيتاي الخان الأعظم ، فخصّ اقاربـــه بالإقطاعات الثقيلة ، فكان من نصيب اخوة جنكيزخان الاقاليم الشرقية حول نهـر آمور ومنشوريا ، واحتفظ تولوي لنفسه بأراضي الاسرة عند نهر اونون . أمـا املاك اوكيتاي الشخصية فشملت ما كان بأيدي الكرايت والنايمان من بلاد . والمعروف ان جوجي قـد مات ، غير ان ابناءه باطو وأوردا وبركه وشيبان ، حازوا الاقاليم الغربية حتى نهر الفلجا . ومع انـه اضحى للأمراء حقوق اوتوقراطية على رعاياهم ، فإنه كان لزاماً عليهم ان يطيعوا قانون المغول ، وأن يقبلوا ما

يصدر من قرارات عن حكومة الخان العليا ، التي اقامها اوكيتاي في قراقورم . ولم تتعرض وحدة الامبراطورية المغولية للضعف [١] .

لما عاد جنكيزخان بجيوشه الى منغوليا ، غادر جلال الدين خوارزمشاه مأواه في الهند ، فالتف حوله بقايا جيوش ابيه ، ولقي جلال الدين خوارزمشاه ترحيباً كبيراً في فارس ، على انه محرر البلاد من المغول ولم تحل سنة ١٢٢٥ حتى صارت له السيطرة على الهضبة الفارسية واذربيجان ، وفي سنة ١٢٢٦ غدت له السيادة على بغداد . وإذ اخذت مملكة جلال الدين خوارزمشاه تهدد الايوبيين ، صارت عاملاً بالغ الأهمية في سياسة الفرنج بالشام ، غير ان المسيحيين بأقصى الشمال لم يلقوا في جلال الدين إلا جاراً يفوق المغول في انزال الضرر . إذ انه اغار سنة ١٢٢٥ على بلاد الكرج ، فأرسلت اليه روسودان ملكة الكرج ، وشقيقة جورج الرابع ، ولم تكن متزوجة ، ولم تكن عذراء ، جيشاً لقتاله . والمعروف ان زهرة الفروسية الكرجية سقطت منذ اربع سنوات في معركة خناني ، كما ان عساكرها تعرضوا في سهولة ويسر للهزيمة ، في جارنهي ، الواقعة على الطرف الجنوبي لمملكتها . وإذ ولت الملكة الأدبار الى قطيس ، احتل جلال الدين تفليس عاصمة بلاد الكرج ونهبها ، فأضاف الى مملكته جميع وادي نهر كور . وما قام به الكرج من محاولة لاسترداد ما فقدوه من الاقاليم ، انتهت بكارثة حلت بهم سنة ١٢٢٨ . فأضحت مملكة الكرج قاصرة على املاكها الواقعة على البحر الاسود ، فلم تعد بالغة القيمة باعتبارها المعقل الواقع في الشمال

(١) انظر : Grousset, L'Empire Mongol, pp. 284 - 291.

الشرقي للعالم المسيحي ، وباعتبارها دولة تستطيع ان تتحدى المسلمين في آسيا الصغرى [1] .

على ان المغول عادوا الى الغرب بعد فترة ليست طويلة . اذ كان لا بدّ لهم اول الامر ان يسحقوا ثورة اسرة كين في الصين الشمالية . غير انــه حدث في اوائل سنة ١٢٣١ ان ظهر في فارس جيش مغولي ضخم بقيادة شورماجان ، فأفاد من ذكرى غارة المغول السابقة على هذا الاقليم ، فلم يصادف مقاومة أثناء مسيره من خراسان الى أذربيجان . فهرب أمامه جلال الدين الذي لم يلبث ان مات في احوال غامضة في كردستان . أما جنوده من الخوارزمية فاقتفوا أثره في الفرار ، ثم اجتمعوا من جديد في الجزيرة حتى يكونوا في الوقت الراهن بعيدين عن متناول الجموع المغولية . ومن ثم صاروا يؤجرون أنفسهم للأمراء الايوبيين المتنافسين ، حتى نزلت بهم الضربة القاصمة سنة ١٢٤٦ قرب حمص . فأضاف القائد المغولي شورماجان كل شمال فــارس وأذربيجان الى الامبراطورية المغولية ، وظلّ يحــكم هذا الاقليم من سنة ١٢٣١ حتى سنة ١٢٤١ ، من معسكره في موقان ، قرب بحر قزوين . ثم أغار شورماجان على بلاد الكرج . اذ ان المملكة

---

(١) انظر ترجمة حيــاة جلال الدين التي ألفها كاتبه النسوي ، ونشرها هوداس ، وأعـاد نشرها بالقاهرة حافظ حمدي .

Browne, op. cit. pp. 447 - 450.

d'Ohsson, Histoire des Mongols, *I*, pp. 255 - 259, 306.

Georgian Chronicle, (ed. Brosset), *I*, pp. 324 - 331.

عالج هذا المصدر ما أصاب بلاد الكرج من انهيار .

روسودان احتلت تفليس من جديد ، بعد زوال جلال الدين ، غير انها فرّت مرة اخرى الى قطيس فاستولى المغول على الشطر الشرقي من بلاد الكرج . على ان الكرج ، بعد ان انتهت شدائد وفظائع الفتح المغولي ، صاروا يؤثرون المغول على الخوارزمية ، لما اشتهرت به ادارتهم من الكفاية والقدرة . فأضحت الملكة رسودان نفسها ، سنة ١٢٤٣ من أتباع المغول ، بعد ان تم الاتفاق على ان يكون لابنها كل مملكة الكرج ، يحكمها تحت السيادة المغولية [١] .

على ان المسيحيين في أقصى الشمال لم تتوافر لهم الطمأنينة ، ففي ربيع سنة ١٢٣٦ ، احتشد جيش مغولي ضخم شمالي بحر آرال ، بقيادة باطو بن جوجي ، الذي شملت أملاكه تلك السهوب . وصحب باطو ، اخوته وأربعة من أبناء أعمامه ، كيوك ، وقاذان ولدا اوكيتاي ، وبايدار بن جغتاي ، ومونك بن تولوي . أما القائد الشيخ سبوتاي فكان رئيساً لأركان حرب الجيش . ولما فرغ الجيش المغولي من قمع القبائل التركية النازلة على نهر الفلجا ، زحف الى البلاد الروسية في خريف سنة ١٢٣٧ ، فاستولى عنوة على ريضان في ٢١ ديسمبر ، ودارت مذبحة هلك فيها اميرها وجميع سكان المدينة . ثم سقطت كولوماتا بعد بضعة ايام . وفي اوائل السنة الجديدة ، ١٢٣٨ ، هاجم المغول مدينة فلاديمير الكبيرة ، ولكنها لم تصمد للقتال إلا ستة ايام ، واقترن سقوطها في ٨ فبراير سنة ١٢٣٨ بمذبحة جماعية اخرى .

---

(١) انظر :
Browne, op. cit. *II*, pp. 449 - 450.
d'Ohsson, *III*, pp. 65 - 66.
Georgian Chronicle, *I*, p. 343.

وتعرضت سوذدال للنهب حوالي ذلك الوقت ، وتلى ذلك الاستيلاء وتدمير المدن الاخرى ، في روسيا الوسطى ، أمثال موسكو ، ويوربيف ، وجاليش ، وبريسلاف ، وروستوف ، وياروسلاف . وحدث في ٤ مارس سنة ١٢٣٨ ، ان حلت الهزيمة ، بالامير الكبير يوري ، سيد فلاديمير ، ولقي مصرعه على ضفاف نهر سيتي . ولم تلبث تفير وتورزوك ان سقطتا في ايدي المغول بعد المعركة ، وتقدم الغزاة فاجتازوا تلال فالداي ، قاصدين نوفجورود . وواتى تلك المدينة الحظ الطيب ، بأن امطار الربيع غمرت ما يحيط بها من المستنقعات . فانسحب باطو ، وأمضى ما تبقى من السنة في سحق ، آخر ما صادفه من المقاومة من قِبل القبجاق ، بينما قهر ابن عمه ، مونك ، اللان والقبائل النازلة بشمال القوقاز ، ثم قـام بغارة استكشافية حتى بلغ كيف .

غارة المغول على اوربا :

وقـاد باطو ، في خريف سنة ١٢٤٠ ، الجيش المغولي الرئيسي الى اوكرانيا ، فنهب شرنيجوف ، وبريسلافل ، واستولى عنوة على كييف في ٦ ديسمبر سنة ١٢٤٠ ، بعد ان استبسلت في الدفاع . وتعرض للدمار مقادير كبيرة من كنوزها العظيمة ، ولقي معظم سكانها مصرعهم ، على انه جرى الإبقاء على حياة ديمتري قائـد الحامية ، لشجاعته التي استرعت إعجاب باطو . ثم تحركت من كييف شعبة من الجيش المغولي بقيادة بايدر ابن جغتاي ، ومضت نحو الشمال الى بولندا ، فنهب ساندومير وكراكوف . فاستنجد الملك البولندي بالفرسان التيوتون النازلين على ساحل بحر البلطيق . غير ان جيوشهم المتحدة بقيادة هنري دوق سيليزيا تعرضت في ٩ ابريل لهزيمة ساحقة ، بعـد معركة عنيفة دارت رحاها في فاهلشتات ، قرب

ليبجنتز ، غير ان بايدر لم يجرؤ على ان يمضي نحو الغرب ، الى أبعد من ذلك . فاجتاح سيليزيا وخربها ، ثم توجه نحو الجنوب الى بلاد المجر ، بعد ان اجتاز مورافيا .

وفي تلك الأثناء ، مضى باطو وسبوتاي الى غاليسيا ، بعد ان ساقا امامهما جموعاً من الآبقين الذين استبد بهم الخوف ، وانتموا الى كل أقوام الاستبس . ثم اجتازا جبال الكربات الى سهل المجر . وقاد بيلا ملك المجر جيشه للقائهما ، غير انه حلت به هزيمة ساحقة في ١١ ابريل عند جسر موهي على نهر سايو . فتدفق المغول على بلاد المجر ، ونفذوا الى كرواتيا وواصلوا زحفهم حتى بلغوا سواحل بحر الادرياتي . وأقام باطو بضعة شهور في بلاد المجر ، ولعله أراد ان يضيفها الى الامبراطورية المغولية ، غير انه حدث في أوائل سنة ١٢٤٢ ان قدم عليه الرسل تحمل النبأ بأن الخان الكبير اوكيتاي مات في قراقورم في ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ (١) .

لم يكن بوسع باطو ان يكون بعيداً عن منغوليا ، عند تقرير ولاية الحكم . فالمعروف انه اشتد نزاعه ، اثناء الحملة الروسية ، مع ابني عمه ،

---

(١) انظر : Bretschneider, op. cit. *I*, pp. 308 - 334.

(استند بريتشنيدر الى المصادر الشرقية) .

Novgorod Chronicle, pp. 74 - 76, 285 - 288.

وردت احداث حملة المغول بالتفصيل في :

Strakosch - Grossman, Der Einfall den Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242.

Sacerdoteanou, Marea Invazie Tatara Si Sud - estul European.

كيوك بن اوكيتاي ، وبوري حفيد جغتاي . فانسحبا غاضبين ، وعادا الى وطنهما . ونهض اوكيتاي لمساندة باطو على ابنه ، الذي طرده وأرسله الى المنفى . أما كيوك ، اكبر ابناء الخان ، فـلا زال قوياً . ورشح اوكيتاي لولاية الحكم بعده ، حفيده شيريمون ، الذي مات ابوه كوشو ، وهو يقاتل الصينيين . على ان شيريمون كان شاباً لم يسبق له التجربة . ولما تولت الوصاية على العرش ارملة اوكيتاي ، خاتون توراكينا ، وهي اميرة تنتمي الى النايمان ، عزمت على الا يلي العرش سوى كيوك . فدعت الى عقد المجلس (قوريلتاي) . وعلى الرغم من اعتراف الامراء بسلطتها ، الى ان يتم تنصيب خان اكبر جديد ، فإنها لم تستطع ان تحمل امراء العصب ورؤساء العشيرة بقبول كيوك إلا بعد خمس سنوات ، وقد تولت ادارة الحكومة اثناء تلك السنوات . ومع انها اشتهرت بالنشاط ، فإنها كانت معروفة بالشراهة للمال . وعلى الرغم من انها كانت مسيحية بحكم ولادتها ، فإنها تعلقت بأحد المسلمين وهو عبد الرحمن الذي تناولته اسمار الناس وأحاديثهم ، بأنه هو الذي عجّل بوفاة اوكيتاي . وما اشتهر به عبد الرحمن من الفساد والنهم ، جعله بغيضاً عن جميع الناس ، غير انه ما من احد كان عنده من القوة مـا يكفي للتخلص من الوصاية [1] .

لم يكن باطو مستعداً للانغماس في مغامرات حربية في الغرب إلا بعد ان تحققت ولاية الحكم . إذ انه ابقى حاميات عسكرية في روسيا ، غير

---

(١) انظر : Grousset, op. cit. pp. 303 - 306.
Bar Hebraeus, (trans. Budge), pp. 410 - 411.

ان اوربا الوسطى حظيت بفترة راحة وهدوء . ولم يواصل المغول الزحف إلا في غرب آسيا ، حيث انفذت الوصية قائـداً كفئاً نشطاً اسمه بيجو ليكون حاكماً .

المغول في آسيا الصغرى سنة ١٢٤٢ :

حدث في اواخر سنة ١٢٤٢ ان غزا بيجو بلاد سلطان السلاجقة ، كيخسرو ، الذي كان وقتئذ بأقليم الجزيرة ، يسعى الى أن يضيف الى بلاده كل الاراضي التي خلت من سادتها وأمرائها بعد اختفاء جلال الدين خوارزمشاه . ففي اوائل الربيع سقطت ارزن الروم في ايدي المغول ، وحلّت بجيش السلطان هزيمة فادحة ، في ٢٦ يونيه سنة ١٢٤٣ ، عنـد صدغ ، قرب ارزنجان ، ثم زحف بيجو على قيصرية مازاكا . فـلم يسع السلطان كيكاوس إلا أن يعلن خضوعه ، ويقبل السيادة المغولية ، ولم يلبث جاره : هيثوم ملك ارمينية ، ان احتذى حذوه [١] .

كان من المتوقع ان يدبر أمراء العالم المسيحي في الغرب القيام باجراء مشترك لمواجهة هذا التهديد بالغ الخطورة . فحينما دمّر شورماجان سلطان الخوارزمية في فارس ، سنة ١٢٣٢ ، وتعرّض لتهديد المغول ، مقر قيادة

---

(١) انظر :
Ibn Bibi, (ed. Houtsma), IV, pp. 234 - 247.
Bar Hebraeus, (trans. Budge), pp. 406 - 409.
Vincent of Beauvais, Speculum Historiale, (Douai edition), XXX, pp. 147, 150.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 694 - 696.

طائفة الحشيشية في آلموت بجبال فارس ، فأوفد الحشيشية الرسل الى اوربا لتحذير المسيحيين ، والتماس النجدة منهم [1] . ولما تراءى للبابا جريجوري التاسع ان مصير اوربا الوسطى قد تقرر ، حثّ على اجراء محالفة كبيرة لإنقاذها . غير أن الامبراطور فردريك الثاني الذي انصرف وقتذاك الى غزو الإمارات البابوية بايطاليا ، رفض ان يتحول عن غرضه . فأصدر الاوامر الى ابنه كنراد ، الذي كان يحكم المانيا ، بأن يعبىء الجيش الالماني ، كما انه طلب المساعدة من ملكي فرنسا وانجلترا [2]. فلما انسحب المغول الى روسيا في السنة التالية ، عاد العالم المسيحي في الغرب الى اوهامه وأفكاره الكاذبة . إذ أن اسطورة بريستر يوحنا التي اسهمت في ذيوع ما انطوت عليه الرؤيا من اعتقاد بأن الخلاص سوف يجيء من الشرق ، تركت طابعاً قوياً . فما من احد تريث كيما يفكر في انه اذا كان وانك خان ملك الكرايت هو يوحنا الذي يكتنفه الغموض ، فليس من الراجح ان يؤدي قاتله نفس الدور المنسوب اليه . إذ ان كل فرد كان يؤثر ان يتذكر بأن المغول قاتلوا المسلمين ، وبأن الاميرات المسيحيات تزوجن في الأسرة الامبراطورية . فقد لا يكون خاقان المغول الاكبر مسيحياً ، وقد لا يكون

---

(١) انظر : Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », in Revue de l'Orient Chrétien, vol. XXIII, pp. 238 ff.

(٢) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, V, pp. 360 - 841, 921 - 985.

(وردت به مجموعة من الرسائل عن الخطر المغولي) .

فعلا بريستر يوحنا ، غير انه كان مأمولاً ان يوطن نفسه على الحرص على مساندة العقيدة المسيحية إزاء قوى الاسلام . على ان ظهور حليف قوي في الشرق ، جعل الفرصة فيما يبدو ناضجة للدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وكان المحارب الصليبي المتحمس جاهزاً ، في متناول اليد[1] .

---

(١) انظر : Pelliot, loc. cit.
Martinescou, « Le Prêtre Jean », in Bulletin de la Section Historique de l'Academie Roumaine, vol. X.
Langlois, La Vie en France au Moyen Age, vol. III, pp. 44 - 56.

الفصل الثاني

القديس لويس

في ديسمبر سنة ١٢٤٤ وقع لويس التاسع ملك فرنسا فريسة لحمّى الملاريا التي كادت تودي بحياته . وإذ أشرف على الموت ، نذر انه اذا أبلّ من مرضه ، فسوف يخرج في حملة صليبية . على انه نجا من الموت ، ولم يكد يستردُّ صحته ، حتى شرع في إعداد الحملة . كان الملك وقتذاك في الثلاثين من عمره ، طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، أشقر الشعر والبشرة يعاني دائماً مرضاً جلدياً erysipelas والأنيميا ، غير ان أخلاقه لم تفتقر ابداً الى القوة . وما اتصف به من قوة الضمير والفضيلة لم يضارعه فيها إلا قلة من البشر . وأحسّ لويس ، باعتباره ملكاً ، بأنه مسؤول امام الله عن سعادة شعبه . فليس لأحد من رجال الكنيسة ، ولو كان البابا نفسه ، ان يحول بينه وبين واجبه . فاعتبر من واجبه ان يقيم حكومة عادلة . ومع انه ليس مبتدعاً ، وأن ضميره حمله على مراعاة ما لأتباعه من حقوق إقطاعية ، فانه توقع من هؤلاء الأتباع ان يؤدوا واجبهم ، فاذا فشلوا ، فلا بد من انتقاص سلطاتهم . هذا التعلق الشديد بالواجب أكسبه إعجاب

الناس به ، ومنهم خصومه . وزاد في هذا الإعجاب ما اشتهر به من الورع والتقوى والتواضع ، فضلاً عما انفرد به من التقشف . أما مقياس الشرف عنده فكان رفيعاً عالياً ، فلم ينقض مطلقاً عهداً قطعه على نفسه . ولم تأخذه الرحمة والشفقة بمن يرتكبون الاذى . على انه كان فظاً وقاسياً في علاقاته مع الملحدين والكفار . ولمس اصدقاؤه المقربون ما حفل به حديثه من الرقة والعذوبة ، وما اتصف به من الدعابة اللطيفة ، غير انه كان يحرص على الابتعاد عن وزرائه وأتباعه . ويعتبره أبناؤه سيداً مستبداً ، أما زوجته الملكة ، مرجريت بروفانس ، فكانت فتاة مرحة ، شديدة الاعتزاز بنفسها ، غير انه روّضها على ان تتخذ من السلوك ما يجعلها جديرة بأن تكون زوجة قديس[1] .

وفي ذلك العصر ، الذي ظفرت فيه الفضيلة بإعجاب الناس ، وقلما تحققت فيه الفضيلة ، فاق الملك لويس كل اقرانه من الملوك والأمراء . ولذا كان من الطبيعي ان يعرب لويس عن رغبته في المضي الى الحرب الصليبية . وما حدث فعلاً من تعلق لويس بالحركة الصليبية تلقاه الناس بالارتياح والسرور ، إذ اشتدت الحاجة وقتذاك الى حملة صليبية . حدث في ٢٧ نوفمبر سنة ١٢٤٤ ، عقب معركة غزة ، أن ابحر من عكا ، جاليران اسقف بيروت ، كيما ينهي الى امراء الغرب ، بالنيابة عن روبرت بطريرك بيت المقدس انه لا بد من ارسال امداد ، حتى لا تتعرض المملكة بأسرها للفناء . وفي

---

(١) تجلت طباع لويس في ترجمة حياته التي كتبها كل من جوانفيل ، ووليم نانجيس ، ووليم سانت باثوس ، الذي تلقى الاعتراف من الملكة مرجريت ، والترجمة الاخيرة ، وهي التي كتبها وليم سانت باثوس ، لم يكن المقصود منها إلا تبرير تطويبه وتقديسه .

يونيه سنة ١٢٤٥ عقد البـابا انوسنت الرابع ، الذي طردته من ايطاليا قوات الامبراطور فردريك الثاني ، مجمعاً في مدينة ليون الامبراطورية ، للتشاور فيما ينبغي اتخاذه لكبح جماح فردريك . ولحق بالبابا في ليون ، الاسقف جاليران وألبرت بطريرك انطاكية . والواقع ان البـابا انوسنت استاء من الملك لويس ، الذي أصرّ على ان يرفض إقرار كل مـا اتخذه البابا من اجراءات ازاء الامبراطور ، غير انـه عند سماع البابا ما جلبه الاسقف جاليران من الشرق من تقرير قاتم ، أقرّ عن طيب خاطر مـا بذله الملك لويس من وعود للقيام بحملة صليبية ، وأرسل الكاردينال اودو ، اسقف فراسكاتي للدعوة الى حملة صليبية في جميع انحاء فرنسا[١] .

استغرقت استعدادات الملك ثلاث سنوات . إذ تقررت جباية ضرائب استثنائية للانفاق على الحملة ، ولم يعف من أدائها رجال الدين ، ممـا أثار غضبهم . وكان لا بد من تنظيم حكومة البلاد . فتقرر ان تتولى الوصاية مرة اخرى ، الملكة الوالدة بلانش التي ثبتت كفايتها وقدرتها على الحكم ، اثناء حداثة ابنها العاصفة . وكان لزاماً على الملك لويس ان يحلّ بعض المشاكل الخارجية . فلا بد من اقناع ملك انجلترا بالمحافظة على السلام ،

---

(١) انظر : Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, V, 2, pp. 1635, 1651 - 1653, 1655 - 1661.
Ms. of Rothelin, pp. 566 - 567.
Joinville, ed. Wailly, p. 37.
William of Saint - Pathus, pp. 21 - 22.
William of Nangis, R. H. F. vol. XX, p. 352.

اثناء غيابه في الحرب الصليبية [١] . اما العلاقات مع الامبراطور فردريك فكانت بالغة الدقة ، فالمعروف أن الملك لويس حظي بتقدير الامبراطور فردريك وامتنانه ، لما التزمه من الحياد الدقيق في النزاع بين البابوية والامبراطورية ، غير انه كان لزاماً عليه في سنة ١٢٤٧ ان يهدد بالتدخل حينما اقترح فردريك على حلفائه ان يهاجموا البابا ذاته في ليون . يضاف الى ذلك ، ان فردريك كان والد كنراد الملك الشرعي لبيت المقدس ، فليس للملك لويس ان يدخل بلاد كنراد إلا بعد الحصول على اذن منه . ويبدو ان المبعوثين الفرنسيين اوقفوا الامبراطور فردريك ، فيما يبدو ، على الحملة التي نوى الملك لويس القيام بها ، وأن الامبراطور فردريك نقل خبرها الى سلطان مصر ، على الرغم من إظهار عطفه عليها . وكان لا بد ايضاً للملك لويس ان يلتمس السفن اللازمة لنقل الحملة الصليبية الى الشرق . فوافقت جنوه ومرسيليا ، بعد مفاوضات جرت معها على ان تمدّا الحملة بما تحتاجه من السفن . اما البنادقة الذين جزعوا فعلاً لكل خطة ترمي الى قطع علاقاتهم التجارية الطيبة مع مصر ، فقد زاد في كراهيتهم ما حدث [٢] .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 41 - 42.
William of Nangis, loc. cit.
Powicke, King Henry III and the Lord Edward, I, p. 239.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. V, 2, pp. 1681 - 1683.
Al - Aini, p. 201.
يشير العيني الى ان الامبراطور فردريك حذر السلطان .

الملك لويس يبحر من ايج مورتز سنة ١٢٤٨ :

وجرى آخر الأمر ، ان غـادر الملك لويس باريس ، في ١٢ اغسطس سنة ١٢٤٨ ، ثم ابحر في ٢٥ اغسطس من ايج مورتز قاصداً جزيرة قبرص وصحبه في الرحيل ، الملكة وإثنان من اخوته ، هما روبرت كونت ارتوا ، وشارل كونت انجو ، ثم سار في اثره ابنا عمه هيو دوق برجنديا ، وبطرس كونت بريتاني ، وكلاهما كانا من المحاربين الصليبيين سنة ١٢٣٩ ، وتلاه ايضاً هيو العاشر لوزجنان ، كونت لامارش ، وزوج والدة الملك هنري الثالث ، الذي اشترك وهو شاب ، في الحملة الصليبية الخامسة ، وكذا وليم دامبيير كونت فلاندر ، وجاي الثالث كونت سانت بول ، الذي اشترك ابوه في الحملتين الصليبيتين الثالثة والرابعة ، ويوحنا كونت ساربروك وابن عمـه يوحنا جوانفيل ، صنجيل شامبانيا ، وهو مؤرخ الحملة ، فضلاً عن عدد كبير من صغار السادة . واستقل فريق منهم السفن في ايج مورتز ، بينما استقلها فريق آخر من مرسيليا . أما جوانفيل وابن عمه ، بفرسانها ، البالغ عددهم ثمانية عشر فارساً ، لكل منهما تسعة فرسان ، فاستأجرا سفينة خاصة من مرسيليا [١] .

واقتفى اثره جماعة من العساكر الانجليزية بقيادة وليم ايرل ساليسبوري حفيد هنري الثاني ، وروزاموند الاشقر ، كما ان سادة آخرين من الانجليز سبق لهم ان اعدوا انفسهم للحاق بالحملة الصليبية ، غير ان الملك هنري

---

(١) انظر : Joinville, pp. 39 - 40, 43 - 46.
Matthew Paris, V, pp. 23 - 25.

الثالث لم يشأ ان يفقد خدماتهم ، فأوعز الى البابا ان يمنعهم من المسير . وقـــدم من اسكتلندة باتريك ايرل دنبار ، الذي مات في مرسيليا اثناء رحيله [1] .

وصل الاسطول الملكي الى ليماسول في ١٧ سبتمبر سنة ١٢٤٨ ، فهبط اليها الملك والملكة في صبيحة اليوم التالي . وفي اثناء الايام القليلة التالية ، اجتمعت في قبرص العساكر التي تؤلف الحملة الصليبية . وبالإضافة الى النبلاء الذين جاءوا من فرنسا ، قدم الى قبرص ايضاً ، من عكا نائب مقدم الاسبتارية يوحنا روناي ، ومقدم الداوية ، وكثير من بارونات سوريا . فاستقبل هنري ملك قبرص جميع القادمين بكل مظاهر الضيافة والمودّة [2] .

ولـــا جرت مناقشة خطة الحملة ، وافق الجميع على ان تكون مصر

---

(١) انظر : Matthew Paris, IV, pp. 628 - 629.
V, pp. 41, 76.

على ان عدداً كبيراً من المحاربين الصليبيين الانجليز تحللوا من عهودهم بما بذلوه من اموال . انظر : Matthew Paris, V, pp. 73 - 74.

وأراد سيمون مونتفورت ان يتوجه مع الصليبيين ، غير ان الملك هنري الثـــالث منعه من ذلك . انظر : Powicke, op. cit. I, p. 214.

ولاح الامل بأن يقدم هاكون ملك النرويج في جماعة من العساكر . انظر :
Matthew Paris, IV, pp. 650 - 652.

وورد اشارة الى وفاة باتريك دنبار في :
Estoire d'Eracles, II, p. 436.

(٢) انظر : Joinville, pp. 46 - 47.
Gestes des Chiprois, p. 147.

الهدف الذي تقصده . إذ كانت مصر اخصب اقاليم الامبراطورية الايوبية ، وأيسرها منالاً عند الهجوم ، وتذكر الرجال كيف ان السلطان كان يود اثناء الحملة الصليبية الخامسة ان يتنازل عن بيت المقدس مقابل جلاء الفرنج عن دمياط . ولما تمّ اتخاذ القرار ، اراد لويس ان يشرع على الفور في الاعمال الحربية . غير ان مقدمي الاسبتارية والداوية وبارونات سوريا اثنوه عن عزمه . إذ لن تلبث العواصف الشتوية ان تهب ، وسوف يصير من الخطر الاقتراب من شاطىء الدلتا ، بما زخرت به من جسور رملية ، لا يصح الاطمئنان اليها ، فضلاً عن ندرة المواني . يضاف الى ذلك انهم كانوا يأملون في ان يقنعوا الملك بالتدخل فيما شجر بين الايوبيين من منازعات اسرية . ففي صيف سنة ١٢٤٨ عمد الناصر يوسف امير حلب الى طرد ابن عمه الاشرف موسى من حمص ، فاستنجد الامير المعزول بالسلطان الصالح ايوب ، الذي قدم من مصر ، وأنفذ جيشاً لاسترداد حمص . وكان الداوية قد دخلوا فعلاً في مفاوضات مع السلطان ، فاقترحوا عليه انه اذا تنازل للفرنج عن بعض الاراضي ، فإنه سوف يفوز منهم بقوات اضافية . غير ان الملك لويس لم يكن لديه ما يدعوه للاهتمام بهذه الخطة ، إذ انه لم يختلف عن سائر الصليبيين الزائرين في القرن السابق ، في انه لم يقدم إلا لقتال المسلمين ، لا للانغماس في الدبلوماسية . فأمر الداوية بأن يقطعوا مفاوضاتهم مع السلطان الصالح ايوب [١] .

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 47, 51, 52.
William of Nangis, pp. 367 - 369.
Abu'l Feda, p. 125.
Makrizi, X, pp. 198 - 199.

بيان دل كاربيني وسفارته الى المغول ١٢٤٥ – ١٢٤٧ :

على ان المحاذير التي منعت الملك لويس من الوصول الى اتفاق مع المسلمين لم تطبق على المغول الوثنيين . وتوافرت له سابقة سليمة . ففي سنة ١٢٤٥ عزّز البابا انوسنت الرابع جهوده لإنقاذ العالم المسيحي في الشرق الادنى ، بأن أنفذ سفارتين الى منغوليا ، الى بلاط الخان الكبير . فغادرت السفارة الاولى برئاسة الراهب الفرنسيسكاني يوحنا بيان دل كاربيني ، ليون في ابريل من تلك السنة ، وبعد ان أمضت خمسة عشر شهراً في اجتياز روسيا وسهول آسيا الوسطى ، وصلت الى المعسكر الامبراطوري في سيرا اوردو الواقع قرب قراقورم ، في اغسطس سنة ١٢٤٦ ، في الوقت المناسب ، كيما تشهد انعقاد المجلس (قوريلتاي) الذي انتخب كيوك خاناً كبيراً . وأحسن كيوك استقبال رسول البابا ، نظراً لكثرة عدد النساطرة بين مستشاريه ، غير انه حينما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها ان يعتنق المسيحية ، كتب رداً عليها بأن طلب الى البابا ان يعترف بسيادته العليا ، وأن يقدم عليه مع سائر امراء الغرب ليحلفوا يمين التبعية . ولما عاد يوحنا بيان دل كاربيني الى المجلس البابوي في نهاية سنة ١٢٤٧ ، قدّم الى البابا انوسنت الرابع مع هذه الرسالة المخيبة للآمال ، تقريراً مفصلاً ، أشار فيه الى ان المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح(١) . غير ان البابا انوسنت

---

(١) انظر : Pian del Carpine, Historia Mongolorum, (ed. Pulle), esp. pp. 115 ff, 125 - 126.

اورد تقريراً مفصلاً عن هذه السفارة ، ولا سيما ما جاء عنها في صفحة ١١٥ وما يليها . وأثبت رسالة كيوك في صفحتي ١٢٥ — ١٢٦ .

الرابع لم يرض لأوهامه ان تتبدد نهائياً . اذ ان سفارته الثانية التي رأسها الراهب الدومنيكاني اسكلين اللومباردي ، ارتحلت بعد فترة قصيرة مضت على السفارة الاولى ، فاجتازت سوريا ، والتقت في تبريز بالقـائد المغولي بيجو في مايو سنة ١٢٤٧ . وعلى الرغم من ان اسكلين صادف في بيجو رجلاً يميل الى الاعتداء والهجوم ، فضلاً عن انه ليس مقبولاً ، فان بيجو أعرب عن استعداده لمناقشته في احتمال قيـام تحالف لمناهضة الايوبيين . اذ جعل خطته تستند الى مهاجمة بغداد ، ولذا يلائمه ان تقوم حملة صليبية بصرف مسلمي الشام عنه . فأنفذ بيجو رسولين ، ايبك وسركيس ، ومن المحقق ان سركيس كان من النساطرة ، ليصحبا اسكلين في عودته الى روما ، ومع انه لم يكن لهذين الرسولين سلطات السفراء المفوضين ، فان الآمال انتعشت من جديد في الغرب . مكث هذان الرسولان نحو سنة عند البابا ، ثم حدث في نوفمبر سنة ١٢٤٨ ان أخطرا بأن يعودا الى بيجو ، بعد ان جرى الاعراب لهما عن الاسف بأنه لم يطرأ شيء جديد عن التحالف [١] .

وبينما كان الملك لويس في قبرص ، وصل الى نيقوسيا في نوفمبر سنة ١٢٤٨ مبعوثان نسطوريان ، وهما مرقص وداود ، وأنهيا بأن أنفذهما القائد المغولي الجيهيداي ، الذي كان مندوباً سامياً للخان الكبير في الموصل . وحمل المبعوثان رسالة تحدثت في عبارات جافة غليظة عن عطف المغول على المسيحية . فأعرب لويس عن اغتباطه ، وبادر بإرسال بعثة مؤلفة من

---

(١) انظر : Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », Revue de l'Orient Chrétien, vol. XXVIII, pp. 112 , 131.

رهبان دومنيكانيين ، برئاسة اندرو لونججيمو وأخيه ، اللذين يتحدثان اللغة العربيـــة . والواقع ان اندرو كان كبير مندوبي البابا فيما دار اخيراً من مفاوضات مع المونوفيزتيين . وحمــــل الاخوان معهما كنيسة متنقلة تعتبر هدية تليق بخان بدوي حديث العهد باعتناق المسيحية ، وما يلزم مذبحها من المخلفات الدينية ، فضلاً عن هــدايا اخرى دنيوية . فغادرا قبرص في ينـــاير سنة ١٢٤٩ ، قاصدين معسكر الجيهيداي ، فأرسلهما الى منغوليا . ولما وصلا الى قراقورم تبين لهما ان كيوك قد مات ، وأن ارملته اغول قايميش تولت الوصاية على العرش . فاستقبلت البعثة في شيء من الظرف ، غير انها اعتبرت هدايا الملك اتاوة من تابع لسيد ، على ان المشاكل الأسرية في وطنها منعتها من إرسال حملة ضخمة الى الغرب ، حتى لو كانت تنوي ذلك . ثم عاد اندرو بعد ثلاث سنوات ، ولم يحمل معه إلا رسالة تؤكد سيادتها ، فانطوت على شكر الوصية لما يبديه تابعها من الاهتمام بهـــا ، وطلبت الوصية انه لا بد للتابع ان يبعث اليها كل سنة هدايا من هذا القبيل . وارتاع الملك لويس لهذا الردّ ، غير انه ظلّ يأمل في ان يتحقق في يوم من الايام التحالف مع المغول [١] .

---

(١) انظر : Pian del Carpine, op. cit. pp. 174 - 195.

وما يدعو للشك ان الجيغيداي كان مفوضاً بأن يرسل سفارته . أورد خبر وصولها ، وسفارة لويس ، كل من :

Joinville, pp. 47 - 48.

Ms. of Rothelin, p. 469.

Matthew Paris, V, pp. 80, 87.

اعتبر ماثيو باريس مـا تردد من شائعات عن تحول ملك التتار الى المسيحية ، اكثر الامور إثارة للابتهاج والمرح ، (Jocundissimi) .

الحملة الصليبية تصل قبالة دمياط ، سنة ١٢٤٩ :

على هذا النحو جرى استنفاد فترة انتظار الحملة في قبرص ، من الناحية الدبلوماسية . وحدث قبل حوالي سنة ان ارسل الملك لويس وكلاءه ، ليجمعوا ما يلزم للجيش من مؤن وذخيرة ، وتحقق توفير الذخيرة والسلاح للجيش ، غير ان الوكلاء لم يأملوا في ان يكون لديهم من المؤن ما يكفي هذا العدد الكبير من العسكر لأكثر من شهر او شهرين . ومع ذلك فانه لم يتيسر للحملة من الناحية العملية ، ان تبحر الى مصر إلا في مايو سنة ١٢٤٩ . فحينما حلّ الربيع طلب الملك لويس الى الجاليات المحلية من التجار الايطاليين ان يمدوه بالسفن . وإذ لم يقرّ البنادقة الحملة الصليبية بأكملها ، لم يبذلوا له المساعدة . وفي مارس سنة ١٢٤٩ بدأت حرب سافرة بين الجنويين والبيازنة على امتداد الساحل السوري . وتعرض الجنويون الذين اعتبرهم لويس سنده الأساسي ، لأسوأ آثار الحرب . واستطاع يوحنا ابلين سيد ارسوف ، بعد نحو ثلاثة أسابيع ان يحمل الجاليات الايطالية في عكا على ان تعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات . وفي نهاية مايو سنة ١٢٤٩ ، تيسر العثور على السفن اللازمة للصليبيين (١) . وفي تلك الأثناء استقبل الملك لويس في نيقوسيا الزائرين والسفارات . فبعث اليه هيثوم ملك أرمينية بالهدايا النفيسة ، واستجاب لطلب بوهمند امير انطاكية ، بأن أمدّه بجماعة

---

(١) انظر :
Joinville, pp. 46 - 47.
Estoire d'Eracles, II, pp. 436 - 437.
Matthew Paris, V, p. 70.
William of Nangis, p. 368.

من الرماة ، عدتهم ستمائة ، لحماية إمارته من قطاع الطرق من التركمان ، وارتحلت الى نيقوسيا ماريا بريين امبراطورة اللاتين بالقسطنطينية ، والتمست من الملك ان يساعدها على الامبراطور البيزنطي في نيقية . ومع أن لويس أظهر عطفه ، فإنه أخبرها بأنه ينبغي ان تكون الأسبقية لتوجيه الحملة الصليبية لقتال المسلمين . ثم وصل آخر الامر الى قبرص ، في مايو سنة ١٢٤٩ ، وليم هاردوين امير اخايا في اربع وعشرين سفينة وكتيبة من الفرنج من شبه جزيرة المورة ، إذ ان دوق برجنديا قد أمضى مع وليم هاردوين فصل الشتاء في اسبرطة ، وأقنعه بأن يلحق بالملك في قبرص . على ان الجيش المحتشد بالجزيرة ازداد كثافة . غير ان ما اشتهرت به هذه الجزيرة الرائعة من المباهج اضعف الروح المعنوية للجيش . وكادت تنفد كميات الطعام التي كان مفروضاً انها تكفي الحملة الموجهة الى مصر [١] .

وفي ١٣ مايو سنة ١٢٤٩ ، كان يرسي تجاه ليماسول اسطول مؤلف من مائة وعشرين سفينة كبيرة لنقل العساكر ، وعدد كبير من السفن الصغيرة ، فشرع الجيش في اتخاذ أماكنه عليها ، غير انه حدث لسوء الحظ بعد بضعة أيام ان هبت عاصفة فشتت السفن ، حتى اذا أبحر الملك في ٣٠ مايو سنة ١٢٤٩ لم يقلع معه سوى ربع عدد الجيش ، بينما أبحر الى مصر سائر رجال الحملة متفرقين ، ووصل اسطول الملك تجاه دمياط في ٤ يونيه

---

(١) انظر : Joinville, pp. 48 - 51.
Vincent of Beauvais, pp. 1315 ff.

سنة ١٢٤٩ [1] .

المعروف ان السلطان الصالح ايوب أمضى الشتاء في دمشق ، وكان يأمل في ان يفرغ عساكره من الاستيلاء على حمص ، قبل ان تبدأ غارات الفرنج . توقع اول الامر ان يهبط الملك لويس في سوريا ، غير انه لما تأكد ان الهجوم موجّه الى مصر ، رفع الحصار عن حمص ، وعجّل بالعودة الى مصر ، بعد ان أمر جيوشه بالشام ان تتبعه اليها . كان الصالح رجلاً مريضاً ، يعاني مرحلة متقدمة من مرض السلّ ، ولم يعد بوسعه ان يتولى بنفسه قيادة الجيش ، فأمر وزيره المتقدم في العمر ، فخر الدين ، صديق فردريك الثاني ، ان يتولى قيادة الجيش ، وعهد اليه بمنع الفرنج من النزول الى البر ، وأرسل الى دمياط كميات ضخمة من الذخائر وشحنها برجال قبيلة بني كنانة ، وهم من البدو المشهورين بالشجاعة ، واتخذ مقره في اشمون طناح التي تقع الى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل [2] .

وعلى ظهر سفينة القيادة (Montjoie) ، توسل الى الملك مستشاروه بألا يحاول الهبوط الى البر إلا بعد ان تصل بقية السفن التي تقل

---

(١) انظر : Joinville, pp. 52 - 53.
William of Nangis, pp. 370 - 371.
Ms. of Rothelin, p. 589.
Abu'l Feda, p. 126.
قدر ابو الفدا عدد جيش الملك بنحو تسعة وخمسين الف رجل . انظر رسالة جاي ميلون في:
Matthew Paris, V, pp. 155 - 156.

(٢) انظر : Makrizi, X, pp. 200 - 201.
Abu'l Feda, p. 126.
Al - Aini, p. 201.

العساكر ، غير انه رفض التأجيل . ففي فجر ٥ يونيه سنة ١٢٤٩ ، بدأت عملية النزول الى الرمال الواقعة غربي مصب النهر ، متحدياً بذلك كل مقاومة من قِبل العدو . على ان معركة ضارية نشبت على حافة البحر ، غير ان ما التزم به العساكر الفرنسيون من نظام بالغ الجرأة ، وعلى رأسهم ملكهم ، وما أبداه فرسان الشرق الفرنجي ، بقيادة يوحنا ابلين كونت يافا من البسالة والإقدام ، كل ذلك أجبر المسلمين على الارتداد بعد ان تكبَّدوا خسائر فادحة . فلما جنّ الليل ، سحب فخر الدين رجاله ، وتراجع الى دمياط بعد ان اجتاز اليها جسراً من السفن . وإذ استبدّ الذعر بسكان دمياط ، وساد القلق والاضطراب في حامية المدينة ، قرر فخر الدين الجلاء عن دمياط . وهرب معه كل المسلمين المدنيين ، بعد ان أشعلوا النيران في الاسواق ، غير انهم تجاهلوا أوامره فلم يدمّروا جسر المراكب . وفي صبيحة اليوم التالي علم الصليبيون من المسيحيين الذين لزموا دورهم ، ان دمياط تجردت من كل اسباب الدفاع ، فاجتازوا الجسر في موكب الانتصار ، الى المدينة (١) .

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 53 - 58.
William of Nangis, p. 371.
Ms. of Rothelin, (letter of John Sarrasim), pp. 589 - 591.
Gestes des Chiprois, pp. 147 - 148.
Matthew Paris, V, p. 81. VI, pp. 152 - 154, (letter of Robert of Artois to Queen Blanche), VI, pp. 155 - 162, (letter of Guy of Melum).
Makrizi, XIII, pp. 203 - 204.
Abu'l Feda, p. 126.
Al - Aini, pp. 201 - 223.
Abu Shama, II, p. 195.

الملك لويس في دمياط سنة ١٢٤٩ :

على ان استيلاء الفرنج على دمياط في سهولة ويسر آثار دهشتهم وابتهاجهم ، ولكن لم يكن بوسعهم في الوقت الراهن ان يواصلوا انتصارهم ، إذ ان زمن فيضان النيل لن يلبث ان يحين ، وإذ افاد لويس من التجربة المريرة التي عانتها الحملة الصليبية الخامسة ، رفض ان يواصل سيره إلا بعد ان يهبط فيضان النهر . يضاف الى ذلك ، انه كان ينتظر قدوم الامداد من فرنسا بقيادة اخيه ، الفونسو كونت بواتو . وفي نفس الوقت تحولت دمياط الى مدينة فرنجية . فأضحى المسجد الجامع مرة اخرى ، مثلما حدث سنة ١٢١٩ . كاتدرائية ، وتقرر تعيين استقف بهـــا . واختصت الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة بعمائر المدينة ، وتم توزيـع الاقطاعات النقدية على كبار سادة الشرق الفرنجي ، وحاز كل من الجنويين والبيازنة سوقاً وشارعاً مكافأة على مـا بذلوه من خدمات ، ونجح البنادقة في سعيهم في الحصول على مكافأة مماثـلة ، بعد ان ندموا على اظهار عداوتهم . ولقي المسيحيون الوطنيون من الاقباط لليعاقبة من الملك لويس العدالة المطلقة في المعاملة ، فرحبوا بحكمه . أمسا الملكة التي توجهت الى عكا مع سائر سيدات الحملة الصليبية ، حينما غادر الجيش جزيرة قبرص ، فقـد تقررت دعوتها للحاق بالملك في دمياط . ورحب الملك ايضاً بصديق رفيـع الشأن برغم ما حلّ به من فقر ، وهو بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية الذي سبق ان تعرّف به في باريس ، حيث قام الامبراطور بزيارة الملك ليحصل على المال ، بأن باعـــه المخلفات المقدسة لآلام المسيح ، التي نجت من نهب عاصمة الامبراطورية (القسطنطينية) على ايدي الصليبيين . وظلت دمياط طوال شهور صيف سنة ١٢٤٩ عاصمة الشرق الفرنجي . غير ان ركود الجند في

حرارة الدلتا الرطبة أدى الى تداعي روحهم المعنوية . وأخذت المؤن في النفاذ ، وتفشى المرض في المعسكر [1] .

على ان ضياع دمياط روّع العالم الاسلامي ، غير انه بينما تردد الفرنج ، بادر السلطان المريض الى اتخاذ اجراء ايجابي ، بأن عرض ، مثلما فعل ابوه قبل ثلاثين سنة ، على الفرنج ان يسترد دمياط ، مقابل التنازل عن بيت المقدس ، فلم يلق العرض إلا الرفض ، إذ أن الملك لويس ما زال يرفض التعامل مع كل مسلم . وفي تلك الاثناء أنزل السلطان ايوب العقاب بالقادة المسئولين عن ضياع المدينة (دمياط) ، فأمر باعدام أمراء بني كنانة ، وبعزل فخر الدين وكبار قادة المماليك . وأراد المماليك ان يقوموا بثورة داخل القصر ، غير ان فخر الدين أثناهم عن عزمهم ، وما أظهره من الولاء والاخلاص ، ردّه الى ما كان له من حظوة عند السلطان . فاندفعت العساكر الى المنصورة ، وهي المدينة التي معناها « المنتصرة » والتي شيدها السلطان الكامل في الموضع الذي أحرز فيه النصر على الحملة الصليبية الخامسة . أما السلطان الصالح ايوب فجرى حمله في محفة الى المنصورة

---

(١) انظر :
Ms. of Rothelin, pp. 592 - 594.
Matthew Paris, VI, pp. 160 - 161.
IV, p. 626.
(أشار ماثيو باريس الى زيارة بلدوين) .
Baluze, Collectione Veterum Scriptorum, IV, pp. 491 - 495.
(اورد تقرير الملك لويس عن كنيسة دمياط) .

كيما يشرف على تنظيم الجيش . وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف ، وظلوا يزحفون حتى بلغوا اسوار دمياط ، يقتلون كل فرنجي يلتقون به ضالاً خارج اسوار المدينة . وتحتم على الملك لويس أن يقيم الحواجز ، وأن يحفر الخنادق لحماية معسكره [1] .

وهبطت مياه النيل في نهاية شهر اكتوبر سنة ١٢٤٩ ، وحوالي ذلك الوقت ، في ٢٤ اكتوبر ، وصل الفونسو كونت بواتو ، ثاني اشقاء الملك ، بأمداد من فرنسا . فحان الوقت للزحف على القاهرة . وعندئذ اقترح بطرس كونت بريتاني ، يسانده بارونات الشرق الفرنجي ، انه لمن أصوب الأمور ، توجيه الهجوم الى الاسكندرية ؛ إذ أن هذه الحركة سوف تكون مفاجأة للمصريين ، كما انه توافر للصليبيين من السفن ما يكفي لاجتياز فروع النيل ، فمتى استولوا على الاسكندرية ، أضحوا يسيطرون على كل سواحل مصر على البحر المتوسط ، فيضطر السلطان عندئذ الى طلب الصلح . غير ان روبرت كونت ارتوا شقيق الملك حمله حماسه وعاطفته على مقاومة هذا المشروع ، وانحاز الملك الى جانبه . وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ خرج جيش الفرنج من دمياط ، وسلك الطريق المتجه جنوباً نحو المنصورة . وبقيت بدمياط حامية قوية ، فضلاً عن الملكة

---

(١) انظر : Al - Aini, pp. 202 - 206.
Matthew Paris, V, p. 89.
يشير ماثيو باريس الى ان هيو لامارس لقي مصرعه اثناء هذه الاشتباكات .

وبطريرك بيت المقدس[1] .

الصليبيون يزحفون نحو المنصورة سنة ١٢٤٩ :

وواتى الحظ فيما يبدو الملك لويس ، إذ ان السلطان الصالح ايوب كان وقتذاك على فراش الموت ، فلم تمض ثلاثة ايام ، حتى مات بالمنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ . اشتهر الصالح ايوب بالعبوس ، والميل الى العزلة ، ولم يتصف بما عرف به اقاربه من سهولة التحدث اليهم ، او السخاء ، او الشغف بالعلم . كان دائماً معتلّ الصحة ، ولعل ما كان يجري في عروقه من دماء سودانية ، حمله على الابتعاد عن سائر أفراد أسرته ، الذين لم يخالط دماءهم الكردية شيء من الكدر . على انه كان حاكماً كفئاً ، ويعتبر آخر كبار رجال الأسرة الأيوبية العظيمة . وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة . إذ ان ابنه الوحيد ، توران شاه كان يقيم بعيداً في إقليم الجزيرة حيث ينوب عن ابيه في الحكم . ولم ينقذ مصر إلا السلطانة الارملة ، شجر الدر ، الأرمنية الجنس . وإذ وثقت في الطواشي جمال الدين محسن ، الذي خضع البلاط لسلطانه ، وفي فخر الدين ، أخفت خبر وفاة زوجها ،

---

(١) انظر : Joinville, pp. 64 - 65

(رسالة جاي ميلون) .

Matthew Paris, VI, p. 161.

V, pp. 105 - 107.

V, p. 130.

أخطأ ماثيو باريس في تحديد تواريخ احداث الشتاء فجعلها في فبراير .

Makrizi, XIII, p. 215.

وزوّرت وثيقــة تحمل توقيعه ، تقضي بتعيين توران شاه ولياً للعهد ، وفخر الدين قائداً عاماً للجيش ونائباً للسلطان أثناء مرضه . ولما تسرّبت أنباء وفاة الصالح ايوب ، كانت السلطانة وفخر الدين قد توطدت سلطتهما ، بينما كان توران شاه في طريقه الى مصر . غير ان الفرنج تشجعوا عند سماع هــذه الانباء ، إذ تراءى لهم ان هذه الحكومة المؤلفة من امرأة وقائد كهل لن تلبث ان تنهار . فأصروا على ان يزحفوا نحو القاهرة (١) .

المعروف ان الطريق من دمياط ، اعترضه عدد لا حصر له من القنوات وفروع النيل ، كان أكبرها البحر الصغير ، الذي ينبع من فرع النيل الرئيسي ، جنوبي المنصورة . ويسير مجتازاً اشمون طناح الى بحيرة المنزلة ، فعزل بذلك ما يعرف بجزيرة دمياط . أبقى فخر الدين معظم قواته خلف البحر الصغير ، غير انــه ارسل من الخيالة من يوقعون الاضطراب في صفوف الفرنج عند اجتياز كل قناة . على ان ما من مناوشة من هــذه المناوشات نجحت في وقف زحف الفرنج . ثم تقدم الملك لويس في بطء وحذر ، ودارت معركة قرب فارسكور في ٧ ديسمبر سنة ١٢٤٩ ، حيث ارتدّت الخيالة المصرية ، وأصرّ الداوية متحدين اوامر الملك ، على ان يمضوا في مطاردة الفارين حتى صادفوا صعوبة في الاتصال برفاقهم من

---

(١) انظر :
Makrizi, XIII, pp. 208 - 215.
Abu'l Feda, p. 127.
Al - Aini, p. 207.
Ms. of Rothelin, p. 599.
Matthew Paris, V, pp. 107 - 108.

جديد . ثم بلغ الملك في ١٤ ديسمبر البرمون ، وفي ٢١ يسمبر عسكر جيشه على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة (١) .

وظلّ الجيشان ستة اسابيع ، يواجه احدهما الآخر عبر البحر الصغير . وما قام به الخيالة المصريون من محاولة لاجتياز البحر الصغير الى جزيرة دمياط ، وراء البحر الصغير ، ومهاجمة مؤخرة الجيش ، أحبطها شارل انجو قرب المعسكر . وفي تلك الاثناء امر الملك لويس باقامة جسر على البحر الصغير . غير انه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع ، فإن ما لجأ اليه المصريون من الشاطىء المقابل من إلقاء القذائف ، ولا سيما النيران الاغريقية بلغ من العنف والشدة ، ما دعا الفرنج الى التخلي عن العمل . وفي اوائل فبراير سنة ١٢٥٠ قدم الى معسكر الملك احد الاقباط من قبل سلمون ، وعرض على الملك ان يكشف له عن مكان مخاضة يعبرون منها البحر الصغير ، مقابل خمسمائة بيزنتة (دينار) . وفي فجر يوم ٨ فبراير شرع الصليبيون في اجتياز المخاضة . وتخلف دوق برجنديا في قوة كبيرة للمحافظة على المعسكر ، بينما ارتحل الملك مع الجيش الصليبي الزاحف . وتولى اخوه روبرت قيادة مقدمة الجيش ، بمن كان بها من الداوية والكتيبة الانجليزية . وتلقى روبرت اوامر صارمة بألا يهاجم المصريين إلا بعد ان يأذن له الملك . وتحقق للصليبيين ان يعبروا في عناء وبطء شديد مخاضة

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 69 - 70.
Ms. of Rothelin, pp. 597 - 598.
Makrizi, XIII, pp. 215 - 216.
Al - Aini, p. 207.

البحر الصغير . ولم يكد روبرت كونت ارتوا يجتاز البحر الصغير مع رجاله ، حتى خشي انه ما لم يبادر الى مهاجمة العدو ، فسوف يضيع عنصر المفاجئة . وفشل الداوية في ان يذكروه بما اصدره من تعليمات ، غير انه لما أصرّ على الزحف ، لم يسعهم إلا الموافقة على ان يصحبوه في الهجوم . وكان لتهوره من الدواعي ما يبرره . ذلك ان المعسكر المصري ، الذي يقع على مسافة ميلين خارج المنصورة ، لم يكد يقوم بما درج عليه كل يوم من الطواف دون ان يساور العسكر شيء من الارتياب ، حتى اندفع فجأة خيالة الفرنج الى داخله . فلقي عدد كبير من المصريين مصرعهم ، عندما هرعوا لالتماس اسلحتهم ، بينما هرب آخرون ، لم يستكملوا ارتداء ملابسهم ، يلتمسون في المنصورة ملاذاً لهم . اما القائد فخر الدين فانه لم يكد يفرغ من الاستحمام ، ويقوم غلامه بطلاء لحيته بالحنا حتى سمع الجلبة والضجيج . فوثب الى صهوة جواده ، دون أن ينتظر حتى يرتدي درعه ، وقصد المعركة ، فألفى نفسه وسط طائفة من الفرسان الداوية ، فتعرّض لطعناتهم حتى هوى صريعاً .

معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ :

صار لروبرت كونت ارتوا السيطرة على المعسكر المصري ، وتوسل اليه مرة اخرى مقدم الداوية بأن ينتظر حتى يجتاز الملك والجيش الرئيسي المخاضة ليلحقوا به ، ونصحه ايضاً وليم سالسبوري بالتزام الحيطة والحذر . غير ان روبرت عزم على ان يستولي على المنصورة ، ويجهز على الجيش المصري . وإذ انكر على الداوية والانجليز جبنهم ، حشد رجاله ، وكرّ مرة اخرى على المصريين الفارّين ، وكان لزاماً على الداوية ووليم سالسبوري ان

يتبعوه مرة اخرى . ومع ان فخر الدين قـد مات ، فإن قادة المماليك ، حرصوا على ان يعيدوا النظام الى عساكرهم ، وتولى القيادة اقـدر هؤلاء القـادة وأكفأهم ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري ، أي الذي يرمي البندق . فجعل رجاله يتخذون مواقعهم في نقط نقاطع الشوارع بداخل المدينة ذاتها ، ثم ترك الخيالة الفرنج يتدفقون على المدينة ، مجتازين الباب الذي امر بفتحه . وإذ شق الفرسان الفرنسيون ومن اقتفى أثرهم من الداوية ، طريقهم حتى بلغوا اسوار القلعة ، انقض عليهم المماليك من الشوارع الجانبية . ولما لم يتيسر لخيول الفرنج ان تستدير في الحيّز الضيق ، وقعت على الفور في فوضى واضطراب . فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان ، بلغوا ضفاف النيل راجلين ، ولم يلبثوا ان غرقوا في مياهه . واستطاعت فئة قليلة اخرى ان تخلص نفسها من المدينة . أما الداوية فلقوا مصرعهم وهم يقاتلون في الشوارع ، ولم يبق منهم على قيـد الحياة إلا خمسة من مجموعهم الذي يبلغ مائتي وتسعين فارساً . واعتصم روبرت كونت ارتوا وحرسه في بيت ، غير ان المصريين لم يلبثوا ان اقتحموا البيت وأجهزوا عليهم اجمعين . ومن الفرسان الذين سقطوا في ساحة المعركة ، ايرل سالسبوري ومعظم اتباعه من الانجليز ، وكونتا كوسي ، وبريين ، وكان معهما في المقدمة بطرس كونت بريتاني ، الذي أصابته جراح خطيرة في رأسه ، ولكنه استطاع ان يمتطي حصانه ويخرج من المدينة ، ويهرع الى الملك لتحذيره .

اوشك الجيش الصليبي على الفراغ من اجتياز البحر الصغير . ولما سمع الملك لويس بالكارثة ، بادر الى اقامة خط امامي لمواجهة ما يتوقعه من هجوم من قبل المماليك ، وفي تلك الاثناء انفذ المهندسين لإنشاء جسر على مجرى البحر الصغير . أما الرماة فاتخذوا مواضعهم على الطرف البعيد للنهر ،

حـــتى يحموا الجنـــد عنـــد عبورهم متى دعت الضرورة الى ذلك . وكان حريصاً على ان يلحقوا بـــه . وحدث مـــا توقعه الملك ، إذ لم يلبث المماليك المظفرون أن كرّوا من المدينة على خطوطه . واشتد الملك لويس في ضبط جنوده ، بينما كان العدو يمطر صفوفهم بوابل من السهام ، على انه لم تكد ذخيرة المماليك تأخذ في النفـاد ، حتى امر بشن هجوم للرد على هجوم المماليك ، فردت خيالته المسلمين على اعقابهم ، غير انهم لم يلبثوا ان اعـادوا تنظيم صفوفهم ، ورجعوا الى الهجوم ، بينما حاولت وحدات منهم ان تحول دون بناء جسر على البحر الصغير . وكاد الملك ان يهوى الى القناة بعد ان اضطر الى التراجع ، ولم ينقذه إلا هجوم من قبل الفرنج . وحدث آخر الأمر ، قبيل غروب الشمس ، ان اكتمل بناء الجسر ، فاجتازه الرمـاة ، فكفل قدومهم النصر للملك ، وإذ انسحب المصريون مرة اخرى الى المنصورة ، ونصب الملك لويس معسكره في الموضع الذي سبق ان عسكروا فيه في الليلة السابقة ، ولم يعلم الملك إلا وقتئذ بمصرع اخيه من نائب مقدم الاسبتارية . فاغرورقت عيناه بالدموع(١).

ومع أن الصليبيين أحرزوا النصر ، فإنه كلفهم ثمناً باهظاً . فلو لم يقم روبرت كونت ارتوا بغارتـه الضارية على المنصورة ، لأحسّ الصليبيون

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 71 - 93.
Ms. of Rothelin, pp. 599 - 608.
Matthew Paris, V, pp. 147 - 154.
VI, pp. 191 - 193.
Al - Aini, p. 208.

بأنهم من القوة ما يكفي لأن يحاولوا فيما بعد شنّ هجوم على المدينة، على الرغم من أنهم سوف يواجهون من أدوات الحرب ما يفوق ما عندهم. على ان ما حدث جعلهم عاجزين عن أن يقوموا بالهجوم. فاضحى الموقف ينذر بالخطر كالذي حدث في الحملة الصليبية الخامسة، حينما توقف الجيش المسيحي الذي استولى على دمياط، في مكان قريب من هذه البقعة، واضطر آخر الأمر الى الارتداد. فلم يأمل لويس وقتئذ فيما هو خير من هذا المصير، إلا إذا وقع في البلاط المصري من الاضطرابات والفتن ما يحمل الحكومة بالقاهرة على ان تعرض عليه شروطاً للصلح يقبلها. وفي نفس الوقت لجأ الملك لويس الى تحصين معسكره، وتدعيم الجسر على البحر الصغير. وكان هذا الإجراء سليماً، إذ ان المصريين كرّوا مرة أخرى، بعد ثلاثة أيام، في ١١ فبراير سنة ١٢٥٠. جاءتهم الأمداد من الجنوب، فازدادوا قوة عما كانوا عليه من قبل. فدارت معركة تعتبر أعنف ما يصح ان يتذكره رجال الشرق الفرنجي. وتوالى هجوم المماليك مرة بعد أخرى، يطلقون سحابة من السهام كلما جاءوا، بينما أخذ الملك يمنع رجاله من لقائهم المرة بعد المرة، حتى حان الوقت للقيام بهجوم للرد على هجمات المماليك. وثبت في أماكنهم شارل انجو في الجناح الايسر وبارونات سوريا وقبرص في الجانب الايسر من قلب الجيش، بينما تزعزعت مواقف بقايا الداوية والنبلاء الفرنسيين في الجانب الايمن من قلب الجيش، وكان لزاماً على الملك ان ينهض لنجدتهم حتى لا يفقد الاتصال بميسرة الجيش. على ان مقدم الداوية وليم، الذي سبق ان فقد احدى عينيه في المنصورة، فقد العين الاخرى ايضاً، ومات متأثراً بذلك. وفي لحظة تمّ تطويق الفونسو كونت بواتو الذي كان يتولى حراسة المعسكر على الجناح الأيمن، ولم ينقذه إلا الطباخون والنساء من حواشي المعسكر. وإذ حلّ بالمسلمين

آخر الأمر الارهـــاق والتعب ، انسحبوا في نظام رائع ، راجعين الى المدينة (المنصورة)[١] .

توران شاه يتولى قيادة المسلمين سنة ١٢٥٠ :

ظل الملك لويس ثمانية اسابيع ينتظر في المعسكر امـام المنصورة ، ولم يحدث ما كان يأمله من قيام المصريين بثورة ، بل جرى عوضاً عن ذلك ان وصل الى المعسكر المصري ، في ٢٨ فبراير سنة ١٢٥٠ ، توران شاه ابن السلطان الراحل . إذ أنه لم يكد يسمع من زوجة ابيه شجر الدر ، نبـــأ وفاة والده ، حتى غادر عاصمته في ديار بكر ، وبادر بالقدوم نحو الجنوب ، فأمضى ثلاثة ايام في دمشق ، حيث جرت المناداة به سلطاناً ، ثم وصل الى القاهرة حوالي نهـاية فبراير . وكان قدومه الى المنصورة ايذاناً بأن يجدد المصريون نشاطهم ، إذ أمر بإنشاء اسطول من السفن الخفيفة ، تمّ نقلها على ظهور الابل الى فروع النيل السفلى ، وتقرر انزالها في هذه القنوات ، فأخذت تعترض طريق السفن التي تجلب المؤن من دمياط الى معسكر الصليبيين . فاستولى الاسطول المصري على ما يزيد على ثمانين سفينة للفرنج ، الواحدة بعد الاخرى ، وحدث في ١٦ مارس ان فقد الصليبيون قافلة مؤلفة من اثنين وثلاثين من السفن ، بعد ان تعرضت لهجوم واحد من قِبل الاسطول المصري . ولم يلبث ان تعرض

---

(١) انظر : Joinville, pp. 93 - 95.
Ms. of Rothelin, pp. 608 - 609.

الفرنج لخطر المجاعة ، وأعقب المجاعة اندلاع المرض ، كالدوسنطاريا والتيفوئيد [1] .

أدرك الملك لويس ، في مستهل ابريل سنة ١٢٥٠ ، أنه لا بد ان يبذل كل ما في وسعه لأن يخلص الجيش من وخامة المعسكر وفساد هوائه ، وأن يتقهقر الى دمياط. وأعد نفسه آخر الامر لأن يدخل في مفاوضات مع المسلمين، فأرسل الى توران شاه يعرض عليه أن يستبدل بدمياط بيت المقدس [2] . غير ان الوقت قد فات ، إذ علم المصريون كيف اضحى مركز لويس بالغ الحرج . فلما لم يلق عرض لويس سوى الرفض ، دعا قادته للاجتماع به لمناقشة امر الارتداد الى دمياط . فتوسلوا اليه أن يتسلل بحرسه الى دمياط ، غير انه رفض في كبرياء ان يتخلى عن رجاله . فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل ، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق ان

---

(١) انظر :
Abu Shama, II, p. 195.
Al - Aini, p. 209.
Makrizi, XIII, pp. 220 - 224.
Matthew Paris, VI, pp. 193 - 194.
Joinville, pp. 102 - 104.
Ms. of Rothelin, pp. 609 - 612.

(٢) انظر :
Matthew Paris, V, pp. 87 - 88, 105, 143.
VI, p. 117.

يشير ماثيو باريس الى عروض الصلح التي سبق ان عرضها السلطان ، ولكنها لقيت الرفض ، بناء على نصيحة روبرت كونت ارتوا ، او المندوب البابوي. اما ما عرضه الملك لويس من شروط الصلح فأوردها جوانفيل . وبلغت اوربا شائعة بأن لويس قد استولى على القاهرة . انظر:
Joinville, pp. 106 - 107, 118.

سلكوه في قدومهم . وفي صبيحة يوم ٥ ابريل سنة ١٢٥٠ ، تمّ رفع المعسكر ، وبدأت الرحلة المثيرة للأسى والألم ، فاتخذ الملك مكانه في المؤخرة كيما يشجع العساكر الذين ضلوا الطريق . وإذ شهد المماليك بالمنصورة تحرُّك الفرنج ، نهضوا لمطاردتهم . فاكتشفوا ان الفرنج جميعاً قد اجتازوا البحر الصغير ، غير ان المهندسين نسوا ان يدمروا الجسر العائم ، فهرعوا الى اجتياز البحر الصغير على هذا الجسر ، ولم يلبثوا أن ضايقوا الفرنج من كل جانب . على أن الفرنج الذين كانوا يسيرون في بطء ، استطاعوا طوال ذلك اليوم ان يردوا كل هجمات المماليك . وتجاوزت مروءة الملك كل حدود التقدير والثناء . غير انه خرّ مريضاً في تلك الليلة ، وفي صبيحة اليوم التالي لم يستطع ان يحفظ توازنه على حصانه إلا بكل صعوبة . وكلما مضى النهار اشتد تضييق المسلمين على الجيش فأخذوا يهاجمونه بكل ما لديهم من قوة . وقلّ ان حاول العساكر المرضى المرهقون مقاومتهم . وأضحى من الجلي ان النهاية قد اقتربت . فحينما اشتد القتال قام جيفري سارجينس الذي قاد الحرس الملكي ، باصطحاب الملك الى كوخ بقرية ميت الخولي عبدالله الواقعة الى الشمال من شرمساح . ولم يكن بوسع الفرسان الفرنسيين أن يسلموا بالهزيمة . وإذ صار لبارونات الشرق الفرنجي السيطرة ، انفذوا فيليب مونتفورت لإجراء المفاوضات مع العدو . وكاد فيليب ينجح في اقناع القادة المصريين بأن يسمحوا بجلاء الجيش ، مقابل تسليم دمياط ، لولا ان حدث فجأة ان احد الأجناد (السرجندارية) ، واسمه مارسيل ، ركب الى الصفوف المسيحية وأخطر القادة باسم الملك بالإذعان دون قيد أو شرط ، وقد جرى الظن بأن المصريين بذلوا له الرشوة . فأطاع القادة الامر ، الذي لم يدر الملك لويس عنه شيئاً ؛ فألقوا بأسلحتهم ، وتمّ تطويق الجيش بأسره ، وقيادته الى

الأسر . وحدث حوالي هذه الساعة ايضاً ، ان جرى تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل المرضى الى دمياط (١) .

الملك لويس في الحبس سنة ١٢٥٠ :

ارتبك المصريون في اول الامر بكثرة عدد الأسرى . وإذ تبين لهم استحالة حراستهم جميعاً ، تقرر على الفور الإجهاز على اولئك الذين بلغوا من الضعف أنهم لم يستطيعوا المضي في السير ، فجرى كل يوم ، ولمدة اسبوع ، إخراج ثلثمائة من هؤلاء الأسرى الضعاف ، وقتلهم بناء على اوامر السلطان . وتمّ نقل الملك لويس من فراش مرضه وإنزاله مكبلاً بالأغلال في دار خاصة بالمنصورة . أما كبار البارونات فحلوا جميعاً في سجن كبير. ودأب آسروهم على تهديدهم دائماً بالموت ، والواقع أنهم لم يكن في نيتهم ان يقتلوا كل من يصح ان يؤدي فدية كبيرة . فاستطاع جوانفيل ، الذي كان على ظهر احدى السفن التي وقعت في الأسر، أن ينجو مع رفاقه ، بعد أن صار معلوماً عند اسريه بأنه ابن عم الملك لويس ، ولما سأله امير

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 107 - 110.
Ms. of Rothelin, pp. 612 - 616.
William of Nangis, p. 376.
William of Saint - Pathus, pp. 74 - 75.
Matthew Paris, *V*, pp. 157 - 159, 165 - 168.
VI, pp. 193 - 197.
Al - Aini, pp. 209 - 213.
Makrizi, XIII, p. 227.
Abu'l Feda, p. 128.

البحر المصري عن ذلك ، وعرف ان ما شاع ليس صحيحاً ، والكنه في الحقيقة كان ابن عم الامبراطور فردريك ، فازداد ذيوع شهرة جوانفيل .

الواقع ان مكانة الامبراطور الكافر (فردريك الثاني) ، اسهمت الى حد كبير في تخفيف ما كان من قسوة وضع الصليبيين . فلما تلقى الملك لويس في حبسه امر السلطان ، بألا يتنازل فحسب عن دمياط ، بل عن كل مـا للفرنج من بلاد في سوريا ، أجاب بأن هـذه البلاد ليست من املاكه ، بل تخص الملك كنراد ، ابن الامبراطور ، ومـا من احد سوى الامبراطور يستطيع ان يتخلى عنها . فبادر المسلمون على الفور الى إغفال هـذا الاقتراح . غير ان الشروط التي انتزعوها من الملك كانت بالغة القسوة . إذ كان لزاماً عليه ان يفتدي نفسه ، بأن يؤدي مبلغـاً قدره خمسمائة الف ليرة تورناوية اي مـا يقابل مليون بيزنتة . كان المبلغ بالغ الضخامة ، على ان عدد من يطلق من الاسرى كان كبيراً . ولم يكد الاتفاق يتم على شروط الصلح ، حتى تمّ نقل الملك وكبار البارونات على السفن التي اقلعت بهم الى فارسكور ، حيث اتخذ السلطان مقر اقامته . وقضى الاتفاق بأن يتوجهوا الى دمياط ، وأن يتم تسليم المدينة بعد يومين أي في ٣٠ ابريل سنة ١٢٥٠ [١] .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 110 - 122.
Ms. of Rothelin, pp. 616 - 618.
Matthew Paris, *V*, pp. 160 - 164.
VI, pp. 196 - 197.

يشير كاتب الرسالة التي اوردها ماثيو باريس ، والتي حررها احد الاسبتارية ، الى ان أملنا لم ينعقد إلا على فردريك وحده .

انظر ايضاً : Al - Aini, pp. 213 - 214.

الواقع أنه لولا شدة تحمّل الملكة مرجريت وصبرها ، لما تمّ الاتفاق مطلقاً . فحينا تركها الملك بدمياط ، ومضى في سيره الى المنصورة ، كانت على وشك ان تضع مولوداً . على انها وضعت طفلها بمساعدة فارس يناهز الثمانين من عمره ، بعد ثلاثة ايام من ورود نبأ تسليم جيش الفرنج . فأطلقت على ابنها الطفل يوحنا الحزين Tristan ، اي ابن الأسى والحزن . وفي نفس اليوم سمعت الملكة ان البيازنة والجنويين أعدوا انفسهم للجلاء عن دمياط ، نظراً لأنه لم يتوافر بالمدينة من المؤن ما يكفي سكانها ، وأدركت انه ليس بوسعها ان تحتفظ بدمياط إلا بمساعدة الايطاليين . فدعت زعماءهم للاجتماع بها في حجرة نومها كيما تتوسل اليهم بالبقاء في دمياط ، لأنهم اذا تخلوا عن دمياط ، لم يعد لديهم ما يعرضونه على المماليك مقابل اطلاق سراح الملك . فلما اقترحت ان تقوم بشراء كل ما في المدينة من مؤونة ، وأن تتولى الاشراف على توزيعها ، وافقوا على البقاء بدمياط . ومع أن شراء المؤونة كلفها ما يزيد على ثلثمائة وستين الف ليرة ، فإنه رفع الروح المعنوية بالمدينة . وما كادت الملكة تسترد صحتها ، وأضحت قادرة على السفر ، أصرّ رجالها على ان ترحل بطريق البحر الى عكا ، بينما توجّه البطريرك روبرت ، بعد ان حصل على أمان ، الى فارسكور للاجتماع بالسلطان لإنجاز التدابير المتعلقة بالفدية [١] .

ولما وصل البطريرك الى فارسكور ، تبين له ان السلطان توران شاه لقي مصرعه ، فتعرضت المفاوضات النهائية للإرجاء بعض الوقت . والمعروف

---

(١) انظر : Joinville, pp. 142 - 144.

ان توران شاه والأسرى ظلوا حتى يوم الاثنين ، ٢ مايو سنة ١٢٥٠ ، في فارسكور . ففي ذلك اليوم أقام مأدبة لأمرائه . غير ان توران شاه قد فقد تأييد المماليك . إذ ان هذه الفئة الضخمة من الجيش التي تألفت من الأرقاء من الترك والجراكسة ، ازدادت أهميـة وقوة اثناء حكم السلطان الصالح ايوب ، الذي أولاهم من العطف والإيثار ، ما حملهم على ان يجازوه بما بذلوه له من الولاء والاخلاص ، كما ان مساندتهم للسلطانة شجر الدر كفلت العرش لتوران شاه . غير ان توران شاه بعد ان انتصر على الفرنج أضحى يحسّ بأن له من القوة مـــا يكفي لأن يملأ وظائف الحكومة بألزامه من اقليم الجزيرة ، فلما احتجّ عليه المماليك ردّ عليهم اثناء سكره بالتهديد والوعيد . وفي الوقت ذاته أهان زوجة ابيه ، شجر الدر ، بأن طالبها بكل ما كان بحوزة ابيه من أملاك . فبادرت بالكتابة على الفور الى قادة المماليك ، تطلب اليهم ان يقوموا بحمايتها .

مصرع توران شاه سنة ١٢٥٠ :

ولما نهض توران شاه من المائدة ، في ٢ مايو سنة ١٢٥٠ ، اقتحم الموضع عساكر المماليك البحرية ، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري وشرعوا ، يتصدرهم بيبرس ، في ضرب السلطان بسيوفهم ، فهرب توران شاه وقد أصابته الجراح الى برج خشبي يقع الى جانب النهر . ولما تعقبه الاجناد ، وأشعلوا الحريق في البرج ، قفز الى النيل ، وأخذ يتوسل اليهم ، وقد وقف في مياه النهر ، ملتمساً الرحمة ، بعد ان عرض عليهم التنازل عن العرش والعودة الى اقليم الجزيرة ، غير انه ما من احد منهم استجاب لندائه . ولما لم تنجح الرماية بالسهام في قتله ، وثب بيبرس من الشاطىء الى النهر ، وأجهز على السلطان

توران شاه بسيفه . وظلت جثة السلطان المشوهة ، ثلاثة ايام ، ملقاة بالعراء دون ان يتمّ مواراتها . وتولى آخر الامر سفير خليفة بغداد ، بعد ان حصل على إذن ، دفنها في مقبرة بسيطة . ونصّب المتآمرون المنتصرون كبير قادة المماليك ، عز الدين أيبك ، قائداً عاماً (أتابكا) للعساكر ووصياً على العرش ، فتزوج من السلطانة الارملة ، شجر الدر ، التي تمثل الصفة الشرعية في الحكم . ثم جرى فيما بعد العثور على طفل اسمه الأشرف موسى ، ابن عم للسلطان الراحل (توران شاه) ، وتقررت المناداة به قسيماً في السلطنة ، غير انه تمّ خلعه عن العرش بعد اربع سنوات ، على ان مصيره الاخير ليس معروفاً [1] .

لما قدم من دمياط البطريرك الكهل بأمان بتوقيع توران شاه ، ادّعت الحكومة الجديدة انه لا قيمة لهذا الأمان ، وعاملت البطريرك على انه أسير . وظهر امام الملك لويس جماعة من المماليك بسيوفهم التي لا تزال تقطر دماً ، وطلبوا منه مالاً لأنهم قتلوا غريمه . بينما اخذت جماعة اخرى منهم ، بعد ان اشتدت نشوتهم ، تهزّ السيوف في وجوه البارونات الأسرى ، ولم يخفِ جوانفيل جزعه وخوفه ، غير ان المماليك لم يقصدوا ما سبق تقريره من فدية ضخمة ، إذ انهم صدقوا على الشروط السابقة .

---

(١) انظر :

Makrizi, XIII, pp. 230 - 231.
Abu'l Feda, p. 129.
Abu Shama, II, pp. 198 - 209.
Ibn Khallikan, III, p. 248.

عن الاشرف موسى ، انظر ما يلي الكتاب الثالث ، الفصل الثالث .

فمتى تمّ تسليم دمياط ، تقرر اطلاق سراح الملك والنبلاء ، امـــا سائر العساكر ، الذين تمّ نقل جماعة منهم الى القاهرة ، فكان لزاماً عليهم ان ينتظروا حتى يتمّ دفع المال ، الذي نقص مقـداره فأضحى اربعمائة الف دينار تورناوي ، بدفع نصفه في دمياط ، ويؤدى النصف الآخر عند وصول الملك لويس الى عكا . وأصرّ الملك على الرفض حينا طُلب اليه ان يحلف انه اذا لم يوفِ بعهده ، فكأنه اعلن إنكاره للمسيح . والواقع ان ما اتصف به الملك لويس من هيبة وشخصية ما ظل طوال مدة اسره ، من شدة التأثير في نفوس اسريه ، ان جماعة منهم اقترحت ، على سبيل المزاح ، ان يكون سلطانهم المقبل (١) .

وفي يوم الجمعة ، ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، توجه جيوفري سارجينس الى دمياط ، وقام بتسليم الحصن الى مقـــدمة الجيش الاسلامي ، وانتقل الى دمياط الملك والنبلاء بعـد ظهر ذلك اليوم . وأخذ الملك لويس يلتمس المال اللازم لتسديد القسط الاول من الفدية . غير ان ما بخزائنه من المال لم يتجاوز مـائة وسبعين الف دينار تورناوي . واحتفظ المصريون بشقيق الملك ، الفونسو كونت بواتو ، رهينة عندهم ، حتى يتم تحصيل ما تبقى من المال المطلوب . واشتهر عن الداوية انهم اختزنوا مقادير كبيرة من المال ،

---

(١) انظر :

Joinville, pp. 123 - 132.
William of Nangis, p. 381.
William of Saint - Pathus, pp. 23, 58, 75 - 76.
Ms. of Rothelin, pp. 618 - 619.
Al - Aini, p. 213.

في اكبر سفينة عندهم . على انهم لم يوافقوا على ان يبذلوا ما هو مطلوب من المال ، إلا بعــد ان تعرضوا للتهديد باستخدام العنف معهم . ولما تمّ تسليم المبلغ بأكمــله الى المصريين ، تقرر اطلاق سراح كونت بواتو . وفي مساء اليوم ذاته ، أبحر الملك والباورونات الى عكا ، التي بلغوها بعد ستة ايام ، بعـــد رحلة عاصفة . ولم يتهيأ اعداد ملابس او فراش للملك على السفينة ، فتحتم عليه ان يرتدي الملابس الرسمية ، وأن ينـام على الحشية (المرتبة) التي سبق ان استخدمها في السجن [١] .

وتخلف بدمياط عــدد كبير من الجند والجرحى ، على أن المسلمين أجهزوا عليهم ، فخالفوا بذلك ما بذلوه من الوعد [٢] .

الملك لويس يبقى في الشرق الفرنجي سنة ١٢٥٠ :

وحدث عقب وصول الملك لويس الى عكا ، أن دعـا اتباعه للاجتماع بــه للتشاور في الخطط المقبلة . سبق لأمه ان كتبت له من فرنسا تحثه على التعجيل بالعودة ، إذ أن هنري ملك انجلترا كان ، فيما يروى ، في طريقه الى الحرب ، فضلاً عما كان بفرنسا من مشاكل كثيرة أخرى ملحّة . غير ان لويس أحسّ ان الحاجة ماسة اليــه في الشرق الفرنجي . إذ ان ما حل من كارثة بالحملة الموجهة الى مصر لم تدمر فحسب الجيش الفرنسي،

---

(١) انظر : Joinville, pp. 135 - 138.
Ms. of Rothelin, pp. 619 - 620.

(٢) انظر : Ms. of Rothelin, p. 620.

بل انهـا كادت تحرم الشرق الفرنجي من كل عساكره . يضاف الى ذلك ان من واجبه ان يبقى في موضع قريب ، حتى يتم اطلاق سراح آخر اسير في مصر . على ان إخوة الملك وكونت فلاندر نصحوه بالعودة الى فرنسا . والواقع ان لويس كان قد اتخذ قراره ، وفي ٣ يوليه سنة ١٢٥٠ اذاع هذا القرار . فكل من اراد الرحيل من أخوته وغيرهم ، فليبادر الى العودة الى الوطن ، اما هو فسوف يبقى ، وسوف يُلحق بخدمته كل اولئك ، امثال جوانفيل ، الذين ارادوا البقاء معـه . وبعث الى بارونات فرنسا برسالة يشرح فيها ما اتخذه من قرار ويلتمس ارسال امداد للحملة الصليبية . لقد احسّ في مرارة بفشل حملته الكبيرة . ورأى انه من الخير ان يعلن ان الكارثة ليست إلا من علامات رضى الله ، ساقها الله اليـه لتعلّمه التواضع ، غير انه كان لا بد ان يفكر ان هـذا الدرس الذي خصه الله به كلفه التضحية بآلاف من الارواح البريئة [١] .

أبحر من عكا حوالي منتصف شهر يوليـه سنة ١٢٥٠ ، أشقاء الملك مع كبار نبلاء الحملة الصليبية ، وخلّفوا وراءهم كل مـا استطاعوا ان يدبروه من مـال ، ولكن لم يتركوا سوى الف وأربعمائة رجـل [٢] . وبقيت الملكة في صحبة الملك . وجرى على الفور الاعتراف بـه حاكماً

---

(١) انظر : Joinville, pp. 154 - 157.
William of Nangis, p. 383.
William of Saint - Bathus, pp. 91 - 92.
Matthew Paris, *V*, pp. 173 - 174.

(٢) انظر : Joinville, p. 157.

فعلياً لمملكة بيت المقدس . ومع ان العرش لا زال من الناحية الشرعية من حق كنراد امبراطور المانيـا ، فالواضح ان كنراد لن يقدم مطلقاً وقتذاك الى الشرق ، إذ أنه لمـا ماتت أليس انتقلت الوصاية على عرش بيت المقدس الى ابنها هنري ملك قبرص ، الذي اختار ابن عمه ، يوحنا سيد ارسوف ، نائباً عنه في ادارة المملكة ، فسلـّم يوحنا عن طيب خاطر زمام الحكومة الى الملك لويس[1] .

على ان رحيل اتباع لويس الفرنسيين ، هيـأ له الفرصة لأن يكون اكثر استعداد للاستماع لمـا يبذل من النصيحة ، إذ ان تجربته وخبرته وسّعت مداركه ، كما ان افتقاره الى السلاح علـّمه الحاجة الى العلاقات الدبلوماسية مع المسلمين . ولمس فيه بعض اصدقائه انه ليس مستعداً لأن يسلك سياسة الفرنج البلديين (Poulain) ، وكان على حق في ذلك ، إذ أن الوقت كان ملائماً للدبلوماسية . فما حدث في مصر من ثورة المماليك لم تلقَ القبول في سوريا الاسلامية ، التي استمر بها الولاء للأيوبيين . فلما وردت اليها الانباء بمصرع توران شاه ، هبط الناصر يوسف سلطان حلب من حمص ، فاحتل دمشق في ٩ يوليه سنة ١٢٥٠ ، حيث لقي استقبالاً حـاراً ، باعتباره حفيد ابن صلاح الدين . وتجددت المنافسة المريرة بين القـاهرة ودمشق ، وحرص كل من البلاطين على التماس مساعدة الفرنج . فلم يكد لويس يصل الى عكا ، حتى قدمت اليها سفارة من قِبل الناصر

---

(١) لم يتحدد مطلقاً مـــا كان للملك لويس من وضع قانوني ، غير انه من الواضح انه تقرر الاعتراف به سيداً أعلى ، اثناء غياب كنراد .

يوسف . غير ان لويس لم يشأ ان يلتزم بشيء نحوهـا . فيصح أن يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من اهمية استراتيجية ، غير انه كان لزاماً عليه ان يفكر في اسرى الفرنج الذين لا زالوا في مصر [1] .

وفي شتاء سنة ١٢٥٠ شرع جيش دمشق في الإغـــارة على مصر ، فالتقى في ٢ فبراير سنة ١٢٥١ بالجيش المصري بقيادة ايبك عند العباسة في الدلتـا ، والتي تقع على مسافة اثني عشر ميلاً الى الشرق من مدينـة الزقازيق الحالية . أحرز العساكر السوريون النصر اول الامر ، على الرغم من استبسال فصيلة ايبك وصمودها في القتال . غير انه حدث ان فصيلة من المماليك في جيش الناصر يوسف ، تخلت عن مواقعها في غمرة القتال ، ولما لم يكن السلطان النـاصر يوسف مشهوراً بالشجاعة ، لم يلبث ان استدار راجعاً ولاذ بالفرار ، وبذا سلمت سلطة المماليك في مصر ؛ ومع ذلك فما زال الايوبيون يحوزون فلسطين وسوريا . ولما ارسل الناصر يوسف بعدئذ الى عكا ، يلوح بالتنازل عن بيت المقدس مقـــابل الحصول على مساعدة من الفرنج ، ارسل الملك لويس سفارة الى القاهرة ينـذر ايبك بأنه مـا لم يتم على الفور تسوية مشكلة اسرى الفرنج ، فسوف يتحالف مع سلطان دمشق ، الناصر يوسف . ونجح سفيره يوحنا فالنسيين ، اثنـاء زيارتين قـــام بهما الى القاهرة ، في ان يحقق اولاً اطلاق سراح الفرسان

---

(١) انظر :

Abu Shama, II, p. 200.
Abu'l Feda, p. 131.
Ibn Khallikan, II, p. 446.
Joinville, p. 158.

الذين وقعوا اسرى في غزه سنة ١٢٤٤ ، ومن بينهم مقـدم الاسبتارية ، ثم الافراج عن نحو ثلاثة آلاف من الاسرى المستجدين ، وذلك مقـابل اطلاق سراح ثلاثمائة من الاسرى المسلمين الذين وقعوا بأيدي الفرنج . وازداد حرص ايبك على التماس صداقة الملك لويس ، فأرسل اليـه ، مع الدفعة الثانية من الاسرى الذين افرج عنهم ، هدية تتألف من فيل وحمار وحشي . وعنـدئذ تجرّأ لويس فطلب اطلاق سراح جميع من تبقى في ايدي المماليك من الاسرى ، دون ان يؤدي عنهم اموالاً اخرى . ولـمـا أيقن ايبك ان رسولاً من قبل الملك لويس ، وهو ييف البريتوني المعروف بدرايته في التحدث باللغـة العربية ، يزور بلاط دمشق ، استجاب لطلب الملك مقابل عقـد محالفة عسكرية لمناوأة الناصر يوسف . ووعد ايبك ايضاً انه متى احتل المماليك فلسطين ودمشق ، فسوف يعيدون للمسيحيين كل مملكة بيت المقدس القديمة التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الاردن . ووافق الملك لويس ، وتمّ اطلاق سراح جميع الاسرى في نهـاية شهر مارس سنة ١٢٥٢ . على ان المعـاهدة كادت تتحطم حينما رفض الداوية قطع علاقاتهم بدمشق ، فاضطر الملك الى ان يؤنبهم علناً ، وأن يطلب منهم اعتذاراً ينمّ عن ضعتهم [١] .

---

(١) انظر :

Abu Shama, II, loc. cit.
Abu'l Feda, loc. cit.
Joinville, pp. 158 - 160.
Ms. of Rothelin, pp. 624 - 627.
Matthew Paris, *V*, p. 342.

الخليفة يتوسط في الصلح بين الأمراء المسلمين سنة ١٢٥٣ :

لم يؤدّ التحالف بين الفرنسيين والمماليك الى شيء من النتائج . فلم يكد الناصر يوسف يسمع عنه ، حتى ارسل العساكر الى غزه ، لمنع الاتصال بين الحليفين . وهبط الملك الناصر يوسف الى يافا ، غير ان المماليك لم يخرجوا من مصر . وظل الجند السوريون ، والجند الفرنج مدة سنة لم يتحركوا من مواضعهم ، ولم يشأ كل من الجانبين ان يثير المعركة . وفي تلك الأثناء أصلح الملك لويس استحكامات يافا ، وسبق له ان قام بعمارة استحكامات عكا وحيفا وقيسارية . وفي أوائل سنة ١٢٥٣ استنجد الناصر يوسف ببغداد للتوسط بينه وبين المماليك . وإذ حرص الخليفة المعتصم على توحيد العالم الاسلامي إزاء المغول ، حثّ ايبك الذي اعترف بسيادته الاسمية على قبول شروط الناصر يوسف ، فتقرر الاعتراف بأيبك سلطاناً على مصر ، وله ان يضيف الى املاكه ، من جهة الشمال ما يقع من فلسطين حتى الجليل ، وحتى نهر الاردن من جهة الشرق . وتمّ إبرام الصلح في ابريل سنة ١٢٥٣ ، وبذا جرى اغفال اتفاق ايبك مع الفرنج [١] .

ارتحل جيش دمشق من غزة راجعاً الى بلاده ، مجتازاً أراضي الفرنج ، ومغيراً على كل ما صادفه من جهات أثناء عودته . على ان المدن بلغت

---

(١) انظر : Joinville, pp. 167 - 168, 184 - 185.
Ms. of Rothelin, pp. 627 - 628.
Matthew Paris, *VI*, p. 206.
Al - Aini, p. 215.

من المناعة ما يجعل من العسير مهاجمتها ، باستثناء مدينة صيدا التي تجددت عمارة أسوارها . ومع انهم لم يحاولوا مهاجمـــة القلعة القائمة على جزيرة صغيرة ، فانهم نهبوا المدينة ، ثم انسحبوا بعد ان امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى . وانتقم الملك لويس لما حدث ، بأن وجّه حملة للاغارة على بانياس ، غير أنها لم تحرز شيئاً من النجاح . وواتى الحظ الشرق الفرنجي بأن كلا من أيبك والناصر يوسف لم يظهر رغبة صادقة للحرب[1] .

على ان امتناعهما عن الحرب يرجع الى حـد كبير الى وجود ملك فرنسا في الشرق . فعلى الرغم من ان سجل الملك لويس كان حـــافلا بالكوارث ، فمن المحقق انه كان لشخصيته تأثير قوي . وكان لذلك أهمية ايضاً ، فالمعروف انه مات في ايطاليا ، في ديسمبر سنة ١٢٥٠ ، الامبراطور فردريك الذي ما زال لاسمه وزن وتقدير في الدوائر الاسلامية ، ولم يرث ابنه كنراد شيئاً من مجده ومكانته [2] . يضاف الى ذلك ان لويس فاق فردريك فيما احرزه من نجاح في معالجة سكان الشرق الفرنجي ، لما اشتهر به من الكياسة ، وتجرّده من العواطف الخاصة ، ودلّ على قيمته ما حدث من تدخله في إمارة انطاكية ، إذ مات بوهمند الخامس في ينـــاير سنة ١٢٥٢ ، وقد خلّف وراءه ، ابنة اسمها بلايسانس التي تزوجت منذ بضعة شهور هنري ملك قبرص الذي لم ينجب ذرية ، فكانت زوجته الثالثة ،

---

(١) انظر : Joinville, pp. 197 - 198.
Estoire d'Eracles, II, pp. 440 - 441.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, *V*, *I*, p. 1693.
أشار الى ان فردريك مات في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ في فيورنتينو .

وابناً ، هو بوهمند الذي ناهز الخامسة عشرة من عمره ، وتولى حكم انطاكية بوصاية الاميرة الايطالية الارملة ، لوسيين . كانت لوسيين امرأة بالغــة الضعف ، لم تغـادر طرابلس مطلقاً ، سلمت مقاليد حكومة الإمارة الى اقاربها من اهل روما . ولم يلبث بوهمند السادس ان احس ان أمه ليست مقبولة ، فاستطاع بعد موافقة الملك لويس ان يحصل على اذن من البــابا بأن يبلغ سن الرشد قبل بضعة شهور من الميعاد القانوني . فلما وافق البابا انوسنت الرابـع ، قدم بوهمند السادس الى عكا ، حيث نصبه الملك لويس فارساً . ثم تقرر عزل لوسيين من السلطة ، وتعويضها بخراج وفير ، وفي نفس الوقت قــام الملك لويس باتمــام التوفيق بين بلاط انطاكية وبلاط أرمينية . إذ سبق لبوهمند الخامس في اواخر سنوات حكمه ان ارتبط بعلاقــات مع الملك هيثوم . غير ان ماضيه كان حافلاً بذكريات مريرة ، اما بوهمند السادس فلم يكن عنده هذا الحقد والغل ، ففي سنة ١٢٥٤ ، وبناء على اقتراح الملك لويس ، تزوج بوهمند من سبيللا ابنة هيثوم ، فأضحى الى حد ما من اتباع صهره . ووافق الأرمن على ان يشتركوا في تحمل المسئولية من أجل الدفاع عن انطاكية [١] .

مات هنري ملك قبرص في ١٨ ينــاير سنة ١٢٥٣ ، وإذ لم يتجاوز ابنه هيو الثاني من العمر إلا بضعة شهور ، طــالبت الملكة بلايسانس

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 439, 441 - 442.
Ms. of Rothelin, p. 624.
Joinville, pp. 186 - 187.
Vincent of Beauvais, p. 96.

بالوصاية على عرش قبرص ، وبالقوامـة الإسمية على مملكة بيت المقدس . وأقرّت المحكمة العليا بقبرص وضع الملكة بالجزيرة ، غير ان بارونات برّ الشام ، لم يعترفوا بها إلا بعد ان تتقدم بنفسها اليهم . وفي تلك الأثنـاء ظل يوحنا ابلين سيد أرسوف نائباً عن الملك ، وفكرت بلايسانس ان تتزوج من ابنه الشاب باليان . على ان الملك لويس استمرّ يتولى الإدارة الفعلية للحكومة (١) .

لم يكن ثمة أمل في قدوم حملة صليبية جديدة من أوربا . إذ ان هنري الثالث ملك انجلترا الذي سبق ان وعد بالإشتراك مع عـــدد كبير من رعاياه في حملة صليبية في ربيع سنة ١٢٥٠ ، اقنع البابا بـأن يسمح له بارجاء اية حملة ؛ ورفض أشقاء الملك لويس ارسال مساعدة من فرنسا . واشتدت ثائرة الرأي العام في فرنسا ، غير انه لم يكن مخدوعاً . فحينما وصل اول نبأ عن كارثة المنصورة ، اجتاح البلاد حركة هستيرية للرعاع المؤلفين من الفلاحين والعمال الذين اطلقوا على انفسهم اسم الرعاة Pastouraux ، وتولى قيادتهم واتخذ لنفسه لقبـاً غريباً « سيد المجر » وأخذوا يعقدون

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.
Assises, II, p. 420.
La Monte, Feudal Monarchy, pp. 74 - 75.
Hill : History of Cyprus, II, p. 149.
والراجح ان بلايسانس لم تكن اكثر من خطيبة لباليان، اذ اقترحت ان تكون عروساً لادموند
دوق لانكستر بعد بضعة سنوات . انظر : Rymer, Foedera, I, p. 341.
ولم يتم الاعتراف بهـا نهائياً وصية على بيت المقدس ، الى ان قامت بزيارة عكا سنة ١٢٥٨ .

اجتماعات ، اتهموا فيها علناً البابا واكليروسه ، ونذروا بأنهم سوف ينجدون الملك المسيحي . وبذلت لهم الملكة الوصية بلانش تأييدها اول الأمر ، غير أنه وقع بينهم من الأضطراب والخلل ما قضى بضرورة قمعهم . أما النبلاء الفرنسيون فقنعوا بما وجهوه من تلميحات مريرة الى البابا ، الذي آثر الدعوة الى حملة صليبية لقتال أنصار الأمبراطور من المسيحيين ، على أن يبعث بمساعدة الى اولئك الذين يقاتلون المسلمين . ومضت بلانش الى أبعد من ذلك ، فصادرت أملاك كل تابع استجاب لنداء البابا انوسنت الرابع للاشتراك في حملة صليبية لقتال الملك كنراد سنة ١٢٥١ ، غير انه لم يكن بوسعها او بوسع مستشاريها ان يجرءوا على إرسال حملة الى الشرق[١] .

تحالف الملك لويس مع الحشيشية ، سنة ١٢٥٢

وإذ سعى الملك لويس لالتماس حلفاء أجانب ، دخل مع الحشيشية في اشدّ ما تكون العلاقات وداً وصداقة . إذ حدث بعد كارثة دمياط ان ارسل زعيم الحشيشية في الشام الى عكا ، يطلب من لويس ان يؤدي له مالاً مقابل التزام الحشيشية الحياد ، غير انه ازعجه ما اعطاه الملك لرسله من إجابة حاسمة في حضرة مقدمي الطوائف الدينية العسكرية . الواقع ان طائفة الحشيشية طلبت بصفة خاصة ان تتحلل من الالتزام

---

(١) انظر : Matthew Paris, Chronica Majora, V, pp. 172 - 173, 259 - 261.

Throop, Criticism of the Crusades, pp. 57 - 59.

بدفع جزية للاسبتارية . على ان سفارة الحشيشية التالية كانت اكثر تواضعاً، إذ حملت معها الى الملك الهدايا الفائقة ، وطلبت إقامـــة تحالف وثيق بينهما . ونظراً لما يعلمـه الملك لويس من العـداوة التي تكنها الحشيشية الإسماعيلية للمسلمين السنيين ، شجع خطوتهم ، وانفذ ييف البريتوني للاتفاق على عقد معاهدة . واستهوى ييف البريتوني المكتبة التي أقامها الحشيشية في مصياف . إذ عثر فيها على موعظـة من سفر الأخبار وجههـا السيد المسيح الى القديس بطرس ، الذي يعتبر حسبما اخبره رجـــال مذهب الحشيشية ، تجسيداً آخر لهابيل ونوح وابراهيم . وتمّ بينهما ابرام معاهدة للدفاع المشترك (١) .

على ان أهم ما كان يطمح لويس لتحقيقه من الناحيـة الدبلوماسية ، هو ان يظفر بصداقة المغول ألدّ عدو للحشيشية . وحدث في زمن مبكر من سنة ١٢٥٣ ان وصل الى عكا تقرير بأن احد امراء المغول ، وهو سارتاق بن باطو قد تحوّل الى المسيحية ، فبادر لويس الى إرسال راهبين دومنيكانيين ، وليم روبروق ، وبارثولوميو الكريموني ، كيما يحثا الامير المغولي على النهوض لمساعدة اخوانه المسيحيين في سوريا ، غير أنه لم يكن لأمير مغولي صغير من السلطات ما يجعله يعقد محالفة تعتبر بالغـة الأهمية (٢) .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 160 - 165.

(٢) انظر : Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », loc. cit. p. 220

قام روكهيل بترجمة ونشر رحلة روبروق الى اللغة الانجليزية. ارتاب روكهيل في تحول سارتاق الى المسيحية ، وقد اجتمع به . غير ان الارمن اعتقدوا في صدق اعتناقه للمسيحية . انظر :

Rockhill, Rubruck's Itinerarium, pp. 107, 116.

Kiriakos of Gantzag, History, (trans. Brosset), p. 178.

وبينما كان الراهبان الدومنيكيان يوغلان في جوف آسيا قاصدين بلاط الخان الكبير ، كان لزاماً على الملك لويس ان يغادر الشرق الفرنجي . إذ ماتت امه الملكة الوصية بلانش في نوفمبر سنة ١٢٥٢ ، وأعقب وفاتها حدوث اضطرابات وقلاقل ، فأخذ ملك انجلترا يثير المتاعب ، على الرغم من اليمين التي بذلها للمضي الى الحرب الصليبية ، كما انه لم يساند أساقفته الذين عهد اليهم البابا بالدعوة الى الحرب الصليبية . واندلعت الحرب الاهلية بسبب التنازع على إرث كونتية الفلاندر ، وازدادت كراهية كبار الأتباع بفرنسا للسير الى الحرب الصليبية . على ان لويس جعل لمملكته اول ما يقوم به من واجبات . فتجهز كارهاً للعودة الى وطنه ، ثم أقلع من عكا في ٢٤ أبريل سنة ١٢٥٤ ، وكادت سفينته تتحطم تجاه ساحل قبرص ، غير ان الملكة نذرت ان تقدم سفينة مصنوعة من الفضة الى مشهد القديس نقولا في فارانجفيل ، فهدأت العاصفة . ولم تمض إلا بضعة ايام حتى أنقذ السفينة من الدمار حرقاً ، ما اشتهرت به الملكة من سرعة الخاطر . وفي يوليه سنة ١٢٥٤ هبط الركب الملكي الى البر في هييرز من أملاك شارل انجو شقيق الملك[١] .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 218 - 234.
William of Saint - Pathus, pp. 29 - 30.
Ms. of Rothelin, pp. 629 - 630.
Matthew Paris, V, pp. 434, 452 - 454.
أشار ماثيو باريس الى وفاة الملكة بلانش في اول ديسمبر سنة ١٢٥٢ . انظر :
Matthew Paris, V, p. 354.

نتائج رحيل الملك لويس سنة ١٢٥٤ :

الواقع ان حملة القديس لويس الصليبية ورّطت الشرق المسيحي في كارثة عسكرية مروعة ، فعلى الرغم من إقامة الملك لويس بعكا لمدة اربع سنوات أسهمت كثيراً في اصلاح الضرر ، فان ما حدث من خسارة في القوة البشرية، لم يجرِ مطلقاً استردادها. ومع ان الملك لويس فاق جميع المحاربين الصليبيين فيما حازه من أنبل الصفات والاخلاق ، فلعله كان خيراً للشرق الفرنجي ، لو انه لم يغادر فرنسا ، إذ ان فشله كان ضربة عميقة الأثر ، فمع انه كان رجلاً صالحاً يخاف الله ، فان الله قاده الى الكارثة . وإذ جرى تفسير ما تعرض له الصليبيون في الايام المتقدمة من سوء الحظ على انه عقاب لهم على ما ارتكبوه من جرائم وما انغمسوا فيه من رذائل ، فان هذه النظرية السهلة لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها . أليس من الجائز ان الله تجهم لكل الحركة الصليبية [١] ؟

ومع ان قدوم الملك الفرنسي الى الشرق لازمه سوء الطالع ، فان رحيله عرّض الشرق لخطر وقوع ضرر مباشر . خلّف لويس وراءه جفري سارجينس ليكون ممثلاً له ، بعد ان شغل وظيفة رسمية ، إذ كان صنجيلاً للمملكة اما نائب الملك فكان وقتذاك يوحنا ابلين ، كونت يافا الذي خلف ابن عمه يوحنا سيد أرسوف في هذه الوظيفة سنة ١٢٥٤ ،

---

(١) انظر : Salimbene, Chronica, pp. 235 - 237.
يشير هذا المؤرخ الى انه جرى الإعراب عن هذه الشكوك ، اذ تعرض الرهبان الذين دعوا لهذه الحملة الصليبية ، للإهانة علناً بعد ان فشلت الحملة .

غير انه أعادها له سنة ١٢٥٦ . والراجح ان يوحنا سيد أرسوف كان غائباً في قبرص اثناء تلك السنوات ، يعمل مستشاراً للملكة بلايسانس التي استمرت وصية شرعية على المملكتين [١] (قبرص وبيت المقدس) . وما حدث من وفاة كنراد ملك المانيا ، في ايطاليا ، في مايو سنة ١٢٥٤ ، أدّت الى انتقال لقب ملك بيت المقدس الى ابنه كنرادين الذي لم يتجاوز الثانية من عمره ، والذي حرص رجال القانون في الشرق الفرنجي على تذكّر حقوقه الاسمية [٢] . على ان الملك لويس عقد مع دمشق قبيل رحيله معاهدة لمدة سنتين ، وستة شهور ، وأربعين يوماً ، ابتداء من ٢١ فبراير سنة ١٢٥٤ . إذ ان الناصر يوسف سلطان دمشق أضحى يدرك الخطر المغولي ، ولم يعد له رغبة في قتال الفرنج . كما ان أيبك سلطان مصر أراد ان يتجنب خوض حرب كبيرة ، فعقد في سنة ١٢٥٥ هدنة مع الفرنج لمدة عشر سنوات . غير انه تعمّد استبعاد يافا من الهدنة ، لما كان يأمله من اتخاذها ميناء لإقليم فلسطين التابع له [٣] . على انه وقعت عبر الحدود غارات من الجانبين . ففي يناير سنة ١٢٥٦ ، استولى جيوفري سارجينس ويوحنا كونت يافا على قافلة ضخمة من الدواب . ولما أرسل الحاكم المملوكي لبيت المقدس في مارس سنة ١٢٥٦

---

(١) انظر : La Monte, loc. cit. n. 1.

(٢) انظر : Matthew Paris, V, pp. 459 - 460.

عن حقوق كنرادين ، انظر ما يلي ص ٤٨٩ — ٤٩١ .

(٣) انظر : Matthew Paris, V, p. 522.

Ms. of Rothelin, p. 630.

Annales de Terre Sainte, p. 446.

حملة لتأديب المغيرين ، تعرّض لهزيمة ساحقة ، ولقي مصرعه . وإذ واجه أيبك مشاكل مع قادته ، ومنهم بيبرس ، أبرم معاهدة جديدة مع دمشق ، وتنازل عن فلسطين مرة اخرى ، بناء على توسّط الخليفة . غير ان كلاً من الدولتين الاسلاميتين ، دمشق والقاهرة ، جدّدت الهدنة مع الفرنج ، لمدة عشر سنوات ، على ان تدخل فيها منطقة يافا [1] .

الحرب حول دير القديس سابا سنة ١٢٥٦ :

ما اظهرته كل من القاهرة ودمشق من الصبر والاحتمال ، الذي أملاه عليهما ازدياد خوفهما من المغول ، انقذ الفرنج مما يستحقونه من النتائج التي نجمت عن الحرب الاهلية التي ما لبثت ان اندلعت بعد رحيل الملك لويس . فالمعروف ان مختلف التجار الايطاليين اضحوا يؤلفون انشط العناصر في كل ميناء بالشرق الفرنجي . إذ سيطر على تجارة البحر المتوسط الجمهوريات الثلاثة الكبيرة ، جنوة ، والبندقية ، وبيزا ، بما لها من جاليات في كل ميناء على الساحل الشرقي . وفيما عدا ما اشتهر به الداوية من اعمال الصيرفة ، امدت تجارة الايطاليين الشرق الفرنجي بمعظم ما حصل عليه من موارد ، كما انها كانت تعتبر بالغة النفع للأمراء المسلمين ، إذ أن رغبتهم من حين الى آخر في توقيع هدنة مع الفرنج ترجع الى حد كبير الى تخوفهم من انقطاع هذا المصدر المدر للربح . غير ان الجمهوريات الايطالية

---

(١) انظر :

Ms. of Rothelin, pp. 631 - 633.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.
Abu'l Feda, pp. 133 - 134.

اشتدّ بينها التنافس . فما وقع من نزاع بين بيزا وجنوة حمل الملك لويس على ارجاء إبحاره من قبرص سنة ١٢٤٩ ، ونشب القتال في شوارع عكا سنة ١٢٥٠ ، بعد ان لقي احد تجار جنوة مصرعه بيد احد البنادقة [١].

ولما ارتحل الملك لويس الى اوربا ، تجددت الفتنة . فالمعروف انه يفصل حي البنادقة عن حي الجنويين تل النبي صمويل ، الذي حـازه الجنويون باستثناء الصخرة التي تعلو قمته والتي يحتلهـا من قديم الزمن دير القديس سابا ، وزعمت كل من الجاليتين لنفسها امتلاك الدير . وحدث ذات صباح في اوائل سنة ١٢٥٦ ، وبينا كان رجال القانون يتجادلون في المسألة ، أن تملك الجنويون الدير ، ولما احتج البنادقة ، اطلقوا رجالاً مسلحين من التل فهبطوا الى حي البنادقة . وهرع البيازنة ، الذين سبق ان اجروا معهم اتفاقاً ، فانحازوا اليهم . وشهد البنادقة ، بعد ان أُخذوا على غرة ، مـا تعرضت له من النهب دورهم ، وسفنهم التي جرى ربطها الى الرصيف . ولم يطردوا الغزاة من حيّهم إلا بصعوبة . ففقدوا الدير وعـدداً كبيراً من سفنهم [٢] .

---

(١) انظر : Annales Januenses, p. 238.

انظر ما سبق ، ص ٤٥٠ .

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 443.

Annales Januenses, p. 239.

Dandolo, p. 365.

Heyd, Histoire de Commerce du Levant, I, pp. 344 - 354.

اورد هايد القصة الكاملة لحرب القديس سابا .

وفي تلك اللحظة ، ظن سيد تبنين وصور ، الذي ظل زمناً طويلاً ينازع البنادقة في حق تملكهم بعض القرى قرب صور ، انه تهيأت الفرصة لطردهم من ثلث مدينة صرر ، الذي حازوه بمقتضى المعاهدة التي انعقدت حينما تم الاستيلاء على صور ، سنة ١١٢٤ ، وإخراجهم من أملاكهم في ضواحيها . ونظراً لما وقع من خصومة بين البنادقة والجنويين ، لم يكن بوسع البنادقة ان يمنعوا فيليب مونتفورت . وإذ لم تكن حكومة جنوه راضية على ان تنشب الحرب مع البندقية ، عرضت وساطتها ، غير ان الغضب بلغ من الشدة عند البنادقة ما منع قبول عرض جنوه . واشتهر قنصل البندقية في عكا ، ماركو جويستياني ببراعته الدبلوماسية . على ان ما قام به من إجراء تعسفي ، أثار قلق أبناء عمومته من أسرة ابلين ، الذين اشتهروا بتعلقهم بالحقوق الشرعية . فارتاب نائب الملك ، يوحنا سيد أرسوف في ان أسرة مونتفورت تنوي إعلان استقلال صور عن حكومة عكا . ومع ان ما اتسمت بـه علاقات يوحنا سيد أرسوف بالبنادقـة من البرود يرجع اساساً الى ما اتخذه البنادقة من اتجاه فاتر نحو حملة لويس الصليبية ، فان قنصل البنادقة في عكا ، جويستياني ، استطاع ان يستميله الى جانبهم . أما يوحنا كونت يافا فلم يكن فعلاً في علاقات ودية مع الجنويين ، وقد حاول احد الجنويين ان يقتاله . وإذ انزعجت الطوائف (النقابات) Fraternities في عكا ، لما يسعى اليه فيليب مونتفورت من جعل صور منافساً تجارياً لمدينتهم عكا ، بذلوا عطفهم ومساعدتهم الى جويستياني ، الذي أقنع بدوره البيازنة ان الجنويين ليسوا إلا حلفاء محبين لأنفسهم ، لا يصح الركون اليهم او الثقة فيهم ، فظفر بمساندتهم . ثم انحاز اليه تجار مرسيليا الذين كانوا دائماً يحقدون على الجنويين ، بينما اتخذ جانب البنادقة تجار قطلونيا الذين حسدوا تجار مرسيليا . ولقي البنادقة المساندة

من فرسان الداوية والفرسان التيوتون ، واتخذ الاسبتارية جانب الجنويين . وفي أقصى الشمال انحـاز الى الجنويين أسرة امبرياكو التي كانت تحكم في جبيل والتي لم تنس أصلها الجنوي . فأرسل زعيم هـذه الأسرة ، هنري ، العساكر لمساعدة الجنويين في عكا ، متحدياً بذلك ما فرضه سيده ، بوهمند السادس امير انطاكية وطرابلس من قيود خاصة ، بعد ان وقع الشجار بينهما . وحاول بوهمند السادس ان يلتزم الحياد ، غير ان عواطفه كانت مع البنادقة ، على ان عداوتـه لبيت امبرياكو أجبرته على الانغماس في النزاع . اما أخته الملكة الوصية بلايسانس فليس بوسعها ان تفعل شيئاً ، إذ انهـا لم تثق الا في جيوفري سارجينس من رجال الشرق الفرنجي ، واذ كان سارجنس غريباً ، لم يكن له شيء من النفوذ او القوة المادية . وأخذت الحرب الأهليـة تعمّ مجتمع الشرق الفرنجي بأسره . لم تعد مسألة بارونات محليين اتحدوا لمناهضة سيد اجنبي ، مثلما حدث زمن فردريك الثاني . إذ أثار النضال مـــا وقع بين الأسرات من خصومات تافهة . فالمعروف ان ام فيليب مونتفورت ، وزوجة هنري سيد جبيل ، تنتميان الى أسرة ابلين ، كما ان جدة بوهمند السادس كانت من اسرة امبرياكو. غير ان اواصر القرابة أضحت لا قيمة لها[1] .

وعجلت حكومة البندقية باتخاذ اجراء سريع . فـلم يكد الجنويون يعلمون ان البيـازنة تخلوا عنهم ، حـتى اغاروا على حي بيزا في عكا ،

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 445.
Dandolo, pp. 366 - 367.
Annales Januenses, loc. cit.

فتهيأ لهم بذلك السيطرة على الميناء الداخلية . غير انه مـا كاد يتوافر لهم الوقت لمد سلسلة لتسد مدخل الميناء ، حتى أقلع اسطول ضخم للبنادقة بقيـادة امير البحر لورنزو تيبيولو ، فاقتحمت سفنه السلسلة ، وأنزلت الرجال على الرصيف . ودارت معركة في الشوارع راقت فيها الدماء ، وارتد الجنويون آخر الامر الى حيهم ، الذي كان يحميه حي الاسبتارية الواقع الى الشمال منه مباشرة . امـا دير القديس سابا فاحتله البنادقة ، غير ان البنادقة لم يستطيعوا طرد الجنويين والبيازنة من عمائرهم [١] .

الملكة بلايسانس في عكا سنة ١٢٥٨ :

حاولت بلايسانس ، في فبراير سنة ١٢٥٨ ان تفرض سلطتها ، فعبرت من قبرص مع ابنهـا الملك هيو الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره ، ونزلت بطرابلس عند اخيها بوهمند السادس الذي رافقها الى عكا. فتقررت دعوة المحكمة العليا للانعقاد ، فطلب اليها بوهمند التصديق على دعوى هيو ملك قبرص ، باعتباره وريث مملكة بيت المقدس الذي يلي كنرادين المتغيب ، بالاعتراف به حافظاً للسلطة الملكية ، والاعتراف بدعوى امه القيمة عليه ، وصية على العرش . غير انه خاب أمل بوهمند في ان سلطة اخته وقدومها الى عكا سوف ينهي الحرب الاهلية . ولم يكد يقر سادة ابلين كل مـا لهيو وبلايسانس من دعـاوى ، باستثناء حقوق الملك كنرادين ، ويلتقي

---

(١) انظر :

Dandolo, loc. cit.
Annales Januenses, p. 240.
Estoire d'Eracles, II, p. 447.

فرسان الداوية مع فرسان التيوتون على رأي واحد ، حتى بادر الاسبتارية الى التصريح بأن لا يجوز اتخاذ قرار في غيبة كنرادين ، متذرعين بالحجة التي سبق ان تغلبت في سنة ١٢٤٣ . وبذا انساقت الاسرة الملكية الى الحرب الاهلية ، بأن صار البنادقة يساندون بلايسانس وابنها ، على حين ان من سخرية التـــاريخ ، صار المدافع عن اسرة هوهنشتاوفن ، جنوه والاسبتارية وفيليب مونتفورت ، الذين كانوا جميعاً من ألدّ أعداء فردريك الثـــاني . على ان بلايسانس ظفرت بالوصاية بأغلبية الاصوات . ورفع اليها يوحنا سيد ارسوف استقالته بصفة رسمية من وظيفته على انه نائب الملك ، فأمرت بتعيينه في هـــذا المنصب من جديد . ثم عادت بصحبة أخيها ، بوهمند السادس ، الى طرابلس ، ومنها أبحرت الى قبرص ، بعد ان أصدرت التعليمات الى نائبها بأن يستخدم الصرامة في معالجة المتمردين[١] .

امـــا بطريرك بيت المقدس ، فكان جيمس بانتاليون ، ابن إسكافي في تروي . تقرر تعيينه بطريركاً في ديسمبر سنة ١٢٥٥ ، غير انـــه لم يصل الى عكا إلا في صيف سنة ١٢٦٠ ، حينما اندلعت الحرب الاهلية . ومع انه اظهر مقدرة فائقة منذ زمن قريب في معاملة الوثنيين في بلاد البلطيق ، فان الوضع في الشرق الفرنجي تجاوز قدرته . أصاب البطريرك فيما بذله من مساندة للملكة بلايسانس ، واستنجد بالبابا كيما يتخذ اجراء في ايطاليا فدعا البـــابا الاسكندر الرابع مندوبين عن الجمهوريات الايطالية الثلاثة ،

---

(١) انظر :
Assises, II. p. 401.
Estoire d'Eracles, II, p. 443.
Ms. of Rothelin, p. 643.
Gestes des Chiprois, pp. 149, 152.

لحضور محكمته في فيتربو ، وأمر بعقد هدنة مباشرة . فتوجه الى سوريا على سفينة جنوية مندوبان مفوضان من قبل كل من البندقية ، وبيزا ، بينما استقل سفينة بندقيـة ، مندوبان من قبل جنـوة ، كيما يقوموا بتسوية المشكلة بأجمعها . وارتحل المندوبون في يوليه سنة ١٢٥٨ ، غير انهم علموا اثناء الرحلة ، أنهم جاءوا متأخرين ، إذ ان جمهورية جنوة ارسلت فعـلا اسطولاً بقيادة روسو ديللا توركو ، وصل تجاه صور في يونيه سنة ١٢٥٨ ، فانحاز بها الى الاساطيل الجنوية في مياه الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وفي ٢٣ يونيه سنة ١٢٥٨ أبحر من صور الاسطول المشترك الذي تألف من ثماني وأربعين سفينة ، بينما سارت على الساحل صوب الجنوب ، سرية من عساكر فيليب مونتفورت . امـا البنادقة وحلفاؤهم البيـازنة فكان بحوزتهم ثماني وثلاثين سفينة بقيادة تيبيولو . ودارت المعركة الفاصلة في ٢٤ يونيه سنة ١٢٥٨ تجـاه عكا . اثبت تيبيولو براعته في تدبير الخطط الحربية . إذ فقد الجنويون بعد قتال عنيف اربعاً وعشرين سفينة ، والفاً وسبعمائة رجل ، وانسحبوا دون نظام . ومن بقي على قيد الحياة ، لم ييسر لهم العودة الى صور إلا نسيم هبّ فجأة من جهـة الجنوب . وفي تلك الاثناء أوقفت قوات عكا المحلية زحف فيليب مونتفورت ، وتعرض الحي الجنوي بداخل عكا للغـارة والنهب . وترتب على هزيـة الجنويين ، انهم قرروا الجلاء نهائياً عن عكا ، واتخاذ صور مستقراً لهم (١) .

---

(١) انظر :

Dandolo, p. 367.
Annales Januenses, p. 240.
Gestes des Chiprois, pp. 153 - 156.
Raynald, XXII, pp. 30 ff.
Estoire d'Eracles, II, p. 445.

ارسل البابا ، في ابريل سنة ١٢٥٩ ، الى الشرق مندوباً عنه ، توماس اجني لنتينو اسقف بيت لحم ، وأصدر اليه الأوامر بأن يسوّي ما وقع من نزاع . وحوالي ذلك الوقت مات يوحنا سيد ارسوف ، نائب الملك ؛ وعادت الى عكا الملكة بلايسانس ، فعينت في اول مايو سنة ١٢٥٩ ، جفري سارجينس نائباً للملك . كان جفري سارجينس رجلاً محترماً ، لا يميل الى الإكثار من الجدل والنقاش ، فاشترك مع المندوب البابوي في عقد الهدنة . وفي يناير سنة ١٢٦١ أسفر اجتماع المحكمة العليا الذي شهده مندوبون من الجاليات الايطالية ، عن الاتفاق الذي يقضي بأن يستقر الجنويون في صور ، بينما يتخذ كل من البنادقة والبيازنة مقرهم في عكا . وتمّ الوفاق من الناحية الرسمية بين المتحاربين من النبلاء والطوائف الدينية العسكرية . ولم تلبث الحرب ان نشبت من جديد ، وظلت مستعرة ، فألحقت الضرر بالتجارة وحركة الشحن على امتداد الساحل السوري[1] .

البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية سنة ١٢٦١ :

أنزلت هذه الحرب ايضاً الضرر بالفرنج النازلين في الشرق ، وراء الطرف السوري . اذ ان الامبراطورية اللاتينية المتداعية بالقسطنطينية لم تعش اساساً إلا بفضل مساعدة الايطاليين ، الذين خشوا ضياع امتيازاتهم التجارية . اذ كان للبندقية بما تحوزه من أملاك في القسطنطينية ذاتها ، وفي

---

(١) انظر : Tafel - Thomas, Urkunden, III, pp. 39 - 44.
Gestes des Chiprois, p. 156.
Annales de Terre Sainte, pp. 448 - 449.

جزائر بحر إيجه ، اهتمام خاص بالإبقـاء عليها . ولذا بذلت جنوه التأييد الفعلي للامبراطور البيزنطي القوي ميخائيل باليولوجس في نيقية . والمعروف ان ميخائيل باليولوجس وضع فعـلا الأسس اللازمة للبيزنطيين لاستعادة بلاد البيلوبونيز في سنة ١٢٥٩ ، بما أحرزه من انتصار باهر في بيلاجونيا ، في مقدونيا حيث وقع في أسره وليم فيلهاردوين امير أخـــايا مع كل باروناته ، وأجبر على ان يتنازل عن حصون : ماينا ، وميسترا ، ومونيمفاسيا التي تحكمت في الشطر الشرقي من شبه الجزيرة . وفي مــارس سنة ١٢٦١ وقّع ميخائيل باليولوجس معاهدة مع الجنويين ، جعل لهم بمقتضاها الافضلية في المعاملة ، في جميع ممتلكاته الحاضرة والمستقبلة . وبفضل مساعدة الجنويين دخلت عساكره القسطنطينية في ٢٥ يوليه سنة ١٢٦١ . وبـــذا زالت امبراطورية اللاتين الـــتي نبتت من الحمـــلة الصليبية الرابعـــة . فكل ما فعلته هذه الامبراطورية انها ألحقت الضرر بالشرق المسيحي [١] .

فما حدث من استرداد البيزنطيين للقسطنطينية ، وانهيار الامبراطورية اللاتينية ، ليس إلا نتيجة لما نشب من حرب حول دير قـديم في عكا . وكان ذلك ضربة قاصمة لهيبة اللاتين والبابوية ، وانتصاراً لليونانيين . على ان بيزنطة ، حتى بعـد استردادها لعاصمتها ، لم تعد الامبراطورية العالمية التي كانت في القرن الثاني عشر ، اذ انها أضحت دولة من دول بيزنطية عديدة . وأضحى في البلقان ، الى جانب ما تبقى من الامارات اللاتينية ،

---

(١) انظر : Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 538 - 539.
ومن المصادر البيزنطية الرئيسية : Pachymer, pp. 140 ff.
George Acropolita, I, pp. 182 ff.

مملكتان قويتان للبلغار والصرب . امـا في بلاد الاناضول فليس ثمة أمل في طرد الأتراك ، برغم ما ألحقه المغول بسلطنة السلاجقة من الضعف الشديد . والواقع ان تملك البيزنطيين لوطنهم القديم أدّى الى ازدياد مشاكل الأباطرة لا الى قوتهم . وكان الجنويون اكثر من أفاد من ذلك . إذ سبق ان تعرضوا للهزيمة في سوريا ، غـــير ان تحالفهم مع بيزنطة أتاح لهم السيطرة على تجارة البحر الاسود ، التي ازدادت في حجمها وأهميتها بعـد ان أدّت فتوح المغول الى تأمين طرق القوافل عبر آسيا الوسطى [1] .

واستطاع جيفري سارجنيس ، في الشرق الفرنجي بمـا يستند اليه من الذكرى التي خلفتها مكانة القديس لويس ، ان يعيد قدراً ضئيلاً من الأمن والنظام بين بارونات المملكة . ومع ان الملاحين الايطاليين قـد يواصلون القتال ، فإن العداوات الحادة بينهم تحطمت على صخرة الساحل . غير ان مـا كان من صداقة قديمة بين انصار مونتفورت وأنصار الابليين ، قـد ولّت ولن تعود . ولم تخف حدة العداء التقليدي بين الداوية والاسبتارية ، على حين ان الفرسان التيوتون اخذوا ، بعد ان يئسوا من مستقبل سوريا ، يوجهون اهتمامهم الرئيسي الى شواطىء بحر البلطيق النائية ، حيث حازوا منذ سنة ١٢٢٦ اراضي وقلاعاً مقابل ما يبذلونه من مساعدة في ترويض الوثنيين البروسيين والليفونيين ، وحملهم على اعتناق المسيحية [2] .

---

(١) انظر : Heyd, I, pp. 427 ff.

(٢) عن الفرسان التيوتون ، انظر : Strehlke, Tabulae Ordinis Teutonici.

لم تمتد سلطة جفري سارجينس الى كونتية طرابلس . فما كان بوهمند السادس يكنـّه من كراهية لتـابعه هنري سيد جبيل ، أدّت الى اندلاع الحرب بينهما . فلم يكتف هنري سيد جبيل بالتخلص من سيادة بوهمند ، وتأكيد استقلاله التـام بفضل مساعدة الجنويين ، بل ان ابن عمـه برتراند رئيس الفرع الاصغر من اسرة امبرياكو ، هاجم بوهمند في طرابلس ذاتها . ولما تقرر عزل الاميرة الارملة لوسيين عن الوصاية ، حرصت على ان تبقي كثيراً من اتباعهـا الايطاليين المحظوظين في الوظائف الهـامة بالكونتية (طرابلس) ، فاشتد حنق البارونات ، الذين ظفروا بزعامة برتراند امبرياكو ، الذي تملك ضياعاً شاسعة في جبيل وما حولها من الاراضي ، وصهره يوحنا الانطاكي ابن عم بوهمند وسيد البترون . وفي سنة ١٢٥٨ زحف البارونات على طرابلس حيث اقام بوهمند ، وألقوا الحصار على المدينة . وقام بوهمند بهجوم من داخل المدينة ، غير انه حلـّت بـه الهزيمة ، وأصابه جرح في كتفه من يد برتراند نفسه . وأجبر بوهمند على ان يبقى محاصراً في عاصمته الثانية (طرابلس) ، حتى انفذ اليه الداوية رجالاً لإنقاذه . وتحرّق بوهمند غيظاً للانتقام . فبينما كان برتراند يسير ذات يوم راكباً حصانه في احدى قراه ، هاجمه فجأة جماعة من الفلاحين المسلحين ، واجتزوا رأسه ، وأرسلوه هدية الى بوهمند . ومـا من احد ارتاب في ان بوهمند هو الذي أوحى بقتله ، وخدم هـذا الحادث في الوقت الراهن غرض بوهمند ، إذ استبد الخوف بالعصاة المتمردين فلجأوا الى جبيل . على انه وقع منذئذ العـداء والثأر بين بيتي انطاكية وأمبرياكو (جبيل) [1] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 157 - 160.

Rey : « Les Seigneurs de Giblet », in Revue de l'Orient Latin, III, pp. 399 - 400.

هيو ملك قبرص يصير وصياً على مملكة بيت المقدس سنة ١٢٦٤ :

زالت حكومة جفري سارجينس سنة ١٢٦٣ ، إذ أن بلايسانس ملكة قبرص ماتت في سبتمبر سنة ١٢٦١ ، واشتد الحزن على وفاتها ، لما كان لها من شخصية بالغة الاكتمال . لم يتجاوز ابنها هيو الثاني وقتذاك الثامنة من عمره ، واحتاج الامر تعيين وصي جديد على قبرص وبيت المقدس . وإذ كان لهنري الاول والد هيو اختان ، تزوجت كبراهما ، ماريا من والتر بريين ، وماتت صغيرة السن ، بعد ان خلفت وراءها ابناً ، هو هيو ؛ أما الصغرى ، وهي ايزابيللا ، فتزوجت من هنري شقيق بوهمند الخامس امير انطاكية ، ولا زالت على قيد الحياة . وكان ابنها هيو يكبر في السن ابن خالته هيو بريين الذي تولت ايزابيللا ايضاً تربيته مع ابنها . ومع ان هيو بريين يعتبر الوريث التالي للعرش ، فإنه لم يودّ ان ينافس خالته وابنها على الوصاية على العرش . وقررت المحكمة العليا بقبرص بعد المناقشة والمداولة ، رفض دعوى ايزابيللا ، وأقرّت دعوى ابنها ، نظراً لأن الرجل يفضل المرأة في الوصاية ، فتقرر تعيينه وصياً باعتباره اكبر الامراء الذي يجري فيهم الدم الملكي ، اما المحكمة العليا في بيت المقدس فتهيأت لها فسحة من الوقت لإنعام النظر في امر الوصاية . إذ لم تقدم ايزابيللا وزوجها هنري الى عكا إلا في ربيع سنة ١٢٦٣ ، فاعترف نبلاء عكا بها وصية ، غير انهم رفضوا ان يبذلوا لها يمين الولاء ، بعد ان ساورهم

= كان يوحنا لا وليم (حسبا ورد خطأ في فهرس الجستا الذي نشره ماس لاتريه) سيداً للبترون. اما ابوه، وليم، فانه لقي مصرعه في وقعة الحربية (La Forbie) غزه سنة ١٢٤٤ .

من الشكوك ما كانوا يجهلونه حتى وقتذاك . ولو ان الملك كنرادين كان حاضراً ، لما حدث شيء من هذا القبيل . إذ أن جفري سارجينس استقال من منصبه ، نائب الملك ، الذي جعلته الوصية لزوجها . ثم عادت ايزابيللا منفردة فرحة مسرورة الى قبرص ، بعد ان تركت زوجها في عكا .

على ان ايزابيللا ماتت بقبرص في السنة التالية ، فأضحت الوصاية على بيت المقدس شاغرة مرة اخرى . فطالب بالوصاية هيو الامير الانطاكي الوصي على قبرص ، باعتباره ابن ايزابيللا ووريثها ، غير ان هيو برين تقدم من جانبه بدعوى معارضة . إذ أعلن أنه بنــاء على العرف السائد بفرنسا ، والمتبع في الشرق الفرنجي ، يكون لابن البنت الكبرى السابقة في الحكم على ابن البنت الصغرى ، بصرف النظر عن أيهما كان اكبر سناً . غير أن رجال القانون بالشرق الفرنجي اعتبروا صلة القرابة بآخر من تولىّ هذا المنصب هي العامل الحاسم في تقرير ذلك . ولما كانت ايزابيللا آخر من تولى الوصاية ، كان لابنهــا هيو الأسبقية على ابن خالته في الوصاية . فأعلن النبلاء وكبار الموظفين بالإجماع الاعتراف بوصايته ، وحلفوا له يمين الولاء التي سبق ان انكروها على أمــه . وبادرت القومونات والجاليات الاجنبية الى اعلان اخلاصها ، كما اعترف به مقدما الداوية والاسبتارية . وعلى الرغم من ان الايطاليين لا زالوا يقاتلون بعضهم بعضاً في البحار ، فإنـــه ساد المملكة جو من الوفاق وإن كان ظاهرياً ، وذلك بفضل ما اشتهر بـــه هيو من النشاط . لم يعين هيو نائباً عنه ليحكم في البر السوري ، فظل يتنقل بين قبرص وعكا . فإذا أقام بقبرص عهد بحكومة عكا الى جفري سارجينس الذي اضحى صنجيلاً للمملكة مرة اخرى ، فأصبحت الادارة من جديد في يدي رجل محترم ، إذ أن اخطاراً جسيمة

متزايدة تلوح في الأفق[1] .

آخر حملة صليبية قام بها الملك لويس، سنة ١٢٧٠ :

لم ينسَ الملك لويس مطلقاً الارض المقدسة . فدأب كل سنة على ان يرسل مبلغاً من المال للإنفاق على جماعة صغيرة من العساكر ، كان قد خلّفها وراءه بعكا تحت قيادة جفري سارجينس . وظل هذا الإجراء مستمراً ، حتى بعد وفاة سارجينس ، وبعد وفاته هو ايضاً . اذ كان لويس يأمل دائماً في انه سوف يتوجه مرة اخرى في حملة صليبية في يوم من الايام ، غير ان حاجات بلاده لم تهيىء له فرصة للراحة . فلم يحس ان بوسعه إعداد حملة صليبية جديدة إلا في سنة ١٢٦٧ ، بعد ان حلّ به الإرهاق والمرض ، فشرع يعدّ في بطء التدابير اللازمة ، وفي توفير الاموال الضرورية . وفي سنة ١٢٧٠ أضحى مستعداً للإقلاع الى فلسطين[2].

على ان هذا المشروع الصليبي تعرّض شكله للانتقاص والالتواء والدمار على يد شارل شقيق الملك لويس . اذ حدث سنة ١٢٥٨ ان الطفل كنرادين الملك الاسمي لصقلية وبيت المقدس ، عزله عن العرش وحلّ مكانه في الحكم عمه مانفرد، وهو ابن غير شرعي للامبراطور فردريك الثاني. وحاز مانفرد قدراً كبيراً مما اشتهر به ابوه فردريك من الألمعية والغطرسة ، ولقي من

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 75 - 77.
Hill, op. cit. pp. 151 - 154.
إذ ناقشا ما يتعلق بالوصاية من النواحي القانونية، انظر ايضاً المراجع الواردة بهذين الكتابين .

(٢) انظر : Joinville, pp. 210 - 212.

البابوية ما لقيه ابوه من الكراهية . وأخذ البابوات يلتمسون اميراً يحملونه مكانه على عرش صقلية ، التي خضعت عرفاً وتقليداً لسيادتهم . وعثر البابوات على ضالتهم في شارل كونت انجو ، بعد ان استعرضوا ادموند دوق لانكستر ابن هنري ملك انجلترا . على ان شارل لم يحز إلا قدراً ضئيلاً مما يتصف به اخوه لويس من القداسة ، فاتصف بالبرود والقسوة والطموح الذي لا حدّ له . اما زوجته ، الكونتيسة بياتريس ، وريثة بروفانس وشقيقة ثلاث ملكات ، فتطلعت الى ان تتخذ التاج ايضاً . وفي سنة ١٢٦١ أضحى جيمس بانتاليون بطريرك بيت المقدس ، بابا باسم اربان الرابع . فلم يلبث ان أقنع لويس بأن استئصال شأفة الهوهنشتاوفن من صقلية يعتبر خطوة تمهيدية لا بد منها لضمان نجاح كل حملة صليبية مستقبلة .

وافق لويس على ترشيح اخيه ليتولى عرش صقلية ، بل انه قرر فرض ضرائب في فرنسا لصالحه . ومع ان البابا اربان الرابع مات في سنة ١٢٦٤ ، فان خليفته ، كلمنت الرابع ، وهو فرنسي ايضاً ، أتمّ الاتفاق مع شارل كونت انجو ، الذي زحف سنة ١٢٦٥ على ايطاليا ، وأنزل الهزيمة بمانفرد وقتله في معركة بنيفنتو . وبفضل هذا الانتصار أضحى جنوب ايطاليا وصقلية في حوزة شارل ، وظفرت زوجته بالتاج الذي كانت تنشده . وحدث بعد ثلاث سنوات ان قام كنرادين بمحاولة باسلة لاسترداد تراثه بإيطاليا ، غير انه تعرّض لكارثة ساحقة قرب تاجليكوتسو ، ووقع في الأسر كنرادين آخر سلالة هوهنشتاوفن ، وهو صبي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وتقرر اعدامه . ازداد شأن مطامع شارل ، اذ أراد ان يسيطر على كل ايطاليا ، ولا بد له من استعادة القسطنطينية من أيدي اليونانيين المنشقين ، وأراد ان يقيم في حوض البحر المتوسط امبراطورية كالتي كان

يحلم بهـا دون طائل اسلافه النرمان . وأخذ البابا كلمنت يخشى الوحش الذي نصّبه ، غير انه لم يلبث ان مات سنة ١٢٦٨ . وظلّ شارل ثلاث سنوات يعطّل انتخاب بابا جديد ، بمـا لجأ اليه مع الكرادلة من تدبير المؤامرات . ومـا كان لأحد ان يناوئه ، غير انه أقلق باله حرص اخيه على القيام بحملة صليبية ، فلا بد من الإفادة من الفرنسيين والأموال الفرنسية لمصلحته ، لا لمساندة مملكة ثانية ليس مستعداً في الوقت الراهن ان يهتم بها . كان شارل يأمل في الحصول على مساعدة لشنّ هجوم على بيزنطة ، فاذا لم يتيسر ذلك ، فلا أقل من ضرورة تحويل الحملة الصليبية الى جهة يصحّ ان يجني من ورائها ثمرة وربحاً (١) .

كان المستنصر امير تونس الذي يسيطر على ساحل افريقيـة المواجه لجزيرة صقليـة ، معروفاً بالميل الشديد نحو المسيحيين ، غير انه أساء الى شارل بإيواء بعض العصاة من جزيرة صقلية . وأقنع شارل أخاه لويس ، الذي لم تحجب التجربة ما اشتهر به من التفاؤل من أجل الايمان ، أن أمير تونس مستعد للتحول الى المسيحية . فإظهار قدر قليل من القوة كفيل بجعـله يعتنق المسيحية ، كما انه سوف يضاف الى المسيحية اقليم جـديد يقع في بقعة بالغة الأهمية الاستراتيجية لكل حملة صليبية جديدة . على ان ما ألمّ بلويس من مرض يصحّ ان يثنيه عن قراره ، كما ان أصدقاءه العقـلاء

---

(١) انظر : Jordan, Les Origines de la Domination Angevine en Italie, passim.
Hefel - Leclerc, op. cit.
Powicke, op. cit. II, pp. 598 - 599.

يناقش بويك سياسة شارل انجو .

امثال جوانفيل لم يخفوا كراهيتهم للمشروع . غير ان لويس وثق في اخيه ، شارل انجو . ففي اول يوليه سنة ١٢٧٠ أقلع لويس من ايج – مورت على رأس حملة ضخمة ، وصحبه فيها أبناؤه الثلاثة الذين بقوا على قيد الحياة ، وصهره تيبالد ملك نافار ، وابن اخيه روبرت كونت ارتوا ، وكونت بريتاني ، وكونت لامارش ، وولي عهد الفلاندر ، وجميعهم أبناء رفاقه في حملته الصليبية السابقة ، فضلاً عن كونت سانت بول الذي بقي على قيد الحياة من تلك الحملة ، وكونت سواسون . ووصل الاسطول قبالة قرطاجنة في ١٨ يوليه سنة ١٢٧٠ في أشد اوقات صيف افريقية حرارة ، ولم يظهر امير تونس من الدلائل مـا يشير الى رغبته في التحول الى المسيحية ، بل انه عوضاً عن ذلك أعاد تحصين عاصمته ، وعزز حاميتها . على انه لم يكن في حاجة الى القتال ، اذ ان المناخ أدّى له ما أراد ان يفعله ، فسرعان ما تفشى المرض في المعسكر الفرنسي ، فوقع فريسة المرض الوف الأمراء والفرسان والعساكر ، وكان الملك من أوائل الذين عصف بهم الوباء . فلما وصل شارل انجو بجيشه في ٢٥ اغسطس سنة ١٢٧٠ ، علم ان أخاه قد مات منذ ساعات قليلة . واشتد المرض بفيليب ولي عهد فرنسا ، اما يوحنا تريستان الذي جرت ولادته بدمياط ، فكان يحتضر . وما اشتهر به شارل من القوة والنشاط ، حفظ الحملة من الكارثة حتى الخريف ، حينما بذل امير تونس مبلغاً من المال على سبيل التعويض ، فعاد الى ايطاليا ، غير ان الحملة في مجموعها قد تبدّدت [١] .

---

(١) انظر : Joinville, pp. 262 - 265.

Sternfeld, Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis, passim.

لما وصلت الى الشرق أنباء كارثة تونس ، ازداد ارتياح المسلمين ، بينما غمر المسيحيين حزن عميق ، وكان لهذا الحزن والأسى مـا يبرره . فلن يخرج من جديد من بلاد الفرنج جيش ملكي لإنقاذ من كان منهم بالشرق الفرنجي . كان لويس من كبار ملوك فرنسا وأكثرهم صلاحاً وتقوى ، غير انه لم يجلب لفلسطين التي أحبها من كل قلبه إلا الخيبة والأسى . وحينما كان على فراش الموت ، كان يفكر في المدينـــة المقدسة التي لم يشهدها مطلقاً ، والتي لم تثمر جهوده لتخليصها ، وكان آخر ما فاه به من كلمات : بيت المقدس .. بيت المقدس [1] .

---

(١) انظر : William of Saint - Pathus, pp. 153 - 155.

الفصل الثالث

المغول في بلاد الشام

لما وصل وليم روبروق الى بلاط الخان الكبير ، في الايام الاخيرة من سنة ١٢٥٣ ، صادف حكومة بالغة الاختلاف عن تلك التي سبق ان احتفلت بأندرو لونجيمو ، المبعوث السابق للملك لويس . فحينما مات كيوك بن اوكيتاي سنة ١٢٤٨ ، قـامت ارملته اوغول قيميش بالوصاية على ابنائها الصغار ، قوشو ، وَنَقو ، وقوغو . غير أنها لم تكن تصلح للحكم ، لما اشتهرت به من الشحّ والبخل والميل الى السحر ، وما من أحد من ابنائها كان يبشر بقدرة فائقة . على حين ان ابن عمهم ، شيرامون ، الذي أعدّه جده اوكيتاي ليخلفه على العرش ، دأب على تدبير المؤامرات لهم . غير ان المعارضة بالغة العنف جاءت نتيجة التحالف الذي قـام بين باطو ، نائب الخان في الغرب ، وبين الاميرة سورخقتاني ، ارملة طولوي اصغر ابناء جنكيزخان . وإذ كانت تنتمي الى الكرايت بحكم مولدها ، وشديدة التمسك ، شأن جنسها ، بالمسيحية النسطورية ، لقيت تقديراً واحتراماً كبيراً لما اشتهرت به من الحكمة والاستقامة . اراد اوكيتاي ان

يزوجها لابنه كيوك ، بعد وفاة زوجها ، غير انها رفضت في لباقة ، وأشارت بأنها تؤثر ان تكرس حياتها لتربية ابنائها الاربعة المشهورين ، منكو ، وقبيلاي ، وهولاكو ، وأريق بوقا . ولما تولى كيوك فحص ما للأسرة المالكة من موارد مالية ، كانت هي وأولادها وحدهم ، هم الذين دلوا على انهم لم يتصرفوا إلا على اساس الأمانة التامة . هام بحبها واشتد اعجابه بها باطو ، الذي لم يندمل مطلقاً العداء بينه وبين كيوك . وإذ أيقن باطو بأن حقه في الوصول الى العرش أضعفه دائماً ما ثار من الشكوك حول شرعية بنوة ابيه ، جوجي ، انحاز اليها في الدفاع عن حقوق ابنها منكو في العرش . قدم باطو الى منغوليا ، وباعتباره من كبار امراء بيت جنكيزخان دعا المجلس الوطني (القوريلتاي) للانعقاد ، فانتخب في اول يوليه سنة ١٢٥١ منكو خاناً كبيراً . وعلى الرغم من محاولات سورخقتاني الصادقة لاسترضاء أحفاد اوكيتاي ، فانهم رفضوا شهود القوريلتاي ، بل انهم تآمروا لمهاجمة اعضائه عند انهماكهم في الشراب أثناء الاحتفالات التي تعقب حفلة القوريلتاي الافتتاحية . وحبطت المؤامرة ، وانتصر منكو على كل منافسيه ، بعد حرب اهلية ظلت دائرة سجالاً نحو سنة ، فاستقر خاناً كبيراً في قراقورم . أما الوصية على العرش اوغول قيميش ، ووالدة شيرامون فتقررت ادانتها بالسحر ، وقتلها غرقاً ، وتمّ ارسال امراء بيت اوكيتاي الى المنفى [1] .

وإذ تولى منكو العرش ، أحيا المغول سياستهم التوسعية . عاد كبار

---

(١) انظر : William of Rubruck, (ed. Rockhill), pp. 163 - 164.
Howorth, History of the Mongols I, pp. 170 - 186.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 306 - 311.

الأمراء الى حكوماتهم ، إذ صارت الأقاليم الشرقية موكولة الى قبيلاي ، ثاني اخوة مونكو ، فنهض لفتح الصين بكل ما توافر له من نشاط وما اتخذه من أساليب وطرق. تحوّل قبيلاي الى البوذية ، واتسمت حروبه ومعاملته للمغلوبين على امرهم بالانسانية والرفق . وبقي في منغوليا منكو وشقيقه الأصغر اريق بوقا للإشراف على ضبط هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . اما ورثة جغتاي في تركستان ، فشرعوا في القيام بمحاولات تمهيدية لمدّ سلطانهم الى الهند عبر هضبة البامير . ونقل باطو مقرّه الى الروافد السفلى لنهر الفولجا ، كيما يسيطر على اتباعه الأمراء في روسيا ، وأنشأ بتلك الجهات الخانية التي أطلق عليها المؤلفون المسلمون اسم القبجاق ، والتي اشتهرت عند المغول والروس باسم القبيلة الذهبية (Golden Horde). امـا حكومة فارس فانتقلت الى يد هولاكو ، ثالث اخوة منكو ، فأضحت جهود المغول الرئيسية موجّهة الى طرف فارس ، وطرف قبيلاي في الشرق [١] .

تحالف الارمن مع المغول سنة ١٢٥٤ :

كانت مملكة الارمن بقليقية اول الإمارات التي تحف بالبحر المتوسط إدراكاً لأهمية الزحف المغولي . فالمعروف ان الارمن شهدوا في اهتمام بالغ ما أصاب الجيش السلجوقي من هزيمة ساحقة سنة ١٢٤٣ امام الحملة المغولية التي قادها احد ولاة الأقاليم . فصار بوسعهم ان يقدّروا ما يكون عليه

---

(١) انظر : Grousset, op. cit. pp. 312 - 313, 364 - 366.
Jakoubvski and Grekov, La Horde d'Or, pp. 98 - 120.

جيش الامبراطور من قوة لا سبيل الى مقاومتها ولذا كان الملك هيثوم مصيباً حينما ارسل سنة ١٢٤٣ الى بيجو كتاباً يفيض بالولاء والاحترام. غير ان المغول انسحبوا وقتئذ، واسترد كيخسرو ما فقده من لراضيه ببلاد الاناضول، وأخذ من جديد يضغط على ارمينية، يساعده الامير الارمني الثائر، قنسطنطين سيد لامبرون [1]، قدر هيثوم ان المغول سوف يعودون، وأنـه سوف يكون لهم قيمة وأهمية للعالم المسيحي في آسيا، وله بصفة خاصة، فأنفذ في سنة ١٢٤٧ اخاه الكندسطبل سمباد في سفارة الى بلاط الخان الكبير، فوصل سمباد الى قراقورم سنة ١٢٤٧، قبيل وفاة كيوك. فاستقبله كيوك بكل مودة، ولما سمع بأن هيثوم مستعد لأن يعتبر نفسه من اتباع الخان الكبير، وعد بأن يبذل للأرمن المساعدة اللازمة لاسترداد ما انتزعه السلاجقة من المدن. ورجع سمباد يحمل تقليداً من الخان الكبير بكفل سلامة ممتلكات هيثوم ووحدتها [2]. غير ان وفاة كيوك اوقفت كل اجراء مباشر، وإذ سمع هيثوم بأن تولى عرش المغول خان آخر قوي، توجه الى قراقورم [3].

---

(١) انظر : Ibn Bibi, (ed. Houtsma), pp. 243, 249 - 250.
Sempad, pp. 649 - 651.
Kirakos, trans. Brosset, p. 142.
Vincent of Beauvais, pp. 1295 - 1296.

(٢) انظر : William of Nangis, pp. 361 - 363.
الذي اورد رسالة سمباد الى هنري ملك قبرص.

(٣) انظر : Ibn Sheddad, Geography, (ed. Cahen), in Revue des Etudes Islamiques (1936), p. 121.
Bar - Hebraeus, (trans. Budge), pp. 418 - 419.

اضحت قراقورم وقتئذ مركز الدبلوماسية في العالم . فحينما وصل اليها سنة ١٢٥٤ ، وليم روبروق ، سفير الملك لويس التاسع ، لقى سفارات من قبل الامبراطور اليوناني ، ومن لدن الخليفة العباسي ، ومن عند ملك دلهي ، ومن جهـــة السلطان السلجوقي ، كما صادف امراء من الجزيرة وكردستان وروسيا ، وجميعهم يقفون في خدمة الخان الكبير . وأقام بقراقورم كثير من الاوربيين ، منهم تاجر جواهر من باريس مع زوجته المجرية ، وامرأة الزاسية تزوجت الى مهندس رومي [١] ، ولم يكن بالبلاط شيء من التفرقة العنصرية او الدينية . على ان الوظائف العليا بالجيش والحكومة ، اختص بها افراد من الاسرة الامبراطورية ، ومع ذلـك فإنه كاد يكون من كل الامم الاسيوية وزراء وحكام اقاليم . وعلى الرغم من ان منكو يدين بعقيدة اسلافه ، الشامانية ، فإنه كان يشهد الاعياد البوذية والمسيحية والاسلامية دون تفرقة او تمييز . إذ سلم بوجود إله واحد ، يعبده كل انسان حسبما شاء ، على انه كان للمسيحيين النساطرة أقوى نفوذ ديني ، فحباهم منكو بعطف خاص ، تخليداً لذكرى امـــه سورجقتاني ، التي ظلت دائماً وفية لعقيدتها ، على الرغم من ان كان لها من سعة العقل ، ما جعلها تهب الاحباس لمدرسة للدين الاسلامي ببخارى . وكانت الامبراطورة كوتوكتاي وكثيرات

---

(١) انظر : William Rubruck, (trans. Rockhill), pp. 165 ff. 176-177
يشير روبروق الى رجل انجليزي اسمه باسيل ، ولد ببلاد المجر وعاش في قراقورم . (انظر : Ibid, 211) . ويصف ابن العبري هيثوم وملكي الكرج في قراقورم ، مع السفارات القادمة من حلب ، ومن قبل الفرنج ، والحشيشية ، وذلك في المجلس الوطني ، القوريلتاي ، الذي انعقد عقب وفاة اوكيتاي . انظر : Bar - Hebraeus, p. 411.

من زوجاته الآخريات على المذهب النسطوري ايضاً [١] . وأعلن وليم روبروق ارتياعه لما كان عليه رجال الكنيسة النساطرة من الجهل والانغماس في المباذل ، فلم تزد صلواتهم على فجور السكارى . وشهد في يوم من ايام الآحاد الامبراطورة تترنح عند عودتها من القداس . وكلما ساءت اموره ، نزع الى ان يلقي باللوم على ما وقع من تنافس في هذه الهيئة الملحدة [٢] .

وليم روبروق في قراقورم سنة ١٢٥٤ :

الواقع ان سفارة روبروق لم تظفر بنجاح كبير . إذ اجتاز في سفره عاصمة باطو على نهر الفولجا ، حيث التقى بسارتاق بن باطو ، الذي اشتهر بميله للمسيحيين على الرغم من انه لم يكن مسيحياً ، فبعث به باطو الى منغوليا . وتولت الحكومة الانفاق عليه في سفره على امتداد الطريق التجاري الكبير ، وتهيأت له اسباب الراحة والأمن ، على الرغم من ان اياماً بأكملها كانت تنقضي دون ان يشهد داراً واحدة . ثم وصل في نهاية ديسمبر سنة ١٢٥٣ الى معسكر الخان الكبير الذي يقع على مسافة بضعة

---

(١) انظر : Howorth, op. cit. I, pp. 188 - 191.
ماتت سورجقتاني في فبراير سنة ١٢٥٢ . وأطلق عليها ابن العبري « الملكة الكاملة العقل والدين » . انظر : Bar - Hebraeus, p. 417.
William of Rubruck, (trans. Rockhill), pp. 184 - 186.
Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », loc. cit. p. 198.
روى هولاكو للمؤرخ الارمني فارطان ان امه كانت مسيحية شديدة الايمان . انظر :
Vartan, Armenian Text, ed. Emin, p. 205.
(٢) انظر : William of Rubruck, loc. cit.

أميال الى الجنوب من قراقورم . فمثل بين يدي منكو في ٤ يناير سنة ١٢٥٤ ، ولم يلبث ان ارتحل مع البلاط الى قراقورم . فألفى الحكومة المغولية قد عزمت، فعلاً على مهاجمة المسلمين في غربي آسيا ، وأنها على استعداد لمناقشة ما يصح اتخاذه من اجراء مشترك . على انه اعترض ذلك عقبة لم يتيسر التغلب عليها . ذلك ان الخان الكبير لا يقبل مطلقاً ان يكون في العالم سيد سواه .

والواقع ان سياسته الخارجية كانت بالغة البساطة . إذ ان أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له ، اما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم او إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له . وكل ما استطاع وليم روبروق أن يحصل عليه ، هو انه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى مساعدة كبيرة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم . على ان ملك فرنسا لا يستطيع التفاوض على أساس هذه الشروط . وغادر وليم روبروق قراقورم في اغسطس سنة ١٢٥٤ ، بعد ان أدرك مثلما أدرك كثيرون من السفراء الذين جاؤوا من بعده الى بلاط ملوك أقاصي آسيا ، أن ملوك الشرق لا يفقهون تقاليد الدبلوماسية الغربية او مبادئها . فارتحل راجعاً الى بلاط باطو ، بعد ان اخترق آسيا الوسطى ، ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول الى ارمينية ، ومنها الى عكا . ولقي وليم روبروق في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسول يقصد الخان الكبير [١] .

---

(١) انظر : Ibid, pp. 165 ff.

ووصل الى قراقورم هيثوم ملك ارمينية ، عقب رحيل وليم روبروق . قدم من تلقاء نفسه على انه تابع للخان الكبير . وحاز حظوة خاصة عنده ، نظراً لأن سائر الزائرين الاجانب ، إما كانوا اتباعاً جرى استدعاؤهم برغم ارادتهم ، وإما كانوا ممثلين لملوك زعموا لأنفسهم في تعاظم وتعال الاستقلال . ففي حفل الاستقبال الرسمي الذي اقامه له منكو في ١٣ سبتمبر سنة ١٢٥٤ ، منحه الخان وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة ، وعدم انتهاك حرمتها . وجرت معاملته على انه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا . ووعده منكو بأن يعفي كل الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب . وصرح بأن اخاه هولاكو ، الذي استقر في فارس ، قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد ، وتدمير سلطان الخلافة ، وتعاهد انه اذا تعاون معه كل القوى المسيحية ، فسوف يعيد الى المسيحيين بيت المقدس ذاتها . وغادر هيثوم قراقورم في اول نوفمبر سنة ١٢٥٤ ، مثقلاً بالهدايا ، ومبتهجاً بما تكللت به جهوده من نجاح . وارتحل عائداً الى بلاده ، وقد سلك طريق تركستان وفارس ، حيث بذل لهولاكو مظاهر الاحترام ، ثم عاد الى ارمينية في شهر يوليه التالي (سنة ١٢٥٥) [١] .

---

(١) انظر :

Kirakos, pp. 279 ff.
Vahram, Rhymed Chronicle, p. 519.
Bar - Hebraeus, pp. 418 - 419.
Hayton, Flor d'Estoires, pp. 164 - 166.
Bretschnieder, Medieval Researches, I, pp. 164 - 172.

من الطبيعي ان يتفاءل هيثوم ، غير ان هـذا التفاؤل تجاوز الحدود قليلاً ، فمن المحقق ان المغول كانوا حريصين على السيطرة على الخلافة وإلا دمروها . فالمعروف ان رعاياهم من المسلمين كانوا من الكثرة انه اضحى من الامور الجوهرية لهم ان يسيطروا على اهم نظام ديني في العالم الاسلامي . لم يخصوا الاسلام بعداوتهم باعتباره ديانة . ومع انهم جعلوا للمسيحية من الحظوة مـا يفوق سائر الديانات الاخرى ، فانهم ايضاً لم يقصدوا السماح بقيام امارات مسيحية مستقلة . فاذا عادت بيت المقدس للمسيحيين ، فانما تعود اليهم في نطاق الامبراطورية المغولية . ومن الطريف ان نتصور فيما قـد يحدث لو تحققت اطماع المغول في غرب آسيا . فالراجح ان تقـوم خانية مسيحية كبيرة ، وأنه سوف يجري في الوقت المناسب خروجها من يد السلطة المركزية في منغوليا . ولم يخطر على البـــال ما كان يحلم به القديس لويس بأن المغول سوف يصبحون أبنـاء أوفياء لكنيسة روما . وما قد يقوم في غرب آسيا من امارات مسيحية ، لن تبقى مستقلة . فما قـــد يحرزه المغول من انتصار يصح ان يفيد مصالح العالم المسيحي في مجموعه ، أما الفرنج بالشرق الفرنجي الذين أدركوا اتجاه الخان الكبير نحو الامراء المسيحيين ، فلا يصح توجيه اللوم لهم لأنهم يؤثرون المسلمين الذين عرفوهم على هـذا العنصر الغريب الهمجي المتغطرس القادم من الصحارى النائية ، والذي كان سجله في شرق اوربا داعياً للنفور (١) . على ان محاولة

---

(١) دافع عن اتجاه الفرنج :

Cahen, La Syrie du Nord, pp. 708 - 709.

Grousset, Histoire des Croisades.

هيثوم لإقامة تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول لقيت قبولاً حسناً من المسيحيين الوطنيين ، فأعلن انحيازه اليه بوهمند امير انطاكية الذي خضع لنفوذ صهره (هيثوم) . أما الفرنج بآسيا فالتزموا الحياد[1] .

الجيش المغولي يتحرك صوب الغرب سنة ١٢٥٦ :

حدث في يناير سنة ١٢٥٦ ان اجتاز نهر جيحون جيش مغولي ضخم بقيادة هولاكو ، شقيق الخان الكبير . وكان هولاكو يشبه اخاه قبيلاي في انه فاق في التعليم معظم امراء المغول . إذ شغف بالعلماء ، وشارك في الفلسفة والكيمياء ، واستهوته البوذية مثلما استهوت قبيلاي ، غير أنه لم يتخل مطلقاً عن ديانة أجداده ، وهي الشامانية ، كما أنه أعوزه ما اشتهر به اخوه قبيلاي من حب الخير والنزعة الانسانية . كان هولاكو يعاني نوبات صرع ، ولعلها أثرت في مزاجه الذي لا يصح الركون اليه والوثوق به . ولم يختلف عن أسلافه في شدة قسوته مع المغلوبين على امرهم . غير انه ليس لدى المسيحيين من الدواعي ما يحملهم على الشكوى منه . وكان لزوجته طقز خاتون أقوى نفوذ في بلاطه ، وكانت هذه السيدة المشهورة ، من اميرات قبيلة الكرايت ، حفيدة لطغرل خان ، فتعتبر ابنة عم والدة

= دأب جروسيه على الاشارة الى ما أضاعه الفرنج من الفرص برفضهم التحالف مع المغول . وعلى الرغم من دراية جروسيه بتاريخ المغول ، فانه فيما يبـــدو اغفل استحالة اعتراف الخان الكبير بالفرنج مستقلين لا اتباعاً له . ولم يقر المغول بأن تقوم امارات اجنبية مستقلة .

(١) انظر ما يلي ص ٥٢٨ وما يليها .

هولاكو . وكانت شديدة التعلق بالنسطورية ، فلم تخف كراهيتها للاسلام ، وحرصها على مساعدة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم (١) .

كان اول هدف لهولاكو ، هو الاستيلاء على مقر الحشيشية في فارس . فمن المستحيل ان تقوم حكومة منظمة ما لم يتحطم مذهب الحشيشية . فما ألحقه الحشيشية بصفة خاصة بالمغول من الاذى هو انهم اغتالوا جغتاي ، ثاني أبناء جنكيزخان . وكانت بغداد ثاني اهداف هولاكو ، ثم يمضي الجيش المغولي بعدئذ الى الشام . وتم إعداد كل شيء بدقة وعناية ، فتقرر إصلاح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس ، وجري تشييد الجسور . وتم تجهيز العربات اللازمة لجلب ادوات الحصار من الصين ، وخلت المروج من القطعان ، حتى تغزر الاعشاب اللازمة لأفراس المغول . واصطحب هولاكو ، طقز خاتون وزوجتين أخريين ، وولديه الكبيرين . وكان يمثل بيت جغتاي ، حفيده نيقودار . وأرسل باطو من القبيلة الذهبية ثلاثة من أبناء اخيه ، الذين ارتحلوا على امتداد الساحل الغربي لبحر قزوين ، ولحقوا بالجيش المغولي في فارس . وبذلت كل قبيلة من قبائل الحلف المغولي خمس رجالها المقاتلين ، واشترك في الحملة نحو الف من الرماة الصينيين الذين برعوا

---

(١) انظر : Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 94 - 95, 145.
يشير رشيد الدين الى ما كان لطقزخاتون من نفوذ . وكان منكو شديد الاعجاب بها ، فكان يطلب الى هولاكو ان يستأنس دائماً بنصيحتها . وتشبه سورخقتاني في انهـا اميرة كرايتية بحكم منبتها .
عن هولاكو ، انظر : Howorth, op. cit. III, pp. 90 ff .
Grousset, Histoire des Croisades, III, pp. 563 - 566.

في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار . وحدث قبل نحو ثلاث سنوات ان جرى ارسال جيش لتمهيد الطريق ، وتولى قيادته أقرب القـادة الى هولاكو ، وأعظمهم موطناً لثقته ، وهو كتبغا النسطوري ، الذي ينتمي الى عنصر النايمـان ، والذي شاع أنه ينحدر من حكماء الشرق الثلاثة . والمعروف ان كتبغا أعاد سلطة المغول على المدن الكبيرة بهضبة ايران ، واستولى على بعض معاقل الحشيشية قبل قدوم هولاكو (١) .

تدمير الحشيشية في فارس ، سنة ١٢٥٧ :

حاول عبثاً زعيم الحشيشية ركن الدين خورشاه أن يدرأ الخطر ، بما لجأ اليه من مؤامرات دبلوماسية ، وأساليب لصرفهم عن أهدافهم . نفذ هولاكو الى فارس ، وتحرك في بطء وعنف مجتازاً دماوند وعباس آباد الى وديان الحشيشية . ولما ظهر الجيش الضخم أمام قلعة آلموت ، وأخذ يضيّق الحصار على القلعة ، لم يسع ركن الدين إلا التسليم ، فقدم بنفسه في ديسمبر الى خيمة هولاكو ، وأعلن خضوعه وإذعانه . غير ان والي القلعة رفض ان يطيع ما اصدره اليه من اوامر بتسليم القلعة ، فسقطت عنوة بعد بضعة ايام . وتلقى ركن الدين وعداً من هولاكو بالإبقاء على حياته ، غير أنه طُلب اليه التوجه الى قراقورم ، لعله يحصل من الخان الكبير منكو ، على شروط تفضُل تلك التي بذلها هولاكو . غير انه لما

---

(١) انظر : Bretschneider, op. cit. pp. 114 - 115.
Hayton, Flor des Estoires, p. 173.

يشير هايتون الى اجداد كتبغا .

وصل الى قراقورم ، رفض منكو ان يلقاه ، وقال انه من الخطأ إرهاق خيولنا الجيدة في هذه السفارة التافهة . على ان اثنين من حصون الحشيشية ، وهما جردوه ، ولمبوذر ، امتنعا على المغول . فجرى إخطار ركن الدين بالعودة الى بلاده ليحملها على التسليم ، غير انه لقي مصرعه مع اصحابه أثناء مسيره . وصدرت الأوامر في نفس الوقت الى هولاكو باستئصال شأفة الحشيشية . وتقرر ارسال عدد من أقارب زعيم الحشيشية الى ابنة جغتاي ، سالقان خاتون ، كيما تنتقم منهم لمصرع ابيها ، بينما تمّ استدعاء آخرين بحجة إحصاء عددهم ، ودارت فيهم مذبحـــة هلك فيها الألوف منهم . ولم تنته سنة ١٢٥٧ حتى لم يبقَ إلا عدد قليل من اللاجئين في جبال فارس . أما الحشيشية في الشام ، فانهم لم يكونوا في متناول منكو ، ومع ذلك ترقبوا ما ينتظرهم من مصير [١] .

وقد كان الحشيشية يحتفظون في آلموت بمكتبة ضخمة زخرت بكتب في علوم الفلسفة والتنجيم . فأرسل هولاكو حـــاجبه المسلم ، عطا الملك الجويني ليفحصها ، فأخرج منها ما صادفه من مصاحف القرآن ، وسائر الكتب ذات القيمة التاريخية والعلمية ، وأمر بحرق جميع كتب الملاحدة. ومن المصادفات الغريبـــة ، ان شبّ حوالي ذلك التاريخ حريق كبير في المدينة سببه البرق ، فأتى على كل ما تحويه مكتبتها من المؤلفات عن فلسفة السنين [٢] .

---

(١) انظر : Bretschneider, op. cit. pp. 116 - 118-
Browne, Literary History of Persia, II, pp. 458 - 459.

(٢) انظر : Browne, loc. cit.

لما فرغ هولاكو من استئصال الحشيشية من فارس ، تحرك مع الجيش المغولي لمهاجمة مقر الخلافة ببغداد . كان الخليفة وقتذاك المستعصم ، الذي يعتبر الثالث والثلاثين من الخلفاء العباسيين ، ابنـاً للخليفة المستنصر من جارية حبشية ، وكان يأمل في ان يعيد للخلافة سلطتها ومجدها ، إذ أضحى للخلافة السيادة التامة منذ انهيار الخوارزمية ، ومـا وقع من تنافس بين الأمراء في القاهرة ودمشق ، هيـأ للخليفة الفرصة لأن يكون حكماً بين المسلمين . وبرغم ما احاط به المستعصم نفسه من مظاهر الابهة والعظمة ، كان رجلاً ضعيفاً احمق ، جعل كل اهتمامه في اشباع متعته . ومزق بلاطه ما وقع من عداء بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي ، وكاتبه السنـّي ايبك الذي سانده ولي العهـد . اشتهرت بغـداد بمناعة استحكاماتها ، كما انـه كان بوسع الخليفة ان يحشد جيشاً ضخمـاً ، إذ أن خيالته وحدهم كانوا يبلغون مائة وعشرين الف فارس . على ان الفرسان استندوا الى ما يحصلون عليه من اقطاعات حربية ، ولم يثق المستعصم في أتباعه ، ولذا اتبع نصيحة وزيره فخفض عدد الجيش ، وأنفق ما وفره بذلك من المال فيما بذله تطوعـاً من إتاوة للمغول ، حتى يبتعدوا عن مهاجمته . والراجح انه قلّ ان تنجح هذه السياسة القائمة على التهدئة حتى لو استمر المضي فيها . غير ان نفوذ ايبك اخذ في الازدياد والتفوق حينما رد هولاكو على الخليفة ، انـه يطلب حقوق السيادة على الخلافة ذاتها ، فلم يلق اقتراح هولاكو إلا الرفض الشديد [1] .

---

(١) انظر : D'Ohsson, Histoire des Mongols, III, pp. 215 - 225.

وتحدث هولاكو الى رجـال الحملة في شيء من الاضطراب والقلق ، إذ لم يجمع منجموه على ان النصر سوف يكون حليف الحملة ، وكان يخشى الخيانة من قِبل اتباعه المسلمين ، وتدخّل امراء دمشق ومصر . غير ان ما اتخذه من تدابير لدرء الخيانة كانت قوية ، وما من احد نهض لنجدة بغداد . وفي تلك الاثناء ازداد جيشه قوة بوصول كتيبة من القبيلة الذهبية ، وبقدوم الجيش الذي ظل بيجو يحتفظ به على اطراف الأناضول في السنوات العشرة الاخيرة ، فضلاً عن كتيبة من فرسان الكرج الذين تلهفوا على مهاجمة حاضرة الاسلام .

وفي نهاية سنة ١٢٥٧ تحرّك الجيش المغولي من قاعدته في همدان . وعبر بيجو بجيشه نهر دجلة عند الموصل ، وسار ازاء الشاطىء الغربي للنهر . أما كتبغا والجناح الأيسر للجيش فدخل سهل العراق الواقع شرقي العاصمة مباشرة ، بينما زحف هولاكو بقلب الجيش مخترقاً كرمان شاه . ولم يكد الجيش الرئيسي للخليفة ينهض بقيادة ايبك ليلتقي بهولاكو ، حتى سمع باقتراب جيش بيجو القادم من جهة الشمال الغربي . فعبر ايبك نهر دجلة من جديد ، وفي ١١ يناير سنة ١٢٥٨ باغت المغول قرب الانبار ، على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من بغداد فتظاهر بيجو بالارتداد ، وبذا جرّ العرب الى ارض منخفضة حافلة بالمستنقعات ، وأرسل المهندسين ليقطعوا مـا يقع خلفهم على نهر الفرات من السدود . وتجدّد القتال في اليوم التالي ، وارتد جيش ايبك الى الحقول المغمورة بالمياه . هرب ايبك وحرسه بطريق النهر الى بغداد ، أما معظم عساكره فهلكوا في ساحة القتال ، ومن بقي منهم على قيد الحياة لاذوا بالفرار الى البادية وتفرقوا في كل صوب[1] .

---

(١) انظر : Browne, op. cit. II, pp. 461 - 462.

المغول ينهبون بغداد سنة ١٢٥٨ :

في ١٨ يناير سنة ١٢٥٨ ، ظهر هولاكو امام الاسوار الشرقية لمدينة بغداد ، وفي ٢٢ يناير سنة ١٢٥٨ ، تعرّضت المدينة للهجوم من كل الجهات بعد إقامة جسور من القوارب على نهر دجلة ، بأعلى المدينة وبأسفلها. والمعروف ان بغداد تقع على ضفتي نهر دجلة. على ان المدينة الغربية التي شملت قصر الخلفاء الاوائل ، اضحت اقل أهمية من المدينة الشرقية ، التي تركزت بهـــا مباني الحكومة. وركز المغول اشد هجماتهم على الاسوار الشرقية. وأخذ المستعصم يفقد الأمل. وفي نهـاية شهر يناير سنة ١٢٥٨ بعث بوزيره الذي كان دائمـــاً يدافع عن سياسة المصالحة مع المغول ، وأرسل معه البطريرك النسطوري الذي كان الخليفة يأمل في ان يتوسط عند طقزخاتون ، لمحاولة التفاوض مع هولاكو ، غير انه تقرر إعادة الرسولين دون ان يحظيا بلقاء هولاكو. وأخذ السور الشرقي لبغداد يتداعى بعد ان تعرّض للقذف الشديد في الاسبوع الاول من شهر فبراير سنة ١٢٥٨. وفي ١٠ فبراير ، بينما كانت العساكر المغولية تتدفق الى داخل المدينة ، ظهر الخليفة وسلم نفسه لهولاكو ، مع كبار قادة الجيش وكبار موظفي الدولة. وبعد ان صدرت اليهم الأوامر بإلقاء سلاحهم ، تمّ الاجهاز عليهم ولم يجر الإبقاء إلا على حياة الخليفة حتى دخل هولاكو المدينة والقصر في ١٥ فبراير سنة ١٢٥٨. ولقي الخليفة مصرعه ، بعد ان كشف لهولاكو عن الأماكن التي اختبأت فيها ثروتـه وكنوزه. وفي تلك الاثناء ظلت المذابح مستمرة في جميع انحـــاء المدينة (بغداد). وتعرّض للقتل على السواء اولئك الذين بادروا الى التسليم ، واولئك الذين مضوا في القتال ، وهلك النساء والاطفال مع رجالهم. وعـثر احد المغول في شارع جانبي

على اربعين طفلاً حديثي الولادة ، وقد ماتت امهاتهم ، فأجهز على هؤلاء الاطفال رحمة بهم ، لعله انه ليس بوسعهم البقاء على قيد الحياة طالما لم يكن ثمـة من يرضعهم . أما عساكر الكرج الذين كانوا اول من اقتحم الاسوار ، فاشتهروا بشدتهم وقسوتهم في التدمير . فهلك في اربعين يومـاً نحو ثمانين الف من سكان بغداد . ولم يبق على قيد الحياة إلا فئـة قليلة واتاها الحظ فـلم يكتشف المغول الحواصل التي اختبأوا فيها ، فضلاً عن عـدد من الغلمان والفتيات الفاتنات ، الذين اضحوا ارقاء ، وكذا الجالية المسيحية التي لجأت الكنائس فلم يتعرّض لهـا احد بسوء ، وفقاً لأوامر طقزخاتون (١) .

وبلغت رائحة الجثث المتعفنة بالمدينة من النتن ، في نهـاية مارس سنة ١٢٥٨ ، ما دعا هولاكو الى سحب قواته حتى لا تتعرّض للوباء . وحزن كثير منهم لمغادرة المدينة لاعتقادهم انه لا زال بها من التحف القيمة ما يصح العثور عليه . غير انه صار بحوزة هولاكو كل مـــا كدسه الخلفاء العباسيون من ثروات وكنوز طوال خمسة قرون . وبعد ان ارسل هولاكو شطراً كبيراً من الغنائم الى اخيه منكو انسحب راجعاً الى همدان ، في

---

(١) انظر :

Browne, op. cit. II, pp. 462 - 466.
Bretschnieder, op. cit. I, pp. 119 - 120.
Abu'l Feda, pp. 136 - 137.
Bar - Hebraeus, pp. 429 - 431.
Kirakos, pp. 184 - 186.
Vartan, (Armenian text, ed. Emin), p. 197.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 169 - 170.

تمهّـــل . ومنهـــا توجه الى اذربيجان ، حيث شيّـد قلعة منيعة في شها على شاطىء بحيرة ارميه ، وجعل منها مستودعاً لكل ما حازه من الذهب والمعادن النفيسة والجواهر . وجعل على بغداد والياً ، الوزير السابق مؤيد الدين ، الذي خضع لإشراف دقيق من قبل الموظفين المغول . أما البطريرك النسطوري ، ماكيكا ، فغمره هولاكو بالأحباس ، وجعل له احـــد قصور الخليفة مقراً وكنيسة . وأخذت المدينة (بغداد) تستعيد رويـداً رويداً نظافتها ، وتعود الى سابق عهدها من النظام والترتيب ، على انهـا لم تعد بعد اربعين سنة سوى مدينة اقليمية وافرة الرخاء ، لا تتجاوز عشر حجمها السابق (١) .

كان لذيوع انباء تدمير بغداد أثر عميق في جميع انحاء آسيا . فابتهج المسيحيون في كل مكان بآسيا ، إذ كتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية ، وهللوا لهولاكو وطفزخاتون واعتبروهما قسطنطين وهيلينا ، وأنهما ليسا إلا ادوات الله للانتقام من اعداء المسيح (٢) . أما المسلمون فاعتبروا تخريب بغداد صدمة مريعة ، وتحدياً مخيفاً . فعلى الرغم من أن الخلافـة العباسية ظلت منذ زمن طويل تفقد قدراً كبيراً من سلطتها المادية ، فان مكانتها الادبية لا زالت قوية . فما حدث من استئصال الأسرة العباسية ،

---

(١) انظر : Bretschnieder, op. cit. pp. 120 - 121.
D'Ohsson, op. cit. III, p. 257.
Levy, A Baghdad Chronicle, pp. 259 - 260.

(٢) انظر : Stephen Orbelian, History of Sinai, (Armenian text), pp. 234 - 235.
اطلق ستيفن على هولاكو وطفزخاتون قسطنطين وهيلينا الجديدين .

وتدمير العاصمة ، جعل زعامة المسلمين شاغرة ، يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين . غير ان ارتياح المسيحيين وسرورهم لم يستمر طويلاً ، إذ لم يمض إلا زمن غير طويل حتى قهر المسلمون غزاتهم . على ان وحدة العالم الاسلامي تعرضت لضربة لم تنتعش منها ابداً ، إذ أن سقوط بغداد الذي وقع بعد نصف قرن من سقوط القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ ، قضى نهائياً على ما كان بين بيزنطة والخلافة من حكومة ثنائية متزنة ، ازدهرت في ظلها لمدة طويلة انسانية الشرق الادنى . لم يعد بوسع الشرق الادنى ان يتحكم مرة اخرى في المدنية .

المغول يدخلون سوريا سنة ١٢٥٩ :

وجّه هولاكو اهتمامه الى الشام بعد تدمير بغداد . وأول ما اتخذه من خطوات ،هو أنه حرص على أن يقوّي سيطرة المغول على اقليم الجزيرة ،وأن يقمع بصفة خاصة الأمير الأيوبي ، الكامل محمد ، الذي يحكم ميافارقين ، الذي رفض قبول السيادة المغولية ، بل انه مضى الى ما هو ابعد من ذلك ، فأمر بصلب قسيس يعقوبي ، قدم لزيارته مبعوثاً من قِبل هولاكو [١] . على ان هولاكو استقبل قبل ان يغادر معسكره قرب مراغة ، مبعوثين من قِبل امارات عديدة ، إذ قدم اليه اتابك الموصل السابق ، بدر الدين لؤلؤ ، ليعتذر عما بدر منه من افعال سيئة ، ولم يلبث ان وصل بعده ، سلطانا السلاجقة ، ولدا كيخسرو ، وهما كيكاوس الثاني وقلج ارسلان الرابع ،

---

(١) انظر : D'Ohsson, III, p. 307.

إذ أن اولهما ، وهو كيكاوس الذي قاوم بيجو سنة ١٢٥٦ ، حاول عبثاً ان يسترضي هولاكو ، بأن أمعن في تملقه والتزلف اليه مما صدّم المغول. ثم حدث آخر الأمر أن ارسل الناصر يوسف امير حلب ودمشق ابنه العزيز ، ليؤدي لهولاكو واجب الخضوع والإذعان . ونازل هولاكو ميافارقين واستولى عليها في اوائل سنة ١٢٦٠ ، ويرجع الفضل في ذلك الى حد كبير الى مـــا بذله من مساعدة حلفاء هولاكو من الكرج والأرمن . فدارت مذبحة في المسلمين ، بينما جرى الإبقـــاء على حياة المسيحيين ، وتعرض الكامل للتعذيب والتنكيل ، بأن ارغموه على ان يأكل من لحم جسده حتى مات [١] .

وفي سبتمبر سنة ١٢٥٩ ، قـاد هولاكو الجيش المغولي للاستيلاء على شمال غربي سوريا . فتولى قيادة المقدمـة كتبغا ، بينما قاد بيجو ميمنة الجيش ، وتولى الميسرة قائد آخر من المقربين لهولاكو ، وهو سنجق ، أما هولاكو فتولى قيادة قلب الجيش . فزحف مجتازاً نصيبين وحران والرهـا ، حتى بلغ البيرة حيث عبر نهر الفرات . حاولت سروج ان تقاومه ، فتعرضت للنهب . وفي أوائل السنة الجديدة (١٢٦٠) أطبق الجيش المغولي على حلب من كل الجهات ، وإذ رفضت حامية المدينـــة التسليم ، تقرر اقتحامها في ١٨ يناير سنة ١٢٦٠ . ولما هبّت العاصفة كان

---

(١) انظر :
Kirakos, pp. 177 - 179.
Vartan, p. 199.
Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 330 - 331.
D Ohsson, III, p. 356.

السلطان الناصر في دمشق ، إذ كان يأمل في ان وجود ابنه في معسكر هولاكو سوف يدرأ الخطر عن بلاده . ولما تبين له انـه كان مخطئاً ، لم يسعه إلا ان يتخذ حركة اخرى بالغـة المهانة والذلة ، بأن عرض قبول سيادة المماليك بمصر . إذ وعدوه بالمساعدة ، غير انهم لم يتعجلوا بذلهـا . وفي نفس الوقت حشد عسكراً خارج دمشق ، ودعـــا ابني عمه اميري حماه والكرك لمساعدته . غير انه بينما كان ينتظر في دمشق ، شرع بعض قادته الترك في التآمر عليه . واكتشف خططهم في الوقت المناسب ، غير انهم فروا الى مصر ، بعـــد ان حملوا معهم احد اخوته . وأدّى تسللهم وهروبهم الى ان جيشه أضحى من الضعف مـا جعله يفقد كل أمل في المسير لنجدة حلب .

استبسل في الدفاع عن حلب ، توران شاه عم الناصر يوسف ، غير ان الاسوار لم تلبث ان انهارت بعد ان تعرضت للقذف ستة ايام متوالية ، وتدفق المغول الى داخل المدينة . وحدث بحلب مثلما حدث في كل مكان ، إذ دارت المذابح في المسلمين بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء ، باستثنـاء عدد قليل من الارثوذكس الذين لم يجرِ الاعتراف بكنيستهم ، حين استحر القتل . وظلت قلعة حلب تقاوم بقيادة توران شاه اربعة اسابيع اخرى . فلما سقطت آخر الامر أظهر هولاكو من الرحمة ما لم يكن متوقعاً منه ، إذ أبقى على حياة توران شاه لكبر سنه وبسالته ، ولم تتعرض حاشيته للأذى والضرر . ووقع في يدي هولاكو مقادير كبيرة من الثروة . ثم عهد هولاكو بحكومة حلب الى الأشرف ، امير حمص السابق ، الذي حمله ُبعد

نظره على القدوم منذ بضعة شهور الى معسكر المغول ، وجعل من نفسه تابعاً . وأمدّه هولاكو بمستشارين من المغول وبحامية مغولية لتوطيد سلطانه [1] .

وكان لا بد من إنزال العقوبة بحصن حارم ، الواقع على الطريق الممتد من حلب الى انطاكية ، لأنه رفض التسليم ما لم يضمن احد المسلمين الوعد الذي بذله هولاكو . فلما سقط هذا الحصن ، ودارت به مذبحة في المسلمين ، حسبما جرت العادة ، قدم هولاكو الى طرف انطاكية ، وزار معسكره كل من ملك ارمينيا وصهره امير انطاكية ، ليؤديا الولاء له . والمعروف ان ملك ارمينية هيثوم سبق ان أمدّ هولاكو بقوات اضافية ، فكافأه بأن منحه قدراً من الغنائم التي حازها من حلب ، وطلب الى الأمراء السلاجقة ان يردّوا له ما سبق ان استولى عليه ابوهما من الممتلكات في قليقية . وظفر بوهمند ايضاً بمكافأة جزاء له على انقياده لهولاكو ، فتقرر ان يعود الى أمارة انطاكية بعض المدن والحصون التي ظلت بأيدي المسلمين منذ زمن صلاح الدين ، ومنها اللاذقية ، في مقابل ان يوافق بوهمند على ان يحلّ البطريرك اليوناني يوثيميوس في انطاكية مكان البطريرك اللاتيني . ومع ان الملك هيثوم لم يكن شديد الميل الى اليونانيين ، فإن هولاكو أدرك أهمية العنصر اليوناني في انطاكية . والراجح ان ما كان بين هولاكو

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, II, pp. 90 - 97.
Abu'l Feda, pp. 140 - 141.
Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 327 - 341.
Bar - Hebraeus, pp. 335 - 336.

والامبراطور اليوناني في نيقيـة من علاقات ودية ، حملته على ان يزيد في بواعثه [١] .

على ان اللاتين في انطاكية اعتبروا انقياد بوهمند امراً مشيناً ومخزياً لما انطوى عليـه من إذلال الكنيسة اللاتينية بأنطاكية . ولا زال نفوذ البنادقة متغلباً بمملكة بيت المقـدس ، وأضحى البنادقة مرة اخرى في علاقات تجارية طيبة مع مصر ، إذ توقفت مصلحتهم على التجارة القادمة من الشرق الأقصى والتي تجتاز الطريق الجنوبي الى الخليج العربي ، او الى البحر الاحمر . وراقب البنادقة ببالغ الاهتمام طرق القوافل المغوليـة التي تجتاز آسيا الوسطى الى البحر الاسود ، حيث أخـذ الجنويون يوطدون سلطانهم ، بعد تحالفهم مع اليونانيين . وتطلعت حكومة عكا (بيت المقدس) تلتمس حماية احد العلمانيين . وكان معروفاً ان لشارل كونت انجو ، شقيق ملك فرنسا ، أطماعاً في البحر المتوسط ، وأخـذ يدبر المؤامرات فعلاً للوصول الى عرش صقلية . فتقرر إنفـاذ رسالة مثيرة له ، في مايو سنة ١٢٦٠ ، تتناول وصف أخطار الزحف المغولي ، وتلتمس منه التدخل [٢] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 161.
Letter to Charles of Anjou, Revue de l'Orient Latin, vol. II, p. 213.
Bar - Hebraeus, p. 436.
Hayton, Flor des Estoires, p. 171.
Urban IV, Registres, 26 May. 1263.
جرت الاشارة الى قطع بوهمند من الكنيسة لتحالفه مع المغول لم يرد ذكر للانقية ، غير انها كانت بأيدي الفرنج حينا جرت الاشارة اليها بمدئذ. انظر ما يلي، الكتاب الثالث، الفصل الرابع.

(٢) انظر : « Lettre à Charles d'Anjou », in Revue de l'Orient Latin, vol. II, pp. 213 - 214.

استيلاء المغول على دمشق سنة ١٢٦٠ :

حدث في الوقت الذي ارسلت فيه مملكة بيت المقدس بعكا كتاباً الى شارل كونت أنجو ، أن أضحى المغول سادة لدمشق . لم يحاول السلطان الناصر يوسف أن يدافع عن عاصمته (دمشق) . إذ أنـه حينما نمي اليه انباء سقوط حلب ، واقتراب الجيش المغولي من دمشق ، فرّ الى مصر ، ليلتجيء الى المماليك ، ثم غيّر رأيه فألقى المغول القبض عليه حينما ركب متوجهاً الى الشمال مرة اخرى . على أن حماه ارسلت في فبراير سنة ١٢٦٠ وفداً الى هولاكو ، ليقدم اليه مفاتيح المدينة ، ولم تمض إلا بضعة ايام حتى احتذى بهم اعيان دمشق . فدخل كتبغا دمشق في اول مارس سنة ١٢٦٠ على رأس جيش مغولي ، وصحبه ملك ارمينية وأمير انطاكية ، وشهد سكان العـاصمة السابقة للخلافة لأول مرة منـذ ستة قرون ثلاثة امراء مسيحيين يركبون معاً يشقّون بموكبهم شوارع المدينة . على أن قلعة دمشق ظلت تقاوم الغزاة بضعة اسابيع ، غير انهـا أذعنت في ٦ ابريل سنة ١٢٦٠ .

وبسقوط المدن الثلاثة الكبيرة ، بغداد ، وحلب ، ودمشق ، تراءى كأن الاسلام في غرب آسيا حان أجله . ففي دمشق ، وفي سائر الجهات في غرب آسيا ، لم يكن للفتح المغولي من معنى سوى انتعاش المسيّحيين المحليين . وإذ كان كتبغا نفسه مسيحياً ، لم يخف عواطفه . فأضحى المسلمون بداخل سوريا لأول مرة منذ القرن السابع ُيعتَبرون اقلية مغلوبة على امرها .

فأخذوا يتحرقون للانتقام[1] .

ارسل كتبغا اثنـاء فصل الربيع من سنة ١٢٦٠ سراباً من جيشه ، فاحتلت نابلس وغزة ، غير انها لم تصل مطلقاً الى بيت المقدس ذاتهـا . وبذا أحاط المغول بالفرنج من كل الجهات . لم يكن في نيـة السلطات المغولية أن تهاجم مملكة الفرنج ، بشرط ان تظهر لهم الانصياع التام . ومع أن عقـلاء الفرنج اظهروا الاستعداد لتجنب اثارة المغول ، فإنه لم يكن بوسعهم ان يضبطوا مثيري الفتن عندهم . ويعتبر يوليان سيد صيدا والشقيف اشد بارونات الفرنج تجرداً من المسئولية ، وكان يوليان رجلاً ضخم الجثة ، وسيم الخلقة ، يميل الى العبث والمجون ، فضلاً عما اشتهر به من الحماقة ؛ فلم يرث من جده رينالد ما اشتهر به من الذكاء والدهاء ، إذ أن إسرافه وتبذيره اجبره على ان يرهن صيدا لدى الداوية ، الذين اقترض منهم اموالاً طائلة ، كما ان خشونة طبعـه ورّطته في شجار مع فيليب سيـد صور ، الذي يعتبر خالاً غير شقيق . وعلى الرغم من انه تزوج من احدى بنات الملك هيثوم ، فإنه لم يكن لصهره سلطان عليه . وما نشب من حروب بين المغول والمسلمين تراءت له على انها فرصة طيبة تهيأت له كيما يغير من الشقيف على سهل البقاع الخصيب . غير ان كتبغا لم يكن ليسمح للمغيرين بأن يقوّضوا ما اقامه المغول حديثاً من نظام .

---

(١) انظر : Abu'l Feda, pp. 141 - 143,
Gestes des Chiprois, loc. cit.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 171 - 172.
Cahen, op. cit. p. 707, nn. 19, 20.

فأرسل كتبغا جماعة صغيرة من العسكر بقيادة ابن اخته لإنزال العقاب بالفرنج . ولم يسع بوليان عندئذ إلا دعوة جيرانه لنجدته ، فكنوا لابن اخت كتبغا وقتلوه . وإذ غضب كتبغا لما حدث ، ارسل جيشاً كبيراً ، نفذ الى صيدا وخرب المدينة ، ولم ينقذ قلعة البحر إلا سفن جنوية قدمت من صور ، واغتاظ الملك هيثوم حينما سمع بذلك ، وألقى اللوم على الداوية الذين افادوا من خسائر بوليان فانتزعوا منه حتى رهن صيدا والشقيف . وما حدث بعد فترة قصيرة من إغارة يوحنا الثاني سيد بيروت والداوية على الجليل ، لقيت من القوات المغولية الاضافية معاملة بالغة الصرامة [١] .

وفاة الخان الكبير منكو ، سنة ١٢٥٩ :

على انه لم يكن بوسع كتبغا ان يقوم بحملات كبيرة . إذ توفي ١١ اغسطس سنة ١٢٥٩ . الخان الكبير منكو بينما كان يشترك مع اخيه قبيلاي في حملة على الصين . كان ابناؤه صغاراً ، يفتقرون الى الخبرة والتجربة . ولذا أصرّ الجيش في الصين على ان يتولى الحكم قبيلاي . غير ان اريق بوقا الأخ الاصغر لمنكو ، كان يسيطر على الوطن الاصلي للاسرة بما فيه قراقورم ، والخزانة المركزية للأمبراطورية ، وأراد ان يصير اليه

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 162 - 164.
Hayton, Flor des Estoires, p. 174.
Annales de Terre Sainte, p. 440.
هذه الاحداث وردت في حوليات الارض المقدسة على انها جرت بعد وقعة عين جالوت ، والراجح انها وردت على سبيل الخطأ .

العرش . وإذ انقضت عـــدة شهور في المناورات، وفي اكتشاف من كان صديقاً لكل منهما ، عقـد كل من الأخوين مجلساً وطنياً (قوريلتاي) في ربيع سنة ١٢٦٠ ، اختاره خاناً كبيراً . كان يساند اريق بوقا معظم اقارب الاسرة الامبراطورية الذين كانوا بمنغوليا ، بينما كان قادة الجيش من اقوى انصار قبيلاي . لم يكن لكلا المجلسين صفة شرعية ، نظراً لأنه لم يمثل في كل منهما كل فروع الاسرة الامبراطورية . ولم يود كل من الجانبين ان ينتظر ، حتى يتم اخطار هولاكو ، وأمراء القبيلة الذهبية ، فضلاً عن بيت جغتاي ، حـتى يرسلوا مندوبين من قبلهم . كان هولاكو يساند قبيلاي ، على حين ان ابنه شوموقار كان من انصار اريق بوقا ، بينما كان بركة خان القبيلة الذهبية يميل الى اريق بوقا . ولم يسحق قبيلاي اريق بوقـا نهائياً إلا في آخر سنة ١٢٦١ . وفي نفس الوقت ظل هولاكو يلتزم الحذر فبقي قرب الطرف الشرقي لأملاكه ، على استعداد لأن يتحرّك الى منغوليا ، متى اقتضت الحاجة ذلك . والواقع انه توافر لديه من الدواعي مـا يثير قلقه . إذ ان اريق بوقـا تدخل في شيء من الاستبداد في امور خانية تركستان ، بــأن طرد من الوصاية ارهانه وأحل مكانها ألجو ، ابن عم زوجها ، الذي كان لما اتصف بـه فيما بعد من نقيصة واقدامه على الزواج من ارهانه أثر كبير فـيما احرزه قبيلاي من انتصار . وخشى هولاكو ان يحدث تدخل من هذا القبيل في ممتلكاته . يضاف الى ذلـك ازدياد سوء العلاقات بينه وبين بني عمومته في القبيلة الذهبية . فبينما كان بلاطه يظهر عطفاً شديداً على المسيحيين كان الخان بركة يتحوّل قطعاً الى جانب المسلمين ، وينكر مـا اتخذه هولاكو من سياسة مناهضة للمسلمين . فوقع الاحتكاك في جبال القوقاز ، التي تعتبر الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ بركة وهولاكو . فدأب بركة وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية . وما اقدم

عليه هولاكو من محاولة لتوطيد سلطته في الجانب الشمالي لجبال القوقاز احبطتها الهزيمة الساحقة التي انزلها نوغاي ابن اخت بركة بجيش لهولاكو سنة ١٢٦٩ ، قرب نهر تريك [١] .

كان لزاماً على هولاكو ، برغم كل هذه الامور التي شغلت باله ، ان يسحب عدداً كبيراً من عساكره بسوريا ، عقب الاستيلاء على دمشق . وأضحى كتبغا يحكم البلاد بقوة بالغة الضآلة . ومن سوء حظ المغول ان توغلهم في فلسطين اثار دولة اسلامية كبيرة لم تتعرّض للهزيمة ، وهي دولة المماليك في مصر ، إذ أضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة ما يجعلهم يقبلون تحدي المغول .

لم يكن ايبك ، اول سلاطين المماليك مطمئناً في وضعه . فلكي يجعل سلطانه مشروعاً ، لم يكتف بأن تزوج السلطانة الارملة ، شجر الدر ، بل عين اميراً ايوبياً طفلاً قسيماً له في السلطنة . غير ان هذا الطفل الاشرف موسى لم يكن له وزن ، ولم يلبث ان اصبح عبئاً ثقيلاً ، ووقع الشجار في سنة ١٢٥٧ بين ايبك والسلطانة شجر الدر ، إذ لم تكن مستعدة لأن

---

(١) انظر :

Rashid ad - Din, pp. 341 ff.
Bar - Hebraeus, p. 439.
Kirakos, pp. 192 - 194.
Hayton, Flor des Estoires, p. 173.
Grousset, L'Empire Mongol, pp. 317 - 324.
Howorth, op. cit. III, p. 151.
D'Ohsson, op. cit. III, p. 377.

يبدو ان نوغاي لم يرتبط بالاسرة الامبراطورية إلا عن طريق فرع الأناث .

تتقبل الإهانة من رجل حديث السلطان ، ففي ابريل سنة ١٢٥٧ دبرت امر اغتياله بأيدي الطواشية أثناء استحمامه . وكاد مصرعه يثير حرباً اهلية ، إذ تصايح بعض المماليك بالانتقام من السلطانة شجر الدر ، بينا قام فريق آخر من المماليك بتأييدها ، على انها رمز الحكم الشرعي في البلاد. وكسب اعداؤها آخر الأمر المعركة ، ففي ٢ مايو سنة ١٢٥٧، تعرّضت شجر الدر للضرب الشديد حتى لقيت حتفها ، وتقرّرت المناداة بنور الدين علي ابن السلطان ايبك ، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره سلطاناً . على ان هذا الصبي لم يكن يمثل اسرة محترمة ، ولم يتصف بشخصية القائد . فعزله في ديسمبر سنة ١٢٥٩ احد رفاق ابيه القدماء ، وهو قطز التي حلّ مكانه في السلطنة . وإذ تولى قطز السلطنة ، عاد الى مصر سائر المماليك امثال بيبرس ، الذي حملتهم كراهيتهم لأيبك على الفرار الى دمشق[١] .

المماليك يطلبون المساعدة من الفرنج سنة ١٢٦٠ :

حدث في اوائل سنة ١٢٦٠ ان ارسل هولاكو سفارة الى مصر ، تطلب الى السلطان الخضوع والإذعان . فأمر قطز بقتل رسول هولاكو ، وتجهز للقاء المغول في سوريا . وفي تلك اللحظة ، ذاع نبأ وفاة منكو ، ونشوب الحرب الاهلية في منغوليا ، فكان لزاماً على هولاكو ان ينقل الجانب الاكبر من جيشه الى الشرق . وما تبقى مع كتبغا من عساكر ، كانت تقل في العدد عن القوات التي اخذ قطز يحشدها . إذ اجتمع الى

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 135.

جانب القوات المصرية ، من تبقى من القوات الخوارزمية ، وعساكر من قبل امير الكرك الايوبي . وفي ٢٦ يوليه اجتاز الجيش المصري الحدود ، وزحف على غزه ، وتولى بيبرس قيادة المقدمة . لم يكن بغزه سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة بايدار . الذي ارسل الى كتبغا يخطره بالغزو ، غير ان المصريين تغلبوا على عساكره قبل ان تصل اليه النجدة (١) .

كان كتبغا في بعلبك ، فتجهز على الفور للسير الى وادي نهر الاردن بعد ان يتجاوز بحر الجليل ، غير انه منعه مـا حدث من نشوب ثورة المسلمين في دمشق ، فتحطمت دور المسيحيين وكنائسهم ، واشتدت الحاجة الى العساكر المغولية لإعادة الأمن الى نصابـه (٢) . وفي تلك الاثناء قرر قطز السير على الساحل الفلسطيني ، ثم المضي الى داخل البلاد ، الى اقصى الشمال لتهديد مواصلات كتبغا ، اذا تقدم نحو فلسطين . ولذا تقرر ايفاد سفارة مصرية الى عكا ، تطلب الإذن باجتياز اراضي الفرنج ، والحصول على المؤن اللازمة للجيش اثناء مسيره ، اذا لم يبذل لهم الفرنج مساعدة حربية فعلية .

اجتمع البارونات معاً في عكا لمناقشة هـذا الطلب . كان البارونات يحسون بالمرارة من المغول لما أقدموا عليه منذ زمن قريب من نهب صيدا ، كما انهم لم يثقوا بهذه القوة القـادمة من الشرق التي حفل سجلها بالمذابح

---

(١) انظر : Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), p. 347.
D'Ohsson, op. cit. III, pp. 333 - 335.

(٢) انظر : Abu'l Feda, p. 143.

الجماعية . لقد ألفوا الحضارة الاسلامية ، وكان معظمهم يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين حباهم المغول بقدر كبير من العطف . أظهر البارونات اول الامر ميلهم الى ان يبذلوا للسلطان قوات مسلحة اضافية ، غير ان مقدم طائفة الفرسان التيوتون ، انّو سانجرهاوزن ، حذرهم بأنه من الحماقة المبالغة في الوثوق بالمسلمين ، ولا سيما اذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول . والمعروف ان لطائفة الفرسان التيوتون ممتلكات كثيرة في مملكة ارمينية ، والمعروف ان انّو سانجرهاوزن كان يقدّر سياسة الملك هيثوم . وكان لعباراته الحكيمة شيء من التأثير ، إذ قرر الفرنج رفض التحالف العسكري ، على انهم وعدوا السلطان بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم ، وأن يقدموا التسهيلات اللازمة لتموين جيش السلطان [1] .

وفي اثناء شهر اغسطس ، قاد السلطان قطز جيشه على الطريق الساحلي ، وعسكر في الحدائق الواقعة خارج عكا عدة ايام . وتقررت دعوة عدة أمراء لزيارة المدينة ، باعتبارهم ضيوف شرف ، ومن هؤلاء الأمراء كان بيبرس الذي اقترح على قطز ، عقب عودته الى المعسكر ، انه من اليسير الاستيلاء على الموضع بغتة . غير ان قطز لم يكن مستعداً لأن يكون خائناً ، وأنه لا يأمن هجمات المسيحيين الانتقامية ، بينما لم ينهزم المغول بعد . على انه زاد في حيرة الفرنج كثرة عدد زائريهم ،

---

(١) انظر : Ms. of Rothelin, p. 637.

ولكن سري عنهم وطمأنهم ما حصلوا عليه من وعد بأن يشتروا بأثمان منخفضة ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول[1] .

معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وبينا كان قطز في عكا ، علم ان كتبغا عبر نهر الاردن وأنه نفذ الى الجليل الشرقي ، فبادر على الفور بقيادة جيشه صوب الجنوب الشرقي ، مجتازاً الناصرة ، فوصل في ٢ سبتمبر سنة ١٢٦٠ الى عين جالوت ، حيث سبق للجيش المسيحي سنة ١١٨٣ ان تحدى صلاح الدين . وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي ، وصحب خيالة المغول كتائب كرجية وأرمنية . وافتقر كتبغا الى الكشافة ، ولم يكن السكان المحليون موالين له . فلم يعلم ان كل جيش المماليك اضحى قريباً منه . وكان قطز شديد الادراك لتفوق جيشه في العدد . ولذا اخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس . ووقع كتبغا في الفخ ، إذ حمل بكل رجاله على العدو الذي شهده امامه ، فأسرع بيبرس في تقهقره الى التلال بعد ان اشتدت مطاردة كتبغا له ، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره ان جرى تطويقه فجأة ، وأبلى كتبغا في القتال ، وأخذ المصريون يتعثرون في سيرهم ، فدخل قطز المعركة بجمعهم . على انه لم تنقض إلا بضع ساعات حتى ظهرت اهمية تفوق المسلمين في العدد . ومع ان

---

(١) انظر : William of Tripoli, De Statu Saracenorum, in Du Chesne, V, p. 443.
Gestes des Chiprois, pp. 164 - 165.

جماعة من رجال كتبغا استطاعت ان تشق لها طريقاً للخروج ، غير انه رفض ان يبقى على قيد الحياة بعد هزيمته ، إذ كاد أن يكون بمفرده حينما لقي حصانه مصرعه ، ووقع هو اسيراً . وبأسره انتهت المعركة ، إذ جرى حمله مقيداً بالأغلال الى السلطان ، الذي سخر لسقوطه . غير أنه اجاب في اعتزاز وتحد ، بعد ان تنبأ بما سوف يتعرض له من انتقام مريع من قِبل الظافرين بـه ، متباهياً بأنه يختلف عن امراء المماليك ، بأنه ظل دائماً محافظاً على ولائه لسيده ، فاجتزّوا رأسه (١) .

تعتبر معركة عين جالوت من اهم المعارك الحاسمة في التاريخ . والواقع انه نظراً لما سبق وقوعه من احداث على مسافة اربعة آلاف ميل ، كان الجيش المغولي في سوريا من الضآلة ما يجعله عاجزاً عن القيام بإخضاع المماليك إلا اذا واتاه الحظ الطيب . ومن المحقق انه لو ان المغول عجّلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة ، لتيسر تعويض الهزيمة . غير ان أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في عين جالوت من قرار . فما احرزه المماليك من انتصار انقذ الاسلام من اخطر تهديد تعرض له . فلو ان المغول توغلوا الى داخل مصر ، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة ، شرقي بلاد المغرب ، ومع ان المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد مـا يمنع من استئصال شأفتهم ، فانهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم . ولو انتصر كتبغا ، المسيحي ، لازداد عطف المغول على المسيحيين ، ولأصبح

---

(١) انظر :
Rachid ad - Din, pp. 349 - 352.
Makrizi, I, 1, Sultan, pp. 104 - 106.
Abu'l Feda, pp. 143 - 144.

للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منـــذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الاسلام . على انه من العبث أن تفكر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ . فليس للمؤرخ إلا أن يروي ما حدث فعلا ، إذ أن معركة عين جالوت جعلت سلطنة المماليك بمصر القوة الاساسية في الشرق الادنى في القرنين التاليين ، الى ان قامت الامبراطورية العثمانية ، إذ أتمت تقويض المسيحيين الوطنيين في آسيا . فما حدث من ازدياد قوة العنصر الاسلامي ، وإضعـاف العنصر المسيحي ، لم يلبث ان اغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الاسلام . وعجّلت هـذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية ، لأن المسلمين المظفرين حسبما تنبأ مقدم طائفة فرسان التيوتون ، أضحوا حريصين على ان يتخلصوا نهائياً من أعداء الدين .

دخل السلطان قطز دمشق بعـــد ان مضت خمسة ايام على احراز النصر . وتولى الأشرف الايوبي امارة حمص من جديد ، بعد ان تخلى عن المغول . اما امير حماه الايوبي الذي فرّ الى مصر ، فانه رجع الى امارته . وتمّ استرداد حلب من المغول في خـــلال شهر . وعلى الرغم من غضب هولاكو لضياع سوريا ، فانه ليس بوسعه ان يفعل شيئاً إلا بعد ان يعود الأمن الى جوف الامبراطورية المغولية . ومع انه ارسل العساكر لاسترداد حلب في ديسمبر ، فانهم اضطروا للانسحاب بعـد اربعين يوماً ، أجروا اثناءها المذابح في عدد كبير من المسلمين انتقاماً لمصرع كتبغا ، غير ان ذلك كان كل ما استطاع هولاكو ان يفعله للانتقام لصديقه الوفي [١] .

---

(١) انظر :
Abu'l Feda, p. 144.
Bar - Hebraeus, pp. 439 - 440.
Cahen, op. cit. pp. 710 - 711.

استأنف السلطان قطز رحلة العودة الى مصر ، يكلله المجد والغار . ومع ان نبوءة كتبغا عن الانتقام لم تتحقق بأكملها ، فان إنكاره لما اتصف به المماليك من الخيانة لم يلبث ان تأكد . إذ اشتد ارتياب قطز في بيبرس أقوى أتباعه وأشدهم بأساً ، فلما طلب منه ان يجعله نائباً على حلب ، لم يلقَ الطلب إلا الرفض الصريح . ولم ينتظر بيبرس طويلاً حتى يتخذ قراره . ففي ٢٣ اكتوبر سنة ١٢٦٠ ، حينما وصل الجيش المظفر الى حافة الدلتا ، رأى قطز ان يمضي يوم العطلة في الخروج الى صيد الأرانب ، فخرج في جماعة من أمرائه ، من بينهم بيبرس وبعض الأصدقاء . ولم يكد يبتعدون عن المعسكر ، حتى أقبل احدهم على السلطان كأنما يتقدم بطلب اليه ، وبينما أمسك بيد السلطان كأنه يهمّ بتقبيلها ، اندفع بيبرس فأتاه من الخلف ، وغرس سيفه في ظهر سيده . وعندئذ ركض المتآمرون بخيولهم الى المعسكر ، وأعلنوا نبأ مصرع السلطان . كان اقطاي أتابك العساكر في خيمة السلطان ، حينما وصل المتآمرون ، فبادر بالسؤال أيهم قام بقتل السلطان . فلما اعترف بيبرس بأنه هو الذي فعل ذلك ، طلب اليه اقطاي أن يجلس في دست السلطنة ، وكان اول من بذل الولاء لبيبرس ، ثم حذا حذوه جميع القادة في الجيش ، وبذا عاد بيبرس الى القاهرة سلطاناً [1].

---

(١) انظر :

Abu'l Feda, loc. cit.
Makrizi, Sultans, II, pp. 110 - 113.
Bar - Hebraeus, loc. cit.
Gestes des Chiprois, pp. 165 - 166.

الفصل الرابع

السلطان بيبرس

أضحى ركن الدين بيبرس البندقداري ينـاهز الخمسين من عمره . كان ينتمي الى الأتراك القبجاق ، ضخم الجثـة ، اسمر البشرة ، ازرق العينين ، ذا صوت جهوري شديد الوقع . ولما قدم الى الشام لأول مرة بين عدد من الأرقاء ، وجرى عرضه للبيع على امير حماه الذي فحصه ، فاعتقد انه غلام جلف غليظ . غير انه اثناء عرضه بالسوق لفت نظر احد الأمراء المماليك ، وهو البندقداري ، الذي ادرك ما عليه من ذكاء . وتمّ شراء بيبرس ، كيما يلحق بالمماليك السلطانية . فارتفع شأنه منـذئذ في سرعة ، فلما احرز النصر على الفرنج سنة ١٢٤٤ ، صار يعتبر أكفأ عساكر المماليك . ودلّ تارة على انه رجل سياسي من طراز بالغ الرفعـة ، لا يعوق سبيله ذرة من الشرف ، او عرفان الجميل ، او الرحمة (١) .

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 156.
Sobernheim, Baibars, in Encyclopedia of Islam.

كان اول ما قام به بيبرس من اعمال ، هو ان يوطد مركزه على انه سلطان تقرر الاعتراف به سلطاناً في مصر دون اعتراض ، غير انه حدث في دمشق ان استولى على السلطة امير آخر من المماليك ، وهو سنجر الحلبي . كان سنجر مقبولاً في دمشق ، ومـــا حدث في نفس الوقت من هجوم المغول على حلب ، هدّد سيطرة بيبرس على سوريا . غير ان اميري حمص وحماه الايوبيين انزلا الهزيمة بالمغول ، بينما زحف بيبرس على دمشق ، وقهر عساكر سنجر خارج المدينة في ١٧ يناير سنة ١٢٦١ . ومع ان سكان دمشق حاربوا في جانب سنجر ، فان مقاومتهم لم تلبث ان قُمعت . مضى بيبرس لمعالجة امر الايوبيين . فبذل لأمير الكرك من الوعود المعسولة ما حمله على ان يجعل نفسه في قبضة السلطان ، وبذا تيسر التخلص منه . اما الاشرف امير حمص ، فان بيبرس سمح له ان يبقى على حكمها حتى اذا توفي سنة ١٢٦٣ ، أضافها الى ممتلكاته . ولم يحدث إلا في حماه وحدها ، ان استطاع فرع من فروع الاسرة الايوبية ان يظل في الحكم مدة ثلاثة اجيال اخرى ، وقـــد خضع لمراقبة شديدة من قبل المماليك (١) . وأراد بيبرس ان يجعل لحكومته سنداً دينياً ، فجاء الى القاهرة جماعة من البدو وبصحبتهم رجل اسود البشرة اسمه احمـد ، فأعلنوا انه ابن عم الخليفة الراحل . وزعم بيبرس بأنه تحقق من نسبه ، فنـــاداه على انه الخليفة وإمام المسلمين ، غير انه جرّده من كل سلطة مادية . ولم يلبث احمد الذي صار يعرف بالحاكم ، ان جرى تسييره الى بغـــداد لاستردادها من أيدي

---

(١) انظر :

Makrizi, Sultans, II, p. 116.
Abu'l Feda, pp. 145 - 150.
Bar - Hebraeus, p. 439.

المغول . وإذ لقي أحمد مصرعه اثناء محاولته التي لم تلقَ إلا مساندة ضئيلة من بيبرس ، ارتقى ابنه هذه الخلافة الاسمية . هذا الفرع الغامض الذي يسود الشك في انتمائه للعباسيين ظلّ قائماً في مصر ، طوال حكم المماليك وليس له من الامر شيء[1] .

أما الأمر الثاني الذي قام بـه بيبرس ، فهو انزال العقاب بالمسيحيين الذين سبق ان بذلوا المساعدة للمغول . إذ ان كراهيته الشديدة خص بها هيثوم ملك ارمينية ، وبوهمند امير انطاكية . فأرسل في اواخر خريف سنة ١٢٦١ جيشاً للسيطرة على حلب ، بعد ان اعلن اميرها من المماليك العصيان ، واشن غارات واسعة النطاق على امـــلاك انطاكية . وتجددت الغارات في الصيف التالي ، وتعرّض ميناء السويدية للنهب ، وجرى تهديد انطاكية ذاتها . غير ان هيثوم استنجد بهولاكو ، ثم وصل بقوة مؤلفة من المغول والأرمن في الوقت المناسب لإنقاذ انطاكية[2] . وإذ ظلت سلطة المغول في شمال شرقي سوريا من القوة ما يكفي لإخافة بيبرس ، لم يسعه إلا الالتجاء الى الدبلوماسية . حدث وقتذاك ان تجاهر بالاسلام بركة خان القبيلة الذهبية ، وأعلن استعداده للتحالف مع بيبرس . إذ ان كيكاوس ، احد سلطاني السلاجقة بالأناضول والذي سبق ان حرمه من بلاده ما قام من تحالف بين المغول والبيزنطيين وبين شقيقه قلج ارسلان ، فهرب الى بلاط

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 148.
Makrizi, Sultans, II, pp. 148 - 164.
Bar - Hebraeus, p. 442.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 167.
Estoire d'Eracles, II, p. 466.

بركه ثم عاد الى بلاده بعد ان تلقى مساعدة من القبيلة الذهبية وبيبرس ، بينما استقر وقتذاك زعيم تركاني ، اسمه قرمان في جنوب شرقي قونيه ، فيصبح استخدامه في ان يقوم بضغط مستمر على الأرمن [1] .

بيبرس في فلسطين سنة ١٢٦٣ :

كان الفرنج بعكا يأملون في ان ما بذلوه من مودة وصداقة للمماليك زمن حملة عين جالوت سوف يحفظهم من كل عداوة من قبلهم . غير انه حينما توجه الى معسكر بيبرس ، يوحنا كونت يافا ، ويوحنا سيد بيروت ، في اواخر سنة ١٢٦١ ، كيما يحاولا التفاوض في عودة اسرى الفرنج الذين وقعوا في ايدي المسلمين في السنوات الأخيرة ، وفي استيفاء الوعد الذي بذله السلطان ايبك بإعادة زرين في الجليل اليهم ، او دفع تعويض عنها ، رفض بيبرس ان يستمع اليهما برغم ما كان يبدو من ميله الى يوحنا كونت يافا ، بل انه عوضاً عن ذلك امر بإرسال جميع الأسرى الى معسكرات العمل [2] . وفي فبراير سنة ١٢٦٣ قام يوحنا كونت يافا بزيارة اخرى الى السلطان الذي كان يعسكر وقتذاك قرب جبل الطور ، فحصل منه على وعد بعقد هدنة وتبادل الأسرى . غير ان الداوية والاسبتارية

---

(١) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, p. 711.
Cahen, « Turcomans de Roum », in Byzantion, vol. XIV.

(٢) انظر : Annales de Terre Sainte, p. 450.
Al - Aini, pp. 216 - 217.
يشير العيني الى انعقاد هدنة في تلك السنة بين يوحنا كونت يافا ويوحنا سيد بيروت ، وبين السلطان بيبرس .

رفضوا التخلي عن المسلمين الذين بحوزتهم ، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهرة ، ولما لهم من اهمية مادية للطائفتين . وارتاع بيبرس ذاته لهذا النهم الاستغلالي فقطع المفاوضات ومضى الى بلاد الفرنج . وبعد ان نهب الناصرة ، ودمر كنيسة العذراء ، شن هجوماً مفاجئاً على عكا في ٤ ابريل سنة ١٢٦٣ ، فدار قتال عنيف خارج أسوار عكا ، أصيب فيه الصنجيل جفري سارجينس بجرح خطير . على ان بيبرس لم يكن وقتذاك مستعداً لمنازلة المدينة ، فانسحب بعد ان نهب أرباضها . وساور الناس الشكوك في إنه رتب ان يتعاون معه فيليب مونتفورت والجنويون من صور ، غير ان ضميرهما المسيحي منعهما في آخر لحظة من التعاون معه [1] .

وتعرضت الحدود باستمرار للغارات من كلا الجانبين . إذ ظلت مدن الفرنج في السهل الساحلي مهددة باستمرار للغارات . وحدث في زمن مبكر ، في ابريل سنة ١٢٦١ ان قام سيد ارسوف ، باليان ابلين بتأجير إقطاعه للاسبتارية ، بعد ان أدرك ان ليس بوسعه الدفاع عنه . وفي أوائل سنة ١٢٦٤ قبل الداوية والاسبتارية توحيد قواتها للاستيلاء على حصن ليزون الصغير ، المعروف قديماً باسم مجدو ، ثم قامت الطائفتان بعد بضعة شهور بغارة مشتركة على عسقلان . بينما حدث في الخريف ان نجح العساكر الفرنسيون الذي دفع لهم اجورهم القديس لويس ، في التوغل حتى بلغوا

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 167 - 168.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.
Makrizi, Sultans, II, pp. 194 - 197.
Al - Aini, pp. 218 - 219.

أرباض بيسان ، وردّ المسلمون على ذلك بأن شددوا في نهب قرى الفرنج الواقعة الى الجنوب من جبل الكرمل ، حتى لم تعد الحيــاة مأمونة [1] .

وفي مستهل سنة ١٢٦٥ ، خرج بيبرس من مصر على رأس جيش كثيف إذ ان المغول اظهروا الدلائل على الاعتداء على شمال سوريا في ذلــك الشتاء ، فأول ما قصده بيبرس هو ان يرد هجوم المغول ، غير انــه علم ان عساكره بشمال الشام منعوهم . فأضحى بوسعه ان يستخدم جيشه في مهــاجمة الفرنج في الجنوب . وبعد ان تظاهر بالتلهّي في حملة صيد في التلال الواقعة وراء ارسوف ، ظهر فجأة امام قيسارية ، فسقطت المدينة على الفور في ٢٧ فبراير سنة ١٢٦٥ ، بينما صمدت القلعة مدة اسبوع . فأذعنت الحامية في ٤ مارس سنة ١٢٦٥ ، وسمح لها بيبرس بأن تخرج دون ان تتعرّض لأذى ، غير انه امر بتدمير المدينة والقلعة وتسويتها بالأرض ، ثم ظهرت عساكره في حيفا بعد بضعة ايام . فمن تلقى من السكان التحذير في الوقت المناسب ، هرعوا الى السفن الراسية بالميناء ، بعد ان تخلوا عـــن المدينة والقلعة اللتين جرى تدميرهما عـن آخرهما ، ومن بقي من السكان بالمدينة تعرضوا للقتل . وفي تلك الاثناء هاجم بيبرس قلعة عثليت الضخمة التابعة للداوية . فأمر بإشغال الحريق في القرية الواقعة خارج الاسوار ، أما القلعة فإنها نجحت في مقاومتها له . وفي ٢١ مارس تخلى بيبرس عن حصارها ثم زحف على ارسوف . وسبق للاسبتارية ان شحنوها بالعساكر والمؤن ، إذ

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 444 , 449.
Annales de Terre Sainte, p. 451.

كان بالقلعة نحو مائتين وسبعين من الفرسان استبسلوا في القتال ، غير ان المدينة السفلى سقطت في ٢٦ ابريل ، بعد ان دمر اسوارها ادوات الحصار التي نصبها السلطان ، ولم تنقض ثلاثة ايام حتى استسلم قائد القلعة الذي فقد ثلث عدد فرسانه ، مقابل الحصول على وعد بالإبقاء على حياة الذين نجوا من القتل ، غير ان بيبرس نقض وعده ، واتخذهم اسرى . وما حدث من سقوط الحصنين الكبيرين ازعج الفرنج ، وأوحى الى شاعر الداوية الغنائي (من التروبادور) ريسو بونوميل بأن ينظم قصيدة بالغة المرارة ، يشكو فيها ان المسيح اضحى فيما يبدو مسروراً لما حلّ بالمسيحيين من ذلة ومهانة [١] .

وحلّ الدور على عكا ، غير ان الوصي ، هيو من سادة انطاكية ، والذي كان بقبرص ، هرع فعـــلا بكل من استطاع ان يحشده من الرجال من الجزيرة ، واجتاز بهم البحر . فلما تحرّك بيبرس مرة اخرى من ارسوف صوب الشمال ، تبين له ان هيو قد هبط الى عكا في ٢٥ ابريل سنة ١٢٦٥. عاد الجيش المصري الى بلاده ، بعد ان خلّف عسكراً يكفي لضبط البلاد

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, p. 171.
Estoire d'Eracles, II, p. 450.
Annales de Terre Sainte, pp. 451 - 452.
Al - Aini, pp. 219 - 221.
Abu'l Feda, p. 150.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 7 - 8.

وردت قصيدة بونوميل في :

Bartholemaeis, Poesie Provenziale, II, pp. 222 - 224.

التي تمّ فتحها حديثاً . اضحى الحد على مرأى من عكا ذاتها[1] . وبادر بيبرس فكتب بأنباء انتصاراته الى مانفرد ، ملك صقلية ، الذي لا زال بلاط مصر يحتفظ بالصداقة التي أجراها ابوه فردريك الثاني[2] .

وفاة هولاكو سنة ١٢٦٥ :

على ان سنة ١٢٦٥ كانت في صالح بيبرس ، إذ مات هولاكو في أذربيجان في ٨ فبراير سنة ١٢٦٥ . وقد كان اخوه قبيلاي منحه لقب ايلخان ، وجعل له الحكم وراثياً على ممتلكات المغول في جنوب غربي آسيا . ومع ان مشاكله مع القبيلة الذهبية ومغول التركستان الذين اعتنقوا ايضاً الاسلام ، منعته من مواصلة شن هجوم عنيف على المماليك ، فانه لا زال يدخر من القوة والبأس ما يكفي لمنع المماليك من مهاجمة حلفائه . وفي يوليه سنة ١٢٦٤ عقد آخر قوريلتاي في معسكره قرب تبريز . وشهد الاجتماع كل أتباعه ، ومنهم داود ملك الكرج ، وهيثوم ملك ارمينية ، وبوهمند امير انطاكية . وافتقد هيثوم وبوهمند رضى هولاكو ، لأنهما اختطفا في السنة السابقة يوثيميوس بطريرك انطاكية الارثوذكسي ، الذي سبق ان أصرّ هولاكو سنة ١٢٦٠ على تنصيبه بطريركاً ، ثم نقلاه

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Estoire d'Eracles, loc. cit.

(٢) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, p. 16.
Al - Aini, p. 219.

يشير العيني الى سفارة الى بيبرس من شارل كونت انجو سنة ١٢٦٤ ، وقد كان شارل يعد هجوماً على مانفرد .

الى ارمينية . ودخل الى انطاكية عندئذ البطريرك اوبيزون اللاتيني . واعتبر هولاكو التحالف مع البيزنطيين كبير الأهمية ، على أنه وسيلة لضبط الترك بالاناضول والسيطرة عليهم . ودارت المفاوضات من اجل الحصول على سيدة من الأسرة الامبراطورية بالقسطنطينية ، ليضمها الى زوجاته العديدات ، ولما اختار الامبراطور ميخائيل ابنته غير الشرعية ، ماريا لتحظى بهذا الشرف ، رافقها الى تبريز البطريرك يوثيميوس الذي لجأ الى القسطنطينية ، ولا شك انه عاد الى الشرق بناء على دعوة عاجلة من هولاكو . على ان المغول ظلوا معروفين بسعة تفكيرهم ، ولن يسمحوا لما يقع من منازعات طائفية ان تتدخل في سياستهم العامة . ويبدو ان بوهمند استطاع ان يلتمس لنفسه عذراً ، وأن يوثيميوس لم يعد الى انطاكية (١) .

لا شك ان وفاة هولاكو اضعفت المغول في لحظة حرجة ، إذ أن نفوذ ارملته ، طقزخاتون ، كفل ولاية العرش لابنه الاثير عنده ، اباقا ، الذي كان واليـاً على تركستان . غير انه لم يتم تنصيب اباقا ايلخاناً من الناحية الرسمية إلا في يونيه سنة ١٢٦٥ ، بعد ان مضت اربعة شهور على وفـاة والده ، كما انه لم يكتمل إعادة توزيع الاقطاعات وحكومات

---

(١) انظر : Rashid ad - Din, (trans. Quatremere), pp. 417 - 423.
Howorth, op. cit. III, pp. 206 - 210.
Vartan, (ed. Emin), pp. 205 - 206, 211.
Bar - Hebraeus, pp. 444 - 445.
« Lettre à Charles d'Anjou », in Revue de l'Orient Latin, vol. II, p. 213.
استشارت طقزخاتون ، فارطان ، عن سلامة ما يتلى من قداس على روح هولاكو ، غير انه لم يشجعها ، انظر : Vartan, ed. Emin, p. 211.

الولايات إلا بعد أن مضت اربعة شهور اخرى . وماتت طقز خاتون في صيف هذه السنة ، فاشتد حزن المسيحيين عليها . وفي تلك الاثناء تعرّض اباقا للتهديد المستمر من قِبل ابناء عمومته في القبيلة الذهبية ، الذين اغاروا فعلاً على بلاده في الربيع التالي . كان مستحيلاً على حكومة المغول ان تتدخل في الوقت الراهن في غرب سوريا . اما بيبرس الذي يرجع الى دبلوماسيته اساساً ما وقع للايلخان من متاعب مع جيرانه في الشمال ، فأضحى بوسعه ان يستأنف حملاته لقتال المسيحيين دون ان يخشى تدخلاً [1].

بيبرس يستولي على الجليل سنة ١٢٦٦ :

في اوائل صيف سنة ١٢٦٦ ، بينما كان اباقا منصرفاً الى رد غارة الخان بركة عن فارس ، خرج من مصر جيشان مملوكيان ، ظهر الجيش الاول الذي يقوده بيبرس امام عكا في اول يونيه سنة ١٢٦٦ . على ان الكتيبة المرابطة بعكا ، التي كان ينفق عليها القديس لويس ، تلقت منذ زمن قريب مدداً من فرنسا . ولما اكتشف بيبرس ان المدينة ، عكا ، ترابط بها حامية عسكرية قوية ، انحرف عنها كيما يقوم بمظاهرة امام حصن مونتفورت الذي كان بحوزة طائفة الفرسان التيوتون ، ثم زحف فجأة على صفد ، التي تحكّم الداوية من قلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل . والمعروف ان استحكامات صفد تجددت بأكملها منذ خمس وعشرين سنة ، وأن الحامية كانت وفيرة العدد ، على الرغم من ان عدداً كبيراً من

---

(١) انظر : Howorth, op. cit. III, pp. 218 - 225.

العساكر كانوا من المسيحيين الوطنيين او من المهجنيين . وانحدر الهجوم الاول الذي شنه السلطان بيبرس على صفد في ٧ يوليه ، ولم تنجح أيضاً المحاولتان اللتان وقعتا في ١٣ ، ١٧ يوليه .

وعندئذ اعلن بيبرس عن طريق المنادين بأنه يمنح العفو التام كل من يستسلم له من العساكر الوطنيين . وما يعتبر موضع ريبة ، كم كان عدد الذين وثقوا في كلمته ، غير ان الفرسان الداوية ازداد تشككهم على الفور ، فدارت بينهم المهاترات والسباب ، التي تحولت الى المضاربة ، فأخذ السوريون يفرون من الجيش . ولم يلبث الداوية ان ادركوا انه من المستحيل الاحتفاظ بالقلعة . ففي نهاية الشهر ، أرسلوا جندياً سورياً اعتقدوا في ولائه وإخلاصه ، الى معسكر بيبرس يعرض تسليم الحصن . وعاد السوري ، واسمه ليو ، بوعد من السلطان ، بأن تنسحب الحامية الى عكا ، دون ان تتعرض للأذى . غير أنه لما سلم الداوية القلعة الى بيبرس وفقاً لهذه الشروط ، أمر بقتلهم عن آخرهم . وليس محققاً ما اذا كان ليو قد تعمد الخيانة ، غير أن تحوله السريع الى الاسلام ليس إلا دليلا يؤخذ عليه [١] .

الواقع ان الاستيلاء على صفد هيأ لبيبرس السيطرة على الجليل . إذ اعقب ذلك بأن هاجم تبنين التي سقطت في يده ، دون قتال . ثم ارسل

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 179 - 181.
Estoire d'Eracles, II, pp. 484 - 485.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 28 - 30.
Abu'l Feda, p. 151.
Al - Aini, pp. 222 - 223.

من تبنين العساكر لتدمير قرية قارة المسيحية ، التي تقع بين حمص ودمشق ، لارتيابه في ان لها صلة بالفرنج . فأمر بقتل البالغين من سكانها واسترقاق الاطفال . ولما ارسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بموارة الموتى ، اغلظ في رفض طلبهم ، بأن قال اذا كانوا يلتمسون جثث الشهداء فسوف يجدونها في وطنهم . ولتنفيذ تهديده ، هبط الى الساحل وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين ، غير انه للمرة الثانية لم يجرؤ على مهاجمة عكا ذاتها ، حيث وصل اليها اخيراً من قبرص الوصي هيو . ولما انسحب المماليك في الخريف ، حشد هيو فرسان الطوائف الدينية العسكرية والكتيبة الفرنسية بقيادة جفري سارجينس ، وشن هجوماً معاكساً على الجليل . غير ان مقدمة الجيش وقعت في ٢٨ اكتوبر ، في كمين نصبته حامية صفد بينما هاجم العرب معسكر الفرنج ، وكان لزاماً على هيو ان ينسحب بعد ان تكبد خسائر فادحة [١] .

المماليك يغيرون على قليقية سنة ١٢٦٦ :

وبينما كان بيبرس يغزو في الجليل ، احتشد في حمص الجيش المملوكي الآخر بقيادة أكفأ امرائه ، قلاون . وبعد ان قام قلاون بغارة خاطفة صوب طرابلس ، استولى أثناءها على حصني القليعة ، وحالبه ، ومدينة عرقة ، التي تحكمت في الطريق القادم من البقيعة الى طرابلس ، هرع صوب الشمال ليلحق بجيش المنصور امير حمص . ثم توجهت قواتها المشتركة الى

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 180 - 181.
Estoire d'Eracles, loc. cit.

حلب ، ثم انحرفت صوب الغرب الى قليقية [١] . واذا كان الملك هيثوم يتوقع هجوماً من قبل المماليك ، حاول عند سماع نبأ وفاة هولاكو ان يصالح بيبرس ، سنة ١٢٦٣ . ولمـــا كانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على ما يرد من أخشاب من جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وصهره بوهمند امير انطاكية يسيطران على هذه الغابات ، فكانا يأملان في ان يتخذا من هذه السيطرة سبباً للمساومة . غير ان الحصار الذي حاولاه لم يؤد إلا الى إمعان بيبرس في عزمه على القتـال [٢] . وفي ربيع سنة ١٢٦٦ توجه هيثوم الى بلاط الايلخان في تبريز ، بعد ان علم ان هجوم المماليك أضحى وشيك الوقوع . وبينما كان في تبريز يلتمس المساعدة من المغول ، هبّت العاصفة على قليقية . كان الجيش الارمني بقيـادة ولدي هيثوم ، ليو وثوروس ، ينتظر عند دروب الشام ، وقد تولى فرسان الداوية في بغراس حراسة جناحيه . غير ان المماليك انحرفوا صوب الشمال فعبروا جبـال الأمانوس قرب مرفنتكار ، فأسرع الارمن لاعتراض طريقهم عند هبوطهم الى سهل قليقية . ودارت معركة حاسمة في ٢٤ اغسطس . وتعرض الارمن لهزيمة ماحقة بعد ان تفوّق عليهم المماليك في العدد . ولقي احد الاميرين الارمنيين ، وهو ثوروس مصرعه ، بينما وقع الآخر ، ليو ، في الأسر . وانساب المسلمون المظفرون في قليقية . وبينما قام قلاون ومماليكه بنهب أياس وأذنه وطرسوس ، قـاد المنصور جيشه فتجاوز المصيصة الى

---

(١) انظر : Abu'l Feda, loc. cit.
Al - Aini, p. 222.

(٢) انظر : Mas Latrie, Histoire de Chypre, I, p. 412.

عاصمة الارمن ، سيس ، حيث نهب القصر الملكي ، وأشعل الحريق في الكاتدرائية ، وقتل بضعة آلاف من السكان . وفي نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون الى حلب ، في نحو اربعين الف أسير ، وقافلة ضخمة من الغنائم . أسرع الملك هيثوم بالعودة من بلاط الايلخان ، في جماعة صغيرة من المغول ، فألفى ولي عهده اسيراً ، وعاصمته خراباً ، وبلاده بأكملها مستباحة . ولم تنهض مملكة قليقية مطلقاً من هذه الكارثة ، ولم يعد بوسعها إلا ان تقوم بدور سلبي في الامور السياسية بآسيا [1] .

ارسل بيبرس ، بعد ان تخلص من الارمن ، العساكر في خريف سنة ١٢٦٦ لمهاجمة انطاكية ، غير ان قادته قنعوا بالنهب ، وفتر حماسهم . ومـا بذله لهم بوهمند وقومون المدينة من رشاوي اغوام بالتخلي عن محاولة الهجوم على انطاكية [2] .

---

(١) انظر : Vartan, (ed. Emin), pp. 213 - 215.
Hethoum, p. 407.
Vahram, Rhymed Chronicle, pp. 522 - 523.
King Hethoum, poem, R. H. C. Arm. I, pp. 551 - 552.
Balladon Prince Leo Captivity, ibid, pp. 539 - 540.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 177 - 178.
Bar - Hebraeus, pp. 445 - 446.
Makrizi, Sultans, I, II, p. 34.
Abu'l Feda, p. 151.
Gestes des Chiprois, p. 181.
Estoire d'Eracles, II, p. 455.

(٢) انظر : Cahen, op. cit. p. 716.
اقتبس كامن من مخطوطة محي الدين بن عبد الرحيم .

واستشاط بيبرس غضباً لضعف نوابه ، أما هو فإنـه لم يترك للفرنج فرصة للراحة . ففي مايو سنة ١٢٦٧ ظهر مرة اخرى امام عكا . وإذ رفع بيبرس الرايات التي سبق ان استولى عليها من الداوية والاسبتارية ، استطاع ان يمضي رأساً الى اسوار عكا ، قبل ان تنكشف الخدعة . على ان هجومه على الاسوار قد ارتد ، فقنع بما قام بـه من تخريب القرى والريف ، وظلت الأجساد التي انفصلت عنها رؤوسها ملقاة في الحدائق حول عكا ، الى ان تجاسر سكان المدينة على الخروج لمواراتها . ولما انفذ الفرنج الرسل يطلبون منه عقد هدنة ، استقبلهم في صفد ، حيث احاط بالقلعة جماجم الاسرى المسيحيين الذين لقوا مصرعهم (١) .

أضحت الحياة في عكا بالغة القسوة بعـد ان تجدد القتال بين البنادقة والجنويين من اجل السيطرة على الميناء . ففي ١٦ اغسطس سنة ١٢٦١ ، شق امير البحر الجنوي لوتشيتو جريمالدي طريقه الى الميناء في ثماني وعشرين سفينة ، بعـد ان استولى على برج الذباب ، الذي يقع في طرف حاجز المياه . غير انه توجه ، بعد اثني عشر يوماً ، الى صور في خمس عشرة سفينة لإصلاحها . وفي اثناء تغيبه ظهر اسطول للبنادقة مؤلف من ست وعشرين سفينة وهاجم ما تبقى من السفن الجنوية . وفقد الجنويون خمس عشرة سفينة في المعركة ، بينما شقت السفن الاخرى طريقها الى صور (٢).

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 181 - 183.
Estoire d'Eracles, II, p. 455.
Al - Aini, p. 225.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 186.
Estoire d'Eracles, II, pp. 455 - 456.
Heyd : Histoire du Commerce de Levant, I, p. 354.

خرج بيبرس مرة اخرى من مصر في اوائل سنة ١٢٦٨ . لم يبق للمسيحيين من ممتلكات جنوبي عكا ، سوى قلعة عثليت التي امتلكها الداوية ، ومدينة يافا التي كانت في حوزة رجل القانون يوحنا ابلين . على ان يوحنا الذي ظل دائماً موضع احترام المسلمين ، مات في ربيع سنة ١٢٦٦ . ولم يكن لابنة جاي هذه المكانة . وكان يأمل في أن يرعى السلطان الهدنة التي عقدها ابوه . وإذ لم تكن المدينة (يافا) في حالة تسمح بالدفاع عن نفسها ، عند ظهور الجيش المصري امامها في ٧ مارس ، سنة ١٢٦٦ ، سقطت في يدي السلطان بعد قتال لم يستغرق سوى اثنتي عشرة ساعة . ولقي عدد كبير من سكانها مصرعهم ، غير انه سمح للحامية بالالتجاء الى عكا ، دون ان تتعرض لأذى . فتقرر تدمير القلعة ، وارسال ما تحويه من خشب ورخام الى القاهرة ، لاستخدامها في المسجد الكبير الجديد الذي كان بيبرس يشيده بها[1] .

أما الهدف التالي لبيبرس ، فكان قلعة الشقيف التي انتزعها الداوية منذ زمن قريب من يوليان سيد صيدا . فاستسلمت الحامية في ١٥ ابريل بعد ان تعرضت القلعة للقذف المتواصل مدة عشرة ايام ، فجعل للنساء والاطفال الحرية في الانتقال الى صور ، أما الرجال فتقرر الاحتفاظ بهم

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, p. 190.
Estoire d'Eracles, II, p. 456.
Abu'l Féda, p. 152.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 50 - 51.
Al - Aini, pp. 226 - 227.

أرقاء . وأصلح بيبرس القلعة ، وشحنها بقوة كبيرة من العساكر[1] . وفي اول مايو ظهر الجيش المملوكي فجأة خارج طرابلس ، غير انـه انحرف فجأة صوب الشمال ، لما تبين له ان بها حامية قوية . فعجل الداوية بأنطرطوس وصافيتا بالتوسل الى السلطان بأن يبقي لهم بلادهم[2] . فاحترم بيبرس رغباتهم وأسرع بالهبوط الى وادي نهر الاورنت . وفي ١٤ مايو أضحى أمام انطاكية ، وعندها قسّم قواته ثلاثة أقسام ، توجه جيش للاستيلاء على السويدية ، وبذا يقطع الاتصال بين انطاكية والبحر ، وتحرك الجيش الثاني الى دروب الشام ، لمنع كل مساعدة تصل الى انطاكية من قليقية ، أما الجيش الرئيسي بقيادة بيبرس نفسه ، فانه أخـذ يقترب من المدينة ليطوّقها .

سقوط انطاكية سنة ١٢٦٨ :

كان بوهمند امير انطاكية في طرابلس ، وتولى قيادة انطاكية الكندسطبل سيمون مانسل ، الذي تزوج من أرمنية تمت بصلة القرابة للأميرة زوجة بوهمند . ومع ان أسوار انطاكية جرى الاهتمام باصلاحها ، فإن الحامية لم تكن من كثرة العدد ما يكفي لشحن أسوارها الممتدة . على ان الكندسطبل حمله الطيش على ان يقود جماعة من العساكر الى خارج المدينة في محاولة

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Estoire d'Eracles, loc. cit.
Al - Aini, pp. 227 - 228.

(٢) انظر : Al - Aini, p. 228.

لمنع مهاجمة المدينة ، غير انه وقع في أسر المماليك . فأمره آسروه بأن يدبر امر استسلام الحامية ، غير ان نوابه داخل الأسوار رفضوا الاستماع اليه . ووقع في اليوم التالي اول هجوم من قبل المماليك على المدينة غير انه جرى رده ، فاستؤنفت المفاوضات من جديد ، ولكنها لم تصب نجاحاً . وفي ١٨ مايو سنة ١٢٦٨ شن المماليك هجوماً عاماً على جميع قطاعات الأسوار . وبعد ان اشتد القتال ، حدثت ثغرة حيث امتدت الأسوار على منحدر جبل سلبيوس ، وتدفق منها المسلمون الى داخل المدينة .

وما تلي سقوط انطاكية من وقوع مذبحة بلغت من القسوة ما صدم المؤرخين المسلمين انفسهم ، فبناء على امر السلطان تقرر اغلاق ابواب المدينة ، حتى لا يهرب احد من السكان . واولئك الذين عثروا عليهم بالشوارع جرى قتلهم على الفور . أما الآخرون الذين لزموا بيوتهم خوفاً وجزعا ، فإنهم لم ينجوا من القتل إلا ليقضوا ما تبقى من ايام حياتهم في الأسر ، على ان ألوفاً من السكان هربوا بأسراتهم ليأووا الى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل . فتقرر الابقاء على حياتهم ، أما اشخاصهم فاقتسمها الامراء . وفي ١٩ مايو سنة ١٢٦٨ امر السلطان بجمع الغنائم وتوزيعها . ومع ان رخاء انطاكية ظل عشرات السنوات يتداعى وينهار فإن المدينة ظلت زمناً طويلاً اغنى مدن الفرنج ، وما تكدس بها من الاموال يثير الدهشة . إذ كان بها مقادير كبيرة من الحلى الذهبية والفضية ، وتوافر بها من النقود ما صار يوزع بالطاسات . أما عدد الاسرى فكان بالغ الضخامة ، فما من جندي بجيش السلطان لم يحز مملوكاً ، وبلغ الفائض من الوفرة ما جعل ثمن الغلام الصبي ينخفض الى اثنا عشر درهماً ، بينما لم يتجاوز ثمن الجارية خمسة دراهم ، ولم يحز السلطان إلا لعدد قليل من اثرياء السكان

بأن يفتدوا انفسهم . فتقرر إطلاق سراح سيمون مانسل ، فلجأ الى ارمينيا غير ان عدداً كبيراً من موظفي الحكومة والكنيسة لقوا مصرعهم ، او لم يعد احد يسمع عنهم مرة اخرى [1] .

عاشت إمارة انطاكية التي كان اول إمارة اقامها الفرنج في الشرق الفرنجي ، مائة وإحدى وسبعين سنة . فيعتبر تدميرها لطمة خطيرة لهيبة المسيحيين ، وعجّل بانهيار المسيحية في شمال سوريا ، إذ انتهى امر الفرنج ، ولم تصلح احوال المسيحيين الوطنيين بعدهم . ولم يكن ذلك عقاباً لهم على مساندتهم للفرنج ، بل لمن هم اكثر خطورة منهم على الاسلام ، وهم المغول . ولم تنهض انطاكية مطلقاً ، إذ سبق ان فقدت اهميتها التجارية ، فنظراً لأن الحد الفاصل بين الامبراطوريتين المغولية والمملوكية يمتد على نهر الفرات ، لم تعد التجارة القادمة من العراق والشرق الاقصى تجتاز حلب ، بل التزمت بلاد المغول ، وانتهت الى البحر المتوسط عند أياس في قليقية . ولذا لم يحفل الفاتحون المسلمون بازدياد عدد سكان انطاكية مرة اخرى . فلم يعد لها من الأهمية سوى انها اضحت قلعة بالطرف الاسلامي . ولم يجر من جديد بناء كثير من المساكن بداخل اسوار المدينة ، وانتقل موظفو الكنائس الى مواضع تفوقها نشاط وحيوية .

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 190 - 191.
Estoire d'Eracles, II, pp. 456 - 457.
Bar - Hebraeus, p. 448.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 52 - 53.
Al - Aini, pp. 229 - 234.
Abu'l Feda, p. 152.

ولم يمض زمن طويل على سقوط انطاكية ، حتى استقر في دمشق مقر كل من الكنيستين الارثوذكسية واليعقوبية بسوريا [١] .

وإذ ضعفت ارمينيا ، وتدمرت انطاكية ، قرر الداوية انـه اضحى مستحيلاً عليهم ان يحافظوا على قلاعهم في جبال الأمانوس ، فجلوا بدون قتال عن بغراس وقلعة لاروش دي روسول الي تقل عنها شأناً . ولم يبق من إمارة انطاكية سوى مدينة اللاذقية التي أعادها المغول الى بوهمند ، فأضحت جيباً معزولاً ، وقلعة القصير الذي انعقدت اواصر الصداقة بين سيدها وبين المسلمين المجاورين ، فسمحوا له بالبقاء بها سبع سنوات اخرى على أنه من اتباع السلطان [٢] .

أخلد بيبرس الى الراحة فترة قصيرة بعد انتصاره في انطاكية . ظهر من الدلائل مـا يشير الى ان المغول تجهزوا للقيام بدور ايجابي كبير ، وترددت الشائعات بأن القديس لويس اخذ يعد حملة صليبية ضخمة ،

(١) ظلت انطاكية تزخر بعدد كبير من السكان حينما زارهـا ابن بطوطة سنة ١٣٥٥ .
انظر : (Ibn Battutah, Voyages, I, p. 162).

على ان بيبرس سبق ان دمر استحكاماتها. ولما زارها برتراندون دي لا بروكيير سنة ١٤٣٢، أشار الى ان اسوارها لا زالت متماسكة ، غـير انه لم يكن بداخل الاسوار سوى ثلاثمائة بيت مأهولة بالسكان ، الذين كان معظمهم من التركمان . انظر :
(Bertrandon de la Broquière, Voyage d'Outremer, ed. Schefer, pp. 84 - 85).

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 191.
Estoire d'Eracles, II, p. 457.
Cahen, La Syrie du Nord, p. 717, n. 17.

فلما ارسل الوصي هيو الى السلطان يطلب عقد هدنة ، ردّ عليه بايفاد سفارة الى عكا ، تعرض وقف العداوة بصفة مؤقتة . وكان هيو يأمل في الحصول على بعض الامتيازات ، فحاول ان يهدد السفير محيي الدين ، بأن استعرض قواته في تعبئة القتال ، غير ان محيي الدين اكتفى في اجابته عليه بقوله ، أن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع الأسرى المسيحيين في القاهرة . وطلب الامير بوهمند ان يدخل في عقد الهدنة . وساءه ان السلطان لم يخاطبه في اجابته إلا على أنه كونت ، نظراً لأنه فقد إمارته (انطاكية) ، غير انه قبل في ارتياح مـــا تهيأ له من فترة للراحة . وعلى الرغم من ان المماليك شنوا غارات صغيرة على بـلاد المسيحيين في ربيع سنة ١٢٦٩ ، فان الهدنة ظلت في مجموعهـا مرعية الجانب لمدة سنة [١] .

هيو ملك قبرص وبيت المقدس سنة ١٢٦٨ :

وفي تلك الاثناء حاول الفرنج ان يقوموا بتنظيم احوالهم . إذ حدث في ديسمبر سنة ١٢٦٧ ، ان مات هيو الثاني ملك قبرص ولم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، فخلفه على العرش الوصي هيو لوزجنان ، باسم هيو الثالث وتمّ تتويجه يوم عيد الميلاد (١٢٦٧) . وبتوليه العرش أضحت سلطته على اتباعه بالغة القوة ، فلن ينتهي اجل حكومته فجأة حين يبلغ الملك الحدث سن الرشد . غير انـــه لم يستطع التغلب على دعوى اتباعه بأنهم ليسوا

---

(١) انظر : Muhi ad - Din, in Reinaud, Bibliothèque des Croisades, pp. 313 - 315.

ملزمين بأن يخدموا في جيشه خارج حدود المملكة . فكلما أراد ان يأخذ عساكر الى الساحل الفرنجي ، ارتكن على الرجال الذين حصل عليهم من الضياع الملكية ، وعلى المتطوعين . وفي ٢٩ اكتوبر سنة ١٢٦٨ جرى اعدام كنرادين هوهنشتاوفن في نابولي ، بناء على اوامر شارل كونت انجو ، بعد أن حاول عبثاً ان يسترد منه ارثه في ايطاليا . وأدت وفـــاة كنرادين الى زوال الفرع الاكبر للأسرة الحاكمة في بيت المقدس ، الذي انحـــدر من الملكة مارية الماركيزة . ويلي هذا الفرع في احقية ولاية عرش بيت المقدس، الاسرة الحاكمة في قبرص ، التي تنحدر من اخت غير شقيقة لماريا ، وهي أليس كونتيسة شامبانيا . أما دعوى الملك هيو الثالث في ولاية العرش، فأقرها ضمناً ما حدث من تنصيبه وصياً على العرش ، بعد ان جرى اغفال ابن خالته هيو بريين ، الذي تفضل حقوقه في الوراثة ما لدى هيو من حقوق . على ان هيو بريين قـد خرج يلتمس نصيبه في دوقية اثينا اللاتينية ، بأن تزوج من وريثتها . فلم يعد يتحدى ابن خالته (هيو الثالث) . غير انه لا بدّ من تقدير اهمية منافس آخر ، ذلك ان ميليسند لوزجنان ، وهي اخت غـير شقيقة للملكة ماريا ، التي تزوجت بوهمند الرابع امير انطاكية وتعتبر الزوجة الثانية له ، انجبت له ابنتها ماريا التي لا زالت على قيد الحياة . فإذا كان هيو يزعم بأنه ينحدر من زواج الملكة ايزابيللا الذي يرجع الى زمن مبكر عن زواج ماريا ، فـإن ماريا لا يفصلها في درجة القرابة عن الملكة ايزابيللا إلا جيل واحد . فمثلت ماريا امـــام المحكمة العليا ، وطالبت بأن ما يقرر ولاية العرش ، هو درجة القرابة من الملكة ايزابيللا ، التي تعتبر الجدة التي ينحدر منها كنرادين وهيو ، وهي

(ماريا) ذاتها . وقالت بـأن للحفيدة السابقة في الحكم على ابن الحفيد . ورد هيو ان جدته الملكة أليس ، سبق الاعتراف بها وصيّة ، نظراً لأنها تعتبر الوريثة التالية للعرش ، ولأن ابنها هنري ملك قبرص ، تقرر الاعتراف به وصيّاً عقب وفاتها ، ثم تلي هنري في الوصاية ، ارملته ثم هيو نفسه على انهما قيّمان على هيو الثاني ، الملك الصغير . فأضحى هيو يمثل فرع أليس وعارضت ماريا بقولها انه قد وقع خطأ ، إذ ان امها ميليسند كان ينبغي ان تخلف أليس على الوصاية . وبعد جدال لقيت فيه ماريا التأييد من الداوية ، بينما ساند رجال القانون بالشرق الفرنجي دعاوى هيو . ولو انهم رفضوا مساندته ، لأضحى لزاماً عليهم ان يعترفوا بأنهم وقعوا في الخطأ من قبل ، وكان الرأي العـام يظاهرهم ، فالواضح ان ملك قبرص الشاب القوي يعتبر افضل المرشحين وأكثر قبولاً من المرأة العانس التي تجاوزت سن الشباب . لم تكن ماريا لتقبل قرار المحكمة ، فأصدرت احتجاجاً رسمياً يوم تتويج هيو ، ثم هرعت الى ايطاليا لترفع قضيتها الى المجلس البابوي . وصادف وصولها الى روما فـترة شغور في البابوية . غير ان جريجوري العاشر الذي جرى انتخابه بابا سنة ١٢٧١ ، اظهر عطفه عليها ، وأجاز لها ان ترفع الأمر الى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ . على ان ممثلين من عكا ، ظهروا في المجمع ، واحتجوا ، إذ اعتبروا ان للمحكمة العليا في بيت المقدس وحدها الولاية على وراثـة الحكم بالمملكة ، فتقرر اسقاط القضية ، على ان جريجوري العاشر دبر قبل وفاته في سنة ١٢٧٦ بأن تبيـع ماريا حقها في الحكم الى شارل كونت انجو . وتمت الصفقة في مارس سنة ١٢٧٧ . إذ حصلت الأميرة على الف قطعة ذهبية ، وعلى مبلغ معين كل سنة ، قدره

اربع آلاف ليرة تورنايه . وأقرّ شارل الثاني ملك نابولي ، المبلغ الذي يؤدي سنوياً . على ان ما تسلمته فعلاً من المال ، ماريا التي لا زالت على قيد الحياة سنة ١٣٠٧ ، يعتبر موضع شك وارتياب [١] .

تتويج هيو سنة ١٢٦٩ :

قـام بتتويج هيو في ٢٤ سبتمبر سنة ١٢٦٩ اسقف لد بالنيـابة عن البطريرك . وكان اول ما باشره هيو من اعمال ، أنه حاول ان يعيد الوحدة الى مملكته الجديدة . وقد سعى فعلاً قبل تتويجه الى تسوية النزاع القديم بين فيليب مونتفورت والحكومة في عكا . وإذ أذلّ كبرياء فيليب مونتفورت ضياع تبنين ، لم يعد شديد الحرص على ان ينفرد وحده بعمل من الاعمال . فلما اقترح هيو ان تتزوج اخته مرجريت لوزجنان ، التي تعتبر أجمل بنات جيلها ، من يوحنا أكبر أبناء فيليب ، قبل فيليب العرض في غبطة وسرور . فأضحى بوسع هيو ان يمضي الى صور كيما يتوّج في كاتدرائيتها ، التي صارت منذ سقوط بيت المقدس الموضع التقليدي الذي يتوّج فيه ملوك بيت المقدس . ولم يلبث همفري الابن الاصغر لفيليب ان تزوج من ايشيفا ابلين ، البنت الصغرى ليوحنا الثاني سيد بيروت . وهذا الوفاق بين بيت مونتفورت وبيت ابلين ، ازداد يسراً وسهولة ، عند انقراض

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 190 - 193.
Assises, II, pp. 415 - 419.
La Monte, Feudal Monarchy, pp. 77 - 79.
Hill, History of Cyprus, II, pp. 161 - 165.

الجيل القديم من الابلين . إذ مات يوحنا سيد بيروت في سنة ١٢٦٤ ، وتوفي يوحنا كونت يافا في سنة ١٢٦٦ ، ولحق بـه يوحنا سيد أرسوف في سنة ١٢٦٨ . ولم يبق للابلين ، بعـد حملات بيبرس الاخيرة ، من الاقطاعات على الساحل الفرنجي ، والاقطاعات العلمانية بالمملكة عدا صور ، إلا بيروت التي انتقلت الى حوزة ايزابيلا ، ابنة يوحنا ابلين الكبرى . تزوجت ايزابيلا وهي طفلة ، من ملك قبرص الطفل هيو الثـاني ، الذي مات قبل ان يتم عقد الزواج . وكان هيو الثالث يأمل في ان يفيد منها باعتبارها الوارثة الشرعية في اجتذاب فارس لامع الى الشرق . على ان الابلين لا زالوا أقوى أسرة في قبرص . ولم يلبث الملك ان ظفر بعدئذ بولائهم ، بأن تزوج من ايزابيلا اخرى من أسرة ابلين ، ابنة الكندسطبل جاي (١) .

ومع ان الملك سعى الى عقد صلح بين الفئة القليلة الباقية من أتباعه ، فإنه لم يكن من اليسير ان يفوز بالتعاون من قبل الطوائف الدينية العسكرية ، او قومون عكا ، او الايطاليين . فلن تتوقف البندقية وجنوة عما بينهما من منازعات بناء على أمر الملك . وكره فرسان الداوية والفرسان التيوتون ما حدث من الوفاق بين هيو وفيليب مونتفورت . وحقد قومون

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 192 - 193.

ازدادت الاميرة مرجريت سمنة فيما بعد ، وفقدت ابصارها ، لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها حينما تزوجت .

انظر ايضاً : Lignages, p. 462.

وكذا شجرة الانساب الواردة في الملحق الثالث .

عكا ايضاً على كل ما يبذل لمدينة صور من عطف ، ولم يود ان يشهد نهاية المملكة النائية عن الوطن ، التي ازداد في ظلها سلطان الأتباع . ولم يكن بوسع هيو ايضاً ان يستدعي أتباعـــه من جزيرة قبرص ، كيما يبسطوا سلطانه . فباءت بالفشل محاولته لجعل حكمه قوياً (١) .

أمـا الأمور الخارجية فلم تكن بالغة التشجيـع ، إذ أن شبح شارل كونت أنجو القى ظلاً قاتمـاً على عـالم البحر المتوسط ، إذ انعقدت في الشرق آمال كبيرة على حملة القديس لويس القادمة ، غير ان شارل حوّلها عن وجهتها سنة ١٢٧٠ حتى تتفق مع مصالحه . على ان وفاة لويس في تونس في تلك السنة ، أراحه من السلطان الاجنبي الوحيد الذي يحترمه . ارتبط شارل بعلاقات ودية مع السلطان بيبرس ، غير أنـــه كان يكنّ العداوة الشخصية للملك هيو ، ولمناوأته شجع دعاوى هيو برين في عرش قبرص ، وساند مـاريا الانطاكية في دعواها في عرش بيت المقـدس . والواقع ان الحظ الطيب واتى الشرق الفرنجي ، بأن تحولت اطماع شارل الاساسية لمناهضة بيزنطة ، إذ كان من الجلي ان كل حملة صليبية يساندها شارل سوف تتحول لخدمة اغراضه الذاتية (٢) .

---

(١) انظر : Grousset, Histoire des Croisades, III, pp. 645 - 646.
بالغ جروسيه في تقدير مواهب هيو في ضوء الاحداث التالية .
انظر ايضاً : Hill, loc. cit. p. 178.

(٢) انظر ما سبق ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

حملة ولدي ملك اراجون الصليبية سنة ١٢٦٩ :

على ان الروح الصليبية لم تخمد جذوتها نهائيـاً في اوربا . ففي اول سبتمبر سنة ١٢٦٩ ، أبحر من برشلونـة جيمس الاول ملك اراجون ، بأسطول قوي لإنقاذ الشرق . ولكن صادفته على الفور عاصفة ، اثارت من الرعب والاضطراب ما حمل الملك والشطر الاكبر من الاسطول على العودة الى الوطن . ولم يواصل الرحلة إلا اسطول صغير ، يقوده ولدان غير شرعيين للملك ، وهما فرناندو سانكيز ، وبدرو فرنانديز ، فبلغا عكا في نهاية ديسمبر سنة ١٢٦٩ ، متلهفين لقتال المسلمين . والمعروف انه حدث في اوائل ديسمبر ان نقض بيبرس الهدنة التي عقدها مع هيو . وظهر في ثلاثة آلاف رجل في الحقول المترامية امام عكا ، بعد ان ترك آخرين وقد اختبأوا في التلال . وأراد ولدا جيمس ان يبادرا على الفور بشن هجوم على العدو ، ولم يثنهما عن عزمهما سوى ما بذله معهما الفرسان الرهبان من كياسة ، إذ ارتابوا ان يقعا في كمين نصبه بيبرس . يضاف الى ذلك ما حدث من تناقص عـدد المسيحيين ، إذ أن الكتيبة الفرنسية التي تولى قيادتها الصنجيل جفري سارجينس حتى وفاته في فصل الربيـع ، خرجت مع قائدها الجديد ، اوليفر تيرميس ، والصنجيل الجديد روبرت كريسيك ، في غارة على الجهات الواقعة خلف مونتفورت . ولمح هؤلاء المغيرين اثناء عودتهم القوات الاسلامية ، فأراد اوليفر تيرميس ان يتسللوا في الحدائق دون ان يلحظهم أحد ، عند عودتهم الى عكا ، غير ان الصنجيل روبرت أصرّ على مهاجمة العدو ، ووقع الفرنسيون على الفور في الكمين الذي نصبه بيبرس ولم يبق منهم على قيد الحيـاة إلا عدد بالغ القلة . ولمـا تصايح العساكر في داخل عـكا ، يطلبون المسير لإنقاذهم ، منعهم من ذلك ولدا

ملك اراجون اللذان وعيا دروسها ، ولم يلبثا أن عادا بعدئذ الى أراجون ، دون ان يحققا شيئاً [١] .

ومع ان المساعدة من الغرب لم تكن كافية ، فلا زال الامل معقوداً على قدوم عون من الشرق . إذ ان أباقا ، ايلخان فارس ، كان كأبيه شاماني العقيدة ، شديد العطف على المسيحيين . ومع أن ما حدث من وفاة طقز خاتون زوجة والده المسيحية حرم المسيحيين على اختلاف مذاهبهم من أكبر صديق لهم ، فإنهم لقوا في الاميرة ماريا البيزنطية حامياً جديداً لهم . وصلت ماريا الى بلاط ايلخان فألفت هولاكو قد مات ، غير أنها بادرت على الفور الى الزواج من أباقا ، الذي لم يلبث ان أظهر لها عميق احترامه . أما رعاياه ، الذين اشتهرت عندهم ، باسم ديسبينا خاتون ، فإنهم أجلّوها لما اشتهرت به من حب الخير والحكمة . وما تردد من أنباء عن صدق نية ايلخان حملت ملك أراجون على ان يشترك مع البابا كليمنت الرابع في إنفاذ جيمس ألاريك بربيجنان في سفارة الى ايلخان سنة ١٢٦٧ ، ليعلن عن قرب قدوم حملة أراجون وحملة الملك لويس الصليبيتين ، وكيا يقترح عقد محالفة عسكرية . غير ان أباقا لم يبذل إلا وعوداً غامضة ، نظراً لانصرافه التام الى قتال القبيلة الذهبية [٢] . ومن الدليل على عجزه عن

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 183 - 185.

أخطأ هذا المصدر في جعل تاريخ الحملة سنة ١٢٦٧ .

Estoire d'Eracles, II, pp. 457 - 458.

Annales de Terre Sainte, p. 454.

(٢) انظر : D'Ohsson, Histoire des Mongols, III, pp. 539 - 542.

Howorth, op. cit. III, pp. 278 - 280.

Bar - Hebraeus, p. 505.

يشير ابن العبري الى ما اشتهرت به ماريا من صفات .

القيام بما هو أكثر من ذلك ، أنه لم ينهض في السنة التالية (١٢٦٨) لإنقاذ انطاكية من المماليك . ولم يلبث أباقا ان واجه حرباً جديدة مع أبناء عمومته من بيت جغتاي ، الذين أغاروا على أملاكه الشرقية في سنة ١٢٧٠ ، ولم يرتدوا إلا بعد معركة عنيفة دارت قرب هراة . ووجه أباقا كل اهتمامه في السنتين التاليتين لاستئناف المفاوضات مع عمه وسيده الخان الكبير ، قبيلاي في الصين [1] . على ان أباقا كتب في سنة ١٢٧٠ الى الملك لويس ، يتعاهد بأن يبذل مساعدة عسكرية متى ظهرت الحملة الصليبية في فلسطين [1] . غير ان الملك لويس توجه الى تونس حيث لم يستطع المغول ان يساعدوه . على ان المساعدة العملية الوحيدة التي استطاع الايلخان ان يقدمها للمسيحيين ، هي انه بذل الى هيثوم ملك أرمينيا واحداً من أشهر الامراء المماليك ، وهو شمس الدين سنقر الأشقر (الباشق الاحمر) ، الذي سبق ان أسره المغول في حلب . ووافق بيبرس ، مقابل إطلاق سراحه ، على ان يفك أسر ليو ولي عهد هيثوم ، وأن يعقد هدنة مع هيثوم ، بشرط ان يتنازل الأرمن له عن حصون جبال الأمانوس ، وهي دربساك ، وبهسنا ، ورعبان . وتم إبرام المعاهدة في اغسطس سنة ١٢٦٨ . وفي اوائل السنة التالية (١٢٦٩) ، عاد ليو الى ارمينية ، بعد ان أذن له السلطان بأن يحج الى بيت المقدس . وبادر والده هيثوم بالتنازل له عن

---

(١) انظر : D'Ohsson, op. cit. pp. 442 ff.

(٢) انظر : Ibid, pp. 458 - 459.

العرش ، ثم لجأ الى احد الأديرة ، حيث مات في السنة التالية . وأقرّ أباقا تنصيب ليو ملكاً ، فتوجه اليه ليو ، وبذل له يمين الولاء [1] .

مصرع فيليب مونتفورت سنة ١٢٧٠ :

ظل بيبرس ملتزماً الهدوء والسكون طوال صيف سنة ١٢٧٠ حتى لا يضطر الى الدفاع عن مصر ازاء ملك فرنسا . غير انـه كيا يضعف الفرنج دبّر اغتيال فيليب مونتفورت الذي يعتبر من اعـلام باروناتهم . أعرب الحشيشية بالشام عن امتنانهم للسلطان لأن مـا قام به من الفتوح خلصتهم مما التزموا به من دفع الجزية للاسبتارية ، كما اشتد انكارهم لـما دار من مفاوضات بين الفرنج والمغول ، الذين دمروا معاقلهم في فارس . وبناء على طلب بيبرس ارسلوا احد الفداوية الى صور . وفي صور زعم انه نصراني ، فدلف يوم الاحد ، ١٧ اغسطس ، سنة ١٢٧٠ الى الكنيسة ، حيث كان يؤدي الصلاة بها فيليب وابنه يوحنا ، فانقضّ عليهما فجأة . وتعرّض فيليب لجراح قاتلة قبل ان تصل اليه النجدة ، على أنه بقي على قيد الحياة حتى علم بأنه تمّ القاء القبض على القاتل ، وأن ابنه نجا من القتل . والواقع ان وفـاة فيليب تعتبر ضربة خطيرة للشرق الفرنجي ،

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, p. 191.
Estoire d'Eracles, II, pp. 457, 465.
Bar - Hebraeus, pp. 446 - 449.
Vahram, Rhymed Chronicle, pp. 523 - 524.
Hayton, Flor des Estoires, p. 178.
Cahen, op. cit. p. 718.

فعلى الرغم من ان يوحنا ظل وفياً لصهره الملك هيو ، فانـه افتقر الى ما اشتهر به أبوه من التجربة والهيبة [1] .

على ان وفاة الملك لويس أمـام تونس اراحت السلطان ، الذي كان مستعداً للمضي الى مساعدة امير تونس . وإذ ادرك انه ليس ثمة من الأمور ما يدعوه الى الخوف من شارل كونت أنجو ، سار مرة اخرى في سنة ١٢٧١ لمهاجمة بلاد الفرنج . فظهر في فبراير سنة ١٢٧١ امام صافيتا ، القلعة البيضاء التي يتملكها الداوية . وبعـد ان استماتت الحامية الصغيرة في الدفاع ، أشار عليها مقدم الداوية بالتسليم . ومن بقي على قيد الحياة من رجالهـا سُمح لهم بالالتجاء الى انطرطوس . ثم زحف السلطان على حصن الاسبتارية الضخم ، وهو حصن الاكراد او قلعة الحصن ، التي بلغها في ٣ مارس . وفي اليوم التالي لحقت به كتائب من الحشيشية ، والمنصور امير حمـاه بجيشه . على ان الامطار الغزيرة التي ظلت تهطل بضعة ايام منعته من جلب ادوات الحصار . ولكن المسلمين شقوا لهم طريقاً الى برج باب السور الخارجي ، بعد قصف شديد لم يستمر طويلاً . ثم شقوا طريقهم بعد اسبوعين الى السور الداخلي ، فقتلوا كل من صادفهم من الفرسان به ، وأسروا العساكر الوطنيين . وظل كثير من الجند المدافعين يقاومون عشرة ايام اخرى ، في البرج الكبير الذي يقـع في جنوب السور . ثم اعلنوا التسليم في ٨ ابريل ، فتقرر ارسالهم بأمـان من السلطان الى طرابلس .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 194 - 198.
Annales de Terre Sainte, p. 454.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 80 - 83.

والواقع ان استيلاء بيبرس على حصن الاكراد الذي تحدى الغزاة ومنهم صلاح الدين ، جعل له السيطرة على الطرق المؤدية الى طرابلس . وأتبع بيبرس ذلك ، بالاستيلاء على عكار ، قلعة الاسبتارية جنوبي البقيعة ، التي سقطت في اول مايو ، بعد حصار استمر اسبوعين[١] .

كان بوهمند امير انطاكية في طرابلس ، وإذ خشى ان تلقي طرابلس مصير عاصمته الاخرى ، انطاكية ، ارسل الى بيبرس يلتمس عقد هدنة . ولكن بيبرس سخر منه لافتقاره الى الشجاعة ، وطلب اليه ان يؤدي له كل نفقات حملة المماليك الأخيرة . على انه بقي لدى بوهمند من الشجاعة ما يكفي لرفض هذه الشروط المهينة . وفي تلك الاثناء لم يحرز بيبرس شيئاً من النجاح فيما شنه من هجوم على معقل مرقية الصغير ، الذي جرى تشييده تجاه الساحل بين بانياس وانطرطوس . وكان بارثولوميو سيد هذا المعقل قد توجه الى بلاط المغول يلتمس المساعدة . على ان فشل بيبرس في هجومه على مرقيه اثار فيه من الغضب ما حمله على ان يحرض الحشيشية على اغتيال بارثولوميو ، وهو في طريقه الى بلاط المغول[٢] .

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, pp. 84 - 85.
Al - Aini, pp. 237 - 239.
Abu'l Feda, p. 154.
Gestes des Chiprois, p. 199.
Estoire d'Eracles, II, p. 460.

(٢) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, pp. 86, 200.
Annales de Terre Sainte, p. 455.
Röhricht, « Derniers Temps », in Archives de l'Orient Latin, II, pp. 400 - 403.

وحدث فجأة في نهاية مايو ، ان عرض بيبرس على بوهمند عقد هدنة لمدة عشر سنوات ، لا تتضمن من الشروط سوى احتفاظه بما استولى عليه حديثاً من بلاد . ولما قبل بوهمند عقد الهدنة ، توجه عائداً الى مصر ، ولم يتوقف في سيره إلا لمحاصرة حصن مونتفورت الذي تملكه الفرسان التيوتون ، فاستسلم في ١٢ يونيه ، بعد حصار استمر اسبوعاً واحداً[١] لم يبق بأيدي الفرنج حصون في داخل البلاد . وحوالي ذلك الوقت وجه بيبرس اسطولاً مؤلفاً من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص ، بعد ان سمع ان الملك هيو غادر قبرص الى عكا . وظهر اسطوله فجأة تجاه ليماسول ، غير انه نظراً لافتقار الملاحين الى المهارة البحرية ، تحطمت احدى عشرة سفينة ، ووقع بحارتها اسرى في ايدي القبارصة[٢] .

قدوم الامير ادوارد ولي عهد انجلترا سنة ١٢٧١ :

وما اظهره بيبرس نحو بوهمند من الاتزان والتعقل ، يرجع الى وصول حملة صليبية جديدة . ذلك ان هنري الثالث ملك انجلترا وعد منذ زمن طويل بالاشتراك في حملة صليبية ، وإذ اضحى رجلاً كهلاً ، اضعفته الحروب

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 199 - 200.
Estoire d'Eracles, loc. cit.

(٢) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, p. 88.
Abu'l Feda, p. 154.
Al - Aini, pp. 229 - 240.
Gestes des Chiprois, p. 199.
Estoire d'Eracles, loc. cit.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.

الاهلية ، شجع ابنه وولي عهده ادوارد ان يرتحل عوضاً عنه الى الشرق. كان ادوارد في اوائل الثلاثيات من عمره ، اشتهر بالكفاية والنشاط وشدة التحمل ، ظهرت مواهبه السياسية فعلاً في معالجة المتمردين على والده . عزم على القيام بحملته الصليبية ، بعد ان سمع بسقوط انطاكية ، غير انه حرص عند اعداد الحملة على ان يوليها اهتماماً خاصاً ، وأن يجعل لها طرقاً تسير بمقتضاها . على انه حدث لسوء الحظ ، ان اخذ نبلاء انجلترا الذين سبق ان وافقوا على ان يرافقوا ادوارد ، يعتذرون الواحد بعد الآخر عن التوجه معه في الحملة ، وغادر الامير انجلترا في صيف سنة ١٢٧١ ، ولم يصحبه إلا نحو الف رجل ، فضلاً عن زوجته اليانور قشتالة . ثم تبعه بإمداد ، بعد بضعة شهور ، اخوه ادموند دوق لانكستر ، الذي سبق ترشيحه ملكاً على صقلية . وصحب ادموند ، قوة صغيرة من البريتونيين بقيادة كونت بريتاني ، ومرية من عساكر الاراضي المنخفضة بقيادة تيدالو فيسكونتي ، رئيس اساقفة ليج . كان ادوارد ينوي اللحاق بالملك لويس في تونس ، والإقلاع معاً الى الارض المقدسة ، غير انه لما وصل الى افريقية ، تبين له ان الملك لويس قد مات ، وأن العساكر الفرنسيين يوشكون على الرحيل عائدين الى فرنسا . أمضى ادوارد فصل الشتاء في صقلية في صحبة الملك شارل ، الذي كانت زوجته الاولى خالة لادوارد ، ثم ابحر ادوارد في الربيع التالي الى جزيرة قبرص ، ومنها الى عكا ، التي هبط اليها في ٩ مايو سنة ١٢٧١ ، ولم يلبث ان لحق به بعدئذ الملك هيو ، والامير بوهمند [١] .

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 199 - 200.
Estoire d'Eracles, pp. 460 - 461.
Powicke, King Henry III and the Lord Edward, II, pp. 597 ff.

ارتاع ادوارد لوضع الأمور في الشرق الفرنجي . ومع انه ادرك ان جيشه صغير ، فإنه كان يأمل في ان يوحد المسيحيين في الشرق في قوة ضخمة ، ثم يفيد من مساعدة المغول في القيام بهجوم شديد على بيبرس. على ان اول صدمة صادفها هي ان البنادقة مارسوا تجارة نشطة مع السلطان ، فأمدوه بما احتاجه لأسلحته من خشب وحديد ، بينما بذل الجنويون كل ما لديهم من جهد لأن يشقوا لهم طريقاً لهـذه التجارة المثمرة ، فسيطروا فعلاً على تجارة الرقيق بمصر . ولما وجه ادوارد اللوم الى التجار ، لما يتعرض له مستقبل الشرق المسيحي من خطر بسبب تصرفهم ، أطلعوه على الشهادات التي حصلوا عليها من المحكمة العليا في عكا عن هذا الموضوع . فلم يكن بوسعه ان يمنعهم من ذلك[1] . يضاف الى ذلك انه كان يأمل في ان جميع فرسان قبرص سوف يتبعون ملكهم الى الساحل الفرنجي . ومع ان بعض المقطعين قدم الى عكا ، فإنهم أصروا على انهم ليسوا إلا متطوعين ، ولما طلب اليهم الملك هيو البقاء في سوريا طالما مكث بها ، أصر المتحدث باسمهم ، جيمس ابلين ، وهو ابن عم زوجة الملك ، على انهم ليسوا مرغمين على الخدمة إلا في حالة الدفاع عن جزيرة قبرص . وأضاف في غطرسة ان ليس للملك ان يعتبر من قبيل السابقة ، ما حدث من مضي نبلاء قبرص للقتال على الساحل السوري ، لأنهم لم يفعلوا ذلك عادة إلا بنـاء على امر الابلين لا الملك . على انه لوّح الى انه لو ان الملك

---

(١) انظر :

Dandolo, p. 380.

Röhricht, « Derniers Temps », p. 622.

Powicke, op. cit. II, pp. 604 - 605.

هيو كان أكثر كياسة وابافة في طلبه ، فقد يتحقق هـذا الطلب . وظل الجدال والنقاش مستمراً الى سنة ١٢٧٣ ، حين وافق القبارصة ، بمـــا أظهروه من روح نادرة للوفاق ، على ان يقضوا اربعة شهور على الساحل السوري ، اذا حضر الملك او ولي عهده مع الجيش . على ان ما حدث من اتفاق إنما جاء بعد فوات الوقت لتحقيق غرض ادوارد[١] .

ولم يكن الامير الانجليزي بأكثر توفيقاً في علاقته مع المغول . فلم يكد يبلغ عكا ، حتى أنفذ سفارة الى الايلخان ، تألفت من ثلاثة رجال انجليز ، هم : ريجنالد رسل ، جودفري ويليس ، ويوحنا باركر . ووافق أباقا الذي كانت جيوشه الأساسية تقاتل في تركستان على ان يرسل كل ما في وسعه من مساعدة . وفي الوقت ذاته قنع ادوارد بما شنه عبر الحدود من بضع غارات صغيرة . وفي منتصف اكتوبر سنة ١٢٧١ أوفى أباقا بوعده ، بأن سحب من حامياته في بلاد الأناضول عشرة آلاف فارس . فانسابوا الى سوريا عن طريق عين تاب ، وأنزلوا الهزيمة بعساكر التركمان الذين كانوا يدافعون عن حلب . وفرّت الحامية المملوكية بحلب أمامهم الى حمـاه . وظل المغول يواصلون السير ، فتجاوزوا حلب الى معرة النعمان وأفامية . وساد الذعر والخوف بين السكان المسلمين . ولا يصح القول بأن بيبرس الذي كان وقتذاك بدمشق لم يتلق التحذير في الوقت المناسب . إذ كان

---

(١) انظر : Assises, *I*, pp. 347 - 626.
II, pp. 427 - 434.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 462 - 464.
Hill, History of Cyprus, *II*, pp. 168 - 170.

معه جيش كثيف ، وطلب الأمداد من مصر . ولما شرع في التحرك صوب الشمال ، في ١٢ نوفمبر سنة ١٢٧١ ، انصرف المغول راجعين . إذ لم يكونوا من القوة ما يكفي لمواجهة كل الجيش المملوكي ، كما ان أتباعهم من الترك في بلاد الاناضول جنحوا الى التمرد فانسحبوا الى وراء نهر الفرات بعد ان امتلأت أيديهم بالغنائم [١] .

وبينما كان بيبرس منصرفاً الى قتـال المغول ، قاد ادوارد الفرنج عبر جبال الكرمل وأغاروا على سهل شارون . على ان ما كان عنده من عساكر بلغوا من القلة ما لا يكفي للقيام بمحاولة لاقتحام حصن مملوكي صغير ، قاقون ، يحرس الطريق عبر التلال . فأضحت الحاجة ماسة لغارة مغولية بالغة القوة ، ولحملة صليبية ضخمة ، لاسترداد ما فقده الفرنج من بلاد [٢] .

الهدنة بين ادوارد وبيبرس سنة ١٢٧٢ :

وحينما حلّ ربيع سنة ١٢٧٢ ، أدرك الامير ادوارد انه أضاع وقته هباء . فكل ما يستطيع ان يؤديه ، طالما لم تتوافر له قوة ضاربة كبيرة ،

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, *II*, p. 461.
Abu'l Feda, p. 154.
D'Ohsson, op. cit. *III*, pp. 459 - 460.
Powicke, op. cit. *II*, pp. 601 - 602.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 200 - 201.
Estoire d'Eracles, *II*, p. 461.

ولم يكن له حلفاء كثيرون ، هو ان يرتب عقد هدنة تكفل البقاء للشرق الفرنجي في الوقت الراهن . وكان بيبرس من ناحيته مستعداً لعقد هدنة . إذ ان ما تبقى من مملكة الفرنج ، وما بلغته من أحوال مثيرة للأسى أضحى تحت رحمة بيبرس ، طالما لم يعترضه مشاكل خارجية . إذ كان اول واجب لا بدّ لجيشه ان يؤديه ، هو درء خطر المغول ، الذي يتحتم وقف تقدمهم بالطرق الدبلوماسية في بلاد الأناضول والاستبس . فإذا شعر بيبرس بالاطمئنان من ناحية تلك الجبهة ، أضحى من اليسير ان يبذل الجهد اللازم لإخضاع آخر ما تبقى في أيدي الفرنج من حصون . وفي نفس الوقت لا بد ان يمنع كل تدخل من الغرب ، ولتحقيق هذا الغرض ، تحتم عليه ان يحافظ على علاقاته الطيبة مع شارل كونت أنجو ، وهو الامير الوحيد الذي يستطيع ان يبذل لعكا مساعدة بالغة الأثر . غير ان شارل جعل نصب عينيه الاستيلاء على القسطنطينية ، ولم يكن لسوريا عنده وقتذاك سوى أهمية ثانوية . لم يكن لديه إلا أفكار غامضة عن إضافة الشرق الفرنجي الى امبراطوريته . ولذا كان يود المحافظة على بقاء الشرق الفرنجي ، على ألا يفعل ما من شأنه ان يزيد في سلطة الملك هيو ، نظراً لأنه كان يأمل بأن يحل مكانه في يوم من الايام . فأعرب عن رغبته في التوسط بين بيبرس وادوارد . وفي ٢٢ مايو سنة ١٢٧٢ ، تمّ إبرام الصلح في قيسارية بين السلطان بيبرس وحكومة عكا . كفل الصلح لمملكة بيت المقدس بعكا ، لمدة عشر سنوات ، وعشرة شهور ، الاحتفاظ بممتلكاتها الحالية ، التي تألفت اساساً من السهل الساحلي الضيق الممتد من عكا الى صيدا ، وأن يكون لها الحق في استخدام طريق الحجاج الى الناصرة ، دون ان

تلقى معارضة . والمعروف ان الهدنة التي انعقدت سنة ١٢٧١ ، كفلت لكونتية طرابلس الامان [1] .

وإذ أضحى معروفاً ان الامير ادوارد يود القدوم مرة اخرى الى الشرق على رأس حملة صليبية كبيرة ، قرر بيبرس التخلص منه ، على الرغم من عقد الهدنة . ففي ١٦ يونيه سنة ١٢٧٢ دلف الى حجرة الامير ، احد الحشيشية الذي تنكر في هيئة مسيحي وطني ، وطعنه بخنجر مسموم . ومع ان الجراح لم تكن قاتلة ، فإن ادوارد ظل بضعة شهور يعاني هذه العلة الخطيرة . وبادر السلطان بالتملص من هذا الحادث بأن بعث الى الامير بالتهنئة على نجاته . ولم يكد ادوارد يتماثل للشفاء ، حتى تجهز للاقلاع الى بلاده ، وقد سبقه في الرحيل معظم رفاقه ، وكان ابوه قد اقتربت منيته . وإذ ساءت صحة ادوارد ، ولم يكن ثمة من الأعمال الاخرى ما يستطيع ان يؤديه ، أبحر من عكا ، في ٢٢ سبتمبر سنة ١٢٧٢ [2] ، وعاد الى انجلترا فألفى نفسه ملكاً عليها .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 461 - 462.
Annales de Terre Sainte, p. 455.
Makrizi, Sultans, I, II, p. 102.
Al - Aini, p. 247.
Delaville le Roulx, Hospitalliers en Terre Sainte, p. 225.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 201.
Estoire d'Eracles, II, p. 462.
Sannto, p. 225.
Powicke, op. cit. p. 603.
يعتبر بطليموس لوكا اول من اورد الاسطورة التي تشير الى ان اليانور زوجة ادوارد امتصت السم من الجرح الذي أصابه .

البابا جريجوري العاشر يتلقى التقارير عن الحروب الصليبية ١٢٧٢ - ١٢٧٤ :

المعروف ان رئيس اساقفة لييج الذي صحب الامير ادوارد الى فلسطين، ارتحل في الشتاء السابق ، بعد ان بلغته انباء غير متوقعة بأنه جرى انتخابه بابا ، باسم جريجوري العاشر . فلما اضحى بابا لم يفقد مطلقاً اهتمامه بفلسطين ، إذ جعل واجبه الاساسي الاهتمام بما يتخذ من الوسائل لإحياء الروح الصليبية . إذ أن ما بعث به من دعوات للرجال لاتخاذ الصليب والقتال في الشرق ، انتشرت في انحاء اوربا حتى بلغت فنلنده وأيسلنده . والراجح انها وصلت ايضاً الى جرينلاند وساحل اميركا الشمالية [1] . غير انها لم تلق استجابة . وفي تلك الاثناء عكف البابا جريجوري العاشر على ان يجمع من التقارير ما يفسر عداء الرأي العام . اتسمت هذه التقارير بالكياسة واللباقة ، فلم يتعرض تقرير منها للمشكلة الجوهرية ، وهي أنه لم يعد للحرب الصليبية ذاتها قيمة . وما سبق بذله من الوعود بالمكافآت الروحانية لأولئك الذين يقاتلون اليونانيين والبيجنسيين والهوهنشتاوفن ، جعل الحرب المقدسة مجرد اداة للسياسة البابوية الضيقة المعتدية ، بل ان انصار البابوية المخلصين لم يروا ما يدعو للقيام برحلة شاقة الى الشرق ، بينما تهيأت الفرص الكثيرة لنيل كسب روحي ، بالقيام بحملات تقل مشقة وتكاليف .

ومع ان التقارير التي ارسلت الى البابا التزمت الحكمة والتعقل في نقد السياسة البابوية ، فانها كانت من الصراحة مـــا يكفي لإظهار عيوب

---

(١) انظر : Riant, Les Scandinaves en Terre Sainte, pp. 361 - 364.

الكنيسة . ومن هذه التقارير اربعة تستحق الاهتمام . فالتقرير الاول ، وعنوانه : « Collectio de Scandalis Ecclesiae » . والراجح أن الذي كتبه راهب فرنسسكاني ، اسمه جيلبرت تورناي . وعلى الرغم من إشارته الى ما لحق الحروب الصليبية من ضرر بسبب المنازعات بين الملوك والنبلاء ، فانه جعل اغراضه الاساسية فساد رجال الدين ، وسوء استخدام صكوك الغفران . وبينا كان كبار رجال الكنيسة ينفقون اموالهم في اقتناء الخيول الفائقة والقرود الأليفة ، تولى وكلاؤهم جباية الأموال ، للاستعاضة عن الوعود بالاشتراك في الحرب الصليبية . وما من احد من رجال الدين يود ان يسهم في تأدية الضرائب اللازمة للحملات الصليبية ، على الرغم من ان القديس لويس رفض اعفاءهم فأثار بذلك غضبهم . وفي تلك الاثناء تقرر فرض الضرائب على سائر الناس المرة بعد المرة من اجل حملات صليبية لم تحدث مطلقاً (١) .

أما التقرير الذي ارسله برونو ، اسقف اولموتز فاتخذ اتجاهاً مختلفاً . فمع ان برونو تحدث ايضاً عما يجري في الكنيسة من فضائح ، فإنه كان رجلاً سياسياً بارعاً . إذ قال انه ينبغي ان يسود السلام في اوربا ، وأن يجري اصلاح شامل . على ان هذا لا يحققه إلا امبراطور قوي . وألمع الى ان سيده ، اوتوكار ملك بوهيميا يعتبر المرشح الصالح لهذه الوظيفة . وأقر ان الحروب الصليبية في الشرق لم يعد لها اهميتها ، وأصبحت لا تساير

---

(١) هذا التقرير (Collectio) نشره شترويك في :
Archivium Franciscanum Historicum, vol. XXIV.
انظر : Throop, op. cit. pp. 69 - 104.

روح العصر . فينبغي توجيه الحملات الصليبية لقتال الوثنيين النازلين على الأطراف الشرقية للأمبراطورية . إذ ان الفرسان الرهبان من التيوتون اساءوا استخدام هذا العمل ، بما اشتهروا به من النهم ، والنزوع الى القوة والسلطان . فلو ان هذا العمل وجهه امير كفؤ على نحو سليم ، لحقق مزايا مالية ودينية (١) .

على ان وليم الطرابلسي ، وهو راهب دومنيكاني عاش في عكا ، رفع الى البابا مذكرة ، يغلب عليها صفة الحياد والبناء . ومع أن آماله تضاءلت فيما توجهه اوربا من حرب مقدسة في الشرق ، فإنه اشتد تأثراً بالنبوءات التي تشير الى ان نهاية الاسلام اضحت وشيكة الوقوع ، واعتقد ان المغول سوف يكونون المدمرين له . لقد حان الوقت للقيام بنشاط تبشيري . وباعتباره عضواً في هيئة تبشيرية ، كان يؤمن بتأثير وقوة العظات . وكان اعتقاده يدعو الى ان البعثات التبشيرية ، لا السيف ، كفيلة بالظفر بالشرق . وسانده في رأيه المفكر الكبير روجر بيكون (٢) .

وجاء اوفى تقرير من راهب دومنيكاني آخر ، كان مقدماً لطائفة الدومنيكانيين ، واسمه همبرت (Humbert of Romans) ، وكتابه المعروف

---

(١) نشر هوفلر مذكرة بروفو في :
Proceedings of the Bavarian Academy of Science, 1846.
Throop, op. cit. pp. 105 - 114.

(٢) انظر : William of Tripoli, De Statu Saracenorum, passim.
Roger Bacon, Opus Majus, III, pp. 120 - 122.
يوجه روجر بيكون اللوم الى سكان الغرب لأنهم لم يحفلوا بتعلم اللغات الاجنبية ، للافادة منها في عملهم التبشيري .

باسم (Opus Tripartitum) ألفه لمـا توقعه من انعقاد مجمع عام لمناقشة الحرب الصليبية ، وانشقاق الكنيسة اليونانية ، وإصلاح الكنيسة . لم يؤمن همبرت باحتمال تحول المسلمين الى المسيحية ، على الرغم من ان تحول اليهود الى المسيحية جرى التنبؤ به ، وبأن يعتنق المسيحية الوثنيون في شرق اوربا . وأقرّ همبرت ضرورة توجيه حملة صليبية اخرى الى الشرق . فأشار الى ان الرذائل التي منعت الرجال من الابحار صوب الشرق ، لم تكن سوى مـا غلب عليهم من الكسل ، والشراهة ، والجبن . وأنكر التعلق بأرض الوطن ، الذي منعهم من الرحيل ، ونعى ما للإناث من تأثير في محاولة جعلهم يلزمون وطنهم . على ان اسوأ هذه الرذائل كلها انه لم يكن من بينهم إلا فئـة قليلة تؤمن بالمزايا الروحية الـتي وعد بهـا المحارب الصليبي . ومن المحقق ان هذا الارتياب الذي اورده همبرت في شيء من الأسى والحزن ، قد ذاع وانتشر . إذ ان القصائد الشعبية العديدة جعلته مرضوعها . كما ان كثيرين من شعراء التروبادور اعلنوا صراحة انه لم يعد لله اهمية في الحروب الصليبية . ومـا عرضه همبرت من مقترحات لمحاربة هذا الاعتقاد ، وأثارة الحماس الديني من جديد ، لم تكن مشجعة . فلا فائدة من المضي في التسليم بأن الهزائم والمهانات تعتبر في مصلحة النفس حسبما اعتقد القديس لويس . لقد مضى الوقت لمحاولة حمل الناس على الاعتقاد بأن الحرب الصليبية خير وسيلة للتكفير عن سيئاتهم . وقد يكون في اصلاح رجال الدين الذي تحمّس همبرت في الدفاع عنه ، بعض النفع . على ان نصيحة همبرت ، لم تكن بالغة القيمة ، باعتبارها رائداً عملياً لإصلاح العاطفة العامة . وترتب على ذلـك ان توصياته فيما يتعلق بإدارة الكنيسة تعتبر سابقة لأوانها . فلا بدّ من اعداد منهج للصلوات وأيام الصيام ، والطقوس ، وينبغي دراسة التاريخ ، ولا بـدّ من تأليف هيئة من المستشارين الذين

اشتهروا بالخـبرة والتقوى ، وينبغي اعداد جيش دائم ثابت من المحاربين الصليبيين . وفيما يتعلق بالمسائل المالية ، أشار همبرت الى ان ما لجأت اليه البابوية من طرق لابتزاز الاموال لم تلق ابداً القبول من الناس . اعتقد همبرت انه لو باعت الكنيسة جانباً من ثروتها الضخمة ، ومن الحلى التي تكدّست عندها ، فسوف يؤدي ذلك الى نتيجة سليمة من الناحيتين النفسية والمادية . غير انه لا بدّ للأمراء والكنيسة ايضاً ان يقوموا بدورهم [1] .

مجمع ليون سنة ١٢٧٤ :

وإذ تسلح البابا جريجوري العاشر بكل هذه النصيحة التي لا تستطيع ان تكفل له الاطمئنان ، دعا الى عقد مجمع في ليون ، افتتح جلساته في مايو سنة ١٢٧٤ ، وشهده عـدد كبير من الاساقفة من الشرق ، يتصدرهم بولص سيجني ، اسقف طرابلس ، كما حضره وليم بوجيه ، الذي تمّ اختياره منذ زمن قريب مقدماً للداوية . غير ان الدعوات الملحة التي جرى ارسالها الى ملوك العالم المسيحي ، لم تلق إلا الاغفال والإهمال . إذ رفض فيليب الثالث ملك فرنسا ان يشهد المجمع ، بل ان ادوارد الاول ملك انجلترا الذي ارتكن اليه البابا جريجوري بصفة خاصة ، اعتذر بمشاغله في بلاده . ولم يظهر في المجمع من الملوك إلا جيمس الاول ملك اراجون ، وهو شيخ متقدم في السن ، كثير اللجاجة ، لم تلق محاولته الاولى في حملته الصليبية الى الشرق سوى الفشل الذريع ، غير انه كان شديد الحرص على ان

---

(١) انظر : Throop, op. cit. p. 147, n. 1, pp. 147 - 213.
اورد ثروب خلاصة وافية لتقرير همبرت .

ينطلق في مغامرة جديدة ، ولكنه لم يلبث ان سئم ما دار من مناقشات في المجمع ، فهرع راجعاً الى احضان محظيته ، برنجاريا . أمـــا المندوبون القادمون من قبل الامبراطور البيزنطي ، ميخائيل ، فإنهم وعدوا بأن تخضع كنيسة القسطنطينية لروما ، نظراً لتخوف ميخائيل من اطماع شارل كونت انجو . غير ان ذلك لم يكن إلا وعداً لم يكن من المستطاع تحقيقه ، ولم يدر عنه شيئاً رعايا الامبراطور . ولم يحرز المجمع من النجاح سوى الاتحاد السابق لأوانه بين الكنيستين . أما اصلاح الكنيسة فـلم يتحقق من اجله شيء ذو قيمة . ومع ان كل شخص كان مستعداً لأن يتحدث عن الحملة الصليبية ، فلم يتقدم احد بعروض عن المساعدة العملية التي تعتبر ضرورية للقيام بها .

ومع ذلك فإن البابا جريجوري العاشر استمر في مثابرته ، بأن سعى لحمل امراء اوربا على تنفيذ ما اصدره المجمع من قرارات جليلة الشأن . ففي سنة ١٢٧٥ وعد فيليب الثالث بالاشتراك في الحملة الصليبية ، وسار على نهجه في اواخر تلـك السنة رودلف هابسبرج ، مقابل الحصول على وعد بأن يتوُّجه البابا في روما امبراطوراً . وفي نفس الوقت حاول البابا جريجوري العاشر ان يهيء الارض المقدسة لقدوم الحملة الصليبية . فأمر بإصلاح الحصون وعمارتها ، وإرسال عـــدد كبير من العساكر المأجورة المعروفة بجودة تدريبها . ويبدو انـه استخلص من تجربته الشخصية في الشرق انه لا يأمل في شيء من حكومة الملك هيو . ولذا كان يعطف على دعاوى ماريا انطاكية ، وشجعها على ان تبيع حقوقها في العرش الى شارل كونت انجو ، الذي كان يود ان تزداد مصلحته فعلاً في الشرق الفرنجي ، لا فحسب من اجل رخائه ، بل ايضاً لصرفه عن أطماعه في

بيزنطة [1] . غير ان كل خطط البابا جريجوري العاشر لم تؤد الى نتيجة ، فحينما مات في ١٠ يناير سنة ١٢٧٦ ، لم تتوجه حملة صليبية الى الشرق ، وليس من الراجح ان ترحل اليه حملة من الحملات .

أما هيو ملك قبرص فاشتهر ببصيرة بالغة الواقعية . إذ انه لم ينتظر قدوم حملة صليبية ، ولم يكن راغباً فيها ، وكل ما أراده هو ان يحافظ على الهدنة مع بيبرس . ومع ذلك لم تفد الهدنة كثيراً في استقرار وضعه . ففي سنة ١٢٧٣ فقـــد سيطرته على بيروت أكبر إقطاع له بالساحل السوري . فالمعروف ان حيازة هذا الاقطاع انتقلت بعد وفاة يوحنا الثاني ابلين الى ابنته الكبرى ، ايزابيللا ، ملكة قبرص ، التي ظلت أرملة عذراء منذ سنة ١٢٦٧ ، غير انها لم تستمر عذراء زمناً طويلاً ، فما اشتهرت به من سوء السمعة ، لانعدام طهارتها وعفتها ، ولا سيا ما كان من اتصالها بيوليان سيد صيدا ، أدى الى إصدار مرسوم بابوي أصر على ان تتزوج من جديد . وفي سنة ١٢٧٢ وهبت نفسها مع اقطاعها الى سيد انجليزي اسمه (Hamo l'Estrange) أي هامو الاجنبي ، الذي كان فيا يبدو من رفاق الامير ادوارد . لم يثق هامو في الملك هيو ، فعند وفاته في السنة التالية جعل زوجته وإقطاعها في حماية بيبرس . ولما حاول هيو ان ينقل الارملة الى قبرص ، ليزوجها من رجل يختاره لها ، بادر السلطان بيبرس الى الرجوع الى العهد الذي كتبه له هامو ، وطلب بيبرس إعادة ايزابيللا .

---

(١) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. VI, pp. 67 - 68, 153 ff.
Throop, op. cit. pp. 262 - 282.

ولم يلق الملك هيبو تأييداً من المحكمة العليا ، وكان لزاماً عليه ان يعيد ازابيلا الى بيروت ، حيث استقر حرس من المماليك لحمايتها [1] . ولم يسترد الملك هيو سيطرته على الاقطاع إلا بعد مضي زمن طويل على وفاة بيبرس . وتزوجت ازابيلا بعدئذ مرتين قبل وفاتها حوالي سنة ١٢٨٢ ، فانتقلت بيروت الى يد اختها ايشيفا ، زوجة همفري سيد مونتفورت ، الذي كان صديقاً مخلصاً للملك [2] .

الوصاية على كونتية طرابلس سنة ١٢٧٥ :

أمـا خيبة امل هيو الثانية التي لم يكن يتوقعها فارتبطت بكونتية طرابلس . إذ أن بوهمند السادس، آخر أمراء انطاكية ، توفي سنة ١٢٧٥، بعد ان خلف وراءه ابناً ، بوهمند ، يناهز الرابعة عشرة من عمره ، وابنة

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 462.
Ibn al - Furat in Reinaud, Chroniqueurs Arabes, p. 532.
Powicke, op. cit. p. 606, n. 1.
Hill, op. cit. p. 137, n. 2.
أشار بويك الى ان اسم زوجها كان هامو لا ادموند . ويقر هيل وجهة النظر التي تقضي بأنها كانت على اتصال بيوحنا كونت يافا . غير ان ذلك يثير مشاكل حول تحديد التاريخ ، اذ ان يوحنا كونت يافـا مات سنة ١٢٦٦ . والواضح ان الكونت (J) الذي كانت زوجته اختاً لملك ارمينية ، لا بد انه كان يوليان سيد صيدا ، لا يوحنا الذي كانت زوجته سنة ١٢٦٨ خالة الملك . يضاف الى ذلك ان يوحنا كان رجلاً بالغ الاحترام والتقدير عنـد الناس ، على حين ان يوليان كان سيء السمعة ، مبتذلاً في حياته .

(٢) انظر : Lignages, p. 462.
Ducange - Rey, Familles d'Outremer, pp. 235 - 236.

صغيرة ، اسمها لوسيا . فطالب الملك هيو بالوصاية على العرش ، باعتبـاره الوريث البالغ الرشد من الأسرة الحاكمة في انطاكية ، التـالي في الترتيب لهذين الطفلين . غير ان سبيلا الأرملة اميرة ارمينية بادرت الى تقلد الوصاية ، نظراً لأن تقاليد الأسرة تقضي لها بذلك . فلما وصل هيو الى طرابلس لاثبات دعواه ، اكتشف أن بوهمند السابع الصغير جرى ارساله الى بلاط خاله ليو الثالث ملك ارمينية ، وأن المدينة تولى ادارتهـا باسم سبيللا ، بارثولميو أسقف انطرطوس ، الذي انتمى فـيما يبدو الى اسرة مانسل الكبيرة بأنطاكية ، فمـا من احد بطرابلس ساند هيو ، لأن الأسقف بارثولميو ارتفع شأنه وقتذاك عند جميع الناس. كان عدواً لدوداً لأسقف طرابلس ، بولص سيجني ، خال بوهمند السادس ، ولجميع رجال روما الذين أحلهم هو ولوسين في كونتية طرابلس . وبفضل تأييد النبلاء المحليين ، أمرت سبيللا وبارثولميو باعدام جماعة من رجال رومـا ، ونفي جماعة اخرى من الكونتية . على ان من قبيل الحظ التعس ان الأسقف بولص ظفر بمساندة الداوية ، وسبق ان التقى بمقدمهم في مجمع ليون . فلما قدم بوهمند السابع من ارمينية سنة ١٢٧٧ ليتولى مقاليد الحكومة ، واجه عداوة كريهة من الداوية [1] .

على ان مكانة هيو لم تحرز إلا نصراً ضئيلاً في اللاذقية بأقصى الشمال . إذ أن اللاذقية كانت كل ما تبقى من امارة انطاكية ، ولم يدخلها بيبرس في معاهداته مع طرابلس وأنطاكية ، إذ أن جيوشه كانت تحدق بها من

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 406 - 409, 481.
Gestes des Chiprois, p. 202.

كل جانب ، حين استنجد سكانها مباشرة بالملك هيو ، فاستطاع هيو ان يفاوض السلطان بيبرس في عقد هدنة ، فاستدعى بيبرس عساكره مقابل التعهد بدفع جزية سنوية قدرها عشرون الف دينار واطلاق سراح عشرين اسير من المسلمين [١] .

ولم تلبث مشاكل هيو ان امتدت الى عكا ذاتها . ذلك أن قومون عكا كان يمقت دائماً حكمه المباشر ، بينما ازدادت كراهية الداوية له ، إذ سبق لهم ان انكروا مصالحته مع بيت مونتفورت ، وعارضوا في اعتلائه العرش. اما الاسبتارية الذين كان يصح ان يركن الى نيتهم السليمة ، فقد تضاءلت اهميتهم بعد أن اضاعوا مركز قيادتهم في حصن الاكراد . فلم يبق لهم إلا حصن المرقب الضخم الواقع بأعلى التل الذي يطل على بلنياس (بانياس) . وحدث فعلاً في سنة ١٢٦٨ ، ان كتب مقدم الاسبتارية هيو ريفيل ، أنه لم يعد في وسع الطائفة سوى ان تنفق على ثلثمائة فارس في الشرق الفرنجي ، بعد ان كان لديها في الايام السابقة عشرة آلاف فارس . على ان الداوية لا زالوا يتملكون مقر قيادتهم في انطرطوس ، فضلاً عن صيدا وقلعة عثليث الضخمة ، وزاد من قوتهم ما كان لهم من صلة مصرفية مع جميع عالم شرق البحر المتوسط . والمعروف ان توماس بيرارد الذي ظل مقدماً للداوية من سنة ١٢٥٦ حتى سنة ١٢٧٣ ، كان في ايامه الاولى مخلصاً للأوصياء على قبرص ، ومع انه اخذ يكره الملك هيو ، فانـه لم يتحداه صراحة . أما وليم بوجيه الذي خلفه في تقدمة الداوية ، فكان

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, I, II, p. 125.
Muhi ad - Din in Michaud, Bibliographie des Croisades, II, p. 685.

من طراز مختلف ، إذ كان يمت بصلة القرابة الى البيت الملكي في فرنسا ، اشتهر بالاعتزاز بنفسه ، والطموح ، والنشاط . كان يقيم في أبوليـا ، في املاك ابن عمه شارل انجو ، حين تمّ انتخابه مقدماً للداوية . ثم قدم بعد سنتين الى الشرق وقـد وطد العزم على ان يمضي في مساندة مشروعات شارل ، ومن الطبيعي ان يعارض منذ البداية الملك هيو .

الملك هيو يلجأ الى قبرص سنة ١٢٧٦ :

ابتاعت طائفـــة الداوية في اكتوبر سنـــة ١٢٧٦ ، قرية اسمهـــا (La Fauconnerie) ، تقع على مسافة بضعة أميال الى الجنوب من عكا ، من سيدها توماس سانت بيرتين ، وحرص الداوية على ألا يحصلوا على موافقة الملك على هـذه الصفقة . لم تلق شكاوى هيو سوى الاهمال . وإذ ضاق هيو ذرعاً بالطوائف الدينية العسكرية ، وقومون عكا ، وجاليات التجار ، عزم على ان يغادر مملكته التي أنكرت صنيعه . فحزم فجأة أمتعته ولجأ الى صور ، وقـد عزم على ان يبحر منها الى قبرص . على انه غادر عكا دون ان يعين نائباً عنه لحكمها . وابتهج الداوية وحلفاؤهم المقربون ، البنادقة ، بينا جرع البطريرك توماس لينتينو والاسبتارية والفرسان التيوتون فضلاً عن قومون عكا ، والجنويين ، فأرسلوا الى صور مندوبين من قبلهم ، يتوسلون الى هيو ان يبادر على الاقل الى تعيين نائب عنه . غير ان الغضب استبد به اول الامر ، فلم يصغ اليهم ، والراجح انه بناء على توسل يوحنا مونتفورت ، رشح هيو آخر الامر باليان ابلين بن يوحنا سيد ارسوف ليكون نائباً عنه ، وعين قضاة لحاكم المملكة وأبحر ليلاً بعدئذ مباشرة الى قبرص ،

دون ان يودعه احد . ومن قبرص كتب الى البابا يبرر عمله (١) .

واجه باليان عملاً شاقاً ، إذ نشبت الفتن في شوارع عكا بين التجار المسلمين من بيت لحم الذين يحميهم الداوية ، وبين التجار النساطرة القادمين من الموصل ، الذين اتخذوا من الاسبتارية اولياء لهم . واندلعت العداوات من جديد بين البنادقة والجنويين ، ولم يكن لحكومة ان تبقى إلا بمساعدة البطريرك والاسبتارية (٢) .

أتمت ماريا انطاكية بيع حقوقها في عرش بيت المقدس الى شارل انجو ، وذلك في سنة ١٢٧٧ . فبادر شارل على الفور الى اتخاذ لقب ملك بيت المقدس ، وأرسل روجر سان سفيرينو ، كونت مارسيكو ، في قوة مسلحة ليكون نائباً له عكا . وبفضل مساعدة الداوية والبنادقة استطاع روجر ان يهبط الى عكا ، حيث أبرز الأسانيد التي وقعها شارل ، وماريا ، والبابا يوحنا الحادي والعشرون . فاستبدت الحيرة بباليان ابلين نائب الملك هيو ، إذ لم تكن لديه تعليمات منه ، كما انه علم ان الداوية والبنادقة استعدوا للوقوف بأسلحتهم الى جانب روجر ، بينما لم يعد كل من البطريرك والاسبتارية بالتدخل لصالحه . ولتجنب إراقة الدماء سلّم القلعة الى

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 274 - 275.
Gestes des Chiprois, p. 206.

جعل الرواية في تاريخ متأخر .

Delaville le Roulx, op. cit. pp. 210 - 229.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.
Gestes des Chiprois, loc. cit.

الانجويين ، فرفع عليها روجر لواء شارل انجو ، ونادى به ملكاً على بيت المقدس وصقلية ، ثم امر بارونات المملكة بأن يبذلوا يمين الولاء له باعتباره نائباً عن الملك شارل انجو . وتردد البارونات ، لا حباً في الملك ، بل كراهية لإقرار انتقال العرش دون ان يصدر قرار من المحكمة العليا . وللحفاظ على بعض مظاهر الصفة الشرعية ، أنفذوا مندوبين عنهم الى قبرص ليطلبوا من الملك هيو ، ما اذا كان يحلهم من يمين الولاء التي سبق أن بذلوها له ، فرفض هيو ان يرد عليهم . وإذ أضحى مركز روجر وطيداً ، لجأ الى التهديد بمصادرة ضياع كل من لم يبذل له يمين التبعية ، غير أنه أتاح الفرصة لمراجعة الملك هيو مرة اخرى . ولكن لم تؤد هـذه المحاولة الى نتيجة مثمرة ، وعندئذ خضع البارونات لروجر ، ولم يلبث بوهمند السابع بعدئذ ان اعترف بروجر نائباً شرعياً للملك . وعين روجر طائفة من الفرنسيين من بلاط شارل ، ليكونوا كبار موظفيه ، فأضحى اودو بواليشيان صنجيلاً ، وصار رتشرد نيوبلانز كندسطبلاً ، وأصبح جيمس فيدال مارشالاً [١] .

لقيت هذه التدابير هوى واستجابة عند بيبرس . إذ كان بوسعه ان يثق في مندوب شارل انجو ، بأنه لن يثير حرباً صليبية ، ولن يتآمر مع

---

(١) انظر :

Estoire d'Eracles, pp. 478 - 479.
Gestes-des Chiprois, pp. 206 - 207.
Amadi, p. 214.
Sanudo, pp. 227 - 228.
John of Ypres in Martène and Durand, Thesaurus Anecdotorum, vol. III, col. 755.

المغول . وبفضل هذا الاحساس بالاطمئنان ، كان بيبرس مستعداً لأن يهيء للشرق الفرنجي البقاء بضع سنوات اخرى . وفي نفس الوقت يستطيع ان يتخذ خطة لمهاجمة الايلخان . وأدرك اباقا مـــا يتعرض له من الخطر ، فحرص على ان يقيم تحالفاً مع الغرب . ففي سنة ١٢٧٣ ارسل الى عكا خطاباً موجهاً الى ادوارد ملك انجلترا ، يسأله متى تجري حملته الصليبية التالية . حمل هذه الرسالة الى اوربا راهب دومنيكاني ، اسمه داود كان كاهناً لدى البطريرك توماس لينتينو . فأرسل ادوارد رداً ودياً ، غير انه اعرب عن اسفه بأنه لم يقرر هو والبابا متى تتوجه حملة صليبية اخرى الى الشرق . وفي السنة التالية ١٢٧٤ ، ظهر مبعوثون من المغول في مجمع ليون ، وتنصر اثنان منهم على يد كاردينال اوستيا ، الذي صار فيما بعد البابا انوسنت الخامس . وما تلقاه المبعوثون من البابا والمجلس البابوي ، من ردود كانت ودية ، على الرغم من غموضها . وقام الايلخان اباقا بمحـاولة اخرى في خريف سنة ١٢٧٦ . إذ أن الاخوين الكرجيين ، يوحنا وجيمس فاسيلي ، هبطا في ايطاليا لزيارة البابا ، وقد تزودا بأوامر بالمضي الى بلاط كل من فرنسا وانجلترا . وحملا رسالة شخصية من اباقا الى ادوارد الاول ، اشار فيها الى اعتذاره بأن مساعدته لادوارد سنة ١٢٧١ لم تكن بالغة القوة . على انه لم يكن لكلا النشاطين الدبلوماسيين نتيجة . فعلى الرغم من صدق ادوارد في امله في التوجه بحملة صليبية ، فانه لم يكن هو او فيليب الثالث ملك فرنسا مستعداً حتى ذلك الحين للذهاب بحملة صليبية الى الشرق ، إذ ان المجلس البابوي خضع لتأثير معاكس من قبل شارل انجو ، الذي كره المغول لأنهم اصدقاء اعدائه ، البيزنطيين والجنويين ، كما ان كل سياسته قامت على الوفاق الودي مع بيبرس . وكان البابوات يأملون ، متفائلين ، في ان يدخلوا المغول في حظيرة كنيستهم ، غير انهم

لم يدركوا ان الوعد بالمكافآت في السماء ليس اغراء كافياً للايلخان . بل ان دعاوى ليو الثالث ملك ارمينية ، الذي كان في الوقت ذاته من اتباع الايلخان المخلصين ، ويسير وفقاً لشعائر كنيسة روما ولم تستطع ان تستخلص مساعدة عملية من البابوية [1] .

بيبرس يغزو بلاد الاناضول سنة ١٢٧٧ :

اضحى في استطاعة بيبرس ان ينفذ مشروعاته دون ان يتعرض لتهديد التدخل من قِبل الغرب . ففي ربيع سنة ١٢٧٥ قاد بنفسه غارة على قليقية ، فنهب المدن الواقعة بالسهل ، غير انه لم يستطع التوغل حتى سيس . وبعد سنتين قرر غزو بلاد الاناضول . لم يكن السلطان السلجوقي كيخسرو الثالث وقتذاك إلا طفلاً . أما وزيره ، سليمان برواناه ، حامل اختام السلطان ، فكان صاحب السلطة المطلقة في البلاد ، غير انه عجز عن ضبط الإمارات التي اخذت في الظهور ، وأهمها إمارة القرمانيين . واحتفظ الايلخان بحماية مفككة على سلطنة السلاجقة ، قامت على تنفيذها الحامية المغولية القوية المرابطة بالبلاد . على ان هذه الحامية تعرضت في ١٨ ابريل سنة ١٢٧٧ لهزيمة ساحقة في البستان على ايدي المماليك . ولم تنقض خمسة ايام حتى دخل بيبرس قيصرية مازاكا (قيصرية الروم) ، فبادر سليمان برواناه وزير السلطان السلجوقي والأمير القرماني ، بتهنئة الظافر المنتصر ، بيبرس . فاستشاط أباقا غضباً ، فتولى بنفسه قيادة جيش

---

(١) انظر :

William of Nangis, pp. 540 - 564.
D'Ohsson, op. cit. III, pp. 543 - 549.
Powicke, op. cit. p. 602.
Howorth, op. cit. III, pp. 280 - 281.

مغولي ، في تعبئة حرب ، الى بلاد الاناضول . لم ينتظر بيبرس حتى يقدم الجيش المغولي ، بل انسحب الى سوريا . فعجل أباقا باسترداد سيطرته على سلطنة السلاجقة . وتقرر القاء القبض على الخائن سليمان برواناه واعدامه ، وترددت الشائعات بأنه قـد جعل من لحمه شواء جرى تقديمه في المأدبة الرسمية التالية التي اقامها الايلخان (١) .

لم يعش بيبرس طويلاً بعد حملته في بلاد الاناضول . وترددت روايات مختلفة عن وفـاته . فوفقاً لبعض المؤرخين ، مات بيبرس متأثراً بالجراح التي أصابته في حملتـه الاخيرة ، ويشير مؤرخون آخرون الى انه افرط في تناول شراب القمز ، وهو الشراب الذي يهواه الترك والمغول ، ويتخذ من لبن الفرس بعـد تخميره . على ان الشائعة البالغة الذيوع والقوة ، هي انه اعدّ قميزاً مسموماً ليقدمه للقاهر بن الناصر داود الايوبي امير الكرك ، الذي لحق بجيشه ، ووجّه اليه إهـــانة شديدة ، وإذ لم يحفل بتنظيف الكأس ، شرب منها ، فمات في اول يوليه سنة ١٢٧٧ (٢) .

---

(١) انظر :
Abu'l Feda, p. 165.
Makrizi, Sultans, I, II, pp. 144 - 145.
Bar - Hebraeus, pp. 456 - 459.
D'Ohsson, op. cit. pp. 486 - 489.
Howorth, op. cit. III, pp. 252 - 256.

(٢) انظر :
Makrizi, Sultans, I, II, p. 150.
Abu'l Feda, pp. 165 - 166.
Gestes des Chiprois, pp. 208 - 209.
Hayton, Flor des Estoires, p. 193.
Bar - Hebraeus, p. 458.

زال بوفاته اكبر عدو للعالم المسيحي منذ صلاح الدين . فحينما تولى بيبرس السلطنة ، كانت ممتلكات الفرنج تمتد على الساحل من غزة الى قليقية ، وما يتبعها من الحصون الداخلية التي تحميها من الشرق . على انه ألزم الفرنج في اثناء حكمه الذي يبلغ سبع عشرة سنة ، بالاقتصار على بضع مدن على امتداد الساحل ، امثال : عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وانطرطوس ، فضلاً عن مدينة اللاذقية المعزولة ، وقلعتي عثليت والمرقب . ولم يعش بيبرس ليشهد اختفاءها التام ، غير انه جعل ذلك امراً لا مفر منه . والواقع انه لم يتوافر له إلا قليل من الصفات التي جعلت صلاح الدين يظفر بالاحترام حتى من خصومه . اشتهر بيبرس بالقسوة ، والخيانة ، والتجرد من الاخلاص والولاء ، والخشونة في طباعه ، وغلظ الحديث . ومع ان رعاياه لم يكنّوا له شيئاً من المحبة ، فانهم أعجبوا به ، لأنه كان جندياً لامعاً ، وسياسياً بارعاً ، وإدارياً حكيماً ، التزم السرعة والسرية فيما اتخذه من قرارات ، وكان نافذ البصيرة في أغراضه وأهدافه . وعلى الرغم من انه جرى عليه الرق ، فانه كان راعياً للفنون والعمارة ، اسهم بقدر كبير في تجميل مدنه ، وفي تجديد عمارة حصونه . وباعتباره انساناً كان شراً ونقمة ، غير انه يعتبر من اعظم حكام عصره .

الكتاب الرابع

نهاية الشرق الفرنجي

الفصل الاول

تجارة الشرق الفرنجي

الواقع ان ما كان بين المسيحية والاسلام من نزاع صريح طوال تاريخ الشرق الفرنجي طالما حجبه او أخرجه عن مجراه مسائل ذات أهمية اقتصادية . إذ قامت مستعمرات الفرنج في منطقة اشتهرت بخصوبتها ، ومن المحقق انها تحكمت في بعض الطرق التي تعتبر من أهم الطرق التجارية في العالم . على انه حدث في بعض الاحوال ، ان مطامع المستعمرين وحلفائهم المالية والتجارية تعارضت مع الحماس الديني ، وتهيأ من الفرص ما اقتضت حاجاتهم البشرية الأساسية إقامة صداقة مع جيرانهم المسلمين .

لم يكن من وراء توجيه الحملة الصليبية الاولى باعث تجاري . إذ ان المدن الايطالية البحرية ، التي يعتبر تجارها أبرع رجال عصرهم في كسب المال ، راعها اول الامر قيام حركة سوف تقوّض ما قام لهم من علاقات تجارية مع المسلمين في شرق البحر المتوسط . ولم يعرض الايطاليون مساعدتهم إلا حين تحقق للحملة الصليبية الاولى النجاح ، وقامت مستعمرات الفرنج في الشام ، لأنهم أدركوا ان بوسعهم ان يستخدموا المستعمرات الجديدة

لمصلحتهم . أما الحافز الاقتصادي المثير للصليبيين فلم يكن سوى شراهة صغار نبلاء فرنسا والاراضي المنخفضة لاقتناء الاراضي ، ورغبة الفلاحين بتلك البلاد في الفرار من مواطنهم القاسية الفقيرة ، ومن الفيضانات والمجاعات التي جرت في السنوات المتأخرة ، وفي الهجرة الى بلاد تعج بالثروة الاسطورية . لم تكن التفرقة عند كثير من السذج واضحة بين هذا العالم وعالم الآخرة . إذ خلطوا بين بيت المقدس على وجه الارض ، وبين تلك التي في السماء ، وتوقعوا ان يصادفوا مدينة يكسوها الذهب وتفيض باللبن والعسل ، غير ان آمالهم خدعتهم ، ولكنهم لم يتخلصوا من الخداع إلا في بطء . فما اشتهرت به مدن الشرق من الحضارة وارتفاع مستوى الحياة بها ، هرضت من مظاهر الثراء والوفرة ما نقل الحجاج اخبارها الى اصدقائهم بعد عودتهم الى بلادهم . غير انه كلما مضى الزمن ، لم تكن تقارير الحجاج مشجعة . فلم تكن بين الفلاحين في الغرب ، بعد الحملة الصليبية الثانية ، حركة جموع تلتمس مواطن جديدة في البلاد المقدسة ، ومع ان النبلاء المغامرين لا زالوا يمضون الى الشرق التماساً للثراء والمجد ، فقد كان من مشاكل إعداد وتنظيم الحملات الصليبية المتأخرة ، الافتقار الى الباعث الاقتصادي [١] .

---

(١) انظر : Heyd, Histoire de Commerce du Moyen Age.

يعتبر هايد المرجع الاساسي للتاريخ الاقتصادي للحروب الصليبية . وجرت حديثاً مناقشة حول هذا الموضوع ، في المقالة الهامة التي نشرها كاهن بعنوان : (ملاحظات عن تاريخ الحروب الصليبية والشرق اللاتيني) ، انظر :

Cahen : « Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III », in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasburg, May - June 1951.

يورد كاهن اسباباً للتقليل من الاهمية التجارية للامارات الصليبية .

منتجات الشرق الفرنجي :

الواقـع ان اقاليم الفرنج في الشرق اللاتيني لم تكن بطبيعتها غنية ، على ان بهـا مناطق خصيبة امثال سهول مرج عامر وشارون وأريحا ، والسهل الساحلي الضيق الذي يقع بـين جبال لبنان والبحر ، ووادي البقيعة ، وسهل انطاكية . وتعتبر فلسطين بلاداً قاحلة ، غـير مثمرة ، اذا قورنت بالاقليم الواقع وراء نهر الاردن ، وحوران ، والبقاع . وترجع قيمة الاقليم الواقع وراء نهر الاردن عند الفرنج ، الى ما ينبت به من قمح وفير ، وإلى تحكمه في الطريق الممتد من دمشق الى مصر [1] . فلولا مساعدة اقليم ما وراء نهر الاردن ، لما تيسر دائماً لمملكة بيت المقدس ان تطعم نفسها . فإذا خاب المحصول ، كان لا بـدّ من استيراد القمح من سوريا [2] . وفي العقود الأخيرة من حياة الشرق الفرنجي ، حينما لم ينزل الفرنج إلا المدن الواقعة على السهل الساحلي الضيق ، تحتم دائماً استيراد القمح .

على انه توافرت كميات المؤن الأخرى . إذ كثرت بالتلال قطعان الغنم والماعز والخنازير . وأحاط بجميع المـدن الحدائق وبساتين الخضروات ، وغزرت احراش الزيتون . والراجح ان زيت الزيتون لم يصدر الى الغرب إلا في كميات قليلة ، على حين ان فواكه فلسطين النادرة ، امثال الليمون

---

(١) انظر مـا سبق ، المجلد الثاني ص ٣٠ — ٣١ . ومع ان موآب لم تضارع حوران في خصوبة الارض ، فان أراضيها أمدّت فلسطين بالمؤن زمن المجاعة ، منـذ ايام نعمى وراعوت . (انظر العهد العتيق ، سفر راعوت) .

(٢) حدث ذلك سنة ١١٨٥ . انظر المجلد الثاني ص ٧١٩ — ٧٢٠ .

الحلو ، او الرمان ، كانت تشاهد في بعض الاحوال على موائد الاثرياء في ايطاليا [١] .

ومع ذلك لم يكن بوسع الشرق الفرنجي ان يصدر على نطاق واسع إلا منتجات قليلة ، لم تجلب للبلاد دخلاً يدعو للتقدير . ويعتبر السكر أهم هـذه المنتجات . فحينما وصل الصليبيون الى سوريا ، تبين لهم ان قصب السكر تكثر زراعته في مناطق ساحلية عديدة ، وفي وادي نهر الاردن فواصلوا زراعته ، وتعلموا من السكان الوطنيين عملية استخراج السكر من القصب . وكان بعكا معصرة ضخمة للسكر ، فضلاً عن مصانع السكر في معظم مدن الساحل . وتعتبر صور المركز الرئيسي لصناعة السكر . ومعظم ما كان يستهلك من السكر في اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر جاء من الشرق الفرنجي [٢] .

---

(١) كان رئيس اساقفة صور يملك ٢٠٤٠ شجرة زيتون في قرية واحدة . انظر:

Tafel - Thomas, Vorkunder, p. 299.

Cahen : « Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, II », in Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasburg (April 1951), p. 293.

Rey, Les Colonies Frangues, p. 245.

Heyd, op. cit. pp. 177 - 178.

Burchard of Mount Sion, Description of the Holy Land, (ed. P.P.T.S.) p. 16.

يشير بورخارد الى ان الحدائق التي تقع حول طرابلس تغل لأصحابها في السنة دخـلاً قدره ثلثمائة الف بيزنته ذهبية .

(٢) انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 178 - 179, 680 - 686.

Cahen, op. cit. II, p. 293.

Rey, op. cit. pp. 248 - 249.

ويلي السكر في الأهمية في التصدير ، القماش على اختلاف انواعه . إذ توافرت تربية دودة القز حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس على حين ان الكتان كان ينمو في سهول فلسطين . كانت المنسوجات الحريرية تباع من اجل التصدير ، وجرت صناعة الحرير الشامي في عكا ، وبيروت ، واللاذقية ، بينما اشتهرت صور بالمنسوجات المعروفة باسم صندل وكان لكتان نابلس شهرة عالمية . ولا زال لصبغ الارجوان الذي عرفت به صور شهرته في ألوان الملابس . على ان الايطاليين استطاعوا ايضاً ان يشتروا المنسوجات الحريرية والكتانية من اسواق سوريا ومصر ، لوفرة الكميات بها ، وانخفاض اسعارها عادة [١] . وكذلك كان شأن الايطاليين فيما يتعلق بالزجاج . أما اليهود الذين اقاموا في سائر المدن ، ولا سيا في صور وانطاكية ، فإن ما صنعوه من الزجاج كان للتصدير ، غير انه كان لزاماً عليهم ان يواجهوا منافسة الزجاج المستورد من مصر . والراجح ان المدابغ لم تنتج من كميات الجلود إلا ما يسد الحاجات المحلية ، بينما كان يجري احياناً تصدير الأواني الفخارية [٢] .

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 178 - 179.
II, pp. 612, 696, 699, 705.

كان كتان نابلس خشناً بالقياس الى كتان مصر . (Ibid, p. 632, n. 1)

Rey, op. cit. pp. 214 - 221.

Idrisi, Geography, (Arabic text, ed. Guildermeister), p. 11.

يشير الادريسي الى ان نوعاً خاصاً من القماش الابيض كان يصنع في صور .

(٢) انظر : Heyd, op. cit. I, p. 179.

Rey, op. cit. pp. 211 - 212, 224 - 225.

Assises, II, p. 179.

انظر ايضاً المجلد الثاني ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

وقام بمصر دائماً سوق للاخشاب ، فمنذ الازمنة الغابرة جرى إنشاء الاسطول المصري من الخشب الوارد من غابات جبال لبنان والتلال الواقعة جنوبي انطاكية . واحتاج المصريون ايضاً الى كميات كبيرة من الخشب لأغراض البناء والعمارة . ومما نشب من الحروب بين مصر والامارات الصليبية قلّ ان عطلت هذه التجارة لفترة طويلة[1] . وكان قرب بيروت مناجم للحديد ، غير ان انتاجها لم يكن فيما يبدو من الوفرة ما يكفي للتصدير[2] .

وجرى ايضاً تصدير مقادير محدودة من الاعشاب الطبية والتوابل ، ويعتبر البلسان اكثرها اهمية . ونظراً لأنه كان يستخدم في اوربا اساساً في طقوس الكنيسة ، صار لما يرد منه من الارض المقدسة مكانة خاصة . ونبت بكميات وفيرة قرب بيت المقدس في القرن الثاني عشر ، على انه يكن من السهل ان يغزر هذا النبات ، نظراً لاحتياجه الى الري المستمر الذي يتكلف نفقات باهظة . فلما استعاد المسلمون بيت المقدس اواخر القرن الثاني عشر ، تضاءلت زراعته ، ولم تلبث ان تقرر اغفالها[3] .

تجارة العبور :

حصل امراء الشرق الفرنجي على موارد بالغة الضخامة من المتاجر التي

---

(١) انظر : Rey, op. cit. pp. 234 - 240.
أشار راي الى الغابات في الشرق الفرنجي .

(٢) انظر : Idrisi, p. 16.
اورد الادريسي ان حديد بيروت كان يرسل عن طريق سوريا .

(٣) انظر : Heyd, op. cit. II, pp. 577 - 578.

اجتازت البلاد . إذ اشتد الطلب في اوربا العصور الوسطى على المتاجر الشرقية ، كالتوابل ، والأصباغ ، وأخشاب العطور ، والحرير ، والخزف ، فضلاً عن المتاجر من البلاد الاسلامية المتاخمة للشرق الفرنجي . على انه لا بد ان تتوقف هذه التجارة على الاحوال السياسية في آسيا . فحينما بدأت الحروب الصليبية ، كان معظم التجارة الشرقية ينقل بطريق البحر ، فتجتاز المحيط الهندي ، الى البحر الاحمر ، ثم الى مصر ، بعد ان اجتذبتها بعيداً عن طريقها القديم الى الخليج العربي ، والى بغداد ، ثروة المدن المصرية ، وما اقترن به الحكم الفاطمي من الطمأنينة والأمن . اما الموانىء السورية فلم تستخدم إلا في تصدير السلع التي يغلب عليها الصفة المحلية كالنيلة الواردة من العراق ، والمصنوعات المعدنية من دمشق ، وكل ما تحمله القوافل الى السفن من جنوب بلاد العرب من انواع السلع . وما تلى غزوات الترك في نهاية القرن الحادي عشر من حروب لم يشجع التجارة والصناعة في داخل سوريا . ولم يعد الرخاء في سوريا إلا بعد أن اقام الوحدة بين المسلمين في سوريا ومصر ، نور الدين ، ثم صلاح الدين . فازدادت المنتجات المحلية ، وأضحى من المستطاع ان تجتاز السلع الواردة من العراق وفارس في اطمئنان الطرق الى حلب او حمص او دمشق ، ومنها الى البحر المتوسط . واستخدم تجار حلب مينائي ، السويدية التي كانوا يبلغونها بعد اجتياز انطاكية ، واللاذقية ، بينما تعتبر انطرطوس وطرابلس مينائي حمص ، أما عكا فكانت ميناء دمشق [1] .

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 168 - 177.

التجار الايطاليون :

ومع ان الايطاليين ساعدوا الصليبيين في فتح كل من هـــذه المدن ، فإن اهتمامهم الأساسي بالتجارة ظل مستمراً في مصر . فما صدر في البندقية في القرن الحادي عشر من قوانين تتعلق بالتجارة ، وردت فيها من الاشارة الى الاسكندرية ما يفوق عادة ذكر عكا ، ولا سيا بعد طرد البنادقة من القسطنطينية . وتدل سجلات سكريبا الجنوي رجل القانون العالمي ، بين سنتي ١١٥٦ ، ١١٦٤ على ان عملاءه الذين اهتموا بالاسكندرية كانوا من الكثرة ما قد يجعلهم ضعف عدد المهتمين بالشرق الفرنجي . والملحوظ ايضاً ان معظم المسافرين في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، المتوجهين من اوربا الى فلسطين كان لزاماً عليهم إما ان يستقلوا سفناً للبنادقة او الجنويين الى القسطنطينية ، ومنها يسيرون براً الى فلسطين ، وإما ان يتخذوا السفن اليونانية التي تلتزم الساحل في سيرها ، الى سوريا ، وإما ان يبحروا مباشرة من جنوب ايطاليا في سفن مملكة صقلية . ويبدو من ذلك انه لم تخرج من موانىء جنوب ايطاليا سفن كثيرة للقيام برحلات منتظمة الى سوريا حتى السنوات المتأخرة من القرن الثـاني عشر (١) . فلم تكن السلع التي اجتازت الموانىء السورية حتى وقتذاك بالغة الضخامة . وإذ لم تتجاوز رسوم الديوان (الجمرك) على هـــذه السلع العابرة عُشر قيمتها ، من اليسير ان ندرك السبب في انه قلّ ان عمرت خزانة الشرق الفرنجي بالمال ، وفي نزوع ملوك بيت المقدس في معظم الاحوال الى القيام

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. III, pp. 330 - 333.
اورد كاهن احصائيات عن السفن وسفرياتها .

بالغارات في الاوقات التي يتطلب فيها الشرف والدبلوماسية منهم ان يحافظوا على السلام [1] .

ومن اليسير ايضاً ان تفهم سر خجل المدن الايطالية البحرية في انها لم تبادر على الفور الى مساعدة الحملة الصليبية . فقد يكون من واجبها المسيحي ان تساعد الفرنج على المسلمين ، غير ان رخاءها بأكمله توقف على المحافظة على العلاقات الطيبة مع المسلمين . فكلما بذلت العون لحملة مسيحية خاطرت بضياع ما كان لها من حقوق تجارية في الاسكندرية . ومع ذلك لولا تعاون المدن الايطالية ، لما استولى الصليبيون على المدن الساحلية . وتدل حقيقة تعاونها على ان المشكلة ليست بسيطة بحال من الاحوال ، إذ بذل الجنويون المساعدة بينما لا زالت الحملة الصليبية الاولى في انطاكية . وأبحر اسطول للبيازنة قبل ان تبلغ الغرب انباء الاستيلاء على بيت المقدس . وما اظهره البيازنة فيما بعد من فتور نحو مملكة بيت المقدس ، كان اكثر ما يرجع الى شجار بلدوين الاول مع رئيس اساقفتهم دايبرت ، لا الى اعتبارات تجارية . بل ان البنادقة الذين ارتبطوا بأوثق علاقة بمصر ، عرضوا المساعدة على جودفري كونت اللورين قبيل وفاته . ولم تكن هذه السياسة بالغة الخطورة كما يتراءى من اول نظرة ، فلا تعيش تجارة ما لم يفد منها كلا الجانبين . فلم تكن السلطات الاسلامية في مصر بأشد رغبة من الايطاليين ، في ان تنقطع العلاقات التجارية فترة طويلة من الزمن .

---

(١) انظر : Ibid.

وما قام به بلدوين الثالث من غارة في سنة ١١٥٧ لم يقصد منها سوى الحصول على المال . انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٥٠ — ٥٥٢ .

ومع ان هذه السلطات قد يحملها الغضب على ان تغلق ميناء الاسكندرية في وجه السفن المسيحية ، فانها هي ايضاً تعاني من توقف التجارة . ولذا لم تجرِ تماماً مراعاة تنفيـــذ العقوبات . يضاف الى ذلك ان الايطاليين حققوا مزايا عديدة بمـا حازوه من نصيب في الموانىء التي تمّ فتحهـا حديثاً . فلم يشعر الايطاليون ابداً بالطمأنينة في المدن الاسلامية ، بل في القسطنطينية ذاتها . فما يقوم به الرعاع من فتنة يصح ان تدمر مؤسساتهم ، كما ان أهواء بعض الأمراء الأجانب قد تدفعهم الى التدخل في تجارتهم . ومع ان الحجم الفعلي للتجارة التي تجري في الموانىء السورية المسيحية ، تقلّ عن تلك التي تمـارس في القسطنطينية والاسكندرية ، فانهم اهتموا بألا تتوقف تجارتهم . على ان مشاكلهم الوحيدة نبتت من التنافس بين الايطاليين انفسهم ، لا من العداء مع الحكام المحليين . ولموانىء الفرنج ميزة اخرى تزايدت أهميتها . ذلك ان أهم مشكلة واجهها الايطاليون ، هي ان يحصلوا من اوربا على سلع يفيدون من بيعها في شراء ما يودّون من السلع الشرقية . والمعروف ان أهم سلعـــة كان يصدرها البنادقة حتى السنوات الاولى من القرن العاشر ، هي الرقيق الذي يجلبونه من اوربا الوسطى ، غير ان تحوّل الصقالبة والمجريين الى المسيحية قضى على هــذه التجارة . وحدث في الشطر الاخير من القرن الثالث عشر ان أحيا الجنويون تجارة الرقيق ، فحملوا من موانىء البحر الاسود الرقيق من الترك والتتـــار ، ليبيعوه الى المماليك في مصر ، غير انه في الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والثالث عشر ، لم يرد إلا قدر ضئيل من الرقيق . وتعتبر المعادن والأخشاب أهم السلع التي يصدرها الغرب . ونظراً لأن هذه المواد كانت تستخدم في صناعة الاسلحة ، فمن الطبيعي ألا تقرّ السلطات الكنسية بيعها للمسلمين . على ان الايطاليين تعلموا رويداً رويداً أن الحركة الصليبية ، وبقاء الشرق

الفرنجي ، جذبا الى الشرق أعداداً كبيرة من العساكر ، والدبلوماسيين ، فضلاً عن الحجاج الذين يفوقونهم عدداً. فاذا تولى الايطاليون نقلهم ، فان ما يؤدونه لهم من المال ، في هيئة اجور ونفقات المعيشة على ظهر السفن ، هيأ لأرباب السفن من النقد ما يصح ان ينفقوه في الموانىء السورية على السلع المستوردة من الجهات القاصية الى الشرق . وأخيراً ، على الرغم مما اشتهر بـه التجار الايطاليون من العناد والصلابة ، فانه لا يصح مطلقاً اغفال نوازعهم الدينية برغم ضآلتها . فكم من الرجـال ، حتى في جنوة والبندقية ، آثروا ان يمارسوا تجارتهم في مرفأ مسيحي على ان يباشروها في مرفأ اسلامي . ومن الاعتبارات العملية مـا لجأت اليه الكنيسة من التشدد في إنكار التجارة مع المسلمين ، وإذ كانت الكنيسة بالغة القوة من الناحية السياسية في ايطاليا ، فان عداوتها تؤدي الى ارتباك شديد[1] .

وبلغت التجارة في الشرق الفرنجي ذروة نشاطها اثناء السنوات العشرة السابقة على استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ، وأثنـاء العشراوات الاولى من القرن الثالث عشر . إذ اتحد العالم الاسلامي وساد به الرخاء ، واكتشف الايطاليون ميزات التجارة في الموانىء المسيحية . وفي تلك الاثناء تعلم النزلاء الفرنج كيف يعقدون الصداقات مع جيرانهم المسلمين . فالحاج المسلم ابن جبير ، الذي ارتحل سنة ١١٨٤ في قافلة تجار مسلمين من دمشق

---

(١) انظر : Ibid.
وكذا المجلد الثاني ص ٥٤٩ — ٥٥٥ .
الراجح ان كاهن لم يدرك إلا قليلاً ضآلة اهمية الشرق الفرنجي للايطاليين ، اذ ان الدليل التاريخي يوحي بأن ما اظهروه من الاستخفاف بمصير الشرق الفرنجي يقل عما اورده كاهن .

الى عكا ، شرح كيف أن هذه القوافل لم تكن طارئة ، بل كان حدوثها امراً مألوفاً . وأعرب عن تأثره بالتدابير الهينة التي تجري لجبـاية رسوم الديوان [١] . وتعتبر عكا أنشط موانيء الساحل في التجارة ، وكانت الميناء الطبيعي لدمشق ، فلم تستخدم فحسب لمنتجات مصانع دمشق ، وأراضي حوران الخصيبة ، بل افاد منها ايضاً ، التجار القادمون من اليمن ، الذين سلكوا طريق الحجاج على امتداد حافة ساحل بلاد العرب. كما انها حازت ايضاً الميناء الامين الوحيد في كل فلسطين . فالمسافرون الى الاماكن المقدسة يؤثرون النزول بهـا لا بيافا ، بمرساها المكشوف ، حيث وقعت حوادث كثيرة ، قبل ان تسقط عكا في ايدي الصليبيين . على ان العيب الوحيد في ميناء عكا ، هو أن الميناء الداخلي بلغ من الصغر انه لم يتسع للسفن الكبيرة في ذلك الوقت ، فكان لزامـاً عليها إما أن ترسو خارج حاجز المياه ، فتتعرض للرياح الجنوبية الغربية ، وإما أن تمضي ازاء الساحل الى ميناء صور الذي يفوق ميناء عكا اتساعاً وأمناً [٢] . وتعتبر اللاذقية خير ميناء في شمال سوريا نظراً لأنه صالح لكل مناخ وطقس ، على الرغم من ان السويدية الواقعة على مصب نهر الأورنت كانت اكثر منالاً لأنطاكية وحلب وتستخدم للسفن الصغيرة [٣] .

---

(١) انظر : Ibn Jubayr, (ed. Wright), pp. 306 - 367.

(٢) انظر : Ibn Jubayr, pp. 307 - 308.

اشار ابن جبير الى ان صور تفضل عكا في استقبال السفن الكبيرة .

(٣) أشاد الجغرافيون العرب بميناء اللاذقيـة ، لما يتمتع به ، بصفة خـاصة ، من الجودة والصلاحية . انظر : Idrisi, p. 23.

Yakut, Geographichal Dictionary, ed. Wustenfeld, IV, p. 338.

Dimashki, ed. Mehren, p. 209.

وتورد وثائق مملكة بيت المقدس مقادير المتاجر الشرقية التي اجتازت دور الديون (الجمارك) في الشرق الفرنجي . فبالاضافة الى المنسوجات الحريرية وغيرها من المنسوجات ، اجتازتها التوابل المختلفة ، امثال القرفة ، والحبهان ، والقرنفل ، وجوز الطيب ، والزنجبيل ، والنيلة ، والفوة (صبغ) ، والنـد ، والعاج[1]. على انه لم يكن للفرنج انفسهم في هذه التجارة إلا نصيب ضئيل . إذ أن المتاجر يجلبها من الداخل الى الساحل ، تجار مسلمون او مسيحيون وطنيون ، وفي شمال سوريا نقلها الى الساحل من انطاكية ايضاً تجـار يونانيون وأرمن ، ولقي التجار الزائرون معاملة دمثة . إذ سمح للمسلمين ان يؤدوا شعائرهم الدينية في المدن المسيحية ، والواقع ان شطراً من المسجد الجـامع بعكا ، الذي تحول الى كنيسة ، تقرر افراده للشعائر الاسلامية . وكان بعكا من الخانات ما يصح للتجار المسلمين ان ينزلوا بها ، كما أن من الاسرات المسيحية من انزلت المسلمين في دورها . واشترى التجار الايطاليون سلعهم مباشرة من المستوردين المسلمين . وبالاضافة الى الايطاليين ، يبدو انه قدم الى عكا بحراً عدد من المسلمين ، ليشتروا سلعاً من داخل البلاد ، ومن هؤلاء المغاربة القادمون من شمال غربي افريقيا الذين يودون مواصلة السير حتى دمشق او غيرها من المدن الاسلامية الداخلية[2] .

= على حين تضاءل استخدام ميناء السويدية ، إلا في تجارة انطاكية ذاتها . والراجح ان الحطمى اخذ يتراكم في المينـاء . يشير ياقوت (جـ ٣ ، ص ٣٨٥ ، طبعـة وستنفلد) الذي ترجع كتابته الى ما قبل استيلاء بيبرس على انطاكية ، الى السويدية على انها ميناء انطاكية ، ويستخدمه الفرنج.

(١) انظر : Assises, II, pp. 174 - 176.
Heyd, op. cit. pp. 563 ff.

اوردت وثائق مملكة بيت المقدس مائة سلعة واحدى عشرة سلعة ، تؤدي رسوم الديوان .

(٢) انظر : Ibn Jubayr, pp. 307 - 309.

الطرق التجارية الخاضعة للمغول :

على ان امتداد الامبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر ، غيّر الطرق التجارية الأساسية القادمة من الشرق الاقصى . فـلم يكد المغول يفتحون جوف آسيا ، حتى شجعوا التجار على ان يسلكوا الطريق البري القادم من الصين ، ويجتاز تركستان ، ثم يمضي إما الى شمال بحر قزوين الى الموانىء الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الاسود ، مثل كفّا ، وإما الى جنوب بحر قزوين ، ويخترق ايران الى اطرابزون على الساحل الجنوبي للبحر الاسود ، او الى أياس في مملكة قليقية بأرمينية . وما أقرّه المغول من الأمن والنظام التام ، جعل هذا الطريق يفضل طريق البحر ، عـبر المحيط الهندي الطافح بالأخطار [١] . وفي القرن الثاني عشر درجت السفن الصينية على ان تبحر من غرب سيلان الى موانىء بلاد العرب . ولم يكن ثمة ما يدعوها وقتذاك الى ان تتجاوز في سيرها الشاطىء الشرقي للهند [٢] وترتب على استيلاء المغول على العراق ان جانباً من التجارة الهندية وصل الى الغرب بحراً عن طريق الخليج العربي ، كما ان شطراً منها اجتاز دمشق او حلب الى موانىء الفرنج على ساحل البحر المتوسط . غير ان معظم التجار كانوا يؤثرون البقاء في داخل الممتلكات المغولية ، ومنها يجتازون

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. II, pp. 70 - 73.

(٢) يشير الادريسي الى ان السفن الصليبية مضت في طريقها في القرن الثاني عشر حتى بلغت ديبل الواقعة على مصب نهر السند، غير انها في القرن الثالث عشر لم تتجاوز سومطره في سيرها. وعندئذ تحكمت السفن العربية في تجارة المحيط الهنـدي ، التي لا زالت مدرّة للربح والرخاء .
انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 164 - 165.

طريقاً مباشراً الى البحر المتوسط ، عند اياس ، بينما جرى نقـــل معظم التجارة الهندية براً عن طريق افغانستان وفارس [١] . وعلى الرغم من ان مصر لا زالت تعتبر سوقاً نافقة للمتاجر الشرقية ، فإنها لم تعد تقع على ارخص طريق للتجارة من الشرق الاقصى الى اوربا [٢] .

وفي تلك الاثناء اخذت البندقية وجنوة ، وقـد تأخرت عنهما بيزا ، تزيدان باستمرار في تجارتهما ، فاشتد التنافس بينهما . وما حدث من تحول الطرق التجارية زاد في المنافسة بينهما . إذ سيطرت البندقية اول الأمر على البحر الاسود ، نظراً لما كان لها من سيادة على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . ولذا لم تعارض في قيام دولة المغول . ولمـــا استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١ بفضل مساعدة جنوة القوية ، استطاع الجنويون ان يبعدوا البنادقة من البحر الاسود ، وأن يحافظوا على احتكار تجارة آسيا الوسطى ، وتجارة الرقيق ، باعتبارها تجارة ثانوية مربحة ، بين سهوب روسيا ومصر . وإذ استندت الحكومة المملوكية على مـــا يرد باستمرار من مقادير الرقيق من قبائل القبجاق ومـــا يجاورها من القبائل التركية ، كان مستحيلاً على البنادقة ان يطردوا جنوة من الاسكندرية . ومـع ان ملك ارمينية سمح للبنادقة ان يشاركوا في تجارة المغول التي ترد الى أياس ، فإنه اضحى من الأمور الجوهرية عند البندقية أن تحاول طرد الجنويين من موانىء الفرنج . فأحرز البنادقة نجاحاً باهراً فيما يتعلق

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. pp. 73 ff.

(٢) انظر : Ibid, p. 78.

فرض المصريون ايضاً مكوساً باهظة على المتاجر .

بعكا . أما صور التي لجأ اليها الجنويون ، فإنها تقل عن عكا أهمية في وضعها ، اضحى من سياسة البندقية العامة في عدائها لجنوة ، ان تقاوم المغول ، الذين بفضلهم جنت جنوة أرباحاً طائلة من امبراطوريتهم . وتبعاً لذلك استخدم البنادقة نفوذهم في عكا لحث الحكومة بها على ان تساند المماليك على المغول [1] .

وما حدث من تطور اياس على انها المنفذ الرئيسي لتجارة المغول على البحر المتوسط ، من الطبيعي ان يقلل أهمية موانىء الفرنج . على انه ما اصاب تجارة آسيا من زيادة عامة في ظل المغول ، جعل منها دائماً فائضاً سلك الطرق التجارية القديمة . إذ ان تجاراً من الموصل قاموا بزيارة عكا بانتظام اثناء الشطر الثاني من القرن الثالث عشر . وما نشب من الحروب بين المماليك والمغول لم يعرقل كثيراً مسير القوافل من العراق وإيران الى فلسطين . وظلت عكا حتى سنواتها الأخيرة ، باعتبارها الحاضرة المسيحية ، حافلة بالنشاط التجاري ، على حين ان اللاذقية التي تقع في اقصى الشمال ، كانت تمارس من التجارة القادمة من حلب ، مما جعل تجار حلب بصفة خاصة يتوسلون الى السلطان المملوكي بأن يستولي على الميناء (اللاذقية) ، فلا ينبغي ان يكون هذا الموضع الثمين في ايدي الكفار (المسيحيين) [2].

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٤٨٦ وما يليها .

Bratianu, Commerce Génois dans le Mer Noir, esp. pp. 79 ff.

(٢) عن اياس التي اطلق عليها الايطاليون Lajazzo ، انظر :

Bratianu, op. cit. pp. 158 - 162.

انظر هايد عن سوريا : Heyd, op. cit. II, pp. 62 - 64.

ثروة البارونات :

على ان هذه التجارة الزاهرة لم تدر إلا ربحاً ضئيلاً للفرنج انفسهم . فباتخاذ الموانىء البحرية ساحة للمعارك بين الجاليات الايطالية المتنافسة ، اضحت التجارة مصدراً لضعف سياسي فعلي . بل انه اذا حافظ الايطاليون على السلام ، فإنه لم يرد من هذه الموانىء قدر كبير من النقد الى حكومة الشرق الفرنجي . فالمعروف ان للملك الحق من الناحية الرسمية في ان يتقاضى عشر المكوس ، غير انه في الواقع باع انصبة ضخمة من هذا العشر الى اتباعه او الى الكنيسة ، او الى الطوائف الدينية العسكرية ، فلم يبق له منه إلا قدر ضئيل . فكان امراء انطاكية وكونتات طرابلس يزيدون قليلاً عليه في الثروة ، لأنهم يقلون عنه في انشاء الاقطاعات النقدية . ومع انه لم تكن للثروات الكبيرة ان تتكوّن بالشرق الفرنجي . فقد كان به من السادة الاقطاعيين من حازوا من الثروة ما يكفي لأن يعيشوا في بذخ امثال الابليين سادة بيروت الذين تملكوا مناجم الحديد الواقعة قربها ، وأسرة مونتفورت سادة صور ، بما حازوا من مصانع السكر . كان سكان الشرق الفرنجي في نظر الرحالة القادمين من الغرب الذين لم يكن لهم سابق خبرة ، ينعمون برخاء لا يتصور ، غير ان ذلك لم يكن إلا مظهراً سطحياً . فإذا كانت المدن تفوق مدن الغرب في النظافة ، وفي جودة العمارة ، وكان بوسع سكانها ان يشتروا الثياب الحريرية ، وأن يستعملوا العطور والتوابل بأثمان لم يكن ليؤديها في غرب اوربا إلا التاجر بالغ الثراء ، فإن هذه الاشياء لم تكن إلا منتجات محلية ، ولذا تعتبر نسبياً

رخيصة [1] .

ليس لدينا إلا معلومات قليلة عن نشاط الطبقات البورجوازية في الشرق اللاتيني . فلم يكن لهذه الطبقات فيما يبدو دور في التجارة الدولية ، بل قصرت نشاطها على اقامة الدكاكين وصناعة السلع اللازمة للاستهلاك المحلي . على انه كان لها بعض السلطان السياسي ، إذ أن قومون عكا الذي تألف من بورجوازية الفرنج كان عاملاً هاماً في الدولة . غير انه فيما يبدو عزل نفسه عن الجماعات الوطنية ، بل عن الارثوذكس ايضاً ، الذين كانوا يعاملون على انهم فئة مستقلة [2] . على أن البورجوازية الفرنجية واليونانية تعاونت سوياً في انطاكية ، حيث كان للقومون نفوذ قوي الأثر . والراجح انه ما حدث من المصاهرة بين الفرنج واليونانيين زاد في انطاكية عن سائر الإمارات ، فلم يكن الفرنج بها من الكثرة مثلما كانوا في عكا او في طرابلس ، التي جرت فيما يبدو على نهج عكا [3] .

---

(١) قدر المؤرخ امادي ان قيمة ما ينتج من اقطاع فيليب مونتفورت في تبنين سنة ١٢٤١، يبلغ ستين الف دينار اسلامي . واستطاع جاي سيد جبيل ان يقرض ليوبولد دوق استريا خمسين الف دينار ، وان يقرض فردريك الثاني ثلاثين الف دينار . انظر :

Amadi, p. 186.

La Monte, Feudal Monarchy, pp. 171 - 174.

انظر ما سبق ص ٢٦٧ ، ٣٢٣ .

(٢) انظر : Cahen, op. cit. III, pp. 335 - 337.

Prawer : « L'Etablissement des Communes du Marché à Saint - Jean d'Acre », in Revue Historique de Droit Français, 1951.

(٣) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 549 ff, 153 ff.

Richard, La Comté de Tripoli, pp. 71 ff.

اما الطبقات العاملة فكان معظمها من اصل وطني ، او اصل مختلط ، وكان من الرقيق أعداد كبيرة ، من المسلمين الذين وقعوا اسرى في الحرب ، تعمل عادة في المناجم ، او في تشييد المباني العامة ، او في ضياع الملك او النبلاء [1] .

افتقرت الحكومة دائماً الى النقد ، فلا بدّ للبلاد ، حتى في أوقات السلم ان تكون مستعدة لأن تندلع الحرب فجأة ، ونجم على الحرب عادة تخريب مناطق كبيرة من الريف . ولم تكن الموارد المتحصلة من المكوس والضرائب كافية . فإذا حدث ظرف طارىء مفاجىء ، كأن وقع في الأسر ، الملك او شطر كبير من الجيش ، فليس من المستطاع مواجهته إلا بمساعدة خارجية . ومن حسن الحظ أن المساعدة الخارجية كانت عادة وشيكة القدوم . والى جانب ما يتحصل من اموال بطرق غير سليمة عادة ، بما يشنّ من الغارات على البلاد الاسلامية من اجل النهب ، كان يرد من اوربا باستمرار الهدايا والمنح . إذ كانت فلسطين هي الارض المقدسة ، ويعتبر الصليبيون والنزلاء عادة جنود المسيح . فكان الزائرون يؤدون ضريبة عند وصولهم اليها ، ولم يكن الحجاج فحسب يحملون معهم الاموال الى البلاد لينفقوها بها ، او ليبذلوها صدقات ، بل ان كثيراً من المشاهد والأديرة بفلسطين منحت اراضي في الغرب ، وما كان يتحصل منها من موارد كان يرسل اليها . واستمدت الطوائف الدينية العسكرية معظم دخلها من احباسها في الغرب ، الى حد انها ظلت بالغة الثراء حتى بعد ضياع ممتلكاتها في

---

(١) انظر : Rey, Les Colonies Franques, pp. 105 - 108.

سوريا . على ان سائر الأشخاص في الشرق الفرنجي ، ابتداء من الملك فما دونه من المواطنين ، كانوا يتلقون من حين الى آخر هدايا من الغرب من اقاربهم او من الذين يعطفون عليهم . هـذه الاعانات ساعدت الى حد كبير في حفظ توازن مالية الشرق الفرنجي ، وبذا فان ما دهش له الزائرون من الغرب من مظاهر الترف في المدن السورية أسهم في شطر منه مواطنوهم في الغرب [1] .

النقد في الشرق الفرنجي :

يعتبر النقد في الشرق الفرنجي مصدراً آخر للقوة الاقتصادية من العسير تقدير قيمته . فحينما بدأت الحروب الصليبية لم يكن بقرب اوربا نقـد ذهبي إلا في صقلية واسبانيا الاسلامية ، إذ كانت الفضة اكثر المعادن النفيسة استعمالاً . ولم يحدث وقتذاك ايضاً ان صكت الإمارات الاسلامية في سوريا نقوداً من الذهب ، على الرغم من ان الخليفتين المتنازعين في بغداد والقاهرة . مارسا هذا الاجراء . على انه لم تكد تستقر الإمارات الصليبية ، حتى شرع ملك بيت المقدس ، وأمير انطاكية ، وكونت طرابلس في ضرب الدنانير من الذهب ، التي كانت تعرف باسم الدنانير الاسلامية Saracenate Besants ، والتي ليست إلا تقليداً للدنانير الفاطمية ، غير انها لم تحو من الذهب إلا ثلثي ما تحويه الدنانير الفاطمية . هذه النقود ، ولا سيما نقود بيت المقدس التي اشتهرت عند المسلمين بالصورية (دنانير صور) لم تلبث ان انتشر تداولها في انحاء الشرق الأدنى . ومن العسير ان نعرف

---

(١) انظر : La Monte, op. cit. pp. 174 ff.

من أين حصل الفرنج على الذهب . فالنهب والفدية لم ينجم عنها سوى مقدار صغير غير منتظم من الذهب . ويعتبر السودان المصدر الاصلي للذهب وقتذاك ، والراجح ان قدراً من الذهب جلبه الى موانىء الفرنج التجار المغاربة لممارسة التجارة بها . غير انه لتفسير ظهور النقد ، لا بدّ انه جرت حركة عامة للذهب من البلاد الاسلامية الى البلاد المسيحية . فلا بدّ ان اشتري النزلاء الاوربيون الذهب من المسلمين ، ولا ريب انهم دفعوا فيه ثمناً باهظاً ، مقابل الفضة التي توافرت بأوربا . وما جرى صكه من هذا النقد الذهبي منخفض العيار ، لا بدّ انه ساعد في كل الحركة . فلا بدّ ان انتقلت كميات كبيرة من الذهب الى الغرب ، فالملحوظ انه اخذ يظهر في الغرب أثناء القرن الثالث عشر نقد ذهبي فائق السبيكة (١).

على ان حق صك النقود من الذهب كان بأيدي حكام الشرق الفرنجي ، فلا يجوز للجاليات الايطالية او الطوائف الدينية العسكرية ان تعتدي على هذا الاحتكار . وليس للمقطعين إلا ان يضربوا نقوداً من البرونز لسد الحاجات المحلية (٢) .

---

(١) انظر : Cahen, Notes sur l'Histoire des Croisades, III, pp. 337 - 338.

(اورد كاهن مناقشة بالغة الاهمية حول هذا الموضوع) .

Schlumberger, Les Principautés Franques du Levant, pp. 8 - 45.

على ان قيمة الذهب في الدينار الاسلامي في بيت المقدس لا تزيد إلا قليلاً عن ثلث الجنيه الاسترليني الذهب ، اما دينار انطاكية فكان ادنى قليلاً في القيمة .

(٢) انظر : La Monte, op. cit. pp. 174 - 175.

وللطوائف الدينية العسكرية مصدر آخر للثروة مستمد من نشاطهم المصرفي . وبفضل ممتلكاتهم الشاسعة في انحاء العالم المسيحي ، اضحى لهم وضع رائع لتمويل الحملات الصليبية . فاشتراك الفرنسيين في الحملة الصليبية لم يتحقق إلا بفضل مساعدة الداوية ، الذين دفعوا مبالغ ضخمة الى الملك لويس السابع في الشرق ، وجرى تسديدها لهم في فرنسا . ولم ينته القرن الثاني عشر حتى اضحى الداوية يمارسون بانتظام عملية إقراض الاموال ، وتقاضوا عن ذلـــك فائدة مرتفعة . ومع انهم لم يكونوا موضع ثقة من الناحية السياسية ، فإن سمعتهم المالية بلغت من الارتفاع ما جعل المسلمين يولونهم الثقة ، ويفيدون من خدماتهم . ومارس الاسبتارية والفرسان التيوتون عمليات من هذا القبيل ، ولكن على نطاق يقل كثيراً عما كان عند الدواية . ولم تجنِ حكومة الشرق الفرنجي بصفة مباشرة شيئاً من هـذا النشاط الذي زاد في قوة الطوائف الدينية العسكرية وفي تمرّدهم ، غـير ان هذا النشاط المصرفي أفاد البلاد في مجموعها من الناحية المالية[1] .

المشكلة الاقتصادية للشرق الفرنجي :

لا يزال التـاريخ الاقتصادي للشرق الفرنجي بالغ الغموض . فليست

---

(١) انكرت وثائق مملكة بيت المقـــدس عملية الصيرفة ، على حين اقرتها وثائق انطاكية .

انظر : Cahen, op. cit. p. 339.

Piquet, Les Banquiers du Moyen Age, passim.

Melville, La Vie des Templiers, pp. 75 - 83.

لم تختلف حملة لويس التاسع عن حملة لويس السابع ، اذ ان الداوية اسهموا الى حد كبير في تمويلها . انظر : (Piquet, pp. 71 - 78).

المعلومات كافية ، كما انه ليس من المستطاع حتى اليوم تفسير تفاصيل كثيرة . على انه من المستحيل ان نفهم التاريخ السياسي للحروب الصليبية ، ما لم نجعل في اعتبارنا ما للنزلاء والتجار الايطاليين من حاجات تجارية ومالية . إذ أن هذه الحاجات تسير عادة عكس الباعث العقائدي الذي أثار الحركة الصليبية وأبقى عليها . فالشرق الفرنجي وقع دائماً في الحيرة ، إذ أنه قام نتيجة خليط من الحماس الديني والمغامرة لاقتناء الاراضي . فإذا كان لا بدّ ان يبقى سليماً ، فلا ينبغي ان يظلّ معتمداً على ما يرد اليه بانتظام من الغرب من الرجال والأموال ، فلا بد ان يبرر بقاءه من الناحية الاقتصادية ، ولن يتحقق ذلك إلا اذا كان في علاقات ودية مع جيرانه . فإذا سادت بينهما المودة والرخاء ، فسوف يزدهر ايضاً الشرق الفرنجي . على ان السعي للصداقة مع المسلمين يعتبر فيما يبدو خيانة كاملة لمثُل المحارب الصليبي ، كما ان المسلمين من جانبهم لم يستطيعوا ان يرضوا ببقاء دولة اجنبية دخيلة في بلاد يعتبرونها ملكاً لهم . على ان حيرتهم لم تكن بالغة الأسى ، لأنه ليس للمستعمرين المسيحيين اهمية لتجارتهم مع اوربا ، برغم ما لهم من فائدة في بعض الاحوال . ولذا تعرضت العلاقات الطيبة بينهم دائماً للخطر . اما المشكلة الكبيرة الاخرى التي كان لزاماً على الشرق الفرنجي ان يواجهها ، فتمثلت فيما كان يربطه من علاقات مع المدن التجارية الايطالية ، إذ أن هذه المدن كانت عاملاً لا غنى عنه لبقاء الشرق الفرنجي . فلولاها لأضحى من المستحيل المحافظة على المواصلات مع الغرب ، وصار مستحيلاً ايضاً تصدير منتجات البلاد ، او السيطرة على شيء من التجارة العابرة القادمة من الشرق الاقصى . على ان الايطاليين بما اشتهروا به من الغطرسة ، والمنازعات ، وما اتسمت به سياستهم من التعالي ، تسببوا في وقوع ضرر لا سبيل الى علاجه ، إذ كانوا يقفون بمعزل عن كل حملة صليبية

جوهرية ، ويعرضون صراحة ما كان من انشقاق في العالم المسيحي ، امدوا المسلمين بالمواد الحربية الجوهرية ، وقد يقومون بالفتنة والقتال ، يحارب كل منهم الآخر في شوارع المدن . ولا بد ان حكام الشرق الفرنجي قد أسفوا لما جلبته هذه التجارة المربحة الى شواطئهم من امثال الحلفاء المتمردين الخطرين . ومع ذلك فإنه لولا هذه التجارة لأضحت سيرة الشرق الفرنجي اكثر إيجازاً وأشد عبوساً . فليس من السهل مطلقاً الفصل بين ما يقترن بالرخاء المادي من دعاوى عدائية وبين الايمان العقائدي . وما من حكومة تستطيع ان تأمل في ان ترضى تماماً أياً من الدعوتين . فليس بوسع الانسان ان يعيش على المذهب العقائدي وحده ، بينما استند الرخاء الى أمور تزيد اتساعاً على ما قد يحتوي عليه شريط ضيق من الارض .

ارتكب الصليبيون أخطاء عديدة ، إذ اتسمت سياستهم دائماً بالتردد والتقلب ، غير أنه لا يصح إلقاء اللوم عليهم وحدهم لفشلهم في حل مشكلة ، ليس لها في الواقع حل .

الفصل الثاني

العمارة والفنون في الشرق الافرنجي

هيأ الفرنج بالشرق الفرنجي للتجـارة التي كان ينبغي ان توطد بلدهم وتدعمه بأن تفلت من أيديهم . على انهم احتفظوا بالسيطرة على منتجات بعض الفنون ، وتعتبر منجزاتهم في هذه الناحية رائعة ، إذ لم يكن عدد النزلاء وفيراً ، ولم يكن منهم من الفنانين إلا عدد قليل . يضاف الى ذلك أنهم قدموا الى بلاد كان لهـــا من التقاليد الفنية ما هو أقدم عهداً من تقاليدهم ، كما انهم لم يلقوا بها شيئاً من المواد التي ألفوها . ومع ذلك فانهم أخذوا يبتكرون أسلوباً أشبع رغباتهم وسدّ حاجاتهم .

لم تبق معظم أعمـالهم الفنية ، إذ ان تاريخ سوريا وفلسطين الحافل بالاضطراب لم يهيء لكل دقيق وقابـل للكسر من الأشياء ان يعيش . أما عمارتهم فكانت أكثر متانة ودواماً ، على الرغم من انه لم يبق منها ، مثلما حدث في معظم البـــلاد في العصور الوسطى ، إلا الآثار الحربية والكنسية . بل ان هذه الآثار لم تسلم صورتها الأصلية من التغيير والتفتت .

ففيما عدا أقدس مشاهد العالم المسيحي ، التي لم يمسها المسلمون بوازع من دينهم ، والتي أصلحها المسيحيون فيما بعد ، فإن ما زال قائماً من الكنائس جرت المحافظة عليها ، لأنه لم يطرأ عليها من التعديل إلا ما يجعلها تصلح لأن تكون مساجد ، بينما هوت كنائس اخرى الى الخراب . أما قلاع الفرنج واستحكاماتهم فإن ما لحق بهـا من الضرر في الحروب ، كان من الشدة ما أرغم الغزاة المسلمين ، إذ أرادوا الإفادة منها ، ان يعيدوا بناء كثير منها ولا سيما الأسوار الخارجية والأبواب . وما تركه الانسان منها دون ان يمسها في تلك البلاد التي تعرضت للزلازل ، أسهمت الطبيعة في تخريبها . بل حدث حينما سخر علماء الآثار المحدثون علمهم في أعمـال عمارتها ، مثلما جرى في حصن الاكراد ، انهم فيما يبدو لم يستطيعوا دائماً ان يفرقوا في وضوح بين ما هو صليبي وما هو مملوكي .

وأول ما احتاجه الصليبيون من العمائر ، كان ما يتعلق بأسباب الدفاع عن انفسهم . فالكنائس والقصور ينبغي ان تنتظر حتى يطمئن الصليبيون في تملك البلاد . إذ كان لا بد من إصلاح أسوار المدن ، وتشييد القلاع لحراسة الحدود ، ولاستخدامها مراكز إدارية آمنة للمناطق بالبلاد . أما استحكامات المدن الرئيسية ، فلم تتطلب من الاصلاح سوى ترميم أجزاء متفرقة منها ، إلا في الحالات القليلة ، التي لم يتيسر للصليبيين الدخول اليها إلا بعد ان أحدثوا ثغرة في الأسوار . فما أقامه البيزنطيون في انطاكية من نظام متين للاستحكامات الدفاعية حوالي نهاية القرن العاشر لم يتعرض إلا لضرر ضئيل . ولم يكن الامراء اللاتين في انطاكية في حاجة الى ان يضيفوا اليها شيئاً . ومن هذا القبيل ، لم تتطلب أسوار بيت المقدس التي شيدها الفاطميون إلا قدر قليل من الاصلاح ، على الرغم من ان الصليبيين

بادروا ، فيما يبدو ، الى ان يُدخلوا على برج داود بعض التغييرات والتحسينات. على انهم لم يلبثوا ان شرعوا في تشييد قلاع بالمدن التي كانت الاستحكامات بها كافية فعلاً . وكل هـذه القلاع جرى تشييدها على حافة المدينة ، كما يتيسر الدفاع عن كل منها مستقلة عن الاخرى . وأحب سادة هذه القلاع ألا يكون بوسعهم فحسب المضي في المقاومة ، لو سقطت المدينة في يد العدو ، بل يكونون ايضاً في وضع يثير الرعب في البلد ، اذا ثبت عصيانها وتمردها . وأول قلعة يصح التأكد من تاريخها ، هي تلك التي شيدها ريمond كونت تولوز عند جبل الحـــاج ، إذ شيدها سنة ١١٠٤ لاتخاذها مقراً لقيادته ، حينما ألقى الحصار على طرابلس . أنشأها ريموند خارج المدينة ، على الرغم من ان طرابلس الاسلامية جرى تشييدها فيما بعد عند قاعدتها . غير ان ما تبقى حتى الآن من قلعة ريموند ، لم يتجاوز السور الغربي منها . أما قلاع امراء الجليل في طبرية وتبنين ، فلا بد ان تشييدها تمّ حوالي ذلك الوقت . على ان اول عهد زاهر لتشييد القلاع بدأ في العقد الثاني من القرن الثاني عشر ، زمن بلدوين الثاني ، واستمر زمن فولك حين قـام من الحصون الرائعة أمثال قلاع موآب ، وهونين ، ثم صهيون في أقصى الشمال ، فضلاً عن المعـاقل الصغيرة في يهودا أمثال الصافية ويبنة [1] .

القلعة البيزنطية :

اكتشف الصليبيون ان العمارة الحربيـــة بلغت من النمو والتطور في

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ١٠٠ — ١٠١ ، ٣٦٩ — ٣٧٢ .
Deschamps, La Défense du Royaume de Jerusalem, pp. 5 - 19.
Le Crac des Chevaliers, pp. 43 - 44.

الشرق ما يفوق ما كان حادثاً في الغرب ، حيث لم تأخذ القلعة المشيدة من الحجارة في الظهور إلا وقتذاك . والمعروف ان الرومان درسوا الدفاع الحربي على انه علم ، وإذ أثار البيزنطيين ما كان لزاماً عليهم ان يواجهوه من غزوات اجنبية لا حصر لها ، عمدوا الى تطوير الدفاع الحربي بما يلائم حاجاتهم ، وتعلّم العرب من البيزنطيين . لكن لم تكن مشاكل البيزنطيين تشبه مشاكل الصليبيين ، اذ افترض البيزنطيون ان القوة الضاربة كانت دائماً في متناول ايديهم ، وبوسعهم ان يقيموا حاميات كبيرة . ولقوا عناء شديداً في ان يحسنوا الدفاع عن مدنهم ، فظلت أسوار القسطنطينية ، بعد ان مضى على تشييدها ألف سنة ، قادرة على ان تتحدى مدافع العثمانيين التي كانت تعتبر من المبتكرات ، وأثارت اسوار القسطنطينية إعجاب الصليبيين . على ان القلعة البيزنطية لم تزد على انها معسكر منيع الاستحكامات ، إذ جرى تصميمها لتواجه عدواً تقل اسلحته خطورة وعنفاً عن اسلحة البيزنطيين ، إذ ان العرب الذين يعتبرون اخطر منافس للبيزنطيين ، يقلون عنهم رقياً وتقدماً في ادوات الحصار . فأسوار القلعة لم تكن بالغة المتانة . وما قام من ابنية خارج الاستحكامات ، التي كانت ظاهرتها الاساسية على الأقل عبارة عن خندق بالغ الاتساع ، يمنع العدو من جلب الآلات المعروفة بالكبش التي تحطم الاسوار ، او السلالم المتحركة ليسندها الى الاسوار . أما الابراج فجرى تشييدها ، على ان تبرز قليلاً عن الاسوار ، وتقع على مسافات منتظمة على امتداد الاسوار ، لا للدفاع عن الاسوار في حد ذاتها ، بل لأنها تهيء للرماة من رجال الحامية من المجال الفسيح ما ينال خطوط الاعداء . أما البرج الواقع في وسط دائر القلعة ، فلم يجر إعداده لأن يكون المعقل الأخير للدفاع ، بل ليكون مستودعاً للأسلحة والمؤن . والواقع انه لم يكن المقصود من القلعة البيزنطية

اتخاذها داراً للإقامة ، باستثناء بعض القلاع الواقعة على طرف ارمينيا ، حيث اقام بارونات الاطراف شبه مستقلين . وليس قائد القلعة إلا جندياً محترفاً ، ترك زوجته وأولاده في موطنه . وأخيراً ، على الرغم من انه جرت الإفادة من وسائل الدفاع الطبيعية ، فإن تعذّر بلوغ مواقع القلعة لم يكن الاعتبار الاول عند تشييدها . إذ كانت القلعة تستخدم أساساً ، ثكنات للجند . فلم يكن من اليسير ارغام العساكر على ان يكابدوا تسلق الجبال والهبوط منها كل مرة يتحركون فيها[1] .

نزع العرب الى ان يتبعوا النماذج البيزنطية ، على الرغم من انهم يقلون عن البيزنطيين اهتماماً في مسائل الدفاع ، نظراً لما اتصفت به جيوشهم اساساً من التعبئة والميل الى المبادرة الى القتال[2] .

درس الصليبيون أثناء رحيلهم صوب الشرق كل ما صادفوه من العمارة الحربية ، وتعلموا قدراً كبيراً منها . غير ان حاجاتهم الجوهرية كانت مختلفة ، إذ انهم كانوا دائماً مفتقرين الى القوة الضاربة ، وليس بوسعهم ان ينفقوا على حاميات كبيرة . ولذا كان لا بدّ لقلاعهم ان تكون بالغة المتانة ، وأن يزداد الدفاع عنها يسراً . فينبغي اختيار موقعها لما اشتهر به من صفات دفاعية ، فكل منحدر ، وكل تل لا بدّ من انتزاع اكبر

---

(١) انظر : Deschamps, Le Crac, pp. 45 - 57.
Ebersolt, Monuments d'Architecture Byzantine, pp. 101 - 106.
Feddon, Crusaders Castles, pp. 22 - 26.

(٢) انظر : Deschamps, Le Crac, p. 51.
Feddon, op. cit. p. 26.

فائدة منه ، فكما انه قلّ الاستغناء عن الكشافة في حمل الرسائل ، كذلك ينبغي ان يكون كل معقل قادراً على ان يرقب العدو ثم يبعث بالإشارة الى جاره . وكان لا بـدّ للأسوار ان تكون أشد سمكاً وأكثر طولاً ، حتى تستطيع ان تقاوم ما تتعرّض له من هجوم مباشر ، إذ ان الدفاع عـن المباني الخارجية كان يشغل عدداً كبيراً من الرجال . وينبغي في الوقت نفسه الإفادة من القلعة بأن تكون مقراً لإقامة السيد ، ومركزاً لإدارته . إذ ان الفرنج نقلوا معهم وسائلهم الإقطاعية ، وحكموا أناساً اجانب . فكانت القلعة مقر الحكومة المحليـة . وينبغي ايضاً ان يكون دائرها من الاتساع ما يكفي لتوفير الحماية لقطعان الاغنام والماشية اثناء الغارات التي ألف العدو ان يشنها . والواقع ان ما قامت به القلعة عند الفرنج من دور يفوق في الأهمية ما قامت به عند البيزنطيين والعرب (١) .

القلاع في القرن الثاني عشر :

لم تزد القلعـة في الغرب على انهـا برج من نوع اكتمل تطوره على أيدي النرمان ، ولم يكن كافياً لحاجات الشرق الفرنجي ، إذ كان لزاماً على الصليبيين ان يكونوا روّاداً ، استعاروا من البيزنطيين افكاراً كثيرة ، فمنهم تعلموا استخدام المزاغل ، وأهمية مواضع الابراج على السور ، على

---

(١) انظر : Deschamps, Le Crac, pp. 89 - 103.

Smail, « Crusaders Castles of the Twelfth Century », in Cambridge Historical Journal, vol. X, 2.

يتضمن المقال مناقشة قيمة عن وظيفة القلعة .

الرغم من انهم لم يلبثوا ان ادخلوا عليها شيئاً من التحسين حينا اكتشفوا ان البرج المستدير يفوق البرج المستطيل الذي يؤثره البيزنطيون ، بما يهيؤه للرماة من مجال بالغ الاتساع . فالقلاع الصغيرة التي شيدها الصليبيون في اوائل القرن الثاني عشر امثال قلعة كوكب ، تمّ تشييدها وفقاً للتصميم المألوف عند البيزنطيين ، بما لها من سور يزداد او يقل استطالة ، قد ترصع بالأبراج ، وفي وسطه فضاء شغله البرج . على انه روعي في اختيار المواقع أن تؤدي الى الاستغناء عن المباني الخارجية كثيرة التفاصيل ، كما ان البناء بأسره كان بالغ المتانة . اما البناء البيزنطي فكان عادة متكتلاً ، ففي حصن صهيون ، أتمّ ما اشتهرت به بيزنطة من الخنادق الواسعة ما حدث من شق قناة ضيقة يبلغ عمقها تسعين قدماً في الصخرة الصلبة [1]. وأضاف الفرنج ايضاً ساتراً من الاسياخ الحديدية الذي لم يستخدم في الشرق منذ زمن الرومان ، والمدخل الواطي الذي اخذ العرب يؤثرونه ، على ان البيزنطيين قلّ ان استخدموه ، ولعل ذلك راجع الى انه يعوق ويعطل حركة الادوات الثقيلة التي يودعونها القلاع [2] .

---

(١) عن حصن كوكب وتصميمه ، انظر :

Deschamps, La Défense, p. 121.

وعن تصميم قلعة الروج ، انظر :

Deschamps, Le Crac, p. 57.

اما القلعتان التوأمتان الشغر وبكاس ، فجرى تدعيمها بخنادق صناعية ، مثلما حدث في صهيون . انظر : Deschamps, Le Crac, pp. 80 - 81.

(٢) انظر : Deschamps, « Les Entrées des Chateaux des Croisés », in Syria », vol. XIII.

ومن الطبيعي ان كانت القلاع الكبرى اكثر تعقيداً ، فحصن الكرك مثلاً لم يكن ليأوي فحسب سيده وأسرتـه ، بل وسع ايضاً العساكر والكتّاب اللازمين لإدارة الاقليم . وجرت العادة في هذا النوع من القلاع في القرن الثاني عشر ، بأن يقع البرج وما يتبعه من دور الاقامة في اقصى ركن بدائر القلعة ، وأن تزداد سهولة الدفاع عنه . أمـا الحجرات التي تتخذ مستودعاً والكنيسة ، فاحتلت عادة الفضاء بوسط الدائر ، على حين ان سائر الأبراج المقامة حول الدائر كانت من الاتساع ما يكفي لأن تحوي قاعات ثكنات العساكر والمكاتب . واختلف تصميم القلعة باختلاف الارض التي يجري البناء عليها ، والمنطقة التي تقع بهـا القلعة . فلا زال البرج صغيراً مستطيلاً ، على نمط البرج النرماني ، وليس له عادة إلا مدخل واحد . أما البناء فكان متماسكاً ساذجاً ، غير انه جرت بعض المحاولات لزخرفة دور الاقامة والكنيسة . ومع انه لم يبق ، لسوء الحظ ، شيء من زخارف القلاع في القرن الثاني عشر ، فإن القلاع التي ظلت مسيحية بعد زمن صلاح الدين جرت زخرفتها من جديد في القرن التـالي . وأدخل المسلمون تغييراً في القلاع المسيحية التي احتلوها ، وما تبقى أصابه الخراب (١) .

وكلما تقدم القرن الثـاني عشر ، حدثت بعض التغييرات في تصميمات القلاع . إذ اضحى من المنطق ، ان يشيد البرج المتوسط الذي يعتبر أمنع

---

(١) انظر : Deschamps, La Défense, pp. 80 - 93, 167 - 175.
اورد دي شاتز وصفاً تفصيلياً لتصميات قلعة الكرك في موآب وقلعة الصبيبة في بانياس ، انظر ايضاً اللوحات .

جانب في القلعة ، في اضعف قطاع بدائر القلعة ، وأضحى البرج عادة مدوّراً لا مستطيلا ، نظراً لأن السطح المدور كان بالغ الصلابة في مقاومة ما يتعرض له من قذف . وازداد عدد ما تزودت به القلاع من أبواب ، والأبواب الخلفية . ونزع حجم القلعة الى الضخامة ، ولا سيا حين شيّدت الطوائف الدينية العسكرية لهــا قلاعاً او آلت اليها قلاع من النبلاء العلمانيين ، ولم يكن للنساء مأوى في قلاع هذه الطوائف ، ومع انه يصح ان يكون لكبار الموظفين حجرات أنيقة ، فلم يقم بهـا نزيل إلا لغرض حربي . وتعتبر الحصون الضخمة ، مثل الكرك او عثليت مدناً عسكرية ، تستطيع ان تأوي عدة آلاف من المقاتلين والخدام اللازمين لهذا الجمع ، غير انه قلّ ان امتلأت عن آخرها . وعزز الاستحكامات عادة ما حدث من استخدام دائر مزدوج ، يتوسطه مركز واحد . فمـا حازه الاسبتارية من قلاع ضخمة أمثال حصن الاكراد والمرقب ، اشتهرت بدائرها المزدوج . واتخذ الداوية هذا النظام في صافيتا ، غير انه جرت القاعدة بأنهم يؤثرون الدائر الواحد ، فالتزمت قلاعهم الكبرى في القرن الثالث عشر النموذج المبكر ، على انه في كلتا الحالتين كانت أطول قطاعات الأسوار ، ترتفع مباشرة من البحر ، واجتاز شبه الجزيرة التي تصل عثليت بالبر ، دائر مزدوج معقّد . والتزمت قلعة الفرسان التيوتون في مونتفورت ايضاً بالدائر المفرد . ولم تكن فكرة الدائر المزدوج جديدة ، إذ ان الأسوار البرية للقسطنطينية تمّ تشييدها في القرن الخامس بدائر مزدوج ، وفي القرن الثامن أحاط الخليفة المنصور مدينته المدورة ببغداد بدائر مزدوج . على ان الاسبتارية يعتبرون اول من استخدموا الدائر المزدوج في قلعة مستقلة ،

على الرغم من انه يصح استعماله لقلعة كبيرة الحجم[1] .

أما التحسينات الاخرى التي جرت في القرن الثالث عشر ، فمنها الحرص الشديد على ان تكون واجهة الاسوار مصقولة حتى يتعذر على السلالم المتحركة ان تستقر عليها ، ومنها التوسع في استخدام سائر الأسياخ الحديدية والمزاغل اللازمة للرماة ، التي أضحت تتخذ عـــادة شكل منحرف الى اسفل ، واتخذت احياناً قاعدة على هيئة ركاب الفرس ، يضاف الى ذلك ازدياد التعقيد في ابواب الدخول . ففي الكرك ، نصادف طريقاً طويلاً مسقوفاً ، تسيطر عليه المزاغل في الاسوار الجانبية ، ثم ثلاثة اركان قائمة الزوايا ، وسائر داخلي من القضبان للباب ، وأربعة ابواب متفرقة . وجرت إقامة الابواب الخلفية في اركان خفية ليس متوقعاً إنشاؤها بها ، ويعتبر البيزنطيون اول من أدخل هذا التصميم[2] .

ضعف قوة القلاع الدفاعية :

هذه الحصون الضخمة ، بما اتصف به بناؤها من الصلابة ، وبما احتلته من مواقع رائعة على صخور شديدة الانحدار وقمم الجبال ، كانت فيما يبدو

---

(١) انظر : Rey, Architecture des Croisés, pp. 70 ff.
يبالغ راي في التفرقة بين طراز القلاع عند الداوية والاسبتارية .
Feddon, op. cit. pp. 28 - 29.
Deschamps, Le Crac, pp. 279 ff.
يشير دى شانز الى مراحل طراز القلعة وما طرأ عليها من تغييرات . انظر ايضاً :
Melvin, La Vie des Templiers, pp. 136 - 142.

(٢) انظر : Feddon, op. cit. pp. 29 - 30.

بعيدة المنال في أزمنة سابقة على اختراع البارود . إذ أن ارض القلعة جعلت استخدام السلالم امراً متعذراً ، كما انه لم يتيسر جلب ابراج الحصار للسيطرة على الاسوار ما لم يكن في خارجها ارض مستوية ، او لم يكن ثمة خندق . تعذر عادة على المحاصرين أن يعثروا على موضع يكون بالغ القرب من الأسوار فتنصب عليه المجانيق والمقاليع لقذف الصخور ، على ان النقب كان يعتبر اهم الاخطار الفنية ، إذ يحفر المهندسون نفقاً تحت الاسوار ، يسندونه كلما تقدموا بأعمدة من الخشب ، يشعلونها بالحشائش الجافة ، فتؤدي الى تداعي النفق وما يعلوه من البناء . غير أن النقب كان مستحيلاً ، اذا كانت القلعة كالكرك مشيدة على صخرة صلبة . فإذا هوت القلعة ، كان ذلك عادة لأسباب اخرى . وعلى الرغم مما توافر بالقلعة من مستودعات المؤن والصهاريج ، تعتبر المجاعة والعطش من الاخطار السائدة . أما الافتقار الى القوة الضاربة فليس له من معنى في معظم الاحوال سوى انه لم يتيسر صيانة وسائل الدفاع على الوجه السليم . فلم يكن بوسع الفرسان عادة ان يرسلوا جيشاً لإنقاذ القلعة ، وذلك الإدراك أثار التشاؤم عند رجال الحامية . ففي غمرة انتصارات صلاح الدين المتوالية ، لم تقاوم قلعة صهيون الضخمة ، المعروفة بأنها امتن القلاع في زمنها ، المسلمين إلا لمدة ثلاثة ايام[١] .

على أن اهمية القلاع الصليبية ترتبط بمجال التاريخ الحربي ، لا تاريخ

---

(١) انظر : Oman, History of the Art of War in the Middle Ages, II, pp. 29 ff.
Feddon, op. cit. pp. 34 - 40.

الجمال . لقد نقل الصليبيون العائدون الى اوربا معهم الأفكار التي سبق ان لقيت تفسيراً لها هناك . فما كان لرتشرد قلب الاسد من قلاع ، مثل قلعة جايّارد ، دلّ على انه ادخل هذه الافكار الى العالم الغربي ، غير أن للقلاع في الشرق قيمتها الجمالية . فما حوته من كنائس تعتبر من اروع نماذج فن عمارة الكنائس في الشرق الفرنجي ، إذ أن قاعاتها الكبيرة التي تعتبر اجملها تلك التي في حصن الكرك ، يصح مقارنتها بالقاعات القوطية المبكرة في غرب اوربا . اما حجرات الاقامة التي لا زالت باقية لتعرض علينا بعض الافكار عن قصور النبلاء في الشرق الفرنجي ، فإنها تدل على الجمال والذوق . فالحجرة التي تخص المقدم في حصن الكرك والتي تقع الى الجنوب الغربي بأعلى البرج الواقع في الدائر الداخلي بسقفها المعقود البارز، وبأعمدتها المربعة النحيلة ، وبشريطها الزخرفي البسيط الدقيق النحت المؤلف من خمس من اوراق الزهور ، تفوق في الروعة معظم حجرات الحصون الكبيرة ، على انه لا بدّ ان كان في قلاع وقصور الاغنياء بالمدن ما يضارعها ، وتنتمي الى طراز العمارة القوطية بشمال فرنسا في القرن الثالث عشر ، على حين ان ما بالقاعة الكبيرة من زخرفة منحوتة في الحجر تعتبر وثيقة الصلة بما في كنيسة القديس نقولا المعاصرة بريمس من أعمال البناء (١).

تعتبر القلاع اساساً من اعمال المهندسين . اما الكنائس فالمقصود ان تكون اعمالاً فنية . فحينما وصل الصليبيون الى الشرق ، صادفوا به تقليداً قديماً للبناء يناسب البلاد ، إذ كان الخشب من المواد النادرة وكل ما نتج من

---

(١) انظر : Deschamps, Le Crac, pp. 197 - 224.
Enlart, Les Monuments des Croisés, II, pp. 96 - 99.

الغابات من خشب ، جرى استخدامه في بناء السفن وفي الاسلحة ، فكان لزاماً على المهندسين أن يستغنوا عن عروق الخشب ، فاستخدموا الحجارة في بناء السقوف التي كانت عادة مسطحة كيما تتخذ شرفة في نسيم الاصيل. وجرى استخدام العقود عـادة لتسند السقف ، فالعقد المدبب المعروف بقدرته على تحمل الضغوط الثقيلة اضحى فعلاً شائعاً . على ان طراز البناء السوري الوطني كان الطراز البيزنطي العربي ، الذي اكتمـل تطوره زمن الخلفـاء الأمويين ، غير انه تأثر بمـا حدث من التطورات المتأخرة زمن العباسيين ، وبفن العمارة الفاطمي ومـا ارتبط بـه من مؤثرات من شمال افريقية . شهـد البنّاء السوري البيزنطيين اثنـاء عملهم في الاماكن المقـدسة وفي انطاكية ، وقدم في أعـداد كبيرة الأرمن الذين اشتهروا ببراعتهم المهنية ، بطرزهم وأنماطهم .

وأول ما شيّده الصليبيون من كنائس في الشرق ، كانت كنيسة القديس بولص في طرسوس الذي تمّ الفراغ من بنائها قبل سنة ١١٠٢ ، ولم تكن سوى بناء خشن غليظ ، على نمط الكنائس الرومانسكية بشمال فرنسا ، غير ان عقودها كانت مدببة . وكانت هذه الكنيسة على شكل مستطيل ، بهـا جناحان ، ثم البنـاء الرئيسي للكنيسة ، اصطفت بـه الأعمدة والساريات على التبادل . وجاءت الأعمدة من بناء عتيق ، وليست تيجان الأعمدة سوى كتل حجرية ساذجة ، هذبت زواياها على هيئـة مثلثات ، وهـذه الصورة من الزخرفة كانت معروفة في بلاد الراين ، وفي ارمينيا ايضاً ، ولعل الصنّاع الأرمن هم الذين اجروها في كنيسة طرسوس . على

ان هذه الكنيسة في هيئتها الساذجة هيأت الذوق الفني لما حدث من تطور بفن العمارة الصليبي فيما بعد[1] .

عمارة الأماكن المقدسة :

لم يكد النزلاء الفرنج يطمئنون في مستقرهم ، حتى جعلوا أول اهتمامهم موجهاً الى اصلاح الاماكن المقدسة ثم تزويد مدنهم الرئيسية بما يناسبها من الكنائس . على ان اقدس المشاهد الدينية ، وهي كنيسة المهد في بيت لحم ، التي شيّدها قنسطنطين ، وأعاد عمارتها جستنيان ، ظلت في حالة سليمة . وكل ما اضافه اليها الصليبيون من العمارة ، يتمثل في بناء دير ساذج على النمط القوطي ، الراجح أنه شيّد حوالي سنة ١٢٤٠ ، وفي المدخلين الشمالي والجنوبي المؤديين الى باب المغارة ، اللذين جرى بناؤهما حوالي سنة ١١٨٠ على النمط الرومانسكي المتأخر ، بعقد مدبب ، وحلية نباتية على تيجان الاعمدة ، والراجح أنها صناعة سورية . وأقام الصليبيون ايضاً عمائر ديرية حول الكنيسة ، ولكن لم يبق منها شيء[2] . أما كنيسة القيامة في بيت المقدس ، التي تعتبر اعظم الكنائس تبجيلاً وقداسة ، فإنها فيما يبدو لم تستكمل ما تقتضيه الحاجات . إذ حدث بعد تدمير كنيسة القيامة على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، أن اعاد البيزنطيون عمارة القبة التي تحيط بالقبر ذاته ، غير انهم قاموا بجعل الطرف الشرقي للقبة مسطحاً ، وشيدوا في هذا الموضع ثلاثة محاريب . واتصلت بيعة القديسة

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 378 - 379.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. II. pp. 66 - 68.

ماريا بالقبة ، وقامت كنائس القديس يوحنا ، والتثليث والقديس يعقوب الى الجنوب منها . وجرى بناء كنيسة الجلجلة من جديد على انها كنيسة مستقلة ، مثلما كانت كنيسة القديسة هيلينا بمغارة الصليب ، وازدانت المباني بالزخارف الفنية من المرمر والفسيفساء ، وقرر الصليبيون أن يجعلوا كل المباني تحت سقف واحد . والواضح أن البناء الرئيسي جرى تشييده بعد الزلزال الذي وقع سنة ١١١٤ ، وقبل سنة ١١٣٠ ، على الرغم من ان بعض اجزاء البناء لم تكن قد انجزت زمن وفاة الملك بلدوين الثاني سنة ١١٣١ ، ولم يدشن كل البناء الجديد إلا في ١٥ يوليه سنة ١١٤٩ ، وهو التاريخ الذي يوافق العيد الخمسيني للاستيلاء على المدينة (بيت المقدس) ، وتمت إضافة برج النواقيس الى البناء حوالي سنة ١١٧٥ .

وكان لا مفر ان يتأثر رسم البناء الجديد بالموقع الذي كان يحده من جهة الجنوب صخرة الجلجلة ، ومن جهة الشرق بالمنحدر المؤدي الى كنيسة القديسة هيلينا ، التي تنخفض عن القبة عدة أقدام . ولذا هدم الصليبيون الجدار الشرقي للقبة البيزنطية ، فدمروا ما به من محاريب معقودة ، وأحلوا مكان المحراب المتوسط ، عقداً ضخماً يؤدي الى كنيسة جديدة . وتألفت هذه الكنيسة من مكان المرتلين تعلوه قبة مقامة على أعمدة قرب الطرف الغربي ، ويحيط به جناح ورواق ، وينحني طرفه الشرقي ، وبه ثلاثة محاريب معقردة ، ويقع بين المحراب المتوسط والمحراب الجنوبي درج يهبط الى كنيسة القديسة هيلينا . ويقع الجناح الجنوبي إزاء كنيسة الجلجلة ، التي جرت إعادة بنائهـا ، مع الإبقـاء على الفسيفساء البيزنطية وأعمدة المدخل . وفيما بين كنيسة الجلجلة ، وما يقع الى الغرب منها من القبة (الروتوندا) ، وكنيسة القديس يوحنا ، تمّ تشييد ردهة حوت جرن

الرسامة ، وقبري جودفري وبلدوين الاول ، ويؤدي طريق من ردهة مدخل الكنيسة ، وهو المدخل الرئيسي الحالي ، الى فناء . وعلى امتداد الجناح الشمالي ، جناح خارجي ، شيد معظمه البيزنطيون ، ويُفضي الى فناء آخر ، يخرج منه دهليز يجتاز كنيسة القديسة مريم ، ويؤدي الى شارع البطريرك ، وأحاط فناء ثالث بكنيسة القديسة هيلينا ، وأحدقت به المباني الجديدة التي قامت لإيواء مقدمي الأديرة الأجسطينية ، الذين أضحوا يتولون امر الكنيسة .

الكنائس في بيت المقدس :

وما تبقى من عمارة الصليبيين بعد استباحة بيت المقدس على أيدي الخوارزمية سنة ١٢٤٤ ، وتوالي الازمنة ، وبعد ما تعرضت له من كارثة حريق سنة ١٨٠٨ ، يـدل على صلتها الوثيقة بالكنائس الكبيرة للحج الكلوني ، ولا سيما كنيسة القديس سرمين في تولوز ، التي دشنها البابا اربان الثاني عقب مجمع كليرمونت مباشرة . ولم يكن الرواق إلا تذكاراً لأروقة كنيستي كلوني ذاتها والقديس سرمين ، وكل ما حدث من اختلاف لا يتجاوز النسب والأبعاد . وحرص مهندسو كنيسة القيامة على ان تكون الاعمدة من القصر والمتانة ما تتسق مع اعمدة القبة البيرنطية ، التي كان تصميمها يقضي فيما يبدو بقدرتها على مقاومة هزات الزلازل ، وما بها من تفاصيل زخرفية ، باستثناء ما تبقى من الفسيفساء وتيجان الاعمدة البيزنطية ، يصح مقارنتها بما في كثير من الكنائس بجنوب فرنسا ، وجنوبها الغربي ، فالرسوم المنحوتة على الابواب او المنافذ ولا سيما التي تمثل الاشخاص ، تكاد تكون بأجمعها فيما يبدو من أعمال مدرسة تولوز ، على الرغم من انه جرى نحتها محلياً على وجه الترجيح . ويبدو بصفة عامة ان المهندسين والرسامين الذين

أقاموا هذا الأثر كانوا من الفرنسيين ، والراجح انهم كانوا من جنوب غربي فرنسا ، نشأوا على التقليد الكلوني . والمعروف ان المهندس الذي شيد برج الأجراس كان اسمه جوردان وهو اسم جرت العـادة باطلاقه على مَن يتنصرون في النهر المقدس (الاردن) ، والراجح انه ولد بفلسطين(١) .

وتعتبر كنيسة القيامة المشهد الوحيد العتيق الذي أدخل فيه الصليبيون تغييرات كبيرة . إذ اصلحوا عدة كنائس صغيرة مثل كنيسة الصعود على جبل الزيتون ، وقـبر العذراء في جتسماني . ولم يضيفوا الى قبة الصخرة بعـد ان تحولت كنيسة للداوية إلا بعض زخارف من المرمر ، والحديد ، ولم يتعرضوا ايضاً للمسجد الاقصى ، على الرغم من انهم اجروا في اساساته من التعديل ما يجعل منه اصطبلات ومخازن ، وأقاموا حول المسجد مباني لايواء رجال طائفة الداوية ، بينما اضيف جناح في الجهة الجنوبية الغربية ، صار المقر الاثير لملوك بيت المقدس . وما عثروا عليه في معظم المدن التي حلوا بها من الكنائس التي بلغت من الخراب ما لا يفيد فيها الإصلاح او غيره ، تركوها في ايدي ارباب المذاهب الاصلية الذين كانت فعلاً في ايديهم . ومع انهم حازوا بعض الاديرة القديمة ، فإنهم في الجملة آثروا ان يشيدوا لأنفسهم عمائر . فتارة استخدموا المواقع والأساسات السابقة مثلما حدث في باسيليكا جبل صهيون ، وتارة لم يحدثوا إلا تغييراً طفيفاً في اتجاه الموقع القديم مثلما جرى في كنيسة جتسماني . على انهم في اكثر الاحيان

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 144 - 180.
Duckworth, The Church of the Holy Sepulchre, pp. 203 - 258.
Harvey, Church of the Holy Sepulchre, pp. IX - X.

اختاروا المواقع بأنفسهم ، او اعادوا بنـاء الكنائس بأكملها على المواقع التقليدية [1] .

وفيا عدا كنائس الداوية التي اتخذت شكلاً مستديراً ، كان المستطيل هو الرسم الذي لا يتغير لكنيسة صغيرة ، ويقع في طرفها الشرقي محراب معقود يدخل احياناً في الجدار الخارجي . امتاز البناء بالصلابة والمتانة ، إذ كان عقداً واحداً مدبباً ، تقاطع فوقـــه ذراعا صليب ، يستند اليها سقف مسطح مشيد من الحجارة . هذا النوع من الكنائس جرى تشييده في كل قلعة ، حتى في تلك الحصون المعزولة كالتي تقع على تلال الوعيرة قرب خرائب البتراء القديمة [2] .

أما الكنائس التي تزيد ضخامة ، فإنها كانت ايضاً مستطيلة الشكل ، ذات اجنحة جانبية على امتداد طول البناء ، ويفصلها عن صحن الكنيسة اعمدة او سواريات حجرية ، وبالكنيسة عادة ثلاثة محاريب تختفي عن خارجها في كثافـــة الجدار . على انـــه كان للكاتدرائية الكبيرة في صور ،

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 207 - 211, 214 - 221, 233 - 236, 243 - 245, 247 - 249.

(٢) لم يبق من الكنيسة في الوعيرة سوى المحراب ، كما لم يتبق إلا اثر ضئيل لزخارف الطلاء ، وليس ثمة شيء سواها من علامات الزخرفة . وما جرى استخدامه في بنائها من حجارة لأصغر فيما يبدو من تلك التي كانت مستخدمة في مباني الصليبيين . ويبدو انه كان بها مدخل صغير ، وكذا قبو تحت الارض . اما كنيسة الكرك فكانت اكبر حجماً ، بها اربع نوافذ . ومع انه يقال بأنه كان بها زخارف جصية ، فإنه لم يبق منها الآن شيء . ولم تكن كنيسة الداوية في عثليت مستديرة ، انما كانت ذات اثني عشر ضلعاً ، وتنتمي الى القرن الثالث عشر .

ولكنيسة او لكنيستين اخريين اجنحة قصيرة متعامدة مع صحن الكنيسة ، واستند السقف على ذراعي الصليب ، غير انه لم تكن لها اهمية معمارية . وفي كاثدرائية انطرطوس تمّ تشييد حجرة الثياب الكهنوتية ، ومذبح التقدمة في الزاويتين بالجنوب الشرقي والشمال الشرقي . ولبعض الكنائس امثال كنيسة القديسة حنه في بيت المقدس ، وكذا كاثدرائية قيسارية ، قباب منصوبة على اعمدة تطل على الفضاء الذي يقع امام حرم الكنيسة ، ولكن السقف كان عادة مستوياً او مدوراً . أما الاجنحة الجانبية فكانت سقوفها دون اختلاف ، عقوداً من اقبية متلاقية ، ولصحن الكنيسة اما عقد من الاقبية المتلاقية ، او عقد طويل مدبب . فإذا كانت الاجنحة تقل في ارتفاعها عن سائر الكنيسة ، جرى فتح مناور في جدار الكنيسة الذي يرتفع عن الجناح كيما تجعل الضوء يصل الى صحن الكنيسة . واشتهرت النوافذ ، حتى تلك التي تقع في الطرف الشرقي ، بأنها صغيرة ، كيما تحجب ما اشتهرت بـه شمس سوريا من ضوء شديد . وكانت كل العقود مدببة ، فيما عد حالات استثنائية قليلة . كما ان تشييد الابراج كان امراً نادراً . إذ كان لكنيسة الدير على جبل الطور برجان ، يقع كل منهما على جانب المدخل الغربي ، وحوى كل منهما بيعة ذات محراب صغير على مستوى سطح الارض . وحدث في بعض الاحوال ان التصق برج النواقيس بالكنيسة ولكن ليس على انه جزء مستقل بذاته (١) .

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. passim.

استند رنسيمان الى درايته الشخصية بالمباني .

زخارف الكنيسة :

غلبت البساطة على زخرفة القرن الثاني عشر ، إذ جرى عادة استخدام الأعمدة المأخوذة من المباني القديمة ، فاختلفت تيجان الاعمدة . فبعضها كان عتيقاً ، وبعضها جرت محاكاته على النمطين البيزنطي والعربي من التيجان الكورنثية التي تشابكت فيها الاضلاع ، والتي شيدها بناءون وطنيون او الفرنج الذين راعوا التصميات المحلية ، وبعضها اتخـذ الطراز الرومانسكي المعروف بالغرب [١] .

وكان لبعض الكنائس ، مثل كنيسة قرية العنب ، زخارف جصية على الطراز البيزنطي [٢] ، كما ان الفسيفساء كانت بكنيسة صهيون بالغرفة التي تناول فيها المسيح الفصح مع تلاميذه (العلية) وفي بيعة الرقاد (Dormition) [٣]. ونجوز ان الفنانين البيزنطيين أجروا بهذه الكنائس من العمارة ما أجروه فعلاً في كنيسة المهد في بيت لحم ، وقد بعث الامبراطور مانويل [٤] بهم

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 70 - 73.

(٢) انظر ما يلي ص ٣٨١ .

(٣) شاهد دانيال هيجومين الفسيفساء ، في السينا كل في سنة ١١٠٦ . انظر :
(Daniel the Higumene, in Khitrowo, Itineraires Russes, p. 36).
ويصف يوحنا فورتزبرج ، حوالي سنة ١١٦٠ ، الصور الفسيفسائية للرسل بها ، وما ارتبط بها من نقش باللغة اللاتينية يصف حلول الروح القدس ، فضلاً عن الفسيفساء في كنيسة الرقاد ذاتها ، مع نقش مكتوب باللغة اللاتينية ، غير انه استخدم المصطلحات اليونانية . انظر يوحنا فورتزبرج (P. P. T. S. pp. 42 - 43) .

(٤) انظر ما يلي ص ٦٤٦ .

وبما يلزمهم من مواد. على ان زخارف الصور كانت نادرة، فما كان حول العقود من زخارف منحوتة كانت عادة على هيئة شريط متعرج، او نجمة مكررة، مدببة الزوايا الاربع، ولم يبقَ من الاشكال المنحوتة إلا عدد ضئيل. اما سنوح العقود (Voussoirs) فكانت عادة موسّدة. ومن الزخارف ما اتخذ مجردشكل وردة [١].

على ان ما كان لكنائس القرن الثاني عشر من تأثير عام، اتسم في بعض الاحوال بالثقل والكثافة بالقياس الى البناء المعاصر في الغرب، ويرجع هذا الى ضرورة تجنب استخدام الخشب، والاحتراز من وقوع الزلازل؛ على ان النتيجة انها كانت عادة دقيقة في أبعادها. ولا شك ان الصليبيين صحبوا معهم مهندسيهم، الذين تشبعوا بالاشكال المعروفة في فرنسا ولا سيما في بروفانس وتولوز، على انه من الجلي انهم التمسوا النصيحة من البنائين المحليين. فما أقاموه من عقود مدببة إنما تعلموها في الشرق، إذ ان الامثلة الاولى المعروفة منها في الغرب، هي التي قامت في الكنيستين اللتين أمرت بتشييدهما حوالي سنة ١١١٥ إيدا كونتيسة اللورين ووالدة اول ملكين لبيت المقدس (جودفري وبلدوين الاول) من الفرنج. إذ ان ابنها الاكبر يوستاس بولونيا، كان قد عاد حديثاً من فلسطين. ومن العسير ألّا نعتقد ان المهندسين العائدين أشاعوا التصميم الجديد في الغرب، حيث جرى تطويره كيما يناسب الحاجات المعمارية المحلية [٢].

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 93 ff.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 3 - 4, 67 - 68.

فما كان في كنيستي ايدا في واست، وسانت فلمر في بولونيا، من الزخارف، تعيد الى الخاطر=

من المستحيل وضع قواعد عامة عن اصول تفاصيل مختلف فنون العمارة والزخرفة . فقبة كنيسة القديسة حنه في بيت المقدس شديدة الشبه بما شيده المهندسون الفرنسيون من قباب في بريجورد . على ان نفس نمط هــذه القبة المقامة على أعمدة دون ان تستند الى رقبة يصح العثور عليه في الشرق [1] . وبلغ التشابه بين النحت الرومانسكي والنحت البيزنطي والارمني ، انه يتعذر التفرقة بينهما . والراجح ان الصور المنحوتة ، وتيجان الاعمدة بالغة الغرابة ، كانت من صناعة الفنانين الفرنج ، أما التصميمات التقليدية لزخارف اوراق النباتات الشوكية او اوراق الكروم ، فإنه جرى استنباطها محلياً . ويبدو ان طراز الأشرطة المتعرجه في تيجان الاعمدة امتد من الجنوب صوب الشمال ، حتى في اوربا ، أما تيجان الاعمدة التي على هيئة ناب الكلب فكان طرازها معروفاً فعلاً في الشرق . ويظهر ، مثلما يظهر سنوح الاعمدة الموسّدة ، على مدخل القاهرة الكبير ، المعروف باسم باب الفتوح زمن الفاطميين ، الذي شيده مهندسون من الارمن قدموا

= في جلاء العمارة العربية . فالعقود المدببة كانت مستخدمة حوالي ذلك التاريخ في كلوني . وما قام به المهندسون الارمن من دور في ذيوع العقود المدببة يقتضي التفكير . انظر :

Baltrusaitis, Le Problème de l'Ogive d'Armenie, pp. 45 ff. esp. pp. 68 - 76.

Clapham, Romanesque Architecture, pp. 107 - 112.

أشار كلابهام الى جهود الارمن في فن العمارة في الشرق الفرنجي .

(١) انظر : Clapham, loc. cit.

لم يكن لقبة كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية هذه الرقبة ، وهذا الطراز كان نادراً في العمارة الفارسية .

من الرها ، وهي المدينة التي يعتبر البيزنطيون منذ بضع عشرات السنوات مسئولين عن كثير من المنشآت الحديثة بها [1] .

القسيفساء والجصيات :

تدل النماذج الباقية من الفنون التصويرية على ان التأثير البيزنطي كان من بالغ القوة ما يدعو الى الارتياب فيما اذا كان الفنان الفرنجي مارس عمله في الشرق . فمن المحقق ان الفسيفساء في بيت لحم وضع تصميمها وأجراها فنانان من القسطنطينية ، اسماهما باسيل وإفرايم ، على الرغم من انهما عملا متعاونين مع السلطات اللاتينية المحلية ، إذ أن القديسين الغربيين والشرقيين كانوا سواء ، إذ جرى الحرص على تصويرهم ، كما ان النقوش وردت باللغتين اللاتينية واليونانية . والراجح أن صورة المسيح بالفسيفساء في كنيسة اللاتين بالمكان المعروف بالجلجلة كان من صناعتها [2] . اما الصور

---

(١) انظر : Clapham, op. cit. pp. 110, 112 - 113.

لم يؤد كلايهام قبول المقارنات الارمنية الوثيقة الصلة بالعمائر ، نظراً لما ساوره من الشكوك حول تحديد التاريخ . غير ان زخرفة الكنائس في ارمينية الكبرى يصح تحديد تاريخها في شيء من الدقة . انظر :

Der Nersessian, Armenia and the Byzantine Empire, pp. 84 - 109.

يبين صعوبة تتبع اصول الانماط الزخرفية .

(٢) انظر : Church of the Nativity at Bethlehem, (ed. Schultz), pp. 31 - 37, 65 - 66.

(حسب وصف يوحنا فوقاس) .

Enlart, op. cit. I, p. 159.

II, pp. 65 - 66.

Dalton, Byzantine Art and Archaeology, pp. 414 - 415.

الجصية بقرية العنب ، والتي تعرضت للدمار في سرعة فإنها بيزنطية في نمطها ، ومع أن اختيار الموضوعات ينم عن الصفة الشرقية ، فإن النقوش كانت لاتينية (١) . ومن المحقق ان فنانين يونانيين مارسوا عملهم في فلسطين حوالي سنة ١١٧٠ في رعاية الامبراطور مانويل ، وكانوا مسئولين عن الصور الجصية في ديري قلمون والقديس يوثيميوس الارثوذكسيين . ولا شك ان رجال الدين اللاتين بقرية العنب شغلوا انفسهم بزخرفة كنيستهم (٢) . اما الكنيسة الصغيرة في اميون التي لا تبعد كثيراً عن طرابلس ، فإن عمارتها دعت الى اعتبارها من الآثار الصليبية ، غير أن تطويبها للقديس فوقاس اليوناني ، ونقوشها اليونانية ، وصورها الجصية البيزنطية ، كل ذلك يدل على انها كانت دائماً مشهداً ارثوذكسياً . وتبيّن صعوبة التفرقة القاطعة بين الطرازين المحلي والفرنجي (٣) . وأفادت كنائس فرنجية عديدة من المنح التي حصل عليها كبار رجالها من الامبراطور البيزنطي بالقسطنطينية . وينهي الينا رئيس الاساقفة العظيم وليم الصوري أن الامبراطور مانويل غمره بالهدايا القيمة لكاتدرائيته (٤) . كما أن جشة اشارد اسقف الناصرة

= انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٦٣٢ — ٦٣٣ ، حاشية ١ .

على ان صورة المسيح بالفسيفساء ، نقلها من عقد الكنيسة اللاتينية بالجلجلة هارفي وجعلها اول صورة في كتابه ، ولم يكتب عنها إلا النزر اليسير ، ولعلها صناعة بيزنطية ترجع الى القرن السابق .

(١) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 323 - 324.

(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٦٣٣ ، حاشية ١ .

(٣) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 35 - 37.

(٤) انظر : William of Tyre. XXII, 4, p. 1068.

الذي قـام بزيارة القسطنطينية لاجراء مفاوضات عن زواج الملك بلدوين الثالث ، ثم مات بها ، عادت مثقلة بالهدايا (١) . ظل الاتصال مستمراً بين الشرق الفرنجي وبيزنطة طوال القرن الثاني عشر ، ولا سيا زمن الامبراطور مانويل ، ولا بدّ ان كان لبيزنطة تأثير فني قوي ، استمر الى القرن التالي . فما اورده ويلبراند اولدينبورج من وصف لقصر اسرة ابلين في بيروت ، عما حفل به من الفسيفساء والرخام ، يوحي بالصناعة البيزنطية ، والمعروف ان يوحنا ابلين الكبير سيد بيروت كان ابناً لأميرة بيزنطية (٢) .

على ان القصر ببيروت يعتبر من قبيل الاستثناء ، إذ ان فن العمارة في الشرق الفرنجي كان اكثر التزاماً في القرن الثالث عشر بالتقاليد الفرنسية عمـا كان في القرن الثاني عشر . وإذ اقتصرت بلاد الفرنج على المدن الساحلية ، لم يكن للصناع الوطنيين والتقاليد المحلية فيما يبدو سوى دور صغير . وتعتبر كاتدرائية البشارة في الناصرة ، آخر مـا تمّ تشييده من الكنائس الهـامة قبل فتوح صلاح الدين . وتحطم البناء على يد بيبرس ، غير ان مـا تبقى من الصورة المنحوتة المشهورة ، تعتبر فرنسية خالصة . على ان البـاب الخارجي الكبير ، وتحمل معظم الابواب حلية وزخرفة ، كان فيما يبـدو شديد الشبه بأبواب كاتدرائيات فرنسية كثيرة في ذلك العصر ، وكان كل البناء على وجه التحديد أقرب الى الطراز الفرنسي منه

---

(١) انظر : Ibid, XVIII, 22, p. 857.

(٢) انظر : Wilbrand of Oldenburg in Laurent, Peregrinatores Medii Aevi Quattuor, pp. 166 ff.

انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٠٧ .

الى الطراز المحلي السابق [1] . امـا أهم كنيسة شُيّدت في القرن الثالث عشر ، وهي كنيسة القديس اندرياس في عكا ، فكانت عبارة عن بنـــاء قوطي جميل مرتفع ، ولا زال باقيـاً منه بعض الآثار ، غير ان أوصاف ورسوم الرحالة المتقدمين تؤكد جميعها ما كانت عليه الكنيسة من ارتفاع . فاشتهرت أجنحتها الجانبية بالارتفاع ، وبأن الضوء ينفـذ اليها من نوافذ مرتفعة ضيقة حادة التدبيب ، ويجري تحت النوافذ حول الجدران الخارجية بهو من العقود الدقيقة . وليس بوسعنا ان نشير كيف تجري إضاءة صحن الكنيسة او الطرف الشرقي منها . غير انه يقع بأعلى الباب الغربي ثلاث مناور كبيرة ، ومن فوقها ثلاثة مناور صغيرة مستديرة . وكل ما تبقى الآن من الكنيسة هو شرفة المدخل ، التي جرى نقلهـا من الطرف الغربي فيما يبدو على ظهور الإبل الى القاهرة بعـد الاستيلاء على عكا ، وتمّ تركيبها لتكون مدخلاً الى الجـــامع الذي تمّ تشييده تخليداً لذكرى السلطان الأشرف الذي فتح عكا . وامتازت أبعادها بالارتفاع والدقـة ، إذ كانت عبارة عن ثلاثة اكتاف مربعة نحيـــلة بينها عمودان مربعان اكثر دقة وكلها تحمل منحنى قوسي العقد من كل جانب ، ويتسق المنحنى مع الاكتاف المربعة . وفي فضاء العقد ، عقـد على هيئة اوراق نبات البرسيم ، تخترقه مناور صغيرة مستديرة . وليس الطراز سوى الطراز القوطي المبكر المعروف في جنوب فرنسا [2] .

ويدل مبنى حصن الاكراد الذي يرجع الى القرن الثالث عشر على

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. pp. 298 - 310.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. II, pp. 15 - 23.

نفس الذوق والميل الى الارتفاع الشديد . إذ ان حجرة مقدم الحصن المكشوفة للهواء ، وقاعة المآدب الكبيرة تعتبران غريبتين في الروح . وكان لقاعة المآدب شرفة تحاكي في أبعادها شرفة كنيسة القديس اندرياس في عكا ، على الرغم من ان أكتافها تقل عنها دقة وجمالاً ، غير انه كان بوسط عقدها نافذة من خشب الورد ، دقيقة الصنع ، بينما كان بشرفة مدخل كنيسة القديس اندرياس منور صغير مستدير[١] .

ومن سوء الحظ انه لم يبق إلا عدد ضئيل من آثار القرن الثالث عشر ، على انه في الجملة أخـذ طراز الشرق الفرنجي يقترب من الطراز القوطي الفرنسي في جزيرة قبرص الخاضعة لحكم أسرة لوزجنان ، وابتعد عن الطراز الذي نشأ في موطنه ألاصلي في القرن السابق . وما تبقى من أثر في الناصرة يوحي ان الفن الصليبي حافظ على الاتصال بحركة الفن القوطي في الغرب . على ان فتوح صلاح الدين أغوت عـدداً كبيراً من الصناع الوطنيين على ان يجربوا حظهم عند المسلمين ، كما ان انهيار بيزنطة في أوائل القرن التالي لا بـد انه اضعف التأثير البيزنطي ، ونقلت الحملة الصليبية الثالثة معها الى الشرق عـدداً كبيراً من الفنانين الغربيين . وما وقع في نفس الوقت من العـداء بين الكنيستين اللاتينية والارثوذكسية ، دعا فيما يبدو الى ازدياد حدة التفرقة بين طرازيهما .

كتاب المزامير والملكة ميليسند :

لم يبقَ إلا مخطوطة واحدة مزينة بالصور ترجع الى القرن الثاني عشر ،

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 134 - 137.

والمعروف انهـا جاءت من الشرق الفرنجي ، وهذه المخطوطة هي كتاب المزامير المعروف بأنه كتاب الملكة ميليسند . ومن المحقق انه قد حازته امرأة ، وإذ أشار الى وفاة بلدوين الثاني والملكة سورفيا ، ولم يذكر وفاة الملك فولك ، جرى الافتراض انه تملكته ميليسند ، وأنه تمت كتابته قبل وفاة الملك فولك . ومع ذلك فإنه يجوز ايضاً انه كتب لأخت ميليسند ، وهي يوفيتا رئيسة دير بيتاني ، وفي تلك الحالة ، إذا لم يكن للإشارة عن فولك صلة من الصلات ، يصح جعل تاريخه في أية سنة من حياة يوفيتا ، أي حوالي سنة ١١٨٠ . وكتب المتن ناسخ لاتيني بارع ، على ان عنوانات القطع المزخرفة تغلب عليها الصفة اللاتينية لا البيزنطية ، بينما كانت الرسوم التي تملأ الورقة بيزنطية ، على النمط السائد في الاقاليم الشرقية للأمبراطورية . وظهر توقيع المصور واسمه باسيل ، والراجح انه نفس باسيل الذي كان مسؤولاً عن اعمال الفسيفساء في بيت لحم في سنة ١١٦٩ . وتحاكى الصور من بعض الوجوه كتاب دروس الكنيسة اليومية (التلاوات) في سوريا، الذي زينه يوسف الملطي زمن الاسقف يوحنا ، الذي ليس إلا الاسقف الذي تولى كنيسة ملطية من سنة ١١٩٣ الى سنة ١٢٢٠ . والراجح ايضاً ان الفنان الذي زين كتاب ميليسند عـن المزامير كان سوريا ، تدرّب في مدرسة بيزنطية ، والراجح ان الكتاب جرى نسخه ليوفيتا رئيسة الدير حوالي خاتمه حياتها الطويلة (١) .

---

(١) انظر : Boase, « The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem », in Journal of the Warburg Institue, vol. II, pp. 14 - 15.

Dalton, Byzantine Art and Archaeology, pp. 471 - 473.

ومن المخطوطات مجموعة طريفة تعتبر عادة من اعمال الصقليين ، والتي اثبت البحث الحديث على انها كتبت في عكا حوالي زمن مكوث القديس لويس بها ، من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٢٥٤ . والملحوظ انها بيزنطية في نمطها . وقد سبق للقديس لويس ان عقد صفقات كثيرة مع الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني بالقسطنطينية ، وقـــد يكون من بين التحف التي حازها ، المخطوطات التي جرى انفاذها اليه في عكا ، والتي استوحاها الفنانون الذين يعملون بها . ومن المستحيل ان نقول مـا اذا كانت المدرسة ظلت باقية بعد عودة الملك لويس الى فرنسا [١] .

الفنون الصغرى :

لم يحتفظ من الفنون الصغرى إلا النزر القليل ، ومن المستحيل ان نذكر ما كان مصنوعاً منها محلياً او مستورداً من الشرق او من الغرب . ولا شك ان الأثاث والاشياء التي يجري استخدامها يومياً ، جاء من المصانع

= يعتقد دالتون ان الرسوم التي تملأ الصفحة تنتمي الى الاقاليم البيزنطية، وانها وضعت لكتاب آخر . كما ان عناوين القطع زينها فنان آخر ، ولعلها كانت رومانسكية غربية ، وإنما وقعت تحت مؤثرات شرقية (مثال ذلك رسم القديس يوحنا الانجيلي بلحية). على ان الرسام الثاني كان اكثر دقة وبراعة من الرسام الاول، غير ان ألوانه أضعف . ويظن دالتون (East Christian Art, p. 309.) ان الفنان الاول قد يكون ارمنياً . انظر :

Buchtal, « The Painting of Syrian Jacobites », in Syria, vol. XX, pp. 136 ff. esp. 138.

(١) كل حكم على هـــذه المجموعة من المخطوطات لا بد ان ينتظر صدور كتاب الدكتور هـ. بشتال .

القائمة بالبقعة ذاتهـــا . والراجح ان سلع الحلى والزينة تمّ استيرادها من الخارج ، من القسطنطينية او من المدن الاسلامية الكبيرة ، او جلبها الزائرون القادمون من فرنسا او ايطاليا . فما تمّ العثور عليه في القرن التاسع عشر في اساسات مبـاني الأديرة في بيت لحم من مجموعة تحف شملت حوضين من النحاس الاصفر ، كانت فيما يبدو تنتمي الى المدرسة الموسانية في القرن الثاني عشر ، وقد حُفرت عليها مجموعة من الصور التي تمثل حياة القديس توماس الرسول ، وكذا شمعدانين من الفضة يبدو انها من صناعة بيزنطية ترجع الى أواخر القرن الثـــاني عشر ، فضلاً عن شمعدان يفوق السابقين ضخامة ، وصولجان الاسقف من صناعة التكفيت في ليموج في القرن الثالث عشر [1] . ومـا أقامه الصليبيون في قبة الصخرة من حاجز من القضبان المتشابكة ربما كان مصنوعاً محلياً ، مع انه شديد الشبه بالمصنوعات الحديدية بفرنسا [2] .

اما الشمعدانات المتشعبة المحلاة والمصنوعة من الحديد فقد جرت صناعتها فيما يبدو محليـاً ، غير انها اتخذت مـا كان سائداً في غرب اوربا من التصميمات [3] . لم يتبق شيء معروف من الفخار او الزجاج . وجرى ضرب النقود ، وصناعة الاختام محلياً ، وإذ كان المقصود من النقود انها تستخدم في الشرق ، اتخذت النماذج الاسلامية المحلية ، بل ان نقوشها كانت باللغة العربية . واتسمت اختام القرن الثاني عشر بالبساطة والغلظ ، اما اختام

---

(١) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 172 - 201.
(٢) انظر : Ibid, II, pp. 310 - 311.
(٣) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 175 - 179.

القرن الثالث عشر فإنها كانت اكثر جمالاً ودقة [1] . وما هو محفوظ الآن في بيت المقدس من وعاء من البلور للمخلفات الدينية ، مركّب في قطعة من الفضة على هيئة الركاب ، ومطعم بالجواهر ، وحوى بداخله صندوقاً صغيراً منحوتاً من الخشب ، يعتبر فيما يبدو من الصناعة المحلية ، على الرغم من أن المصنوعات البلورية والفضية جاءت فيما يبدو من اوربا الوسطى[2]. ولم يتبق من مصنوعات العاج سوى اللوحتين دقيقتي الحفر ، اللتين تستخدمان غطاءين لكتاب المزامير الذي يخص الملكة ميليسند ، وشملت اللوحة الاولى زخارف بارزة تروي قصة داود ، وفي زواياها رسوم تمثل الصراع بين الخير والشر ، أما اللوحة الاخرى فشملت افعال لرحمة ، وفي زواياها رسوم حيوانات خرافية . على ان علم الصور المقدسة يرجع الى الغرب لا الى بيزنطة ، مع ان الملابس الملكية بيزنطية الصنع ، وأن الحيوانات مغربية ، وأن الزخرفة ارمنية في وحيها وإلهامها ، وليس من الراجح فيما يبدو انه كان يعيش في بيت المقدس صانع عاج من هذا الطراز الرفيع الشأن . ولعل اللوحتين كانتا هدية من جهة اخرى [3] .

---

(١) انظر : Schlumberger, Sigillographie de l'Orient Latin, esp. introduction by Blanchet.

(٢) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 197 - 198.

(٣) انظر : Enlart, op. cit. I, pp. 199 - 200.
Dalton, Byzantine Art and Archaeology, pp. 221 - 223.
East Christian Art, p. 218.
يشير دالتون الى الخصائص الشرقية ، ويعتقد ان الذي حفر اللوحتين كان صانعاً محلياً .
انظر : Boase, loc. cit.

على ان ضآلة الدليل ينبغي ألا تفسر على ان يقصد به ، انه لم يصنع إلا شيء قليل . فـإذا ازدهر فن العمارة ، فالراجح ان تزدهر ايضاً سائر الفنون ، وتعرض نفس الانعكاس للحياة في الشرق الفرنجي . ومـا اتصف به القرن الثاني عشر من عمارة انتقائية ، ليست إلا من عمارة النزلاء الذي كانوا مستعدين لأن يوائموا انفسهم مع البلاد التي جاءوا اليها ، على الرغم من قدوم الامداد باستمرار من الغرب لتعزيزهم وتدعيمهم . غير ان ما وقع من هزائم في نهاية القرن الثاني عشر قضى على التوازن القديم ، فلم يبق على قيد الحياة في القرن الثالث عشر إلا عدد قليل من الاسرات الكبيرة القديمة في الشرق الفرنجي . واحتل مكانها الطوائف الدينية العسكرية ، التي كان دائمـاً يجري تجنيدها من الغرب ، ولا تكن إلا شعوراً ضئيلاً نحو التقاليد المحلية . اضحت العناصر المحلية في المـدن معزولة ، فتطلعت عكا صوب الغرب . اضحت الثروة بـأيدي الايطاليين ، بينما استقرت السلطة والقوة في ايــدي الأمراء القادمين من الغرب او نوابهم . وازداد نزوح التجار والنبلاء الى جزيرة قبرص ، حيث اخذت مدنية قوطية جديدة في النهوض . ومع انه لا زال يسمع من بيزنطة والشرق بعض الاصداء ، فإنها اخذت تزداد خفوتاً . إذ ان بيزنطة اضحت في الخسوف ، وما كان للعرب من حضارة ازالهـا المغول ، واتسمت حضارة المماليك الجديدة في مصر بالعداوة التي تنزع للاعتداء . وقد يستمر البناء في انطاكية ، غير ان النهب والزلزال والتداعي قد دمر كل دليل . وما حدث في اقصى الجنوب من محاولة الشرق الفرنجي لبناء طراز خاص بـه ، لقيت الدمار في ساحة حطين . وما اتصف بـه الشرق الفرنجي في القرن الثاني عشر من عمل متواضع صلب كان بداية لم تؤد الى شيء . اما الشرق الفرنجي في القرن الثالث عشر فلم يكن إلا اقليماً نائياً من اقاليم العالم القوطي بالبحر المتوسط .

الفصل الثالث

سقوط عكا

لما ورد نبأ وفـاة بيبرس ، ابتهج الناس في الشرق الفرنجي . إذ ان اكبر أبنائه واسمه بركة ، الذي خلفه في دست السلطنة ، كان شاباً ضعيفاً ، استنفد عهده في محاولة ضبط الأمراء المماليك ، وكان هـذا الامر من الضخامة ما لا يقوى عليه . ففي اغسطس سنة ١٢٧٩ اعلن الثورة الامير قلاوون قائد القوات بالشام ، وزحف على القاهرة ، فتنازل بركة عن العرش لأخيه الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وتولى قلاوون مقـاليد الحكومة . ولم تنقضِ اربعة شهور حتى نزع قلاوون الطفل من السلطنة ، ونصّب نفسه سلطاناً . على ان نائب دمشق ، سنقر الاشقر ، رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون ، وأعلن نفسه سلطاناً بدمشق في ابريل التالي (١٢٨٠) ، غير انه لم يكن بوسعه ان يصمد في موقفه إزاء المصريين . إذ انه بعد ان دارت معركة في موضع قرب دمشق في يونيه سنة ١٢٨٠ ، انسحب سنقر الاشقر الى شمـال سوريا ، ولم يلبث ان تصالح مع قلاوون الذي

حاز بذلك كل تراث بيبرس[1] .

ولم يفد الفرنج من فترة الراحـة التي تهيأت لهم . ولم يجد نفعاً مـا حاوله الايلخان اباقا ، وتابعه ليو الثالث ملك ارمينية من اجراء محالفة ، وإثارة حرب صليبية . فلم يساندهما إلا فرسان الاسبتارية . اما شارل انجو المعروف بكراهيته لبيزنطة وحلفائها من الجنويين ، فإنه أمر نائبه بعكا ، روجر سان سفيرينو بأن يحافظ على التحالف مع البنادقة ، والداوية ، والبلاط المملوكي . وإذ حرص البابا على أن يصرف شارل انجو عن شن هجوم على القسطنطينية ، بعد ان وعده الامبراطور ميخائيل بأن تخضع له الكنيسة البيزنطيـة ، شجع شارل انجو في خططه بسوريا . ومع ان ادوارد الاول ملك انجلترا اظهر تعاطفه مع المغول ، فإنه كان بالغ البعد في انجلترا ، ولم يتوافر له من الوقت والمال ما يكفي لإعداد حملة صليبية جديدة[2] .

وإذ جـاز لبوهمند السابع في الشرق الفرنجي ان يتعاون مع خـاله الأرمني ، فإنه لم يكن في علاقات طيبة مع الداوية ، وحدث سنة ١٢٧٧ ان وقع شجار بينه وبين اشد اتباعه مراساً ، وهو جاي الثاني امبرياكو ، سيد جبيل . إذ أن جاي وهو ابن عم بوهمند وصديقه الحميم ، سبق ان حصل على وعد بأن يتزوج اخوه يوحنا من وريثة اسرة أليمان المحلية .

---

(١) انظر : Abu'l Feda, pp. 157 - 158.
Makrizi, Sultans, I, II, p. 171, II, I, 26.
d'Ohsson, Histoire des Mongols, pp. 519 - 522.

(٢) انظر : Hayton, Flor des Histoires, pp. 180 - 181.

غير ان بارثولوميو اسقف انطرطوس كان يود ان يجعل الارث لابن اخته ، وظفر بموافقة بوهمند . ولم يسع جـاي عندئذ إلا أن يختطف الفتاة ، ويزوّجها من اخيه يوحنا . وإذ خشي جاي انتقام بوهمند ، فرّ الى الداوية . وردّ بوهمند بـــأن دمّر عمائر الداوية في طرابلس ، وقطع اشجار غابة كانوا يملكونها في مونتروك (أبو حلقة) قرب طرابلس. فبادر مقدم الداوية ، وليم بوجيه على الفور بقيادة فرسان الطائفة لمهاجمـة طرابلس ، فقام بمظاهرة خارج اسوارها ، ولما انسحب أشعل النار في قلعة البترون ، غير ان مـا قام بـه من محاولة لاقتحام نيفين أدت الى أسر اثني عشر من فرسانه ، كان بوهمند ألقى بهم في الحبس في الوقت المناسب . ولمـا تحرّك الداوية راجعين الى عكا ، نهض بوهمند لمهاجمة جبيل ، على ان جاي الذي خلف له وليم بوجيه كتيبة من الداوية ، توجه للقاء بوهمند ، فدارت معركة ضارية على مسافـــة بضعة اميال شمالي البترون . واشترك في القتال من كل من الجانبين نحـو مائتي فارس ، غير ان القتال اشتد وازداد عنفاً . وتعرّض بوهمند لهزيمة ساحقة ، ومن الفرسان الذين فقدهم بوهمند في المعركة ابن عمه ، وصهر جاي ، باليـــان سيد صيدا الذي يعتبر آخر من تبقى من اسرة جارنييه الكبيرة [١] .

الحرب الاهلية في طرابلس سنة ١٢٨٢ :

وقبل بوهمند عقد هدنة لمدة سنة بعد ان حلت به الهزيمة ، غير ان

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, p. 481.
Gestes des Chiprois, pp. 207, 210 - 213.

جاي والداوية هاجموه من جديد سنة ١٢٧٨ . وحلت الهزيمة مرة اخرى ببوهمند ، على ان عاصفة شتت اثنتي عشرة سفينة للداوية حاولت ان تشق طريقها الى ميناء طرابلس . ومـــا ارسله بوهمند عندئذ من سفن عددها خمس عشرة سفينة لمهاجمة قلعة صيدا التابعة للداوية ، نجحت في إلحـاق الضرر بها قبل ان يتدخل مقدم الاسبتارية ، نقولا لورجان ، فعجل بوهمند بالمسير الى طرابلس ، ووافق على عقد هدنة جديدة . ولكن جاي سيد جبيل لا زال يهدّد ويتوعد ، إذ عزم على ان يستولي على طرابلس ذاتها . ففي يناير سنة ١٢٨٢ استطاع ان يتسلل مع اخوته وبعض اصدقائه الى أحياء الداوية في طرابلس . غير انه سبق ان وقع سوء تفاهم ، وكان قائد الداوية ريديكير متغيباً ، وارتاب جاي في حدوث خيانة ، فاشتد ذعره ولما حاول ان يلجأ الى دار الاسبتارية ، تلقى بوهمند اخطاراً بذلك من بعض الاشخاص ، فهرب المتآمرون الى برج بالاسبتار ، حيث حاصرهم جند بوهمند . على انه حدث بعد بضع ساعات ان وافقوا بناء على طلب الاسبتارية على ان يستسلموا بشرط الإبقاء على حياتهم ، غير ان بوهمند نقض عهده ، فأمر بسمل عيون رفاق جاي ، بينما تقرر نقل جاي الى نيفين ، مع اخويه يوحنا وبلدوين وابن عمه وليم ، فجرى إنزالهم بخندق ، ودفن اجسادهم حتى اعناقهم ، وظلوا على هذه الصورة حتى هلكوا جوعاً .

وارتاع جميع أتباع بوهمند ، لمـا تعرض له العصاة من مصير رهيب . يضاف الى ذلك ان اسرة امبرياكو كانت تتذكر اصلها الجنوي ، وكان من المتآمرين كثير من الجنويين . وإذ كان الجنويون اصدقاء مخلصين للأرمن ومن دعاة التحالف مع المغول ، ابتعد بوهمند عن سياستهم . وفي تلك الأثناء تجهز يوحنا مونتفورت الصديق الحمـيم للجنويين للتحرك من صور

للانتقام لأصدقائه ، غير ان بوهمند سبقه في الوصول الى جبيل . ولم يبتهج لكل هذا الحادث سوى البيازنة الذين كرهوا الجنويين .

ولم تكن الأمور السياسية بأحسن حالاً في أقصى الجنوب ، إذ ان حكومة روجر سان سفيرينو في عكا لم تكن مقبولة من النبلاء المحليين . ففي سنة ١٢٧٧ ، حاول وليم بوجيه ان يجتذب الى جانبه يوحنا مونتفورت ، ونجح في التوفيق بين يوحنا والبنادقة ، الذين اضحى مسموحاً لهم بالعودة الى احيائهم السابقة في صور . غير ان يوحنا التزم الابتعاد عن حكومة عكا . وفي سنة ١٢٧٩ هبط الملك هيو فجأة الى صور ، أملاً في ان يحمل النبلاء على الالتفاف حوله . فسانده يوحنا ، ولم ينهض احد غيره لنصرته وتأييده . على ان فترة الشهور الاربعة التي يصح له قانوناً بمقتضاها ان يحضر اتباعه القبارصة من وراء البحار ، قد انقضت دون ان يجري فيها شيء من النشاط . فلما عاد فرسانه الى قبرص ، لم يسع الملك إلا ان يقتفي أثرهم . ووجه اللوم الى الداوية لما اصابه من فشل ، بحجة ان وليم بوجيه هو الذي جعل عكا على ولائها لروجر سان سفيرينو . وللانتقام من الداوية صادر ممتلكاتهم في قبرص ، ومن بينها قلعتهم في جاستريا . ورفع الداوية شكواهم الى البابا ، الذي كتب الى هيو يأمره بإعادة املاك الداوية ، غير انه تجاهل امر البابا . ومع ان هيو أقرّ ، فيما يبدو ، التحالف مع المغول لا لسبب سوى ان روجر سان سفيرينو يعارض هذا التحالف ، فإنه لم يكن في وضع يسمح له بأن يتخذ اجراء على البر السوري [١] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 207.
Annales de Terre Sainte, p. 457.

كان الإيلخان اباقا حريصاً على ان يقاتل المماليك ، قبل ان يستطيع قلاون توطيد مركزه . وإذ لا زال سنقر نائب دمشق السابق يتحدى المصريين في شمال سوريا ، عبر نهر الفرات جيش مغولي في نهاية سبتمبر سنة ١٢٨٠ ، فاحتل عين تاب وبغراس ودربساك . وفي ٢٠ اكتوبر دخل حلب ، حيث نهب الاسواق وأشعل الحريق في المساجد . فهرب الى دمشق المسلمون من سكان تلك المناطق وقد استبدّ بهم الخوف والجزع . وحدث في نفس الوقت ان قام المغول بغارة مثمرة على البقيعة بعد ان توغلوا في سيرهم ، حتى كادوا يبلغون حصن الاكراد ، ثم أنزلوا قرب مرقية اثناء عودتهم ، الهزيمة بجيش اسلامي ، قدم لوقف زحفهم . على ان المغول لم يكونوا من القوة ما يكفي للابقاء على حلب في ايديهم . فلما حشد قلاون قواته في دمشق ، ارتدوا الى ما وراء نهر الفرات . واكتفى السلطان قلاون بإنفاذ قوة لإنزال العقاب بالاسبتارية الذين دحروها امام حصن المرقب (١) .

وحوالي ذلك الوقت ، ظهر في عكا سفير مغولي ، قدم لينهي الى الفرنج ان الإيلخان اقترح ان يرسل الى سوريا في الربيع التالي ، جيشاً مؤلفاً من مائة الف رجل ، وليلتمس منهم ان يمدوه بالرجال والذخائر . فبعث الاسبتارية بالرسالة الى ادوارد ملك انجلترا ، ولم يلقَ سفير المغول استجابة

---

(١) انظر :

Makrizi, Sultans, II, I, p. 26.
Abu'l Feda, p. 158.
Bar - Hebraeus, p. 463.
Gestes des Chiprois, pp. 206 - 208.

في عكا . على ان نبأ الغارة المقبلة للمغول أزعج قلاون ، فعقد صلحاً مع سنقر في يونيه سنة ١٢٨١ ، بأن جعل انطاكية وأفامية إقطاعـاً له . وأرسل الى عكا يعرض عقد هدنة مع الطوائف الدينية العسكرية لمـدة عشر سنوات . اما الهدنة التي سبق عقدها مع حكومة عكا سنة ١٢٧٢ فلا زال باقياً على نهـاية اجلها سنة واحدة . على ان بعض الأمراء في السفارة المصرية الموفدة الى عكا ، اخطروا الفرنج بألا يعقدوا صلحاً مع قلاون ، إذ أنه لن يلبث ان يهوي من السلطنة . فلما سمع بهذا روجر سان سفيرينو ، بادر على الفور بالكتابة الى السلطان يحذره ، فاستطاع ان يلقي القبض على المتآمرين في الوقت المناسب . وفي تلك الاثناء وافقت الطوائف الدينية العسكرية بعكا على الهدنة التي تمّ ابرامها في ٣ مايو . وعقد بوهمند هدنة ممـاثلة مع قلاون في ١٦ يوليه ، وكان ذلـك انتصاراً دبلوماسياً لقلاون . إذ أن توحيد الفرنج لجهدهم على احد جناحي جيشه ، ولو لم تقدم امداد من الغرب ، كان لا بدّ ان يعرقل حملته لقتال المغول [١] .

معركة حمص سنة ١٢٨١ :

في سبتمبر سنة ١٢٨١ توجه الى سوريا جيشان مغوليان ، الاول يقوده إلا يلخان أباقا ذاته ، وتولى أثناء سيره البطيء إخضاع الحصون الاسلامية الواقعة على امتداد حد الفرات ، أما الجيش المغولي الثاني الذي قاده شقيقه

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, II, I, pp. 28 - 34.
Röhricht, p. 374.

منجو تيمور ، فإنه بادر اول الامر بالاتصال بليو الثالث ملك ارمينيا ، ثم هبط الى وادي نهر الاورنت بعد ان اجتاز عين تاب وحلب . وكان قلاون قد توجّه فعلاً الى دمشق ، حيث حشد قواته ، ثم هرع صوب الشمال . ونأى الفرنج عن النزاع ، باستثناء الاسبتارية في حصن المرقب ، الذين رفضوا اعتبار انفسهم ملزمين بالهدنة التي عقدها الاسبتارية في عكا . فركبت فئة قليلة منهم للحاق بملك ارمينية . وفي ٣٠ اكتوبر سنة ١٢٨١ التقى الجيشان المملوكي والمغولي خارج حمص . وتولى منجو تيمور قيادة قلب الجيش المغولي ، واتخذ أمراء مغول آخرون مواقفهم في ميسرته ، على حين أنه كان على ميمنته عساكر الكرج المساعدة ، وليو ملك ارمينية والاسبتارية . وقاد المنصور صاحب حماه ميمنة الجيش الاسلامي ، وتولى قلاون نفسه قيادة المصريين في قلب الجيش ، والى جانبه جيش دمشق بقيادة الامير لاجين ، وكان على ميسرة الجيش المملوكي سنقر ، الذي سبق ان تمرد على قلاون ، في عساكر من شمال الشام والتركمان .

ولما دارت المعركة ، لم يلبث المسيحيون في ميمنة الجيش المغولي ان هزموا سنقر ، الذي ظلوا يطاردونه حتى معسكره في حمص ، فانقطع بذلك اتصالهم بقلب الجيش المغولي . وفي تلك الاثناء ، ظلت ميسرة المغول صامدة في القتال ، بينما اصاب منجو تيمور الجراح حينما شن المماليك هجوماً على قلب الجيش المغولي . فاشتدت ثائرته ، وأمر بالارتداد السريع . اضحى ملك ارمينيا ورفاقه معزولين ، وكان لزاماً عليهم ان يقاتلوا ليشقوا لهم طريقاً للعودة صوب الشمال ، فتكبدوا خسائر فادحة . غير ان قلاون فقد من الرجال الذين بلغوا من كثرة العدد ما جعله عاجزاً عن مطاردة ليو ، واجتاز المغول نهر الفرات دون ان يتكبدوا خسائر اخرى .

اضحى نهر الفرات حداً فاصلاً بين الامبراطوريتين المغولية والمملوكية ، ولم يخاطر قلاون بالمضي لإنزال العقاب بالأرمن .

وشهد وقعة حمص مقدم الاسبتارية الانجليزي يوسف شونسي الذي كان يزور الشرق ، فكتب بعدئذ الى ادوارد ملك انجلترا يصف له المعركة . إذ روى ان الملك هيو والامير بوهمنـــد لم يستطيعا اللحاق بالمغول في الوقت المناسب . والراجح انه أراد ان يحميها من غضب ملك انجلترا ، الذي يعتبر الوحيـد من بـين ملوك الغرب ، الذي لا زال مهتماً بالحرب المقدسة ، وشديد التأييد للتحالف مع المغول . غير ان بصيرة ادوارد النافذة لم يكن لها ما يحاكيها في الشرق ، إذ لم يفعل الملك هيو شيئاً ، وعقـد بوهمند هدنة مع المسلمين ، بينما ارتحل روبرت سان سفيرينو نائب شارل انجو ، ليلتقي بقلاوون ، وليهنئه على ما أحرزه من انتصار [١] .

انهيار مملكة شارل انجو سنة ١٢٨٢ :

حدث في مساء ٣٠ مارس سنة ١٢٨٢ ، ان نهض الصقليون فجأة

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, II, I, pp. 35 - 37.
Abu'l Feda, pp. 158 - 160.
Bar - Hebraeus, pp. 464 - 465.
Hayton, Flor des Estoires, pp. 182 - 184.
Gestes des Chiprois, p. 210.
Letter of Joseph of Chauncy and King Edward's Reply, (ed. Sanders), P. P. T. S. vol. V.
Röhricht, Regesta, p. 375.
D'Ohsson, op. cit. pp. 525 - 534.

وقتلوا كل من صادفوه بالجزيرة من الفرنسيين ، بعد ان ضاقوا ذرعاً بغطرسة شارل انجو وعساكره . وكان لمذبحة صقلية من الآثار البعيدة المدى ، ما لم يتصوره اهل الجزيرة الذين استبدّ بهم الغضب . فما أقامه شارل من امبراطورية كبيرة في البحر المتوسط لم تستند الى أساس . ولم تجدِ نفعاً ما قام به شارل وأخلافه من محاولات ، في العشروات التالية من هـذا القرن ، لاسترداد صقلية من أيدي أمراء أراجون ، الذين جرى انتخابهم ليتولوا عرشها . ولم تعد مملكة الانجويين في نابولي قوة عالمية . اما البابوية التي كفلت للانجويين مملكتهم بصقلية ، فتعرضت للمذلة والهوان ، وأصابها الخراب المالي في محاولاتها استعادة اتباعها . فجرى التخلي عن المشروعات الانجوية في البلقان ، وفيما هو أبعد من البلقان جهة الشرق . إذ تنفس الامبراطور البيزنطي بالقسطنطينية الصعداء ، فلم يعـد يثير غضب قومه ، بما كان يعرضه من خضوع كنيستهم لروما ، اذا حالت روما دون أطماع شارل[١] . وفي الشرق الفرنجي ، اكتشف روجر سان سفيرينو انه أضحى فجـأة وحيداً دون سند . استدعاه سيده (شارل انجو) للعودة الى ايطاليا ، فغادر عكا في نهاية السنة ، بعد ان عهد بوظيفته ، نائب الملك ، الى صنجيله اودو بواليشيان [٢] .

---

(١) انظر : Amari, La Guerra del Vespro Siciliano.
لا زال يعتبر خير مرجع لتاريخ مذبحة صقلية التي وقعت اثناء صلاة العشاء ، ومـا تلاها من الحروب .

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 214.
Sanudo, Chronique de Romanie in Mas Latrie, Nouvelles Preuves, I, pp. 39 - 40.
تزوج اودو من لوسيا جوفان ارملة يوحنا ابلين سيد ارسوف .

كان انهيار سلطان شارل انجو صدمة للمماليك في مصر ، على انه يعتبر ايضاً خلاصاً لهم من وطأته ، إذ ان كلا من بيبرس وقلاون كان يخشى شارل انجو ويحترمه ، ولذا امتنع كل منهما عن مهاجمة ولايته الجديدة في الشرق الفرنجي . فما من احد بعدئذ يحول دون مهاجمة السلطان لأملاك شارل ، طالما جرى منع الفرنج من التحالف مع المغول . ففي يونيه سنة ١٢٨٣ ، حين انتهى اجل الهدنة التي انعقدت في قيسارية ، عرض قلاون على اودو بوالشيان ان يجدّدها لمدة عشر سنوات اخرى ، فقبل اودو العرض عن طيب خاطر ، غير انه لم يكن مطمئناً الى سلطته ، ولذا وقع على الهدنة من جانب الفرنج قومون عكا والداوية في عثليت وصيدا . وكفلت الهدنة للفرنج امتلاكهم للبلاد الممتدة من درج صور ، شمالي عكا ، الى جبل الكرمل وعثليت فضلاً عن صيدا ، غير انه تقرر استبعاد صور وبيروت من عقد الهدنة ، وجرى الابقاء على الحق الذي يجيز الحج بالمجان الى الناصرة [١] .

وابتهج اودو للمحافظة على الصلح ، إذ كان الملك هيو يوشك ان يحاول مرة اخرى استرداد مملكته على البر السوري . لقد ماتت منذ زمن قريب ايزابيلا سيدة بيروت ، فانتقلت مدينتها (بيروت) الى اختها ايشيفا ، زوجة همفري مونتفورت الأخ الأصغر لسيد صور . ولإدراك هيو انه يستطيع الوثوق في بيت مونتفورت ، أبحر من قبرص في نهاية شهر يوليه ، مع ولديه هنري وبوهمند . كان ينوي النزول في عكا ، غير ان الرياح دفعته

---

(١) انظر : Makrizi, Sultans, II, I, pp. 60, 179 - 185, 224 - 230.
Hill : History of Cyprus, II, p. 176.

الى بيروت التي بلغها في اول اغسطس ، فلقي استقبالاً حافـلا . ثم ابحر بعد بضعة ايام الى صور ، بينما ارسل عساكره براً ، فساروا ازاء الساحل ، وفي أثناء الطريق تعرّضوا لمغيرين من المسلمين فأنزلوا بهم الأذى ، وأيقن الملك هيو ان الداوية بصيدا هم الذين حرضوا المسلمين عليهم . فلما هبط الى صور لم تكن النبوءات في صالحه ، إذ هوى لواؤه في البحر ، ولمـا خرج رجال الدين (الاكليروس) في موكب لاستقباله ، أفلت من ايـديهم الصليب الكبير الذي يحملونه ، فهشم جمجمة طبيب البلاط ، وكان يهودياً . ظلّ هيو ينتظر في صور ، ولكن ما من احد من عكا تحرك للترحيب به هناك . إذ ان قومون عكا والداوية آثروا حكومة اودو بوليشيان التي لم تقحم نفسها في امورهم . ولن يمكث مع هيو نبلاؤه القبارصة ما يزيد على اربعة شهور ، وهي الفترة التي يجيزها القانون لبقائهم . وفي ٣ نوفمبر ، وقبل انتهاء المدة المقررة ، مات ابنه بوهمند الذي كان أكثر ما يأمل فيه من الخير من أبنائه ، بل ان أشد ما ساءه هو وفاة صديقه وصهره يوحنا مونتفورت . وإذ لم ينجب ذريه ، سمح الملك هيو بأن تنتقل صور الى شقيقه ووارثه همفري سيد بيروت ، غيرانه اضاف نصاً في الوثيقة بأن بوسعه ، متى شاء ، ان يشتري المدينة (صور) ويعيدها للتاج مقابل مائة وخمسين بيزنت . غير ان همفري ذاته مات في شهر فبراير التالي ، فتزوجت ارملته بعد فترة مقبولة من جاي اصغر ابناء هيو ، فنقلت اليه بيروت . أما صور فإنهـا بقيت في الوقت الراهن خاضعة لمرجريت ارملة يوحنا [1] .

---

(١) انظر :

Gestes dee Chiprois, pp. 214 - 216.

Amadi, pp. 214 - 215.

على ان الملك هيو بقي في صور ، حتى بعد ان ارتحل نبلاؤه ، وفي صور مات هيو في ٤ مارس سنة ١٢٨٤ ، بعد أن بذل قصارى جهده لاستعادة سلطانه في الشرق الفرنجي . والواقع ان صفاته وخلاله كانت من العوامل التي عطلته ، فبرغم ما اشتهر بـه من طلاقة الوجه والجاذبية ، كان حاد المزاج ، تعوزه اللباقة والكياسة . غير ان اكثر ما يرجع اليه فشله ، ما كان من عداء تجار عكا والطوائف الدينية العسكرية ، الذين كانوا يؤثرون ان يكون الملك غائباً ، مقيماً بعيداً عنهم ، فلا يتدخل في شئونهم [١] .

وخلف هيو على العرش ابنه الاكبر يوحنـــا ، وهو شاب وسيم بالغ الرقة ، ينـاهز من العمر سبع عشرة سنة . وتمّ تتويجه في نيقوسيا في ١١ مايو سنة ١٢٨٤ ملكاً على قبرص ، ثم تلى ذلك مباشرة ان عبر البحر الى صور حيث جرى تتويجه ملكاً على بيت المقدس . غير انه لم يعترف بسلطته في بلاد البر السوري ، سوى صور وبيروت . على انـه لم يحكم إلا سنة واحدة ، إذ مات في قبرص في ٢٠ مايو سنة ١٢٨٥ . وورث الملك من بعده اخوه هنري الذي لم يتجاوز عمره اربع عشرة سنة ، فتمّ تتويجه ملكاً على قبرص في ٢٤ يونيه سنة ١٢٨٥ ، ولم يتجاسر في الوقت الراهن على ان يجتاز البحر الى سوريا [٢] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 216 - 217.
Amadi, p. 216.
Hill, op. cit. p. 178.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 217.
Amadi, loc. cit.
Hill, op. cit. p. 179, n. 2.

سقوط حصن المرقب سنة ١٢٨٥ :

أخذ قلاون يتجهز في سوريا لشنّ هجوم على اولئك الفرنج الذين لم يدخلوا في الهدنة التي انعقدت سنة ١٢٨٣ ، فبادرت السيدتان الارملتان ايشيفا ومرجريت ، اللتان تحكمان بيروت وصور ، الى ان تطلبا من قلاون عقد هدنة ، فاستجاب لهما[1] . على ان السلطان كان يهدف الى الاستيلاء على قلعة المرقب الكبيرة التابعة للاسبتارية ، بعد ان دأبت حاميتها على ان تتحالف مع المغول . ففي ١٧ ابريل سنة ١٢٨٥ ، ظهر السلطان بجيش كثيف على سفح الجبل الذي تقع بأعلاه القلعة ، وقد جلب معه من المناجيق التي بلغت من الوفرة ما لم يسبق ان شهدها احد . وتولى رجاله جرّ هذه المجانيق على جانب التل ، ثم شرعوا في دكّ اسوار القلعة . على ان القلعة توافرت عدّتها ، وتميزت مناجيقها بما احتلته من أوضاع ، فتعرّض للدمار عدد كبير من مناجيق العدو ، وظلّ المسلمون نحو شهر دون ان يحرزوا شيئاً من التقدم . ونجح مهندسو السلطان آخر الامر في إحداث نقب تحت برج الأمل ، الذي يبرز عن السور في نهاية الزاوية الشمالية ، وملأوا هذا النقب بأخشاب سريعة الالتهاب . وفي ٢٣ مايو سنة ١٢٨٥ أشعلوا النار في النقب ، فأخذ البرج يهوي . وأوقف انهيار البرج هجوم المسلمين ، فجرى ردّهم على أعقابهم . على ان رجال الحامية اكتشفوا ان النقب امتدّ بعيداً تحت استحكاماتهم ، وإذ أدركوا انهم خسروا كل شيء ، لم يسعهم إلا الاستسلام . فتقرر السماح لمن كان بداخل القلعة من قادة

---

(١) انظر : Makrizi, Ṣultans, II, II, pp. 212 - 213.

الاسبتارية وعددهم خمسة وعشرون ، ان يخرجوا بكل أمتعتهم ، على ظهور خيولهم وفي سلاحهم الكامل ؛ اما بقية الحامية ففي وسع رجالها ان ينسحبوا دون ان يحملوا معهم شيئاً ، فلجأوا الى انطرطوس ، ومنها الى طرابلس ، ودخل قلاون القلعة في موكب في ٢٥ مايو سنة ١٢٨٥ [١] .

ارتاع سكان عكا لضياع حصن المرقب ، وحوالي ذلك الوقت علموا ان شارل أنجو قد مات . وبلغ من انغماس ابنه شارل الثاني ملك نابولي في الحرب بصقلية ، انه لم يحفل بالشرق الفرنجي ، إذ اخذت الحرب رويداً رويداً تشغل غرب اوربا ، وحان الوقت لحاكم يكون بالغ القرب من الاحداث الجارية بالشرق اللاتيني . وبناء على نصيحة الاسبتارية أرسل هنري الثاني من قبرص مبعوثاً اسمه يوليان الاصفر الى عكا ليجري مفاوضات حول الاعتراف به ملكاً على بيت المقدس . لم يعترض قومون عكا ، وأعرب فرسان الاسبتارية والتيوتون عن عطف الطائفتين ، ووافق الداوية بعد شيء من التردد على ان يساندوه ، غير ان اودو بواليشيان رفض ان يتخلى عن نيابته عن ملك صقلية ، ولقي اودو المساندة من الكتيبة الفرنسية التي لا زال ينفق عليها ملك فرنسا .

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 217 - 218.
Amadi, loc. cit.
Makrizi, Sultans, II, I, pp. 80, 86.
Abu'l Feda, p. 161.
Reinaud, Bibliothèque des Croisades, pp. 548 - 552.

اورد رينو ترجمة لحياة السلطان قلاون .

وهبط هنري الثاني الى عكا في ٤ يونيه سنة ١٢٨٦ ، فاستقبله قومون عكا بالفرح والسرور ، على الرغم من ان مقدمي الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة رأوا انه من بالغ الحكمة ان يتغيبوا عن استقباله ، إذ قالوا ان مهنتهم الدينية تحتم عليهم ان يلتزموا الحياد . وتوجـه هنري في موكب رسمي الى كنيسة الصليب المقدس ، فأعلن بها انه سوف يقيم بالقلعة مثلما فعل الملوك السابقون . غير ان اودو بواليشيان رفض ان يغادر القلعة التي شحنها بالعساكر الفرنسية . فتوجّـه اسقف فاماجستا ورئيس دير المعبد (Templum Domini) بعكا للتفاوض معه ، ولما لم يود ان يستمع اليهما ، اعلنا احتجاجاً قانونياً . اما الملك الذي كان يقيم بصفة مؤقتة في قصر سيد صور الراحل ، فإنـه صرح ثلاث مرات بأن بوسع الفرنسيين ان يغادروا القلعة آمنين ، بمـا يحملونه من أمتعة ، ولن يتعرض احد لهم بالأذى . وفي تلك الاثناء اخذ سكان المدينة يضيقون ذرعاً بأودو بواليشيان ، وتجهّزوا لمهاجمته . وعندئذ أقنع مقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة ، اودو ان يسلم اليهم القلعة ، بعـد ان عرفوا اين تتجه الريح ، ثم بذلوها لهنري ، فدخلها في موكب رسمي في ٢٩ يونيه [١] .

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 218 - 220.

Amadi, pp. 216 - 217.

Sanudo, p. 229.

Machaeras, (ed. Dawkins), p. 42.

Mas Latrie, Documents, III, pp. 671 - 673.

آخر الاحتفالات في الشرق الفرنجي سنة ١٢٨٦ :

حدث بعد مضي ستة أسابيع ، اي في ١٥ اغسطس ، ان قام بتتويج هنري في صور ، رئيس الاساقفة بوّناكورسو جلوريا ، بالنيابة عن البطريرك . ثم عاد رجال البلاط الى عكا بعد الاحتفال ، فأقاموا مهرجاناً استمر اسبوعين . إذ جرت الألعاب ، وتداريب الفروسية ، وفي القاعة الكبرى للاسبتارية جرى تمثيل بعض المشاهد ، منها منـــاظر من قصة المائدة المستديرة ، بفرسانها لانسلوت وتريسترام وبالاميديس ، وقاموا ايضاً بتمثيل قصة ملكة فيميني ، المستمدة من قصة طروادة . ولم يحدث في الشرق الفرنجي ، منذ قرن من الزمان ، ما يفوق هذا المهرجان بهاء ومرحاً وروعة . إذ ان الملك الطفل سحر بوسامته كل الناس ، لأنه لم يكن معروفاً حتى وقتذاك انه مصاب بالصرع ، وكان يسانده وينصحه خالاه فيليب وبلدوين ابلين اللذان ظفرا بالاحترام العميق . وبناء على نصيحتهما ، لم يمكث الملك طويلاً في عكا ، بل عاد الى قبرص بعد بضعة اسابيع ، وبعـــد ان جعل خاله بلدوين ابلين نائباً عنـــه ، إذ ادرك خالاه ان الملك المقيم بعكا لا يرضى عنه الناس[١] .

ولا بدّ ان السلطان قلاون بالقاهرة ابتسم عند سماعه بإفراج الفرنج التافهة . أما ايلخان المغول في تبريز فإنه تراءى له ان الوقت قـد حان

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 221.
Annales de Terre Sainte, p. 548.
Amadi, p. 217.

للقيام بعمل بالغ الجدية. مات اباقا في اول ابريل سنة ١٢٨٢، وخلفه على الحكم اخوه تكودار، الذي تنصر في طفولته على المذهب النسطوري، واتخذ اسم نقولا. غير ان اهواءه كانت مع المسلمين، فلم يكد يتولى العرش حتى أعلن تحوّله للاسلام، واتخذ اسم احمد، وتلقب بالسلطان. وفي نفس الوقت ارسل الى القاهرة يطلب عقد معاهدة صداقة مع قلاون غير ان سياسته ازعجت شيوخ المغول في بلاطه، الذين بادروا على الفور برفع شكواهم الى الخان الكبير قبيلاي. فأعلن ارغون ابن اباقا بموافقة قبيلاي، الثورة بخراسان حيث كان يتولى إدارتها، فلحقت به الهزيمة اول الأمر، غير ان قادة احمد لم يلبثوا ان تخلوا عنه، فلقي احمد مصرعه في ١٠ اغسطس سنة ١٢٨٤ في مؤامرة تمّ تدبيرها في القصر، فبادر ارغون الى اعتلاء العرش [١]. كان ارغون كأبيه يدين بالفلسفة الانتقائية، ومع ان عواطفه كانت نحو البوذية، فإن وزيره سعد الدولة كان يهودياً، وكان يابهالا جاثليق النساطرة أعز صديق له. وهذا الرجل الشهير كان ينتمي الى اصل تركي، من الانجوت، ولد في اقليم شانسي الصيني على ضفاف نهر هوانجهو. جاء مع مواطنه رابان سوما نحو الغرب يراودهما الأمل الكاذب في تأدية الحج الى بيت المقدس. وبينما كان بالعراق سنة ١٢٨١، تصادف شغور الجاثليقية، فتقرر انتخابه ليشغل هذا المنصب. كان له تأثير شديد

---

(١) انظر: Howorth, History of the Mongols, III, pp. 295 - 310.
Abu'l Feda, p. 160.

أشار المؤرخون العرب الى احمد، وتجاهله المؤرخون الغربيون.

Bar - Hebraeus, pp. 467 - 471.

اسهب ابن العبري في الحديث عنه.

على الايلخان الجديد ارغون ، الذي تطلع الى تخليص مـا للعالم المسيحي من اماكن مقدسة من ايدي المسلمين ، غير انه قال دائماً انه لن يفعل ذلك إلا اذا بذل له المساعدة الملوك المسيحيون بالغرب [١] .

سفارة رابان سوما سنة ١٢٨٧ :

في سنة ١٢٨٥ كتب ارغون الى البابا هونوريوس الرابع يقترح القيام بإجراء مشترك ، غير انه لم يتلق اجابه [٢] . ثم قرر بعد مضي سنتين ان يوفد سفارة الى الغرب ، فاختار سفيراً له ، رابان سوما صديق مار يابهالّا ، وبدا السفير رحيله في اوائل سنة ١٢٨٧ ، وقـد وضع تقريراً قيماً عن بعثته . أبحر من اطرابزون فبلغ القسطنطينية حوالي عيد القيامة . ولقي استقبالاً وديّاً حافلاً من الامبراطور اندرونيقوس ، ثم قام بزيارة كنيسة القديسة صوفية ، وسائر المشاهد الكبيرة بالعاصمة (القسطنطينية) . كان اندرونيقوس فعلاً في علاقات طيبة مع المغول ، وكان مستعداً لأن يبذل لهم من المساعدة ما تسمح به موارده الضئيلة . وتوجه سوما من القسطنطينية الى نابولي ، فبلغها في نهاية شهر يونيه . وبينما كان في نابولي ، شهد معركة بحرية في الميناء بين اسطولي اراجون ونابولي . كان ذلـك اول دليل على ان غرب اوربا منصرف الى مخاصماته . فواصل سيره الى روما ، وتبين له

---

(١) انظر : Budge, The Monks of Kublai Khan, introduction, pp. 42 - 61, 72 - 75.

(٢) انظر نص رسالة ارغون في :
Chabot : « Relations du roi Argoun avec l'Occident », in Revue de l'Orient Latin, vol. II, p. 571.

ان البابا هونوريوس الرابع قد مات قبيل قدومه ، ولم تجتمع حتى وقتذاك هيئة الكرادلة لاختيار خلف له . فاستقبله الاثني عشر كاردينالاً المقيمون بروما ، فاكتشف انهم جهال ضعاف لا ترجى منهم مساعدة . إذ لم يعلموا شيئاً عن انتشار المسيحية بين المغول ، وصدمهم ان سوما يخدم سيداً وثنياً . ولما حاول ان يناقشهم في الأمور السياسية ، صاروا يستجوبونه حول ايمانه وعقيدته ، وانتقدوا انحرافات ايمانه عن عقيدتهم . وكاد آخر الأمر يفقد اعصابه . فقال انه قدم ليؤدي احترامه للبابا ، ويرسم الخطط للمستقبل ، لا ليعقد مناظرة عن العقيدة . ثم توجه فرحاً مسروراً الى جنوه ، بعد ان أدى الشعائر الدينية في الكنائس الرئيسية بروما . واستقبله الجنويون في احتفال كبير ، إذ ان التحالف مع المغول كان امراً بالغ الاهمية عندهم ، فأولوا اقتراحات السفير ما هي جديرة به من الاهتمام .

وفي نهاية اغسطس عبر رابان سوما الى فرنسا ، فبلغ باريس في زمن مبكر من شهر سبتمبر ، ولقي بها من الاستقبال كل ما كان يبتغيه . إذ رافقه حرس خاص الى العاصمة ، ولما اضحى في حضرة الملك الشاب ، فيليب الرابع ، بذل له ما يليق بالملك من تشاريف ، إذ نهض الملك من العرش ليحييه وأصغى في احترام عميق الى رسالته ، فخرج من حضرة الملك بوعد بأن إذا شاء الله ، فسوف يتولى فيليب نفسه قيادة جيش لتخليص بيت المقدس . وابتهج السفير لما شاهده في باريس . إذ ان الجامعة التي كانت وقتذاك في ذروة مجدها في العصور الوسطى ، كانت اكثر ما أثرت فيه . ورافقه الملك في زيارة كنيسة سانت شابيل فشهد المخلفات

المقدسة التي اشتراها القديس لويس من القسطنطينية . ولما ازمع مغادرة باريس ، عيّن الملك سفيراً له اسمه جوبرت هيلفيل ليصحب رابان سوما في عودته الى بلاط الايلخان ، وليعد معه تفاصيل التحالف مع المغول .

ثم تلى ذلك أن اضحى رابان سَوْما في ضيافة ادوارد الاول ملك انجلترا ، الذي كان وقتذاك في بوردو ، عاصمة املاكه الفرنسية . وصادف في ادوارد الذي سبق ان حارب في الشرق ، وطالما دافع عن التحالف مع المغول ، استجابة فطنة عملية لمقترحاته . أدهشه الملك بأنه أكفأ سياسي التقى به في الغرب ، وخصه الملك بالمجاملة ، حين سأله ان يؤدي القداس في البلاط الانجليزي . على ان الملك ادوارد راوغ حين تقرر وضع جدول زمني ، فلم يكن بوسع ادوارد او فيليب ملك فرنسا ان يقول متى يكون مستعداً على وجه الدقة للقيام بالحملة الصليبية . عاد سَوْما الى روما ، قلق الفكر . وإذ توقف في جنوة حتى موعد عيد الميلاد ، تصادف ان التقى بالمندوب الكاردينال ، يوحنا توسكلوم ، فأنهى اليه بمخاوفه ، إذ كان المماليك يستعدون في تلك اللحظة لاستئصال شأفة آخر ما تبقى للمسيحيين من إمارات في سوريا ، وما من احد في الغرب سوف يعير التهديد شيئاً من الاهتمام .

وفي فبراير سنة ١٢٨٨ تمّ اختيار نقولا الرابع بابا ، وكان من اول اعماله انه استقبل السفير المغولي ، فقامت بينهما احسن العلاقات الشخصية ، إذ خاطب رابان سَوْما البابا على انه رأس اساقفة العالم المسيحي ، وبعث البابا نقولا ببركاته الى جاثليق النساطرة واعترف به بطريركاً في الشرق . وفي اثناء اسبوع الآلام ، احتفل السفير بالقداس امام جميع الكرادلة ، وتناول العشاء الرباني من يد البابا ذاته . وغادر روما وبصحبته جوبرت

هليفيل في ربيع سنة ١٢٨٨ ، يحمل من البابا الهدايا ، وكثير منها من المخلفات الدينية القيمة ، للأيلخان والجاثليق ، ورسائل اليها ، والى اميرتين مسيحيتين في البلاط المغولي ، والى دنيس اسقف اليعاقبة ، في تبريز . غير ان الرسائل تتسم بالغموض ، فلم يعد البابا باتخاذ اجراء محدد في زمن معين[1] .

والواقع ان رابان سَوْما ادرك آخر الامر ان لدى ملوك الغرب من الامور ما يشغلهم . إذ أن شبح شارل انجو الكريه اتحد مع ما اتصفت به البابوية قديماً من الميل الى الانتقام ، لمنع القيام بحملة صليبية . فالمعروف ان البابا سبق ان بذل صقلية للأنجويين ، على ان الصقليين لم يلبثوا ان انقلبوا على الأنجويين ، فكان لزاماً على البابوية وفرنسا ، بما يزعمانه من كرامة ومكانة ، ان تقاتلا الدولتين البحريتين الكبيرتين في البحر المتوسط ، جنوة وأراجون ، لاسترداد الجزيرة (صقلية) . ولم يكن كل من نقولا وفيليب مستعداً للتفكير في حملة صليبية إلا بعد تسوية مسألة صقلية . وأدرك ادوارد ملك انجلترا الخطر ، ففي سنة ١٢٨٦ سعى الى عقد هدنة بين فرنسا وأراجون ، غير انها كانت هدنة قلقة محفوفة بالخطر ، طالما كان القتال مستمراً في ايطاليا وعلى البحر . يضاف الى ذلك ان لدى ادوارد مشاكله الخاصة ، إذ كان يتوقَ الى انقاذ الارض المقدسة ، غير انه ادرك ان ما هو اكثر اهمية من المصالح وأدعى الى التعجيل بها ، هو الاستيلاء على ويلز ومحاولة فتح اسكتلندا ، إذ تحول نظره صوب

---

(١) انظر : Budge, op. cit. pp. 164 - 197.

اورد ترجمة لتقرير سوما عن اسفاره في اوربا .

الشمال بعد وفاة اسكندر التالث ملك اسكتلندا سنة ١٢٨٦ ، نظراً لأنه كان يدبر امر السيطرة على المملكة المجاورة ، عن طريق ولية عهدها ، مرجريت النرويجية . ولا بد للشرق ان ينتظر ، ولم يكن للرأي العام من القوة ما يفرضها على الملوك . ودلّت أبحاث البابا جريجوري العاشر على أن الروح الصليبية اوشكت على الفناء[١] .

الايلخان ارغون يلح في ارسال حملة صليبية سنة ١٢٨٩ :

لم يصدق ارغون ان المسيحيين في الغرب ، بما اشتهروا به من التظاهر الديني بالتعلق بالارض المقدسة ، يظهرون هذا الاستحفاف بما يحيق بـه مصيرها من خطر . استقبل رابان سوما عنـد عودته الى الوطن بكل مظاهر التشريف ، وأظهر مودته لجوبرت هيلفيل . غير ان ارغون أراد من الدقة والتحديد ما لم يكن بوسع جوبرت ان يبذله . فأنفذ عقب عيد القيامة سنة ١٢٨٩ رسولاً آخر ، وهو جنوي اسمه بوسكارد جيزولف ، أقام في بلاده زمناً طويلاً ، وزوده برسائل الى البابا ، وملكي فرنسا وأنجلترا. ولا زالت رسالته الى فيليب باقية ، إذ كتبت باللغة المغوليـة بحروف اويغورية . فباسم الخان الكبير قبيلاي ، يعلن ارغون الى ملك فرنسا ، انه بعون الله يعرض بأنه سوف يتوجه الى سوريا في الشهر الاخير من فصل الشتاء من سنة الفهد ، أي في يناير سنة ١٢٩١ ، وإنـه سوف يصل الى

---

(١) انظر : Grousset, Histoire des Croisapes, III, pp. 711 - 721.
اورد جروسيه وصفاً عاماً للموقف وقتذاك .
Lévis - Mirepoix, Philippe le Bel, pp. 22 ff.
يشير الى تأثير الحرب الصقلية على السياسة العامة . انظر ايضاً ما سبق ص ٥٧٩ وما يليها .

دمشق حوالي منتصف اول شهور الربيع ، فبراير سنة ١٢٩١ . فإذا ارسل الملك قوات اضافية ، واستولى المغول على بيت المقدس ، فسوف يجعلها له . أمـا اذا لم يتعاون ، فسوف تتبدد الحملة . وأضاف بوسكارد الى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية ، تنطوي على تحيات لبقة موجهة الى الملك الفرنسي ، ويضيف بوسكارد ان ارغون سوف يصحب معه الملكين المسيحيين ببلاد الكرج ونحو عشرين او ثلاثين الف من الفرسان ، وسوف يتكفل بمـا يكفي رجال الغرب من مؤن . ولا بد ان رسالة مماثلة ، لا زالت مفقودة ، قد وجهت الى الملك ادوارد ، اضاف اليها البابا حاشية تتضمن توصيته وتشجيعه . لم يصل الينـا رد فيليب ، على حين ان رد ادوارد لا زال معروفاً ، إذ تضمن بذل التهنئة لايلخان على حملته لصالح المسيحيين، ويُزجى اليه التحيات الودية . غير انه لم يرد فيه شيء عن التاريخ الفعلي، ولم ينطو على وعود . انما جرت الاشارة الى التجاء الايلخان الى البابا ، الذي لن يفعل شيئاً ، إلا بتعاون الملكين[1] . وفي تلك الاثنـاء اصدر فرنجي آخر ، مجهول الاسم ، رسالة يبين فيها انه من اليسير ان تهبط قوة من الغرب الى البر عند اياس في ارمينيا ، التي يعتبر ملكها اكثر الناس ميلاً الى المساعدة ، ومن ثم تستطيـع هذه القوة ان تلتقي بالمغول . غير أنه لم يحفل احد بنصيحته[2] .

---

(١) انظر : Chabot, op. cit. pp. 593 - 594, 604 - 616.
اورد شابو نصوص الرسالتين .

(٢) انظر : Kohler : « Deux Projets de Croisade en Terre Sainte », text and introduction, Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latin, pp. 516 ff.

وعلى الرغم من ان بوسكارد رجع بإجابات لا تبشر بشيء ، فان ارغون ارسله من جديد مع اثنين من المغول المسيحيين ، وهما اندرياس زاكان ، وسهادين ، فتوجهوا اول الامر الى روما حيث استقبلهم البـابا نقولا ، ثم مضوا لزيارة ملك انجلترا بعد ان تزودوا برسائل عاجلة من البـابا ، الذي يبدو انـه اعتبر ادوارد يفوق فيليب ملك فرنسا في الميـل الى الحرب الصليبية ، فوصلوا اليه في زمن مبكر من سنة ١٢٩١ . غير ان ادوارد كان منغمساً في امور اسكتلندا بعد وفـاة مرجريت في السنة السابقة ، وعاد الرسل الى روما وقد اشتد بهم الضيق ، فمكثوا بها فصل الصيف . ولكن الوقت قد فات عندئذ ، إذ أن مصير الشرق الفرنجي قد تقرر ، كما ان الإيلخان ارغون قد مات[١] .

فلو ان التحالف مع المغول قـد تحقق ، وأخلص الغرب في انجازه ، فانه كاد يكون من المحقق ان يطول أجل الشرق الفرنجي ، وأن يتجرد المماليك من القوة ، او يتمّ تدميرهم ، وأن تعيش أيلخانية فـارس دولة صديقة للمسيحيين والغرب . على ان ما حدث فعلاً ، هو ان الامبراطورية المملوكية ظلت قائمة نحو ثلاثة قرون ، وتحوّل مغول فارس الى المعسكر الاسلامي ، ولما يمضِ على وفاة ارغون إلا اربع سنوات . ولم يكن فرنج الشرق الادنى وحدهم هم الذين ضاعوا بسبب اهمال الغرب ، بل شاركهم في ذلك الجماهير التعسة التي تنتمي الى العالم المسيحي الشرقي . وهـذا الاهمـال يرجع اساساً الى الحرب الصقلية ، التي نبعت من حقـد البابوية والاستعمار الفرنسي .

---

(١) انظر : Chabot, op. cit. pp. 617 - 619.

وفي تلك الاثناء لم يبدُ من الشرق الفرنجي إلا ازدياد الضعف وانعدام تقدير المسؤولية . فلم يكد الملك هنري يعود الى قبرص بعد ان شهد المهرجانات في عكا ، حتى اندلعت الحرب على الساحل السوري بين البيازنة والجنويين . إذ ان الجنويين ارسلوا في ربيع سنة ١٢٨٧ اسطولاً بقيادة اميري البحر توماس سبينولا وأورلاندو أشيري الى شرق البحر المتوسط . وبينا توجه سبينولا لزيارة الاسكندرية كيما يظفر بالحياد الودّي من قبل السلطان ، اخذ أشيري يذرع الساحل السوري من أقصاه الى أقصاه ، يغرق او يأسر كل ما يصادفه من سفن البيازنة او الفرنج المنحدرين من اصل بيزاني . ولم يمنع بيع الملاحين الذين وقعوا في الأسر إلا تدخّل الداوية ، ثم لجأ أشيري الى صور ليعدّ هجوماً على ميناء عكا . وأشرك البنادقة اسطولهم المحلي مع البيازنة لحماية الميناء ، غير ان أشيري انتصر تجاه حاجز الامواج في ٣١ مايو سنة ١٢٨٧ ، على انه لم يستطع ان ينفذ الى داخل الميناء . ولما أبحر سبينولا من الاسكندرية ، استطاع الجنويون ان يفرضوا الحصار على كل الساحل . ولكن مقدمي الداوية والاسبتارية ومن معهما من ممثلي النبلاء المحليين ، نجحوا آخر الامر في اقناع الجنويين بأن يبحروا عائدين الى صور ، وأن يفسحوا الطريق لحركة الشحن[1] .

سقوط اللاذقية سنة ١٢٨٧ :

على ان الميناء الوحيد الذي نجا من هذا النضال تعرّض فعلاً لمصير بالغ

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 220 - 230.
Annales Januenses, p. 317.

السوء . ذلك ان تجار حلب جأروا للسلطان بالشكوى منذ زمن ، بأنهم لم يرتاحوا لأن يرسلوا متاجرهم الى المينـاء المسيحي باللاذقية ، الذي يعتبر آخر مـا تبقى من إمارة انطاكية ، فتهيأت الفرصة للسلطان قلاون في ذلك الربيـع ، إذ ان الزلزال الذي وقع في ٢٢ مارس سنة ١٢٨٧ ألحق ضرراً بأسوار المدينة (اللاذقية) . وإذ ادعى قلاون ان اللاذقية ، باعتبارها جزءاً من إمارة انطاكية القديمة لم تدخل في الهدنة المعقودة مع طرابلس ، أرسل الامير حسام الدين طرنطاي ليتسلمها . فسقطت المدينة في يديه في سهولة ويسر ، غـير ان المدافعين عنها انسحبوا الى حصن يقع على فوهة المينـــاء ويتصل بالـبر بجسر . فوسع طرنطاي الجسر وجعله عريضاً ، ولم يلبث ان حمل الحامية على الاستسلام في ٢٠ ابريل سنة ١٢٨٧ ولم تجر محاولة للنهوض لمساعدتها(١) .

ولم يعش طويلاً بعد ضياعها ، سيدها السابق بوهمند السابع ، إذ مات في ١٩ اكتوبر سنة ١٢٨٧ ، دون ان يكون له ذرية . إنمـا كانت وريثته اخته لوسيا ، التي سبق ان تزوجت من مارجو توسي امير البحر السابق لدى شارل انجو ، والذي يعيش في ابوليا . ولم يكن لنبلاء وسكان طرابلس رغبة خاصة في ان يستدعوا الى الشرق اميرة تكاد تكون مجهولة عندهم ، فضلاً عن ارتباطها بالانجويين الكريهين ، فعرضوا الكونتية عوضاً عنها على الارملة سبيللا اميرة ارمينيا ، ولم تكد سبيللا تتلقى العرض حتى كتبت

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, p. 230.
Abu'l Feda, p. 162.
Makrizi in Reinaud, op. cit. pp. 561 - 562.

الى صديقها القديم بارثولوميو اسقف انطرطوس تدعوه الى ان يكون نائباً عنها . غير ان رسالتها جرى الاستيلاء عليها أثناء الطريق وقدم اليها نبلاء الكونتية (طرابلس) فأخطروها بـأن الاسقف ليس مقبولاً . غير انها رفضت النزول على رأيهم ، فانسحب النبلاء بعد لقـاء حافـل بالغضب والسخط ، وأخذوا يستشيرون كبار التجار ، فأعلنوا سوياً خلع الاسرة عن العرش ، وإقامة قومون تكون له منذئذ سلطة السيادة . وكان رئيس القومون بارثولوميو اعبرياكو ، الذي كان ابوه بلدوين من ألد اعداء بوهمند السادس ، كما ان اخاه وليم تعرّض مـع ابن عمه سيد جبيل لميتة قاسية على يد بوهمند السادس .

لجأت الاميرة سيبللا الى اخيها في ارمينية ، غير انه حدث في زمن مبكر من سنة ١٢٨٩ ان قدمت الى عكا لوسيا مع زوجها ، لتتوجه منها الى طرابلس ، لتتسلم إرثها . فلقيت استقبالاً حافـلاً من الاسبتارية الحلفاء القدامى للأسرة ، فرافقوها حتى ينفين ، المدينة الواقعة على طرف الكونتية ، وبها اصدرت إعلانـاً يتضمن حقوقها ، ورد القومون بإذاعة قائمة طويلة عن الظلامات والشكاوى ازاء ما ارتكبه من قسوة وجبروت ، اخوها ، ووالدها ، وجدها . فلن يقبلوا بحال من الاحوال هذه الامرة . فاستعاضوا عنها ، بأن جعلوا انفسهم تحت حمـاية جمهورية جنوة . وتوجه رسول الى جنوة فأخطر دوج جنوه ، الذي بادر بإرسال امير البحر بنيتو زكريا في خمس سفن لإجراء مفاوضات مع القومون . وفي تلـك الاثناء سار الى طرابلس مقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة وبصحبتهم نائب البنادقة في عكا للدفاع عن حق وريثة الكونتية ، فأما مقدم الاسبتارية فحمله على ذلك ما كان من صداقة طائفته القديمة مع اسرتها ، على حين ان مقدمي

الداوية والتيوتون لم يقدما إلا لمساندة البندقية على جنوة . غير انه جرى اخطارهم انه لا بدّ للوسيا ان تعترف بالقومون حكومة للكونتية .

لوسيا كونتيسة طرابلس سنة ١٢٨٨ :

لما وصل زكريا ، أصرّ على عقد معاهدة تمنح الجنويين شوارع عديدة اخرى في طرابلس ، وتجعل لهم الحق في ان يكون لهم طاغية (بودشتا) يتولى حكم جاليتهم ، على انه كفل للقومون ما له من حريات وامتيازات . غير ان سكان طرابلس اخذوا يعجبون ، ما اذا كانت جنوة سوف تكون صديقاً لا يحفل بمصلحتهم . إذ أن بارثولوميو امبرياكو ، الذي سبق ان ظفر بالسيطرة على جبيل بأن زوّج ابنتــه اجنيس لابن عمــه الصغير ، بطرس ، بن جــاي الثاني ، اشتد شغفه ونهمــه ليفوز بالكونتية لنفسه . فأنفذ رسالة الى القاهرة ليتعرف مــا اذا كان قلاون سوف يسانده اذا اعلن نفسه كونتاً على طرابلس . غير ان طموحه اثار الريبة ، ونزع الرأي العام في طرابلس الى مساندة قضية لوسيا . وكتب القومون ، دون ان يخطر الجنويين ، الى لوسيا في عكا يعرض الاعتراف بها ، اذا اقرت وضعه . غير ان لوسيا في دهاء ومكر اخطرت زكريا الذي كان في اياس يعقــد معاهدة تجارية مع ملك ارمينيا . فهرع الى عكا للقائها ، فوافقت على ان تعترف بامتيازات كل من القومون وجنوة ، ووفقاً لهــذه الشروط تقرر الاعتراف بها كونتيسة على طرابلس[١] .

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 231 - 234.
Amadi, pp. 217 - 218.
Sanudo, p. 229.
Annales Januenses, pp. 322 - 326.

لم يرضِ الاتفاق كلاً من البنادقة وبارثولوميو ايمبرياكو . إذ أنـه كان فعلاً على اتصال بالسلطان قلاون . على انه ليس معروفاً عندئذ مـا اذا كان بارثولوميو او البنادقة بعكا هم الذين ارسلوا الى القاهرة مبعوثين من قِبَل الفرنج ليطلبا من السلطان ان يتدخل . ومع ان كاتب مقدم الداوية يعرف اسمي المبعوثين ، فـإنه لم يشأ ان يكشف عنهما . وقـام المبعوثان بتحذير السلطان بأنـه اذا سيطرت جنوة على طرابلس ، فسوف تفرض سلطانها على كل شرق البحر المتوسط ، وسوف تصير تجـارة الاسكندرية تحت رحمتها (١) .

وابتهج السلطان قلاون لأنه تلقى دعوة للتدخل ، إذ بررت له نقض الهدنة التي سبق ان عقدها مع طرابلس . ففي فبراير سنة ١٢٨٩ تحرّك بكل الجيش المصري الى سوريا ، دون ان يميط اللثام عن هدفه . غير ان احد امرائه ، وهو بدر الدين بكتاش الفخري ، الذي كان يتقاضى مالاً من الداوية ، ارسل الى مقدم الداوية وليم بوجيه يخطره ان قلاون يقصد طرابلس . فعجّل وليم بإنذار المدينة ، وطلب اليها ان تتحد وأن تلتفت الى تقوية اسباب دفاعها . على انه مـا من احد من سكان المدينة كان يصدقه ، إذ ساءت سمعته عنـد الناس لولعه بالتآمر السياسي ، وارتاب الناس في انه اخترع هذه القصة ليبتغي من ورائها ربحاً خاصاً ، إذ كان يأمل في ان تجري دعوته للتوسط بين المتخاصمين . فلم يتحقق شيء ،

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 234.
Abu'l Mahasin in Reinaud, op. cit. p. 561.
يشير ابو المحاسن الى ان بارثولوميو حذر قلاون .

ومضت الاحزاب في مشاجراتها الى ان اجتاز جيش السلطان الضخم ، حوالي نهاية مارس ، البقيعة واحتشد امام اسوار المدينة [1] .

ولم يحفل النـــاس بالخطر إلا آخر الامر ، إذ جعل القومون ونبلاء المدينة سواء للكونتيسة لوسيا مطلق السلطة في داخل المدينة . وأرسل الداوية قوة بقيادة مارشالهم جفري فنداك ، وتولى قيـادة قوة الاسبتارية مارشالهم ماثيو كليرمونت ، وتوجهت الكتيبة الفرنسية من عكا بقيـــادة يوحنا جرايللي ، وكان بالميناء اربع سفن جنوية ، وسفينتان للبنادقة ، فضلاً عن سفن صغيرة اخرى ، كان لبيزا بعضها . وأرسل الملك هنري من قبرص ، أخاه الأصغر امالريك ، الذي نصبه منذ زمن قريب كندسطبلا لبيت المقدس ، في جماعة من الفرسان ، وأربع سفن . وفي تلك الاثنـــاء هرب الى قبرص عدد كبير من غير المحاربين بعد ان اجتازوا البحر .

سقوط طرابلس سنة ١٢٨٩ :

كانت طرابلس العصور الوسطى تقع على البحر ، على طرف شبه الجزيرة التي تقوم عليها في الوقت الحاضر ضاحية الميناء . ولم تكن متصلة بقلعة تل الحجاج ، التي لم تبذل فيما يبدو محاولة للدفاع عنها . اما المدينة ذاتها فكانت منيعة الاستحكامات الدفاعية . ومع ذلك فإنه على الرغم من انه

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 34 - 35.
وإذ كان بكتاش الفخري امير سلاح ، أشار اليه مؤلف الجستا على انه صلاح . انظر ايضاً : Abu'l Feda, p. 159.

صار للمسيحيين السيطرة على البحر ، فإن ما كان للمسلمين من التفوّق في عـــدد الجيش ، ومن توافر أدوات الحصار ، دلّ على انه لا سبيل الى مقاومتهم . فلما انهار برج الاسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية ، وبرج الاسبتارية الذي يقع بين برج الاسقف والبحر ، بعد ان تعرّضا للقصف الشديد ، قرر البنادقة انه من المستحيل المضي في الدفاع . فبادروا بشحن سفنهم بكل أمتعتهم ، ثم أقلعوا الى خارج الميناء . ومـا ارتكبه البنادقة من خطأ أزعج الجنويين ، إذ ارتاب امير البحر الجنوي زكريا في ان البنادقة يحاولون سرقة بعض سفنه . على انه ايضاً استدعى رجاله ، وغادروا المدينة بكل ما استطاعوا ان ينقذوه من المتاجر . على ان رحيلهم أثار الفوضى بين المسيحيين ، وفي صبيحة ذلك اليوم ، ٢٠ ابريل سنة ١٢٨٩ ، أمر السلطان بشنّ هجوم عام ، فتدفقت جموع المماليك الى داخل المدينة بعـــد ان اجتازت السور الذي يقع الى الجنوب الشرقي ، والذي تعرّض للانهيار .

وناضل سكان المدينة ، وقـد استبد بهم الذعر ، في سبيل الوصول الى السفن الراسية بالميناء . اما الكونتيسة لوسيا وأملريك امير قبرص ومارشالا الطائفتين الداوية والاسبتارية ، فإنهم أبحروا سالمين الى قبرص . ولقي مصرعه كل من بطرس مونكادا قـائد الداوية ، وبارثولوميو امبرياكو . وتعرّض للقتل على الفور كل رجـــل يصادفه المسلمون ، بينما جرى سبي النساء والاطفال . وحاول عدد من اللاجئين ان يجذفوا بقواربهم لاجتياز البحر الى جزيرة القديس توماس الصغيرة التي تواجه الميناء . غير ان فرسان المماليك خاضوا بجيادهم المياه الضحلة ، وسبحوا اليها ، فوقع بالجزيرة نفس مناظر القتل المريعة ، ولما حاول المؤرخ ابو الفدا صاحب حماه ان يزور

الجزيرة بعد بضعة ايام ، حمله على الرجوع ما انبعث من الجثث العفنة من رائحة كريهة [1] .

ولما انتهى القتل والسلب ، أمر السلطان قلاون بتدمير المدينة ومساواتها بالأرض ، حتى لا يحاول الفرنج الاستيلاء عليها من جديد ، بفضل سيطرتهم على البحر . وأصدر الاوامر بوضع اساس لمدينة جديدة في سفح تل الحجاج ، على مسافة اميال الى الداخل [2] .

ومضت العساكر المملوكية فاحتلت البترون ونيفين ، ولم تجر محاولة للدفاع عنها ، وعرض بطرس امبرياكو سيد جبيل على السلطان اذعانه وخضوعه ، فسمح له السلطان بأن يحتفظ بمدينته لمدة عشر سنوات اخرى في ظل مراقبة بالغة الصرامة [3] .

كان سقوط طرابلس صدمة عنيفة لسكان عكا ، إذ أنهم ظلوا يعتقدون طوال السنوات القليلة الاخيرة ، أنه طالما لم يكونوا معتدين ، لم يكن لدى السلطان فعلاً اعتراض على ان يستمر بقاء المدن المسيحية على امتداد

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 235 - 237.
Amadi, p. 218.
Annales Januenses, loc. cit.
Auria, Annales in M. G. H. Scriptores, vol. XVIII, p. 324.
Makrizi, Sultans, II, I, pp. 101 - 103.

(٢) انظر : Abu'l Feda, pp. 16 - 23.
Gestes des Chiprois, pp. 237 - 238.

(٣) انظر : Makrizi, Sultans, II, I, pp. 103 - 104.
Sanudo, p. 230.
Grousset, op. cit. p. 745, n. 3.

الساحل . إذ يصح ان يهاجم قلاعهم التي تعتبر مصدر خطر قوي له ، ويصح ان ينفر من الطوائف الدينية العسكرية ، التي كان من واجباتها القتال من اجل ايمانها ، على الرغم من ان المسلمين والمسيحيين سواء ، استخدموهم على انهم ممولون لهم . غير ان التجار وأرباب الحوانيت بالميناء لم يبتغوا إلا السلام ، اما البارونات المحليون في الشرق الفرنجي الذين هووا حياة الترف ، فمن الواضح انهم لم يودوا ما تنطوي عليه الحرب الصليبية من ارتباك واضطراب . كما ان عكا وأمثالها من الموانىء هيأت اسباب الراحة للمسلمين والمسيحيين سواء في ممارسة التجارة . وأظهر سكانها صادق النية في رفضهم التحالف مع المغول . وما حدث من الاعتداء على طرابلس ، دون ان تسبقه إثارة ، اثبت لهم كيف ان تقديراتهم كانت كاذبة ، وكان لزاماً عليهم ان يدركوا ان هذا المصير ينتظر عكا .

وصل الى عكا ، الملك هنري بعد ان مضت ثلاثة ايام على سقوط طرابلس . فصادف بها رسولاً من قبل قلاون ، يحمل شكوى من سيده بأن هنري والطوائف الدينية العسكرية ، نقضوا الهدنة ، بأن نهضوا لمساعدة طرابلس . فردّ هنري بأن الهدنة لا تنطبق إلا على مملكة بيت المقدس ، فلو ان طرابلس كانت داخلة في الهدنة ، لما اقدم السلطان على الاعتداء عليها . وقبل المسلمون هذا العذر ، وتجددت الهدنة لمدة عشر سنوات اخرى وعشرة شهور ، وعشرة ايام ، على ان تدخل فيها مملكتا بيت المقدس وقبرص . وبادر ملك ارمينية وسيدة صور الى احتذاء هذا المثال [١].

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 238.

غير ان هنري لم يعد يثق في عهد السلطان. ولم يكن بوسعه ان يغامر، فيستنجد بالمغول، لأن من المحقق ان السلطان سوف يعتبر ذلك انتهاكاً للهدنة. غير انه قبل ان يعود الى قبرص في سبتمبر سنة ١٢٨٩، وبعد ان خلف اخاه نائباً عنه في عكا، ارسل يوحنا جرايللي الى اوربا ليثبت في اذهان ملوك الغرب كيف اضحى الموقف بالغ الخطورة[١].

انزعج ملوك الغرب ايضاً لما حلّ بطرابلس من مصير. غير ان مسألة صقلية لا زالت تملأ عقول سائر الملوك ما عدا ادوارد ملك انجلترا، إذ ان مشكلته الاسكتلندية بلغت حد الأزمة. استقبل البابا نقولا الرابع، يوحنا جرايللي بعاطفة صادقة، وكتب في اسى وحزن شديدين الى ملوك الغرب، يلتمس منهم إرسال المساعدة. غير ان البابا نفسه تورط في مسألة صقلية، وليس بوسعه إلا ان يكتب الرسائل، ويحث رجال الدين على الدعوة الى حرب صليبية. على ان الامراء والسادة الذين توسل اليهم آثروا الانتظار حتى يتحرك الملك ادوارد. فالمعروف انه سبق ان وعد بالاشتراك في حملة صليبية، وأنه كان له تجربة في الشرق[٢]. على ان ادوارد لم يتحرك. اما جمهورية جنوة التي ألحق ضياع طرابلس خسارة فادحة بها، فانها شنّت حملات انتقامية، بأن استولت على سفينة مصرية تجارية كبيرة في مياه جنوب الأناضول، وأغارت على ميناء التينة

---

(١) انظر: Raynaldus, 1288, p. 43, 1289, p. 72.

(٢) انظر: Röhricht, « Derniers Jours », p. 529.
Powicke, op. cit. pp. 229 ff.
يعالج بويك اتجاه ادوارد وميله.

بالدلتا ، المجرد من اسباب الدفاع . ولما أغلق قلاون ميناء الاسكندرية في وجه الجنويين ، بادروا بعقد الصلح . فلما وصلت رُسلهم الى القاهرة ، التقوا بسفارتين من قبل الامبراطور البيزنطي والامبراطور الالماني ، تقفان على خدمة السلطان [1] .

محاربون صليبيون من شمال ايطاليا سنة ١٢٩٠ :

لم يلقَ نداء البابا استجابة إلا في شمال ايطاليا ، ولكن لم يردّ عليه البارونات ، بل استجاب له رعاع الفلاحين والمتعطلون من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا ، الذين تطلّعوا الى مغامرة تعود عليهم بشيء من الجزاء والخلاص ، وتصيبهم فيما يبدو بقدر من الغنيمة . لم يكن البابا راضياً عنهم ، غير انه قبل مساعدتهم ، فجعلهم تحت قيادة اسقف طرابلس ، الذي قدم الى روما لاجئاً . وكان يأمل بأنهم لن يرتكبوا حماقة ، بعد ان خضعوا لسيطرة رجل كنيسة يستطيع ان يكبح جماحهم ، فضلاً عن سابق درايته بالشرق . اما البنادقة الذين لم يحزنوا لما فقدته جنوة من قاعدة في طرابلس ، والذين احسّوا بشعور مختلف حول عكا ، حيث كانت لهم السيطرة التجارية ، فانهم بذلوا عشرين سفينة بقيادة نقولا تيبيولو ابن الدوج ، يساعده بناء على طلب البابا ، يوحنا جرايللي ، وروسللي . وحاز كل من هؤلاء القادة الثلاثة الف قطعة من الذهب من خزانة البابوية . غير انهم افتقروا الى المؤن . فلما أبحر الاسطول صوب الشرق ، انحاز

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. I, pp. 416 - 418.

اليـه خمس سفن ارسلها جيمس ملك ارلجون ، الذي حرص على بذل المساعدة [١] .

أعادت الهدنة المعقودة بين الملك هنري والسلطان قلاوون بعض الثقة في عكا ، إذ جرى استئناف التجارة من جديد . ففي صيف سنة ١٢٩٠ اخذ تجار دمشق يعيدون ارسال قوافلهم الى الساحل ، وتوافر المحصول في تلك السنة في الجليل ، وتزاحم الفلاحون المسلمون بمنتجاتهم على اسواق عكا ، ولم تكن المدينة من الحيوية والنشاط مثلما كانت عليه في تلك السنة . على ان الصليبيين الايطاليين قد وصلوا في اغسطس ، إبان هذا الرخاء ، فأثاروا الارتباك للسلطات منذ ان وطأت اقدامهم الساحل ، إذ اشتهروا بالفجور والسكر والإخلال بالأمن . فلم يكن لقائدهم عليهم سلطان ، بعد ان عجز عن دفع رواتبهم . وإذ اعتقدوا انهم جـاءوا لقتال الكفار ، اخذوا يهاجمون التجار والفلاحين المسلمين الذين يأنسون للهدوء والسلام ، وحدث ذات يوم ، حوالي نهاية شهر اغسطس ان اندلعت الفتنة ، قـال جماعة من الناس ان الثورة بدأت في خان ، حيث اجتمع بهـا المسلمون والمسيحيون ، وأشار آخرون الى ان تاجراً مسلماً اغتصب سيدة مسيحية ، واستغاث زوجها بالجيران للانتقام له . فانطلق الصليبيون الرعاع فجـأة يجوبون شوارع المدينة ، ثم خرجوا الى الضواحي ، وأخذوا يذبحون كل

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 238.
Dandolo, p. 402.
Sanudo, p. 429.
Amadi, pp. 218 - 219.

من صادفهم من المسلمين . وإذ اعتقدوا ان كل ذي لحية مسلم ، هلك ايضاً عدد كبير من المسيحيين المحليين . واستبدّ الرعب بباروتات المدينة وفرسان الطوائف الدينية العسكرية ، على ان كل ما استطاعوا ان يفعلوه لم يتجاوز انقـاذ عدد قليل من المسلمين ، الذين نقلوهم الى حيث يتوافر لهم الأمن بالقلعة ، فضلاً عن القاء القبض على بعض المحرضين المعروفين[(١)] .

على ان انباء المذبحة لم تلبث ان بلغت السلطان ، فأضحى لغضبه ما يبرره ، إذ قرر أن الوقت قد حان لاستئصال الفرنج من ارض سوريا . وعجّلت حكومة عكا فبعثت اليه باعتذاراتها ودواعي اسفها ، غير ان رسله قدموا الى عكا وأصروا على انـه لا بـدّ من تسليم الرجال الذين ارتكبوا الجرائم ، الى السلطان كيا ينزل بهم العقاب . فدعا الكندسطبل امالريك الى عقد مجلس . وفي هـذا المجلس ، نهض مقدم الداوية ، وبذل النصح بأن كل المذنبين المسيحيين المتقلين وقتئذ في سجون عكا ، لا بد من تسليمهم لممثلي السلطان على انهم هم الذين ارتكبوا الجريمة . غير ان الرأي العام لا يجيز ارسال مسيحيين ليلقوا مصرعهم على ايدي الكفار ، فلم يلق رسل السلطان مـا يرضيهم ، بل حدث العكس إذ جرت محاولة فاترة لإثبات ان بعض تجار المسلمين متهمون بأنهم بدأوا الفتنة ، ولإلقاء اللوم عليهم[(٢)] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Amadi, p. 19.
Bustron, p. 118.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 109.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 239 - 240.
Amadi, loc. cit.

لم يكن لدى قلاون من اجابة سوى الالتجاء الى السلاح . ومـا دار من مناظرة بين الفقهاء أقنعته أنه لا غبار عليه من الناحية الشرعية اذا نقض المدنة . أبقى قلاون خططه في طي الكتمان . وبينما كان يعبىء الجيش المصري ، صدرت الاوامر الى الجيش السوري بقيـادة ركن الدين طقسو نائب دمشق ، بالمسير الى ساحل فلسطين ، قرب قيسارية ، وبإعداد ادوات الحصار . تردد الخبر بأن الحملة تقصد جهة في افريقية [1] . على ان الامير فخر الدين بكتاش انذر مرة اخرى وليم بوجيه والداوية بنوايا السلطان الحقيقية . فـأذاع وليم الانذار ، غير أن مـا من احد ، مثلما حدث في طرابلس ، اراد ان يصدقه . فبعث من تلقاء نفسه رسولاً الى القاهرة ، فعرض قلاون انه يبقى على المدينة مقابل ان يبذل له من دوكات البنادقة ما يضارع عدد سكان المدينة . فلما تقدم وليم بهـذا العرض الى المحكمة العليا ، قررت رفضه في سخرية . وجرى اتهام وليم بالخيانة ، وتعرض عند مغادرة قاعة المحكمة للإهانة من قِبل الرعاع [2] .

وفاة السلطان قلاون سنة ١٢٩٠ :

ازداد ارتياح سكان عكا في نهاية السنة ، حينما وردت الانباء من القاهرة بأن قلاون قضى نحبه . لقـد تخلى قلاون عن كل محاولة لإخفاء ما نواه

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 240.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 109.
Muhi ad - Din in Reinaud, op. cit. pp. 567 - 568.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, loc. cit.
Ludolf of Suchem, (trans. Stewart), P. P. T. S. vol. XII, p. 56.

من الزحف على عكا . ففي رسالة بعث بها الى ملك ارمينية ، أشار الى انه اقسم بألا يترك في المدينة مسيحياً على قيد الحياة . وفي ٤ نوفمبر سنة ١٢٩٠ ، خرج من القاهرة على رأس جيشه ، غير انـه لم يكد يشرع في المسير حتى خرّ مريضاً ، ولم تنقض ستة ايام حتى مات في مرجة الطين ، على مسافة خمسة اميال من عاصمته . على انـه ، وهو على فراش الموت ، جعل ابنـه الأشرف خليل يعـد بأنه سوف يواصل الحملة . كان قلاون سلطاناً عظيماً ، يضارع بيبرس في قسوته وتجرده من الرحمة ، غير انـه يفوقه في الاحساس بالولاء والشرف [1] .

على ان قلاون يختلف عن بيبرس في أنه خلـّف وراءه ابناً عظيم القدر ، يليه على السلطنة . ومع انه اعقب وفاته ما يجري عادة من مؤامرات بالبلاط ، فإن الاشرف لم يؤخذ على غرة ، إذ استطاع ان يلقي القبض على مدبّر المؤامرة ، الامير طرنطاي ، وأن يوطـد مركزه على العرش . على انـه انقضى من السنة ما يجعل الوقت متأخراً للزحف على عـكا . فتأجلت الحملة الى الربيع [2] .

وأفادت حكومة عكا من فترة الهدوء ، فأنفذت من جديد سفارة الى

---

(١) انظر : Makrizi. Sultans, II, I, pp. 110 - 112.
Abu'l Feda, p. 163.
Gestes des Chiprois, pp. 240 - 241.
Amadi, p. 219.

(٢) انظر : Abu'l Feda, loc. cit.
Gestes des Chiprois, p. 241.

القاهرة ، ترأسها احد اعيان عكا ، واسمه فيليبماينبيف ، الذي يعتبر من الثقاة في دراسة اللغــة العربية . وصحبه الى القاهرة فارس من الداوية ، بارثولوميو بيزان ، وآخر من الاسبتارية ، وكاتب اسمــه جورج . ورفض السلطان الجديد ان يلقــاهم ، فأودعوا السجن حيث لم يبقوا طويلاً على قيد الحياة (١) .

شرع الجيش الاسلامي في التحرك في مارس سنة ١٢٩١ ، واكتملت استعدادات الأشرف ، فأضحت بالغة الدقة . إذ تمّ جمع آلات الحصار من جميع ممتلكاته . وبلغت أمتعة الجيش عند خروجه من حماه ، من الثقل مــا جعله يستغرق شهراً ، تعرض فيه لطقس ممطر ، وخاض تربة تراكم فيها الطين ، للسير من حصن الاكراد حيث توقف فترة من الزمن لينقل عرّادة ضخمة اسمها المنصورة ، الى عكا . وما يقرب من مائة من الآلات الاخرى ، تمّ تشييدها في دمشق ومصر . وكان مع الجيش ايضاً عرّادة كبيرة اخرى اسمها الغاضبة ، ومناجيق اشتهرت بالثيران السوداء ، كانت أخف وزناً ، ولكنها من طراز بالغ القوة والتأثير . وفي ٦ مارس سنة ١٢٩١ غادر الأشرف القاهرة قاصداً دمشق ، حيث اودع حريمه وعياله . ثم وصل أمام عكا ، في ٥ ابريل ، بكل قواته الكثيفة . وتحدث الناس أن جيشه تألف من ستين الف فارس ، ومائة وستين الف راجل . ومع ان هذه الارقام لا تخلو

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 241 - 243.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 120.

من مبالغة ، فإن جيشه فاق كل ما استطاع المسيحيون ان يحشدوه من القوات [1] .

الدفاع عن عكا سنة ١٢٩١ :

مما ورد من انباء عن استعدادات السلطان حملت سكان عكا آخر الأمر على ان يدركوا مصيرهم . إذ جرى توجيه استغاثات عاجلة الى اوربا أثناء فصل الشتاء ، غير انها لم تؤد إلا الى نتيجة ضئيلة ، فقد وصل في الخريف السابق جماعة قليلة من الفرسان ، جاءوا متفرقين . ومن بينهم كان اوتو جراندسن السويسري ، في جماعة من الانجليز ارسلهم ادوارد الاول ملك انجلترا . وحشد الداوية والاسبتارية كل من في متناول ايديهم من رجالهم . أما مقدم طائفة فرسان التيوتون ، بورشارد شفاندن ، فإنه ترك أثراً سيئاً بأنه اختار هذه اللحظة الحرجة ، فاستقال من منصبه ، على ان خلفه في تقدمة التيوتون ، كنراد فويختفانجن ، استدعى من اوربا جماعة من رفاقه . وأرسل هنري ملك قبرص عساكر قبارصة ، وعهد الى اخيه امالريك بأن يتولى قيادة الدفاع عن عكا ، ووعد بأنه سوف يقتفي أثرهم بالامداد . وتقرر تجنيد كل قادر على حمل السلاح من سكان عكا ، ليقوم بدوره في الدفاع [2] . ومع ذلك فإن الاعداد كانت قليلة ، إذ

---

(١) انظر : Al - Jazari, (ed. Sauvaget), pp. 4 - 5.
Makrizi, loc. cit.
Abu'l Feda, p. 163.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 241.
Röhricht, Geschichte, pp. 1008 ff.

ان كل سكان عكا من المدنيين يتراوح عددهم بين ثلاثين الف وأربعين الف نسمة . يضاف الى ذلك انه كان بعكا نحو اقـــل من الف فارس او سرجندارية خيـــالة ، وحوالي اربعة عشر الف راجل ، ومنهم الحجاج الايطاليون . أما استحكامات المدينة فكانت سليمة وقوية ، وقد اصدر الملك هنري الأوامر حديثاً بتعزيز قوتهـــا ومتانتها . فأضحى خط مؤلف من سورين مزدوجين يحمي شبه الجزيرة التي تقوم عليها المدينة وضاحيتها الشمالية مونتموسارت ، كما انه لم يفصل عكا عن مونتموسارت إلا سور واحد ، تقع القلعة عليه ، قرب التقائه بالسورين المزدوجين . وانتصب اثني عشر برجاً على إبعـــاد متساوية على امتداد السورين الداخلي والخارجي . والمعروف ان كثيراً من هذه الابراج جرى تشييدها على نفقة بعض اعلام الحجاج ، فالبرج الانجليزي شيده ادوارد الاول ، بينما اقامت كونتيسة بلوا البرج الذي يليه . وعلى الزاوية حيث تتوقف الاسوار عـــن المضي نحو الشمال ، فتنحرف من خليج عكا ، وتتجه صوب الغرب نحو البحر ، قـــام على السور الخارجي ، برج كبير يقع مقابل البرج الملعون على السور الداخلي وقد عمره منذ زمن قريب الملك هنري الثاني . وقباله برج الملك هنري شيد الملك هيو برجاً على مدخل الحصن (١) . وهذه الزاوية بأكملها تعتبر اضعف جانب في خطوط الدفاع . ولذا تقرر ان يتولى الدفاع عنها عساكر

---

(١) انظر ما سبق ص ٥٤ ، والخريطة في ص ٦٩٩ .

Rey, Colonies Franques, pp. 451 ff.

المعروف ان أليس بريتاني، كونتيسة بلوا ، زارت عكا في سنة ١٢٨٧ ، وماتت بها . انظر:

Annales de Terre Sainte, pp. 459 - 460.

Sanudo, p. 229.

الملك بقيادة اخيه امالريك ، وعن يمينه اتخذ مواقعهم الفرسان الفرنسيون والانجليز بقيادة يوحنا جرايللي ، وأوتو جراندسن ، ثم تليهم قوات البنادقة والبيازنة ، فضلاً عن جند قومون عكا . وعلى يسار امالريك ، اقام على كل اسوار مونتموسارت الاسبتارية ، ثم يليهم الداوية ، يتولى مقدم كل منهما قيادة طائفته . أما الفرسان التيوتون فعززوا الكتيبة الملكية عند البرج الملعون . ومن جانب المسلمين ، اتخذ جيش حماه الذي كان برفقته المؤرخ ابو الفداء ، موضعه عند البحر ، تجاه الداوية ، وامتد الجيش المصري من نهاية سور مونتموسارت حتى خليج عكا . وجرى نصب خيمة السلطان على مسافة ليست بعيدة من شاطىء البحر ، قبالة برج المندوب البابوي [1] .

ولما انتهى كل شيء وضاع ، حدث فيما بعد من الغضب والأسى ما ادى الى توجيه الاتهامات ، فرمى المؤرخون المسيحيون جزافاً الحامية بالجبن [2] . ولكن الواقع انه في ذروة اللحظة التي يتقرر فيها مصيرهم ،

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 164.
Gestes des Chiprois, p. 243.

(٢) فيما يلي تواريخ الفرنج الاساسية التي عالجت سقوط عكا :

أ — التاريخ المعروف باسم Gestes des Chiprois ، الذي ألفه كاتب معروف باسم « جندي من داوية صور » . كان كاتباً لمقدم الداوية ، ويعتبر شاهد عيان . ومع انه كان يعجب بمقدم الداوية ، فانه لم يكن ينتمي الى الطائفة . وفي الجملة اشتهر في كتابته بالاتزان والانصاف . (انظر ما يلي ، الملحق الاول بهذا المجلد) .

ب — مارينو سانودو الكبير ، الذي لم يشهد سقوط عكا ، ولكنه صنف كتابه على اساس ما ورد في المصدر السابق .

جـ — التاريخ المعروف باسم :
De Exidio Urbis Accchonis, (in Martène and Durand, Amplissima Collectio, vol. V).

استحكامات الداوية
باب موباس
استحكامات الاسبتارية
برج الملك هيو
برج الملك هنري الثاني
قلعة
الاسبتارية
البرج الملعون
برج القديس نقولا
فرسان التيوتون
البطريركية
برج المندوب البابوي
برج الالمان
الحي الجنوي
دار الصناعة
برج البطريرك
الكنيسة القديس ابندرياس
دير القديسة
الميناء
الداوية
حي البيازنة
برج الذباب

عكا سنة ١٢٩١

أظهر المدافعون من الولاء والشجاعة ما افتقدوه لسوء الحظ في السنوات الاخيرة . فيصح أن بعض الرجال الصالحين للقتال هربوا في شحنات النساء والشيوخ والأطفال الذين حملتهم السفن الى قبرص عند بدء الحصار ، ويجوز ان يكون من التجار الايطاليين من حملتهم اثرتهم على القلق على أمتعتهم ، فالواقع ان جنوة لم تشترك في القتال . إذ سبق للبنادقة ان طردوها فعلاً من عكا ، فعقدت جنوة معاهدة مع السلطان . على ان البنادقة والبيازنة استبسلوا في القتال . ويعتبر البيازنة مسئولين عن انشاء مقلاع (عرادة) ضخم فاق أثره كل ما كان لدى المسيحيين من آلات .

بدأ الحصار في ٦ ابريل سنة ١٢٩١ ، فصارت منجنيقات السلطان وعراداته تقذف يوماً بعد يوم الأحجار الضخمة ، او القدور المليئة بالمتفجرات على اسوار المدينة ، او تلقيها من فوق الاسوار الى داخل المدينة ، وأمطر رماته بسهامهم المدافعين فوق ابهاء الابراج وأفاريزها ، بينما تجهز مهندسوه للتحرك لنقب مواطن الضعف في الاستحكامات . وتردد القول

= وهو لمؤلف مجهول كان معاصراً ولم يكن شاهد عيان ، وكان يلقى من غير حساب التهم بالجبن والخيانة .

د — كتاب Thaddeus of Naples, Historia de Desolacione Civitatis Accchonis, (ed. Riant).
وهو حافل بالاهانات والتهم .

يضاف الى هذه التواريخ ، تقرير وضعه راهب يوناني اسمه ارسينيوس :
(Quoted by Bartholomew of Neocastro, ed. Paludino, in Muratori, Rerum Italicarum Scriptores, XIII, III, p. 132).
يتهم الفرنج بالفجور والكسل ، غير انه لا يرميهم بالجبن . وكل المصادر على وجه التقريب أشادت بالملك هنري .

بأن السلطان أعد لكل برج الف مهندس . على انـه لا زال للمسيحيين السيطرة على البحر ، فظلت المؤن ترد بانتظام من قبرص ، غير انهم افتقروا الى الاسلحة ، وأخذوا يدركون انه ليس لديهم من العساكر مـا يكفي للدفاع عن الاسوار ، إزاء الأعداد الضخمة عند العدو ، ولكن لم يتطرق القـــول الى التسليم ، إذ جهزوا احـــدى سفنهم بعرادة ، ألحقت ضرراً بليغاً بمعسكر السلطان . وفي ليلة ١٥ ابريل سنة ١٢٩١ ، وبينما القمر يتلألأ في كبد السماء ، قام الداوية ، يساندهم اوتو جراندسن ، بشن هجوم مباشر على معسكر جيش حماه ، فأخذوا المسلمين على غرة . غير ان عدداً كبيراً من الداوية تعثرت اقدامهم في حبال الخيام عند الاصيل حيث اخـذ الضوء يخبو ، فهووا الى الارض ووقعوا في الاسر ، وارتـد الآخرون على اعقابهم الى داخل المدينة بعد ان تكبدوا خسائر فادحة . وما قام به الاسبتارية من هجوم بعد بضع ليال في الظلام الدامس لم يلق إلا الفشل الذريـع ، نظراً لأن المسلمين بادروا على الفور ، فأوقدوا المشاعل، وأشعلوا النيران . وقد تبين بعد الهزيمة الثانية ان الهجومين كلف المسيحيين ضحايا ضخمة ، من قوتهم البشرية . غير ان التخلي عن المبـادرة بالهجوم انزل ضرراً بالروح المعنوية عند المسيحيين ، إذ تولّد بينهم شعور اليأس، وأضحى الوقت في جانب المسلمين .

وفي ٤ مايو سنة ١٢٩١ ، اي بعد ان مضى نحو شهر على بدء الحصار ، وصل الملك هنري قادماً من قبرص بكل مـــا استطاع ان يحشده من العساكر ، الذين لم يتجاوز عددهم مـائة فارس وألفي راجل ، أقلّتهم اربعون سفينة . ورافق الملك ، رئيس اساقفة نيقوسيا يوحنا توركو انكونا ، والراجح انه لم يمنعه من الإسراع في القدوم سوى ما حلّ به من المرض .

وجرى استقباله بكل مظاهر الفرح والسرور ، فلم يكد يهبط الى الارض حتى تولى القيادة وأثار قوة جديدة في الدفاع . غير انه لم يلبث ان اتضح الامر بأن هذه الأمداد كانت من القلة ما يمنع التغيير في النتيجة .

آخر محاولة للمفاوضات سنة ١٢٩١ :

وفي محاولة اخيرة لإعادة السلام ، أنفذ الملك هنري فارسين من الداوية ، وهما : وليم كافران ، ووليم فيلبيه ، الى السلطان ، يسألانه لماذا نقض الهدنة ، ويعدان بإنصاف كل شكوى . فاستقبلهما السلطان الاشرف خارج خيمته ، غير انه قبل ان يسلماه رسالتهما ، سألهما في إيجاز ما اذا كانا قد أحضرا مفاتيح المدينة . فلما أنكرا ، قال لهما ان ذلك هو الموضع الذي يطلبه ، ولا يهمّه مصير سكان المدينة ؛ غير انه تقديراً منه لشجاعة الملك بقدومه للقتال ، وهو لا زال حدثاً ، فضلاً عن مرضه ، سوف يبقي على حياتهم اذا استسلموا له . ولم يكد الرسولان يجيبان بأنهما سوف يعتبران خائنين اذا وعدا بالإذعان ، حتى قذفت عرادة من الاسوار حجراً سقط قرب الجماعة . فاستشاط الاشرف غضباً ، وسلّ سيفه ليقتل الرسولين ، ولكن الامير الشجاعي منعه من ذلك ، بأن قال لا يصح ان تدنس سيفك بدماء الخنازير ، ثم سمح للفارسين بالعودة الى ملكهما .

كان مهندسو السلطان قد بدأوا فعلاً في نقب الأبراج . وفي ٨ مايو سنة ١٢٩١ ، قرر رجال الملك ان البرج الذي أقامه الملك هيو لم يعد قادراً على الصمود ، فأشعلوا النار به وتركوه ينهار . وفي خلال الاسبوع التالي ، تمّ تقويض البرج الانجليزي ، وبرج كونتيسة ملوا ، وأخذ في الانهيار الأسوار القائمة عند باب القديس انطوان ، وعند برج القديس نقولا . اما

البرج الجديد المعروف باسم برج هيو الثالث ، فظلّ يقاوم حتى ١٥ مايو ، حين انهار شطر من سوره الخارجي . وفي صبيحة اليوم التالي شقّ المماليك طريقهم الى داخـل الخرائب ، وأجبروا المدافعين على التقهقر الى الخط الداخلي من الأسوار . ووقع في ذلك اليوم هجوم مركّز على باب القديس انطوان ، ولم يمنع العدو من دخول المدينة إلا بسالة الداوية والاسبتارية . فمارشال الاسبتارية ماثيو كليرمونت ، رفع شأنه ما أظهره من البسالة .

وفي أثناء اليوم التالي شدّد المسلمون سيطرتهم على السور الخارجي ، وأصدر السلطان الأوامر بشن هجوم عام في صبيحة يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ . وجرى الهجوم على طول امتداد الأسوار ، ابتداء من باب القديس انطوان الى برج البطريرك عند خليج عكا ، غير ان الهجوم الرئيسي للمسلمين كان موجها الى البرج الملعون الواقع في زاوية الحصن . وقذف السلطان بكل قواه في المعركة . فلم تكف المنجنيقات عن القذف . أما سهام الرماة فتكاد تكون كتلة صلبة عند سقوطها الى داخل المدينة ، واندفعت كتائب العسكر ، الواحدة بعد الاخرى بقيادة امراء يلبسون عمائم بيضاء لمهاجمة استحكامات المدينة ، كان الضجيج يثير الخوف والجزع ، إذ صار المهاجمون يهتفون بصيحات الحرب ، وكان يحثهم ما انطلق من اصوات من الطبول والكوسات والشبابات التي يحملها ثلثمائة جمل .

ولم يمض وقت طويل ، حتى شق المماليك طريقهم الى البرج الملعون ، وأجبروا حاميته من فرسان سوريا وقبرص على التراجع صوب الغرب نحو باب القديس انطوان . فنهض لمساعدتهم الداوية والاسبتارية فظلوا يقاتلون معاً كأنما لم يقع بين الطائفتين تنافس حاد مدة قرنين من الزمن .

واستمات ماثيو كلير مونت في محاولة القيام بهجوم معاكس لاسترداد البرج ، ومع ان مقدمي الطائفتين اقتفيا أثره ، فإنهما باءا بالفشل . وعلى امتداد السور الشرقي للمدينة ، لم تستمر مقاومة يوحنا جرايللي وأوتو جراندسن إلا بضع ساعات . واستطاع العدو ، بعد استيلائه على البرج الملعون ، ان يجتاز الاسوار المنهارة ، وأن يتملك باب القديس نقولا . فضاع بذلك كل البرج في زاوية الحصن ، واستقر المسلمون بداخل المدينة .

الفرار من عكا سنة ١٢٩١ :

دار قتال عنيف في شوارع المدينة ، غير انه لم يكن ثمة ما يصح القيام به لإنقاذ عكا . إذ تعرض مقدم الداوية ، وليم بوجيه ، لإصابة قاتلة عند قيامه بهجوم معاكس غير مثمر ، على البرج الملعون . فحمله اتباعه الى دار الداوية حيث قضى نحبه . كان ماثيو كليرمونت بصحبته ، غير انه عاد الى المعركة ، وظل يقاتل حتى لقى مصرعه . أما مقدم الاسبتارية يوحنا فيلييه فأصابته الجراح ، فحملوه الى الميناء ، وأنزلوه ، برغم اعتراضه ، الى سفينته . وسبق أن ابحر الملك الشاب (هنري) وأخوه امالريك الى قبرص ، وتعرض الملك هنري فيما بعد للاتهام بالجبن ، لتخليه عن المدينة ، غير انه لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً ، ومن واجبه لمملكته ان يتجنب الوقوع في الأسر . وفي القطاع الشرقي ، أصيب يوحنا جرايللي بجراح ، على أن اوتو جراندسن تولى القيادة ، فحشد من سفن البنادقة كل ما استطاع أن يعثر عليه ، ونقل اليها يوحنا جرايللي وسائر من استطاع ان ينقذهم من العساكر ، وكان هو آخر من لحق بهم . وشاعت الفوضى المريعة على ارصفة الميناء ، إذ أن العساكر وسكان المدينة ، ومنهم نساء وأطفال ، تزاحموا على القوارب التي تسيّرها المجاديف ، يلتمسون الوصول الى السفن

الراسية قبالة الشاطىء . أما البطريرك الكهل ، نقولا هنابا ، الذي أصابه جرح طفيف ، فنقله خدامه المخلصون الى زورق صغير ، غير ان حب الخير حمله على ان يسمح بأن يصعد الى زورقه اللاجئون الذين بلغوا من كثرة العدد ان هوى الزورق بحمولته الى جوف البحر ، فغرق بجميع من فيه . على ان جماعة من الرجال حملتهم بديهتهم الحاضرة على ان يختطفوا قارباً ، وتقاضوا اجوراً باهظة من التجار والنساء الذين استبد بهم اليأس على رصيف الميناء . فالمغامر الكاتلاني ، روجر فلور الذي استبسل في القتال أثناء الحصار باعتباره من الداوية ، قاد سفينة كبيرة للداوية ، وحقق ثروة ضخمة بما ابتزه من اموال من نبيلات عكا[١] .

على ان السفن كانت من القلة مـا اعجزها عن انقاذ كل اللاجئين ولم

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 43 - 54.
Sanudo, pp. 230 - 231.
Amadi, pp. 220 - 225.
De Exidio, cols. 760 - 782.
Thaddeus, pp. 18 - 23.
Ludolf of Suchem, (P. P. T. S. pp. 54 - 61).
Al - Jazari, p. 5.
Makrizi, Sultans, II, I, pp. 125 - 126.
Abu'l Feda, pp. 164 - 165.
Abu'l Mahassin in Reinaud, op. cit. pp. 569 - 572.
Schlumberger, Byzance et Croisades, pp. 207 - 279.

اورد شلمبرجر وصفاً مسهباً شيقاً ، غير انه لم يشر الى المراجع والمصادر .

Muntaner, Cronica, (ed. Coroleu), p. 378.

يشير الى سلوك روجر فلور .

يلبث العساكر المسلمون ان شقوا طريقهم الى داخل المدينة ، يقتلون كل من يصادفهم ، من الشيوخ ، والنساء ، والأطفال ، سواء . أما الفئة القليلة من السكان الذين واتاهم الحظ الطيب ، بأن لزموا بيوتهم ، فتقرر نقلهم احياء وبيعهم ارقاء . غير ان لم يبق منهم على قيد الحياة إلا عدد قليل . فما من احد يستطيع ان يذكر عدد اولئك الذين هلكوا . وحاولت الطوائف الدينية العسكرية وأسرات التجار الكبيرة ان تضع فيما بعد قوائم بمن بقى على قيد الحياة ، غير ان مصير معظم افرادهم ليس معروفاً . وتحدث الرحالة الذين زاروا الشرق بعد سقوط عكا ، بأنهم شاهدوا بعض الداوية الذين ارتدوا عن دينهم يعيشون في بؤس وشقاء في القاهرة ، وأشاروا الى جماعة اخرى من الداوية تمارس قطع الاشجار في الغابات قرب البحر الميت . وتقرر اطلاق سراح بعض الاسرى فعادوا الى اوربا بعد ان ظلوا في الاسر تسع او عشر سنوات . أما الارقاء الذين كانوا فرساناً ، فإنهم لقوا هم وذريتهم من سادتهم قدراً من الاحترام . على ان عدداً كبيراً من النساء والاطفال اختفوا الى الأبد في حريم امراء المماليك . وبلغت الاعداد من الوفرة ، ان هبط ثمن الفتاة في سوق الرقيق بدمشق الى درهم ، على ان عدد من تعرّض للقتل من المسيحيين لا زال كبيراً[1] .

---

(۱) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 254 - 255.

Makrizi, op. cit. p. 126.

Bartholomew Cotton, p. 221.

اورد بارثولوميو رسالة السلطان الاشرف الى هيثوم ملك ارمينية .

انظر ايضاً : Röhricht, Geschichte, p. 1021, n. 3.

ولم تحل ليلة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ حتى اضحى في قبضة السلطان كل مدينة عكا ، فيما عدا دار الداوية الضخمة البارزة في داخل البحر ، في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وقد لجأ اليها من بقى على قيد الحياة من الداوية ، فضلاً عن عدد من السكان من كلا الجنسين . وظلت اسوارها الضخمة تتحدى العدو عدة ايام ، وخف لمساعدتها السفن ، بعد ان انزلت اللاجئين في قبرص . على ان السلطان الاشرف عرض بعد نحو اسبوع ، على مارشال الداوية ، بطرس سيفري انه اذا سلم له الحصن فإنه يسمح له بأن يبحر الى قبرص، مع كل الناس المقيمين بداخل الحصن ، بكل امتعتهم . وقبل بطرس الشروط ، وجرى الاذن لأمير مملوكي في مائة من المماليك ان يدخلوا الحصن ، ليشرفوا على التدابير ، بينما ارتفع لواء السلطان فوق البرج . غير انه انفلت زمام المماليك فأخذوا يضايقون ويهاجمون النساء والصبيان المسيحيين ، فاشتدت ثائرة فرسان الداوية ، فانقضّوا على المسلمين وذبحوهم ، ونزعوا لواء العدو ، وتجهزوا للمقاومة حتى الموت . ولما حل الليل ، بعث بطرس سيفري اموال الداوية مع قائد الطائفة ، ثيبالد جودين ، وفئة قليلة من غير المحاربين ، في زورق أقلّهم الى قلعة صيدا . وفي اليوم التالي عرض السلطان الاشرف ، مثلما فعل من قبل ، نفس الشروط المشرفة بعد ان شهد مناعة القلعة ، وشجاعة حاميتها النادرة . وتوجه بطرس في جماعة من رفاقه ، بعد الحصول على امان السلطان ، للمناقشة في تسليم الحصن . غير انهم ما كادوا يصلون خيمة السلطان ، حتى تمّ القاء القبض عليهم ، وتكبيلهم ، والمبادرة الى اعدامهم . ولما شهد المدافعون فوق الاسوار ما حدث ، اغلقوا باب الحصن ، ومضوا في القتال . غير انهم لم يستطيعوا ان يمنعوا المهندسين المسلمين من الزحف الى الاسوار ، وحفر نقب كبير بأسفلها . وفي ٨ مايو اخذ ينهار جانب البناء الذي يطل على البر . ولم

يتردد الاشرف في ان يقذف بألفين من المماليك في هذه الثغرة التي ازدادت اتساعاً . على ان الثقل كان من الشدة مـا لم تحتمله اساسات الحصن التي اخذت تتداعى . فبينما كانوا يشقون طريقهم الى داخل الحصن ، انهار كل البناء فهلك المدافعون والمهاجون معاً في خرائبه [١] .

تدمير عكا سنة ١٢٩١ :

ولم تكد عكا تصير في قبضة السلطان ، حتى شرع في تدميرها ، وفقاً لخطة موضوعة . إذ عزم على ألا تكون مرة اخرى رأس حربة لما يقوم به المسيحيون من اعتداء على سوريا ، فتقرر استباحة دورها وأسواقها ، ثم إشعال الحريق بهـا . وجرى تدمير استحكامات دور الطوائف الدينية العسكرية ، والأبراج والقلاع المنيعة ، وأمر بترك أسوار المدينة لما تتعرض له من التداعي والانهيار . ولما اجتاز عكا بعد اربعين سنة ، الحاج الالماني ، لودولف سوكيم ، لم يشهد سوى فئة قليلة من الفلاحين الاشقياء يعيشون في خرائب ما كانت تعتبر ذات يوم حاضرة رائعة للشرق الفرنجي . ولم تبقَ إلا كنيسة او كنيستان ، لم يكتمل تدميرهما . امـا المدخل الجميل لكنيسة القديس اندرياس فقد سبق انتزاعه لاستخدامه في زخرفة المسجد

---

(١) انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 255 - 256.
Bartholomew Cotton, p. 432.
Ludolf of Suchem, loc. cit.
Sanudo, p. 231.
Bar - Hebraeus, p. 493.

جعل ابن العبري سقوط عكا في سنة ١٢٩٢ .

الذي جرى تشييده بالقاهرة تكريماً للسلطان المظفر . ولم يتعرض لسوء قبر جوردان السكسوني الدومنيكاني الذي يقع داخل الجدر المنهارة لكنيسة القديس دومنيك ، وذلك بعد أن القى عليه المسلمون نظرة فاحصة ، وتبين لهم أن جثمانه لم يتعرض للفساد (١) .

وما تبقى من مدن الفرنج لم تلبث ان شاركت عكا في مصيرها . ففي ١٩ مايو ، وبعد ان اصبح معظم عكا في يدي السلطان الاشرف ، ارسل الى صور جيشاً . والمعروف ان صور تعتبر أمنع مدينة على الساحل ، كانت عسيرة المنال على كل عدو يفتقر الى السيادة على البحر . ففي الماضي استعصت اسوارها على صلاح الدين مرتين . وحدث قبل بضعة شهور أن الاميرة مرجريت التي كانت بحوزتها صور ، تنازلت عنها الى ابن اختها ، امالريك شقيق الملك . غير ان حاميتها كانت قليلة العدد ، فلم يكد العدو يقترب منها ، حتى فقد اعصابه آدم كافران ، نائب امالريك في صور ، فأبحر الى قبرص ، بعد أن تخلى عن المدينة دون قتال (٢) . وعزم الداوية

---

(١) انظر : Enlart, Monuments des Croisés, II, pp. 9 - 11.
Etienne de Lusignan, Histoire de Chypre, fol. 90.
Ludolph of Suchem, (P. P. T. S. p. 61).

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 254.
Sanudo, loc. cit.
Al - Jazari, p. 6.
Abu'l Feda, p. 164.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 126.
Gestes, p. 237.
يشير الى ان مرجريت لا زالت سيدة صور في سنة ١٢٨٩ ، على الرغم من ان هـذا المصدر يتحدث عن امالريك على انه سيد صور سنة ١٢٨٨ . انظر ايضاً :
Hill, op. cit. p. 182, n. 5.

على ان يقاوموا في صيدا . إذ كان بها ثيبالد جودين بما حمله من اموال الداوية ، وقد اختاره من بقي من فرسانهم على قيد الحياة ، مقدماً لهم خلفاً لوليم بوجيه . ظلوا يعيشون في هدوء وسلام لمدة شهر ، ثم قدم اليهم جيش مملوكي ضخم بقيادة الامير الشجاعي . وكان فرسان الداوية من القلة ما يمنعهم من المحافظة على المدينة (صيدا) ، ولذا لجأوا مع عدد كبير من أعلام السكان ، الى قلعة البحر ، المشيدة على جزيرة صخرية على مسافة مائة ياردة من الشاطىء ، وقد تجددت عمارة استحكاماتها منذ زمن قريب . وبادر ثيبالد على الفور الى الاقلاع الى قبرص لتجنيد العساكر لبذل المساعدة للقلعة . غير انه لم يفعل شيئاً عند وصوله الى الجزيرة ، إما لجبن منه ، وإما لما استحوذ عليه من اليأس . واستبسل الداوية بالقلعة في القتال ، غير انه لما شرع المهندسون في تشييد جسر في عرض البحر ، فقد الداوية الامل ، وأبحروا مساحلين الى انطرطوس ، ودخل الشجاعي ، في ١٤ يوليه ، القلعة وأمر بتدميرها (١) .

ولم يمضِ اسبوع حتى ظهر الشجاعي امام بيروت . وكان سكانها يأملون في ان المعاهدة التي انعقدت بين سيدتها ايشيفا وبين السلطان سوف تحفظهم من كل اعتداء . فلما أصدر الامير الشجاعي الاوامر الى

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 256 - 257.
Annales de Terre Sainte, p. 460.
Al - Jazari, p. 7.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 131.
Abu'l Feda, loc. cit.

قادة الحامية بالقدوم عليه ، وبذل مظاهر الاحترام ، بادروا في لهفة الى الاذعان له ، غير انهم لم يلبثوا ان وقعوا في الأسر . وإذ لم يعد للحامية قادة ، لم يفكر رجالها في الدفاع ، فهرعوا الى سفنهم ولاذوا بالفرار بعد ان حملوا معهم المخلفات الدينية في الكاتدرائية . ودخل المماليك بيروت في ٣١ يوليه سنة ١٢٩١ ، وتقرر هدم أسوارها وتحطيم قلاع أسرة ابلين ، وتحولت الكاتدرائية الى مسجد [١] .

ولم يلبث السلطان بعدئذ ان احتل حيفا دون ان يصادف مقاومة ، في ٣١ يوليه ، فأشعل رجاله الحريق في الأديرة الواقعة على جبل الكرمل ، وقتلوا رهبانها . ولم تبقَ سوى قلعتي انطرطوس وعثليت ، غير ان لم تكن الحامية بكل منهما من القوة ما يكفي لمواجهة الحصار . فجلت عن انطرطوس في ٣ اغسطس ، ومن عثليت في ١٤ اغسطس سنة ١٢٩١ . ولم يعد بحوزة الداوية سوى الحصن الواقع بجزيرة ارواد التي تقع على مسافة ميلين من الساحل ، قبالة انطرطوس . فظلوا محافظين على موقعهم اثنتي عشرة سنة اخرى ، ولم يغادروا الجزيرة إلا سنة ١٣٠٣ ، بعد ان اصبح مستقبل كل الطائفة (الداوية) موضع شك [٢] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 257 - 258.
Al - Jazari, loc. cit.
Makrizi, loc. cit.
Abu'l Feda, loc. cit.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 259.
Annales de Terre Sainte, loc. cit.
Al - Jazari, p. 8.
Makrizi, Sultans, II, I, p. 126.
Abu'l Feda, loc. cit.

نهاية الشرق الفرنجي سنة ١٢٩١ :

وظلت جيوش السلطان تذرع بلاد الساحل من أقصاه الى أقصاه بضعة شهور ، تحرص على ان تدمر كل ما تعتبره ذا قيمة للفرنج ، اذا حاولوا مرة اخرى النزول الى البر . إذ تقرر اجتثاث اشجار الحدائق ، وتعطيل أدوات الري . ولم يسلم من القلاع من التحطيم ، إلا تلك التي تقع في ظهير الساحل ، أمثال جبل الحاج في طرابلس ، والمرقب الرابض بأعلى الجبل بطرابلس . وعلى امتداد البحر سادت الوحشة والخراب ، إذ ان الفلاحين الذين كانوا في وقت من الاوقات يعملون في مزارع خصيبة ، شهدوا ما أصاب أبنية الضياع من الدمار ، فالتمسوا لهم ملاذاً في الجبال . أما من كان منهم ينتمي الى اصول الفرنج فبادروا الى الامتزاج والاندماج بالسكان الوطنيين ، فما سبق ان اتصف الاسلام به من التسامح قد ولى ، إذ لم يبدِ المنتصرون شيئاً من الرحمة نحو الكفار ، نظراً لما ولدته الحروب الدينية الطويلة فيهم من المرارة [١] .

ولم يكن المسيحيون الذين فرّوا الى قبرص بأحسن حظاً . إذ ظلوا جيلاً من الزمان يعانون الحياة التعسة على انهم لاجئون ليس مرغوباً فيهم ، إذ تضاءل العطف عليهم كلما مضت السنوات . إذ أضحوا يذكرون القبارصة بالكارثة المروّعة ، ولم يكن القبارصة في حاجة الى من يذكرهم . وظلت عقائل الجزيرة مدة قرن ، يرتدين عند خروجهن من دورهن ، العباءات السوداء التي تغطيهن من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وكان ذلك رمز الحداد على زوال الشرق الفرنجي [٢] .

---

(١) انظر ما يلي ، الكتاب الخامس ، الفصل الثاني .

(٢) انظر : Sanudo, p. 232. Cobham, Cypria, pp. 17 - 22.

الكتاب الخامس

الخــــاتمة

الفصل الاول

أواخر الحملات الصليبية

الواقع أن الحركة الصليبية اخذت في الخروج من مجال السياسة العملية ، بعد سقوط عكا وطرد الفرنج من سوريا . إذ حدث بعد فتوح صلاح الدين ، قبل قرن من الزمان ، أن المسيحيين ظلوا يحتفظون بالحصون الضخمة على الساحل السوري ، في صور ، وطرابلس ، وأنطاكية . فكان للجيش القادم للانقاذ قواعد ، يستطيع منها ان يباشر العمليات الحربية . على ان هذه القواعد قد ضاعت . وليس لجزيرة ارواد التي لا ماء بها قيمة او اهمية ، ولذا كان لا بد للحملات ان يجري تنظيمها وإمدادها بالمؤن من جزيرة قبرص في عرض البحر . ولم يبق من الممتلكات المسيحية ، سوى مملكة ارمينية في قليقية . ولم يكن المسير من قليقية الى سوريا امراً هيناً ، ولم يكن الارمن موضع ثقة ، ومن هنا يعتبر ضياع بيت المقدس سنة ١١٨٧ صدمة عنيفة للعالم المسيحي ، إذ أن المملكة انهارت فجأة . غير ان كل فرد كان يعلم سنة ١٢٩١ ان الشرق الفرنجي اخذ يتفتت ويتداعى .

ومع ان اختفاءه اثار الحزن والغضب ، فإنه لم يكن موضع دهشة ، إذ أن غرب اوربا شغله وقتذاك ما وقع في بلاده من مشاكل ومنازعات . فلم يعد بـه جذوة الحماس التي تدفع امراءه وسادته للسير صوب الشرق ، مثلما حدث ايام الحملة الصليبية الثالثة ، بل انـه ليس باستطاعة غرب اوربا ان يوجه الى الشرق حملة شعوب مثل الحملة الصليبية الاولى . إذ أن شعوب الغرب اخذت تنعم بما استجد من اسباب الراحة والرخاء . فلن يستجيبوا مطلقاً لما قد يقوم به امثال بطرس الناسك من دعوى مستندة الى النبوءات ، بنفس التقوى الساذجة الجاهلة التي اشتهر بها اجدادهم قبل قرنين من الزمن . إذ لم يقتنعوا بما انطوت عليه الامتيازات المبذولة من وعود ، وصدمهم ما حدث من استخدام الحرب المقدسة لتحقيق اغراض سياسية . كما ان اعداد حملة حربية ضخمة ،كان بعيد الاحتمال ، بعـد ان اضحت الامبراطورية البيزنطية الضخمة طيفـاً . ومع ان نهاية الشرق الفرنجي تعتبر امراً محزناً ، فإنها لم تثر رد فعل عنيف .

الافتقار الى الحلفاء :

على ان البابا نقولا الرابع وحده هو الذي سعى لأن يقرن أساه بالعمل . غير انه ما من احد من الرجال يستطيع ان يتوجه اليه . فما كان للبابوية من مكانة جردها من قوتها مـا اصابها من فشل في الحرب الصقلية . ولم يعد الملوك يعبأون بتنفيذ امر البابا . فأمبراطور الغرب الذي حطم البابا ما كان له من سلطة عالمية قـد انغمس في امور المانيا ، فإذا خرج من المانيا ، فللقيام بعد لأي بحملة الى ايطاليا . وبرغم مـا اشتهر به فيليب الرابع ملك فرنسا من الكفاية والنشاط ، فإنه انفق طاقته في بناء السلطة

الملكية ، بعد ان خلص مملكته من الحرب الصقلية ، وكان لادوارد ملك انجلترا ما يستغرق كل اهتمامه في اسكتلندا . يضاف الى ذلك ان انجلترا وفرنسا كانتا تتحركان نحو التنافس الحـــاد الذي لم يلبث ان ادى الى حرب المائة عام . أما الملك الذي حاز اقوى اسطول في البحر المتوسط وهو جيمس الثـاني ملك أراجون ، فكان هو وأخوه فردريك المطالب بعرش صقلية ، في قتال مـــع تابع البابا ، شارل الثاني ملك نابولي الذي توافرت عنده الرغبة ، من الناحية النظرية ، في ان يسهم في اعداد حملة صليبية ، غير انه كان لزاماً عليه قبل كل شيء ان يطرد الارجونيين من صقلية . وفي اقصى شرق اوربا ، انصرف الامبراطور البيزنطي لدرء خطر الترك من جهـة ، وخطر مملكتي البلقان الحديثتين ، بلغاريا والصرب ، من جهة اخرى . يضاف الى ذلك مـــا صار للانجويين في نابولي من دعاوى الاباطرة اللاتين بعد ان تجردوا من ممتلكاتهم . ولذا لم يأمل وليهم البابا في ان يظفر بقدر كبير من عطف البيزنطيين . اما المدن التجارية بإيطاليا فإنه بلغ من شدة انصرافها الى تطويع سياستها لتلائم الاحوال والظروف المتغيرة ، انه لم يكن بوسعها ان تبذل من الوعود مـــا يسبب لها الحيرة والإرتباك . على ان ملكي قبرص وأرمينيا كانا اشدّ الملوك اهتماماً بالمشكلة نظراً لأن مملكتيهما اضحتا في خط المواجهة ، ولا بـدّ لأيتهما ان تصير قاعدة لكل حملة صليبية جديدة . غير انهما كانا شديدي الحرص على ألا يثيرا غضب السلطان . إذ كان لزاماً على ملك ارمينيا ان يناضل الترك والمصريين معاً ، كما تحتم على ملك قبرص ان يحل مشكلة اللاجئين . يضاف الى ذلك ان كلتا الاسرتين الملكيتين ، اللتين وثقت المصاهرة ما بينهما من علاقات ، لم تلبثا ان وقعتا في منازعات أسرية وحروب اهلية . ومع ان ارغون ايلخان فارس لا زال حليفاً قوياً ، فإنه قد استبدّ به اليأس ، بعد

ان فشل في اثارة الغرب للقيام بعمل من الاعمال ، قبل سقوط عكا . ولذا فلن يفعل شيئاً بعدئذ . وحدث سنة ١٢٩٥ ، عقب وفاة ارغون ، ان اعتنق الايلخان غازان الإسلام ، واعتبره الديانـة الرسمية للايلخانية ، وتخلص من ولائه للخان الكبير في الشرق . وكان غازان صديقاً للمسيحيين، نظراً لأنه قام على تربيته وتنشئته ديسبينا خاتون ، زوجة الايلخان اباقا الجميلة ، التي لقيت التبجيل والتقدير في كل الشرق . على ان اعتناقه للاسلام لم يقلل بحال من الاحوال من كراهيته للمصريين والترك . ولكن لم يعد المغول يوفدون سفارات الى رومـا ، ولا امل في ان تصير فارس دولة مسيحية . واذا كان من المحقق ان البابا ارسل من قِبله الى بكين مبعوثاً ، الراهب يوحنا رئيس دير جيل كورفينو ، الذي ظفر بصداقة قبيلاي ، فالواقع أن الخان الكبير لم يعد يحفل بأمور الشرق الادنى [١] .

أما الطوائف الدينية العسكرية ، التي نشأت اصلا للقتال في الارض المقدسة من اجل العالم المسيحي ، فلا زال ذلك واجبها الأساسي . على ان طائفة الفرسان التيوتون غادروا الشرق بعد سقوط عكا (سنة ١٢٩١) ، وتوجهوا الى أملاكهم على بحر البلطيق [٢] . بينما اتخـــذ كل من الداوية

---

(١) انظر : Baluze, Vitae Paparum Avenionensium, (ed. Mollat), III, p. 156.
Atiya, The Crusade in the Late Middle Ages, pp. 34 - 36, 248 - 252.
Hill, History of Cyprus, II, pp. 103 ff.
Browne, Literary History of Persia, III, p. 40.

(٢) الواقع ان الفرسان التيوتون نقـــلوا مقرهم الى البندقية سنة ١٢٩١ ، ثم تحولوا الى ماريلبورج في بروسيا سنة ١٣٠٩ . وعن تاريخهم بعدئذ انظر ما كتبه بوزويل في :
Cambridge Medieval History, vol. VII, pp. 248 ff.

والاسبتارية مقراً لهم في جزيرة قبرص . وإذ عجزت الطائفتان عن مباشرة واجباتها على النحو السليم في قبرص، تدخلتا في السياسات المحلية . والراجح ان البابا كان يقدرهما ، لما قد تبذلانه من مساعدة لما يصح توجيهه من حملة صليبية . على أن ما كان لهما من أحباس ضخمة في جميع أنحاء اوربا أثارت من الغيرة والحسد مـا قد يؤدي الى نتائج وخيمة ما لم تثبتا مبرراتها . وليس بوسع الداوية والاسبتارية ان يتعاهدا حملة صليبية مـا لم يتلقيا مساعدة [1] .

لقد فشل البابا نقولا في إثارة الغرب بعـد سقوط طرابلس . كما انه كان بالغ العجز ، بعـد الكارثة الكبرى التي حلت بعكا . لم يبذل له مستشاروه شيئاً من المساعدة . إذ ان شارل الثاني ملك نابولي أيّد الاقتراح الذي سبق عرضه منذ بضع سنوات ، والذي يقضي بأنـه للقضاء على التنافس بين الطوائف الدينية الحربية لا بد من اندماجها ، غير انه اعتقد انه من المستحيل في الوقت الراهن القيام بعمل حربي في الشرق ، ولكنه أيّد فرض حصار اقتصادي على مصر وسوريا ، فمن اليسير إجراء هـذا الحصار ، الذي يلحق ضرراً بليغاً بالسلطان . والواقع انه يتعذر تحقيق ذلك من الناحيـة العملية ، فلن تشترك فيه المدن التجارية الايطالية او البروفنسالية ، او الأرجونية ، إذ ان رخاءها يتوقف على التجارة الشرقية ، التي يجتاز قدر كبير منها ممتلكات السلطان [2] . والواقع انه اذا توقفت هذه

---

(١) انظر ما يلي ص ٧٢٨ وما يليها .

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 35 - 36.

التجارة ، فلن يكون بوسع هذه المدن التجارية الإبقاء على أساطيلها ، وبذا يتيسر للمسلمين ان يسيطروا على البحر المتوسط . ومن سوء الحظ ان الاسلحة تؤلف أهم سلعة يصدرها المسيحيون مقابل ما يحوزونه من المتاجر الشرقية ، ولكن ما الاهمية التي تنجم عن حرمان اوربا مما يجلبه هـذا النشاط التجاري من فوائد ؟ فقد تحتج الكنيسة على ما يجري من تبادل هذه السلع المنكرة ، غير ان المصالح التجارية أضحت وقتذاك أقوى من الكنيسة . وتوفي البابا نقولا الرابع سنة ١٢٩٠ ، بعد ان خاب أمله في كل جهوده [١] .

وما من احد من أخلافه حقق ما هو خير من ذلك من النتائج . على انه اذا كانت الحملة الصليبية افتقرت الى الرجال ، فإن احساس العـالم المسيحي بالخجل ولـّد موجة جديدة من الدعاية . لم يعد الدعاة مبشرين جوابين مثلما حدث في الماضي ، بل أضحوا رجالاً مثقفين ، ألفوا الكتب والعجالات ، كيما يبينوا الحاجة الى حملة مقدسة ، انفرد كل مؤلف بخطة لتسيير الحملة . ففي سنة ١٢٩١ أصدر راهب فرنسيسكاني اسمه فيدنتشيو بادوا ، درج البابا فيما مضى على إيفاده في السفارات الدبلوماسية ، وطاف بأنحاء شاسعة في الشرق ، عجالة بعنوان كتاب عن استعادة الارض المقدسة (Liber de Recuperatione Terra Sancte) أهداه الى البابا نقولا الرابع . وتشتمل هذه العجالة على دراسة قيمة عن تاريخ البلاد المقدسة ، فضلاً عن مناقشة حول نوع الجيش المطلوب لاستردادها ، والطرق البديلة التي يصح

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. p. 45.

ان يسلكها الجيش . وغلب على هـذه العجالة الصفة الاخبارية ، واتسمت بحسن التدليل . على ان فيدنتشيو افترض ان الجيش سوف يتيسر إعداده ، وقدّر ان لقائد الجيش الاختيار النهائي للطريق الذي يسلكه (١) . وفي السنة التالية ، سنة ١٢٩٢ ، نشر الراهب ثاديوس نابولي تقريراً عن سقوط عكا . ويعتبر قصة حية ، موشاة بمـا جرى الاسراف في توجيهه من تهم الجبن الى كل من كان فعلاً حاضراً في عكا . والواقع ان ما اتسمت بـه لغة ثاديوس من العنف كان امراً مقصوداً ، إذ كان يرمي الى ان يلحق بالغرب من العار ما يحمله على القيام بحملة صليبية ، وختم كتابه بما وجهه من نداء حار الى البابا والامراء والمؤمنين للنهوض لتخليص البلاد المقدسة التي تعتبر تراث المسيحيين (٢) .

ريمون لل :

من المحقق ان كتاب ثاديوس قـد تأثر به الداعي الذي تلاه ، وهو جنوي اسمه جلفانو ليفانتي ، كان طبيباً بالبلاط البابوي . على ان كتابه الذي اصدره سنة ١٢٩٤ ، وأهـداه الى فيليب الرابع ملك فرنسا ، لم يكن إلا خليطاً من الأقيسة المستمدة من لعبة الشطرنج ، ومن عظات الزهد ،

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 36 - 43.

نشر رسالة فيد نتشيو جولو بوفلش في :

Bibliotheca Bio - Bibliografica della Terra Sancta, II, pp. 9 ff.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 31 - 34.

Hystoria de Desolatione.

قام على نشره ريان .

وكان خلواً من كل اتجاه عملي[1] . على ان المبشر الاسباني الكبير ، ريمون َلل ْ ، يفوق في الأهميــــة كلا من تاديوس وجلفانو . ُولد َلل ْ في ميوريقا سنة ١٢٣٢ ، وتقرر اعدامه رجماً بالحجارة في بوجيه بشمال افريقية سنة ١٣١٥ . ومع ان شهرته بلغت الذروة باعتباره من الزهاد ، فانه كان في الوقت ذاته يعتبر من رجال السياسة العمليين . إذ كان واسع المعرفة باللغـــة العربية ، وطاف بكثير من الأقاليم الاسلامية ، وفي سنة ١٢٩٥ أتحف البــابا بمذكرة عن الاجراء المطلوب لقتــال المسلمين ، ثم اصدر في سنة ١٣٠٥ كتابه المعروف باسم (Liber de Fine) الذي حوى بالتفصيل افكاره ، وعرض منهجاً يصح ممارسته من الناحية العملية . إذ ينبغي على المبشرين الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم ان يبذلوا كل جهـــد للظفر بالمسلمين وسائر الكنائس المسيحية المنشقة والملحـدة ، على انه لا بد في الوقت ذاته من اعداد حملة مسلحة . وينبغي ان يتولى قيادتها ملك محارب (Rex Bellator) ، وأن تتوحد الطوائف الدينية الحربية تحت قيادته في طائفة واحدة ، تعتبر العمود الفقري للجيش . ويقترح َلل ْ أن من واجب الحملة الصليبية طرد المسلمين من اسبانيا ، ثم تعبر الى افريقية وتتحرك على امتداد الساحل الى تونس ، ثم الى مصر . على انه أوصى فيما بعـد بحملة بحرية ، بأن اقترح انه لا بد من الاستيلاء على مالطة وردوس بما لهما من مرفأين فائقين ، واتخاذهما قاعدتين . ويبدو انه فيما بعـــد آثر ان تنتزع الحمـلة البرية القسطنطينية من اليونانيين ، ثم تمضي في سيرهـا عبر بلاد الأناضول . وتوافرت عنده نصيحة ملموسة عن تنظيم الجيش والاسطول ،

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 71 - 72.

وعن كميات المؤن الغذائية والمواد الحربية ، فضلاً عن التعليمات التي يتزوّد بها المبشرون الذين يرافقون الجيش . ومع ان الكتاب انطوى على حشو كثير ، وبه متناقضات في بعض الاحوال ، فانه من تأليف رجل معروف بذكائه النادر ، وخبرته الواسعة ، على الرغم من ان اتجاهه من المسيحيين الشرقيين اتسم بالتعصب الكريه [1] .

على انه حينما ألّف ريمون لَلْ كتابه ، تراءى كأن حملة صليبية تلوح فعلاً في الأفق . إذ سبق لفيليب ملك فرنسا ان اعرب عن رغبتـه في إعداد حملة ، كما انه جرى في البلاط البابوي وفي باريس ، إعداد ودراسة الخطط اللازمة لتسييرها . والواقع ان الباعث الحقيقي لفيليب الذي يقضي بأن ينتزع من الكنيسة الاموال بهذا العذر العجيب ، لم يكن حتى وقتذاك ظاهراً للعيان . إذ أنه خرج منـذ زمن قريب منتصراً من شجاره مع البـابا بونيفاس الثـامن ، الذي اكتشف ان الخطة التي دمّرت اسرة هوهنشتاوفن ليست مجدية مع الملكيات الجديدة في الغرب . فالبابا كليمنت الخامس الذي وقع الاختيار عليه في سنة ١٣٠٥ ، كان فرنسياً ، استقر في افينيون ، على طرف ممتلكات ملك فرنسا ، وأظهر الانصياع الدائم للملك ، وبادر الى ان يجمع المذكرات ليسترشد بها الملك، ويهتدي بها [2].

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 74 - 94.
اورد عطية مناقشة مستفيضة عن حياة لل ومؤلفاته المرتبطة بالحرب الصليبية .

(٢) انظر : Atiya, op. cit. p. 48.

اقتراحات للقيام بحملة صليبية :

لم يعرض على فيليب إلا أهم هـذه المذكرات . إذ تقدم اليه بطرس ديبوا ، من رجال القانون الفرنسيين ، بعجالة ، يوجه شطر منها الى امراء اوربا ، بأن طلب اليهم الاشتراك في الحركة بزعامة ملك فرنسا ، وبأن جعل توصيات خاصة تتعلق بالطريق الذي ينبغي اتخـاذه ، والوسائل اللازمة لتمويل الحملة . فلا بد من سحق الداوية ، وانتزاع أملاكهم ، وينبغي فرض ضريبة التركات على رجال الدين . وأضاف ديبوا بعض مقترحات عامة حول النزوع الى السماح للقسس بالزواج ، وتحويل الأديرة الى مدارس للبنات . أما الشطر الآخر من العجالة فلم يكن سوى نصيحة خاصة الى الملك ، ينهي اليه كيف يتسنى له السيطرة على الكنيسة بأن يجعل في مناصب الكرادلة مَن يؤيدونه ، ويحثه على ان يقيم امبراطورية شرقية يتولاها احد أبنائه [١] . ولم يلبث وليم نوجاريت كبير المستشارين الدبلوماسيين عند فيليب ، ان ارسل سنة ١٣١٠ الى البابا مذكرة عن الحملة الصليبية . ومـا حوته هـذه المذكرة من مقترحات استراتيجية كان ضئيلاً ، إذ جعلت تركيزها الاساسي على التمويل . فلا بد للكنيسة ان تبـذل كل الاموال ، وكان تدمير الداوية اول نقطة في البرنامج [٢] . والتمس البابا ، في الوقت ذاته ، النصيحة . إذ طلب الى الامير الارمني هيثوم او هايتون

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 48 - 52.
Hill, op. cit. II, p. 239.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 53 - 55.

كوريكوس ، الذي لجأ الى فرنسا ، وأضحى مقدم دير في برايمو نسترانت ، قرب بواتييه ، ان يبعث بآرائه . وصدر في سنة ١٣٠٧ كتابه المعروف باسم (Flos Historiorum Terre Orientis) ، الذي اشتدّ على الفور الإقبال على شرائه . وشمل هذا الكتاب خلاصة موجزة لتاريخ الشرق الأدنى، مع مناقشة وثيقة الدراية عن حالة الامبراطورية المملوكية . أوصى هايتون بتوجيه حملة مزدوجة ، تسير بحراً ، وتتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين لها ، وأيّد التعاون مع الارمن ، والتحالف الوثيق مع المغول [١] . على ان آراء مماثلة عبّر عنها فيما بعد وليم آدم الدبلومامي البابوي ، الذي طاف في أرجاء شاسعة في الشرق ، ومضى في اسفاره حتى بلغ الهند . إذ أضاف اقتراحاً يقضي بأنه ينبغي ان يكون للمسيحيين اسطول في المحيط الهندي ، كيما يقطع تجارة مصر الشرقية . وفكر ايضاً في انه لا بد للاتين ان يستردّوا القسطنطينية [٢] . وصنف وليم ديورانت اسقف منده ، رسالة سنة ١٣١٢ ، أوصى فيها باستخدام الطريق البحري ، وأكّد تأليف حملة ، وأشار بصفة خاصة الى مراعاة سلوك أفرادها [٣] . اما امير البحر الجنوي

---

(١) جرى نشر كتاب هايتون في :

Recueil des Historiens des Croisades.
Documents Armeniens, vol. II.

انظر : Atiya, op. cit. pp. 62 - 64.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 64 - 67.

صدر كتاب آدم على انه ملحق لكتاب هايتون في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) انظر : Atiya, op. cit. pp. 67 - 71.

الشيخ ، بنيتو زكريا ، الذي سبق ان كان يودشنا طرابلس ، فانه أثبت آراءه عن القوات البحرية المطلوبة [1] .

على ان ما يفوق هذه الاقتراحات من الناحية العملية كانت تلك التي وضعها ثلاثة من الأعلام الذين لا بد ان يشتركوا في كل حملة صليبية . ففي سنة ١٣٠٧ ، كان في أفينيون ، مقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، فطلب اليهما البابا كليمنت ان يبديا آراءهما . فبادر مقدم الداوية جيمس مولاي على الفور الى ارسال تقرير ، أوصى فيه بأن تتولى عشر سفن كبيرة اول الامر تطهير البحار ، ثم يتلوها ارسال جيش يتراوح عدده على الأقل بين اثني عشر الف وخمسة عشر الف فارس ، وبين اربعين وخمسين الف راجل . ولن يلقى ملوك الغرب صعوبة في تجنيد هذه الأعداد ، وينبغي حمل الجمهوريات الايطالية على ان تتعاهد بنقلهم . لم يقر النزول في قليقية ، إذ ينبغي ان يحتشد رجال الحملة في قبرص ، وأن يهبطوا على الساحل السوري [2] . وحدث بعد اربع سنوات ، عند انعقاد مجمع فيينا ، ان كتب فولك فيلاريت ، مقدم الاسبتارية ، الى فيليب ملك فرنسا ، ينهي اليه ما سبق لطائفته أن أعدته ، وما تستطيع ان تجريه من استعدادات للحملة الصليبية [3] . وفي نفس الوقت تقدم هنري الثاني ملك قبرص بآرائه الى المجمع ، إذ كان يودّ فرض حصار اقتصادي على الامبراطورية

---

(١) انظر : Ibid, pp. 60 - 61.
Mas Latrie, Documents, II, p. 129.

(٢) انظر : Baluze, op. cit. II, pp. 145 ff.

(٣) انظر : Delaville Le Roulx, France en Orient, II, pp. 3 - 6.

المملوكية . على انه ، لأسباب وجيهة ، لم يثق في الجمهوريات الايطالية ، وأصرّ على انه ينبغي على الحملة الصليبية ألا تركن اليهم في نقلها بحراً . أيّد فكرة شنّ هجوم على مصر ذاتها ، باعتبارها أسهل بلاد السلطان منالاً [١] .

وعلى الرغم من كل هذه المذكرات وهذا الحماس ، استبدّت الدهشة وخيبة الامل بكل انسان ، ما عدا الملك فيليب ، حينما لم توجه الحملة الصليبية . حقق فيليب غرضه في العثور على مبرر للحصول على المال من الكنيسة ، ولم يلبث ان اظهر آراءه الحقيقية ، بما شنه من هجوم على منظمة كبيرة تعتبر مساعدتها جوهرية لكل حملة صليبية [٢] .

الاسبتارية يحتلون جزيرة رودس سنة ١٣٠٨ :

الواقع ان ضياع الشرق الفرنجي جعل الطوائف الدينية العسكرية في حالة قلق واضطراب . على ان الفرسان التيوتون حلّوا مشكلتهم بأن ركزوا كل جهودهم في فتح بلاد البلطيق [٣] . أما الداوية والاسبتارية فانهم تعرضوا في قبرص للقيود ، ولم يلقوا شيئاً من التقدير الذي يأملونه . وإذ كان الاسبتارية أكثر تعقلاً وحكمة من الداوية ، أخذوا يبحثون عن وطن آخر . إذ قدم الى قبرص ، سنة ١٣٠٦ قرصان جنوي اسمه فينولو دي فينولي سبق ان حصل من الامبراطور البيزنطي اندرونيقوس على عقد

---

(١) انظر : Mas Latrie, Documents, II, pp. 118 - 125.
Atiya, op. cit. pp. 58 - 60.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 53, 73.

(٣) انظر ما سبق ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

باستئجار جزيرتي كوس وليروس ، فعرض على مقدم الاسبتارية ، فولك فيلاريت ، بأن يقوم مع الاسبتارية بفتح جميع جزر ارخبيل الدوديكانيز ، واقتسامها معاً ، على ان يحتفظ لنفسه بالثلث . وبينما أقلع فولك الى اوربا ليحصل على موافقة البـــابا على الخطة ، رسا على جزيرة رودس اسطول صغير للاسبتارية ، يسانده بعض السفن الجنوية ، وشرع في تؤدة يخضع الجزيرة . استبسلت الحامية اليونانية بالجزيرة في القتـال ، ولم تسقط قلعة فيليرمو الكبيرة في أيدي الغزاة في نوفمبر سنة ١٣٠٦ إلا بالخيانة ، بينما ظلت مدينة رودس ذاتها تقاوم لمدة سنتين أخريين . وحدث آخر الامر ، في صيف سنة ١٣٠٨ ان سفينة تقلُّ أمداداً للحامية مرسلة من القسطنطينية ، ساقتها العواصف الى جزيرة قبرص ، وقعت في فاماجستا في قبضة فارس قبرصي ، اسمه فيليب الاصفر ، فسار بها بمن فيها من الركاب الى المحاصرين . ووافق قائدها وهو من رودس كيما ينجو بحياتـه على إجراء المفاوضات حول تسليم المدينة (رودس) ، التي فتحت أبوابهـــا للاسبتارية في ١٥ اغسطس سنة ١٣٠٨ . فبادر الاسبتارية على الفور بإقامة مقرهم في الجزيرة (رودس) ، وجعلوا من المدينة بمينائها الرائع أمنع حصن في شرق البحر المتوسط . وإذ تحقق الفتح على حساب اليونانيين المسيحيين ، لقي ترحيباً كبيراً في الغرب ، باعتبار انه انتصار صليبي . والواقع ان فتح رودس وهب الاسبتارية قوة جديدة ، وهيأ لهم الوسيلة التي تحملهم على المضي الى تحقيق الامل المنشود . على انه كان لزاماً على سكان رودس ان ينتظروا ما يزيد على ستة قرون ، حتى يستردوا حريتهم (١) .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 319 - 323.
Delaville Le Roulx, Hospitaliers en Terre Sainte, pp. 273 - 280.
Amadi, pp. 254 - 259.

أما الداوية فكانوا يقلون عن الاسبتارية في المغامرة وفي الحظ ، انما فاقوام فيما كانوا يثيرونه دائماً من العداوة ، وكانوا اكثر ثراء منهم . فالمعروف انهم ظلوا زمناً طويلاً اكبر صيرفي ، ومقرض للمال في الشرق، وأحرزوا نجاحاً كبيراً في مهنة لا توحي بالاحترام . وجرى دائماً نعت سياستهم بأنها تقوم على الأثرة وانعدام المسئولية . وعلى الرغم مما اشتهر به فرسانهم من البسالة في القتال في اوقات الحرب ، فإن نشاطهم المالي أدى الى ان يكونوا على اتصال وثيق بالمسلمين ، إذ اتخذ كثير منهم اصدقاء من المسلمين ، واهتموا بالديانة والدراسات الاسلامية . ترددت الشائعات ان الداوية يدرسون وراء اسوار قلعتهم فلسفة غريبة ويمعنون في طقوس جرى نعتها بالهرطقة . وكان للمبتدئين (المريدين) فيما يقال شعائر منافية للدين والأخلاق ، وكثر الهمس عما يصحب ممارسة الرذائل المنافية للطبيعة من شعائر العربدة . ولم يكن من الحكمة استبعاد هذه الشائعات واعتبارها اختراعاً من قِبل الاعداء لا يستند الى اساس سليم ، والراجح أنه توافر بهذه الشائعات من المادة ما يكفي لتقرير الخط الذي يجري عليه الاقتناع بمهاجمة الداوية [1] .

---

(١) وردت مناقشة منطقية عن سوء سمعة الداوية في :

Martin : The Trial of the Templars, pp. 18 - 24, 46 - 59.

على ان فضيحة محاكمتهم المجردة من العدالة ، جعلت المؤرخين ينزعون الى انه لا غبار عليهم. والواضح ان الشكوك والريب حول عاداتهم لم تكن كلها مجردة من الاسباب . وما يتعلق بهم من وثائق ومصادر نشرها :

Lizerand, Le Dossier de l'Affaire des Templiers.

Melvin, La Vie des Templiers, pp. 246 ff.

نزعت الآنسة ميلفين الى تبرير تصرفات الداوية .

محاكمة الداوية سنة ١٣٠٨ :

ولما توجه جيمس مولاي الى فرنسا سنة ١٣٠٦ ليدرس مع البابا كليمنت الحملة الصليبية التي جرى وضع خطتها ، سمع ان التهم قد وجهت الى طائفته (الداوية) ، فطلب اجراء تحقيق عام ، فتردد البابا . أدرك أن الملك فيليب عزم على سحق الطائفة ، فلم يجرؤ على إثارة غضبه . على ان فيليب امر فجأة ، في اكتوبر سنة ١٣٠٧ ، بإلقاء القبض على جميع من كان بفرنسا من رجال الداوية ، وبمحاكمتهم عن الإلحاد بمقتضى التهم التي صاغها فارسان اشتهرا بسوء السمعة ، وسبق طردهما من الطائفة . وأدلى المتهمون بما لديهم من بيانات بعد ان تعرضوا للتعذيب . ومع أن فئة قليلة منهم أصرّت على إنكار كل شيء ، فان الغالبية اعربت عن ارتياحها للاعتراف بكل ما يطلب منها . وفي الربيع التالي اصدر البابا ، بناء على طلب الملك فيليب الاوامر الى كل امير ، يحوز الداوية ممتلكات ببلاده ، بالقاء القبض عليهم ، والشروع في اجراء محاكمات من هذا القبيل . فاستجاب له بعد تردد سائر ملوك اوربا ، باستثناء ملك البرتغال دنيس ، الذي ليس له مصلحة في هذا الاجراء الاليم . وتقررت مصادرة املاك الداوية في كل مكان ، وجرى دفع فرسانهم الى الظهور أمام المحاكم . لم يحدث دائماً استخدام التعذيب ، على انه تقرر وضع صيغة ثابتة لاستجوابهم . فكان المتهمون يعلمون ما يتوقع منهم من الاعتراف ، فاعترف عدد كبير منهم[١].

---

(١) انظر : Martin, op. cit. pp. 28 - 64.
Melvin, op. cit. pp. 249 - 257.

على ان ما كان له أهمية خاصة عند البابا ، هو ان لا بـد لحكومة قبرص ان تتعاون ، نظراً لأن الداوية اتخذوا مقرهم بالجزيرة . ولكن كان الملك عليها وقتذاك ، أملريك شقيق هنري الثاني ، الذي سبق ان أطاح بالملك من سلطانه لفترة طارئة ، بفضل مساعدة الداوية . وصل الى قبرص في مايو سنة ١٣٠٨ ، المقدم هايتون قادماً من افينيون ، يحمل رسالة من البابا تنطوي على الامر بإلقاء القبض على الفور على الفرسان الداوية ، بعد ان تبين انهم ليسوا مؤمنين . وأرجأ امالريك تنفيذ الامر ، فتوافر لفرسان الداوية بقيادة مارشالهم ايميه اوزيلييه من الوقت ما يكفي للاستعداد للدفاع عن انفسهم . على انهم استسلموا في اول يوليه سنة ١٣٠٨ ، بعد ان لجأوا الى استخدام السلاح فترة قصيرة . وتقرر نقل اموالهم ، باستثناء شطر كبير منها أتقنوا إخفاءه فلم يتيسر كشفه ، من ليماسول ، الى دار امالريك في نيقوسيا ، بينما جرى جعل الفرسان تحت الحراسة ، في خيروخيتيا اول الامر ، ثم في يورماسويه ، ثم فيما بعد في ليفكارا ، التي ظلوا بهـا ثلاث سنوات . وفي مايو سنة ١٣١٠ ، أي بعد ان عاد هنري الثاني الى العرش ، تقرر آخر الامر تقديم الداوية بقبرص الى المحاكمة بناء على إصرار البابا وإلحاحه . تعرض عدد كبير منهم في فرنسا للقتل حرقاً ، بينما ألقي بهم في جميع انحاء اوربا في السجون ، او جرى الابقاء عليهم في حالة بؤس وفقر. ولم يكن لدى الملك هنري الثاني ما يدعوه الى ان يكنّ المحبة لفرسان الداوية ، الذين خانوا قضيته منذ بضع سنوات ، على انه هيأ لهم محاكمة عادلة . جرى اتهام ستة وسبعين فارساً منهم ، أنكروا جميعاً التهم الموجهة اليهم . وأقسم شهود بارزون على انهم أبرياء ، وأعلن واحد من بين الفئة القليلة من الشهود المعادين للداوية ، أنه لم يقدم إلا ليبدي ارتيابه فيهم ، بعد ان تلقى تقرير البابا عن جرائمهم . على انهم جميعاً ظفروا بالبراءة .

ولما بلغت افينيون أنباء براءتهم ، استشاط البابا غضباً فكتب الى الملك هنري يطلب إعـــادة المحاكمة ، وأرسل ممثلاً شخصياً ، اسمه دومنيك باليسترينا ، ليتأكد ان العدالة أخذت مجراها . غير ان نتيجة المحاكمة لم يجر تسجيلها . وسبق للبابا كليمنت ان امر بأنه اذا انطوت البراءة الاخرى على خطر من الاخطار ، فينبغي على دومنيك ان يطلب مساعدة مقدمي الدومنيكان والفرنسيسكان ، للنظر في ان التعذيب قد وقع . وتقرر انفاذ المندوب البابوي في الشرق ، بطرس اسقف روديز ، الى قبرص لتعزيز جهود دومنيك . ويبـــدو ان الملك احتفظ عندئذ بقراره ، فأبقى المتهمين في الحبس ، إذ لا زالوا في حبسهم في سنة ١٣١٣ ، حينما تلا بطرس اسقف روديز على الأساقفة وكبار رجال الدين بالجزيرة قرارات البـابا الصادرة في ١٢ مارس سنة ١٣١٢ التي تقضي بقمع طائفة الداوية وتسليم كل مـا لها من ثروة وأملاك للاسبتارية ، بعد ان تسترد السلطات المدنية ما بذلته من نفقات على المحاكمات المختلفة . وأدرك الملوك في جميع أنحاء اوربا أن هذه النفقات كانت باهظة ، فلم يحصل الاسبتارية إلا على جانب صغير من الأملاك الحقيقية . ولم يطلق ابداً سراح قادة الداوية في قبرص . على انهم كانوا اكثر حظاً ، إذ ان مقدمهم مات حرقاً في باريس ، في مارس سنة ١٣١٤ ، بعد سنوات تعرّض فيها للاعتقال والتنكيل والاعترافات العديدة ، وإعلان تخليه عن عقائدهم [١] .

أضحت مملكة قبرص ، بعد استئصال الداوية ، وهجرة الاسبتارية الى رودس ، الحكومة المسيحية الوحيدة التي اشتدّ اهتمامها بالارض المقدسة .

---

(١) انظر : Hill, op. cit. II, pp. 232 - 236, 270 - 274.

والمعروف ان ملك قبرص يعتبر من الناحية الاسمية ملك بيت المقدس ، وظل الملوك لأجيال عديدة مقبلة ، يحرصون بعد ان يتم الاحتفال بتتويجهم ملوكاً على قبرص في نيقوسيا ، على ان يتلقوا تاج بيت المقدس في فاماجستا ، التي تعتبر أقرب مدينة لملكهم الضائع . يضاف الى ذلك أن الساحل السوري كان بالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، لجزيرة قبرص . إذ ان كل عدو على هذا الساحل ينزع الى الاعتداء ، سوف يهدد حياتها . ومن الحظ الطيب ان السلطان بلغ من تخوّفه من قدوم حملة صليبية جديدة انه لم يستخدم موانىء الساحل السوري ، بل كان يؤثر ان تظل مهجورة . ومع ذلك فان قبرص تعرضت لتهديد مستمر من قبل مصر . وإذ اعتقد الملك هنري أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، ارسل سنة ١٢٩٢ خمس عشرة سفينة تساندها عشر سفن من لدى البابا ، فأغارت على الاسكندرية . كانت محاولة فاشلة ، لم تؤدّ إلا الى عزم السلطان الأشرف خليل على فتح قبرص . فحينما أمر بعمارة مائة سفينة ، كان يهتف : « قبرص ، قبرص ، قبرص » . غير انه كان لديه خطط اخرى تفوق قبرص أهمية ؛ فلا بد اولاً من سحق المغول والاستيلاء على بغداد . وارتاع أمراؤه لطموحه ، فقتلوه في ٣١ ديسمبر سنة ١٢٩٣ . والواقع أن اغتياله كان مكافأة حقيرة لهذا الامير الشاب قوي العزيمة ، الذي أتم رسالة صلاح الدين ، وطرد آخر من تبقى من الفرنج من سوريا[١] .

---

(١) انظر :
Gestes des Chiprois, pp. 61 - 62.
Thaddeus, p. 43.
Sanudo, p. 283.
Wiet, L'Egypte Arabe, p. 461.

المغول يغيرون من جديد على سوريا سنة ١٢٩٩ - ١٣٠٨ :

كان السلطان الاشرف مصيباً حين تذكر المغول . ففي سنة ١٢٩٩ ، وفي اثناء حكم السلطان الناصر محمد قلاون الذي لم يكن متصلاً بل تعرض كثيراً للانقطاع ، اغار على سوريا حاكم المغول غازان ، الذي سبق أن استبدل بلقب ايلخان لقب سلطان ، فأنزل بقوة المماليك الدفاعية الهزيمة في سلامية ، قرب حمص في ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٩٩ . ثم اذعنت له دمشق في يناير سنة ١٣٠٠ ، واعترفت بسيادته . وفي الشهر التالي (فبراير) عاد الى فارس ، بعد ان اعلن انه لن يلبث ان يعود لفتح مصر.

ومع ان غازان اعتنق الاسلام ، فان ذلك لم يمنعه من الترحيب بحلفاء مسيحيين . فبادر ريمون "لل" بالتوجّه الى سوريا حينما سمع بنبأ غزوها ، غير انه وصل متأخراً فلم يجتمع بغازان بها . ثم عاد ريمون "لل" الى قبرص ، وطلب الى الملك ان يساعده على المضيّ في بعثة تبشيرية الى الأمراء المسلمين . ولكن الملك هنري أغفل طلبه ، إذ انه لم يوافق على أن خير وسيلة لكسب صداقة الكفار ، هي ان يكشف لهم عن أخطائهم . على انه قد يكون للاتصال الدبلومامي فائدة ، ولكن لم يجرِ شيء من هذا القبيل ، وضاعت الفرصة حينما تعرّض الجيش المغولي للهزيمة في سنة ١٣٠٣ في مرج الصفر . ثم حدث سنة ١٣٠٨ ، اي بعد خمس سنوات ، أن أغار غازان من جديد على سوريا ، وتوغل فيها حتى بلغ بيت المقدس ذاتها . وترددت الشائعات بأنه سوف يسلم المدينة المقدسة عن طيب خاطر الى المسيحيين ، لو أن دولة مسيحية عرضت التحالف معه . وعلى الرغم من ان البابا وفيليب ملك فرنسا كانا يجهران وقتذاك بالاعلان عن جملتها الصليبية المرتقبة ، فإنه لم تجرِ من الغرب بادرة للمفاوضات مع المغول ،

بينما أضحت قبرص بالغة الضعف بفضل المنازعات بين الملك هنري وأخيه ، وكيفما كان الامر ، فقد يلقى غازان ، المسلم الصادق ، صعوبة في الوفاء بهذا الوعد (١) . وبوفاة غازان سنة ١٣١٦ تضاءلت فرص تحالف المغول مع المسيحيين . إذ أن ابن اخيه أبا سعيد الذي خلفه على السلطنة ، نزع الى الوفاق مع مصر ، ويعتبر آخر سلاطين المغول الكبار في فـارس ، إذ أخذت الايلخانية السابقة في التفكك بعد وفاته سنة ١٣٣٥ (٢) .

الواقع ان مملكة قبرص لم تتعرض حتى وقتذاك لخطر مبـاشر ، على الرغم من عزلتها الظاهرة . فالسلطان ، حتى اذا لم يعد المغول يشغلونه ، لم يكن عنده من القوة البحرية ما يكفي للمغامرة بتوجيه حملة الى قبرص ، ولم يودّ أن يسيء الى الجمهوريات الايطالية ، نظراً لما تدرّه عليه تجارتهم من ارباح وفيرة . ومع انه انتزع جزيرة ارواد سنة ١٣٠٢ من الداوية ، فإنه ما لم تصبح قبرص قاعدة لحملة صليبية جديدة ، كان يؤثر ألا يتعرض لها بسوء . أما حكومة قبرص فإنها من جانبها حاولت بقدر مـا تسمح الاعتبارات الشخصية والأسرية ، أن تحافظ على العلاقات الوثيقة مع الملوك

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 296 - 306.
Hill, op. cit. II, pp. 212 - 215.
Atiya, op. cit. pp. 90 - 91.
Felix Fabri, (trans. Stewart, P. P. T. S. vol. X, pp. 372 - 378).
كتب فيلكس فابري بعـــد قرنين ، فأورد رواية اسطورية عن امبراطور للتتـار الصالح (كاسانوس) الذي كان ، حسبما يشير ، مسيحياً ، وعرض اعادة بيت المقدس الى المسيحيين .

(٢) انظر : Browne, op. cit. III, pp. 51 - 61.

الأرمن في قليقية ، وملكي ارجون وصقلية ، اللذين يفرض اسطولاهما مـا يبتغيان من احترام (١) .

حدثت فترة هدوء ، بعد ان انقضى كل ما استوحاه فيليب ملك فرنسا من حديث عن الحملة الصليبية . ولكن فيليب السادس بعث الحديث من جديد حوالي سنة ١٣٣٠ ، على ان نواياه تفوق في الصدق والاخلاص نوايا عمه ، فضلاً عن انهـا لقيت التشجيع من البابا يوحنا الثـاني والعشرين . فجرى ايضاً تقديم مذكرات للبلاطين الفرنسي والبابوي . إذ أن جـاي فيجيفانو ، طبيب ملكة فرنسا وضع تقريراً عمـا يلزم من الأسلحة (٢) . على ان خطة تزيد اسهاباً وتفصيلاً ارسلها الى ملك فرنسا بوركارد ، وهو من رجال الكنيسة ، وقد سبق ان سعى في قليقية لضمّ الكنيسة الارمنية الى روما . وعلى الرغم من وفرة اقتراحات بوركارد ، فإنها لم تكن بالغة النفع ، لأن ما أظهره من العداء والكراهية نحو المسيحيين الانفصاليين والملحدين يفوق كراهيته للمسلمين ، فاعتبر الاستيلاء على الصرب الارثوذكسية وعلى بيزنطة جانباً جوهرياً لكل حملة صليبية ، ولكن لم توضع خططه للاختبار . إذ ان ملك فرنسا انغمس فيما نشب من حرب المائة عـام مع انجلترا ، قبل توجيه أية حملة صليبية (٣) .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 309.
يشير جستا الى ان ارواد سقطت سنة ١٣٠٣ . بينما يورد سانودو تاريخ سقوطها في سنة ١٣٠٢ . انظر : Sanudo, p. 242.
Hill, op. cit. pp. 215 - 216.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. p. 96.

(٣) انظر : Ibid, pp. 96 - 113.

وفي تلك الأثناء ، أعدّ المؤرخ مارينو سانودو مشروعاً ازداد اتساماً بالناحية العملية ، ولم يتطلب حملة عسكرية ضخمة . والمعروف ان سانودو ينتمي الى بيت دوقات ناكسوس ، وتجري في عروقه الدماء اليونانية ، وكان جاد الملاحظة ، ومن رواد المشتغلين بالاحصاء . وشمل كتابه (أسرار الصليب المقـدس Secreta Fidelium Crucis) ، الذي صدر حوالي سنة ١٣٢١ ، تاريخ الحروب الصليبية ، وبرغم ما خالطه من أغراض الدعاية ، فإنه اهتمّ اساساً بمناقشة تفصيلية للوضع الاقتصادي في شرق البحر المتوسط . رأى سانودو ان اشدّ مـا يضعف مصر ، هو فرض الحصار الاقتصادي عليها ، غير انه أدرك انه ليس من المستطاع وقف التجارة الشرقية فجأة . فلا بدّ من التماس طرق وموارد بديلة . واتسم تحليـله بالخلق ، واشتهرت اقتراحاته بأنها كانت بعيدة النظر فضلاً عن شمولها . على ان هذه المقترحات لن تتحقق لسوء الحظ إلا اذا تعاونت جميع الدول الاوربية معاً ، وهو امر لم يكن من المستطاع وقتئذ تحقيقه [١] .

بطرس الاول يتولى عرش قبرص سنة ١٣٥٩ :

الواقع انـــه لم يبقَ إلا محاولة اخيرة لاستخلاص البلاد المقدسة من ايدي المسلمين . ففي سنة ١٣٥٩ تولى بطرس الاول عرش قبرص . ويعتبر

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 114 - 127.
Hill, op. cit. III, p. 1144.

لم ينشر مشروع سانودو إلا في : Bongars, Gesta Dei per Francos, vol. II.

اول ملك منذ زمن القديس لويس ملك فرنسا ، سيطرت عليه الرغبة ، وتوقد فيه الحماس لكي ينشب الحرب المقدسة . ففي أثناء شبابه أنشأ طائفة جديدة من الفرسان ، أطلق عليها فرسان السيف ، جعل هدفها المسلم به استرجاع بيت المقدس ، وتحدى سخط ابيه الملك هيو الرابع ، بأن حاول الرحيل الى الغرب ليظفر بمجندين لحملته الصليبية . أما اول الحروب التي أنشبها ، وهو ملك ، فكانت مع الترك في بلاد الاناضول حيث حصل على مغرز قدم باستحواذه على حصن كوريكوس من الارمن . وفي سنة ١٣٦٢ شرع في القيام بجولة عامة في العالم المسيحي ، لتدعيم اهدافه الاساسية . فقام بزيارة رودس حيث حاز وعوداً من الاسبتارية بالمساعدة ، ثم أبحر الى البندقية ، حيث اقام الى بداية السنة الجديدة ١٣٦٣ . وأظهر البنادقة من الناحية الرسمية عواطفهم نحو خططه . ثم توجه الى جنوه بعد زيارة ميلان . وانكبّ في جنوه على تسوية ما وقع من الخلافات بين مملكته والجمهورية ، على انه لم يظفر إلا بتأييد غامض من الجنويين . ووصل الى افينيون في ٢٩ مارس سنة ١٣٦٣ ، بعد ان مضت بضعة شهور على ولاية اربان الخامس للبابوية . وكان اول ما قام به من اعمال ان دافع عن حقه في اعتلاء العرش ازاء هيو امير الجليل ، ابن اخيه الاكبر الراحل ، وتقرر تعويض هيو بمعاش سنوي ، قدره خمسون الف بيزنتة . وبينما كان في افينيون ، قدم لزيارة المدينة يوحنا الثاني ملك فرنسا فوعد بالتعاون الحار معه . ووعد الملكان في ابريل بالاشتراك في حملة صليبية مع عدد كبير من نبلاء فرنسا وقبرص . وفي نفس الوقت دعا البابا الى الحرب المقدسة ، وعين الكاردينال تاليران مندوباً عنه . ثم طاف بطرس بالفلاندر وبرابانت وبلاد الراين . وفي اغسطس توجه الى باريس ليلتقي بالملك يوحنا

مرة اخرى . فقررا بأنه لا بدّ للحملة الصليبية ان تتوجه في شهر مارس القادم . ثم سار بطرس من باريس الى روان وكاين ، وأبحر الى انجلترا . امضى نحو شهر في لندن ، حيث انعقدت في سميثفيلد حلبة كبيرة للمباراة في الفروسية تكريماً له . فأهداه الملك ادوارد سفينة رائعة ، اسمها كثرين وأعطاه اموالاً لتغطية نفقاته التي صرفها حديثاً ، على انه جرى لسوء الحظ ان سلبه امواله قطاع الطرق ، وهو في طريق العودة الى الساحل . ورجع الى باريس ليمضي بهـا عيد الميلاد ، ثم توجه جنوباً الى اكيتانيا ليلتقي بالأمير الاسود في بوردو . على انه حزن حينما علم في بوردو بوفاة الكاردينال تاليران ، في يناير سنة ١٣٦٤ ، ثم وفاة الملك يوحنا في مايو ، فذهب لتشييع جنازة الملك يوحنا في سان دنيه ، ولشهود تتويج خلفه شارل الخامس في ريمس ، ثم مضى الى المانيا ، فعرض فرسان وسكان مدينتي ايسلنجن وايرفورت ان يشتركوا في الحملة الصليبية ، على ان حاكم طرف فرانكونيا ، ورودلف الثاني دوق سكسونيا اخطراه ان لا بدّ لقرارهما ان يتوقف على الامبراطور ، على الرغم من استقبالهما له بكل مظاهر التشريف . وعندئذ توجـه في صحبة رودلف الى براهة ، حيث يقيم الامبراطور شارل . وإذ أظهر شارل حماسه ، دعا بطرس لمرافقته الى كراكاو ليشهد مؤتمراً او شك ان يعقده مع ملك بلاد المجر وبولنده . فتقرر توجيه منشور الى جميع امراء الامبراطورية ، يدعوهم الى الاشتراك في الحرب المقدسة . وعاد بطرس الى البندقية في نوفمبر سنة ١٣٦٤ ، بعد ان قام بزيارة فيينا ، حيث وعده رودلف الرابع دوق استريا بمساعدة اضافية . ولقي بطرس في البندقية اعلا مظاهر الترحيب ، نظراً لما بذلته عساكره منذ زمن قريب من مساعدة للبنادقة في قمع فتنه في جزيرة

كريت . وأقـــام بالبندقية الى نهاية شهر يونيه سنة ١٣٦٥ . وعقد أثناء مقامه بها معاهدة مع جنوه لتسوية جميـع الاختلافات البارزة [١] .

الملك بطرس يعد الخطط لحملته الصليبية سنة ١٣٦٥ :

وفي تلك الاثناء دأب البابا اربان ، دون كلل ، على الكتابة الى امراء اوربا ، يحثهم على الاشتراك في الحمـلة ، ولقيت جهوده مساندة قـوية من المندوب البابوي الجديد في الشرق ، بطرس سالينياك دى توما ، البطريرك الاسمى للقسطنطينية ، وهو رجل قوي الشخصية ، شديد المعارضة للمنشقين والملحدين والمسلمين ، على ان ما اتصف به من التفاني والاخلاص ، جعله موضع الاحترام حتى من اولئك الذين اضطهدهم . واشترك معه في النشاط ، تلميذه فيليب مزيير ، صديق الملك بطرس الحميم ، والذي سبق ان عيّنه رئيس ديوان الانشاء في قبرص . ولكن كل ما بذلاه من جهد لم ينجم عنه من أعداد العساكر ما كان الملك بطرس يتوقعه ، وما سبق ان ُوعد به . فلم تقدم عساكر المانيـة ، ولم يأتِ احد من كبار النبلاء في فرنسا وانجلترا ، او البـلاد المجاورة ، باستثناء من جاء من أميه أمثال كونت جنيفا ، ووليم روجر ، وفيكونت تيرين ، وإيرل هيرفورد . على ان عـــدداً كبيراً من صغار الفرسان قد جاؤوا ، بل ان منهم من قدم من جهات نائية مثل اسكتلنده ، فاجتمع في البندقية قبـل ان يغادرها الملك بطرس ، جيش

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 330 - 337.
Hill, op. cit. pp. 324 - 327.

ضخم بالغ الخطورة . وما اسهم به البنادقة في هذا الجيش كان كبير النفع ، غير ان الجنويين تقاعسوا [١] .

وتقرر ان تحتشد الحملة الصليبية في اغسطس سنة ١٣٦٥ في جزيرة رودس ، ولكن وجهتها المقبلة ظلت في طي الكتمان . إذ ان ما قد يفضي به تاجر بندقي للمسلمين من أنبـاء ينجم عنه خطر بالغ الشدة . وصل الملك بطرس الى رودس في وقت مبكر من شهر اغسطس ، وفي ٢٥ اغسطس أبحر الى الميناء كل الاسطول القبرصي الذي تألف من ثماني ومائة سفينة ، مـا بين سفن كبيرة (شينيات) ، وسفن نقل ، وسفن تجارية ، وزوارق خفيفة . فاذا جرت إضافة السفن الضخمة التي اشتركت بهـا البندقية ، والتي بذلها الاسبتارية ، أضحى مجموع سفن الاسطول خمس وستين ومائة سفينة . وأقلّت هذه السفن حمولة كاملة من الرجال ، مع عدد كبير من الافراس ومقادير وافرة من المؤن والأسلحة ، فلم ينهض منـذ الحملة الصليبية الثالثة للحرب المقدسة ، من الحملات مـا يفوق نسبياً تلك التي أعدّها الملك بطرس . ومع انه خـاب الرجاء في ان يشترك فيها كبار الأمراء من الغرب ، فانه يقابل ذلك ميزة ان الملك بطرس يعتبر القائد الذي لا نزاع فيه . ففي اكتوبر كتب الملك بطرس الى الملكة اليانور اراجون ، ان كل شيء أضحى جاهزاً ، وفي نفس الوقت ، اصدر امراً الى رعاياه في سوريا ينذرهم بالعودة الى الوطن ، ويمنعهم من ممـارسة التجارة بها . وأراد من وراء ذلك ان يعتقد الناس أن سوريا هي هدفه [٢] .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 337 - 341.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 341 - 344.
Hill, op. cit. II, pp. 329 - 331.

وفي ٤ اكتوبر ألقى البطريرك بطرس من السفينة الملكيـة موعظة مشـيرة على الملاحين المحتشدين ، فهتفوا : « يعيش ، يعيش بطرس ملك بيت المقـدس وقبرص ، رغم أنف العرب الكفرة » . وأقلع الاسطول في ذلك المساء ، ولمـا أضحت جميع السفن في عرض البحر ، جرى الاعلان انها تقصد الاسكندرية بمصر .

الحملة تهاجم الاسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذ تقرر مهاجمة السلطان ، كان اول مـا يتبادر الى الذهن اختيار الاسكندرية هدفاً للحملة . فمن العسير من الناحيـة العملية ، محاولة غزو سوريا او فلسطين ، ما لم يكن ثمة قاعدة على الساحل ، والمعروف ان الموانىء على الساحل ، باستثناء ميناء طرابلس ، قـد حرص المصريون على تخريبها . على ان تجربة سابقة دلـّت على انه متى فقـد سلطان مصر دمياط ، أضحى مستعداً لأن ينزل عن بيت المقدس مقابل استردادها . ولكن الاسكندرية لأثمن مكافأة من دمياط ، ففي وسع غزاتها ان يصيبوا صفقة أوفر ربحاً وثمرة ، وسوف تكون ايضاً قاعدة بالغـة القيمة للمضي في الزحف . فمن المحقق انه توافرت بهـا المؤن ، كما ان الترع والقنوات جعلت من السهل الدفاع عنها من جهة البر . وسوف يؤدّي ضياعها الى تعرُّض ممتلكات السلطان الى نوع من الحصـار الاقتصادي . وليس من الراجح ايضاً ان السلطان كان يتوقع الهجوم على مدينة كان للتجار المسلمين بهـا مصالح ضخمة ، يضاف الى ذلك ان الغزاة أحسنوا اختيار الوقت الملائم . إذ ان السلطان الذي كان يتولى الحكم وقتـذاك ، وهو الأشرف شعبان بن قلاون ، كان صبياً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت

السلطة في يدي الامير يلبغا ، الذي تعرّض لكزاهية زمـــلائه الأمراء وسائر الناس . امـا والي الاسكندرية ، خليل بن عرام فكان متغيباً ، إذ توجه الى مكة ليؤدي فريضة الحج . وناب عنه في حكم الاسكندرية امير صغير ، اسمه جنغره ، وكانت حامية المدينة ضئيلة العدد ، ليست كافيـــة للدفاع عنها . على حين ان أسوار الاسكندرية من جهة اخرى كانت بالغة المنـاعة ، فلو انه تمّ الاستيلاء على مرفأيها وشبه جزيرة فاروس الواقعة بينهما ، فما زالت الاستحكامات الضخمة تمتد على واجهة الميناء .

وصل الاسطول قبالة الاسكندرية أثناء مساء يوم ٩ اكتوبر سنة ١٣٦٥ . وإذ ظن سكان المدينة اول الأمر انه لم يكن سوى اسطول تجاري كبير ، تجهزوا للخروج لعقد الصفقات التجارية . ولم تظهر نوايا الاسطول إلا في صبيحة اليوم التالي حينما دخلت السفن الى الميناء الغربي ، لا الميناء الشرقي الذي لا يؤذن للسفن المسيحية ان تلج غيره . فبادر نائب الوالي ، جنغره يحشد رجاله على حافة الشاطىء لمنع النزول الى البر . غـير ان الفرسان المسيحيين شقوا طريقهم الى الشاطىء برغم مـــا اظهره بعض العساكر المغاربـة من البسالة والاقدام . وبينما تدفق التجار الوطنيون من المدينة مجتازين الابواب المطلة على الـــبر ، احتمى جنغره وراء الاسوار ، فحشد حاميته الصغيرة للدفاع عن القطاع المواجه لموضع الهبوط الى البر . وعزم الملك بطرس على ان يتريث في هجومه ، إذ أراد ان ينزل في تؤدة كل رجاله وأفراسه الى شبه جزيرة فاروس . ولكنه لمـــا استشار قادته ، اكتشف ان كثيرين منهم لم يوافقوا على اختيار الاسكندرية هدفاً للحملة . إذ أشاروا الى ان عددهم كان من القلة ما يمنعهم من الاستيلاء على حصن الاسكندرية بالغ الضخامة ، او من الزحف منها الى القاهرة . وأعربوا عن

رغبتهم في الاقـــلاع الى مكان آخر ، على انهم لن يمكثوا إلا اذا جرى الاستيلاء عنوة على المدينة على الفور ، قبل ان ينفذ السلطان جيشاً لنجدتها . وكان لزامــاً على بطرس ان يذعن لرغباتهم ، فبدأ الهجوم على الفور ، فجرى توجيهه على السور الغربي ، كما توقع جنغره ، غير انه لما لقى المهاجمون مقاومة ، تحركوا الى القطاع المواجه للمرفأ الشرقي . وفي داخل الاسوار ، يجتاز الطريق الذي يصل بين القطاعين ، دار الديوان (الجمرك) الضخمة ، وإذ خشي متولي الديوان مـا يقع من اعمال اللصوصية ، أقام متاريس على ابواب الديوان . ولم يكن بوسع جنغره ان يوجه رجـاله في الوقت المنـاسب لمواجهة الهجوم الجديد . وإذ اعتقد ان المدينـــة قـد سقطت ، اخذوا يتخلون عن مواقعهم ، ويجتازون الشوارع ليلوذوا بالفرار الى الابواب الجنوبية إلتماساً للنجاة . ولم يحل منتصف نهـــار يوم الجمعة ١٠ اكتوبر ، حتى استقر الصليبيون بداخل المدينة ، وظل القتال دائراً بالشوارع . وحدث أثناء ليـلة الجمعة ان شنّ المسلمون هجوماً عنيفاً من احد الابواب الجنوبية ، كان المسيحيون في غمرة سرورهم قـد احرقوه ، غـير انهم ارتدوا على اعقابهم ، فأضحت الاسكندرية في قبضة الصليبيين بعد ظهر يوم السبت ١١ اكتوبر سنة ١٣٦٥ .

نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ :

واحتفل الصليبيون بانتصارهم بما ارتكبوه من وحشية لا مثيل لها . وما وقع من الحرب المقدسة التي استمرت نحو مائتي وخمسين عاماً لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الانسانية . فمـا أجروه من المذابح لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في بيت المقدس ، سنة ١٠٩٩ ، وفي القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، فـلم يبلغ المسلمون هذه القسوة والوحشية عنـد استيلائهم على

انطاكية او عكا . والمعروف ان ثروة الاسكندرية كانت بالغة الشهرة ، واشتدّ هوس الظافرين حين شهدوا هـذه الغنيمة الوفيرة ، فلم يبقوا على احد . إذ أن ما قاساه السكان الوطنيون من المسيحيين واليهود لم يقل عما تعرض له المسلمون من القسوة ، بل ان التجار الاوربيين المقيمين بالمدينة شهدوا ما تعرضت له محلاتهم ومستودعاتهم من النهب دون شفقة أو رحمة . وأغار الغزاة على المساجد والمقابر ، فسلبوا او دمروا ما بهـا من حلى ، وتعرضت الكنائس ايضاً للنهب ، على الرغم من ان سيدة قبطية مقعدة باسلة سعت لإنقـاذ شيء من كنوز مذهبهـا الديني على حساب تضحيتها بثروتها الخاصة . ودخل المغيرون المنازل ، وكل من لم يبادر من اهلها الى تسليم ما يقتنيه ، تعرّض مع اسرته للقتل . وجرى حمل نحو خمسة آلاف اسير من المسيحيين واليهود ، فضلاً عن المسلمين ، لبيعهم رقيقاً . وما أصابه المغيرون من النهب والسلب ، حمله قطار طويل من الافراس والحمير والإبل الى السفن الراسية بالميناء ، ثم تقرر اعدامها بعد ان أدت عملها . وعبقت كل المدينة بالرائحة الكريهة الصادرة من جثث البشر والحيوان .

وحاول الملك بطرس عبثاً ان يعيد الأمن الى نصابه ، إذ كان يأمل في الاحتفاظ بالمدينـة . وإذ احرق الصليبيون ابوابها دمّر الجسر الواقع على القناة الكبيرة ، الذي يجتازه الطريق المؤدي الى القاهرة . على ان الصليبيين لم يفكروا وقتئذ إلا في أن يحملوا الى بلادهم بكل مـا تهيأ لهم من سرعة ما حصلوا عليه من الغنائم . على ان جيشاً كان قادماً من القاهرة ، ولم يودّ الصليبيون ان يغامروا بالاشتباك معه في معركة ، بل أن شقيق الملك بطرس اخبره أنه ليس بوسعهم الاحتفاظ بالمدينة ، بينما أشار الفيكونت تيرين ومعظم الفرسان الانجليز والفرنسيين الى انهم لن

يبقوا بعدئذ في المدينـة . وضاعت سدى احتجاجات بطرس والمندوب البابوي . ولم يحلّ يوم الخميس ١٦ اكتوبر سنة ١٣٦٥ حتى لم يبق بالمدينة سوى عدد قليل من العساكر القبارصة ، بينما عادت بقية الحملة الى السفن ، استعداداً للرحيل . ولما اصبحت العساكر المصرية على وشك الوصول الى ضواحي الاسكندرية ، استقل بطرس سفينته ، وأصدر الامر بالجلاء عن المدينة . وبلغت حمولة السفن من الثقل انه كان لا بدّ من إلقـاء مقادير كبيرة من القطع الضخمة من الغنيمة الى البحر . وظلّ الغطاسون المصريون شهوراً يستخلصون التحف الثمينة من مياه خليج ابي قير الضحلة[١] .

وإذ اطمأن بطرس والمندوب البابوي الى مـا اودعوه من غنائم في قبرص ، راودهما الامل في ان ينهض الصليبيون مرة اخرى لمرافقة بطرس في حملة جديدة . غير أنـه لم يكد الصليبيون يبلغون فاماجستا ، حـتى شرعوا في إعـداد التدابير للرحيل الى الغرب ، الى اوطانهم . وتجهّـز المندوب البابوي لاقتفاء اثرهم ، كيما يظفر بمجندين آخرين ليحلوا مكانهم ، غير أنه تعرض للمرض الذي أودى به ، قبل ان يغادر جزيرة قبرص . وأقام الملك بطرس قداس الشكر ، عند عودته الى نيقوسيا ، غير ان

---

(١) وصف حملة الاسكندرية بإسهاب في ملحمة نثرية :

William of Machaut, (ed. Mas Latrie, esp. pp. 61 ff).

ومع ان ماشو لم يقم مطلقاً بزيارة الشرق ، فانه يصح الوثوق في روايته ، باستثناء مـا ورد فيها عن تاريخ ميلاد الملك بطرس ووفاته . انظر مـا اورده الدكتور عطية بالتفصيل عن هـذه الحملة في :

Atiya, op. cit. pp. 345 - 369.

Hill, op. cit. II, pp. 331 - 334.

قلبه كان كسيراً جريحاً . فانطوى تقريره الى البابا عما احرزه من انتصار، وما اصابه ايضاً من خيبة أمل مريرة [١] .

على ان انباء نهب الاسكندرية لقيت في الغرب استقبالاً مضطرباً مختلطاً ، إذ جرى اول الامر التهليل له ، باعتباره انتصاراً حربياً وإذلالاً للمسلمين . فابتهج البابا ، غير انه رأى انه لا بدّ لبطرس من أمداد مباشرة لتحلّ مكان الذين تخلوا عنه . فوعد شارل ملك فرنسا بإرسال جيش ، من اشهر فرسانه برتراند دى جويسلين الذي وعد بالاشتراك في الحملة ، وأماديوس كونت سافوى المعروف في القصص باسم الفارس الاخضر، الذي كان يستعد للرحيل الى الشرق ، فقرر أن يبحر الى جزيرة قبرص . وحدث عندئذ ان اعلن البنادقة ان بطرس عقد صلحاً مع السلطان ، فاستدعى الملك شارل جيشه ، وتوجه جويسلين للقتال في اسبانيا ، بينما مضى اماديوس الى القسطنطينية [٢] .

واختلف البنادقة عن البابا في انهم لم يرتاحوا لما اسفرت عنه الحملة الصليبية من نتيجة ، إذ كانوا يأملون في توطيد مركزهم التجاري في الشرق الادنى . ولكن حدث عكس ذلك ، فما كان لهم من املاك كثيرة في الاسكندرية تعرضت للدمار ، فضلاً عن توقف كل تجارتهم مع مصر ، إذ أن نهب الاسكندرية كاد يدمرهم باعتبارهم دولة تجارية ، فيبتهج لذلك الجنويون الذين ظفروا بالمكافأة لامتناعهم عن الاشتراك في الحملة . ولم يلبث

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. p. 369.

(٢) انظر : Ibid, p. 370.
Hill, op. cit. II, pp. 335 - 336.

جميع الغرب ان تأثر بنتائج الحملة الصليبية ، إذ تصاعدت اثمان التوابل والمنسوجات الحريرية وسائر المتاجر الشرقية ، التي اضحى الناس في الغرب يألفونها ، نظراً لأن كمياتها قد نفدت ، ولم يرد غيرها [1] .

الواقع ان بطرس شرع في اجراء المفاوضات مع مصر ، غير ان كلا الجانبين بلغت بهما المرارة والعداوة ، انهما لم يرغبا في الصلح . ومع ان ما تعرّض له الامير يلبغا من كراهية في مصر قيدت حركته ، فإنه ظل يراوغ لكسب الوقت ، حتى يتيسر له بناء اسطول لغزو قبرص . على ان بطرس تغالى في طلباته مقابل التخلي عن البلاد المقدسة ، فأعقبها بما شنه من غارات على الساحل السوري . غير ان هوسه بالحرب الصليبية اخذ يزعج رعاياه ، الذين خشوا فيما بعد استنفاد موارد الجزيرة في قضية لا أمل فيها . فلما أعدّ احد فرسان بطرس الذي تشاجر معه ، امر اغتياله سنة ١٣٦٩ لم ينهض احد ، حتى اخوته ، لإنقاذه . وفي السنة التالية لوفاته انعقدت معاهدة مع السلطان ، فتمّ تبادل الأسرى ، وتوصلت قبرص ومصر الى صلح قلق [2] .

تعتبر مذبحة الاسكندرية نهاية لتلك الحملات الصليبية التي جعلت هدفها المباشر استرجاع الارض المقدسة ، وما هو موضع شك ما اذا كانت الحملة

---

(١) انظر : Machaut, pp. 115 - 116.
Heyd : Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 52 - 55.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 371 - 376.
Hill, op. cit. II, pp. 345 - 367.
Heyd, op. cit. pp. 55 - 57.

في صالح العالم المسيحي ، حتى لو كان جميع الصليبيين تعلقوا بهـا مثلما تعلق الملك بطرس ، فحينما جرت الحملة ، كانت مصر وقتذاك في سلام مع الفرنج لما يزيد على نصف قرن ، إذ اخذ المماليك يفقدون ما اتصفوا به في وقت مبكر من التعصب ، وتحسنت معاملتهم لرعاياهم المسيحيين ، وأضحى الحجاج احراراً في التوجه الى الاماكن المقدسة ، وراجت التجارة بـين الشرق والغرب . وأما ما حدث بعد المذبحة ، فـإن كل ما لدى المسلمين من مرارة ، انبعثت من جديد . إذ تعرّض المسيحيون الوطنيون لمرحـلة جديدة من الاضطهاد ، برغم انهم لم يرتكبوا جرماً ، فنزل الدمار بكنائسهم ، بل ان كنيسة القيامة اغلقت ابوابها ثلاث سنوات . وما حدث من انقطاع التجارة ألحق ضرراً بليغاً في العالم الذي لم ينتعش حتى وقتذاك مما انزله به الوباء الاسود من خراب . أما مملكة قبرص التي سبق للمماليك ان ابدوا استعدادهم للتساهل في الابقاء عليها ، فإنهـــا اضحت عدواً يجب استئصاله . وظلت مصر تنتظر ستين سنة للأخذ بالثأر . فما حلّ بجزيرة قبرص سنة ١٤٢٦ من تخريب مريـع لم يكن إلا عقاباً مباشراً لما سبق ان تعرّضت له الاسكندرية من النهب (١) .

انهيار مملكة ارمينية الصغرى سنة ١٣٧٥ :

على ان المملكة المسيحية الاخرى في الشرق الادنى لقيت مصيرها في زمن سابق . فعلى الرغم من ان الأرمن بقليقية لم يشتركوا في حملة بطرس الصليبية ، فإن الاسرة الحاكمة بقليقية اضحت من الفرنج ، كما انه كان

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 377 - 378.

لعدد كبير من النبلاء علاقات وثيقة بقبرص . أقرّت كنيسة الأرمن سلطان كنيسة روما عليها . واشتد المصريون في ضغطهم على الأرمن طوال القرن الرابع عشر ، إذ كانوا على حق في ارتيابهم فيهم بأنهم اصدقاء الفرنج والمغول ، فضلاً عن حسدهم لهم على الثروة التي تجتاز بلادهم بالطرق التجارية التي تصل البحر عند أياس . غير ان انهيار الايلخانية المغولية حرم الأرمن من اكبر سند لهم ، كما ان معظم بلادهم اضافها الاتراك سنة ١٣٣٧ الى ممتلكاتهم ، وأتمّ اخضاع البلاد سنة ١٣٧٥ الغزاة المسلمون من المماليك وحلفائهم الاتراك ، بينما كان القبارصة منغمسين في حرب مريرة مع جنوه . وهرب ليو السادس آخر ملوك الأرمن الى الغرب ومات بالمنفى في باريس ، وبذا اختفى استقلال الأرمن [١] .

الواقع ان حملة صليبية كالتي اعدّها الملك بطرس تعتبر من الاخطاء التاريخية ، لا تتفق مع زمانها . فليس بوسع العالم المسيحي ان يتحمل هذا الترف . إذ كان لزاماً عليه ان يواجه خطراً يتهدده من الشمال . فالذين وضعوا خطط الحملة الصليبية الاولى شهدوا في جلاء ان تخليص الارض المقدسة توقف على المحافظة على سلطان المسيحيين في بلاد الأناضول . غير ان ما من احد من رجال السياسة في الغرب ، منذ وفاة البابا اربان الثاني ، توافر له من الحكمة والتعقل ما يجعله يدرك ان الاحتفاظ ببلاد

---

(١) انظر : Tournebize, Histoire Politique et Religieuse de l'Armenie, pp. 644 ff. esp. pp. 654 - 655, 715 - 730.

امـا تاريخ زوال مملكة ارمينية ، فيستند اساساً الى تاريخ يوحنا دارديل الفرنسكاني ، المنشور في : R. H. C. Documents Armeniens, vol. II.

الأناضول يعتمد على بيزنطة على ان التحركات الصليبية في القرن الثاني عشر حيّرت الامبراطور البيزنطي ، إذ زادت المشاكل التي كان لا بدّ لبيزنطة ان تواجهها كما انها لم تهيء للأمبراطور من وقت الفراغ ما يجعله ينصرف الى إخضاع المغيرين من الترك ، فكاد يكون من المستحيل على الامبراطور ان يؤدي واجبه ، فما اتخذه الترك من نهج في الغزو بالالتجاء الى تدمير الزراعة وطرق المواصلات ، جعل إعادة فتح الأناضول عمـــلاً شاقاً ، على حين ان الاطماع المتباينة للأباطرة امثال مانويل وأندرونيقوس كومنينوس لم تؤد إلا الى ازدياد تبديد النشاط والجهد . فكارثة مانزيكرت سنة ١٠٧١ هيأت للترك ان ينفذوا الى بـــلاد الأناضول ، وكفلت معركة ميريوكيفالوم سنة ١١٧٦ لهم البقاء بها . غير ان الحملة الصليبية الرابعة وما نجم عنها من تدمير شامل للنظام الامبراطوري البيرنطي ، هي التي هيأت للترك الفرصة لأن يتوغلوا في الأناضول . وتهيأت للعـالم المسيحي ، أثناء القرن الثالث عشر ، آخر فرصة للقاء الترك . إذ المعروف ان سلطانهم في بلاد الأناضول ظل يرتكن حتى وقتذاك الى سلطنة السلاجقة في قونية . ولكن غزوات المغول التي بدأت سنة ١٢٤٢ ، قوّضت الدولة السلجوقية ثم دمرتها نهائياً . وأدرك الأباطرة البيزنطيون بالمنفى في نيقية ما ينتظرهم من فرصة ، غـير ان انغماسهم في مشاكلهم الاوربية ، وتطلعهم لاستعادة حاضرة امبراطوريتهم (القسطنطينية) ، برغم عداوة الغرب اللاتيني ، كل ذلك عطّل جهودهم ، بينما افتقر اللاتين الى بعد النظر والخبرة ، كيما يفهموا الوضع . ولم يكد البيزنطيون يستقرون من جديد في القسطنطينية ، حتى ضاعت الفرصة ، إذ كان لزاماً على الأباطرة من اسرة باليولوجوس ان يناهضوا الممالك الناشئة الفتيـــة في شبه جزيرة البلقان ، وأن يقـاوموا طلبات الجمهوريات الايطالية ، وأن يناضلوا مـا يتعرضون له من خطر

استرداد اللاتين ملكهم ، الذي ظل فعلاً قائماً الى ان عطّلت مذبحة صقلية شارل انجو عن المضي في تحقيق اطماعه . فإذا انقضى القرن الثالث عشر، كان الوقت قد فات . إذ اختفى السلاجقة ، ولكن حل مكانهم إمارات عديدة بالغة النشاط والطموح ، وزاد في قوتها هجرة القبائل التركية التي كانت خاضعة للمغول ، ويحتاج طردهم الى جهد مشترك طويل الامد . ومن اكبر هؤلاء الأمراء الترك ، قرمان الكبير الذي امتدت ممتلكاته في داخل البلاد من فيلادلفيا الى جبال طوروس الشرقية ، واستقر امراء آخرون في أضاليا وأيَدين (ترال) ، وفي مانيسه (مغنيسيه) . أما الساحل الشمالي لبلاد الاناضول فلا زال في حوزة بيزنطة وأمبراطورية اطرابزون البيزنطية . واحتل التركمان البلاد الواقعة جنوب اطرابزون ، وقامت في الشمال الغربي إمارة جديدة فتية بزعامة امير مغامر اسمه عثمان [1] .

الاستيلاء على ازمير سنة ١٣٤٤ :

اضحى اللاتين يزدادون ادراكاً لأهمية بلاد الاناضول ، على الرغم من ان نظرتهم اليها على انها قاعدة للاعتداء عليهم كانت تقلّ عن اعتبارها منطقة احتاجوا أن يكون لهم بها قواعد يسيطرون منها على البحر المتوسط ، إذ أن احتلال الاسبتارية لجزيرة رودس يرجع الى حد كبير الى الحظ والصدفة ، ومع ذلك فإنه يمثل اتجاهاً جديداً . والمعروف ان الجمهوريات

---

(١) انظر : Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire, pp. 15 - 34.
Köprülü, Les Origines de l'Empire Ottoman, pp. 34 - 79.
Wittek, The Rise of the Ottoman Empire, pp. 33 - 51.

الايطالية اهتمت منذ زمن طويل بجزائر بحر إيجه . فكان من الطبيعي ان يمتد اهتمامهم، واهتمام العالم اللاتيني بأكمله الى البر المواجه لهذه الجزائر. فلما قام عمر امير ايدين ، الذي تملك ازمير التي تعتبر مرفأ بالغ الروعة ، بإنشاء اسطول لممارسة القرصنة في مياه بحر إيجه ، بادر البنادقة وفرسان الاسبتارية في رودس باتخاذ اجراء لمناهضته ، ففي سنة ١٣٤٤ ، توجّه لمهاجمة ازمير اسطول اسهمت فيه البندقية وتوابعها بعشرين سفينة ، وبذل الفرسان ست سفن ، كما قدم كل من البابا وملك قبرص اربع سفن . وتولى قيادة الاسطول هنري أستي ، بطريرك القسطنطينية . وتعرّض امير ايدين للهزيمة في معركة بحرية ، قبالة مدخل خليج ازمير ، في يوم عيد الصعود . على انه بناء على طلب البابا ، رفض الحلفاء المسيحيون دعوة من مارتن زكريا حاكم خيوس السابق من قبل جنوه ، الذي سبق ان اشترك في الحملة ، كيما يعيدوا اليه جزيرته التي استولى عليها البيزنطيون من جديد ، بل ابحروا الى ازمير فسقطت المدينة بأيديهم في ٢٤ اكتوبر بعد قتال قصير ، ولكن القلعة ظلت صامدة . والواقع أن هذا الانتصار السهل يرجع اساساً الى ان الامير عمر لم يكن مستعداً ، فضلاً عن تخوفه الكريه من رفاقه الأمراء ، إذ أنه لم يقدم بجيشه لإنقاذ المدينة إلا بعد فوات الوقت. غير ان الظافرين جرى اغراؤهم فحاولوا غزو الجهات الداخلية ، فتعرضوا لهزيمة ساحقة على مسافة بضعة اميال من المدينة (أزمير) . وإذ فشل الترك في استعادة ازمير ، انعقدت معاهدة في سنة ١٣٥٠ ، عهدت بالمدينة الى الاسبتارية على ان تبقى القلعة بأيدي الترك . وظلت ازمير بأيدي الاسبتارية الى سنة ١٤٠٢ ، حين اقتحمها تيمور [١] .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 290 - 300.

وبينما لا زال مصير ازمير في الميزان ، أعرب نبيل فرنسي ، هو همبرت الثاني ، امير فيينا ، عن رغبته في التوجه بحملة صليبية الى الشرق . ومع انه كان رجلاً ضعيفاً تافهاً ، فإنه كان صادق التقوى ، مجرّداً من الطموح الشخصي . وتقرر بعد مفاوضات مع البابا ، ان يتوجه لتعزيز جهد المسيحيين في ازمير . فخرج من مرسيليا في جماعة من الفرسان والقسس ، في مايو سنة ١٣٤٥ ، ولحقت به أثناء رحيله صوب الشرق عساكر من شمال ايطاليا . فبلغ ازمير سنة ١٣٤٦ بعد مغامرات لا طائل تحتها ، وأنزل جيشه الهزيمة بالترك في معركة وقعت خارج الأسوار ، على انه لم يمكث طويلاً ، ففي صيف سنة ١٣٤٧ . عاد الى فرنسا ، ولم تحقق حملته شيئاً ، وكل ما لحملته من أهمية هي ان الكنيسة اضحت مستعدة لأن تعتبر الحملة الى بلاد الأناضول حملة صليبية [١] .

وحدث في سنة ١٣٦١ ان حصل بطرس ملك قبرص ، الذي انتزع منذ زمن قريب كوريكوس من الأرمن ، على مساعدة الاسبتارية فيما شنه من هجوم على ميناء اضاليا التركي . فسقط في ايديهم في ٢٤ اغسطس بعد قتال قصير ، فبادر الامراء المجاورون ، في علايا ، وموتوفجات الى بذل الولاء له ، لاعتقادهم ان لصداقته أهمية ازاء عدوّهم الاكبر ، قرمان الكبير . ولم يلبثوا ان سحبوا تبعيتهم ، وقاموا بمحاولات مختلفة لاستعادة علايا ، التي ظلت ، برغم ذلك ، بأيدي القبارصة لمدة ستين سنة [٢] .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 300 - 318.

(٢) انظر : Atiya, op. cit. pp. 323 - 330.
Hill, op. cit. II, pp. 318 - 324.

نمو السلطنة العثمانية :

على انه كان لا بدّ لأوربا ان تلتفت في تلك الاثناء الى الشمال . إذ ان العشراوات الاولى من القرن الرابع عشر شهدت نمواً مثيراً للدهشة في قوة الإمارة التركية التي أنشأها عثمان بن ارطغرل ، والتي اطلق عليه العثمانلي نسبة اليه . إذ لم يكن عثمان سنة ١٣٠٠ سوى زعيم صغير ، تقع بلاده في جنوب بثينيا . فلما مات سنة ١٣٢٦ كان سيد بروسه ومعظم البلاد الواقعة بين ادريميتيوم ، ودوريليوم ، وبحر مرمرة . ويرجع توسعه من جهة الى ما اشتهر به من دبلوماسية بارعة مرنه نحو رفاقه الامراء ، على ان اكثر ما يرجع من جهة اخرى الى ضعف بيزنطة . ذلك ان الامبراطور اندرونيقوس الثاني قد تسرع في سنة ١٣٠٢ فاستأجر لخدمته جماعة من الكاتلانيين ، يقودها روجر فلور ، وهو من فرسان الداوية السابقين ، أقام ثروته على سلوكه المشين أثناء نهب عكا . وأبدى روجر بسالة في حربه ازاء الترك ، على انـــه كان أشد ضراوة في نضاله مع سيده الامبراطور البيزنطي . ومع انه لقي مصرعه سنة ١٣٠٦ ، فإن جماعة الكاتلانيين ظلت باقية في البلاد البيزنطية حتى سنة ١٣١٥ ، تبث عداءها للأمبراطورية . وفي أثنـــاء حروبها جلبت الى اوربا كتيبة تركية سبق ان استخدمها الأباطرة في آسيا (١) . ولم تلبث الحرب الاهلية ان نشبت ، عقب رحيل جماعـــة الكاتلانيين ، في الامبراطورية البيزنطية بين اندرونيقوس الثاني

---

(١) انظر : Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 605 - 608.
اورد المؤرخ المعاصر مونتانر Muntaner وصفاً حياً لجماعة الكاتلانيين .

وحفيده اندرونيقوس الثالث ، ولم تنته إلا عند وفاة اندرونيقوس الثاني سنة ١٣٢٨ . واستخدم الجانبان جنوداً مرتزقة من الترك . وفي تلك الاثناء واصل اورخان بن عثمان سياسة ابيه . إذ فرض سيادة غامضة على الامراء الذين يتاخمون بلاده من جهة الجنوب ، وواصل فتح بثينيا ، فاستولى على نيقية سنة ١٣٢٩ ، وعلى نيقوميديا سنة ١٣٣٧ (١) . ثم اندلعت الحرب الاهلية في الامبراطورية البيزنطية من جديد ، سنة ١٣٤١ ، بـين يوحنا الخامس وصهره يوحنا كانتا كوزينوس ، بينما شدّ انتباه جميع شعوب البلقان مـا صار للملك الصرب ، ستيفن دوشان ، من قوة نامية (٢) .

وفي سنة ١٣٥٤ وجه اورخان الذي اتخذ لقب سلطان العساكر فعبرت الدردنيل واستولت على مدينة جاليبولي . ثم أرسل بعد سنتين عدة آلاف من رجاله عبر المضايق فأنزلهم في تراقيا . وفي السنة التالية اضحى بوسعه ان يتوغل في الداخل وأن يستولي على حصن أدرنه الضخم ، الذي اضحى حاضرته الثانية . وحينما مات سنة ١٣٥٩ ، كادت كل تراقيا ان تكون في قبضة يده ، وانعزلت القسطنطينية عن املاكها الاوربية . كان ابنه وخليفته على السلطنة ، مراد الاول ، من الكفاية مـا جعله يواصل جهد أسلافه . وكان اول ما قام به من اعمال ان انشأ فرقة الينى شرية من الارقاء من

---

(١) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 608 - 609.
Gibbons, op. cit. pp. 54 - 70.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 609 - 613.

اطفال المسيحيين الذين تحولوا قسراً الى الاسلام ، وقـــد جرى إرسالهم جزية للسلطان [١] .

على ان توسع الاتراك العثمانيين لم يجر دون ان يكون ملحوظاً في الغرب . على ان القارة الاوربية لم تتعرض حتى وقتذاك لخطر كبير من قبلهم ، إذ كان بوسع الامبراطورية الصربية الضخمة ان توقف كل تقدم من جهة العثمانيين . ولكن الواضح فيما يبدو ان تعرض لتهديدهم القسطنطينية وما كان للايطاليين بها من مصالح تجارية . ومع ذلك فإن اليونانيين يعتبرون مسيحيين منشقين . وجرت سياسة الكنيسة الغربية على الإصرار على خضوعهم لكنيسة روما ، قبل إثارة أي موضوع حول إرسال نجدة اليهم . هذه الصورة من التشهير كان لا بــدّ ان يكون مصيرها الفشل . فــلم يكن الاعتقاد الديني وحده ، بل كان الكبرياء القومي ، وذكرى الإهانات الغابرة ، هو الذي جعل من المستحيل عند الشعب اليوناني ان يقبل سيادة الكنيسة اللاتينية ، حتى لو كان اباطرتهم مستعدين للإنصياع والرضى [٢] .

حملة كونت سافوي الصليبية سنة ١٣٦٦ :

حدث سنة ١٣٦٦ ان وعد اماديوس السادس كونت سافوي بالاشتراك في حملة صليبية . كان البابا اربان السادس منصرفاً الى الدعوة الى حمـلة

---

(١) انظر : Gibbons, op. cit. pp. 100 - 103, 110 - 121.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 670 - 672.

صليبية ، بالنيابة عن بطرس ملك قبرص . ووطن اماديوس العزم على المضي الى الارض المقدسة . غير انـــه كان ابن عم شقيق للأمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس وكان يود ان يساعده . فأذن له الامبراطور بـأن يستهل حملته بقتال الترك ، بشرط ان يكفل خضوع الكنيسة اليونانية . وبـذل البنادقة قصارى جهـدهم لوقف حملته الصليبية ، لتخوفهم من تدخلها في سياستهم التجارية . وأكثر ما كانوا يودون هو ألا ينحاز كونت سافوي الى بطرس ملك قبرص ، ولذا شعروا بالارتياح لما حملته شائعاتهم عن معاهدة بطرس مع السلطان على ان يوطد عزمه على تركيز جهوده على بيزنطة . فحشد نخبة مختارة من الفرسان . غير انه صادف منذ البداية عقبات حول المال . بلغت الحملة مضيق الدردنيل في اغسطس سنة ١٣٦٦ ، فألقت على الفور الحصار على جاليبولي التي سقطت في ٢٣ اغسطس . على ان اماديوس واصل السير بحراً الى القسطنطينية بـدلاً من الهبوط في تواقيـا ، لمحاولة تطهير الاقليم من الاتراك . وتبين له في القسطنطينية ان الامبراطور البيزنطي وقع غدراً في امر ملك بلغاريا ، شيشمان الثالث ، ولذا وجـه اماديوس كل جهده لإنقاذ ابن عمه ، ولم يتحقق تخليصه إلا بعد ان هاجم اماديوس ميناء فارنا البلغاري . ولما تمّ انقاذ الامبراطور يوحنا ، اكتشف اماديوس انه انفق كل ما لديه من المال ، فضلاً عن المال الذي ابتزّه من السكان المحليين ، والذي اقترضه من الامبراطورة ، فكان لزاماً عليه ان يعود الى وطنه . غير انه قبل عودته حمل الامبراطور على ان يَعِدَ بأن تخضع كنيسته لروما ، ولما قدم فيلوثيوس بطريرك القسطنطينية برفقـة فارس يوناني الى سفينة اماديوس ، ليخطره ان اليونانيين سوف يخلعون الامبراطور من العرش اذا

وافق على طلبه ، اختطفها ونقلها معه الى ايطاليا . وعاد اماديوس الى الى وطنه في سنة ١٣٦٧ ، وتكاد تكون حملته الصليبية عديمة القيمة ، إذ أن الاتراك استولوا من جديد على جاليبولي عقب رحيله [١] .

وفي زمن مراد بادر الاتراك العثمانيون الى زيادة سلطانهم ، إذ ألزم مراد الامراء بغرب الاناضول بالخضوع له ، ومضى في زحفه في اوربا . فأضحت بلغاريا إمارة تابعة له ، ولم تلبث ان اضيفت الى املاكه ، وذلك عقب الانتصار الذي احرزه على الصربيين على نهر ماريتزا ، في سنة ١٣٧١ . ودارت سنة ١٣٨٩ معركة حاسمة في قوصوة بين الصربيين والأتراك . ومع ان مراد اغتاله احد الصربيين قبل نشوب المعركة ، فإن عساكره الذين فاقوا اعداءهم في العدد ، احرزوا انتصاراً تاماً . فأضحى الاتراك سادة شبه جزيرة البلقان [٢] .

وعلى الرغم من ان النشاط الصليبي في الغرب تحول في سنة ١٣٩٠ ، بالحملة الفاجعة التي قادها لويس الثاني دوق بوربون لمهاجمة مهدية قرب تونس [٣] ، فقد كان من الجلي انه لا بد من وقف زحف الاتراك العثمانيين ، من اجل سلامة اوربا المسيحية . فلما أضاف السلطان بايزيد في سنة ١٣٩٠ الى بلاده ، مدينة فيدين البلغارية الواقعة على نهر الدانوب ، التي سبق

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 379 - 397.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. p. 624.
Gibbons, op. cit. pp. 174 - 178.

(٣) انظر : Atiya, op. cit. pp. 398 - 434.
اورد عطية وصفاً مسهباً لحملة لويس دوق بوربون .

لأميرها ان اعترف بسيادة المجريين ، استنجد سيجسموند لوكسيمبرج ملك المجريين ، وشقيق الامبراطور ونزل ، بزملائـه الملوك . فأصدر كل من بابا رومـا بونيفاس التاسع ، وبابا افينيون بنيدكت الثالث عشر ، مرسوماً يوصى فيه بإثارة حرب صليبية ، بينما كتب داعية الحرب الصليبية الكهل ، فيليب مزيير ، رسالة مفتوحة الى رتشرد الثاني ملك انجلترا يطلب اليه التعاون مع شارل السادس ملك فرنسا في إعداد الحملة الصليبية المقبلة . وبفضل صلات سيجسموند الالمانية ، استطاع ان يلقى مساندة وتأييداً في المانيا . إذ أن اميري فالاشيا وترانسلفانيا بلغ من تخوفهما من الزحف التركي ما حملهما على الانحياز اليـه ، على الرغم من كراهيتهما الشديدة للمجريين . اما في الغرب فقد اعرب دوقات برجنديا وأورليان ولانكستر عن رغبتهم في بذل المساعدة . وفي مارس سنة ١٣٩٥ وصل الى البندقية سفارة مجرية برئاسة نقولا كانيزاي ، رئيس أساقفة جَران لتظفر من الدوق بوعد بنقل العساكر على سفن البنادقة . ثم مضى السفراء الى ليون ، حيث لقوا ترحيباً كبيراً من فيليب الجسور دوق برجنديا ، الذي وعدهم بالمساعدة الحارّة . ثم توجهوا بعد ان قاموا بزيارة ديجون لتقديم فروض الاحترام لمرجريت دوقة الفلاندر ، الى بوردو ليجتمعوا بخال ملك انجلترا ، يوحنا دوق لانكستر ، الذي تعهـد بإعداد فرقة انجليزية . وارتحلوا من بوردوا الى باريس . وكان شارل السادس ملك فرنسا يعاني نوبة جنون ، غير ان اوصياءه عرضوا بأن يشجعوا النبلاء الفرنسيين على الاشتراك في الحملة الصليبية . فأخذ يحتشد جيش دولي ضخم لنجدة العـالم المسيحي . ولتمويل هـذا الجيش فرض دوق برجنديا ضرائب خاصة تحصّل منهـا مبلغ ضخم قدره سبعمائة الف فرنك ذهب . وأضاف اليه النبلاء الفرنسيون منفردين ما اسهموا به من اموال ، فبذل جاي السادس ، كونت لاتريموي

اربعـة وعشرين الف فرنك ، ووافق النبلاء الفرنسيون والبرجنديون على ان يتولى قيادتهم اكبر ابناء دوق برجنديا ، وهو يوحنا كونت نيفر وهو شاب نشيط في الرابعة والعشرين من عمره [1] .

حملة نيكوبوليس الصليبية سنة ١٣٩٦ :

بينما هرع السفراء المجريون راجعين الى بودا ، لينهوا الى الملك سيجسموند ما أحرزوه من نجـــاح ، ولينصحوه بالمضي في استعداداته ، اصدر دوق برجنديا قرارات حافلة بالحذر والحرص ، عن نظام وسلوك العساكر الفرنسية والبرجندية . إذ جرت دعوتهم للاجتماع في ديجون في ٢٠ ابريل سنة ١٣٩٦ ، وسوف يتولى القيادة يوحنا كونت نيفر ، غير انه نظراً لحداثة سنه تألف مجلس شورى من فيليب ابن دوق بار ، وجـاي لاتريموي ، وأخيه وليم ، وأمير البحر يوحنا سيد فيينا ، وأودار سيد شاستيرون . وفي نهـــاية الشهر (ابريل) تحرك جيش مؤلف من عشرة آلاف رجل للسير الى بودا مجتازاً المانيا . وفي اثناء الطريق ، انحاز اليه ستة آلاف من الالمان بقيادة كونت بلاتين ، روبيرت بن روبيرت الثاني كونت فيتنباخ ، وإبيرارد كونت كاتسنيلنبوجن ، وسار في اعقابهم عشرة آلاف محارب انجليزي بقيادة ايرل هنتنجدون ، وهو أخ غير شقيق للملك رتشرد [2] .

ووصلت الجيوش الغربية الى بودا حوالي نهاية شهر يوليه ، فصادفوا بها

---

(١) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 1 - 34.
اورد فيه رواية مدعمة بالمراجع والمصادر .

(٢) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 41 - 48, 67 - 68, 184 nn.

الملك سيجسموند منتظراً في جيش يبلغ حوالي ستين الف رجل . وانحاز اليه تابعه ميركيا فويفود (حاكم) والاشيا في عشرة آلاف رجل ايضاً. وقدم من بولنده ، وبوهيميا ، وإيطاليا ، واسبانيا حوالي ثلاثة عشر الف من المغامرين . هذا الجيش المتحد الذي يناهز في العدد مائة الف عسكري يعتبر اضخم ما احتشد من الجيوش حتى وقتذاك لقتال المسلمين . وفي تلك الأثناء ، نفذ الى البحر الاسود اسطول يسيّره فرسان الاسبتارية بقيادة مقدمهم فيليبرت نايّاك ، والبنادقة ، والجنويون ، فرسا قبالة مصب نهر الدانوب .

ولم يكن السلطان العثماني بايزيد من جانبه متواكلاً ، فحينما بلغته الانباء بأن الحملة الصليبية احتشدت في بلاد المجرد ، كان يحاصر القسطنطينية . فبادر بايزيد على الفور الى استدعاء كل من في متناول يده من العساكر ، وتوجه بهم صوب الشمال الى نهر الدانوب ، وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة الف رجل .

على ان فرسان الغرب لم يتعلموا شيئاً من تجربة استمرّت ثلاثة قرون . فحينما جرت مناقشة خطة الحملة في بودا ، نصح الملك سيجسموند باتخاذ خطة الدفاع . إذ كان يعلم ما عليه خصمه من قوة ، فاعتقد انه لمن الخير ان يستدرجوا الاتراك الى داخل بلاد المجر ، ثم يهاجمونهم من مواقع سبق اعدادها وتجهيزها . ولم يختلف الملك سيجسموند عن الاباطرة البيزنطيين أثناء الحملات الصليبية المتقدمة ، إذ انه اعتقد ان سلامة العالم المسيحي تتوقف على المحافظة على مملكته ، غير ان حلفاءه كانوا كالمحاربين الصليبيين الاوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير ، فسوف يجري التغلب على الاتراك وتتقدم الجيوش المسيحية منتصرة في الاناضول ، الى سوريا وإلى المدينة المقدسة ذاتها . وكان العساكر من العنف ما حمل سيجسموند على الإذعان.

ففي زمن مبكر من شهر اغسطس ، التزم الجيش المتحد في سيره الشاطىء الأيسر لنهر الدانوب ، حتى بلغ اورسوفا ، عند الباب الحديدي ، ومنها عبر الى بلاد السلطان .

وانقضت ثمانية ايام في نقل الجيش في الزوارق عبر النهر . ثم سار العساكر ازاء الشاطىء الجنوبي ، حتى مدينة فيدين . وكان سيد فيدين اميراً بلغارياً اسمه يوحنا سراخيمير ، وكان من اتباع السلطان ، الذي لم يجعل بالمدينة إلا حامية تركية صغيرة . فلما وصل المسيحيون الى المدينة ، انحاز اليهم يوحنا سراخيمير وفتح لهم الأبواب . ودارت مذبحة في الاتراك . أما المدينة التالية الواقعة على النهر فكانت راهوفا ، وهي معقل منيع ، يحيط به خندق وسوران ، وينزل بـه حامية تركية ضخمة . فاندفع على الفور لمهاجمتها الفرسان الفرنسيون المعروفون بشدّة عنفهم وتهورهم ، وتولى قيادتهم فيليب ارتوا كونت ايه ، ويوحنا لى مينجر المعروف باسم المارشال بوسيكوه وتعرضوا للإبادة لو لم يبادر سيجسموند بجلب العساكر المجرية . ولم يكن بوسع الحامية ان تظل على مقاومتها زمناً طويـلاً ازاء الجيش المسيحي بأكمله ، فـتم اقتحامها ، وتعرض القتل بالسيف جميع سكانها . ومنهم عدد كبير من المسيحيين البلغاريين ، ولم يبقوا إلا على الف رجل من كبار الاغنياء ، احتفظوا بهم للحصول على الفدية .

وتحرك الجيش من راهوفا الى نيكوبوليس التي تعتبر أم معقل للأتراك على نهر الدانوب ، تقع في الموضع الذي يصل فيه الطريق القادم من وسط بلغاريا الى النهر . وتمّ تشييد هذا الحصن بجوار النهر على تل توج منحدراته شديدة الهبوط خطان من الاسوار المنيعة . ولم يجلب الصليبيون معهم ادوات الحصار ، إذ لم يدرك الغربيون الحاجة اليها ، ولم يستعد سيجسموند

إلا لاتخاذ خطة الدفاع . وإذ ثبت انه لا فائدة للسلالم التي نصبها الفرنسيون في عجلة ، ولا للنقوب التي حفرها المهندسون المجريون ، ترقب الجيش استسلام المدينة حتى لا تهلك جوعاً . وساندهم في ذلك قدوم اسطول للاسبتارية اقلع بالدانوب قبالة اسوار المدينة في ١٠ سبتمبر . غـير ان المؤن كانت وفيرة في نيكوبوليس . أما والي المدينة التركي ، دوغان بك ، الذي علم بمصير مواطنيه في فيدين وراهوفا ، فلم تكن عنده النية لتسليمها .

على ان الإرجاء والتمهل كان قاتلاً للروح المعنوية عند الجيش المسيحي . إذ ان فرسان الغرب صاروا يلهون انفسهم بلعب القمار وشرب الخمر ، وكل مظاهر الفجور والفسق . وإذ تجاسر بعض العساكر على الاشارة الى ان الأتراك أعداء أشداء ، أمر المارشال بوسيكوه بصلم آذانهم ، عقاباً لهم على روح الانهزامية . وقعت المشاجرات بين مختلف كتائب الجيش ، بينما أخذ أتباع سيجسموند الترانسلفانيون ، وحلفاؤه الولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الجيش .

وإذ أمضت الحملة الصليبية اسبوعين امام نيكوبوليس ، جاءت الأنباء بأن الأتراك اخذوا يقتربون من المدينة . إذ تحرك جيش السلطان على عجل من تراقيا ، كان خفيف التسليح ، فاق فرسانه خيـالة الفرنج في سرعة الحركة ، واشتهر رماته بروعة التدريب ، وتأصل عنـده اكتمال النظام ، والطاعة التـامة لقيادة السلطان وحده ، الذي اشتهر بالكفاية النادرة . سبق ان ارسل بعض العساكر لتسبقه ، فحلت بهم الهزيمة في احد دروب البلقان على أيدي كتيبة فرنسية يقودها سيد كومى . على ان حقد وغيرة المارشال بوسيكوه الذي اتهم كومى بمحـاولة سلب شرف الانتصار من يوحنا كونت نيفر ، منع كل محـاولة اخرى لوقف الزحف التركي . وفي

تلك الأثنـــاء قرر الفرسان ان يقتلوا الأسرى الذين وقعوا في أيديهم في راهوفا .

معركة نيكوبوليس سنة ١٣٩٦ :

وفي يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦ ، أضحت مقدمة الجيش التركي ، ظاهرة للعيان ، فعسكرت في التلال على مسافة ثلاثة اميال من المسيحيين . وفي صبيحة اليوم التالي وقبل شروق الشمس ، قـــام سيجسموند بزيارة زملائه من القادة ، وتوسّل اليهم ان يبقوا على التزام خطة الدفاع . ومع انه لم يخطرهم صراحة انه لا يثق في عساكره من الترانسلفانيين والوالاشيين ، فانه لم يلقَ التأييد إلا من كومى ويوحنا سيد فينيا ، بينما عزم القـــادة الآخرون على المبادرة على الفور الى ان ينشبوا المعركة ، ولم يسع سيجسموند إلا ان يذعن في ضعف . فجعل جيشه في ثلاثة اقسام : احتلّ عساكره المجريون قلب الجيش ، بينما اتخـــذ الوالاشيون مواقعهم في الميسرة ، وكان الترانسلفانيون في الميمنة . وتألفت مقـــدمة الجيش من جميع القادمين من الغرب بقيادة يوحنا كونت نيفر .

ولما بزغ النهار ، لم يتراءى من الجيش التركي سوى الخيالة الخفيفة الذين لم يكونوا نظاميين ، على منحدر التل . ومن ورائهم اتخـــذ الرجالة الترك مواقعهم ، وفصيلة من الرماة ، يحميهم حاجز مصنوع من أعمدة مدببة من الخشب . أمـــا القوة الرئيسية من الخيالة السباهية ، التي يقودها السلطان نفسه ، فإنها كانت مختفية في قمة التل . وكان على ميسرة السلطان فرقة من الخيـــالة الصربيين بقيادة الامير ستيفن لازاروفيتش الذي يعتـــبر من أتباع السلطان المخلصين .

دلت المعركة ، وفقاً للخطة الحربية السابقة ، على ان الصليبيين لم يتعلموا شيئاً في كل الازمنة . فلم ينتظر فرسان الغرب بالمقدمة كيا يخطروا سيجسموند بخططهم . فما تشبعوا به من حماس صادق بالغ الارتفاع حملهم على ان يهاجموا التل ، فشتتوا امامهم فرسان الترك . وبينما كان الاتراك يجمعون شملهم من جديد وراء الرجالة ، أعاق الفرسان عن الحركة اعمدة الحاجز ، فبادروا الى الترجل عن افراسهم ، وواصلوا الهجوم على اقدامهم، فنزعوا الأعمدة كلما تقدموا . كان ذلك حـافزاً لهم على الهجوم ، حتى تشتت ايضاً شمل الرجـالة الترك . ومع ان بعض الترك استطاعوا ان ينسحبوا الى ما وراء الخيالة الذين اجتمعوا من جديد ، فإن عدداً كبيراً منهم تعرضوا للقتل او جرى قذفهم الى السهل . على انـه حينما اسرع الصليبيون ، في نشوة ظفرهم وبرغم ما عانوه من تعب وإرهاق ، بالمسير ، وبلغوا قمـة التل ، اضحوا وجهـاً لوجه مع فرسان السلطان السباهية والصربيين . فأخذهم على غرة هجوم هذه القوات الجديدة النشطة . وإذ كانوا مترجلين ، وحلّ بهم التعب ، واشتد ظمأهم ، وأرهقهم ما يحملون من اسلحة ثقيلة ، لم يلبث نظامهم أن اضطرب ، وتحول انتصارهم الى هزيمة . ولم ينج من القتل إلا عدد قليل من الفرسان . ومن الذين هلكوا ، وليم لاتريموي ، وابنه فيليب ، ويوحنا كادزوه امير البحر في الفلاندر ، ومقدم الفرسان التيوتون . اما يوحنا سيد فيينا وأمير البحر في فرنسا فإنه وقع وقـد امسك بلواء نوتردام الكبير ، الذي كان موكولاً له امر المحافظة عليه . ولم ينج يوحنا كونت نيفر إلا لأن خدامه هتفوا باسمه وأقنعوه بالإذعان . وممن وقع معه في الاسر ، كونتات ايه ، ولامارش ، وجـاي لي تريموي ، وانجيراند كوسي ، والمارشال بوسيكوه .

ولما ترجل الفرسان عن جيادهم ، اندفعت الأفراس راجعة وحدها الى المعسكر . وقررت الكتيبتان الوالاشية والترانسلقانية على الفور انهما قد خسرتا المعركة ، وعجلتا بالانسحاب ، فاستولتا على كل ما عثرتا عليه من الزوارق ، كيما تعبرا النهر . غير ان سيجسموند امر عساكره بالتقدم لنجدة فرسان الغرب . فقتلوا اثناء سيرهم الى أعلى التل ، كثيراً من الرجالة الترك الذين اضطرب نظامهم ، غير انهم لما اقتربوا من ساحة المعركة أدركوا انهم جاءوا متأخرين ، فحمل عليهم خيالة السلطان وطردوهم الى ضفاف النهر بعد ان كبدوهم خسائر فادحة .

ولما تبدد جيش سيجسموند ، اقتنع بالتخلي عن القتال ، فلجأ الى إحدى سفن البندقية في النهر ، فنقلته الى القسطنطينية ، ومنها الى بلاده عن طريق بحر ايجه والبحر الادرياتي ، إذ كان يخشى ان يرتحل براً ، لارتيابه في التعرّض للخيانة من قبل الولاشيين . أما عساكره وفئة قليلة ممن بقي على قيد الحياة من الصليبيين الغربيين ، فإنهم بذلوا كل ما بوسعهم من جهد لالتماس الطريق الى بلادهم ، بعد ان ازعجهم السكان الوطنيون المعادون لهم ، والحيوانات المتوحشة ، فضلاً عن شدائد فصل الشتاء الذي بدأ مبكراً ، فواصل كونت بلاتين السير الى قلعة والده في اسمال ، ومات بعد بضعة ايام . ولم يوات الحظ الطيب سوى عدد قليل من رفاقه اللاجئين [1] .

انتصار السلطان بايزيد سنة ١٣٩٦ :

احرز بايزيد انتصاراً باهراً ، غير ان خسائره كانت فادحة . وفي سورة

---

(١) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 50 - 99.

غضب ، وقد تذكر ايضاً مـا ارتكبه الصليبيون من مذابح ، امر بقتل اسراه ، الذين يناهز عددهم ثلاثة آلاف اسير ، صبراً ولم يبق إلا على حياة عدد قليل من النبلاء كيما يتقاضى عنهم فدية ضخمة . وتولى التعرّف عليهم فارس فرنسي ، اسمه جيمس هيللي ، يلم باللغة التركية ، ثم تقرر السماح له بالرحيل الى الغرب ليدبر ما يتحصل من الاموال . على انـه لم تصل الى السلطان في بروسه سفارة من الغرب إلا في يونيه من السنة التالية ، فسلمته ما طلبه من مقادير ضخمة من المال . إذ ان عدداً كبيراً من المعروفين في العالم المسيحي بشدة العاطفة ارسلوا ما اسهموا به من اموال ، غير ان الجانب الاكبر ادّاه الملك سيجسموند ودوق برجنديا ، اللذان بذلا ما يزيد على مليون فرنـك ، ومن جرى إطلاق سراحهم من الاسرى ، لم يبلغوا اوطانهم إلا حوالي نهاية سنة ١٣٩٧ (١) .

تعتبر حملة نيكوبوليس الصليبية أضخم وآخر الحملات الصليبية الكبيرة . إذ ان طابع تاريخها المثير للأسى ، احتذى في دقـــة مؤلمة نهج الحملات الصليبية التي تعرضت في الماضي لكوارث فاجعـة ، وكل مـا بينها من اختلاف أن ساحة المعركة أضحت في اوربا ، لا في آسيا . وما وقع فيها من أخطاء وحماقات كانت واحدة . وما اتسمت به من حمـاس تبدّد فيما وقع من مشاجرات وحقد وقلق . وكل ما تعلمه الغرب من هـذا الفشل الذريع الاخير ، هو انه لم يعد للحرب المقدسة وجود من الناحية العملية .

---

(١) انظر : Atiya, Crusade of Nicopolis, pp. 102 - 111.

لن تقوم حملات صليبية اخرى ، غير ان السلطان ظلّ يهدد جوف العالم المسيحي ، إذ بلغ نهر الدانوب ، وشواطىء البحر الادرياتي . ومع ان القسطنطينية لا زالت بأيدي المسيحيين ، فإنها أضحت معزولة ، ولم يبق عليها إلا انه لم يتوافر للسلطان من المدفعية القوية ما يكفي لدك أسوارها الضخمة ، ولم يكن لديه من السفن ما يكفي لقطع طرق مواصلاتها بحراً . اما فرسان الاسبتارية في رودس ، والسادة الايطاليون الذين يتملكون ارخبيل بحر إيجه ، فإنهم أضحوا على الحدود ، بينما تعتبر قبرص معقلاً نائياً . كما أن ملك المجريين ، وسيدي والاشيا ومولدافيا ، وزعماء ألبانيا ، التمسوا المساعدة للدفاع عن حدودهم . وعكفت الجمهوريات الايطالية على تقدير خير ما يتخذ من سياسة للمحافظة على مصالحها التجارية . واشتدّ إحساس البابا بما يهدد العالم المسيحي من خطر . غير ان دول الغرب لم تعد تبدي شيئاً من الاهتمام . إذ ان آخر تجربة لها كانت بالغة المرارة ، كما ان الحماس الذي أثارها لن ينبعث من جديد بعد ما حلّ بها من كارثة . بل ان البابا نفسه ظلّ يتآمر في بلاد المجر لعزل سيجسموند ، وإحلال لاديسلاس ملك نابولي مكانه ، بصرف النظر عما قد تنزله الحرب الاهلية من ضرر بأسباب الدفاع في اوربا الوسطى [١] . وإذ أضحى ملك فرنسا سيداً على جنوة من سنة ١٣٩٦ حتى ١٤٠٩ ، بلغ من شدة انزعاجه على مصير المستعمرة الجنوية ، بيرا ، المواجهة للقسطنطينية ، انه ارسل المارشال بوسيكوه في الف ومائة رجل الى البوسفور ، في سنة ١٣٩٩ .

---

(١) انظر : Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, pp. 463 - 464.
Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, VI, 2, pp. 1253 - 1254.

على ان قدوم القوات الفرنسية منع ما قد يقوم به الترك من محاولة لمهاجمة المدينة الامبراطورية (القسطنطينية) . غير ان المارشال بوسيكوه لم يلبث ان انسحب ، لأنه ما من احد كان مستعداً لأن يؤدي له او لرجاله النفقات [١] . ثم ارتحل الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني الى الغرب يحدوه الأمل في الحصول على مساعدة . وانزعج الايطاليون لما شهدوا كيف أضحى وريث القياصرة فقيراً ، فبذل له دوق ميلان من الهدايا الرائعة ما يجمل حالته بالفخامة الملاءمة لمكانته ومنصبه . ولقي الامبراطور استقبالاً حافلاً في باريس ولندن ، غير انه لم يتلق مساعدة مادية . اما البابوية فلم تحفل به ، إذ ان مانويل كان من الأمانة ما يمنعه من الوعد بأن تخضع كنيسته لروما ، لعلمه أن قومه لن يقبلوا ذلك . على انه هرع راجعاً الى عاصمته سنة ١٤٠٢ ، وقد أطربته الأنباء التي تنذر فيما يبدو بتداعي الامبراطورية العثمانية [٢] .

تيمورلنك (الاعرج) :

ولد تيمور الأعرج في سنة ١٣٣٦ ليكون اميراً صغيراً ، ينحدر من اسرة تركية مغولية قرب سمرقند . اضحى سنة ١٣٦٩ سيداً على جميع البلاد التي كان يحكمها فرع جغتاي من المغول . ومنذئذ أخذ يمد ممتلكاته بما شنه من حروب لا تعرف الرحمة او الشفقة ، والتزم اول الأمر

---

(١) انظر : Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, pp. 465 - 466.
Vasiliev, op. cit. pp. 632 - 633.

(٢) انظر : Ibid, pp. 631 - 634.

التؤدة والبطء ، ثم قوي عزمه واشتدت حركته . ففي الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٨١ ، ١٣٨٦ أغار على بلاد الايلخانية المغولية في فارس ، فاستولى سنة ١٣٨٦ على تبريز وتفليس . وظلّ منصرفاً في السنوات الاربع التالية الى ما يجري على حدوده الشمالية . وفي سنة ١٣٩٢ استولى على بغداد . وتوجه أثناء السنوات التالية بحملات الى روسيا لقتال مغول القبيلة الذهبية ، ومضى في توغله حتى بلغ موسكو ، ثم ظهر في شرق الأناضول سنة ١٣٩٥ فدانت له ارزنجان وسيواس . وفي سنة ١٣٩٨ فتح شمال الهند بحملة رائعة ، زاد من أثرها وقوتها ما اجراه من مذابح رهيبة . ثم تحوّل من جديد ، سنة ١٤٠٠ صوب الغرب ، فانساب في سوريا ، وأنزل الهزيمة بالجيوش المملوكية في حلب اولاً ، ثم في دمشق ، واحتل واستباح كل المدن الكبيرة بالاقليم . وفي سنة ١٤٠١ انزل العقاب بثورة نشبت في بغداد ، بأن امر بأن يحل الدمار التام بالمدينة ، التي لم تكد تنتعش من أثر فتح هولاكو ، الذي وقع قبل قرن ونصف قرن . وعاد تيمور الى الأناضول سنة ١٤٠٢ ، وقد وطد العزم على قهر السلطان العثماني ، الذي لم يبق سواه من الامراء المسلمين دون ان ينزل به الهوان . ودارت المعركة الحاسمة في انقرة في ٢٠ يوليه سنة ١٤٠٢ ، وحلّت الهزيمة الساحقة بالسلطان بايزيد ، الذي وقع اسيراً ، ومات في اسره بعد بضعة شهور . وفي تلك الاثناء توالى سقوط المدن العثمانية بالأناضول في يدي الغازي ، الذي طرد فرسان الاسبتارية من ازمير في ديسمبر سنة ١٤٠٢ [١] .

---

(١) عن حياة تيمور ، انظر :

Bouvat, L'Empire Mongol, 2^{me} phase, passim, esp. pp. 58 - 63.

كان الامبراطور مانويل الثاني يأمل في ان ما حلّ بالسلطان بايزيد من كارثة ، قد ينهي التهديد العثماني ، غير انه لم يكن من القوة ما يكفي لأن يتخذ اجراء بدون مساعدة . التزمت الجمهوريات الايطالية جانب الحذر ، إذ بادر الجنويون الى عقد معاهدة مع تيمور للمحافظة على تجارتهم الاسيوية ، على ان تخوفهم على تجارتهم بالبلقان ، وقلقهم على المستقبل ، حملهم على ان يساعدوا في المحافظة على القوة العثمانية ، بأن نقلوا على زوارقهم بقايا جيش بايزيد الى اوربا . اما البنادقة فالتزموا الاعتزال[1]. وكان لحذرهم ما يبرره . والواقع ان غزاة تيمور منعت السلطان من شن هجوم مباشر على القسطنطينية ، وأبقت على بيزنطية لمدة نصف قرن آخر. فلو ان كل اوربا بادرت الى التدخل ، لاستطاعت ان تقضي على الامبراطورية العثمانية . غير ان الاتراك كانوا من التماسك العنصري في الاناضول ، والاستقرار السياسي في البلقان ما يجعل من العسير طردهم ، كما انه لم يكن لتيمور ما لجنكيزخان من العبقرية ، إذ أن امبراطوريته اخذت تتجزأ عقب وفاته مباشرة ، سنة ١٤٠٥ . فعجّل المماليك باسترداد سوريا ، وظهرت في اذربيجان أسرة الشاه السوداء ، وأقامت مُلكاً امتد من شرقي الاناضول حتى بغداد . وظهرت فورات قومية في فارس حيث لم تلبث الأسرة الصفوية ان ظهرت . وظلت سلالة تيمور تحكم اقليم ما وراء النهر نحو قرن من الزمن ، على انهم اقاموا في الهند وحدها امبراطورية ، وهي المعروفة بأمبراطورية المُغَل في دلهي ، استمرت أمداً طويلاً[2] .

---

(١) انظر : Heyd, op. cit. II, pp. 65 - 67.

(٢) انظر : Bouvat, op. cit. pp. 84 ff.

ولم تكن النتيجة النهائية لغزو تيمور بلاد الاناضول سوى انه ادخل بها سيلاً جديداً من الترك والتركمان ، وبذا ازدادت جذور الدولة العثمانية رسوخاً . فحينما مات تيمور ، تسلّم ابناء بايزيد إرث ابيهم . وما نشب من الحروب الداخلية هيــأ للقوى المسيحية فرصة جديدة لوقف النمو المضطرد للدولة العثمانية ، غير ان هذه الفرصة لم يجر اغتنامها . فقد استعاد الامبراطور البيزنطي بعض المدن الساحلية ، وتهيأ لفرسان الاسبتارية في رودس ان يشيدوا قلعــة على بر الأناضول المواجه لجزيرتهم ، في بودرون المعروفة قديماً باسم هاليكارنا ّسوس . غير انه فيما عدا ذلك لم يتحقق شيء . فلمــا انفرد محمــــد الاول بالسلطنة سنــــة ١٤١٣ ، كانت الامبراطورية العثمانية متماسكة . ومع ان محمداً اشتهر بأنه امير يميل الى السلام ، وتجنب الحروب العدوانية ، فإنه أصرّ على إعادة تنظيم ممتلكاته ، فأضحى العثمانيون عند وفاته سنة ١٤٢١ أقوى مما كانوا عليه قبله [١] .

الحملة الصليبية على فارنا سنة ١٤٤٤ :

استهلّ مراد الثاني ، الذي خلف محمداً على السلطنة ، حكمــــه بمحاولة الاستيلاء على القسطنطينية . غير انــه لا زال يفتقر الى المدفعية الثقيلة ، وإلى السفن . وإذ استبسل اليونانيون في الدفاع عـــن حاضرتهم ، دون مساعدة خارجية ، في الفترة من يونيــه الى اغسطس سنة ١٤٢٢ ، تخلى مراد عــن الحصار ، وركز اهتمامه على المضي في الفتوح في شبه الجزيرة

(١) انظر : Hammer, Histiore de L'Empire Ottoman, (trans. Helbert), II, pp. 120 ff.

اليونانية ، وفي آسيا ، وفيما وراء الدانوب [1] . وفي سنة ١٤٣٩ وافق الامبراطور يوحنا الثامن ، الذي خلف مانويل على الحكم ، وقد استبد به اليأس ، في مجمع فلورنسه على ان تخضع كنيسته لروما . فرفض قومه الاتحاد ، فلم يحظ بشيء لقاء جهوده ومتاعبه [2] . ودعا البابا يوجينيوس الرابع ، سنة ١٤٤٠ الى حملة صليبية جديدة ، كما انه حدث بعد اربع سنوات ان اعلن زعيم الباني ، اسكندر بك ، الحرب على الاتراك ، وانحاز اليه ملكه وسيده جورج ملك الصربيين . ووعد كل من البابا وملك اراجون بأن يرسل الى الشرق عشر سفن كبيرة . أما الجيش المجري بقيادة ابن غير شرعي للملك سيجسموند ، وهو يوحنا كورفينوس المعروف باسم هونيادي ، الذي كان يتولى حكم ترانسلفانيا من قبل فلاديسلاف ، فقد تجهز لعبور نهر الدانوب . على ان الحلفاء لم يلبثوا بعد بضع مناوشات ان تخاذلوا ، فوافقوا على عقد هدنة لمدة عشر سنوات ، تمّ ابرامها في سزيجدين ، في يونيه سنة ١٤٤٤ [3] . ثم استعد مراد لأن يقود جيشه لمواجهة الاعداء في الأناضول ، وعندئذ استطاع المندوب البابوي المرافق للجيش المتحالف الكاردينال يوليان شيزاريني ، ان يقنع قادة الجيش على ان كل يمين تبذل لكافر تعتبر باطلة ، وحثهم على مواصلة الزحف . غير ان ملك الصربيين الارثوذكسي لم يوافق على هذه العلة ، ولم يسمح لاسكندر بك ان يبقى مع الجيش ، واحتج على ذلك يوحنا هونيادي ، على انه بقي في قيادة

---

(١) انظر : Hammer, op. cit. II, pp. 159 ff.

(٢) انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 672 - 674.

(٣) انظر : Hammer, op. cit. II, pp. 288 - 302.

الجيش ، فقاد الجيش المتحالف الذي يبلغ عدده نحو عشرين الف رجل ، الى فارنا ، التي بلغها في زمن مبكر من شهر نوفمبر سنة ١٤٤٤ . وإذ علم مراد بما اقدموا عليه من انتهاك الهدنة ، بادر الى لقائهم بجيش يبلغ في العدد ثلاثـــة امثال جيشهم . ونشبت المعركة في شهر نوفمبر ، فاستبسل المسيحيون في المقاومة ، وفي أثناء حدة المعركة ، كان السلطان الذي أمر بأن ترفع على لوائه المعاهدة التي جرى انتهاكها ، يصيح هاتفاً « أيها المسيح إذا كنت إلهاً حسبما يقول أتباعك ، فلتنزل العقاب بهم لما ارتكبوه من خيانة » وتغلبت دعوات مراد وأعداد جيشه ، إذ ان كل الحلفاء المسيحيين على وجه التقريب تعرضوا للدمار ، فلقي مصرعه الملك فلاديسلاف الذي كان يقود عساكره ، وهلك الكاردينال الخائن ، وأفلت هونيادي مع فلول جيشه الضئيلة [1] .

وما بذله اسكندر بك من جهود رائعة انقذت استقلال البانيـا لمدة عشرين سنة اخرى . ومع ان يوحنا هونيادي لحقت به هزيمة منكرة في معركة استمرت ثلاثة ايام على ساحـة قوصوه المنذرة بالشر ، في سنة ١٤٤٨ ، فإنه طالما كان حياً ، منع السلطان من عبور نهر الدانوب . غير انه عند وفاته سنة ١٤٥٦ ، كان الاتراك قد حققوا ما كان يسيطر على الاسلام من طموح منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم. ففي سنة ١٤٥١ خلف مراد على السلطنة ابنه محمد الثاني ، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره ، فائق النشاط ، شديد النزوع للمغامرة ، بالغ الكفاية . وأول ما كان يرمي اليه

---

(١) انظر : Haleki, The Crusade of Varna, passim.

من هدف ، هو ان يستولي على القسطنطينية . وليس هنا موضع الحديث عن القصة الرائعة المؤلمة التي تروي الايام الاخيرة لبيزنطة ، إذ أن اليونانيين الذين شقوا عصا الطاعة على حكامهم الذين باعوا كنيستهم الى روما ، احتشدوا في شجاعة نادرة لمواجهة مصيرهم الاخير . وما أرسله الغرب من مساعدة لم تكن كافية ، مهما كانت بسالة رجالها . فما توافر للسلطان من موارد ضخمة ، وما بذله من اهتمام في استعداداته ، فضلاً عن ارادته التي لا تنثني ، كل ذلك كان لا بدّ ان يقوده الى النصر . على ان ما احرزه من انتصار لم يكن راجعاً فحسب الى ما اقترن به من مكانة وهيبة ، إذ أن بيزنطة ظلت منذ زمن طويل تعاني سكرات الموت ، غير ان زوالها كفل للترك انهم سوف يبقون في اوربا ، إذ سوف يجعل لهم السيادة على كل البحار الشرقية ، إذ قرع ناقوس نهاية امبراطوريتي جنوة والبندقية ، ومملكة قبرص ، والاسبتارية في رودس ، وأطلق للسلطان الحرية في ان يسوق جيوشه الى ابواب فيينا[1] .

البابا بيوس الثاني آخر دعاة الحروب الصليبية سنة ١٤٦٤ :

يعتبر سقوط القسطنطينية في جميع انحاء اوربا نهاية مرحلة من مراحل التاريخ . ومع أن النبأ لم يكن غير متوقع ، فإنه اضحى عذراً مرّاً للتأنيب الذاتي ، ومع ذلك فإنه باستثناء الأمراء الذين تتعرض حدودهم

---

(١) انظر : Pears, The Destruction of the Greck Empire, pp. 273 ff.
Vasiliev, op. cit. pp. 647 - 655.
لا زال كتاب بيرز خير تاريخ عن سقوط القسطنطينية .

التهديد المباشر من قِبل الاتراك ، ما من احد صار يحفل باتخـاذ اجراء لمواجهتهم . ولم يحاول اثارة الغرب الى واجبه بعـد فوات الاوان ، إلا الكاردينال فنسيو في المانيا وهو الانسـاني الكبير اينياس سيلفيوس ، غير ان احاديثه الى مجالس الديات بالمانيا لم تسفر عن نتيجة ، كما ان رسائله الى البابا ، كشفت عن انـه لم يكن مخدوعاً . ففي سنة ١٤٥٨ اضحى بابا باسم بيوس الثـاني . وظل طوال بابويته يسعى لأن يبعث من جديد حملة صليبية كالتي سبق لأسلافه الكبار ان ارسلوها . وفي سنة ١٤٦٣ كاد مشروعـه فيما يبدو يجني ثماره . فما حدث في الوقت المناسب من اكتشاف مناجم النطرون في املاك البابوية أمدته بموارد لم تكن متوقعة ، وهددت بكسر احتـكار الترك للنطرون . كان دوج البندقيـة الجديد فيما يبدو يؤيد الحرب . امـا ملك المجريين الذي تصالح آخر الامر مـع الامبراطور ، فكان حريصاً على قيام تحالف مسيحي . وأظهر يوحنا الصالح دوق برجنديا عن طيب خاطر اهتماماً ملحوظاً . ومـا اصدره البابا في اكتوبر من المرسوم البابوي المعروف باسم Ezechielis يعكس تفـاؤله . غير انه كلما مضت الشهور ، تضاءل الحماس ، إذ لم يعرض عليه مساعدة مـادية إلا المجريون ، الذين كانوا فعلاً يواجهون الحرب التركية ، وأظهر البنادقة التردد . ومـا من مدينة ايطالية كانت مستعدة لتغـامر بضياع التجـارة الذي يترتب على قطع علاقاتها بالسلطان . وكتب يوحنا دوق برجنديا ان مـا دبره ملك فرنسا من مؤامرات جعل من المستحيل عليه ان يغـادر بلاده . وعزم البابا في شجاعة على ان يموّل الحملة الصليبية ويتولى بنفسه قيادتها . وبناء على اوامره حشد وكلاؤه اسطولاً من السفن في انكونا ، وفي ١٨ يوليه سنة ١٤٦٤ ، وبرغم مـا يعانيه من ارهاق وصحة معتلة ، اتخذ الصليب في احتفال جرى في كنيسة القديس بطرس .

ولم تنقض إلا بضعة ايام حتى توجه الى الميناء الذي سوف يستقل منه العساكر السفن . وإذ شعر خدامه انه رجل يشرف على الموت ، أخفوا عنه الحقيقة بأنه مـا من احد من امراء اوربا قد احتذى نهجه ، وأن ما من جيوش تسير خلفه لتستقل سفنه الى الشرق . بل حدث العكس ، فحينما اقترب من انكونا ، اسدلوا ستائر محفتة حتى لا يتطلع منها ، إذ اكتظت الطرق بالبحارة من اسطوله ، الذين هجروا سفنهم وهرعوا للعودة الى بلادهم ، ولم يكد يبلغ انكونا حتى توفي بهـا في ١٤ اغسطس سنة ١٤٦٤ ، إذ تداركته الرحمة فجنبته العلم بمـا انتهت اليه الحملة الصليبية من انهيار تام[١] .

لقد حدث منذ نحو اربعة قرون ان ارسل البابا اربان الثاني بدعوته للحرب الصليبية ، الألوف من الرجال ليخاطروا بحياتهم في الحرب المقدسة . أمـا الآن فإن كل ما استطاع البابا الذي اتخذ الصليب ، ان يحشده لم يتجاوز عدداً قليلاً من المأجورين ، الذين تخلوا عن واجبهم ، قبل ان تتحرك الحملة . لقد ماتت الروح الصليبية .

---

(١) انظر : Atiya, op. cit. pp. 227 - 230.
Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, VII, 2, pp. 1291 - 1352.

الفصل الثاني

الخلاصة

المعروف ان الحملات الصليبية قد جرى توجيهها لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي من المسلمين، فلما انتهت الحروب الصليبية اضحى العالم المسيحي الشرقي خاضعاً لحكم المسلمين. فحينما ألقى البابا اربان الثاني خطابه في كليرمونت، كان الترك فيما يبدو يوشكون على تهديد البوسفور. ولما دعا البابا بيوس الثاني الى الحملة الصليبية الاخيرة، كان الترك يجتازون نهر الدانوب. ومن اواخر ثمار الحركة الصليبية، ما حدث من سقوط رودس بأيدي الاتراك سنة ١٥٢٣، وانتقال جزيرة قبرص اليهم سنة ١٥٧٠، بعد ان خربتها الحروب مع مصر وجنوة، ثم استيلاء البنادقة عليها آخر الأمر. ولم يتبق للغزاة من الغرب سوى بضع جزائر يونانية ظلّ بقاؤها في ايدي البنادقة محفوفاً بالخطر. على ان الزحف التركي لم يوقفه ما بذله العالم المسيحي من جهد مشترك، بل ما اتخذته من اجراء الدول التي كانت أكثر تعرضاً لتهديد الترك. إذ مضى في مساندة المسلمين، البندقية وأمبراطورية هابسبرج، فضلاً عن فرنسا، الراعية قديماً للحرب المقدسة.

وأخذت الامبراطورية العثمانية في التداعي ، لما اصابها من فشل في اقامة حكومة قوية لمتلكاتها الشاسعة ، فلم يعد بوسعها ان تقاوم طموح جيرانها ، او تقمع ما عند رعاياها المسيحيين من الروح القومية التي حافظت عليها تلك الكنائس التي بذل الصليبيون كل جهد لتدمير استقلالها .

على انه وفقاً للمنظور التاريخي ، ليست الحركة الصليبية بأكملها إلا فشلاً ذريعاً . فما صادفته الحملة الصليبية الاولى من نجاح يفوق حد الاعجاز أدى الى قيام إمارات الفرنج في الشرق الادنى . ولما تراءى ان كل شيء قد ضاع ، بعد قرن من الزمان ، لم يبق عليها لمدة قرن آخر سوى ما بذلته الحملة الصليبية الثالثة من جهد رائع . على ان ما اضحت عليه مملكة بيت المقدس والإمارات الاخرى من الضآلة لم يكن سوى نتيجة هزيلة لجهد وحماس بالغي الضخامة . فما من امير او سيد في اوربا لم يعد في حماس في وقت من الاوقات ، طوال ثلاثة قرون ، بالمضي الى الحرب المقدسة . وما من اقليم بأوربا لم يرسل عساكر للقتال في الشرق من اجل العالم المسيحي ، إذ ان بيت المقدس لم تبرح تفكير كل رجل ، وكل امرأة . ومع ذلك فإن ما بذل من جهود للاحتفاظ بالمدينة المقدسة او استردادها لم تكن مجدية ، ولم تكن مجرّدة من الهوى والعاطفة . كما انه لم يكن لهذه الجهود من التأثير على التاريخ العام للأوربيين في الغرب ما كان يتوقع منها. والواقع ان فترة الحروب الصليبية تعتبر من أهم المراحل في تاريخ المدنية الغربية . فحينما بدأت ، لم تكد اوربا تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الطويلة الأمد والتي يطلق عليها العصور المظلمة . فلما انتهت ، كانت براعم ما نطلق عليه النهضة الاوربية تأخذ في الظهور . على اننا لا نستطيع ان نخص الصليبيين انفسهم بدور مباشر في هذا التطور . فلم يكن للحروب

الصليبية تأثير فيما ساد الغرب من أمن وطمأنينة ، هيأت للتجار والطلاب ان يرتحلوا كيفما شاءوا . اضحى من اليسير فعلاً الوصول الى ما اختزنه العالم الاسلامي من العلوم ، عن طريق اسبانيا . فالطلاب ، أمثال جربرت اورياك سبق لهم ان زاروا مراكز التعلم في اسبانيا . بل انه جرى طوال فترة الحروب الصليبية إن كانت صقلية ، لا بلاد الشرق الفرنجي ، مركز إلتقاء للحضارة الاسلامية واليونانية والغربية . والواقع ان الشرق الفرنجي لم يضف شيئاً يذكر من الناحية العقلية [1]. إذ كان بوسع رجل من طراز القديس لويس ان يقضي عدة سنوات في الشرق الفرنجي دون ان يتعرّض اتجاهه الثقافي لأقل تأثير . وإذا اهتم الامبراطور فردريك الثاني بالمدنية الشرقية ، فلم يكن ذلك راجعاً إلا لنشأته وتربيته في صقلية . ولم يسهم الشرق الفرنجي ايضاً في رقى الفن في الغرب إلا في مجال العمارة العسكرية ، وفي إدخال العقد المدبب اليها . أما في فن الحرب ، باستثناء بناء القلاع ، فإن الغرب دلّ دائماً على انه لم يتعلم شيئاً من الحروب الصليبية . فإن كل الحملات الصليبية ، ابتداء من الحملة الاولى حتى حملة نيكوبوليس وقعت في نفس الاخطاء . إذ ان احوال فن الحرب في الشرق بلغت من الاختلاف عنها في غرب اوربا ، انه لم يحفل بتذكر التجربة الغابرة إلا الفرسان المقيمون في الشرق الفرنجي . والراجح ان المستوى العام للمعيشة في الغرب ، لم يرتفع إلا بفضل رغبة العساكر والحجاج العائدين ، في ان يلجأوا في اوطانهم الى محاكاة ما اشتهر به الشرق من مظاهر الحياة الوادعة . وعلى الرغم من ان الحروب الصليبية اسهمت في

---

(١) عن الحياة العقلية في الشرق الفرنجي ، انظر ما يلي ، الملحق الثاني .

زيادة التجارة بين الشرق والغرب ، فإنه لم يتوقف عليها بقاء التجارة وحياتها .

الحروب الصليبية والبابوية :

لم تترك الحروب الصليبية طابعاً إلا في بعض مظاهر التطور السياسي في غرب اوربا . فكان من الاغراض التي ركز عليها البابا ايربان في دعوته للحروب الصليبية ، ان يلتمس عملا مجدياً للبارونات الذين نزعوا لإثارة الاضطراب والقتال ، وإلا انفقوا طاقتهم ونشاطهم في الحروب الأهلية بأوطانهم . ولا شك ان إبعاد شطر كبير من هذا العنصر المتمرّد الى الشرق أعان على ظهور السلطة الملكية في الغرب ، وإنما على حساب ما اصاب البابوية من ضرر . على ان البابوية في تلك الاثناء قد أفادت من الحروب الصليبية ، إذ ان البابا وجه الحرب الصليبية على انها حركة مسيحية دولية تخضع لقيادته ، وما احرزته في مستهلها من نجاح اسهم الى حد كبير في ازدياد سلطة البابا ومكانته . إذ ان الصليبيين كانوا ينتمون جميعاً لقطيعه . ولم تكن فتوحهم إلا فتوحاً له . وإذ خضع لسلطانه البطريركيات القديمة ، انطاكية ، وبيت المقدس ، والقسطنطينية ، الواحدة بعد الاخرى ، اضحى فيما يبدو لدعواه بأن يكون رئيس العالم المسيحي ما يبررها . وازداد امتداد سيادته وسلطانه في الأمور الكنسية . إذ ان جموع المؤمنين في كل أرجاء العالم المسيحي اعترفوا بسيادته الروحية . فمضى مبشروه في طوافهم حتى بلغوا اثيوبيا والصين . كما ان الحركة الصليبية بأكملها جعلت لنظام المحكمة البابوية العليا أساساً دولياً يفوق ما كان

له من قبل ، فقـــام بدور كبير في تطور القانون الكنسي[1] . ولو قنع البابوات بجـــني الفوائد الكنسية وحدها ، لتوافر لديهم سبب سليم لأن يهنئوا انفسهم . غير ان الوقت لم يحن بعد لحدوث تفرقة ظاهرة بـــين السياسة الكنسية والسياسة العلمانية ، على ان البابوية تجاوزت حدودها في السياسة العلمانية . لم تفرض الحرب الصليبية احترامها إلا حـين توجهت لقتال المسلمين . فما حدث من توجيه الحملة الصليبية الرابعة ، دون ان يجري التبشير بها ، لقتال المسيحيين في الشرق ، تلاها حملة صليبية لقتال الملحدين بجنوب فرنسا ، والنبلاء الذين كانوا يعطفون عليهم ، وأعقبها الدعوة لحملات صليبية لقتال اسرة هوهنشتاوفن ، فـلم يعد للحرب الصليبية آخر الأمر من معنى سوى انهـا مجرّد حرب لمناهضة اعداءِ السياسة البابوية . فجرى استخدام كل ما يرتبط بغفران الذنوب من مزايا روحانية ، ومكافآت من قبل الله ، لتأييد ما للمقر الرسولي من اطماع دنيوية . وما احرزه البابوات من انتصار في تدمير أباطرة الشرق والغرب معاً ، لم يؤدّ إلا الى ما تعرّضوا له من الإذلال في الحرب الصقلية ، والأسر في افينيون . فانحرفت الحرب المقدسة حتى اضحت ملهاة فاجعة .

وباستثناء ما حدث من اتساع السلطان الروحي لروما ، كان اكبر ما جناه العـــالم المسيحي في الغرب من الحروب الصليبية من فائـدة ، لم تكن ايجابية . فحينما بدأت الحروب الصليبية كان المركزان الرئيسيان للمدنية بالشرق في القسطنطينية والقاهرة ، ولمـــا انتهت ، نقلت المدنية

---

(١) انظر : Ullmann, Medieval Papalism, pp. 120 - 121, 128 - 129.

مركزها الى ايطاليا والممالك الناشئة في الغرب . ولم تكن الحروب الصليبية السبب الوحيد لتداعي العالم الاسلامي . إذ ان غارات الترك سبق ان قوّضت فعلاً الخلافة العباسية في بغداد ، بل انــه لولا الحروب الصليبية لدمّرت نهائياً الخلافة الفاطمية في مصر . غير انــه لو لم تحدث الإثارة الدائمة للحروب مع الفرنج ، لاندمج الترك في العالم العربي ، وأمدوه بحيوية وقوة جديدة دون ان يحطموا وحدته الاساسية . على ان غارات المغول كانت أشدّ تدميراً للمدنية العربية ، ولا يصح إلقـاء اللوم على الحروب الصليبية لقدوم المغول . غير انــه لولا الحروب الصليبية لأضحى العرب أقـدر على مواجهة اعتداء المغول . إذ ان دولة الفرنج الدخيلة لم تكن سوى جرح فاسد لا ينساه المسلمون . فطالما التهم دولة الفرنج ، لم يكن بوسعهم مطلقاً ان يركزوا جهودهم على المشاكل الاخرى .

الحروب الصليبية والاسلام :

على ان ما ألحقته الحروب الصليبية بالاسلام من ضرر حقيقي كان بالغ العمق والأثر . فالمعروف ان الدولة الاسلامية كانت ثيوقراطية توقفت مصلحتها السياسية على الخلافة ، التي تتمثل في سلسلة من الملوك الكهان ، هيأ لهم العرف والتقاليد ولاية الحكم بالوراثة . وصادف هجوم الصليبيين مـا اصبحت عليه الخلافة العباسية من عجز سياسي وجغرافي منعها من قيادة المسلمين لمواجهته ، أما الفاطميون الذين يعتبرون ملحدين فـلم يكن بوسعهم ان يحملوا الناس على الولاء لهم . فالقادة الذين نهضوا لإنزال الهزيمة بالمسيحيين ، من امثال نور الدين وصلاح الدين كانوا أبطالاً ، ظفروا باحترام الناس وتعلقهم بهم ، على انهم كانوا ايضاً مغامرين . ومهما كان للأيوبيين من

كفاية وقدرة ، فإنهم لم يحظوا بالقبول على انهم سادة المسلمين الذين لا ينازعهم احد ، لأنهم لم يكونوا خلفاء ، بل انهم لم ينحدروا ايضاً من النبي صلى الله عليه وسلم. وليس لهم وضع خاص في ثيوقراطية الاسلام . وما انزله المغول من الدمار ببغـداد هوّن العمل على المسلمين من بعض الوجوه ، إذ استطاع المماليك ان يقيموا دولة في مصر استمرت زمناً طويلاً ، لأنه لم يعد ببغداد خلافة شرعية ، فلم يعد ثمـة إلا فرع غامض زائف ، ظلّ في حجز شريف بالقاهرة . على ان السلاطين العثمانيين قاموا آخر الأمر بحل المشكلة بأن تقلدوا منصب الخلافة . وما كان لهم من سلطان قوي حمل المسلمين على قبولهم ، لا عن اخلاص وصدق ، لأنهم كانوا ايضاً يعتبرون مغتصبين ، ولم ينتسبوا للنبي . اما المسيحية فانها أقرت منذ البداية التفرقة بين الامور التي تخص قيصر ، وتلك التي تخص الله ، ولذا لما تحطمت الفكرة السائدة في العصور الوسطى عن مدينة الله التي لا تنقسم من الناحية السياسية ، لم تضعف حيويتها ، على حين ان الاسلام كان يعتبر وحدة سياسية دينية ، وتعرضت هذه الوحدة للتشقق قبل الحروب الصليبية . غير أن ما جرى في تلك القرون (اثناء الحروب الصليبية) من احداث جعل هذه الشقوق من الاتساع مـا يعجز معه الاصلاح . وأجرى السلاطين العثمانيون الكبار اصلاحاً ظاهرياً ، لم يفد إلا في الوقت الراهن ، ولا زالت هذه الشقوق مستمرة حتى اليوم .

على ان ما يعتبر اكثر ضرراً وأذى ، هو مـا كان من تأثير الحرب المقـدسة على روح الاسلام . فكل ديانة تقوم على الوحي الخالص تلتزم بأن تظهر امتعاضها واحتقارها لغير المؤمنين . ولم يكن الاسلام في اول عهده مجرّداً من التسامح الديني ، إذ اعتبر النبي محمـــد ، عليه الصلاة

والسلام ، ان اليهود والنصارى قد تلقوا ايضاً جانباً من النبوّة ، ولذا فينبغي ألا يتعرضوا للاضطهاد . وقام المسيحيون ، زمن الخلفاء الأوائل ، بدور مشرف في المجتمع العربي . فالملحوظ ان عدداً كبيراً من مفكري العرب وكتّابهم الأوائل كانوا من المسيحيين ، الذين هيّأوا باعثاً عقلياً نافعاً ، لأن المسلمين باعتمادهم على كلام الله الوارد في القرآن ، نزعوا الى البقاء محافظين في فكرهم ولم يودّوا المخاطرة . ولم تكن المنافسة بين الخلافة وبيزنطة المسيحية خالية من المودّة ، فكان العلماء والصنّاع يتنقلون في كلتا الامبراطوريتين من اجل المصلحة المتبادلة . على ان الحرب المقدسة التي استهلها الفرنج دمرت هذه العلاقات الطيبة . وما أظهره الصليبيون من تعصب همجي ، لم يكن له من رد عند المسلمين سوى ما كان من نمو الاضطهاد بينهم . وما اتصف به صلاح الدين وأسرته من الانسانية الكبيرة لم تلبث ان اضحت نادرة بين رفاقهم المؤمنين ، حتى اذا كان زمن المماليك أضحى المسلمون من ضيق الأفق مثلما كان عليه الفرنج . وكان رعاياهم المسيحيون اول من عانى هذا الاضطهاد . فلم يستردوا مطلقاً ما كان لهم من معرفة سابقة بجيرانهم وسادتهم المسلمين ، فأخذت حياتهم العقلية في الذبول . وباستثناء ما حدث في فارس بما ساد فيها من تقاليد الحادية مضطربة ، اقتصر المسلمون على الاحتجاب وراء عقيدتهم ، على انه ليس بوسع كل عقيدة متزمتة ان تتقدم .

الحروب الصليبية والعالم المسيحي الشرقي :

ما ألحقته الحروب الصليبية بالإسلام من ضرر يعتبر ضئيلاً بالقياس الى ما انزلته بالعالم المسيحي الشرقي . إذ سبق للبابا ايربان الثاني ان امر الصليبيين

بأن ينهضوا لبذل المساعدة والنجدة للمسيحيين في الشرق . على انها كانت نجدة غريبة ، إذ انه لما انتهى الأمر ، كان العالم المسيحي الشرقي قد خضع لسيادة المسلمين ، وبذل الصليبيون انفسهم كل ما في وسعهم لمنع استعادته . فحينما استقروا بالشرق ، لم يعاملوا رعاياهم المسيحيين بما يفضل ما عاملهم به الخليفة من قبل . والواقع انهم كانوا أشدّ قسوة وعنفاً ، لأنهم تدخلوا فيما تمارسه الكنائس المحلية من طقوس دينية . ولمـــا تمّ طردهم ، لم يعد للمسيحيين المحليين من الحماية مـا يجعلهم يتحملون غضب الغزاة المسلمين . والواقع ان المسيحيين الوطنيين استحقوا قدراً كبيراً من هـذا الغضب ، لاعتقادهم الشديد بأن المغول سوف يبذلون لهم الحرية الدائمة التي لم يحصلوا عليها من الفرنج . وما تعرضوا له من عقاب كان قاسياً وتاماً . وإذ رزحوا تحت القيود والمهانات ، تلاشت أهميتهم . بل ان بلادهم تعرّضت ايضاً للجزاء ، إذ حلّ الدمار والخراب بالساحل السوري الجميل . وأصاب المدينة المقدسة ذاتها من الاهمال والاغفال مـــا أدى الى ان تهوي الى انحطاط طويل مضطرب .

ومع ان مأساة المسيحيين السوريين كانت طارئة ، وليس لها علاقة بفشل الحروب الصليبية ، فإن تدمير بيزنطة كان تدبيراً مقصوداً . فليست الكارثة الفعليـة للحروب الصليبية سوى عجز العـالم المسيحي في الغرب عن فهم بيزنطة . ففي جميـــع العصور ظهر من السياسيين المتفائلين من يعتقدون أنه لو اجتمعت أقوام العالم معاً ، لسادت المحبة بينهم ، ولاستطاع احدهم ان يفهم الآخر . ولكن لم يكن هذا إلا اعتقاداً كاذباً . فطالما لم تتعارض المصالح بين بيزنطة والغرب ، أضحت العلاقات بينهما ودّية . اذ ان حجاج الغرب ، والجند المحظوظين ، كانوا يلقون الترحيب في المدينة

الامبراطورية (القسطنطينية) ، فاذا عادوا الى اوطانهم رووا ما شهدوه من عجائبها ، على أنه لم يجرِ الاحتكاك إلا من عدد قليل ، فقامت من حين الى آخر أسس للاتصال بين الامبراطورية البيزنطية ودول الغرب غير ان هذا الاساس إما ان ينهار في الوقت المناسب ، وإما ان يجري إعداد صيغة مرنة لتفتيته وتقسيمه ، إذ كان ثمة مشاكل دينية مستمرة ، زاد من مرارتها دعاوي البابوية الهيلدبراندية . على انه قد يتم التوصل الى اتفاق متى خلصت النية عند الجانبين ، غير انه بدأت فترة قلقة جديدة بما كان من عزم النرمان على التوسع في شرق البحر المتوسط ، وبذا وقعت المصالح البيزنطية في صدام حاد مع مصالح شعب ينتمي الى الغرب (النرمان) ، فتوقف زحف النرمان ، وجرت الحروب الصليبية على انها حركة للتوصل الى السلام . غير ان سوء التفاهم ظهر منذ البداية ، إذ اعتقد الامبراطور البيزنطي ان من واجبه المسيحي ان يستعيد حدوده كيما تبقى حاجزاً لدرء خطر الترك ، الذين اعتبرهم العدو ، أما الصليبيون فأرادوا ان يمضوا قدماً الى الارض المقدسة . إذ انهم لم يقدموا إلا لينشبوا الحرب المقدسة مع الكفار من جميع الاجناس . وإذ فشل قادتهم في تقدير سياسة الامبراطور ، اضحى ألوف الجند والحجاج في بلاد تراءت لهم لغتها وعاداتها وديانتها غريبة عنهم ، وليست مفهومة لديهم ، ولم تكن بذلك البلاد المقصودة . فلم ينتظروا فحسب ان يحاكيهم الفلاحون وسكان المدن في البلاد التي اجتازوا ، بل توقعوا ايضاً ان يرحبوا بهم . على انهم صادفوا خيبة امل مريرة . وإذ لم يدركوا ان ما قاموا به من اعمال اللصوصية وما نزعوا اليه من التدمير والتخريب ، لن يكسبهم محبة واحترام ضحاياهم ، أحسوا بالإهانة ، واشتد غضبهم وحقدهم . ولو ترك الاختيار للجندي الصليبي العادي ، لتعرّضت القسطنطينية للاعتداء والنهب في زمن اكثر

تبكيراً . ولكن قادة الحملة الصليبية كانوا اول الأمر بالغي الاحساس بواجبهم المسيحي ، فكبحوا جماح اتباعهم . إذ رفض الملك لويس السابع قبول نصيحة بعض نبلائه وأساقفته بالالتجاء الى السلاح لمهاجمة المدينة المسيحية ، ومع ان هذه الفكرة راودت فردريك بربروسه ، فإنه كظم غيظه واجتازها دون ان يهاجمها ، وأضحى الأمر متروكاً لأولئك الاشرار النهمين الذين وجهوا الحملة الصليبية الرابعة كيما تفيد من ضعف طارىء حلّ بالدولة البيزنطية ، فتضع الخطة وتتولى تدميرها .

ولم تكن الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية بعد ان تناهت في إثمها ، إلا كالطفل الكسيح ، الذي حرص الغرب على تضحية حاجات سائر الاطفال في الارض المقدسة ، لتوفير اسباب السعادة له . على ان حرص البابوات على ان يخضعوا لسلطانهم الكنسي اليونانيين الكارهين، فاق حرصهم على النهوض لإنقاذ بيت المقدس . فلما استرد البيزنطيون عاصمتهم (القسطنطينية) ، بذل البابوات ورجال السياسة معاً في الغرب كل جهد لإعادة سلطان الغرب . فلم يعد المقصود بالحركة الصليبية حماية العالم المسيحي ، بل فرض سلطة كنيسة روما .

خراب بيزنطة :

على ان عزم رجال الغرب على فتح بلاد بيزنطة واستعمارها يعتبر كارثة لمصالح الشرق الفرنجي ، وازدادت الكارثة فداحة للمدنية الاوربية ، إذ أن القسطنطينية ظلت مركزاً للعالم المسيحي المتمدين . ففي صفحات تاريخ فيلهاردوين ، ينعكس تحت نظرنا ما كان لها من انطباع على الفرسان الذين قدموا من فرنسا وايطاليا ليقهروها . فلم يكن بوسعهم ان يصدقوا

ان تقوم على سطح الارض هذه المدينة الشامخة ، إذ كانت سيدة المدائن كلها [1] . إذ أن رجال الحملة الصليبية الرابعة ، شأن معظم الغزاة المتبربرين ، لم يقصدوا تدمير ما صادفوه ، انما ارادوا ان يقتسموها ، وأن يسيطروا عليها . غير ان نهمهم وحماقتهم حملتهم على ان ينغمسوا في تدمير ما لا يرجى اصلاحه . على ان البنادقة وحدهم بما اشتهروا به من مستوى حضاري رفيع ، هم الذين عرفوا ان ينقذوا من بلادها ما يعتبر اكثرها جلباً للربح . والواقع ان ايطاليا جنت بعض المنافع من انهيار بيزنطة وسقوطها . امـا الفرنج الذين نزلوا بالبلاد البيزنطية فـانهم لم يكونوا صالحين لأن يفهموا مـا للحضارة اليونانية من تراث طويل الامد ، على الرغم مما جلبوه لتلال بلاد اليونان ووديانها من حيوية ظاهرية خيالية . على حين ان الايطاليين الذين لم تنقطع علاقاتهم ببلاد اليونان مدة طويلة ، فاقوا غيرهم في تقدير قيمة ما استولوا عليه ، فلما نجم عن انهيار بيزنطية تفرق العلماء وتشتتهم ، لقوا ترحيباً في ايطاليا . فما انتشر في ايطاليا من الحركة الانسانية ليس إلا نتيجة غير مباشرة للحملة الصليبية الرابعة .

فالنهضة الايطالية تعتبر موضع اعتزاز عند جميع البشر . على انهـا لو تحققت دون تخريب العـالم المسيحي في الشرق ، لـكان ذلك خيراً .

---

(١) انظر : Villehardouin, ed. Faral, I, p. 130.

حيث اورد النص التالي :

« Or poez savoir que mult esgarderent Costantinople cil qui onques mais l'avoient veüe, que il ne pooient mie cuidier que si riche ville peüst estre en tot le monde... Nuls nel poïst croire, se il ne le veist à l'oil le lonc et le de la ville, qui des totes autres ere soveraine ».

فالحضارة البيزنطية تجاوزت صدمة الحملة الصليبية الرابعة ، ففي القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ازدهر الفن والفكر البيزنطي في فيض رائع . غير أن الاساس السياسي للأمبراطورية لم يكن بنجوة من الخطر . فعلى الرغم من انه لم يعد للأمبراطورية وجود منذ سنة ١٢٠٤ ، غير انها كانت من بين دول عديدة تضارعها او تفوقها في القوة ، وإذ واجهها عداء الغرب ، وتنافس الدول البلقانية المجاورة ، لم يعد بوسعها حراسة العالم المسيحي ازاء الاتراك . ويعتبر الصليبيون وحدهم مسئولين عن اصرارهم على تحطيم الدفاع عن العالم المسيحي ، فهيأوا بذلك للمسلمين ان يجتازوا المضايق وأن ينفذوا الى جوف اوربا . ولم يكن الشهداء الحقيقيون للحرب الصليبية اولئك الفرسان البواسل الذين هووا وهم يقاتلون في حطين ، او امام ابراج عكا ، انما كانوا المسيحيين الابرياء بالبلقان والأناضول وسوريا ، الذين جرى تسليمهم ليلقوا الاضطهاد والاسترقاق .

على ان الصليبيين انفسهم لم يدركوا اسباب فشلهم . إذ انهم كانوا يحاربون من اجل الله القوي ، فإذا كان الايمان والمنطق مستقيمين ، لانتصرت قضية الله . ففي اول انتصار أحرزوه ، جعلوا لتواريخهم عنوان (Gesta Dei per Francos) اي (عمل الله الذي صنعته يد الفرنج) . غير انه توالى بعد الحملة الصليبية الاولى سلسلة طويلة من الهزائم ، بل ان انتصارات الحملة الصليبية الثالثة لم تكن مكتملة وثابتة . إذ كان ثمة من قوى الشر ما اعترض كلمة الله . ففي اول الامر جرى إلقاء اللوم على البيزنطيين وعلى الامبراطور المنشق وقومه الذين لا يؤمنون بالله ، لأنهم رفضوا الاعتراف بما للصليبيين من رسالة إلهية . على انه لم يعد من المستطاع الاستناد الى ذلك العذر بعد الحملة الصليبية الرابعة ، ومع ذلك ازدادت الامور سوءاً .

إذ يجوز للدعاة الاخلاقيين ان يزعموا ان الله نقم على محاربيه بسبب ما ارتكبوه من آثام . ومع ان في هـذا شيئاً من الصدق ، فإن اعتبار هذا الزعم تفسيراً كاملاً قـد انهار حينما قـاد القديس لويس جيشه الى هزيمة كانت من الفداحة ما لم يتعرض لها الصليبيون حتى وقتذاك ، لأن القديس لويس كان رجلاً ، اعتقد عالم العصور الوسطى انه مجرّد من كل ذنب . الواقع ان أشد مـــا دمّر الحرب المقدسة ، كان الغباء لا الانحراف عن الدين . ومع ذلك فإن من الطبيعة البشرية ما يجعل الشخص اكثر استعداداً للإقرار بأنه مذنب ولا يكون أحمق . وما من احد من الصليبيين يودّ ان يعترف بأن مـا ارتكبوه من جرائم كان عن قصد وجهل ، وعن افتقار شديد الى بُعد النظر .

كان الايمان هو الباعث الأساسي الذي دفع الجيوش المسيحية للتوجّه صوب الشرق . على ان صدق ايمانهم وبساطته قادهم الى أخطار خفية . لقد هداهم في خضمّ ما صادفوه من شدائد الى النصر في الحملة الصليبية الاولى ، التي يعتبر نجاحها فيما يبدو من المعجزات . ولذا توّقع الصليبيون ان المعجزات سوف تستمر كيما تنقذهم كلما ظهرت المشاكل ، إذ أن ثقتهم جعلت بسالتهم تتسم بالرعونة والطيش ، بل انهم حتى في نهاية الحروب الصليبية ، في معركة نيكوبوليس ، وفي انطاكية ، كانوا متأكدين أنهم سوف يتلقون عوناً إلهياً . كما ان ايمانهم بما اتصف به من البساطة الشديدة ، جعلهم متعصبين ، إذ أن الله عندهم إله غيور ، فـلم يكن بوسعهم أن يدركوا أن لإله المسلمين نفس القـوة . على ان النزلاء الذين استقروا في الشرق الفرنجي بلغوا من سعة الأفق والتفكير ما لم يبلغوه . اما العساكر القادمون من الغرب فإنما جاءوا للقتال من اجل إله المسيحيين ، ويعتبرون

كل من يتسامح مـع المسلمين خائناً . بل ان اولئـك الذين يعبدون إله المسيحيين في شعائر مختلفة ، يعتبرون موضع ريبة وموطن رثاء .

هذا الايمان الصادق اقترن عادة بالنهم الشديد . فليس من المسيحيين إلا فئة قليلة اعتقدت انه ليس من الملائم ان يقرن عمل الله بحيازة مزايا مادية . فما ينتزعه جنود الله من الكفار من الاراضي والثروة يعتبر مشروعاً ، ولا جنـاح في سلب الملحد والمنشق ايضاً . على ان الاطماع الدنيوية دعت الى القيام بمغامرات اتسمت بالبسالة ، استند اليها قدر كبير من النجاح الذي احرزته الحركة الصليبية . غير ان النهم والشهوة يعتبران من الامور بالغة الخطورة ، إذ ولـّدا القلق ، ونظراً لأن حياة الانسان قصيرة ، فإنه احتـاج الى احراز نتائج مريعة ، وولـّدا ايضاً الحقـد والخيانة ، ونظراً لأن الوظائف والممتلكات كانت محدودة ، فمن المستحيل ارضاء كل مطالب ومدّع . وقع باستمرار العداء بين الفرنج الذين استقروا فعلاً في الشرق ، وبين اولئك الذين قدموا لقتال المسلمين ، وللسعي وراء حظهم ونصيبهم ، إذ نظر كل من الجانبين الى الحرب من زاوية مختلفة . وفي خضم الحقد ، وانعدام الثقة ، والتـآمر ، لم يتهيأ إلا لبضع الحملات الفرصة للنجاح . فالمشاجرات والعجز زادها امتداداً ما ساد من الجهل ، إذ أن النزلاء واءموا انفسهم في بطء مع اساليب الشرق الادنى ومناخه ، فأخذوا يتعلمون كيف يمارس اعداءهم القتـال ، وكيف يتخذون منهم اصدقاء ، اما المحارب الصليبي الذي قدم حديثاً فألفى نفسه في عالم ليس مألوفاً له مطلقاً ، وبلغ به عادة الكبرياء انه لم يقر ما يفرض عليه من قيود . كره ابناء عمومته النازلين في الشرق الفرنجي ، ولم يود ان يستمع اليهم . ولذا ارتكبت الحملات الواحدة بعـد الاخرى نفس الاخطاء ، وبلغت نفس النهاية المحزنة .

الافتقار الى القائد :

على ان الحركة الصليبية كان يصح ان ينقذها قيادة قوية ذكية. غير ان الاساس الاقطاعي الذي نبت منه الصليبيون جعل من العسير ان يحظى القائد بالقبول. فالحروب الصليبية كانت من صنع البابا، وقلّ ان كان مندوبو البابا قادة صالحين. كان من بين ملوك بيت المقدس كثير من القادة الأكفاء، ولكن لم يكن لهم إلا سلطة ضئيلة على رعاياهم، ولم يكن لهم سلطان مطلقاً على الحلفاء الزائرين. فالطوائف الدينية العسكرية التي بذلت أبرع العساكر وأكثرهم خبرة، كانت مستقلة، ومتحاسدة. على ان الجيوش الوطنية التي قادها الملك كانت تعتبر في بعض الاوقات سلاحاً قوياً، ومع ان رتشرد ملك انجلترا الذي يعتبر جندياً عبقرياً، كان احد القلائل من قـــادة الصليبيين الناجحين، فان سائر الحملات الملكية دون استثناء كان نصيبها الهزيمة. كان من العسير على كل ملك ان يمكث طويلاً بحملته في بلاد بعيدة عن وطنه. فمـــا حدث من مكوث قلب الاسد والقديس لويس في الشرق، كان على حساب مصلحة انجلترا وفرنسا. كما ان النفقات المالية، بصفة خاصة، كانت بالغة الارتفاع. ففي وسع المدن الايطالية ان تجعل من الحروب الصليبية صفقة مثمرة، كما ان النبلاء المستقلين الذين كانوا يأملون في ان يحوزوا ضياعاً او يتزوجوا من وريثات الاقطاعات في الشرق الفرنجي قد يجدون تعويضاً عن نفقاتهم. أما إرسال جيش ملكي الى ما وراء البحار فكان مشروعاً كثير النفقات، تضاءل امله في ان يحوز جزاء مادياً. فلا بدّ من فرض ضرائب خاصة في انحاء المملكة، فلا غرابة في ان الملوك ذوي العقلية العملية امثال فيليب الرابع ملك فرنسا، آثروا أن يفرضوا الضرائب، ثم مكثوا في اوطانهم. اما

القائد المثالي ، وهو الجندي اللامع ، الدبلوماسي العظيم ، الذي توافر له من الوقت والمال مـــا ينفقها في الشرق ، والذي اشتهر بإدراكه الواسع للأساليب الشرقية ، فلم يكن معروفاً . على ان ما تعرضت له الحركة الصليبية من الذبول في فشلها ليقلل من شأنها عما اذا كانت قد حظيت بانتصار ، وما كان للشرق الفرنجي ان يعيش قرنين من الزمن ما لم يضف الى رصيده بعد قيامه الرائع بعض الانتصارات .

فما احرزته الحرب الصليبية من انتصار يعتبر انتصاراً للايمان والعقيدة . ولكن الايمان المجرد من الحكمة يعتبر امراً بالغ الخطورة . ووفقاً لقوانين التاريخ الصارمة ، يؤدي العالم بأمره ما يكفر به عن جرائم وحماقات كل فرد من مواطنيه . وفيما كان بين الشرق والغرب من حلقة طويلة من التفاعل والتلاحم المتبـــادل ، الذي نبتت منـــه مدنيتنا في الغرب ، لم تكن الحروب الصليبية إلا فاصلاً محزناً مدمّراً . وكلما تطلع المؤرخ الى الوراء عبر القرون الى قصة بطولتها ، لا بد ان يلقى ان اعجابه قد حجبه الأسى والحزن لما يحمله من شاهد على قيود الطبيعة البشرية . لقد توافرت الشجاعة ، وتضاءل الشرف ، واشتد الايمان وضعف الفهم والادراك . فالمثل العليا ، افسدتها القسوة والنهم ، كما ان المغامرة والتحمل دمّرهما الاستقامة الذاتية العمياء الضيقة ، بل ان الحرب المقدسة ذاتها لم تعد اكثر من اجراء طويل من التعصب باسم الله ، الذي ليس إلا جرماً في حق الروح القدس .

الملاحق

الملحق الاول

المصادر الأساسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة

١ - المصادر اليونانية :

ليس للمصادر اليونانية أهمية إلا لتاريخ الحملة الصليبية الرابعة . ويعتبر نيكيتاس خونياتس[١] أهم مؤرخ روى قصة هذه الحملة . أمـــا جورج اكروبوليتس[٢] . فعالج الحملة الصليبية الرابعة ، والفترة الواقعة بعدها حتى استعادة البيزنطيين للمدينة (القسطنطينية) . على ان تاريخ جورج باخيمر[٣] هو اشهر تاريخ تناول الفترة التالية .

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٦٩ — ٧٧٠ .

(٢) نشره ميسلبرج في مجموعة توبنر Teubner .

(٣) صدر في مجموعة بون .

ولم يحفل المصدران اليونانيان عن تاريخ قبرص اللذان ألفهما ماخايراس[1] وجورج بوسترون[2] ، إلا قليلاً بدراسة الفترة السابقة على القرن الرابع عشر[3] .

٢ – المصادر المدوّنة باللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة :

أهم مجموعة للتواريخ التي عالجت الشرق الفرنجي منذ الحملة الصليبية الثالثة حتى سقوط عكا ، هي التذبيلات على وليم الصوري المدوّنة باللغة الفرنسية القديمة . فالمصدر الاصلي الذي يتناول الفترة الى سنة ١١٩٨ ليس فيما يبدو سوى التاريخ المفقود الذي ألفه إرنول . وما هو معروف حالياً من (ارنول) او برنارد متولى الخزانة ، والمخطوطتين المرموز لهما بحرفي G. C. من تاريخ هرقل Eracles تعتبر اقرب النسخ لتاريخ ارنول الاصلي . أما المخطوطتان A. B. اللتان تشابه احداهما الاخرى ، والمخطوطة D. التي لا تختلف إلا قليلاً عنهما ، فليست جميعها إلا نسخاً اخرى لتاريخ ارنول . أما الفترة الممتدة من سنة ١١٩٨ الى سنة ١٢٠٥ ، فإن جميع المخطوطات

---

(١) نشره دوكنز وترجمه الى الانجليزية بعنوان :

Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus.

(٢) انظر : Khronikon Kuprou, edited in Sathas Mesaiooniky Bibliothiky, vol. II.

(٣) وصف فتوح رتشرد في قبرص :

Neophytus, De Calamitatibus Cypri.

الذي نشره ستبز ، وجعله تصديراً لكتاب (Itinerarium) .

انظر المصادر والمراجع في المجلد الثاني .

التي تعالجها متطابقة . ويتفق ارنول مع المخطوطات D. G. C. من تاريخ هرقل حتى سنة ١١٢٩ التي ينتهي عندها ارنول ، ثم تطابق مخطوطات D. G. C. من تاريخ هرقل ، مخطوطتي هذا التاريخ ا ، ب ، مع اختلافات يسيرة ، ولم يعد لتاريخ هرقل ابتداء من سنة ١٢٠٥ إلا صلة ضئيلة بتاريخ ارنول . وتنتهي المخطوطة ا عند سنة ١٢٤٨ ، بينما تستمر المخطوطات D. C. B. حتى سنوات ١٢٦٦ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٧ . وفي تلك الاثناء ، يعالج المرحلة من سنة ١٢٢٩ حتى سنة ١٢٦١ تذييل آخر ، وهو المعروف باسم مخطوطة روثلين Rothelin ، ومن المحقق انها نشرت في مكان ما بفرنسا[١] . وما هو معروف بحوليات الارض المقدسة Annales de Terre Sainte ليس فيما يبدو إلا مصنفاً مختصراً لأحد مصادر تذييلات وليم الصوري . ويكاد يطابقه المخطوطات التي تعالج الفترة التي تبدأ بسنة ١٢٤٨ وما تلاها من السنوات[٢] .

أما المصنف الذي يرجع الى اوائل القرن الرابع عشر ، والمعروف باسم Gestes des Chiprois ، فيبدأ بموجز عن تاريخ الارض المقدسة Chronique de Terre Sainte في الفترة بين سنتي ١١٣١ ، ١٢٢٢ ، الذي استند الى Annales de Terre Sainte . ويتناول القسم الثاني من الكتاب تاريخ الحروب التي نشبت بين انصار اسرة ابلين وأنصار الامبراطور ، وقد صنفه حوالي سنة ١٢٤٥ ، وعلق عليه ، فيليب نوفارا ، وكان ايطالياً

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٧٣ — ٧٧٤ .
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 21 - 26.
(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٧٦ ، حاشية ٢ .

يعيش في جزيرة قبرص ، ويكتب بالفرنسية . وتتسم كتابة فيليب بالحيوية والرشاقة . أدخل في قصته قصائد طويلة من نظمه ، اشتهرت بحسن الطلاوة وسلامة الإدراك ، مع انه ليس لها قيمة شاعرية كبيرة . تعلق فيليب عن عاطفة بالإبلين ، ولكن يعتبر صادقاً ودقيقاً بقدر مـا يجيزه له ولاؤه . أما القسم الاخير من كتاب Gestes ، فهو تاريخ الشرق الفرنجي من سنة ١٢٤٩ حتى سنة ١٣٠٩ ، ألفه رجل جرى العرف على تسميته فارس الداوية بصور Templar of Tyre . ومن المحقق انه لم يكن من الداوية ، غير انـه فـيما يبدو اضطلع لفترة من الزمن بوظيفة امين (كاتب) مقدم الداوية ، وليم بوجيه . والواضح انه وقف على المصدر الذي قامت عليه تذبيلات وليم الصوري . والراجح ان جيرار مونتريال جمع اقسام الجست معـاً حوالي سنة ١٣٢٥ [١] .

الواقع ان لكل من الحملات الصليبية الرئيسية مجموعة مؤرخيهـا ، فالحملة الصليبية الثالثة عالجتها تواريخ انجليزية نورمانية مختلفـة ، اشهرها تواريخ بنيدكت بيتربره ، ورتشرد دفيزيس ، ورالف ديكيتو ، ووليم نيوبورج[٢]. ولهذه المصادر بالاضافة الى كتاب Libellus de Expugnatione اهمية خاصة للمرحلة المبكرة من الحملة الصليبية الثالثة قبل وصول رتشرد

---

(١) نشر الجست Gestes ، جاستون راينو . انظر :
Cahen, op. cit. pp. 25 - 26.
Hill, History of Cyprus, III, p. 1144.

(٢) جميع هذه التواريخ صدرت في مجموعة رولز . انظر ما يلي ، المصادر والمراجع ، ومـا سبق ، المجلد الثاني ص ٨٥٥ — ٨٥٧ .

الى الشرق . كما انها تحتوي على نسخ من رسائل تتعلق بأمور الشرق الادنى . اما حملة رتشرد فعالجها مصدران اساسيان ، اولهما مكتوب باللغة اللاتينية وعنوانه Itinerarium Regis Ricardi والواضح ان الذي ألفه رجل من لندن اسمه Richard of the Holy Trinity ، والثاني عبارة عن قصيدة نظمها باللغة الفرنسية القديمة أمبرواز ، وعنوانها تاريخ الحرب المقدسة L'Estoire de la Guerre Sainte [1] ، وما بين المصدرين من صلة بالغة الوثاقة ، ترجح انهما مستمدان من يوميات مفقودة كتبها جندي بالجيش الانجليزي ، شديد التعلق بملكه (رتشرد) ، ويعتبر صادقاً وفقاً لما سبق ان التزم بـه من معرفة [2] . ووردت وجهة النظر الفرنسية في التقرير المختصر الذي ألفه ريجور ، وعنوانه Gesta Philippi Angusti [3].
أمـا التواريخ الالمانية التي تصف حملة فردريك بربروسه الصليبية ، مثل

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ، المصادر والمراجع ص ٨٥٥ — ٨٥٧ .

(٢) اعتقـد جاستون باريس في تصديره لطبعة امبرواز ان كتاب رحلة رتشرد Itinerarium اعتمد على امبرواز ، على حين ان الآنسة نورجيت ترى ان امبرواز استند الى Itinerarium . انظر :

Norgate : « The Itineraium Peregrinorum and the Song of Ambroise », English Historical Review, vol. XXV.

اما ادواردز فأورد من الحجج مـا يثبت ان امبرواز و Itinerarium استندا الى مصدر مفقود . انظر : Edwards : « The Itinerarium Regis Ricardi and the Estoire de la Guerre Sainte », in Essays in Honour of James Tait, (pp. 59 - 77).

وأقره على رأيه هيوبرت ، ولامونت في تصديرهما لترجمة امبرواز .

(٣) نشره ديلابورد .

تاريخ انزبيرت المعروف باسم Expeditio Frideric ، فإنها تنتهي بوفاة الامبراطور (١) .

ويعتبر المصدر الغربي الاساسي عن الحملة الصليبية الرابعة ، الكتاب الذي ألفه جفري فيلهاردوين بعنوان فتح القسطنطينية (٢) . وإذ ألفه جندي قام بدور كبير في الحملة ، وكان ابن عم فيلهاردوين الذي فتح المورة ، فالراجح ان فيلهاردوين أقام قصته على ما اثبته من ملاحظات وقتذاك ، ويعتبر شاهداً موثوقاً به بصرف النظر عن تعصبه الشديد للغرب . اما فتح القسطنطينية الذي ألفه روبرت كلاري فهو ايضاً رواية شاهد عيان ، غير ان المؤلف كان رجلا بالغ السذاجة والجهل (٣) .

وأم المصادر التي عالجت الحملة الصليبية الخامسة ، باستثناء المصادر التي وضعت في الشرق الفرنجي ، هي رسائل الكاردينال جيمس فيتري (٤) ،

---

(١) نشره خروست Chroust . انظر :
Cahen, op. cit. p. 19, n. 3.

(٢) نشره فارال وترجمه الى الفرنسية الحديثة ، ويعتبر بالغ الأهمية ، وجعل له فارال مقدمة عظيمة النفع .

(٣) نشره لاور ، على ان ترجمة شارلوت الى الفرنسية الحديثة التي ظهرت في :
(Poèmes et Récits de la Vieille France, vol. XVI).
لا تفي بالمطلوب ، ولا سيا فيا يتعلق بحواشيها ، ترجمه الى اللغة العربية الدكتور حسن حبشي .

(٤) نشرها : Röhricht in the Zeitschrilt für Kirchengeschichte.
انظر ما يلي ، المصادر والمراجع .

وتاريخ دمياط الذي ألفه أوليفر بادنبورن ، الذي كان كاتباً للكاردينال بيلاجيوس . وعلى الرغم من ولاء أوليفر لسيده ، فان تقريره يتسم بالوضوح وبالموضوعية [١] .

لم تستهو حملة فردريك الثاني الصليبية احداً من المؤرخين المختصين ، على حين ان حملة القديس لويس الصليبية نلتمسها في التاريخ نادر القيمة الذي ألفه يوحنا سيد جوانفيل وعنوانه تاريخ القديس لويس . شهد جوانفيل الحملة الصليبية (السابعة) ، على ان اعجابه الشديد بالملك لم يمنعه من ان يكتب قصة امينة حية ، شخصية [٢] .

ومع ان سقوط عكا تناوله جماعة كبيرة من المؤرخين ، غير انه لم يشهده منهم سوى فارس الداوية . والواضح ان ثاديوس نابولي والمؤرخ المجهول لكتاب De Exidio Urbis Acconis قد اوردا في كتابيهما من المبالغات ما يخدم أغراض الدعوة للحملات الصليبية [٣] .

---

(١) قام هويج Hooeweg على نشره مع رسائله . ومما نشره وورنخت من مجلدات Scriptores Minores Quinti Belli Sacri تحوي كل المصادر الصغرى التي تعالج الحملة الصليبية الخامسة .

(٢) تعتبر طبعة وايلي خير الطبعات. اما ولم نانجيس المؤرخ الثاني لحملة لويس التاسع فيعتبر من اعظم المؤرخين أهمية ، وكتب تاريخه بعد بضعة عقود زمنية .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٦٩٨ حاشية ٢ . صدر De Excidio في :
Martene and Durand, Amplissima Collectio, vol. V.
انظر ايضاً : Kingsford in Transactions of Royal Historical Society, 3rd series, vol. III, p. 142, n. 2.

ومن أهم المصادر ما جرى طوال فترة الحروب الصليبية من مراسلات بابوية ، فضلاً عن الرسائل التي لا زالت باقية ، والتي خلفها رجال الطوائف الدينية العسكرية ، والملوك ووزراؤهم [1] .

أما المصدران الرئيسيان اللذان يعالجان المسائل الدستورية فهما كتاب فيليب نوفارا وعنوانه Livre de Forme de Plait وأكثر ما اهتم به الاجراءات

---

(١) صدرت رسائل البابا انوسنت الثالث في :

Migne, P. L. vols. 214 - 216.

يحسن جعلها على الرسم الآتي :

سجلات البابا هونوريوس الرابع – نشرها بريستوني .

جريجوري التاسع	اوفراي .
انوسنت الرابع	بيرجن .
اسكندر الرابع	بوريل دي لا رونسيير .
اربان الرابع	جيرو .
كليمنت الرابع	جوردان .
جريجوري العاشر	جيرو .
نقولا الثالث	جاي وفيت .
هونوريوس الرابع	برون .
نقولا الرابع	لانجلوا .

وجميعها صدر في :

Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome.

الدستورية ، وكتاب يوحنا ابلين وهو دراسة رائعة عن الفقه الدستوري ، كتبها كونت يافا [1] . فقوانين المحكمة البورجوازية التي جرى تصنيفها بين سنتي ١٢٤٠ ، ١٢٤٤ ، تصف الإجراءات التجارية [2] . أما قوانين انطاكية فلم تبقَ إلا في ترجمة أرمنية قام بها حوالي سنة ١٢٦٠ سمباد شقيق الملك هيثوم الاول . وهي تعالج في ايجاز مـا لمحكمتي البارونات والبورجوازية بإمارة انطاكية من اجراءات وتقاليد [3] .

وما خلفه الرحالة المعاصرون من مؤلفات تعتبر عظيمة الأهمية ، ولا سيما في وصف علاقات الغرب مع المغول . وأوفى هذه المؤلفات ، هي التقارير عن بعثاتهم كالتي كتبها يوحنا بيان كاربيني ، ووليم روبروق [4] . أمـا وصف بيت المقدس الذي اورده جيمس فيتري ، والوصفان اللذان كتبهما فـيما بعد لودولف سوكيم ، وفيليكس فابري ، فجميعها تضمنت معلومات قيمة [5] .

---

(١) صدرت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، القوانين ، جـ ١ .

(٢) صدرت ايضاً في المجلد الاول من قوانين مملكة بيت المقدس ، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) اصدرها مع ترجمة فرنسية الآباء المخيتارية في البندقية .

(٤) ترجمها ونشرها :

Rockhill in Hakluyt Society Publications, 2nd series, vol. 77.

(٥) كل هذه التقارير صدرت في ترجمات انجليزية في :

Palestine Pilgrims Text Society.

على ان الترجمة لم تكن دائماً خالية من الأخطاء ، وينبغي الرجوع الى النص اللاتيني لرحلة لودولف ، الوارد في :

Archives de l'Orient Latin, vol. II.

٣ - المصادر العربية :

سبق الإشارة في الملحق الاول ، بالمجلد الثاني من هـذا التاريخ ، الى التواريخ العربية التي تعالج حروب صلاح الدين والعقود الاولى من القرن الثالث عشر . إذ ينتهي كتاب بهاء الدين (ابن شداد) القيم بوفاة صلاح الدين ، بينما ينقلنا الى القرن الثالث عشر ، ابن الاثير وأبو شامه (الذي ينقل عن عماد الدين الاصفهاني) ، وكمال الدين بن العديم [١] . وما تبقى من سنوات القرن الثالث عشر ، تناولها عدة مؤرخين معاصرين ، غير ان كثيراً من مؤلفات أهم هؤلاء المؤرخين لم تنشر بعد ، ولا بـد من الرجوع الى مخطوطاتها . فمؤلفات ابن واصل ، عن التاريخ الصالحي الذي يستمر حتى سنة ١٢٥٠ ، وتاريخ الايوبيين حتى سنة ١٢٦٣ ، نلتمسها في مخطوطات عديدة ولم ينشر منها رينو إلا شذرات ضئيلة ، في كتاب ميشو ، مكتبة الحروب الصليبية ، الجزء الرابع [٢] . ومع ذلك فإن المؤرخين المتاخرين امثال ابن الفرات والمقريزي اكثروا من النقل عنه والاقتباس منه [٣] . أما ابن شداد الجغرافي فإن تاريخه عن بيبرس يكاد يكون مفقوداً . ومع ان تاريخ بيبرس المنصوري عن قلاون تألف من شذرات من الكتب السابقة ، فقد دأب ابن

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ، ص ٧٨١ — ٧٨٣ .

(٢) الواقع ان الدكتور جمال الدين الشيال عكف على دراسة ابن واصل ، فاتخـذه موضوعاً لرسالة الدكتوراه من كليـة الآداب بجامعة الاسكندرية ، مع نشر مفرج الكروب في تاريخ بني ايوب ، الذي صدر منه ثلاثة أجزاء تناولت دولة نور الدين ، وصلاح الدين ، وأبناء صلاح الدين.

(٣) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 68 - 70.

الفرات على استخدامه والإفـادة منه [١] . وأورد رينو في الكتاب الذي سبق الإشارة اليه ، فقرات من كتابي ابن عبد الظاهر عن بيبرس وقلاون [٢] . ويتضمن تاريخ ابن العميد القبطي معلومات اصيلة عـن الفترة حتى سنة ١٢٦٠ [٣] . ويضيف معلومات مستمدة من المصادر القبطية ، تاريخ بطاركة الاسكندرية الذي يتوقف عند هـذا التاريخ ايضاً (١٢٦٠) [٤] . وليس تاريخ ابي الفداء إلا مصنفاً مستمداً من مصادر سابقة عليه حـتى بلغ احداث زمنه ، ابتداء من سنة ١٢٩٠ الى ما بعدها [٥] . أما تاريخ اليونيني فلا زال مخطوطاً [٦] ، وينتهي اليونيني عند سنة ١٣١١ ، غير انه يحوي نفس المعلومات كالتي وردت عند معاصره الجزري [٧] .

---

(١) Ibid, pp. 75, 78, 79.

(٢) Ibid, p. 74.

(٣) نشره شيخو في :
Corpus Scriptorum Christianorum Orientalum, vol. III.
اما ترجمتا ابرينوس وايكيلنسيوس اللتان ترجمان الى القرن السادس عشر ، فتنتهيان عند سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) .

(٤) لم ينشر الكتاب كاملاً ، غير ان الفقرات التي تعالج أوائل القرن الثالث عشر ، ترجمها الى اللغة الفرنسية بلوشيه ، ونشرها في : Revue de l'Orient Latin, vol. XI.

(٥) نشرت منه فقرات في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين ، ج ٣ .

(٦) تاريخ اليونيني وهو المعروف باسم ذيل مرآة الزمان ، جرى نشره في الهـند منذ بضع سنوات .

(٧) قـام سوفاجيه على نشر ترجمة فرنسية لجانب من تاريخ الجزري ، يبدأ سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) .

وأشهر رجال الادب ، من المؤرخين المتأخرين ، عدا ابن خلدون وابن خلكان [1] ، هو ابن الفرات ، الذي ألف تاريخه في نهاية القرن الرابع عشر . وليس كتابه إلا مصنفاً مستمداً الى حد كبير من المصادر المتقدمة ، التي ضاع عدد كبير منها ، على انه جرى تصنيفه بحماسة التأريخ الحقيقية [2] . وافتقر معاصره المقريزي الى ما تفوق فيه ، على انه كاتب . وباستثناء ما اورده المقريزي عن مصر من معلومات خاصة ، فان تواريخه عن مصر زمن سلاطين الايوبيين والمماليك مستمدة بأكملها من المصادر المتقدمة ، التي تعتبر وافية وصادقة ومن اليسير التوصل اليها [3] . وليس تاريخ العيني الذي جرت كتابته حوالي منتصف القرن الخامس عشر إلا مصنفاً ضخماً مستمداً من المصادر المتقدمة فيما عدا الفصول المتأخرة [4].

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٥ .

(٢) على ان الفصول التي تعالج القرن الثالث عشر لم تنشر بعد ، انظر :
Cahen, op. cit. pp. 85 - 86.

(٣) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٥ . اورد بلوشيه فقرات كاملة من تاريخ المقريزي عن مصر ، في : Revue de l'Orient Latin, vol. VIII, IX, X.
وهي المرموز لها (Makrizi, VIII, IX, X.) ، وترجم كاترمير تاريخ سلاطين المماليك في مجلدين ، وجرت الاشارة اليه : Makrizi, Sultans, I and II.
والمقصود بهذا الكتاب ، السلوك لمعرفة دولة الملوك ، وقد قام الدكتور مصطفى زيادة على نشره ، فصدر منه جزءان في ستة اقسام .

(٤) وردت فقرات منه في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين ، ج ٢ ، قسم ٢ .

٤ ـ المصادر الارمنية :

سبق الاشارة في الملحق الاول بالمجلد الثاني من هذا التاريخ الى المؤرخين الارمن لمملكة قليقية . وأهم هؤلاء المؤرخين ، ولا سيا في امور المغول ، هو فارتان ، الذي كان له دراية شخصية وثيقة بهم [١] . ويدخل في المصادر الارمنية كتاب Flor des Estoires de la Terre d'Orient ، الذي ألفه الامير الارمني هايتون (هيثوم كوريكوس) باللغة الفرنسية بعد التجائه الى فرنسا في اوائل القرن الرابع عشر . ويعتبر من التواريخ القيمة لعصره . وألف ايضاً باللغة الارمنية تواريخ ، اعتمدت على المصادر الارمنية وعلى حوليات الارض المقدسة Annales de Tene Sainte [٢] .

ويعتبر ابن العبري اهم من كتب بالسريانية من المؤرخين عن القرن الثالث عشر . مات سنة ١٢٨٦ في الستين من عمره . ومع ان روايته عن الفترات المتقدمة زخرت بالحكايات والنوادر التي لا يصح الوثوق بها ، فانه حينما يكتب عن الاحداث التي وقعت في زمنه ، يورد من الروايات القيمة الصادقة ما لم يرد في مصدر آخر [٣] . اما تاريخ رابان سَوْما عن حياة

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٦ — ٧٨٧ . ونشر امين النص الارمني الكامل لفارتان ، في موسكو سنة ١٨٦١ .

(٢) صدر كتاب Flor في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، الوثائق الارمنية ، جـ ٢ . اما التواريخ الارمنية فنشرها اوشر في البندقية ، سنة ١٨٤٢ . ووردت فقرات منها في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، الوثائق الارمنية ، جـ ١ .

(٣) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٧ — ٧٨٨ .

جاثليق النساطرة مارياهبهللا ، وعن حيـاته ، الذي جرت كتابته باللغة الاويغورية ، وترجمه مجهول الى اللغة السريانية بعد بضع سنوات ، فترجع اهميته لما اورده من روايات عن حياة النساطرة زمن المغول ، وزاد في اهميته قصة سفارة رابان سَوْما الى غرب اوربا (١) .

٥ ـ المصادر الفارسية :

على الرغم من ان تاريخ ابن بيبي عن سلاجقة الروم طغت التفاصيل في كتابته ، فانه عظيم القيمة لتاريخ الاناضول أثناء الشطر الاول من القرن الثـالث عشر (٢) . ويعتبر تاريخ العالم لرشيد الدين بالـغ الاهمية لتاريخ المغول . جرت كتابته للاشادة بايلخانات فارس ، فعرض وجهة نظرهم (٣) .

٦ ـ مصادر اخرى :

لا زال لتـاريخ الكرج اهميته في أمور القوقاز (٤) ، امـا التواريخ

---

(١) ترجمه بَدْج الى الانجليزية بعنوان :

The Monks of Kublai Khan.

ونشر بيديجيان النص السرياني .

(٢) نشر هوتسما له ترجمة تركية وموجزاً بالغة الفارسية ، في :

Textes Relatifs à l'histoire des Seldjoucides, vol. III, and IV.

نشره من جديد اخيراً الدكتور هوردا في فيينا .

(٣) قام بريزين على نشر الكتاب كاملاً باللغة الروسية . ونشر كاترمير القسم الثـاني من تاريخ الايلخانات مع ترجمة فرنسية .

(٤) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٨٩ .

الروسية القديمة ولا سيما ما يتعلق بتاريخ نوفجورود[1] ، فاهتمت بالأمور البيزنطية ، وتعتبر جوهرية لدراسة المغول . ومن اهم المصادر المغولية : يوان شاو بي شيه Yuan Ch'ao Pi Shih ، أي التاريخ الرسمي او السري للمغول[2] .

(١) لعل خير طبعة لتاريخ نوفجورود ، تلك التي نشرها ناسونوف في موسكو سنة ١٩٥٠.
(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٤١٠ حاشية ١ .

الملحق الثاني

الحياة العقلية في الشرق الفرنجي

الواقع ان الحياة العقلية في الشرق الفرنجي كانت مخيبة للآمال ، إذا جرت مقارنتها بما حدث في صقلية وأسبانيا . إذ كان متوقعاً ، مثلما حدث في بالرم ، ان يثير الاتصال بين الفرنج وأهل الشرق النشاط العقلي ، على ان مجتمع الشرق الفرنجي الذي كاد يتألف بأسره من العساكر والتجار لم يكن في الواقع صالحاً لأن يخلق او يقيم مستوى فكرياً رفيعاً . كان من الأمراء والنبلاء كثير من رجال الثقافة ، مثال ذلك اننا نعلم ان الملك بلدوين الثالث والملك امالريك الاول شغفاً بالآداب [1] . وساءت سمعة ريناالد سيد صيدا عند الفرنج لاهتمامه بالعلم الاسلامي ، بينما اشتهر همفري الرابع سيد تبنين بدرايته التامة باللغة العربية [2] . وأنجب الشرق الفرنجي

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٨٤ ، ٥٩٤ .

(٢) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٧٥٨ ، المجلد الثالث ص ١١٥ .

وليم الصوري [1] الذي يعتبر من اعظم مؤرخي العصور الوسطى . على اننا لا نعلم إلا النزر اليسير عن التعلم في الشرق الفرنجي . ولا شك انه كان به ، مثلما كان بالغرب ، مدارس ملحقة بالكاندرائيات الكبرى . على انه من الملحوظ ان وليم الصوري توجه في صباه الى فرنسا كيما يتعلم ، وفيما عداه كان كل رجال الكنيسة الذين قاموا بدور كبير في تاريخ الشرق الفرنجي رجالاً نشأوا وشبوا في الغرب . وولع بالآداب كثير من هؤلاء الكنسيين مثل ايمري بطريرك انطاكية [2] ، او مثل جيمس فيتري اسقف عكا الذي اهتم بما يجري حوله من حياة علمية [3] . على ان الخطط المختلفة للحملات الصليبية المتأخرة شجعت الاهتمام الفعلي بجغرافية الشرق [4] . وفي الجملة ظلت ثقافة الفرنج في الشرق الفرنجي مستوردة من الغرب ، ولم يحدث إلا اتصال ضئيل بالثقافة المحلية ، فيما عدا الفنون ، أما الطب فقد ظلّ بأكمله في ايدي الوطنيين ، فالأمراء الصليبيون كانوا فيما يبدو يستخدمون دائماً الاطباء السوريين المسيحيين ، فحينما رفض امالريك الاول نصيحة اطبائه السوريين ، بألا يستشير احد الفرنج ، مات أثر استشارته لهم .

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٧٢ — ٧٧٤ .

(٢) ومع ان ايمري ليموج كان امياً ، فانه ظل على اتصال برجال الادب الاوربيين ، مثل هوجو ايثيريانوس . وجرى نشر رسائله في :

Martène and Durand, Thesaurus Anecdotorum, vol. I.

(٣) ما اورده جيمس فيتري من وصف للارض المقدسة يدل على اهتمامه بالنظريات المحلية عن الزلازل (ed. P. P. T. S. pp. 91 - 92.)، غير انه انكر في شدة ما للمسلمين والمسيحيين الوطنيين من اتصال مباشر بها .

(٤) انظر : Rey : Les Colonies Franques, pp. 177 - 186.

وما اورده اسامة بن منقذ من امثلة عن ممارسة الفرنج للطب ، تدل على ان الطب عندهم كان جافاً غليظاً [1] . ولم يحاول الفرنج فيما يبدو ، مثلما حدث في جنوب ايطاليا ، ان يتعلموا شيئاً من الطب المحلي ، على الرغم من ان استيفن الانطاكي ترجم عن اللغة العربية سنة ١٢٢٧ ، رسالة في الطب [2] . ليس معروفاً ان الفرنج ، باستثناء بعض النبلاء ، حاولوا دراسة ما كان في الشرق من فلسفة او علوم .

ومـا للفرنج في الشرق الادنى من انتاج ادبي يقع في ثلاثة اقسام ، اولها ، الحوليات والتواريخ ، وكلها باستثناء تاريخ وليم الصوري ، وتاريخ احد المذيلين عليه ، مثل ارنول ، ألفها رجال نشأوا بالغرب ، وجروا على تقليد الكتابة التاريخية في الغرب [3] . ويشمل القسم الثاني ، الانتاج الضخم من المؤلفات القانونية . إذ اشتد اهتمام النزلاء وسلالتهم بالأمور القانونية والدستورية ، وحرصوا على تدوين آرائهم وأحكامهم القضائية الى حـد لا مثيل له في الغرب . على ان ما استنبطوه من قانون كان غريباً خالصاً ، على الرغم من انه دلّ على ما انطوى عليه من تطويعات ضرورية [4] . اما القسم الاخير

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٥١٤ ، ٦٤٥ .

(٢) انظر : Leclerc, La Médicine Arabe, II, p. 38.

(٣) انظر مـا سبق ، المجلد الثـاني ص ٧٧٢ — ٧٧٤ ، والمجلد الثـالث ص ٨٠٣ — ٨٠٦ .

(٤) استندت قوانين مملكة بيت المقدس ، ومؤلفات يوحنا ابلين ، وفيليب نوفارا الى القانون في الغرب . انظر :

La Monte, Feudal Monarchy, passim.

فيتمثل في الشعر القومي والعاطفي . هوى النزلاء بالشرق الفرنجي ما كان سائداً وقتذاك من ملاحم عاطفية ، إذ توجّه مع الحملات الصليبية كثير من الشعراء الغنائيين من التروبادو والمنيسنجر ، امثال رودل ، او البرت يوهانزدورف [١] . والمعروف ان ريموند امير انطاكية ، لم يكن سوى ابن شاعر التروبادور الكبير وليم التاسع دوق اكيتانيا . وما اقترنت بـه الحروب الصليبية من احداث مثيرة كانت بالغة الملائمة لغزارة الاغراض التي تغنى بهـا الشعراء ، فلم يلبث جودفري اللورين أن اضحى بطـلاً أسطوريـاً ، اندمجت مغامراتـه في حلقـة Chevalier au Cygne ، فالقصائد عن شبابه وأجداده ، كانت فعلاً متداولة في الشرق حينما ألف وليم الصوري تاريخه [٢] . غير ان هذه القصائد جرى قرضها في الغرب . وشبيه بذلك ، القصتان المنظومتان عن الحملة الصليبية الاولى ، وهما انشودة

---

(١) من المحقق ان روديل قـام بزيارة الشرق ، اذ ان شاعر التروبادور ، مادكابرون أهـداه قصيدة مع عبـارة « الى جاوفر روديل ، فيما وراء البحر » . على ان عشقه للأميرة النـائية (La Princesse Lointaine) ميليسند بطرابلس ، يعتبر على الاقل شبه خرافة . انظر :
Chaytor, The Troubdours, pp. 44 - 46.

اما بطرس فيدال فانه فيما يقال توجه مع الحملة الصليبية الثالثة حتى بلغ جزيرة قبرص ، فاقترن بفتاة يونانية من قبرص ، وقرر انهـا كانت ولية عهد القسطنطينية (Ibid, p. 7.) . ورافق وايمبالد فاكيراس الحملة الصليبية الرابعة ، ومات في بلغاريا . والراجح ان سورديللو صحب لويس التاسع في حملته الاولى (Ibid, pp. 98 - 99, 102.) .

ومن شعراء المنيسنجر ، ألبرت يوهانزدورف الذي توجه في صحبة الحملة الصليبية الثالثة ، مثلما فعل فردريك هاوزن الذي مات قبل ان يبلغ الجيش الالماني قونية .

(٢) انظر : Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, pp. 395-400.

انطاكية Chanson d'Antioche ، وأنشودة بيت المقدس Chanson de Jerusalem ، إذ كان تأليفها قد جرى في الغرب ، على اساس ما نقله الصليبيون العائدون معهم من معلومات [١] . امـا الملحمة الوحيدة التي جرت اصلاً في الشرق الفرنجي ، فهي انشودة الحقراء Chanson des Chetifs وهي قصة عجيبة عن الصليبيين الذين وقعوا في أسر كربوقا (Corboran) ، واختلطت وتشابكت فيها قصتا الحملة الصليبية الاولى ، وحملة سنة ١١٠١ . ونظم هذه القصيدة مؤلف مجهول ، تلبية لرغبة عاجلة من ريموند امير انطاكية ، على انها لم تكتمل حتى وفاة ريموند سنة ١١٤٩ [٢] . وما استندت اليه القصة من اساس تاريخي مضطرب بعيد عن الدقة ، يوحي بأن مؤلفها كان من القادمين حديثاً الى الشرق ، إذ كان الفرنج تشدّهم جاذبية عاطفية عن مصير الأسرى المسيحيين الذين وقعوا بأيدي المسلمين . فالغرض الذي قامت عليه انشودة الحقراء كان من الاغراض التي حظيت بقبول كبير في الشرق الفرنجي وأوربا سواء [٣] .

وصدرت اثار شعرية اخرى عن الشرق الفرنجي ، غير انه ما من احد من المؤلفين المعروفين نشأ في الشرق . إذ ان فيليب نوفارا السيامي ،

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 12 - 16.

(٢) انظر : Cahen, op. cit. pp. 569 - 576.
Hatem, op. cit. pp. 375 ff .

(٣) انظر مـا كان من حكايات عن اطلاق سراح بوهمند من الأسر ، والقصص التي تجعل من ايدا ماركيزة استريا اماً لزنكي ، والتي تشير الى ان اخت برتراند تولوز تزوجت من نور الدين ، فأنجبت له ابنه الملك الصالح . انظر مـا سبق ، المجلد الثاني ص ٦٧ حاشية ١ ، ص ٥٣ ، ص ٤٦٣ حاشية ١ .

والمؤرخ ، والمشرع ، الذي كتب بالفرنسية على الرغم من انـه كان ايطالي المولد ، ادخل في تاريخه شعراً من نظمه ، امتاز بالحيوية ، وإن لم يلتزم قواعد الشعر [1] . ونظم فيليب نانتيل في اسره بالقاهرة ، قصائد عن وطنه الفرنسي ، وكلها تدور حول افتقاده وطنه وحنينه اليه [2] . ومع انه يصح اعتبار فيليب نوفارا من مؤسسي ثقافة الفرنج الاقليمية في قبرص ، فليس الأدب في الشرق الفرنجي إلا فرعاً للأدب الفرنسي ، ولم يكن لرعـايا الفرنج الوطنيين في سوريا أدب اصيل ، على الرغم من انـه نمى وترعرع في قبرص وبلاد اليونان ذاتها زمن سيادة الفرنج ، أدب يوناني شبه شعبي ، اشتد تأثره بالعوامل الفرنجية .

والواقـع ان الحياة العقلية في الشرق الفرنجي ليست إلا حياة عقلية لمستعمرة فرنجية ، إذ اختصت قصور الملوك والأمراء بسحر مختلط ، على ان عدد العلماء المقيمين بالشرق الفرنجي كان قليلاً . وما نشب من الحروب وما ساد من متاعب مالية منع قيام نظام لإنشاء مراكز فعلية للدراسة ، حيث يجري ارتشاف عـلم الوطنيين والمجاورين . وترتب على انعدام قيام هذه المراكز ، ان ما أسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب اوربا كان بالغ الضآلة ومخيباً للرجاء .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٤٤ ، ٨٠٤ — ٨٠٥ .
Hill, History of Cyprus, III, pp. 1112 - 1115.
ويبدو ان وليم ماشو مؤلف الملحمة المنظومة عن حمـلة بطرس ملك قبرص ، لم يقم مطلقاً بزيارة الى الشرق (Ibid, p. 1115) .

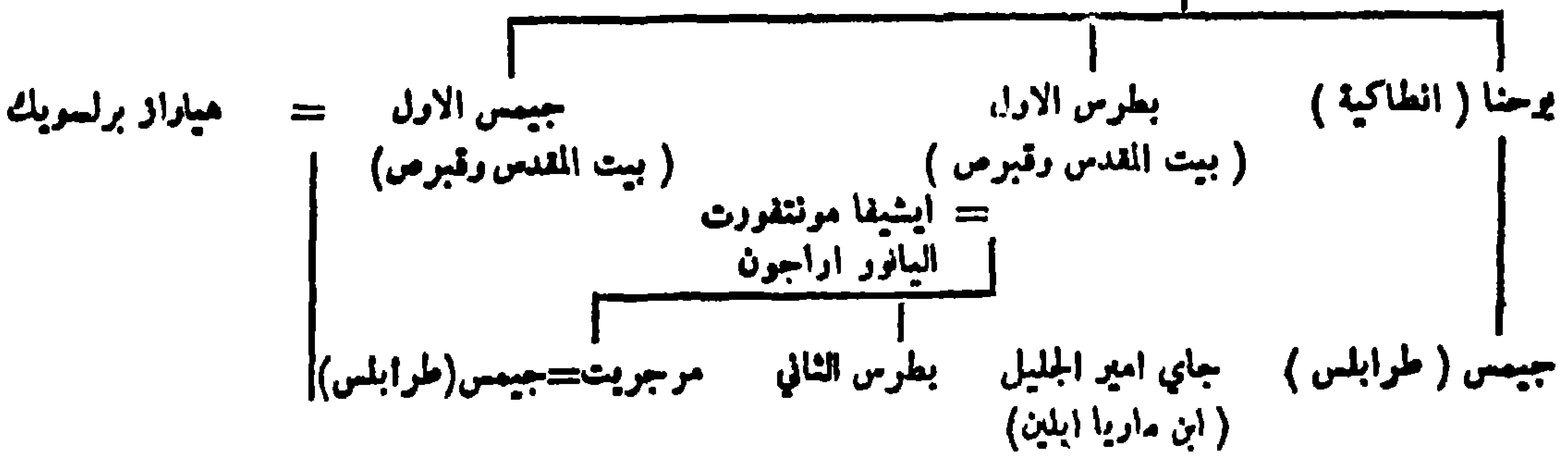
(٢) انظر ما سبق ، ص ٣٧٦ .

الملحق الثالث

أنساب الأسرات الحاكمة

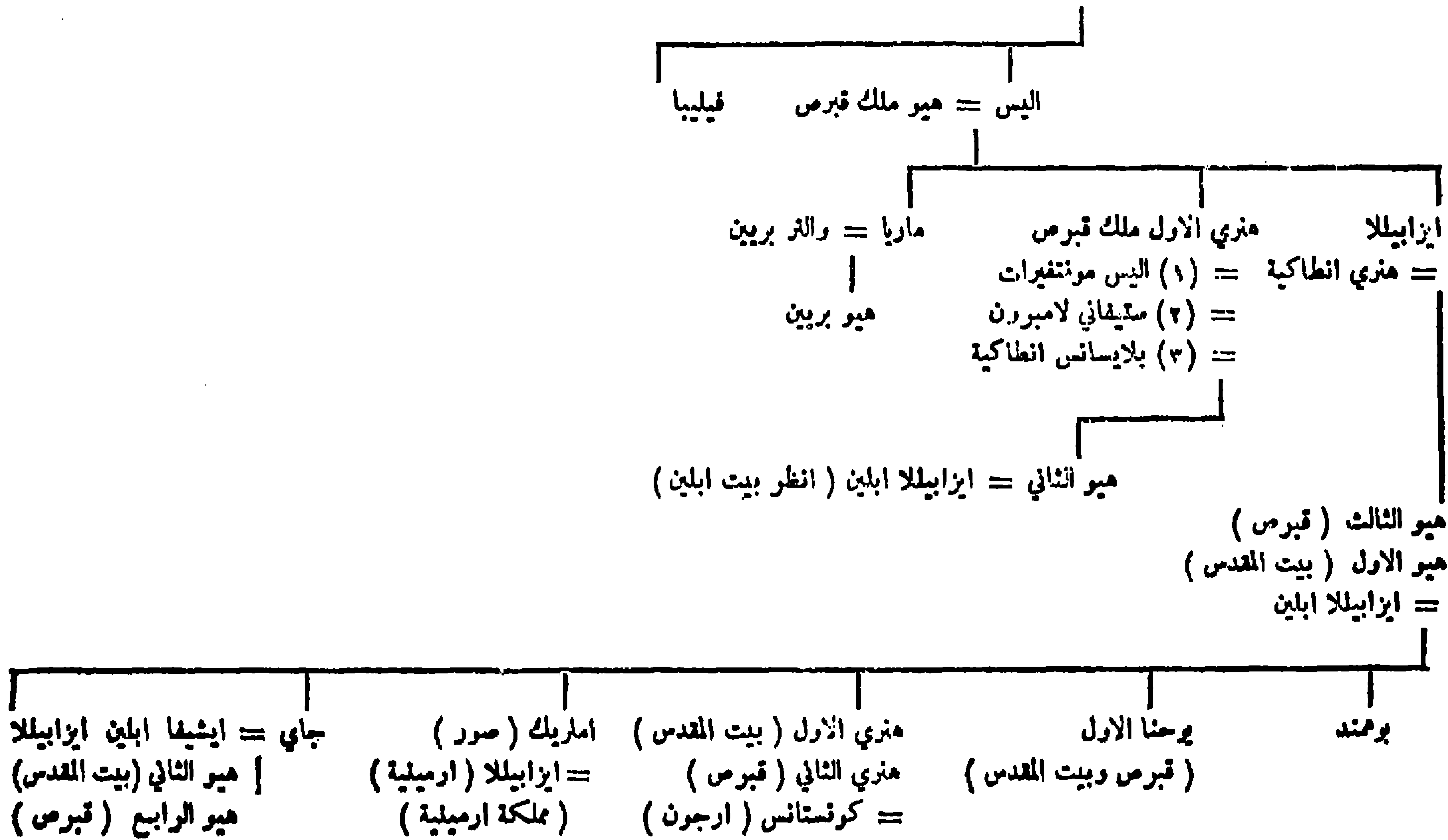
مملكة بيت المقدس

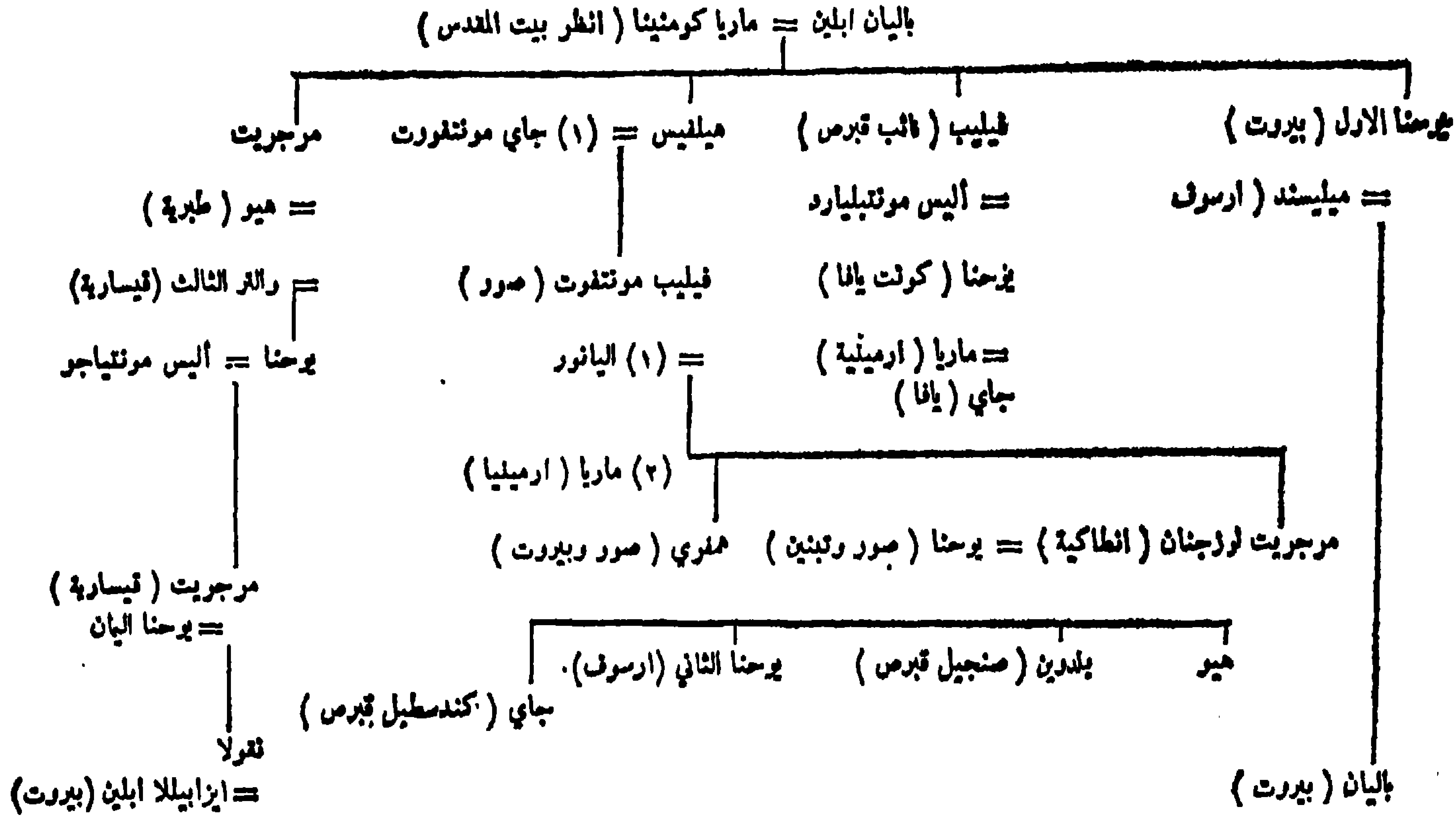
املريك الاول = اجنيس كورتيناي
= ماريا كومنينا
|
ايزابيللا
= ١ همفري سيد تبنين
= ٢ كنراد مونتفيرات
|
ماريا = يوحنا بريين
|
يولنده = الامبراطور فردريك الثاني
|
كنراد = اليزابيت بافاريا
|
كنرادين



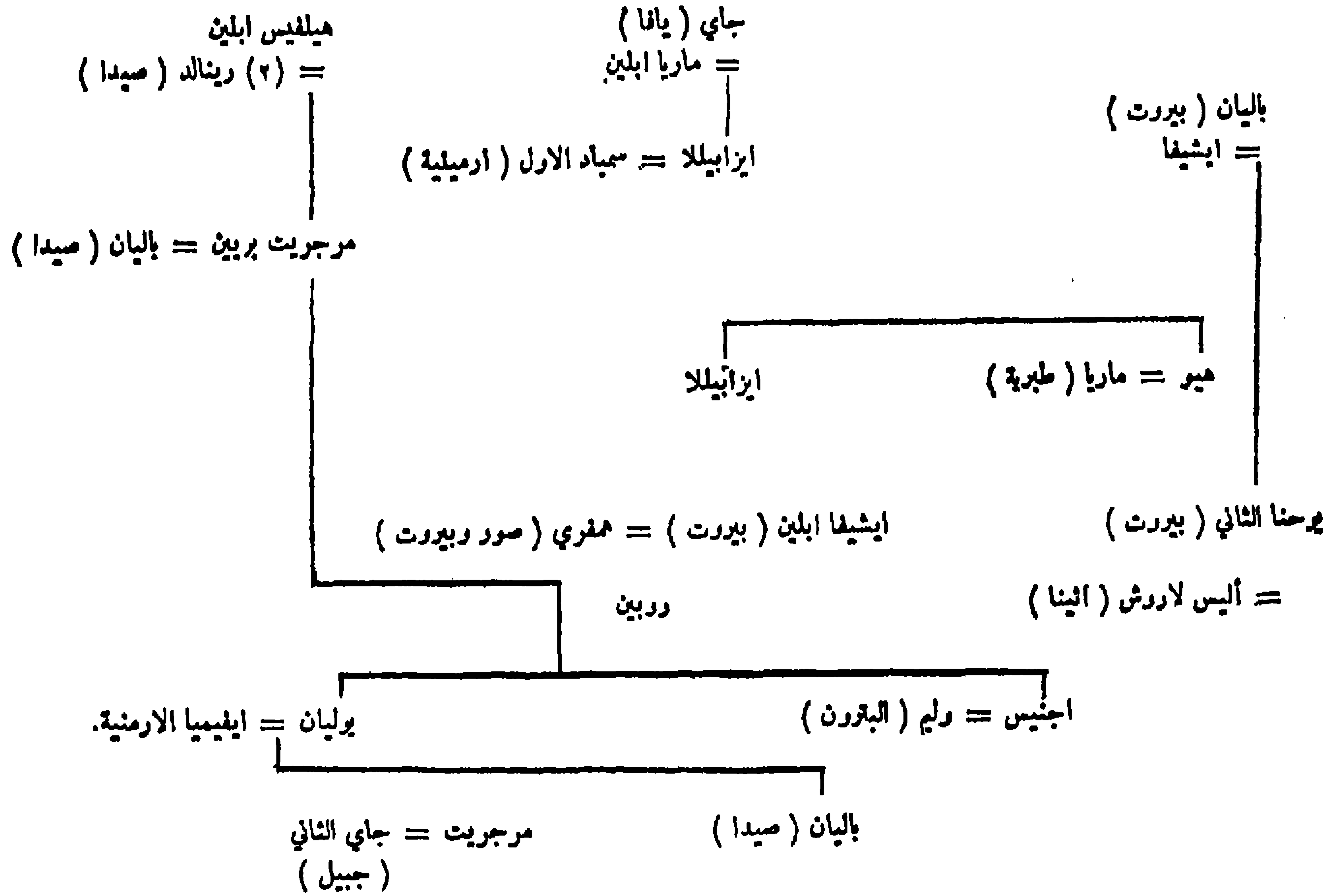
هيو الثاني (ملك بيت المقدس)
هيو الرابع (ملك قبرص)
= (١) ماريا ابلين
= (٢) اليس ابلين
يوحنا (انطاكية)
بطرس الاول (بيت المقدس وقبرص)
جيمس الاول (بيت المقدس وقبرص)
= هياراز برلسويك
= ايشيفا مونتفورت
اليانور اراجون
جيمس (طرابلس)
جاي امير الجليل (ابن ماريا ابلين)
بطرس الثاني
مرجريت=جيمس(طرابلس)
= ماريا بوربون
هيو امير الجليل
ايزابيلا (ملكة بيت المقدس)
= (٤) امالريك الثاني (بيت المقدس) امالريك الاول (قبرص)
سبيللا = ليو الثاني (ارمينية)
ميليسند = بوهمند الرابع (انطاكية)
ماريا
الاسرة الحاكمة في بيت المقدس وقبرص

مملكة بيت المقدس (تابع)





بيت ابلين
باليان ابلين = ماريا كومنينا (انظر بيت المقدس)
يوحنا الاول (بيروت)
= ميليسند (ارسوف)
فيليب (نائب قبرص)
= أليس مونتبليارد
يوحنا (كونت يافا)
= ماريا (ارمينية)
جاي (يافا)
هيلفيس = (١) جاي مونتفورت
فيليب مونتفورت (صور)
= (١) اليانور
(٢) ماريا (ارمينيا)
مرجريت لوزجنان (انطاكية) = يوحنا (صور وتبنين)
همفري (صور وبيروت)
هيو
بلدوين (صنجيل قبرص)
يوحنا الثاني (ارسوف).
جاي (كندسطبل قبرص)
مرجريت
= هيو (طبرية)
= والتر الثالث (قيسارية)
يوحنا = أليس مونتياجو
مرجريت (قيسارية)
= يوحنا اليان
نقولا
= ايزابيللا ابلين (بيروت)
باليان (بيروت)



باليان (بيروت)
= ايشيفا
جاي (يافا)
= ماريا ابلين
هيلفيس ابلين
= (٢) رينالد (صيدا)
ايزابيلا = سمباد الاول (ارميلية)
مرجريت برين = باليان (صيدا)
هيو = ماريا (طبرية)
ايزابيلا
يوحنا الثاني (بيروت)
= أليس لاروش (اثينا)
ايشيفا ابلين (بيروت) = همفري (صور وبيروت)
روبين
اجنيس = وليم (البترون)
يوليان = ايفيميا الارمنية.
باليان (صيدا)
مرجريت = جاي الثاني
(جبيل)

انطاكية

بوهمند الثالث امير انطاكية

= اورجيللوزا (حارم)

= سبيللا

بوهمند = (وريثة البترون)

أليس = جاي الاول امبرياكو (جبيل)

وليم = اجنيس (صيدا)

يوحنا

لوسيا امبرياكو = يوحنا (البترون)

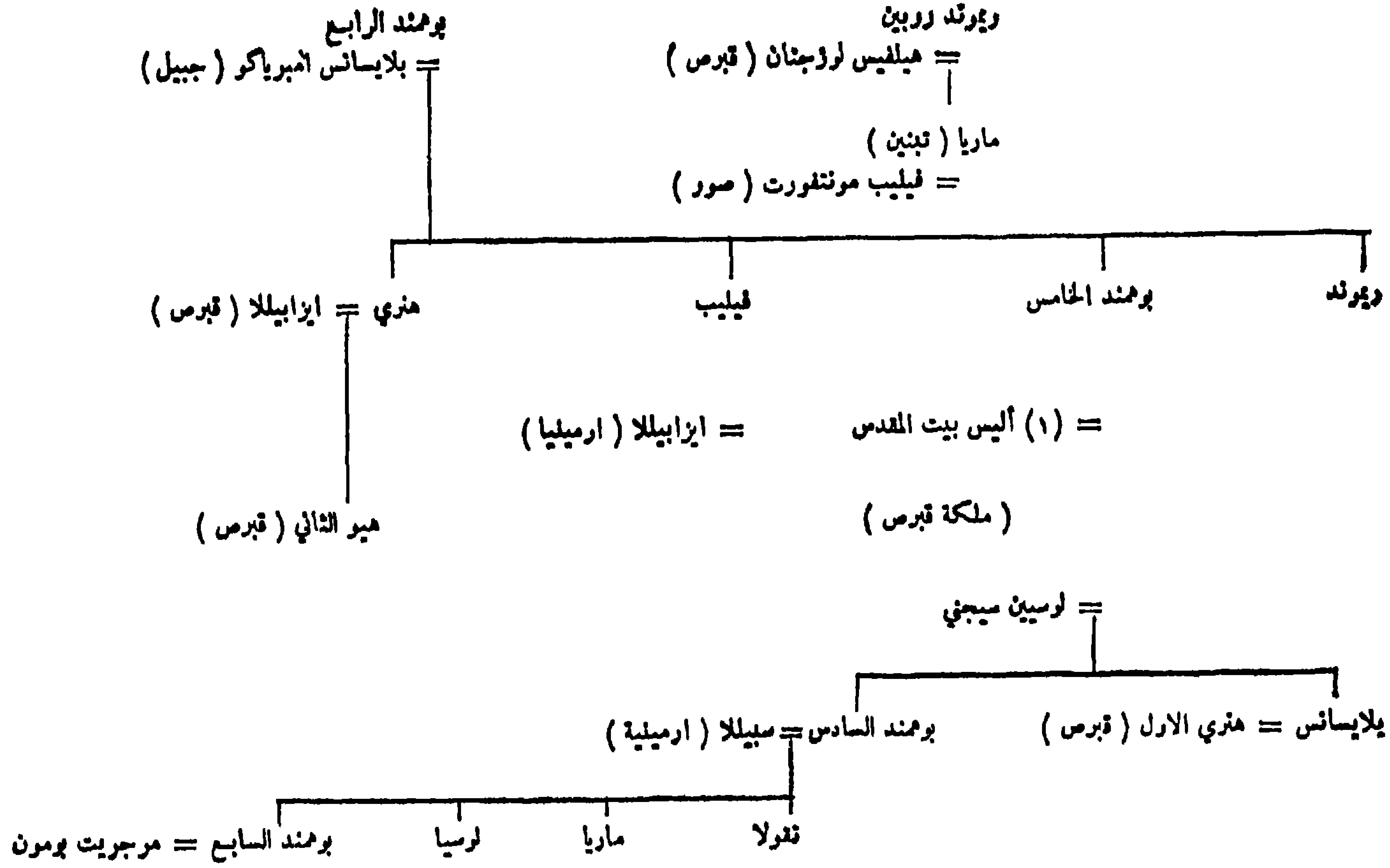
وليم

بوهمند الرابع (انطاكية وطرابلس)

= بلايسانس امبرياكو (جبيل)

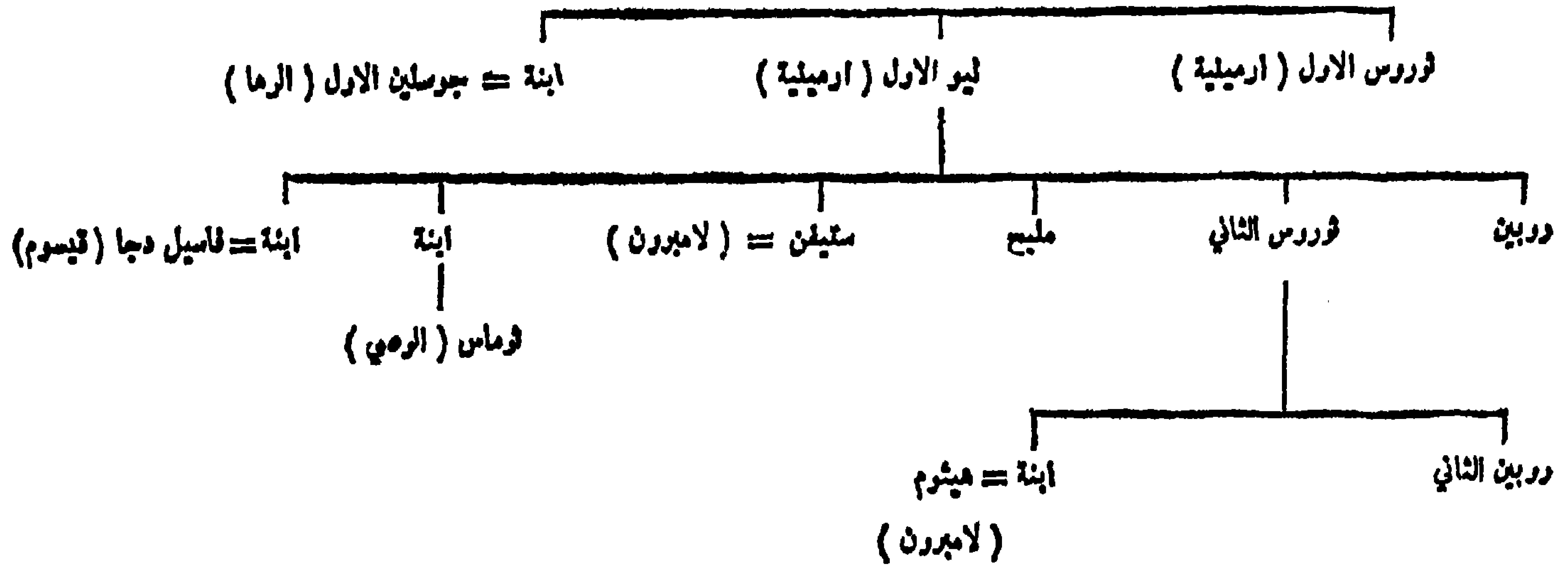
ريموند = أليس الارمنية (تبنين)

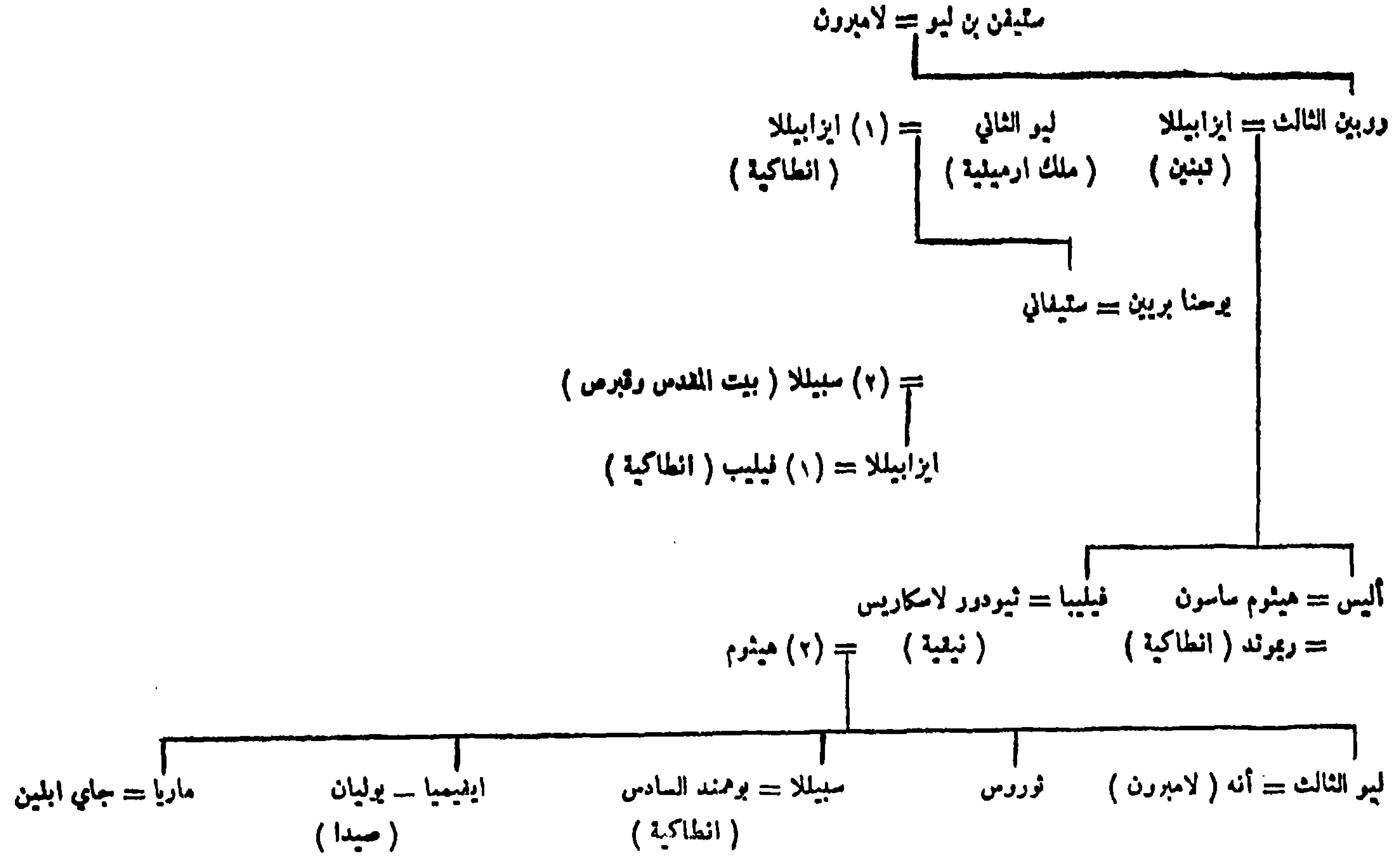
ريموند روبين



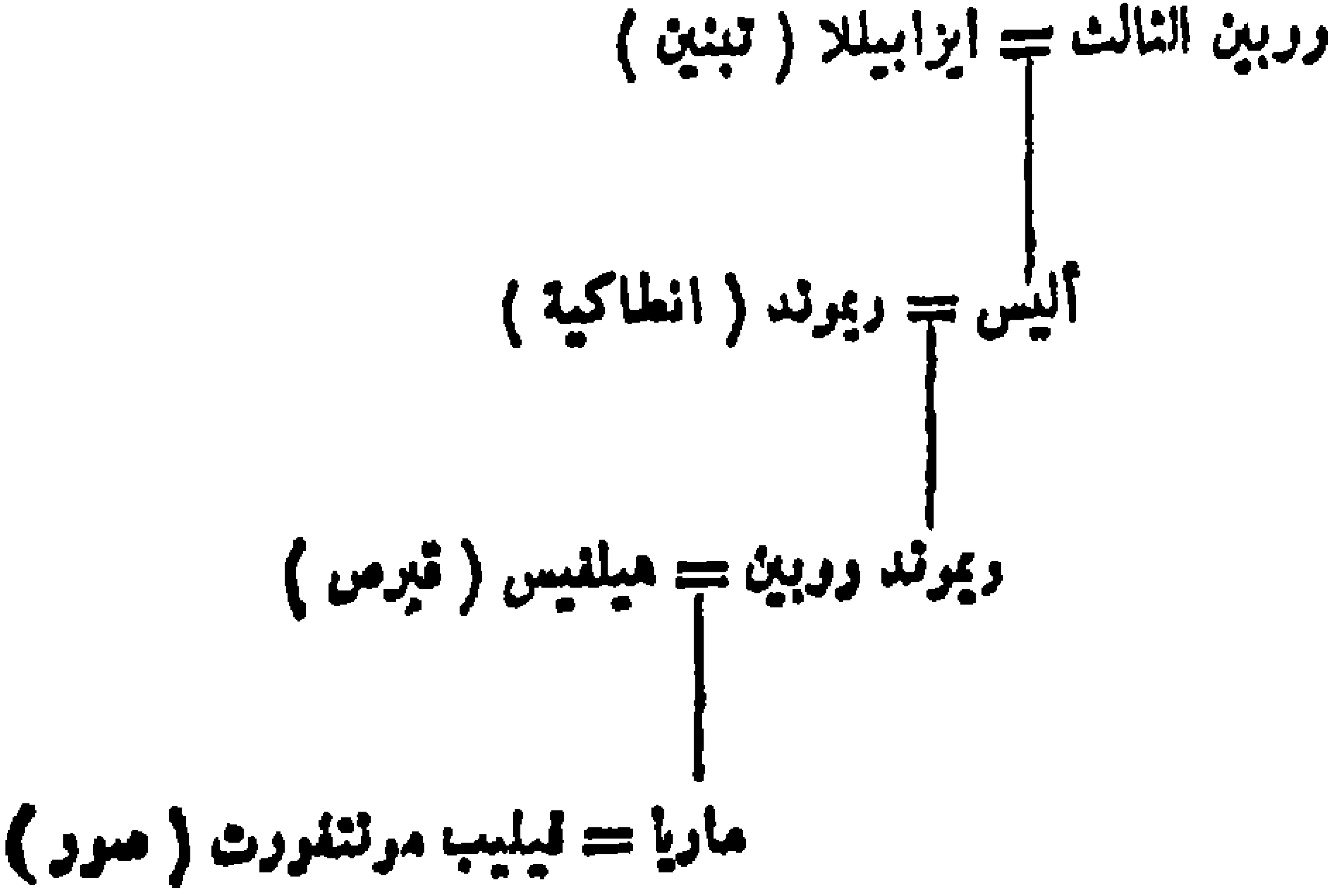
ريموند روبين
= هيلفيس لوزجنان (قبرص)
ماريا (تبنين)
= فيليب مونتفورت (صور)
بوهمند الرابع
= بلايسانس امبرياكو (جبيل)
ريموند
بوهمند الخامس
فيليب
هنري = ايزابيلا (قبرص)
= (١) أليس بيت المقدس
(ملكة قبرص)
= ايزابيلا (ارمينيا)
هيو الثاني (قبرص)
= لوسين سيجني
بلايسانس = هنري الاول (قبرص)
بوهمند السادس = سيبللا (ارمينية)
نقولا
ماريا
لوسيا
بوهمند السابع = مرجريت بومون

ارمينية الصغرى




ستيفن بن ليو = لامبرون
روبين الثالث = ايزابيللا
(تبنين)
ليو الثاني
(ملك ارمينية)
= (١) ايزابيللا
(انطاكية)
يوحنا بريين = ستيفاني
= (٢) سبيللا (بيت المقدس وقبرص)
ايزابيللا = (١) فيليب (انطاكية)
أليس = هيثوم ساسون
= ريموند (انطاكية)
فيليبا = ثيودور لاسكاريس
(نيقية)
= (٢) هيثوم
ليو الثالث = أنه (لامبرون)
توروس
سبيللا = بوهمند السادس
(انطاكية)
ايفيميا ـ يوليان
(صيدا)
ماريا = جاي ابلين

(تابع) ارمينية الصغرى



ليو الثالث = أنه لامبرون

حيثوم الثاني

توروس الثالث = مرجريت (قبرص)

ليو الرابع = اجنيس قبرص (صور)

سمباد = ايزابيللا ابلين (يافا)

قسطنطين الثاني

ايزابيللا قبرص (١) = اوشين

ميخائيل باليولوجس = ماريا اكسين

ترنسيم الامبراطور

ليو الخامس = (١) أليس (اوشين كيراكوس)

(٢) اليانور ارجون (قبرص)

اوشين كيراكوس = حنه (انجو تارانتو) (٢) =

املريك قبرص (صور)

قسطنطين الثالث = ماريا (نجير)

اوشين

ليو

ايزابيللا =

حيثوم الاول = (١) كانتا كوزينا

(٢) ابنة هبرجاپانس

ايزابيللا

بوهمند (كوريكوس)

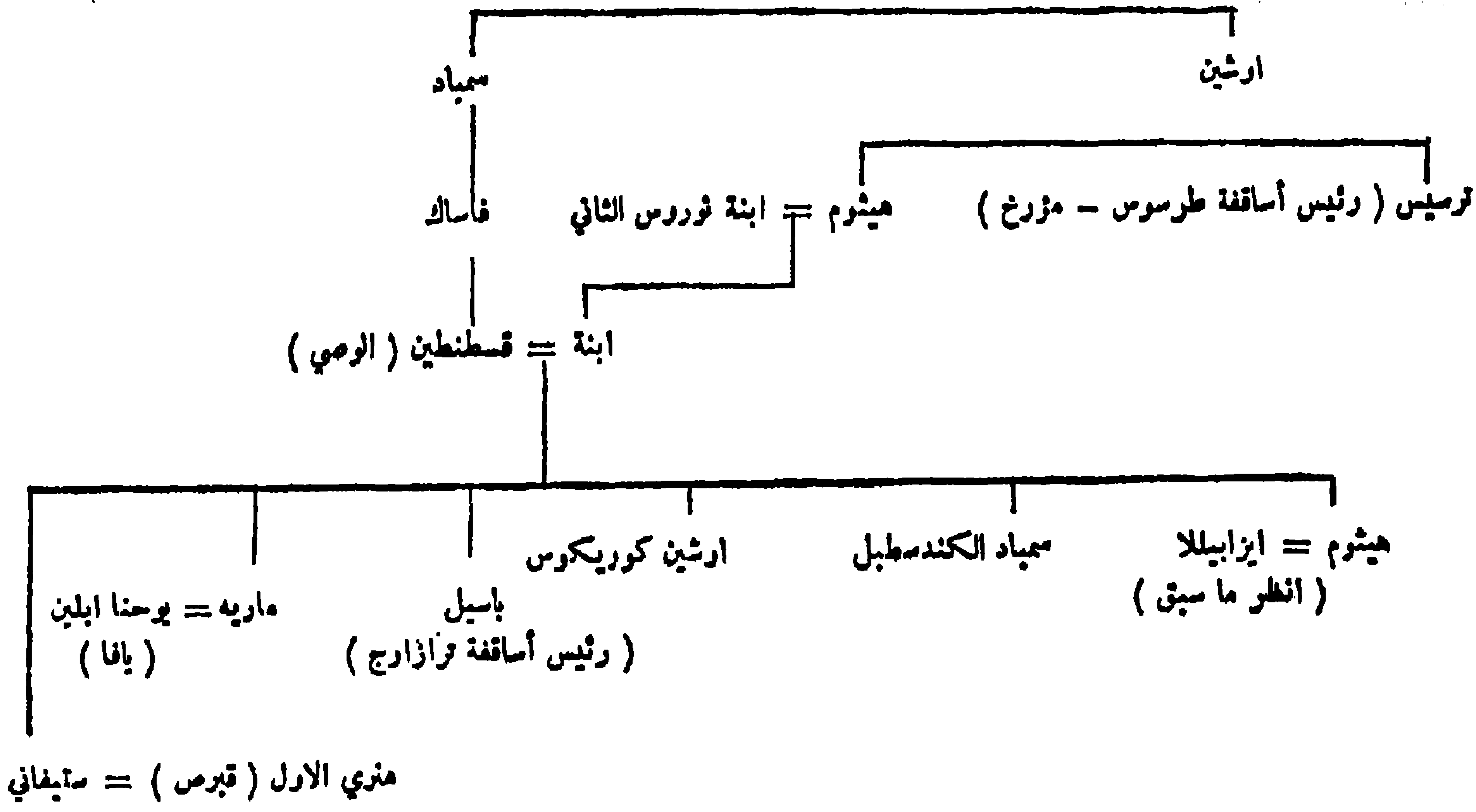
= ايفيميا (نجير)

يوحنا = صولدانا (الكرج)

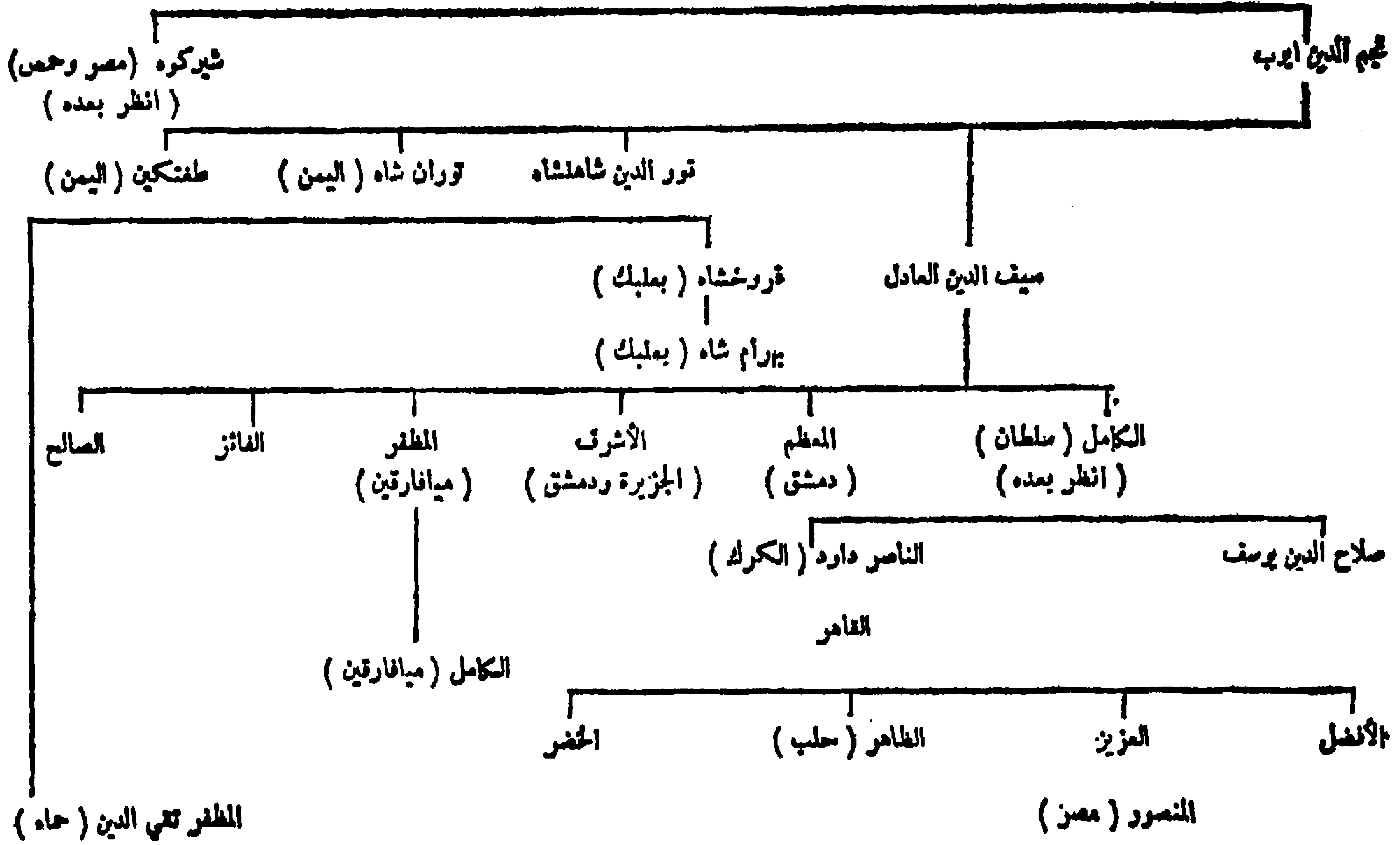
مرجريت = مانويل كانتا كوزينوس (الموره)

ليو السادس = مرجريت سواسون

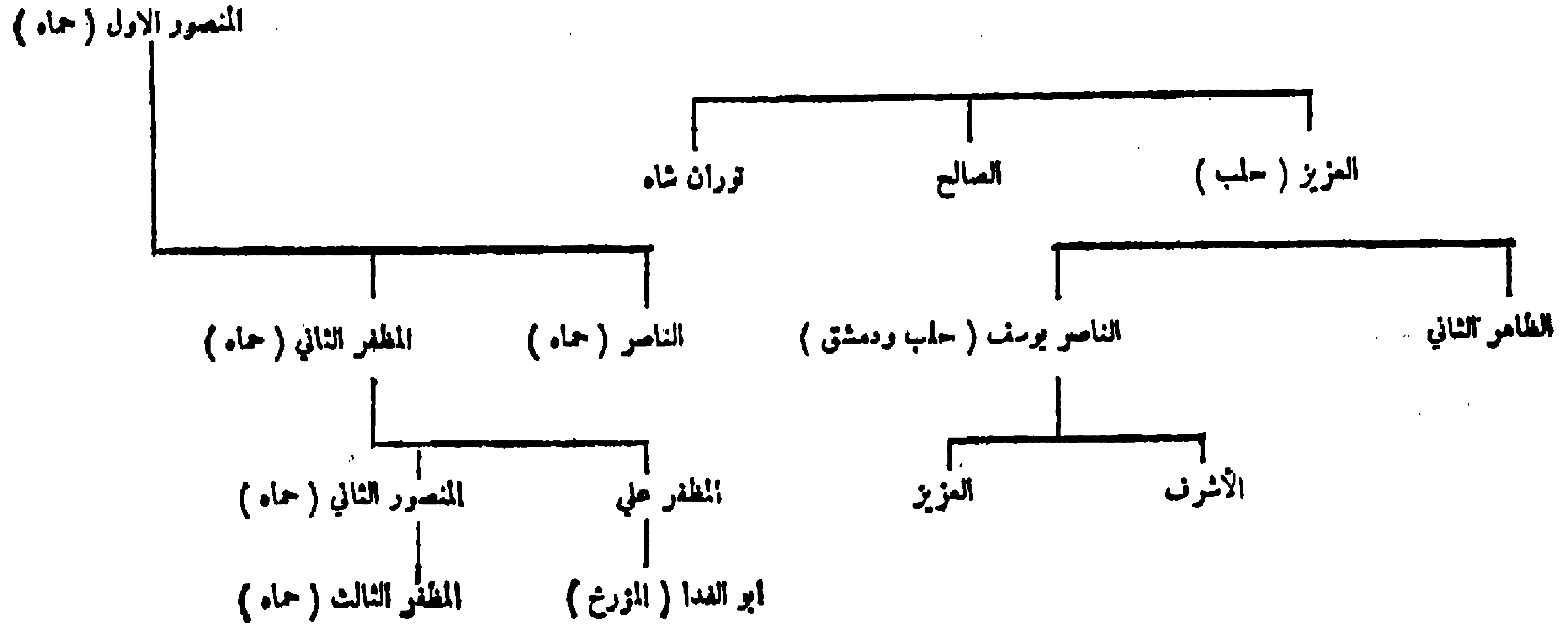
(تابع) ارمينية الصغرى

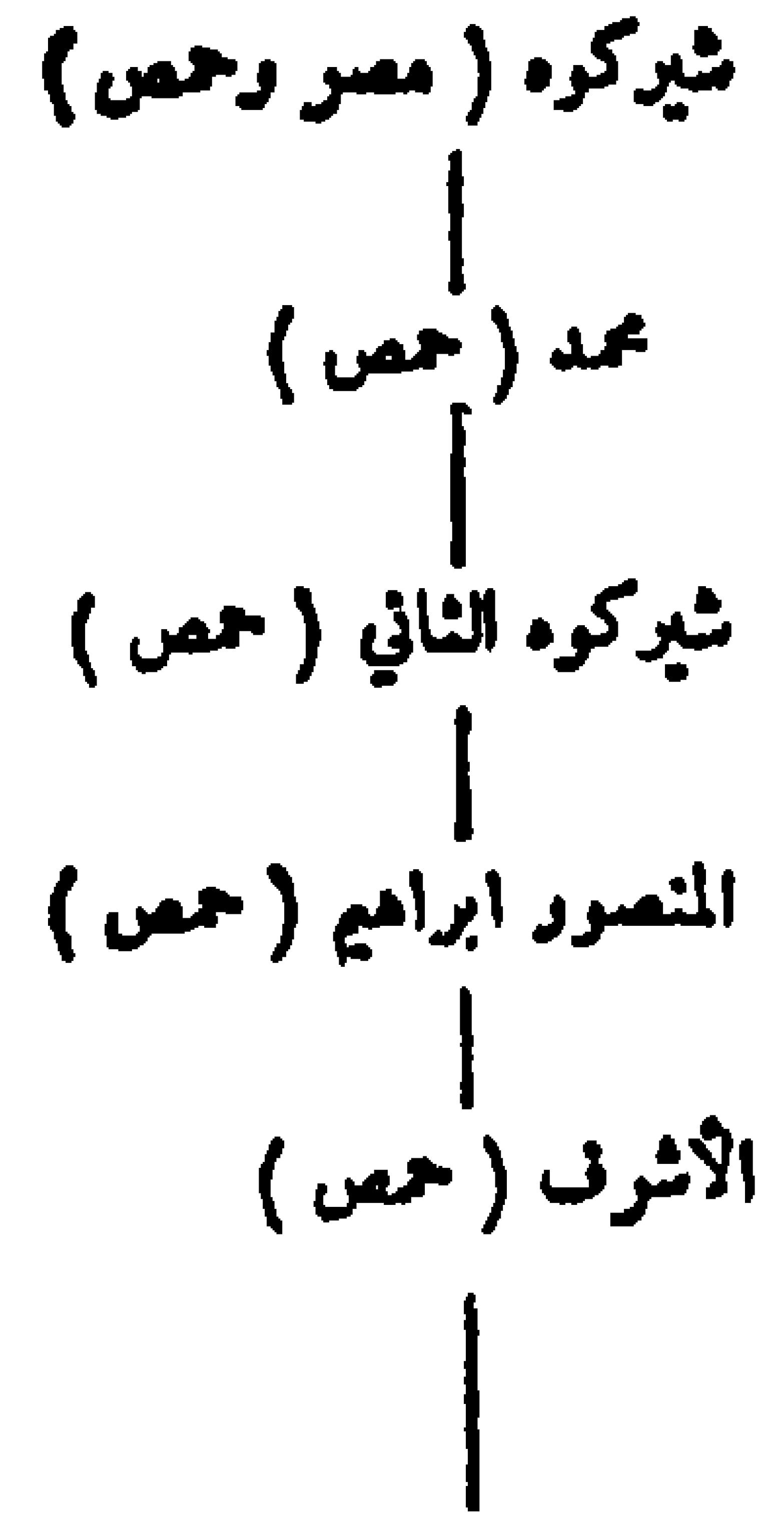


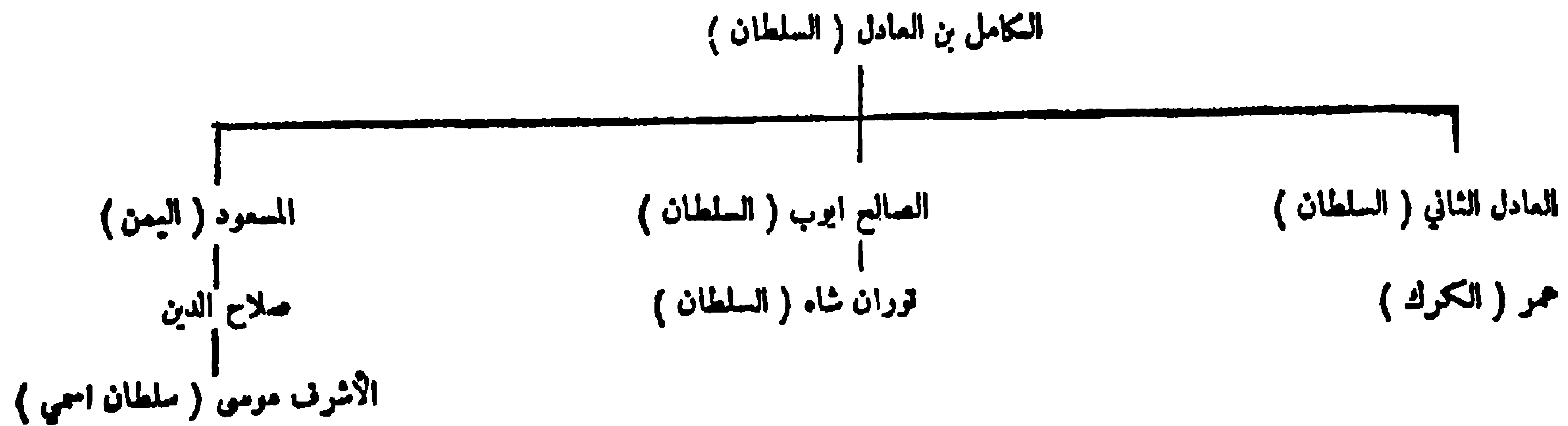
الأيوبيون


شادي بن مروان
نجم الدين ايوب
شيركوه (مصر وحمص)
(انظر بعده)
نور الدين شاهنشاه
توران شاه (اليمن)
طغتكين (اليمن)
سيف الدين العادل
فروخشاه (بعلبك)
بهرام شاه (بعلبك)
الكامل (سلطان)
(انظر بعده)
المعظم
(دمشق)
الأشرف
(الجزيرة ودمشق)
المظفر
(ميافارقين)
الفائز
الصالح
صلاح الدين يوسف
الناصر داود (الكرك)
القاهر
الكامل (ميافارقين)
الأفضل
العزيز
الظاهر (حلب)
الخضر
المنصور (مصر)
المظفر تقي الدين (حماه)

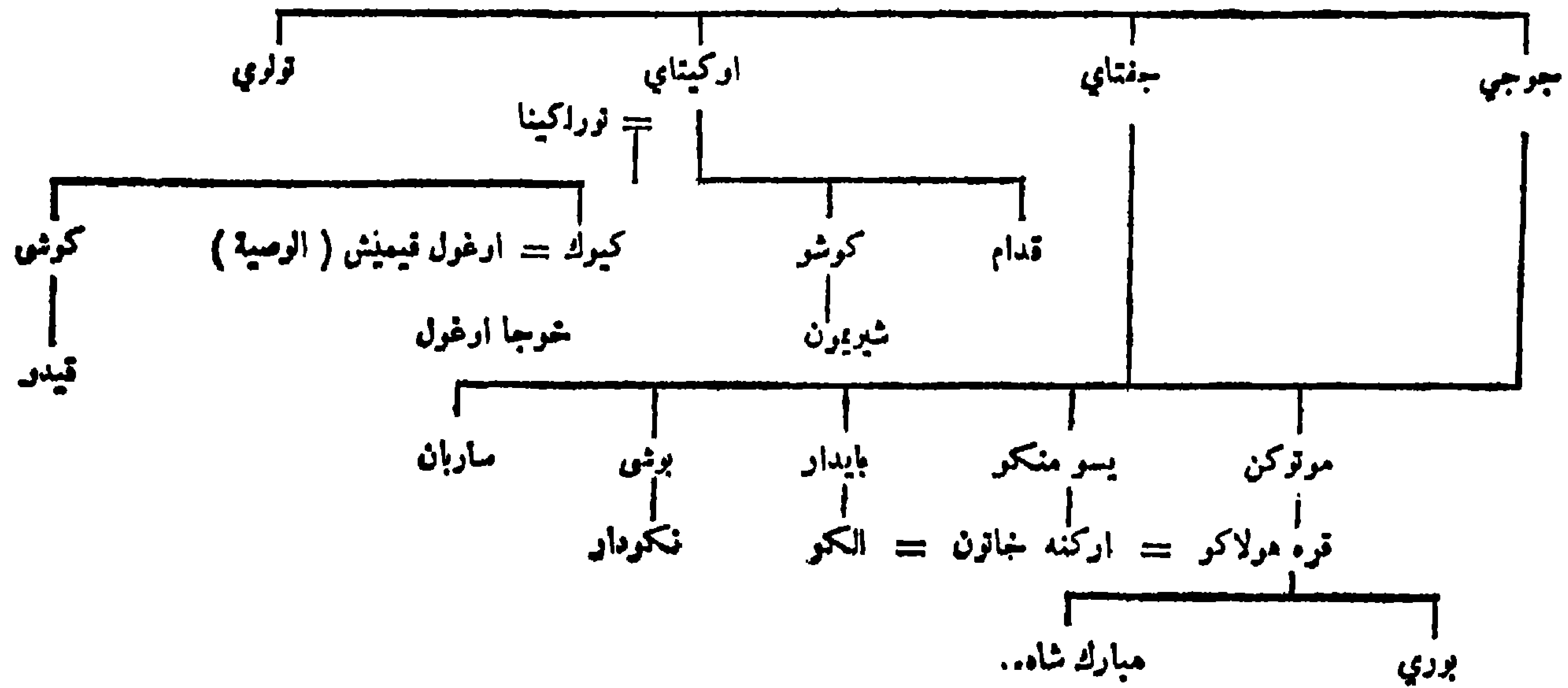
(تابع) الأيوبيون

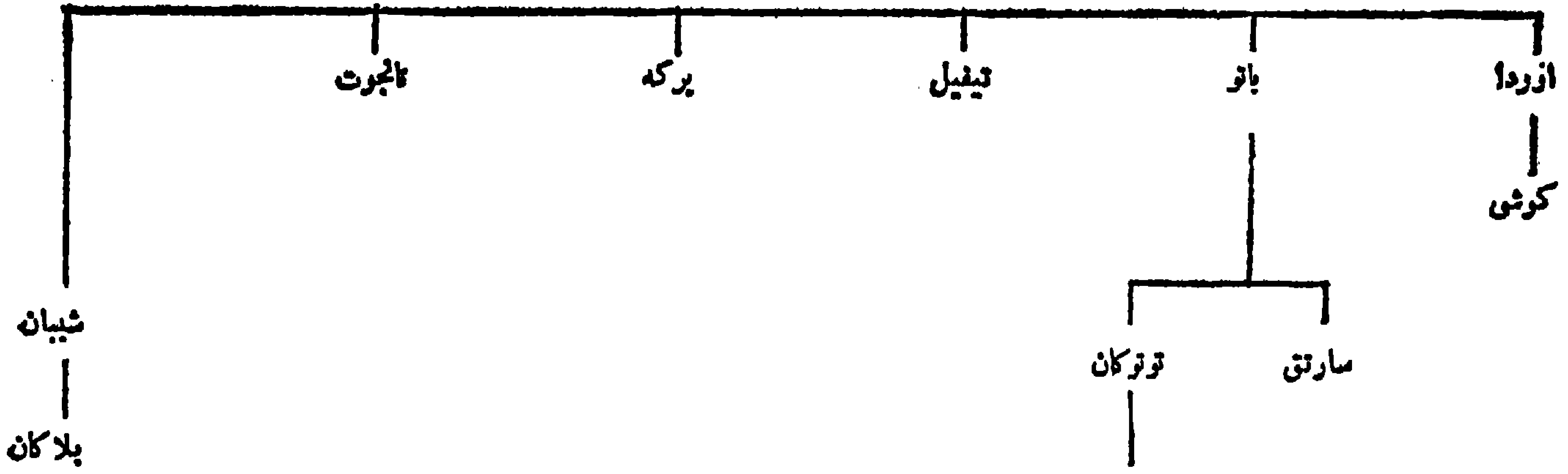


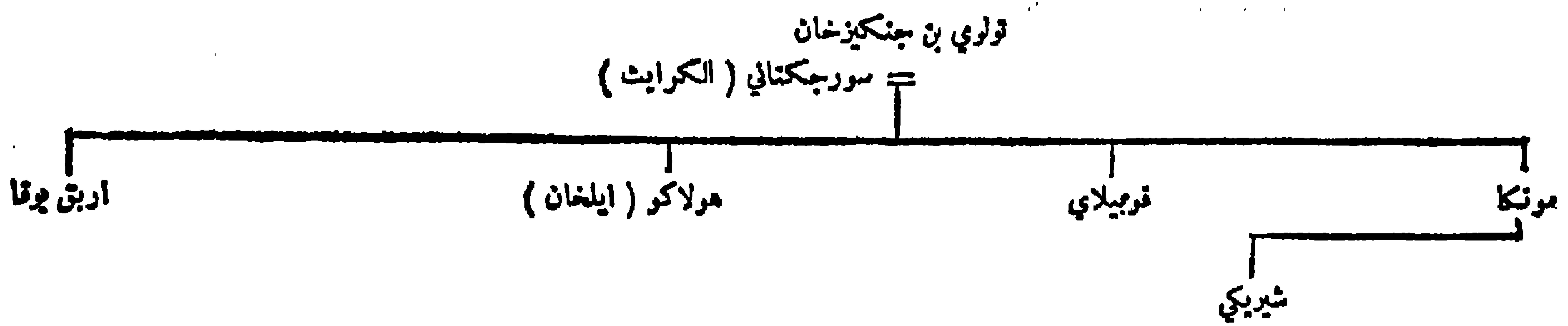

شيركوه (مصر وحمص)
محمد (حمص)
شيركوه الثاني (حمص)
المنصور ابراهيم (حمص)
الأشرف (حمص)


الكامل بن العادل (السلطان)
العادل الثاني (السلطان)
عمر (الكرك)
الصالح ايوب (السلطان)
توران شاه (السلطان)
المسعود (اليمن)
صلاح الدين
الأشرف موسى (سلطان اسمي)

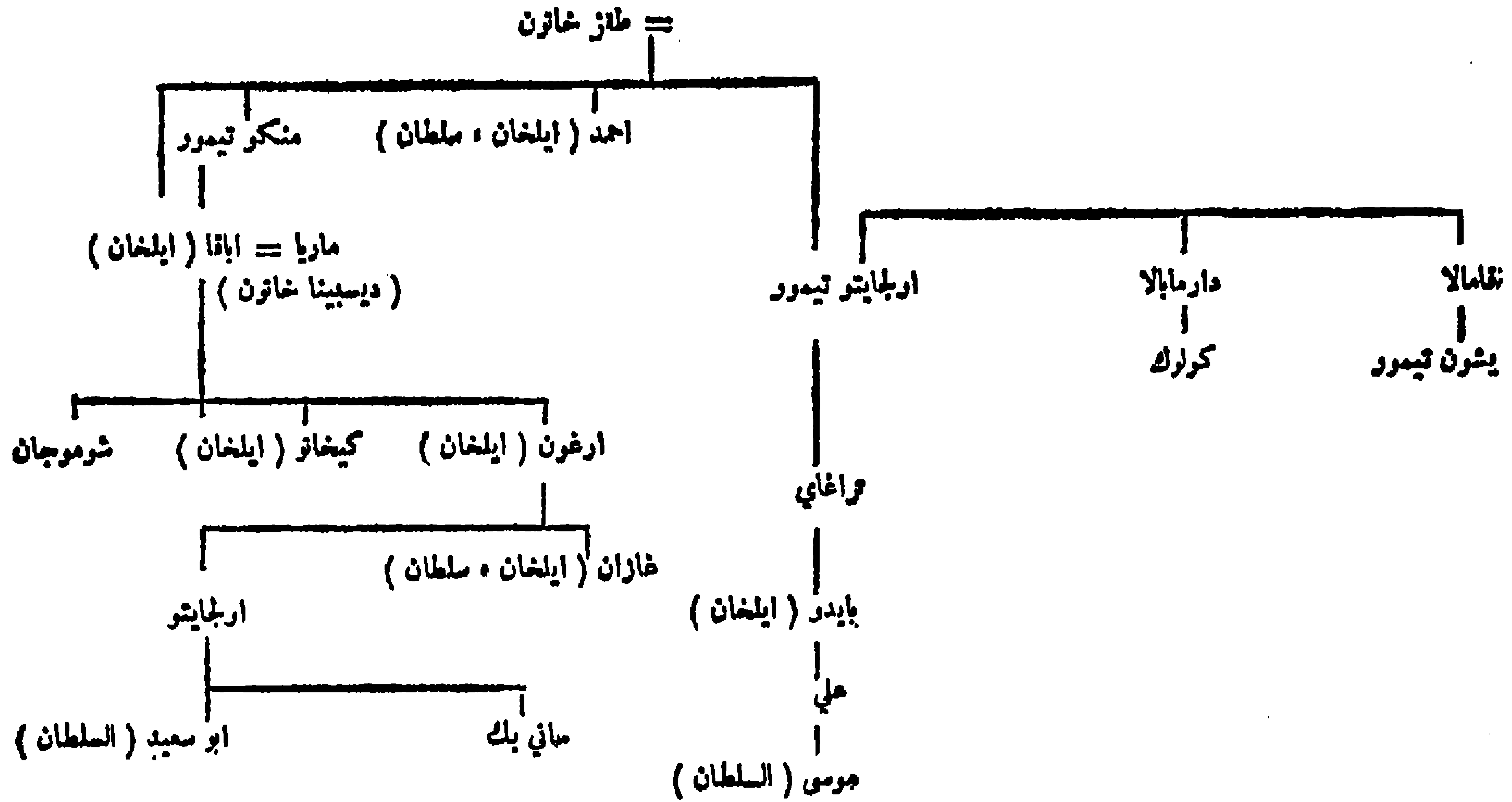
بيت جنكيزخان




اوردا
كوشى
باتو
سارتق
توتوكان
مانكو تيمور
تيفيل
بركه
تانجوت
شيبان
بلاكان


تولوي بن جنكيزخان
سورجكتاني (الكرايث)
مونكا
شيريكي
قوبيلاي
هولاكو (ايلخان)
اريق بوقا

تابع) بيت جنكيزخان



الملحق الرابع

اسماء ملوك وأمراء الاسرات الحاكمة، والأباطرة البيزنطيين والبابوات وأمراء الفرنج ، والأمراء المسلمين ، والمغول والارمن

اسرات الفرنج الحاكمة في سوريا منذ سنة ١١٨٧

مملكة بيت المقدس

جاي لوزجنان	١١٨٦ – ١١٨٧
كنراد مونتفيرات	١١٩٢
هنري شمبانيا	١١٩٢ – ١١٩٧
أماريك لوزجنان ملك قبرص	١١٩٧ – ١٢٠٥
ماريا (بيت المقدس) مونتفيرات	١٢٠٥ – ١٢١٢
يوحنا بريين زوج ماريا (بيت المقدس) مونتفيرات	١٢١٠ – ١٢٢٥
الامبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن زوج يولندا بريين	١٢٢٥ – ١٢٥٠
كنراد ملك اسمي	١٢٢٨ – ١٢٥٤
هيو الاول لوزجنان ملك قبرص	١٢٤٦ – ١٢٥٣

هيو الثاني لوزجنان ملك قبرص	١٢٥٣ – ١٢٦٧
هيو الثالث انطاكية – لوزجنان – ملك قبرص	١٢٦٨ – ١٢٨٤
شارل انجو ملك صقلية (مغتصب)	١٢٧٧ – ١٢٨٥
يوحنا انطاكية – لوزجنان ملك قبرص	١٢٨٤ – ١٢٨٥
هنري الثاني انطاكية – لوزجنان ملك قبرص	١٢٨٥ – ١٢٩١

امارة انطاكية

بوهمند الاول ، تارنت	١٠٩٨ – ١١١١
تانكرد وصي ١١٠١ – ١١٠٣	
١١٠٤ – ١١١١	
روجر سالرنو	١١١٢ – ١١١٩
وصاية بلدوين الثاني ملك بيت المقدس	١١١٩ – ١١٢٦
بوهمند الثاني	١١٢٦ – ١١٣٠
كونستانس	١١٣٠ – ١١٦٣
وصاية بلدوين الثاني للمرة الثانية	١١٣١
وصاية فولك ملك بيت المقدس	١١٣١ – ١١٣٦
وصاية بلدوين الثالث ملك بيت المقدس	١١٤٩ – ١١٥٣
ريموند بواتييه زوج كونستانس	١١٣٦ – ١١٤٩
رينالد شاتيون زوج كونستانس	١١٥٣ – ١١٦٠
بوهمند الثالث	١١٦٣ – ١٢٠١
بوهمند الرابع	١٢٠١ – ١٢١٦
ريموند – روبين	١٢١٦ – ١٢١٩
بوهمند الرابع عودته للعرش	١٢١٩ – ١٢٣٣
بوهمند الخامس	١٢٣٣ – ١٢٥١
بوهمند السادس	١٢٥١ – ١٢٦٨

كونتية طرابلس

ريموند كونت تولوز – انطرطوس	١١٠٢ – ١١٠٥
وليم جوردان – انطرطوس	١١٠٥ – ١١٠٩
برتراند في طرابلس	١١٠٩ – ١١١٢
بونز	١١١٢ – ١١٣٧
ريموند الثاني	١١٣٧ – ١١٥٢
ريموند الثالث	١١٥٢ – ١١٨٧
ريموند الرابع (انطاكية)	١١٨٧ – ١١٨٩
بوهمند الرابع (انطاكية)	١١٨٩ – ١٢٣٣
بوهمند الخامس (انطاكية)	١٢٣٣ – ١٢٥١
بوهمند السادس (انطاكية)	١٢٥١ – ١٢٧٥
بوهمند السابع	١٢٧٥ – ١٢٨٧
لوسيا	١٢٨٧ – ١٢٨٨

اقطاع جبيل

جوجليلمو الاول امبرياكو	١١٠٩ – ١١١٨
هوجو الاول امبرياكو	١١٢٧ – ١١٣٥
جوجليلمو الثاني امبرياكو	١١٣٥ – ١١٥٧
هوجو الثاني	١١٦٣ – ١١٨٤
هوجو الثالث	١١٨٤ – ١١٨٧
جويدو الاول	١١٩٩ – ١٢٤١
بوريكو	١٢٥٤ – ١٢٦٢
جويدو الثاني	١٢٧١ – ١٢٨٢

اقطاع طبرية او امارة الجليل

تانكرد	١٠٩٩ — ١١٠١
هيو سانت اومر (فولكنبرج)	١١٠١ — ١١٠٦
جيرفاس باسوخ	١١٠٦ — ١١٠٨
جوسلين الاول كورتيناي	١١١٢ — ١١١٩
وليم دي بور	١١٢٠ — ١١٤١
اليناند طبرية	١١٤٢ — ١١٤٨
وليم شقيق اليناند	١١٤٨ — ١١٥٨
جوتييه سانت اومر	١١٥٩ — ١١٧١
ريموند الثالث كونت طرابلس	١١٧٤ — ١١٨٧

اقطاع بيروت

فولك جيين	١١١٠
جوتييه الاول بريسبار	١١٢٥
جاي الاول بريسبار	١١٣٨ — ١١٥٦
جوتييه الثاني بريسبار	١١٥٧ — ١١٦٤
جوتييه الثالث بريسبار	١١٦٥ — ١١٦٦
يوحنا الاول ابلين الكبير	١٢٠٥ — ١٢٣٦
باليان الثالث ابلين	١٢٣٦ — ١٢٤٧
يوحنا الثاني ابلين	١٢٤٧ — ١٢٦٤
ايزابيللا ابلين	١٢٦٤ — ١٢٧٧
ايشيفا ابلين	— ١٢٩١

اقطاع صيدا

يوستاس جارنييه	١١١١ – ١١٢٣
رينالد	١١٧١ – ١١٨٧
باليان	١٢٢٩ – ١٢٤٠
جوليان	١٢٤٧ – ١٢٦٠

اقطاع تبنين

همفري الاول	١١٠٧ – ١١٣٦
همفري الثاني (كندسطبل بيت المقدس)	١١٣٧ – ١١٧٩
همفري الرابع	١١٧٩ – ١١٨٠
فيليب مونتفورت (سيد صور)	١٢٤٠ – ١٢٧٠
يوحنا مونتفورت (سيد صور وتبنين)	١٢٧٠ – ١٢٨٣

اقطاع قيسارية

يوستاس جارنييه	١١٠١ – ١١٢٣
جوتييه الاول	١١٢٣ – ١١٤٩
هيو	١١٥٤ – ١١٦٨
جاي	١١٧٤ – ١١٧٦
جوتييه الثاني	١١٨٢ – ١١٩١
ايمار لايرون	١١٩٣ – ١٢١٣
جوتييه الثالث	١٢١٧ – ١٢٢٩
يوحنا	١١٢٩ – ١٢٤١
يوحنا أليان	١٢٤٩ – ١٢٦٤

اقطاع الرملة ويبنة

بلدوين الاول	١١١٠ — ١١٢٠
هيو	١١٢٢ — ١١٢٩
بلدوين الثاني	١١٣٦ — ١١٣٨
رينيه	١١٤٤ — ١١٤٧
باليان الاول ابلين	١١٥٤ — ١١٦٩
بلدوين ابلين	١١٧١ — ١١٨٦

كونتية يافا

هيو بويزيه	حوالي ١١١٨
هيو الثاني بويزيه	١١٢٠ — ١١٣٥
جوتييه بريين	١٢٢١ — ١٢٤٦
يوحنا ابلين (مصنف قوانين بيت المقدس)	١٢٤٧ — ١٢٦٦
جاي ابلين	١٢٦٦ — ١٢٦٨

اقطاع الشوبك والكرك

رومان دى بويه	١١١٨ — ١١٣٣
باجان ميللي	١١٣٣ — ١١٤٨
فيليب (نابلس)	١١٦١ — ١١٦٨
همفري الثالث (تبنين)	١١٦٨ — ١١٧٣
مايلز بلانسي	١١٧٣ — ١١٧٤
رينالد شاتيون	١١٧٧ — ١١٨٧

٢ – بيت انطاكية – لوزجنان :

هيو الثالث . انطاكية – لوزجنان	١٢٦٧ – ١٢٨٤
يوحنا الاول	١٢٨٤ – ١٢٨٥
هنري الثاني	١٢٨٥ – ١٣٢٤
امالريك امير صور ، شقيق هنري الثاني اغتصب الحكم	١٣٠٦ – ١٣١٠
هيو الرابع	١٣٢٤ – ١٣٥٩
بطرس الاول	١٣٥٩ – ١٣٦٩
بطرس الثاني	١٣٦٩ – ١٣٨٢
جاك الاول	١٣٨٢ – ١٣٩٨
جانوس	١٣٩٨ – ١٤٣٢
يوحنا الثاني	١٤٣٢ – ١٤٥٨
شارلوت	١٤٥٨ – ١٤٦٠
جاك الثاني	١٤٦٠ – ١٤٧٣
جاك الثالث بوصاية امه كثيرين كورنارو	١٤٧٣ – ١٤٧٤
كثرين كورنارو	١٤٧٤ – ١٤٨٩

اسرات الفرنج التي حكمت في بيزنطة وبلاد اليونان

٢ – الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية :

بلدوين الاول كونت فلاندر	١٢٠٤ – ١٢٠٦
هنري الاول هينولت	١٢٠٦ – ١٢١٦
بطرس كورتيناي	١٢١٦ – ١٢١٨

روبرت كورتيناي	١٢١٩ – ١٢٢٨
بلدوين الثاني	١٢٢٨ – ١٢٦١
يوحنا بريين – قسيم الامبراطور	١٢٣١ – ١٢٣٧

٢ – مملكة سالونيك :

بونيفاس مونتفيرات	١٢٠٤ – ١٢٠٧
ديمتريوس مونتفيرات	١٢٠٧ – ١٢٢٢

٣ – امارة الخايا والمورة :

وليم كامبليت	١٢٠٥ – ١٢٠٩
جفري فيلهاردوين (نائب)	١٢٠٩ – ١٢١٠
جفري الاول فيلهاردوين	١٢١٠ – ١٢٢٩
جفري الثاني فيلهاردوين	١٢٢٩ – ١٢٤٦
وليم فيلهاردوين	١٢٤٦ – ١٢٧٨
ايزابيللا فيلهاردوين	١٢٧٨ – ١٣٠٧
فيليب انجو – تارنت	١٣٠٧ – ١٣١٣
ماتيلدا هينولت	١٣١٣ – ١٣١٨
يوحنا انجو	١٣١٨ – ١٣٣٢
كثرين فالوا	١٣٣٢ – ١٣٤٦
روبرت الثاني انجو – تارنت	١٣٤٦ – ١٣٦٤
ماريا بوربون ارملة روبرت الثاني	١٣٦٤ – ١٣٦٩
فيليب الثالث انجو تارنت	١٣٧٠ – ١٣٧٣
حنه ملكة نابولي	١٣٧٤ – ١٣٨٢

جاك (تمثله جماعة النافاربين)	١٣٨٢ – ١٣٨٣
بطرس زعيم جماعة النافاربين	١٣٨٣ – ١٤٠٢
كنتربون الثاني زكّريا	١٤٠٤ – ١٤٢٨

دوقية أثينا وطيبة

١ – بيت لاروش :

اوتو لاروش سيد أثينا	١٢٠٥ – ١٢٢٥
جاي الاول	١٢٢٥ – ١٢٦٣
يوحنا	١٢٦٣ – ١٢٨٠
وليم	١٢٨٠ – ١٢٨٧
جاي الثاني	١٢٨٧ – ١٣٠٨
جوتييه بريين	١٣٠٩ – ١٣١١

٢ – زعماء الشركة الكاتالونية :

روجر ديسلاور	١٣١١ – ١٣١٢
برنجار استانول	١٣١٢ – ١٣١٦
وليم توماس	١٣١٦ – ١٣١٧
الفونسو فدريك ارجون – صقلية	١٣١٧ – ١٣٣٠
نقولو لانكيا	١٣٣٠ – ١٣٣٥
ريموند برناردى	١٣٥٦
جايم فدريك ارجون	١٣٥٦ – ١٣٥٩
جونسالفو أرينوس	١٣٥٩

ماتيو مونكادا	١٣٥٩ – ١٣٦١
روجر لوريا	١٣٦١ – ١٣٦٣
ماتيو مونكادا (للمرة الثانية)	١٣٦٣ – ١٣٦٧
روجر لوريا (للمرة الثانية)	١٣٦٧ – ١٣٧١
ماتيو بيرالتا	١٣٧١ – ١٣٧٥
لويس فدريك ارجون	١٣٧٥ – ١٣٨١
فيليب دلمان روكابرتي	١٣٨١ – ١٣٨٢
رامون فيلانوفا	١٣٨٢ – ١٣٨٣
روجر الثاني وانطونيو لوريا	١٣٨٣ – ١٣٨٥
بدرو باو	١٣٨٥ – ١٣٨٧

٣ – بيت اكيولى :

نيريو الاول	١٣٨٥ – ١٣٩٤
انطونيو دوق اثينا	١٤٠٤ – ١٤٣٥
نيريو الثاني دوق اثينا	١٤٣٥ – ١٤٣٩
	١٤٤١ – ١٤٥١
كيارا جيورجيو ، الكونتيسة	١٤٥١ – ١٤٥٦
فرانكو اكيولى	١٤٥٦ – ١٤٥٨

ماركيزية بودونيتزا (ثيرموبيل)

١ – بيت بالوفيتشيني :

جويدو بالوفيتشيني	١٢٠٤ – ١٢٣٧

اوبرتينو	١٢٣٧ – ١٢٧٨
ايزابيلا	١٢٧٨ – ١٢٨٦
البرتو	١٣١١
جوجليلمينا	١٣١١ – ١٣٥٨

٢ – بيت جيورجيو :

نيقولو الاول جيورجيو	١٣٣٨ – ١٣٤٥
فرانسسكو	١٣٥٤ – ١٣٨٨
جاكوبو	١٣٨٨ – ١٤١٠
نيقولو الثاني	١٤١٠ – ١٤١٤

اقطاع سالوني (امفيسا قديما)

توماس الاول	١٢٠٥ – ١٢١٢
توماس الثاني	١٢٥٨
وليم	١٢٧٥
توماس الثالث	١٢٩٤ – ١٣١١

دوقية ناكسوس

١ – بيت سانودو :

ماركو الاول	١٢٠٧ – ١٢٢٧
انجيلو	١٢٢٧ – ١٢٦٢

ماركو الثاني	١٢٦٢ – ١٣٠٣
جوحليلمو الاول	١٣٠٣ – ١٣٢٣
نيقولو الاول	١٣٢٣ – ١٣٤١
جيوفاني الاول	١٣٤١ – ١٣٦١
فيورينزا	١٣٦١ – ١٣٧١
نيقولو الثاني (زوج فيوروينزا)	١٣٦٤ – ١٣٨١
نيقولو الثالث	١٣٧١ – ١٣٨٣

٢ – بيت كريسبو :

فرانسسكو الأول	١٣٨٣ – ١٣٩٧
جياكومو الاول	١٣٩٧ – ١٤١٨
جيوفاني الثاني	١٤١٨ – ١٤٣٧
جيوفاني جياكومو	١٤٤٧
جوجليلمو الثاني	١٤٥٣ – ١٤٦٣
فرانسسكو الثاني	١٤٦٣
جياكوموا الثالث	١٤٦٣ – ١٤٨٠
جيوفاني الثالث	١٤٨٠ – ١٤٩٤
فرانسسكو الثالث	١٤٩٤ – ١٥١٨
جيوفاني الرابع	١٥١٨ – ١٥٦٤
فرانسسكو الرابع	١٥٤٥
جياكومو الرابع	١٥٦٤ – ١٥٦٦

كونتية كيفالونيا

١ - بيت اورسينى :

ماتيو اورسينى	١١٩٤ — ١٢٣٨
ريكاردو	١٢٣٨ — ١٢٧٨
جيوفاني الاول	١٣٠٣ — ١٣١٧
نيقولو	١٣١٧ — ١٣٢٣
جيوناني الثاني (اضاع الكونتية)	١٣٢٤
(احتفظ بابيروس)	١٣٢٣ — ١٣٣٥
نقفور اورسينى (ابيروس)	١٣٣٥ — ١٣٥٨

٢ - بيت توكو :

ليوناردو الاول كونت كيفالونيا	١٣٥٨ — ١٣٨١
كارلو الاول	١٣٨١ — ١٤٣٠
كارلو الثاني	١٤٣٠ — ١٤٤٨
ليوناردو الثاني	١٤٤٨ — ١٤٧٩
انطونيو	١٤٨١ — ١٤٨٣

الاباطرة البيزنطيون منذ سنة ١١٨٧

اسحاق الثاني انجيلوس	١١٨٥ — ١١٩٥
الكسيوس الثالث انجيلوس	١١٩٥ — ١٢٠٣

اسحاق الثاني انجيلوس (للمرة الثانية) والكسيوس الرابع انجيلوس	١٢٠٣ — ١٢٠٤
الكسيوس الخامس مورتسوفلوس	١٢٠٤
ثيودور الاول لاسكاريس	١٢٠٤ — ١٢٢٢
يوحنا الثالث دوكاس فاتاتزيس	١٢٢٢ — ١٢٥٤
ثيودور الثاني لاسكاريس	١٢٥٤ — ١٢٥٨
يوحنا الرابع لاسكاريس	١٢٥٨ — ١٢٦١
ميخائيل الثامن باليولوجوس	١٢٥٩ — ١٢٨٢
اندرونيقوس الثاني باليولوجوس	١٢٨٢ — ١٣٢٨
اندرونيقوس الثالث باليولوجوس	١٣٢٨ — ١٣٤١
يوحنا الخامس باليولوجوس	١٣٤١ — ١٣٩١
يوحنا السادس كونتا كوزينوس	١٣٤٧ — ١٣٥٤
اندرونيقوس الرابع باليولوجوس	١٣٧٦ — ١٣٧٩
يوحنا السابع باليولوجوس	١٣٩٠
مانويل الثاني باليولوجوس	١٣٩١ — ١٤٢٥
يوحنا الثامن باليولوجوس	١٤٢٥ — ١٤٤٨
قنسطنطين الحادي عشر باليولوجوس	١٤٤٩ — ١٤٥٣

بابوات روما منذ ١٠٩٥

ايربان الثاني	١٠٨٨ — ١٠٩٩
باسكال الثاني	١٠٩٩ — ١١١٨
جيلاسيوس الثاني	١١١٨ — ١١١٩
كاليكستوس الثاني	١١١٩ — ١١٢٤

هونوريوس الثاني	١١٢٤ — ١١٣٠
انوسنت الثاني	١١٣٠ — ١١٤٣
اناكليت الثاني	١١٣٠ — ١١٣٨
فيكتور الرابع	١١٣٨
سلستين الثاني	١١٤٣ — ١١٤٤
لوكيوس الثاني	١١٤٤ — ١١٤٥
يوجينيوس الثالث	١١٤٥ — ١١٥٣
انستاسيوس الرابع	١١٥٣ — ١١٥٤
هادريان الرابع	١١٥٤ — ١١٥٩
الاسكندر الثالث	١١٥٩ — ١١٨١
فيكتور الرابع	١١٥٩ — ١١٦٤
باسكال الثالث	١١٦٤ — ١١٦٨
كاليكستوس الثالث	١١٦٨ — ١١٧٩
لوكيوس الثالث	١١٨١ — ١١٨٥
ايربان الثالث	١١٨٥ — ١١٨٧
جريجوري الثامن	١١٨٧
كليمنت الثالث	١١٨٧ — ١١٩١
سلستين الثالث	١١٩١ — ١١٩٨
انوسنت الثالث	١١٩٨ — ١٢١٦
هونوريوس الثالث	١٢١٦ — ١٢٢٧
جريجوري التاسع	١٢٢٧ — ١٢٤١

سلستين الرابع	١٢٤١
انوسنت الرابع	١٢٥٤ — ١٢٤٢
الاسكندر الرابع	١٢٦١ — ١٢٥٤
ايربان الرابع	١١٦٤ — ١٢٦١
كليمنت الرابع	١٢٦٨ — ١٢٦٥
جريجوري العاشر	١٢٧٦ — ١٢٧١
انوسنت الخامس	١٢٧٦
هادريان الخامس	١٢٧٦
يوحنا الحادي والعشرون	١٢٧٧ — ١٢٧٦
نقولا الثالث	١٢٨٠ — ١٢٧٧
مارتن الرابع	١٢٨٥ — ١٢٨١
هونوريوس الرابع	١٢٨٧ — ١٢٨٥
نقولا الرابع	١٢٩٢ — ١٢٨٨
سلستين الخامس	١٢٩٤
بونيفاس الثامن	١٣٠٣ — ١٢٩٤
بنيدكت الحادي عشر	١٣٠٤ — ١٣٠٣
كليمنت الخامس	١٣١٤ — ١٣٠٥
يوحنا الثاني والعشرون	١٣٣٤ — ١٣١٣
بنيدكت الثاني عشر	١٣٤٢ — ١٣٣٤
كليمنت السادس	١٣٥٢ — ١٣٤٢
انوسنت السادس	١٣٦٢ — ١٣٥٢

اربان الخامس	١٣٦٢ — ١٣٧٠
جريجوري الحادي عشر	١٣٧٠ — ١٣٧٨
اربان السادس	١٣٧٨ — ١٣٨٩
بونيفاس التاسع	١٣٨٩ -- ١٤٠٤
انوسنت السابع	١٤٠٤ — ١٤٠٦
جريجوري الثاني عشر	١٤٠٦ — ١٤٠٩
الاسكندر الخامس	١٤٠٩ — ١٤١٠
يوحنا الثاني والعشرون	١٤١٠ — ١٤١٥
مارتن الخامس	١٤١٧ — ١٤٣١
يوجينيوس الرابع	١٤٣١ — ١٤٤٧
نقولا الخامس	١٤٤٧ — ١٤٥٥

اسماء أمراء وملوك ارمينية الصغرى

١ — بيت روبين :

روبين او روبين الاول سيد بارتزربيرد	١٠٨٠ — ١٠٩٥
قنسطنطين الاول امير ارمينية	١٠٩٥ — ١٠٩٩
ثوروس الاول	١١٠٠ — ١١٢٩
ليو الاول	١١٠٠ — ١١٢٩
ثوروس الثاني	١١٤٥ — ١١٦٨

روبين الثاني	١١٦٨ — ١١٧٠
مِلح	١١٧٠ — ١١٧٥
روبين الثالث	١١٧٥ — ١١٨٧
ليو الثاني الكبير ، ملك ارمينية	١١٨٧ — ١٢١٩
ازابيلا تزوجت من فيليب انطاكية	١٢٢٢ — ١٢٢٥

٢ — بيت هيثوم (ولوزجنان) :

هيثوم الاول (الزوج الثاني للملكة ايزابيللا)		١٢٢٦ — ١٢٦٩
ليو الثالث		١٢٦٩ — ١٢٨٩
هيثوم الثاني	١٢٨٩ — ١٢٩٣	١٢٩٩ — ١٣٠١
ثوروس الثالث		١٢٩٣ — ١٢٩٩
سمباد مغتصب		١٢٩٦ — ١٢٩٩
قنسطنطين الثاني		١٢٩٩
ليو الرابع		١٣٠١ — ١٣٠٧
اوشين		١٣٠٨ — ١٣٢٠
ليو الخامس		١٣٢٠ — ١٣٤٢
جاي لوزجنان		١٣٤٢ — ١٣٤٤
قنسطنطين الرابع		١٣٤٤ — ١٣٦٣
قنسطنطين الخامس		١٣٦٥ — ١٣٧٣
ليو السادس لوزجنان		١٣٧٤ — ١٣٧٥

القرمانيون

١٢٥٦ — ١٤٨٣

الاناضول (١)

قرمان بن نورا الصوفي	١٢٥٦
محمد الاول	١٢٦١
بدر الدين محمود	١٢٧٨
برهان الدين موسى	١٣٣٩
فخر الدين احمد	
شمس الدين	١٣٤٩
علاء الدين خليل	١٣٥٢
علاء الدين بن خليل	١٣٨١
السيادة العثمانية	١٣٩٠ — ١٤٠٣
محمد الثاني	١٤٠٣
السيادة المملوكية	١٤١٩ — ١٤٢١
محمد الثاني عودته للحكم	١٤٢١
علاء الدين علي	١٤٢٤
تاج الدين ابراهيم	١٤٢٤
اسحاق بن ابراهيم	١٤٦٣
بير احمد بن ابراهيم	١٤٦٤

(١) عن سلاجقة آسيا الصغرى ، انظر المجلد الثاني ص ٨٤٦ - ٨٤٧ .

بير احمد بالاشتراك مع قاسم	١٤٧٩
قاسم	١٤٧٤ – ١٤٨٣
استيلاء العثمانيين على بلاد القرمانيين	

العثمانيون

١٢٨١

الاناضول – البلقان

عثمان بن ارطغرل	١٢٨١
ارخان	١٣٢٤
مراد الاول	١٣٦٠
بايزيد الاول يلدرم	١٣٨٩
غزوة تيمورلنك	١٤٠٢
محمد الاول	١٤٠٣
سليمان الاول	١٤٠٣
مراد الثاني	١٤٢١
محمد الثاني (الفاتح)	١٤٤٤
مراد الثاني (للمرة الثانية)	١٤٤٦
محمد الثاني (الفاتح) للمرة الثانية	١٤٥١
بايزيد الثاني	١٤٨١
سليم الاول	١٥١٢
سليمان الثاني القانوني	١٥٢٠

خانات المغول

(بيت اوكيتاي وتولوي)

١٢٠٦

منغوليا

جنكيزخان	١٢٠٦
اوكيتاي	١٢٢٧
توراكينا وصية	١٢٤١
كيوك	١٢٤٦
اوغول قيميش وصية	١٢٤٩
مونكو	١٢٥١
قوبيلاي	١٢٦٠
اولجايتو	١٢٩٤
كيولوك	١٣٠٧
بويانتو	١٣١١
كـه كـن	١٣٢٠
يسون تيمور	٢٣ ﻫ١
راجي بقا	١٣٢٨
جياغاتو	١٣٢٨
كويتنالا	١٣٢٩
رينجن بال	١٣٣٢
طوغان تيمور	١٣٣٢ – ١٣٧٠

بيت جغتاي بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية

جغتاي	١٢٢٧
قراهولاكو	١٢٤١
يسّو منكو	١٢٤٧
قراهولاكو للمرة الثانية	١٢٥٢
الكنَو	١٢٦١
مبارك شاه	١٢٦٦
براق خان	١٢٦٦
نيكباي	١٢٨١
توقا تيمور	١٢٧٢
دووا خان	١٢٩١
قونجوق خان	١٣٠٦
تاليقو	١٣٠٨
كِبك خان	١٣٠٩
اسن بغا	١٣٠٩
كِبك خان للمرة الثانية	١٣١٨
ايلجي كداي	١٣٢٦
دووا تيمور	١٣٢٦
علاء الدين ترماشيرين	١٣٢٦
جنكشي (جنكشاي)	١٣٣٤
بوزون	١٣٣٤
اسن تيمور	١٣٣٨

محمد	١٣٤٢
قازان تيمور	١٣٤٣
دانشمندجه	١٣٤٦
بويان قولى	١٣٤٨
شاه تيمور	١٣٥٩
تقلق تيمور	١٣٥٩ – ١٣٧٠

حاز تيمور تلك البلاد

ايلخانات فارس

١٢٥٦ - ١٣٥٣

فـــارس

هولاكو	١٢٥٦
اباقا	١٢٦٥
احمد تكودار	١٢٨٢
ارغون	١٢٨٤
كيختو	١٢٩١
بايدو	١٢٩٥
غازان محمود	١٢٩٥
اولجايتو خدا بنده محمد	١٣٠٤
ابو سعيد بهادر	١٣١٧
اربا كاون (معز الدين)	١٣٣٥
موسى	١٣٣٦

انقسام فارس بين اسرات عديدة امثال الجلائريين والمظفرين والسربداريين (خراسان) . ١٣٣٦ – ١٣٥٣

خانات القبيلة الذهبية

(جوجي)

١٢٢٦

جنوب روسيا وغرب سيبريا

١ – فرع باتو – خانات القبيلة الزرقاء في جنوب روسيا وغرب بلاد القبجاق :

باتو بن جوجي	١٢٢٧
سارتاق	١٢٥٥
اولاغجي	١٢٥٦
بركة بن جوجي	١٢٥٧
منكو تيمور	١٢٦٧
تودا منكو	١٢٨٠
تولا بوغا	١٢٨٧
تقتو ، غياث الدين	١٢٩٠
اوزبك ، غياث الدين محمد	١٣١٢
تيني بك	١٣٤١
جاني بك	١٣٤١
عصر فوضى واضطراب	١٣٥٧ – ١٣٨٠

٢ – فرع أوردا – خانات القبيلة البيضاء في سيبريا وشرقي بلاد القبجاق ثم اتحدت القبيلتان الزرقاء والبيضاء في القبيلة الذهبية في جنوب روسيا ، بعد ١٣٧٨ :

اوردا بن جوجي	١٢٢٦
قوجي	١٢٨٠
بايان	١٣٠٢
سامي بوقا	١٣٠٩
إيسان	١٣١٥
مبارك خواجه	١٣٢٠
جمتاي	١٣٤٤
اوروس	١٣٦١
توقتاكيه	١٣٧٥
تيمور ملك	١٣٧٥
غياث الدين تقتاميش	١٣٧٦
تيمور قتلغ	١٣٩٥
شادي بك	١٤٠١
بولاد	١٤٠٧
تيمور	١٤١٠
جلال الدين	١٤١٢
كبك	١٤١٤
جبار بردى	١٤١٧
اولغ محمد	١٤١٩

دووا بردی	١٤٢٠
اولغ محمد (للمرة الثانية)	١٤٢٧
سيد احمد	١٤٣٣
كوجك محمد	١٤٣٥
احمد	١٤٦٥
شيخ احمد	١٤٨١

الايوبيون

١ – في مصر :

الملك الناصر صلاح الدين	١١٦٩
العزيز عثمان	١١٩٣
العادل	١٢٠٠
الكامل	١٢١٨
العادل الثاني	١٢٣٨
الصالح نجم الدين ايوب	١٢٤٠
المعظم توران شاه	١٢٤٩
الأشرف موسى (الثاني)	١٢٥٠ – ١٢٥٢

عزله ايبك التركماني

٢ – في دمشق :

الأفضل علي	١١٨٦
العادل	١١٩٦

المعظم عيسى	١٢١٨
الناصر داود	١٢٢٧
الأشرف موسى (الاول)	١٢٢٩
الصالح اسماعيل	١٢٣٧
الكامل	١٢٣٨
العادل الثاني	١٢٣٨
الصالح نجم الدين أيوب	١٢٣٩
الصالح اسماعيل (للمرة الثانية)	١٢٣٩
الصالح نجم الدين ايوب (للمرة الثانية)	١٢٤٥
المعظم توران شاه	١٢٤٩
الناصر صلاه الدين يوسف	١٢٥٠ — ١٢٦٠

الغزو المغولي

٣ – حلب :

العادل	١١٨٣
الظاهر غازي	١١٨٦
العزيز	١٢١٦
الناصر صلاح الدين يوسف	١٢٣٧ — ١٢٦٠

الغزو المغولي

٤ – دياربكر (ميافارتين وجبل سنجار) :

صلاح الدين	١١٨٥
العادل	١١٩٥

الاوحد نجم الدين ايوب	١٢٠٠
الأشرف موسى (الاول)	١٢١٠
المظفر شهاب الدين	١٢٢٠
الكامل الثاني نصر الدين	١٢٤٤ – ١٢٦٠

الغزو المغولي

٥ – ديار بكر (حصن كيفا وآمد) :

الصالح نجم الدين ايوب	١٢٣٢
المعظم توران شاه	١٢٣٩
الموحد تقي الدين	١٢٤٩
الكامل الثالث محمد	١٢٨٣
العادل مجير الدين	
العادل شهاب الدين غازي	
الصالح ابو بكر بن غازي	
العادل فخر الدين بن غازي	١٣٧٨
الأشرف شرف الدين	؟
الصالح صلاح الدين	١٤٣٣
الكامل الرابع احمد	١٤٥٢
العادل خلف بن محمد	
خليل	١٤٦٢
سليمان بن خليل	؟
الحسين بن خليل	؟

٦ – حماه :

المظفر الاول تقي الدين	١١٧٨
المنصور الاول ناصر الدين	١١٩١
الناصر صلاح الدين قلج ارسلان	١٢٢٠
المظفر الثاني تقي الدين	١٢٢٨
المنصور الثاني سيف الدين	١٢٤٤
المظفر الثالث تقي الدين	١٢٨٤
الصالح المؤيد عماد الدين ابو الفدا اسماعيل	١٣١٠
الأفضل محمد بن اسماعيل	١٣٣١

٧ – حمص :

ناصر الدين محمد بن شيركوه	١١٧٨
المجاهد صلاح الدين شيركوه (الثاني)	١١٨٥
ناصر الدين ابراهيم بن شيركوه (الثاني)	١٢١٩
الأشرف موسى (الثاني)	١٢٤٦
استولى بيبرس على حمص	١٢٦٢

٨ – بعلبك :

توران شاه (الاول) بن ايوب	١١٧٢
فروخشاه داود بن هاهنشاه (الاول)	١١٧٩
الأمجد مجد الدين بهرام بن داود	١١٨٢

الأشرف الاول (صاحب دمشق)	١٢٢٩
الصالح اسماعيل	١٢٣٧
الصالح ايوب	١٢٤٥
توران شاه الرابع	١٢٤٩
الناصر يوسف	١٢٥٠

٩ – الكرك :

العادل الاول	١١٨٨
المعظم عيسى	١١٩٥
الناصر صلاح الدين داود	١٢٢٦
المغيث بن عمر بن العادل الثاني	١٢٣٩
استولى بيبرس على الكرك	١٢٦٢

المماليك

١ – المماليك البحرية :

شجر الدر	١٢٥٠
المعز ، عز الدين ايبك	١٢٥٠
المنصور نور الدين علي بن ايبك	١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	١٢٦٠
السعيد بركة بن بيبرس	١٢٧٩

سلامش بن بيبرس	١٢٧٩
سيف الدين قلاون	١٢٨٠
خليل بن قلاون	١٢٩٠
الناصر محمد بن قلاون	١٢٩٤
العادل كتبغا	١٢٩٥
حسام الدين لاجين	١٢٩٧
الناصر محمد بن قلاون (للمرة الثانية)	١٢٩٩
ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير	١٣٠٩
الناصر محمد بن قلاون (للمرة الثالثة)	١٣٠٩
سيف الدين ابو بكر محمد بن قلاون	١٣٤٠
علاء الدين كجك	١٣٤١
شهاب الدين احمد	١٣٤٢
عماد الدين اسماعيل	١٣٤٢
سيف الدين شعبان	١٣٤٥
ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤٧
صلاح الدين صالح بن الناصر بن قلاون	١٣٥١
ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاون (للمرة الثانية)	١٣٥٤
صلاح الدين محمد بن حاجي بن قلاون	١٣٦١
ناصر الدين شعبان	١٣٦٣
علاء الدين علي بن شعبان	١٣٧٦
صلاح الدين حاجي بن شعبان	١٣٨١
سيف الدين برقوق (من البرجية)	١٣٨٢
حاجي الثاني	١٣٨٩

٢ – المماليك البرجية :

سيف الدين قلاون	١٣٨٢
حاجي بن شعبان	١٣٨٩
برقوق للمرة الثانية	١٣٩٠
فرح بن برقوق	١٣٩٩
عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥
فرح بن برقوق للمرة الثانية	١٤٠٥
الخليفة المستعين العباسي	١٤١٢
المؤيد شيخ	١٤١٢
احمد بن شيخ	١٤٢١
ططر	١٤٢١
محمد بن ططر	١٤٢١
الاشرف برسباي	١٤٢٢
يوسف بن برسباي	١٤٣٧
جقمق	١٤٣٨
عثمان بن جقمق	١٤٥٣
اينال	١٤٥٣
احمد بن اينال	١٤٦٠
خشقدم	١٤٦٠
بلباي المؤيدي	١٤٦٧
تمربغا	١٤٦٨
الاشرف قايتباي	١٤٦٨

محمد بن قايتباي	١٤٩٦
قانصوه خمسمائة	١٤٩٧
محمد بن قايتباي للمرة الثانية	١٤٩٧
قانصوه الاشرفي	١٤٩٨
جانبلاط	١٥٠٠
طومان باي الاول	١٥٠١
قانصوه الغوري	١٥٠١
طومان باي التالي	١٥١٦ – ١٥١٧
الفتح العثماني	

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

ملحوظة ـ ليست هذه القائمة سوى ملحق لما ورد في المجلدين الاول والثاني ، من المصادر والمراجع ، فلا تحوى ما جاء بهما من مؤلفات الا عند استخدام طبعات تختلف عن الواردة بهما . وجرى ايضا اثبات ما بهما من رموز ، اما الرموز الاضافية القليلة المثبتة في الحواشي وقائمة المصادر والمراجع بهذا المجلد (الثالث) ، فقد جرى الحاقها بما يتصل بها من المؤلفات .

اولا ـ مصادر اصلية

١ ـ مجموعات المصادر

Acta Imperii Selecta (ed. J. F. Bohmer). Innsbruck, 1870.

Annales Monastici (ed. H. R. Luard), Rolls Series, 5 vols. London, 1864–9.

BALUZIUS, S. *Collectio Veterum Monumentorum*, 6 vols. Paris, 1678–1715.

BALUZIUS, S., *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), 4 vols. Paris, 1914–27.

BARTHOLOMAEIS, V. DE. *Poesie Provenziale Storiche relative all' Italia.* Instituto Storico Italiano, Rome, 1931.

BONGARS, J. *Gesta Dei per Francos*, 2 vols. Hanover, 1611.

Chronicles: Stephen, Henry II and Richard I (ed. Howlett), Rolls Series, 4 vols. London, 1885–90.

CHROUST, A. *Quellen sur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, M.G.H.Ss.*, new series. Berlin, 1928.

COBHAM, C. D. *Excerpta Cypria.* Cambridge, 1908.

COTELERIUS, J. B. *Ecclesiae Graecae Monumenta*, 4 vols. Paris, 1677–92.

DELAVILLE LE ROULX, G. *Cartulaire générale de l'Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1894–1904.

DU CHESNE, A. *Historiae Francorum Scriptores*, 5 vols. Paris, 1636–49.

GOLUBOVICH, G. *Biblioteca Bio-bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Francescano*, 5 vols. Florence, 1906–27.

HEISENBERG, A. *Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaisertums.* Munich, 1923.

Historia Diplomatica Friderici Secundi (ed. J. L. A. Huillard-Breholles), 6 vols. Paris, 1852–61.

KOHLER, C., *Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latin et des Croisades.* Paris, 1906.

MARTENE, E. and DURAND, U. *Thesaurus Novus Anecdotorum*, 5 vols. Paris, 1717.

MARTENE, E. and DURAND, U. *Veterum Scriptorum et Monumentorum Amplissima Collectio*, 9 vols. Paris, 1727–33.

المصادر والمراجع

MAS LATRIE, L. DE. *Documents, see* Bibliography II.

MAS LATRIE, L. DE. *Nouvelles Preuves de l'Histoire de Chypre*, in *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, vols. XXXII, XXXIV and XXXV. Paris, 1871–4.

POTTHAST, A. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2 vols. Berlin, 1874–5.

RAYNALDUS, O. *Annales Ecclesiastici*, 15 vols. Lucca, 1747–56.

Regesta Honorii Papae III (ed. P. Pressutti), 2 vols. Rome, 1188–95.

Regestum Innocentii Papae super Negotio Romani Imperii (ed. F. Kempf), *Miscellanea Historiae Pontificiae*, vol. XII. Rome, 1947.

Registres des Papes, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris:

Alexander IV, (ed. Bourel de la Roncière), 2 vols. 1902, 1917.

Gregory IX (ed. Auvray), 2 vols. 1896, 1907.

Gregory X (ed. Guiraud), 2 vols. 1892, 1906.

Innocent IV (ed. Berger), 4 vols. 1884–1921.

Nicholas III (ed. Gay and Vitte), 2 vols. 1898, 1938.

Nicholas IV (ed. Langlois), 2 vols. 1886, 1905.

Urban IV (ed. Guiraud), 4 vols. 1892–1929.

RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877–8.

RÖHRICHT, R. *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, Société de l'Orient Latin. Série Historique, II. Geneva, 1879. (Röhricht, *S.M.Q.B.S.*).

RÖHRICHT, R. *Testimonia Minora de Quinto Bello Sacro*, ibid. III. Geneva, 1882.

RYMER, T. *Foedera, Conventiones, Literae et Acta publica inter Reges Angliae*, 4 vols. in 7. London, 1816–69.

SCHWANDTNER, J. G. *Scriptores Rerum Hungaricarum*, 3 vols. Vienna, 1746–8.

STREHLKE, E. *Tabulae Ordinis Teutonici*. Berlin, 1869.

TAFEL, G. L. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856–7.

THEINER, A. *Vetera Monumenta Historica Hungariam Sacram Illustrantia*, 2 vols. Rome, 1859–60.

WATTERICH, J. M. *Pontificum Romanorum qui fuerunt inde ab exeunte saeculo IX usque ad finem saeculi XII Vitae*, 2 vols. Leipsic, 1862.

WINKELMANN, E. *Acta Imperii Inedita Saeculi XIII*, 2 vols. Innsbruck, 1880–5.

٢ – مصادر غربية مؤلفة باللغـــات اللاتينية والفرنسية القديمة ، والالمانية .

Adam, William. *De Modo Saracenos Extirpandi* (ed. Kohler), *R.H.C. Arm.* vol. II.

Alberic of Trois Fontaines. *Chronicon*, in *R.H.F.* vol. XVIII.

Amadi, Francesco. *Chroniques d'Amadi et de Strambaldi*, ed. Mas Latrie. Paris, 1891.

Annales Claustroneoburgenses, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.

Annales de Dunstaplia, in *Annales Monastici*, vol. III.

المصادر والمراجع

Annales Januenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.

Annales Marbacenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVII.

Annales Romani, in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae.*

Annales Stadenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.

Anonymus Halberstadensis. *De Peregrinatione in Greciam*, in Riant, *Exuviae*, vol. I.

Ansbert. *Expeditio Friderici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen.*

Assises of Romania (ed. Recoura). Paris, 1930.

Auria, Jacobus. *Annales*, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.

Bacon, Roger. *Opus Majus*, (ed. Bridges), 3 vols. *Oxford*, 1900.

Baldwin I, Emperor of Constantinople, letter, in *R.H.F.* vol. XVIII.

Bartholomew of Neocastro. *Historia Sicula*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, vol. XIII, 3.

Bonomel, Ricaud. Poems, in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale.*

Bruno, Bishop of Olmutz, *Bericht* (ed. Höfler), *Abhandlungen der historische Klasse der Bayerische Akademie der Wissenschaft*, series 3, IV, Munich, 1846.

Burcard (Brochard). *Directorium ad Philippum Regem*, in *R.H.C. Arm*, vol. II.

Chronica Regia Coloniensis (ed. Waitz), *M.G.H.Ss. in usum scholarum*, 1880.

Chronicle of Mailros (ed. Stevenson). London, 1856.

Collectio de Scandalis Ecclesiae (ed. Stroick), in *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. XXIV, Rome, 1931.

Cotton, Bartholomew, *Historia Anglicana* (ed. Luard), Rolls Series. London, 1859.

Dardel, John. *Chronique d'Arménie*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.

De Excidio Urbis Acconis, in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol. V.

De Itinere Frisonum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

Devastatio Constantinopolitana, in *Annales Herpipolenses*, *M.G.H.Ss.*, vol. XVI.

Dubois, Peter. *De Recuperatione Terre Sancte* (ed. Langlois). Paris, 1891.

Durand, William. *Informatio brevis de Passagio futuro* (ed. Viollet), *Histoire Litteraire de la France*, vol. XXXV. Paris, 1921.

Edward I, King of England. Letter to Joseph of Chauncy, in *P.P.T.S.* vol. V.

Epistola de Morte Friderici Imperatoris, in Chroust, *Quellen.*

Epistolas Cantuarenses (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1865.

Fabri, Felix. *Book of the Wanderings*, trans. Stewart, 3 vols. *P.P.T.S.* vols. VII–IX.

Fidenzio of Padua. *Liber Recuperationis Terrae Sanctae*, in Golubovich, *Biblioteca Bio-bibliografica*, vol. II.

Figuem, Guillem, 'Dun Servientes Fat', in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale.*

Fragmentum de Captione Damiate, Provencialis textus, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

Frederick II, Emperor. Letter to King Henry, in Bohmer, *Acta Imperii Selecta.*

Galvano: *Liber Sancti Passagii Christocolarum contra Saracenos*, extracts (ed. Kohler), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. VI. Paris, 1898.

Gesta Crucigerorum Rhenanorum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

المصادر والمراجع

Gesta Innocentii III, in *M.P.L.* vol. CCXIV.
Gesta Obsidionis Damiete, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Gestes des Chiprois (ed. Raynaud). Geneva, 1887.
Gregory IX, Pope. Letters, in *M.G.H. Epistolae Saeculi*, XIII, vol. I.
Gunther of Pairis. *Historia Constantinopolitana*, in Riant, *Exuviae*, vol. I.
Guyot of Provins. *Œuvres* (ed. Orr). Manchester, 1915.
Haymar Monachus. *De Expugnata Accone* (ed. Riant). Lyons, 1876.
Hayton (Hethoum). *Flos Historiarum Terre Orientis*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
Hayton (Hethoum). *La Flor des Estoire de la Terre d'Orient*, *ibid.*
Henry II, King of Cyprus. *Informatio ex parte Nunciorum Regis Cypri*, in Mas Latrie, *Documents.*
Historia Peregrinorum, in Chroust, *Quellen.*
Humbert of Romans. *Opus Tripartitum*, in E. Brown, *Appendix ad fasciculum rerum expetendarum et fugiendarum.* London, 1690.
Innocent III, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vols. CCXIV–CCXVII.
John of Ypres. *Chronicon Sythiense Sancti Bertini*, in Martène and Durand *Thesaurus Anecdotorum*, vol. III.
John of Tulbia. *De Domino Johanne Rege Jerusalem*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Joinville, John, Sieur of. *Histoire de Saint Louis* (ed. Wailly). Paris, 1874.
Joseph of Chauncy. Letter to Edward I, in *P.P.T.S.* vol. V.
La Broquière, Bertrandon of. *Voyage d'Outremer* (ed. Schefer). Paris, 1892.
Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou (ed. Delaborde), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1894.
Liber Duellii Christiani in Obsidione Damiate exacti, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Louis IX, King of France. Letter in Baluzius, *Collectio.* vol. IV.
Ludolph of Suchem (Sudheim). *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XII.
Lull, Ramon. *Liber de Fine*, in Gottron, *Ramon Lulls Kreuzzugsideen*, see Bibliography II.
Machaut, William. *La Prise d'Alexandrie* (ed. Mas Latrie). Geneva, 1877.
Manuscrit de Rothelin, in *R.H.C. Occ.* vol. II.
Matthew Paris. *Chronica Majora* (ed. Luard), Roll Society, 7 vols. London, 1872–84.
Matthew Paris. *Historia Minora* (ed. Madden), Rolls Society, 3 vols. London, 1866–9.
Matthew of Westminster. *Flores Historiarum* (ed. Luard), Rolls Society, 3 vols. London, 1890.
Memoria Terre Sancte, in Kohler, *Mélanges*, vol. II.
Molay, James of. Report to Clement V, in Baluzius, *Vitae Paparum*, vol. III.
Muntaner, Ramon. *Cronica* (ed. Caroleu). *Barcelona*, 1886.
Narratio Itineris Navalis ad Terram Sanctam (ed. da Silva Lopez). Lisbon, 1844.

Oliver Scholasticus. *Opera*, I. *Historia Damiatana*; II. *Epistolae* (*ed. Hooeweg*), *Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart*, vol. CCII. Tübingen, 1894.
Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss. in usum Scholarum*, 1912.
Philip of Novara. *Le Livre de Forme de Plait*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.
Philip of Novara. *Mémoires*, in *Gestes des Chiprois* (English translation by La Monte and Hubert, *The Wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus*. New York, 1936).
Pian del Carpine, John. *Historia Mongalorum* (ed. Pulle). Florence, 1913.
Richard of Devizes. *De Rebus Gestis Ricardi Primi*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. III.
Richard of San Germano, *Chronicon* (ed. Pertz), *M.G.H.Ss.* vol. XIX.
Rigord. *Gesta Philippi Augusti* (ed. Delaborde). Paris, 1882.
Robert de Monte (appendix), in *R.H.F.* vol. XVIII.
Robert of Clary. *La Conquête de Constantinople* (ed. Lauer). Paris, 1924.
Roger of Wendover. *Chronica* (ed. Hewlett), Rolls Series, 3 vols. London, 1886–9.
Rutebeuf. *Onze Poèmes concernant la Croisade* (ed. Bastin and Faral). Paris, 1946.
Salimbene de Adam. *Cronica* (ed. Holder-Egger), in *M.G.H.Ss.* vol. XXXII.
Sanudo, Marino. *Liber Secretorum Fidelium Crucis*, in Bongars, *Gesta Dei per Francos*, vol. II.
Sequentia Andegavensis, in Riant, *Exuviae*, vol. I.
Sicard of Cremona. *Cronica* (ed. Holder-Egger), *M.G.H.Ss.* vol. XXXI.
'Templar of Tyre.' *Chronique*, in *Gestes des Chiprois*.
Thaddeus of Naples. *Hystoria de Desolacione et Conculcacione Civitatis Acconensis et tocius terre sancte* (ed. Riant). Geneva, 1873.
Thomas of Spalato. *Historia Salonitana*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. III.
Thwrocz, Joannes de. *Illustrissima Hungariae Regum Chronica*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. I.
Via ad Terram Sanctam, in Kohler, *Mélanges*, vol. II.
Villaret, Fulk. *Mémoire* (ed. Petit), *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*. Paris, 1889.
Villehardouin, Geoffrey of. *La Conquête de Constantinople* (ed. Faral), 2 vols. Paris, 1938–9.
Vincent of Beauvais. *Speculum Historiale*. Douais, 1624.
Vitry, James of. *Epistolae* (ed. Röhricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, vols. XIV-XVI. Gotha, 1894–6.
Vitry, James of. *History of Jerusalem* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XI.
Wilbrand of Oldenburg. *Reise* (ed. Laurent). Hamburg, 1859.
William le Breton. *Gesta Philippi Regis* and *Philippis* (ed. Delaborde), 2 vols. Paris, 1882, 1885.

William of Newburgh. *Historia Rerum Anglicarum*, in *Chronicles* (ed. Howlett) vol. II.
William of Rubruck (Rubruquis). *Itinerarium* (trans. Rockhill), Hakluyt Society, series II, vol. IV. London, 1900.
William of St Pathus. *Vie de Saint Louis* (ed. Delaborde). Paris, 1899.
William of Tripoli. *Tractatus de Statu Saracenorum*, in Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge* (see Bibliography II).
Zaccaria, Benito. *Mémoire*, in Mas Latrie, *Documents*.

٣ – مصادر يونانية

Acropolita, George. *Opera* (ed. Heisenberg). Leipsic, 1903.
Germanus, Patriarch of Constantinople, Ἐπιστολαί, in Sathas, Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη, vol. II.
Letter of Greek clergy to Innocent III, in Cotelerius, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, vol. III.
Makhaeras, Leontius. *Recital concerning the sweet Land of Cyprus, entitled Chronicle* (ed. with translation Dawkins), 2 vols. Oxford, 1932.
Mesarites, Nicholas. *Opera*, in Heisenberg, *Neue Quellen*.
'Narrative of the thirteen holy fathers burnt by the Latins', in Sathas, Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη, vol. II.
Pachymer, George. *De Michaele et Andronico Palaeologis*, 2 vols. *C.S.H.B.* Bonn, 1835.

٤ – مصادر عربية وفارسية

al-Aini. *Perles d'Histoire*, extracts in *R.H.C.Or.* vol. II, 2.
Dimashki. *Geography* (ed. Mehren). St Petersburg, 1866.
History of the Patriarchs of Alexandria, extracts (trans. Blochet), *Revue de l'Orient Latin*, vol. XI. Paris, 1908.
Ibn al-Amid. *Chronicle* (ed. Cheikho), *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. III, 1.
Ibn Batuta. *Voyages* (ed. with French translation Defremery and Sanguinetti), 4 vols. Paris, 1879.
Ibn Bibi. *History of the Seldjuks*, Turkish translation (ed. Houtsma), *Textes relatifs à l'histoire des Seldjouqides*, vols. III, IV. Paris, 1902.
Ibn al-Furad. *Chronicle* (part ed. Zouraiq). Beirut, 1935–7.
Ibn Shedad. *Geography*, extracts (ed. by Cahen), in *Revue des Etudes Islamiques*. Paris, 1936.
Ibn Wasil. *History of the Ayubites*, selections in Reinaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.
Idrisi. *Geography*, ed. Gildemeister, *Zeitschrift für Deutsche Palästina Verein*, vol. VIII. Leipsic, 1885.

Al-Jazari. *Chronique de Damas* (trans. Sauvaget). Paris, 1949.

Juwaini, Sa'd ad-Din Ibn Hamawiya, extracts (trans. Cahen), 'Une Source pour l'Histoire des Croisades', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 28e année, no. 7, 1950.

Maqrisi. *Histoire des Sultans Mamelouks*, (trad. Quatremère), 2 vols. Paris, 1837–45.

Muhi ad-Din Ibn Abdazzahir. *Lives of Baibars and Qalawun*, selections in Reynaud, *Extraits* in Michaud, *Bibliothèque*.

Rashid ad-Din. *History of the Mongols* (Russian trans. by Berezin), 4 vols. St Petersburg, 1861–88: Part IV, *History of the Mongols of Persia*, (ed. with French translation Quatremère). Paris, 1836.

Yakut. *Alphabetical Dictionary of Geography* (ed. Wustenfeld), 6 vols. Leipsic, 1866–73.

5. A ٥ – مصادر أرمنية ، وسريانية ، وسلافية ومغولية

Ballad on the captivity of Leo, son of King Hethoum I, in *R.H.C.Arm.*, vol. I.

Hayton (Hethoum of Corycus). *Chronological Tables*, in *R.H.C.Arm.*, vol. I.

Hethoum II, King of Armenia, *Poem*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.

Kirakos of Gantzag. *History* (trans. Brosset). St Petersburg, 1870.

Orbelian, Stephen. *History of Siunia*, Armenian text. Moscow, 1861.

Vartan. *History of the World*, Armenian text. Moscow, 1861.

Rabban Sauma. *History of Rabban Sawma and Mar Yahbhallaha* (trans. Budge), in Budge, *The Monks of Khublai Khan*, see Bibliography II.

Novgorod Chronicle (*Novgorodskaya Pervaya Lietopis*, ed. Nasonov), Academy of Sciences of the U.S.S.R. Moscow/Leningrad, 1950.

Histoire Secrète des Mongols (*Yuan Tch'ao Pi Che*), Mongol text transcribed in Latin letters, with partial French translation and ed. Pelliot. Paris, 1949.

ثانيا – مراجع حديثة

ALPHANDERY, P. 'Les Croisades d'Enfants', in *Revue de l'Histoire des Réligions*, vol. LXXIII. Paris, 1916.

AMARI, M. *La Guerra del Vespro Siciliano*, 3 vols. Milan, 1886.

ATIYA, A. S. *The Crusade in the Later Middle Ages*. London, 1938.

ATIYA, A. S. *The Crusade of Nicopolis*. London, 1934.

BALTRUŠAITIS, J. *Le Problème de l'Ogive et l'Arménie*. Paris, 1936.

BARTHOLD, W. Articles, 'Cingis Khan' and 'Khwaresm', in *Encyclopaedia of Islam*.

BOASE, T. S. R. 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute*, vol. II. London, 1938–9.

BOUVAT, L. *L'Empire Mongol, 2me Phase*, vol. VIII, 3, pt. II of Cavaignac, *Histoire du Monde*. Paris, 1927.

المصادر والمراجع

BRATIANU, G. I. *Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au XIIIe. Siècle*. Paris, 1929.

BRETSCHNEIDER, E. *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, 2 vols. London, 1888.

BUCHTHAL, H. 'The Painting of Syrian Jacobites in its relation to Byzantine and Islamic Art', in *Syria*, vol. xx. Beyrouth, 1929.

BUDGE, E. A. W. *The Monks of Ḳûblâi Khân, Emperor of China*. London, 1928.

CAHEN, C. 'Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III, Orient Latin et Commeree du Levant', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 9e annee, no. 8, 1951.

CAHEN, C. 'Turcomans de Roum', in *Byzantion*, vol. XIV. Brussels, 1939.

CARTELLIERI, A. *Philipp II August und der Zusammenbruch des angevinischen Reiches*, Leipsic, 1913.

CHABOT, J. B. 'Rélations du Roi Argoun avec l'Occident', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1894.

CHAYTOR, H. J. *The Troubadours*. Cambridge, 1912.

CLAPHAM, A. W. *Romanesque Architecture in Western Europe*. Oxford, 1936.

COGNASSO, F. *Un Imperatore Bizantino della Decadenza*, in *Bessarione*, vol. XXXI, Rome, 1915.

DALTON, O. M. *Byzantine Art and Archaeology*. Oxford, 1911.

DALTON, O. M. *East Christian Art*. Oxford, 1925.

DELAVILLE LA ROULX, J. *La France en Orient au XIVe Siècle*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris, 1886.

DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass. 1945.

DESCHAMPS, P. *La Défense du Royaume de Jérusalem*, 2 vols. Paris, 1939.

DESCHAMPS, P. *Le Crac des Chevaliers*, 2 vols. Paris, 1934.

DIEHL, C. *Une République Patricienne, Venise*. Paris, 1915.

D'OHSSON, M. *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'à Timur Béc*. 2 vols. Amsterdam, 1834–5.

DONOVAN, J. P. *Pelagius and the Fifth Crusade*. Philadelphia, 1950.

DUCKWORTH, H. T. F. *The Church of the Holy Sepulchre*. London, 1922.

EBERSOLT, J. *Monuments d'Architecture Byzantine*. Paris, 1934.

EDWARDS, J. G. 'The *Itinerarium Regis Ricardi* and the *Estoire de la Guerre Sainte*', in *Essays in honour of James Tait*. Manchester, 1933.

ENLART, C. *Les Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1925.

FEDDEN, R. *Crusader Castles*. London, 1950.

FLICHE, A. *La Chrétienté Romaine*, vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1950.

FOREVILLE, R. and ROUSSET DE PINA, J. *Du Premier Concile du Latran à l'Avènement d'Innocent III*, vol. IX, 2, of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1952.

المصادر والمراجع

GIBBONS, H. A. *The Foundation of the Ottoman Empire.* Oxford, 1916.

GOTTRON, A. 'Ramon Lulls Kreuzzugsideen', in *Abhandlungen zur Mittleren und Neueren Geschichte*, vol. XXXIX. Berlin/Leipsic, 1912.

GREGOIRE, H. 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', in *Byzantion*, vol. XV. Boston, 1941.

GREKOV, B. and IAKOUBOVSKI, A. *La Horde d'Or* (trans. into French by Thuret). Paris, 1939.

GREVEN, J. 'Frankreich und der Funfte Kreuzzug', in *Historisches Jahrbuch*, vol. XLII. Munich, 1923.

GROUSSET, R. *L'Empire des Steppes.* Paris, 1941.

GROUSSET, R. *L'Empire Mongol, Ière Phase*, vol. VIII, 3, of Cavaignac, *Histoire du Monde.* Paris, 1941.

HAENISCH, E. 'Die Letzen Feldzüge Cingis Han's und sein Tod', in *Asia Major*, vol. IX. Leipsic, 1932.

HALECKI, O. *The Crusade of Varna.* New York, 1943.

HAMMER-PURGSTALL, J. VON. *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. into French by Hellert), 18 vols. Paris, 1843.

HILL, G. *History of Cyprus*, vols. II and III. Cambridge, 1948.

HOPF, K. *Geschichte Griechenlands vom Beginne des Mittelaltes bis auf die neuere Zeit*, Leipsic, 1867.

HOWORTH, H. H. *History of the Mongols*, 5 vols. London, 1876–88

IORGA, N. *Philippe de Mezières et la Croisade au XIVe Siècle.* Paris, 1896.

JORDAN, E. *Les Origines de la Domination Angévine en Italie.* Paris, 1909.

KANTOROWICZ, E. *Frederick the Second.* London, 1931.

KARAMZIN, N. M. *History of the Russian Empire* (in Russian), 3 vols. St Petersburg, 1851.

KINGSFORD, C. L. 'Otho de Grandison', in *Transactions of the Royal Historical Society*, 3rd series, vol. III. London, 1909.

KÖPRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman.* Paris, 1935.

LA MONTE, J. L. 'John d'Ibelin', in *Byzantion*, vol. XII. Brussels, 1937.

LANGLOIS, C. V. *La Vie en France au Moyen Age*, 3 vols. Paris, 1927.

LECLERC, L. *La Medecine Arabe.* Paris, 1876.

LEVIS-MIREPOIX, DUC DE. *Philippe le Bel.* Paris, 1936.

LEVY, R. *A Baghdad Chronicle.* Cambridge, 1929.

LIZERAND, G. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers.* Paris, 1928.

LONGNON, J. *L'Empire Latin de Constantinople.* Paris, 1949.

LONGNON, J. *Les Français d'Outre-mer au Moyen Age.* Paris, 1929.

LUCHAIRE, A. *Innocent III: La Question d'Orient.* Paris, 1911.

MAKHOULY, N. *Guide to Acre.* Jerusalem, 1941.

MARTIN, E. J. *The Trial of the Templars.* London, 1928.

MARTIN, H. D. *The Rise of Chingis Khan and his Conquest of North China.* Baltimore, 1950.

MAS LATRIE, L. *Histoire de l'Ile de Chypre sous le Règne de la Maison de Lusignan*, vol. I, *Histoire*; Vols. II and III, *Documents*. Paris, 1852–61.
MELVIN, M.. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.
MUNRO, D. C. 'The Children's Crusade', in *American Historical Review*, vol. XIX. New York, 1914.
NORGATE, K. *Richard the Lion Heart*. London, 1924.
NORGATE, K. 'The *Itinerarium Peregrinorum* and the *Song of Ambroise*', in *English Historical Review*, vol. XXV, London, 1910.
OMONT, H. 'Peintures d'un Evangélaire Syriaque', in *Monuments et Mémoires publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, vol. XIX. Paris, 1911.
PELLIOT, P. 'Chrétiens d'Asie Centrale et de l'Extrême Orient', in *T'oung Pao*, vol. XI. Leiden, 1914.
PELLIOT, P. 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vols. XXIII, XXIV, XXVIII. Paris, 1922–32.
PIQUET, J. *Les Banquiers du Moyen Ages: Les Templiers*. Paris, 1939.
POWICKE, F. M. *King Henry III and the Lord Edward*, 2 vols. Oxford, 1947.
PRAWER, J. 'Etude de Quelques Problèmes Agraires et Sociaux d'une Seigneurie Croisée au XIIIe Siècle', in *Byzantion*, vol. XXII. Brussels, 1952.
PRAWER, J. 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre', in *Revue Historique de Droit Français et Etranger*. Paris, 1951.
PRUTZ, H. G. *Kaiser Friedrich I*, 3 vols. Danzig, 1871–4.
PRUTZ, H. G. *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1883.
REY, E. G. *Les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre*. Paris, 1871.
RÖHRICHT, R. 'Der Kinderkreuzzug 1212', in *Historische Zeitschrift*, vol. XXXVI. Munich, 1876.
RÖHRICHT, R. *Etudes sur les Dernier Temps du Royaume de Jerusalem, Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.
RÖHRICHT, R. *Studien sur Geschichte des Fünften Kreuzzüges*. Innsbruck, 1891.
SACERDOTEANU, A. *Marea Invazie Tatara si Sud-estul European*. Bucarest, 1933.
SCHLUMBERGER, G. *Byzance et Croisades: Pages Mediévales*. Paris, 1927.
SMAIL, R. C. 'Crusaders' Castles in the Twelfth Century', in *Cambridge Historical Journal*, vol. X, 2. Cambridge, 1951.
SOBERNHEIM, M. Article 'Baibars' in *Encyclopaedia of Islam*.
STERNFELD, R. *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis 1270*. Berlin, 1896.
STRAKOSCH-GROSSMANN, G. *Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242*. Innsbruck, 1893.
THROOP, P. A. 'Criticism of Papal Crusade Policy in Old French and Provençal', in *Speculum*, vol. XIII. Cambridge, Mass., 1938.
THROOP, P. A. *Criticism of the Crusades*. Amsterdam, 1940.
VAN ORTROY, F. 'Saint François et son Voyage en Orient', in *Analecta Bollandiana*, vol. XXXI. Brussels, 1912.

VASILIEV, A. A. *History of the Byzantine Empire*, new edition. Madison, 1952.

VASILIEV, A. A. 'The Foundation of the Empire of Trebizond', in *Speculum*, vol. XI. Cambridge, Mass., 1936.

VERNADSKY, G. *Kievan Russia*, vol. II of Ven adsky and Karpovitch, *History of Russia*. Newhaven, 1948.

WINKELMANN, E. *Kaiser Freidrich II*, 2 vols. Leipsic, 1889–97.

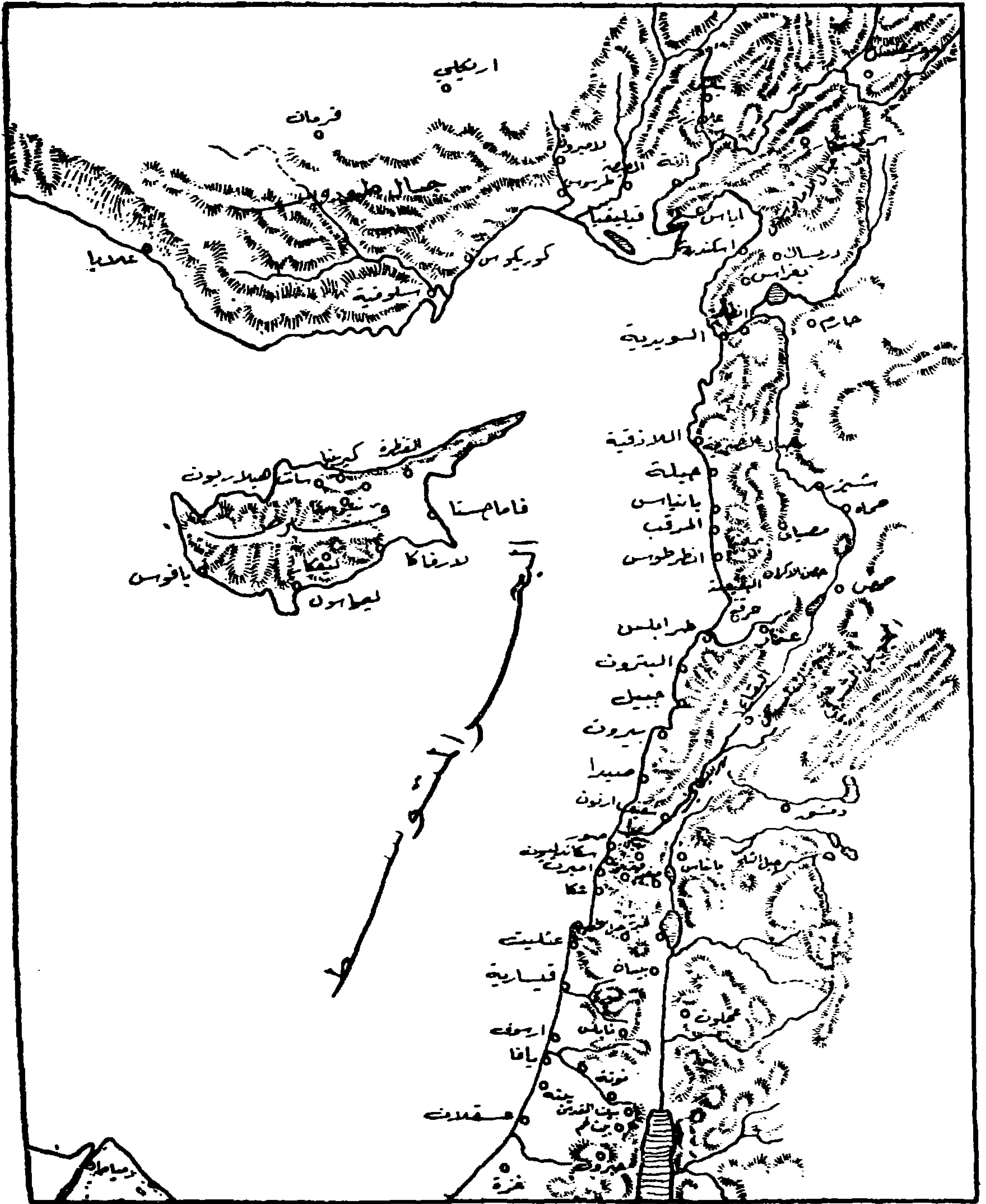
WINKELMANN, E. *Philipp von Schwaben und Otto IV von Braunschweig*, 2 vols. Leipsic, 1873–8.

WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1838.

YULE, H. *Cathay and the Way Thither*, 2 vols. Hakluyt Society, no. 37. London, 1866–7.

كشاف عام

عن أسماء الأعلام والمدن والانهار والوقائع والمصطلحات والوظائف



٥ المشرق الادنى في القرن الثالث عشر

المحتوى

الكتاب الاول

الحروب الصليبية الثالثة

الكتاب الثاني

الحملات الصليبية المنحرفة

الكتاب الثالث

المغول والمماليك

الكتاب الرابع

نهاية الشرق الفرنجي

الكتاب الخامس

الخاتمة

الملاحق

المصادر والمراجع

اللوحات ٤١٦ – ٤١٧

١ – الفارس فردريك هاوزن يخرج للاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة
٢ – الامبراطور فردريك بربروسه وولداه ، هنري السادس ، ملك الرومان ، وفردريك دوق سوابيا
٣ – صور
٤ – صيدا
٥ – هولاكو
٦ – حصن الاكراد
٧ – موضع المرتلين في كنيسة القيامة سنة ١٦٨١
٨ – كاثدرائية انطرطوس
٩ – فسيفساء تمثل المسيح
١٠ – كنيسة القديس اندرياس في عكا سنة ١٦٨١
١١ – التجربة
١٢ – التجلية
١٣ – العذراء والمسيح
١٤ – رسم مدينة عكا
١٥ – أمراء المماليك حوالي نهاية القرن الثالث عشر

الخرائط